



دراسات تاريخية

مجلة علمية فصلية محكمة



الشبيبة

للدراسات والنشر والتوزيع
دمشق - سورية

دراسات تاريخية

مجلة علمية فصلية

تعنى بالدراسات حول تاريخ العرب

تصدرها لجنة كتابة تاريخ العرب بجامعة دمشق

لجنة الإشراف

د. شاكرا الفحام المدير المسؤول

د. محمد خير فارس

د. نبيل عاقل

د. عبد الكريم رافق

د. أحمد بدر

محمد محفل

ناظم كلاس رئيس التحرير

السنة السابعة ، العددان ٢١ و ٢٢ ، آذار - حزيران ١٩٨٦

دراسات تاريخية
السنة السابعة
العددان ٢١ و ٢٢ ، آذار - حزيران ١٩٨٦

- ٥ الندوة الثانية حول مشروع كتابه تاريخ العرب
- ٩ بيان هام لاتحاد المؤرخين العرب
- ١١ ● النظام المالي في عهد الخلفاء الراشدين
د. محمد ضيف الله بطاينة
- ٤٩ ● البلقاء ، من الفتح الاسلامي حتى نهاية القرن الثالث الهجري
د. محمد خريسات
- ٨٧ ● النظام المالي عند الحفصيين
د. صالح فياض ابو دياك
- ١١٥ ● استعمال العربية في الدواوين المالية
د. فالح حسين
- ١٣٥ ● الادب في التاريخ الارامي القديم
د. محمد حرب فرزات
- ١٦٢ ● الابلائية لغة مدونة في وثائق ملكية
د. يسرى الكجك

تنويه :

- الآراء الواردة في المجلة تعبر عن وجهة نظر كاتبها
- ترتيب البحوث يخضع لاعتبارات فنية

- الاموريون في نصوص ايبلا ١٧٧
ترجمة - قاسم طوير
- وثيقة مقدسية تاريخية جديدة .. ١٨١
د. كامل جميل العسلي
- الارشيف الوطني الهندي في نيودلهي وموجوداته من وثائق العراق ١٨٧
والخليج العربي
د. مصطفى عبد القادر النجار
- كندة وعلاقتها بملوك الفرس وعمالهم ملوك الحيرة ١٩٥
محسن يونس
- جغرافية اليمن في القرن الاول للهجرة .. ٢٠٥
محمد سعيد شكري
- لمحات عن يهود الجزائر (منذ مطلع القرن ١٨ حتى ١٨٣٠) ٢٢٠
محمد دادة
- قضية الموصل وصداها في الاوساط العراقية ٢٣٧
جعفر الحياي

بدل الاشتراك السنوي : (لعام ١٩٨٦ ، ومجموعات السنوات ١٩٨١ ، ١٩٨٢ ، ١٩٨٣ ، ١٩٨٤ ، ١٩٨٥) .

للافراد : (٣٠) ل.س ثلاثون ليرة سورية او ما يعادلها .

للمؤسسات : (٥٠) ل.س خمسون ليرة سورية او ما يعادلها
(يضاف للبدل الاشتراك اجور البريد الجوي او العادي حسب
رغبة المشترك) .

البلاد الاجنبية : (١٠) عشرة دولارات اميركية (بما فيها اجور البريد الجوي) .

● يتم تسديد بدل الاشتراك بشيك مصرفي لامر : جامعة دمشق - لجنة كتابة
تاريخ العرب .

● او لتحويل القيمة الى حساب جامعة دمشق المفتوح في مصرف سورية
المركزي تحت رقم ٢٣/٣٣٢٣ .

المراسلات : لجنة كتابة تاريخ العرب
جامعة دمشق - الجمهورية العربية السورية

دراسات تاريخية

١٩٨٦ / ١ - ٢

٢١ - ٢٢

الندوة الثانية

حول مشروع كتابة تاريخ العرب

١٢ - ١٤ تشرين الاول ١٩٨٥

ان لجنة كتابة تاريخ العرب بجامعة دمشق ، وقد قطعت شوطا اساسيا في انجاز الخطوط الرئيسية لهذا المشروع على صعيد الاعداد الفكري الاول ، رأت انه من النافع عقد ندوة في رحاب جامعة دمشق من اجل عرض ما تم انجازه حتى الان ، ولتدارس تفاصيل الخطوات التنفيذية الضرورية كي ينتقل مشروع كتابة تاريخ العرب الى حيز التحقيق .

عقدت الندوة في مكتبة الاسد تحت رعاية السيد الدكتور كمال شرف وزير التعليم العالي ، وافتتحها السيد الدكتور محمد حرب فرزات بكلمة رحب فيها بالحضور ، وذكر بأن انعقاد الندوة الثانية هذه بعد مرور سنوات على انعقاد الندوة الاولى تأكيد على استمرار المسيرة نحو الهدف المنشود ، وهو كتابة تاريخ العرب برؤية عربية واقلام عربية ليخرج الى النور موسوعة عربية كاملة تتيح للأجيال الناشئة وعي تاريخ امتهم على حقيقته وصفاء رؤيتهم لحاضرها ومستقبلها الذي تصبو اليه ، تكون اسهاما متواضعا في التهيئة للوحدة العربية التي عمل من اجلها المناضلون وضحي الشهداء .

والقى السيد الدكتور عادل العوا عضو لجنة كتابة تاريخ العرب كلمة للجنة ، فاشار الى الاطار العلمي الذي يطرح فيه مشروع كتابة تاريخ العرب والمراحل التي اجتازها منذ ان كان فكرة . وبعد ان تحدث عن التاريخ عامة وأهميته وتنوع وجهات النظر في فهمه وتقويمه ، تطرق الى الفرض من كتابة تاريخ العرب وبين انها تأتي تلبية لحاجة عصرية ملحة تستهدف المعرفة للمعرفة من جهة ، ومن جهة اخرى وفي الوقت ذاته العمل بوعي واختيار ومسؤولية ، وهو هدف يشترك فيه ابناء الامة جميعا ويستجيب لتحديات ذاتية تتطلع الى تحرير الارادة القومية المبدعة ، ودعوة انسانية للاسهام في صنع تاريخ البشر القريب ، وربما البعيد ايضا . وشار الدكتور العوا في ختام كلمته الى النقاط الرئيسية في جدول اعمال الندوة ، وهي لا تخرج عن مسعى كتابة تاريخ عربي يتسم بانه قومي وحضاري وانساني .

ثم القى السيد الدكتور محمد زياد الشويكي رئيس جامعة دمشق رئيس لجنة كتابة تاريخ العرب ممثل راعي الندوة كلمة ذكر فيها بما اجتمعت عليه الاراء حول ما كتب في التاريخ العربي ، وانه لايمكن ان يعد تاريخا متكاملا لامة تشغل رقعة مسن الارض تمتد من المحيط الى الخليج ، اسهمت في اثراء الحضارة الانسانية بعباء غير محدود ، وكانت في جميع مراحل تاريخها منفتحة على كل ما هو خير . وقال الدكتور الشويكي ان عودتنا الى تاريخنا القومي يجب ان تكون عودة صادقة اصيلة ، تسير بهدي العقل وتعتمد على فهم وادراك صادقين لعلاقة ماضينا بحاضرنا ومستقبلنا ، ليكون الوعي التاريخي مصدر قوة وعامل نماء وتقدم وخلق وابداع ..

وجه الخطباء التحية والاجلال للقائد المناضل حافظ الاسد رئيس الجمهورية، راعي العلم والثقافة باني نهضة سورية المعاصرة ، التي تنعقد هذه الندوة في معلم بارز من معالمها في عهده ، مكتبة الاسد ، الصرح الثقافي الضخم الذي طال انتظارها له ، كغيره من الانجازات التي تمت في هذا العهد الميمون .

وبعد استراحة قصيرة انعقدت الجلسة العامة الاولى بحضور خمسة واربعين باحثا من القطر العربي السوري واقطار عربية ، وممثلي بعض مراكز البحث التاريخي، وطرحت فيها بعض قضايا تتناول صلب المشروع ، منها انه مشروع قومي يتوجه للافادة من امكانات المؤرخين والباحثين العرب في كل مكان ، ومدى توافر الكفاءات اللازمة له ، وتهيئة الاسباب الكفيلة بمشاركة الجامعات والمؤسسات العلمية العربية والعلماء والباحثين العرب مشاركة فعالة في تنفيذه . ومنها وجود اكثر من جهة طرحت وتطرح الفكرة كل من زاويتها الخاصة ودونما اية محاولة للتعاون والتنسيق فيما بينها ، مع عدم وجود مدرسة تاريخية عربية واحدة او وحدة في التوجه ، ومنها ضرورة اللقاءات والاتصالات المباشرة بين المؤسسات العلمية والاكاديمية العربية والعلماء والمؤرخين العرب ، واهمية التواصل الدائم المستمر واثره في توحيد الرؤية وتعبئة الطاقات ، والنشاط الاعلامي واهميته بالنسبة لمثل هذه المشروعات الكبيرة . . وقد اتفقت الاراء على ان العمل في هذا المشروع المهم عمل دائم وليس آنياً ، وهو بالتالي عمل مؤسسة دائمة ذات امكانات علمية وادارية ومادية كبيرة .

واستؤنفت الجلسة العامة في الساعة السادسة مساء ، وتركز النقاش فيها حول وضع تصور لخطة العمل ، مع النظر بعين الاعتبار الى القضايا التي طرحت في الجلسة الصباحية وتقدير اهميتها وابعادها .

دار النقاش حول احداث « هيئة عربية » تتولى الاشراف على سير العمل ومتابعته وتحديد صلاحياتها ووسائلها ، وحول المسؤولية العلمية وتوحيدها في جهة واحدة او تعددها بتعدد فترات التاريخ العربي ، والمسؤولية الادارية ومركزيتها وتوفير مستلزماتها البشرية والمادية ، وحول حصر الكفاءات العلمية العربية وكيفية تأمين

التواصل معها ، وعقد الندوات العلمية والتنظيمية وتحديد موضوعات عملها ، والامور المالية ... وتناولت المناقشات كيفية تنظيم عمليات التأليف والمراجعة والتقويم والتحرير والتنسيق ... وتحديد مسؤولياتها ، والإفادة من النشاط الأكاديمي في الجامعات التي تتبنى الفكرة ، كما تناولت الدور الذي يمكن ان تقوم به مجلة « دراسات تاريخية » في هذه المرحلة .

وقد بينت المناقشات ان الاتفاق قائم على اهداف المشروع ومنطلقاته ومبادئ العمل فيه ، وان تعددت الآراء في أسلوب العمل وتفصيلاته ، والظروف والامكانيات التي يجب ان تهيأ له . و كان التوجه العام يميل الى الجمع بين امرين : وضع خطة العمل وتكوين الاطر اللازمة للمباشرة بالتنفيذ ، والعمل في الوقت نفسه على تهيئة الظروف والمستلزمات الضرورية ، وسد الثغرات التي ابرزتها المناقشات .

وفي اليوم الثاني اجتمعت اللجان المتخصصة (لجنة التاريخ القديم ، لجنة التاريخ الاسلامي والوسيط ، لجنة التاريخ الحديث والمعاصر) كل على حدة لدراسة ما يخص كلا منها من المشروع ووضع توصياتها بشأنه .

توصيات الندوة

وفي الساعة الحادية عشرة من يوم الاثنين في ١٤/١٠/١٩٨٥ ، عقدت الجلسة العامة الختامية وانتهت الى اقرار التوصيات التالية :

أولاً : في تشكيل الاطر العلمية والادارية .

- ١ - تشكيل لجنة اشراف متخصصة لكل فترة من فترات التاريخ العربي . يكون أحد اعضائها مسؤولاً عن متابعة سير العمل .
- ٢ - تشكيل هيئة اشراف عربية عدد اعضائها من ستة الى ثمانية ، مهمتها الاشراف على سير العمل ومتابعته حتى يخرج الى حيز الوجود .
- ٣ - تتألف هيئة الاشراف من اعضاء لجان الاشراف المتخصصة ، بالإضافة الى عضوين أو أكثر من ذوي المكانة العلمية ، ويراعى في اختيار اعضائها التمثيل الجغرافي .
- ٤ - يكون لكل لجنة اشراف متخصصة مقرر بشارك في اعمال هيئة الاشراف .
- ٥ - تتألف من مقرري هيئة الاشراف واللجان المتخصصة لجنة ادارية مسؤولة .
- ٦ - يراعى في اختيار المقررين ان يكونوا من المقيمين في دمشق ، مقر المشروع .

٧ - احدث امانة دائمة للجنة كتابة تاريخ العرب بجامعة دمشق تتولى الاجراءات الادارية والتنفيذية ، وتوفير الامكانيات اللازمة لها .

٨ - توصي الندوة بالعمل على احدث هيئة علمية ذات استقلال اداري ومالي ، تتولى مسؤولية المشروع كاملة .

ثانيا : في اسلوب العمل .

١ - توثيق الصلات مع اقسام التاريخ في الجامعات العربية ومراكز البحث العلمي والتعاون معها ، والتواصل الدائم مع المؤرخين والباحثين العرب . ويتم ذلك بتحريك مدروس وبوساطة شخصيات علمية معروفة ، وعن طريق الندوات الدورية ، وتسمية ممثلي ارتباط في الجامعات والمؤسسات العلمية .

٢ - اعطاء قدر اكبر من الاهتمام للنشاط الاعلامي .

٣ - السعي للتنسيق مع مؤسسات اخرى ، في الاردن والكويت والمغرب العربي . . . وغيرها ، والافادة من تجاربها في هذا المضمار .

٤ - العمل على اعداد ببلوغرافيا تاريخية عربية .

٥ - اجراء حصر كامل للباحثين العرب وتخصصاتهم الدقيقة ، تمهيدا للاتصال بمن تراه اللجان المختصة منهم .

٦ - العمل على الافادة من النشاط الاتاديمي في الجامعات التي تتبنى الفكرة ، كتوجيه مهمات البحث العلمي لتنسيق مع مشروع كتابة تاريخ العرب ، واختيار موضوعات الرسائل التي تعد لنيل الشهادات بشكل يساعد على ملء الفجوات في ميدان التاريخ العربي .

٧ - اعداد ملفات تدور حول محاور معينة ، تنشر في مجلة « دراسات تاريخية » وتطرح المناقشة والتقويم .

٨ - تكليف باحثين بكتابة موضوعات محددة خلال فترة معينة ، وعقد ندوات متخصصة لدراسة البحوث المكتوبة وتقويمها ، والاحتفاظ بالجيد منها ليكون رصيда للمشروع ، ونشر بعضها في مجلة « دراسات تاريخية » .

٩ - حصر مسؤولية التنسيق باللجنة الادارية .

١٠ - تتولى عملية التحرير النهائي هيئة محررين من ذوي الخبرة (من ثلاثة محررين او اكثر)

١١ - يراعي في تقدير المكافآت المالية للمؤلفين والمراجعين والمحررين . . الخ ، ما درجت عليه المؤسسات والمنظمات المشابهة بالنسبة لامثالهم .

١٢ - صرف نصف المكافآت المقررة عند التكليف ، والنصف الاخر عند انجاز العمل .

١٣ - رفع التوصيات الى الجهات المسؤولة .

بيان هام لاتحاد المؤرخين العرب

اصدر اتحاد المؤرخين العرب بيانا يفضح اساليب الكيان الصهيوني في تشويه تاريخ الامة العربية ، ويدعو المؤرخين والمثقفين العرب بعامة ، في الوطن العربي وخارجه ، للوقوف في وجه الهجمة الوحشية الصهيونية الحاقدة على الامة العربية وتاريخها وتراثها ، والتي تخطط باستمرار لهدم الوجود العربي والذات العربية وتجعل من الانسان العربي متشككا في امجاد امته وحضارتها الانسانية التليدة .

جاء في البيان :

لم تعد مواجهة الكيان الصهيوني للامة العربية مقتصرة على التحدي العسكري وحده ، وانما اتجه هذا العدو الى استغلال الفكر العربي ، والنيل منه ، ومحاولة تسخير ما يصدر في هذا الكيان من مؤلفات باللغة العربية ، وخاصة الموضوعات التاريخية لخدمة اهدافه ، هذه الاهداف التي تصب في مجرى معروف هو الحقن على العرب وعلى تاريخهم وقيمهم من اجل طمس ما قدمته الحضارة العربية لحركة الانسان على الارض من معطيات في الماضي وتعطيل كل دور حضاري يمكن ان يقوّم به العرب في الوقت الحاضر .

ومن هنا تقع على عاتق المؤرخين العرب مسؤولية الانتباه لما يصدر عن الكيان الصهيوني في فلسطين من منشورات ومطبوعات تخص القضية العربية عموما ، والتاريخ خصوصا ، وذلك بدراسته دراسة واعية عميقة ، واكتشاف ما فيه من سموم حاقة وافكار مريضة تبثها دور النشر الصهيونية لضرب الفكر العربي في الصميم .

ان الكيان الصهيوني يعني عناية كبيرة بالدراسات المتعلقة بالوطن العربي والعالم الاسلامي ، وقد اخذت الجامعات الصهيونية على عاتقها توجيه البحوث والدراسات نحو قضايا تباشر التاريخ العربي والاسلامي في كثير من ابوابه ومنافذه ، وهي في سبيل تحقيق هذه الغاية راحت تتابع بشكل دقيق كل ما يصدر عن الوطن العربي من مؤلفات وبحوث ودراسات وتجميعها وتحليلها ، لتعطيل كل ما فيها من معطيات تخدم الحقيقة التي يعززها التاريخ وتسندّها الحقائق ، وذلك بطرح اراء ودعاوى باطلة من لدن الكتاب والباحثين اليهود ، تفسد الاوجه المشرقة في التفكير العربي قديما وحديثا .

ان الاعمال اليهودية التي تنشر في الوطن الفلسطيني المحتل تحتاج من المؤرخين العرب وقفة جدية لتجميعها ودراستها وتحليلها خدمة لمرحلة الحسم القادمة مثلما يفعل الكيان الصهيوني نفسه .

ومن اجل ذلك ترى الامانة العامة لاتحاد المؤرخين العرب ان الضرورة الواقعية والحضارية للامة العربية تقتضي ضرورة العناية الفصوى من لدن اقسام التاريخ في الجامعات العربية ومراكز البحث العلمي وكل المثقفين العرب ، بالنتاج الفكري وخاصة انتاريخي اليهودي المنشور في الارض المحتلة ، او عن مؤرخين يهود مكشسين جنسيتها، وينشرون اعمالهم في دول عربية ، فتسمى بكل حرص الى الوصول الى كل ما يصدر منه ، ومن ثم احالته الى اتحاد المؤرخين لدراسته من قبل متخصصين بالدراسات الاسرائيلية للوقوف على ما فيه من افكار تزيف الحقائق وتشويه الوقائع . وما هذا العمل الا تأكيد الاهتمام بالقضية المصيرية للامة العربية التي نرى ان من مصلحتها فهم العقلية الصهيونية وسبلها في معالجة القضايا والاحداث التي مرت وتمر بها المنطقة العربية اليوم .

ويختتم البيان :

واننا اذ نوجه الدعوة للمؤرخين العرب كافة فانما ندعوهم الى ان يكونوا يدا واحدة من اجل الوقوف امام الزحف الاستعماري الثقافي الخطير .

وما النصر الا من عند الله «**وقل اعمالوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون**» .

صدر عن الامانة العامة لاتحاد المؤرخين العرب في غرة جمادى الاخر من عام ١٤٠٦ هـ ، الموافق اليوم الرابع عشر شهر شباط ١٩٨٦ .

ر. مصطفى عبدالقادر النجار

الامين العام لاتحاد المؤرخين العرب

النظام المالي في عهد الخلفاء الراشدين

د. محمد ضيف الله بطاينة
جامعة اليرموك

انطلقت حركة الفتوح في خلافة ابي بكر نحو العراق والشام ، وحقق المسلمون في هذا الوجه نجاحا اوليا اسفر عن عقد معاهدات صلح مع بعض المدن والقرى في هذه البلاد ، فصالحت الحيرة عام ١٢ هـ على سبعين الف درهم ، وقيل مائة الف درهم (١) ، وقيل الف درهم ورجل (٢) ، وحمل الخمس من ذلك الى المدينة فكان اول مال يحمل الى المدينة من العراق (٣) . وصالحت من العام نفسه التيس على الف دينار (٤) ، وباتقيا على الف درهم وطيلسان (٥) ، واهل نهر المراء في الابلسة على اثني عشر الف درهم (٦) ، واهل الانبار وعين التمر على شيء عليهم (٧) ، وصالحت بصرى الشام ، وبعث خالد بالاخماس الى ابي بكر ، وكانت اول مدينة فتحت بالشام (٨) .

ثم جاءت الفتوح العظيمة بعد وفاة ابي بكر في خلافة عمر بن الخطاب ، ففتحت بلاد الشام والعراق ، وجاوزتها الى البلاد الواقعة الى شرق العراق وشماله وجنوبه ، وفتحت مصر ، وبلغت في خلافة عثمان بلاد سجستان وخراسان من الشرق ، وارمينية واذربيجان من الشمال ، وبلاد افريقية من الغرب .

والذي نلاحظه بخصوص البلاد المفتوحة ، ان المصادر التاريخية والفقهية تصنفها عند الحديث عنها ، الى بلاد فتحت عنوة ، وبلاد فتحت صلحا ، والتميز الذي يتضمنه هذا التصنيف ، ان البلاد التي فتحت عنوة ، وضعت عليها ضريبة مالية على

الرؤوس (جزية) ، وضريبة مالية على الارض (خراج) (٩) ، ويكون بمقدور ولاية امر المسلمين أن يعدّوا ، بلا حرج ، وضع هذه الضرائب المالية وفق المعطيات المتجددة . اما البلاد التي فتحت صلحا فان العلاقة المالية بينها وبين المسلمين محدودة بالعهود والعقود ، وثابتة في الغالب ، وتتمثل عادة بضريبة مالية اجمالية واحدة .

ومعرفة البلاد التي فتحت عنوة ، والبلاد التي فتحت صلحا امر غير متيسر تماما (١٠) ، فالاختلاف بين الروايات حول ما فتح عنوة ، وما فتح صلحا قائم ، فالبلد الفلاني في رواية فتح صلحا ، وفي رواية ثانية فتح عنوة ، وأحيانا فتح عنوة أو صلحا (١١) . ولعل فتح البلد غير مرة ، والاختلاف في مقدار الضرائب وأنواعها في البلاد المفتوحة من العوامل المسؤولة عن ذلك . قيل فتحت بلاد الشام عنوة دون مدنها التي فتحت صلحا (١٢) ، وفتح السواد في العراق عنوة (١٣) ، باستثناء قرىات فتحت صلحا (١٤) ، وحدّ السواد في العراق طولا من تخوم الموصل مادام مع الماء الى ساحل البحر ببلاد عبادان من شرق دجلة ، وحده عرضا من منقطع الجبل من أرض حلوان الى منتهى طرف القادسية المتصل بالعذيب من أرض العرب (١٥) .

وفتحت الاهواز وفارس واصبهان وافريقية عنوة (١٦) ، وصالحت الري ، وكرمان ، وسجستان ، وخراسان ، وانطابلس وطرابلس وهما من بلاد ليبيا اليوم (١٧) . وقيل فتحت مصر صلحا ، وقيل فتحت عنوة ، وقيل فتحت صلحا عدا الاسكندرية (١٨) ، وفتحت الجزيرة صلحا وقيل فتحت عنوة (١٩) .

وبعد ان اطمأن المسلمون في الشام والعراق وبخاصة بعد معركة اليرموك التي جرت على أرض الشام عام ١٥ هـ ، ومعركة القادسية التي تلتها مباشرة على أرض العراق ، أثرت قضية الأرض في هذه البلاد المفتوحة ، ويبدو من المناقشات التي دارت بين الصحابة بشأن هذه القضية ، ان قسمة الأرضين بين الجند الغانمين نحو ما كان يصنع من قبل بغنائم الحروب السابقة ، كان مما يظنه عامة المسلمين (٢٠) ، ولكن عمر بن الخطاب وبعض الصحابة (٢١) لم يروا هذا الرأي ، وابقوا الأرض بيد من كان يعملها على خراج يؤدونه عنها .

أثار موقف عمر بن الخطاب من الأرض المغنومة ، وعدم توزيعها بين الغانمين اهتمام الباحثين من مؤرخين وفقهاء ، وذهبوا في ذلك مذاهب شتى ، فمنهم من رأى استثنائا بفعل عمر بن الخطاب ، ان لولي الامر الخيرة في ذلك ، ان شاء قسم الأرض ، وان شاء حبسها على المسلمين عامة ولم يقسمها (٢٢) ، ومنهم من رأى ان عمر بن الخطاب عندما وقف الأرض المغنومة ولم يقسمها بين الغانمين انما استطاب نفوسهم على نحو

ما استطاب الرسول (ص) نفوس من صار في ايديهم سبي هوازن بحنين ، وعلى نحو ما استطاب عمر بن الخطاب نفس جرير بن عبد الله البجلي واعطاه ثمانين ديناراً عوضاً عن حقه في ارض السواد (٢٣) .

وقد يكون للاوضاع العامة في هذه المرحلة المبكرة من الفتوح اثر في اتخاذ هذا القرار لتأليف اهل البلاد المفتوحة ، وقطع مظاهرتهم للاعداء من الفرس والبيزنطيين ، واعمار الارض (٢٤) ، هذا الى ما كان من الحرص على ضرورة بقاء المسلمين امة مجاهدة ، وخوف الفتنة بينهم لو قسمت الارض (٢٥) ، ولما هم عليه من ضعف الخبرة بامور الزراعة وقلة العدد بالنسبة لاهل البلاد المفتوحة (٢٦) ، واحتج عمر بن الخطاب لموقفه بقوله تعالى : « وما افاء الله على رسوله منهم ... الى قوله تعالى ... والذين جاءوا من بعدهم » (٢٧) ، وهداه فهمه لهذه الايات الى ان جعل للمسلمين وحتى يوم القيامة حقا في هذه الارض (٢٨) .

ومهما تنوعت الاقوال والآراء بشأن موقف عمر بن الخطاب ، فان القرار وفق الى ايجاد مورد مالي ثابت يصرف منه على الجند ، ويدفع منه العطاء والارزاق ، وينفق منه على ادارة مصالح الدولة ، ويعطى منه المحتاجون على الدوام (٢٩) . وصار هذا الحل منهجاً عاماً اتبعه ولاة الامر في معاملة الارضين التي فتحت عنوة من بعد .

وضع الضرائب وتقديرها في البلاد المفتوحة :

يلاحظ المتتبع لحركة الفتوحات في هذه البلاد ان المسلمين كانوا في المرحلة المبكرة من الفتح يأخذون من اهل البلاد مؤونة عينا رزقا لهم ، ومقدارا من المال نقداً . والروايات في موضوع الاموال النقد التي كان يأخذها المسلمون على جانب من المبالغة كبير ، واضرب على ذلك مثالين اولهما : لما جاء رسول عتبة بن غزوان من منطقة البصرة الى عمر بن الخطاب في المدينة ، اكبّ الناس عليه يسألونه عن المسلمين هناك فقال : ان المسلمين يهيلون بها الذهب والفضة هيلاً (٣٠) ، وكان مقدار ما اصابه المسلمون في الابل التي قيل ان المسلمين اصابوا فيها الذهب والفضة ، ستمائة درهم ، فأخذ كل رجل درهماً (٣١) . وثانيهما : نذكر مدينة حمص مثالا من بين مدن الشام ، قيل انها صالحت على مائة الف وسبعين الف دينار (٣٢) ، ولكن لما قدم عمر بن الخطاب الجابية دفع امراء الاجناد اليه ما اجتمع عندهم من الاموال ، فقسم عمر بين الغانمين حظهم منها ، فنال الرجل منهم نصف دينار ان كان اعزبا ، وان كانت معه امراته ناله دينار (٣٣) ، هذا ولا يتجاوز عدد المسلمين في جبهة الشام آنذاك الثلاثين الفا اعتمادا

على الروايات التي تذكر عدد المسلمين الذين وجهوا في الجيوش والامدادات الى بلاد الشام .

ولما استقر المسلمون في هذه البلاد ، صار تنظيم الحقوق والواجبات المالية المترتبة على هذه البلاد حاجة لازمة وضرورة قائمة . وبخصوص الواجبات المالية التي وضعت على البلاد المفتوحة ، يذكر يوليوس فلهوزن ان المسلمين وضعوا اتاوة واحدة اجمالية لا اكثر في البلاد التي فتحت عنوة والبلاد التي فتحت صلحا ، ولم يكن يهمهم سوى حمل هذه الاتاوة الى بيت المال (٣٤) ، غير ان الاتاوة في البلاد التي فتحت صلحا ، قدرت بحسب الشروط التي نص عليها في كتاب الصلح ولا يجوز تغييرها على الهوى (٣٥) ، ويرفض فلهوزن وجود ضربتين منفصلتين في هذه البلاد اسمهما « جزية وخراج » (٣٦) طيلة القرن الهجري الاول ، ويرى ان لفظي « جزية وخراج » ظلا مترادفين لاكثر من قرن ، ويطلقان بنفس المعنى على الاتاوة التي فرضها العرب على البلاد المفتوحة ، ولم يكن لهما مدلول ضرائب حقيقية حتى حوالي منتصف القرن الثاني الهجري عندما اتخذ كل من لفظي خراج وجزية لأول مرة معنى محددا من معاني الضرائب الحقيقية : جزية بمعنى ضريبة الرأس وخراج بمعنى ضريبة الارض ، وكان ذلك في عام ١٢١ هـ ، عندما اصدر نصر بن سيار والي خراسان قرارا يقضي بان يؤدي الناس جميعا ضريبة الارض (الخراج) ويؤدي غير المسلمين ضريبة الرأس (الجزية) . واتهم فلهوزن لذلك الفقهاء والمؤرخين المسلمين الذين لم تطاوع اقوالهم ما ذهب اليه ، اتهمهم بنسبة نظم عصرهم الى ايام الرسول (ص) والخلفاء الراشدين حتى يحيطوها بجو من التبجيل والاحترام (٣٧) ، وأيده في ذلك بكر وكايتاني . ويقول كايتاني بخصوص ذلك : انه نظام (نظام الاسلام ونظام الاقتصاد منه) مثالي ، ولد ونشأ في معظمه خارج الحياة الواقعية ، وكان خلقا صنعته الدراسة والمدارس الفقهية ، ولا يتفق الا قليلا مع النظم التي كان الناس يسرون عليها بالفعل في الحياة اليومية للجماعة الاسلامية ، ويتهم الفقهاء بأنهم زيفوا ما جاء عن اصول النظم الاولى ، وحاولوا ان يثبتوا ان الدولة في عهد الرسول (ص) والخلفاء الأول كانت الامور تجري فيها دائما بالشكل الذي تصوره وارادوه (٣٨) .

ولكن دينيل دينيت انكر عليهم ذلك ، وقال لدينا نصوص قاطعة صريحة شديدة الوضوح ، تقول ان المسلمين قرروا شيئا بعينه في مصر ، وشيئا آخر في سورية ، وشيئا ثالثا في العراق ، وشيئا يختلف عن هذا كله في خراسان (٣٩) . وان لفظي « جزية وخراج » ليسا مترادفين على الاطلاق ، وان لكل من اللفظين معنى عاما ومعنى خاصا ، اما المعنى العام فلا يعدو ما تفيده كلمة ضريبة بشكل عام دون تحديد او تخصيص ، فاذا استعمل اللفظ بهذا المعنى العام وقصد به ضريبة بعينها ، فان ما يليه من عبارة

هو الذي يحدد أي ضريبة قصدها صاحب النص الذي بين أيدينا ، وبذلك فان جزية على الرأس تعني ضريبة على الرأس ، وان جزية على الأرض تعني ضريبة الأرض . وقل الشيء نفسه مع كلمة « خراج » ، فالى جانب المعنى العام ، كان لكل من الجزية والخراج معنى خاص ، فالجزية كانت تعني ضريبة الرأس ، والخراج كان يعني ضريبة الأرض (٤٠) . وتمكن دينيل دينيت بهذا الفهم اللفظي « جزية وخراج » من تذليل الصعوبات التي تعترض القارئ لدى مطالعته للروايات التاريخية التي تدور حول موضوع الجزية والخراج ، وتقديم صورة متماسكة لاتبعد أقوال الفقهاء فيها عن واقع الحياة العملية للمجتمع الاسلامي .

وسنتناول موضوع تنظيم الضرائب في كل بلد على انفراد :

في العراق :

احتاج المسلمون بعد فتح العراق الى تنظيم امور المال فيه ، وجباية الاموال الموظفة عليه بطريقة ميسورة ، ذكر ابو هلال العسكري رواية عن المدائني ، وعن غيره برواية جمعية قال : لما ظهر المسلمون على السواد وفارس لم يعلموا كيف يصنعون بالخراج وجباية اهل الذمة ، وكان سعد يستعمل العامل على طسوج (الناحية) ، فيأتيه بما يجد ولا يدري كيف يعمل (٤١) ، فلما زال الخطر الفارسي وبخاصة بعد معركة نهاوند التي جرت عام ٢١ هـ ، وتوطدت اركان الحكم الاسلامي في العراق ، تيسر لعمر بن الخطاب ان يقوم بتنظيم امور السواد (٤٢) ، فكتب الى عثمان بن حنيف ، وحذيفة بن اليمان اللذان كان جعلهما على سواد العراق ، ان يبعثا اليه بنفر من الدهاقين ، فلما حضروا ، سألهم عمر عما كانت ملوك الفرس تستعمله في جباية الخراج (٤٣) .

وكان ملوك فارس قبل انوشروان يقاسمون الناس على ثمارهم وغلاتهم على النصف والثلث والربع والخمس الى العشر على قدر قرب الضياع من المدن ، فأعاد قباذ بن فيروز النظر في ذلك ، وأمر بمساحة الأرض وعدد النخل والشجر واحصاء الجمال لوضع تقدير للضرائب جديد ، ومات قبل ان يتم العمل ، فاستتمه انوشروان ، ووضع الخراج على الحنطة والشعير والكرم والرطب والنخل والزيتون والأرز على كل نوع من هذه الأنواع شيئاً معلوماً ، ووضع الجزية على الناس ضمن أربع فئات هي : ١٢ درهماً ، ٨ دراهم ، ٦ دراهم ، ٤ دراهم ، واسقطها عن أهل البيوتات ، والمرابذة ، والاساورة ، والكتاب ، ومن كان في خدمة الملك ، ومن لم يأت له عشرون سنة ، او جاوز الخمسين سنة ، ومن كان فقيراً او زمناً ، وامر ان يجبى ذلك في ثلاثة انجم من

السنة (٤٤) . فانتفع عمر من هذا الذي كان فعله الا كاسرة (٤٥) ، ومسح السواد واستثنى من المساحة كل تل وأجمة ، ومستنقع ماء ، ولما لا يبلغه الماء (٤٦) ، فبلغت المساحة ستة وثلاثين الف الف جريب (الجريب يعادل ٢٤٠٠ م^٢) ، فوضع على كل جريب عامر او غامر يناله الماء ويطاق زرعه درهما وقفيزا من حنطة او قفيزا من شعير (٤٧) ، واعفيت المساكن والدور من الخراج ولم يجعل عليها شيئا (٤٨) .

ويبدو أن تعديلا طرا على التقدير الاول للخراج بعد عام ٢٢هـ (٤٩) ، اتخذ نوع المحصول اساسا في التقدير مراعاة للاختلاف بين الغلات والتفاضل بينها في القيمة (٥٠) ، فوضع على جريب الكرم عشرة دراهم ، وعلى جريب النخل ثمانية دراهم ، وعلى جريب القصب ستة دراهم ، وعلى جريب البر أربعة دراهم ، وعلى جريب الشعير درهمين ، وعلى جريب الزيتون اثنا عشر درهما ، هذا الى غلات أخرى ، واختلافات في المقادير التي فرضت خراجا على هذه الغلات (٥١) ، اختلافات ترجع في الغالب الى التباين في الخصوبة بين المناطق المختلفة من أرض السواد ، والتمايز بين ثمار وغللات النوع الواحد من المحصول ، وقرب الارضين والضياح من الاسواق وبعدها (٥٢) . وظل اتخاذ الغلات اساسا لتقدير الخراج على الارض الى زمان علي بن ابي طالب ، اذ امر عامله على بعض الرساتيق والقرى التي يسقيها الفرات ، ان يضع على كل جريب زرع قمحا زراعة كثيفة درهما ونصفا وصاعا من طعام ، وعلى كل جريب وسط درهما ، وعلى كل جريب رقيق الزرع ثلثي درهم ، وعلى الشعير نصف ذلك ، وعلى الجريب من بساتين النخل والشجر عشرة دراهم ، وعلى جريب الكرم اذا امت عليه ثلاث سنين ودخل في الرابعة واطعم عشرة دراهم ، واعفى كل نخل شاذ عن القرى يأكله من مر به ، واعفى الخضروات مثل المقائي (٥٣) .

واستثنى من السواد ولم يعامل معاملة الخراج ، كل ارض كانت للأسرة الحاكمة (كسرى وآل بيته) ، وارض من قتل في الحرب او هرب ، وارض المعابد ، وكل مفيض ماء (المكان المنخفض الذي يجتمع فيه الماء) ، فصيرت صوافي (٥٤) تعود ملكيتها للدولة ، وترك امر استغلالها الى نظر الخليفة يديرها بما هو انفع للمسلمين وببيت مالهم . وكان من يستغلها يؤدي ضريبة عنها خراجا ان كان ذمة ، او عشرا ان كان مسلما (٥٥) ، وقيل بلغت غلتها في خلافة عمر بن الخطاب سبعة الاف الف درهم (٥٦) .

كما استثنى من معاملة السواد اراضي البلاد التي صالحت ، كالحيرة وبعض قرى الفرات ، وهي قليلة نسبيا ، وتركتم يملكها اصحابها ، ويؤدون ما صولحوا عليه (٥٧) .

أما بالنسبة للناس في السواد ، فقد تجاذبتهم في البقاء فيه ، أو الجلاء عنه ، أحوال الحرب بين المسلمين والفرس من المد والجزر والامان على النفوس وغيرها ، ويذكر أن المسلمين دعوا من جلا من أهل السواد الى الاسلام والرجوع ، أو الجزاء ولهم الذمة والمنعة ، فتراجعوا على الجزاء والمنعة ، ولم يبق غربي دجلة الى أرض العرب سواذي الا أمن واغتبط بملك الاسلام ، وصار لهم عهد(٥٨) ، واحصوا وختموا في رقابهم ، وهو عمل يشبه اصدار الوثائق الشخصية(٥٩) (الهويات وجوازات السفر وامثالها اليوم) وبلغ من ختم عثمان بن حنيف خمسة مائة الف وخمسين الفا(٦٠) ، واخذوا بالجزية ، واسقطت عن النساء والصبيان(٦١) .

وبخصوص الجزية ، قيل ان عمر بن الخطاب أخذ أهل السواد بخراج كسرى ، وكان خراج كسرى على رؤوس الرجال على ما في ايديهم من الحصة والاموال(٦٢) ، وفرض على كل رجل منهم اربعة وعشرين درهما(٦٣) ، وقيل أخذ من كل رجل منهم اربعة دراهم في الشهر أي ما يساوي ثمانية واربعين درهما في السنة(٦٤) . والاختلاف في هذه الروايات وامثالها قد يكون اشارة الى احوال التنظيم الذي خضع له تقدير الجزية ، ويبدو أن سلم تقدير الجزية انتهى الى اتخاذ درجات ثلاث هي :

أهل اليسار ، ويدفع كل رجل منهم ثمانية واربعين درهما ، ومتوسطو الحال ، ويدفع كل رجل منهم اربعة وعشرين درهما ، ويدفع كل رجل كان من دون هذين الصنفين اثني عشر درهما(٦٥) . وروي عن علي بن ابي طالب أنه أمر في خلافته ان يؤخذ من أهل الذمة من كل رجل من الدهاقين الذين يركبون البراذين ، ويتختمون بالذهب ثمانية واربعين درهما ، ومن اوسطهم من التجار من كل رجل اربعة وعشرين درهما في السنة ، ومن الاكره (الفلاحين) وسائر من بقي منهم من كل رجل اثني عشر درهما(٦٦) ، مما يشير الى سريان مفعول هذا التصنيف زمان الخلافة الراشدة .

واشتملت العهود التي اعطيت لهم ، اضافة الى الجزية ، على تقديم بعض الخدمات كأصلاح الطرق ، والجسور ، والقناطر ، وارشاد الضال من المسلمين المسافرين ، والضيافة لابن السبيل منهم يوما وليلة ، لا يتعدى ما عندهم من طعام أو علف ، واذا حبسه مطر أو مرض انفق من ماله(٦٧) .

وأولت مهام جباية الاموال في السواد الى موظفين ، كان الخليفة يعينهم في كل من الكوفة والبصرة ، اطلق عليهم عمال الخراج(٦٨) . وكان هؤلاء الموظفون ، وهم مسلمون ، يستعينون في اداء وظيفتهم ب « الدهاقين » الذين كانوا يقومون بوظيفة الجباية زمان الاكاسرة . وكان عمال الخراج يتركون ما على أهل القرية من الاموال للدهقان ليقوم الدهقان بجبايتها وتسليمها لهم(٦٩) .

بلغت الجباية السنوية للسواد في خلافة عمر بن الخطاب ثمانين مليون درهم ، ثم ارتفعت الى مائة مليون درهم (٧٠) ، وقيل اكثر ، وبلغت في خلافة عثمان بن عفان مثل ذلك (٧١) . والاختلافات في مقادير الجباية ، يشير الى احوال تنظيم الجباية والزيادة في الزراعة (٧٢) . ومما يجدر ذكره ان هذه الارقام المذكورة كانت تمثل مجموع الاموال النقد وقيمة الاموال العينية ، فقد مر سابقا ان الضرائب المفروضة على الارضين كانت نقدا وعينا ، وروي عن عمر بن الخطاب ، انه كان يأخذ في الجزية من اهل كل صناعة من صناعتهم بقيمة ما يجب عليهم ، وكذلك كان علي بن ابي طالب يفعل ، فكان يأخذ الجزية من اصحاب الابر الابر ، ومن اصحاب المسال المسال ، ومن اصحاب الحبال الحبال (٧٣) .

الشام :

يلاحظ ان المسلمين كانوا يأخذون في المرحلة الاولى من فتح الشام اموالا نقدا وعينا رزقا لهم . ويظهر هذا في صلح بصرى الشام التي صالح اهلها خالد بن الوليد على ان يؤدوا عن كل حالم ديناراً وجريب حنطة . وعلى مثل صلحهم صالح اهل مآب من ارض البلقاء ، واهل اذرعات من ارض البثنية (٧٤) ، كما صالح اهل دمشق على ان يؤدي كل رجل منهم دينارا وجريب حنطة وخلا وزيتا لقوت المسلمين (٧٥) .

ويبدو لما استقر فتح الشام ، بدأ المسلمون تنظيم العلاقة المالية مع اهل البلاد ، ففرض عمر بن الخطاب الجزية على الرجال والخراج على الارض ، وذكر البلاذري ان صاحب بصرى الشام جاء عمر بن الخطاب في اثناء زيارة الاخير للشام ، فذكر له انه كان صالح المسلمين على طعام وزيت وخل ، فسأل عمر ان يكتب له ، فكذب ابو عبيدة صاحب بصرى وقال : انما صالحناه على شيء ينتفع به المسلمون لمشتاهم ، ففرض عليهم الجزية على الطبقات والخراج على الارض ، وجعلت الجزية في رقاب اهل الدمة ، والخراج على الارض ، في فلسطين والاردن وباقي بلاد الشام (٧٦) .

ويخصوص الجزية على رؤوس اهل الدمة ، جعل عمر على اهل الورق منهم على كل رجل اربعين درهما ، وعلى اهل الذهب اربعة دنانير ، وصيرهم طبقات لغنى الفنى ، واقلال المقل ، وتوسط المتوسط ، أي اربعين وعشرين وعشرة من الدراهم ، واربعة واثنين وواحدا من الدنانير . ويروى عن الاوزاعي بهذا الخصوص ان الجزية بالشام ، كانت في بادىء الامر جريبا ودينارا على كل جمجمة ، ثم وضعها عمر على اهل الذهب اربعة دنانير ، وعلى اهل الورق اربعين درهما ، وجعلهم طبقات لغنى الفنى ، واقلال المقل وتوسط المتوسط (٧٧) .

واذا قدرنا سعر الصرف للدينار الواحد باثني عشر درهما ، تكون طبقات الجزية في بلاد الشام ثمانية واربعين ، واربعة وعشرين ، واثنى عشر من الدراهم ، واربعة ، واثنين ، وواحدا من الدنانير ، وهو ما يشبه حال الجزية على اهل الذمة في العراق .

وقد تكون الارزاق التي قدرها عمر بن الخطاب للمسلمين في بلاد الشام على اهل الذمة من اهل الرساتيق والريف ، تمثل الخراج الذي وضع على الارضين ، حيث ذكرت الروايات ان المسلمين وضعوا الجزية على اهل الذمة في الشام ، وجعلوا على اهل الرساتيق والريف ارزاق المسلمين من الحنطة والزيت : مديان من الحنطة وثلاثة اقساط زيتا في كل شهر لكل انسان ، وشيئا من الودك (الدهن) والعسل ، وضيافة من نزل بهم ثلاثا ، يأكل الضيف مما يأكلون ولا يكلفهم ذبح شاة ولا ذبح دجاجة ، وان عليهم ارشاد الضال ، وان يبنوا القناطر من اموالهم (٧٨) .

الا ان بعض المناطق في الشام كان لها اوضاع مختلفة ، فروي ان اهل اللاذقية صالحوا على خراج يؤدونه ان قلوا او كثروا (٧٩) ، وصولح اهل السامرة وهم يهود ، على جزية رؤوسهم ، واعفوا من خراج الارض ، لانهم كانوا عيونا وادلاء للمسلمين على البيزنطيين (٨٠) .

وبخصوص الارزاق للمسلمين ، جاء تقديرها على اساس ما يكفي الواحد من المؤونة في الشهر . ويذكر ابن عساكر بخصوص ذلك ، ان عمر بن الخطاب ، في اثناء زيارته للشام ، دعا (ابن قاطورا) صاحب الارض ، فدبر معه مقدار ما يكفي الرجل الواحد في الشهر ، فوجد انه يكفيه مديان من قمح ، وقسط زيت ، وقسط خل ، فأمر عمر بذلك (٨١) .

وورود اسم (ابن قاطورا) صاحب الارض في خبر ابن عساكر ، اشارة الى استعانة المسلمين بغيرهم في امور الخراج في الشام ، على نحو ما استعانوا بالدهاقين في سواد العراق .

اما الاراضي التي كانت زمن البيزنطيين من الضياع الامبراطورية ، والملكيات الصغيرة ، والضياع الخاصة وامثالها (٨٢) من تلك التي هرب قوامها والمشفون عليها وملاكوها ولحقوا بالبيزنطيين ، او قتلوا في المعارك ، فانها صيرت من « الصوافي » ، وجعلت الى نظر الخليفة مثل صوافي السواد في العراق ، وكان من صوافي الشام ، اندركيسان بدمشق ، وقبيس بالبلقاء ، وجيعانا على باب حمص (٨٣) .

وبخصوص جباية الشام فالمقدار غير متيسرة معرفته زمن الخلفاء الراشدين ، الا ان نعتد بما ذكره اليعقوبي عن جباية الشام في خلافة معاوية بن ابي سفيان التي بلغت قرابة مليون ونصف دينار (٨٤) ، وبلغت في خلافة هارون الرشيد مثل ذلك ، اي مليون ونصف دينار ، اضافة الى ثلاثمائة ألف رطل من الزبيب (٨٥) ، في حين انخفضت في خلافة المأمون الى سبعمائة وخمسة وسبعين ألف دينار (٨٦) . ويبدو ان ذلك الانخفاض يعود في بعض اسبابه الى الحرب الاهلية التي وقعت بين الامين والمأمون .

الجزيرة :

كانت الجزيرة تخضع في بعضها الذي يقع شمال العراق لسلطان الساسانيين ، وتخضع في بعضها الاخر الذي يقع شمال الشام لسلطان البيزنطيين . فلما فتحت الشام ، توجه عياض بن غنم الى فتحها ، فحاصر مدينة الرقة حتى طلب بطريقها الامان منه ، فاجابه عياض الى ذلك ، وأقر الارض في ايديهم على الخراج ، ووضع الجزية على رقابهم ، ديناراً في كل سنة على كل رجل منهم ، وجعل عليهم مع الدينار أقفرة من قمح ، وشيئاً من زيت وخل وعسل (٨٧) .

ويبدو انه على مثل هذا الصلح ، اضافة الى ارشاد الضال واصلاح الجسور والطرق ، عوملت مدن الجزيرة : الرها ، وحران ونصيبين ، وميافارقين ، وقرقيسيا ، وآمد ، وحصن ماردين ، ودارا ، وغيرها من مدن الجزيرة (٨٨) .

ولما فتحت عانات وسائر حصون الفرات ، اراد عمير بن سعد الانصاري من كان هناك من بني تغلب على الاسلام فأبوه ، وهموا بالحقاق بارض السروم ، فصالحهم المسلمون على ان اضعفوا عليهم الصدقة التي تؤخذ من المسلمين في كل زرع وماشية ومال (٨٩) .

استمر اخذ المال النقذ والمواد الغذائية من اهل الجزيرة فترة ، ثم خفف عمر بن الخطاب عنهم ، وقومها جميعاً مالا نقداً وجعلها على الطبقات : ٤٨ ، ٢٤ ، ١٢ من الدراهم ، او ١،٢،٤ من الدنانير (٩٠) . وتداول الدراهم والدنانير في الجزيرة يعود الى خضوع بعض الجزيرة لحكم الساسانيين وعملتهم الدراهم ، وخضوع بعضها الآخر لحكم البيزنطيين وعملتهم الدنانير (٩١) .

ومبلغ جباية الجزيرة في السنة زمن الخلفاء الراشدين غير مذكور ، ولكن اليعقوبي يذكره في خلافة معاوية بين ابي سفيان بخمسة وخمسين مليون درهم (٩٢) ، وهي اشارة تدل على خصوبة المنطقة وثرواتها الوفيرة .

مصر :

فرض عمرو بن العاص في اثناء دخوله مصر عام ١٩ هـ الجزية على أهل (ام دين) ديناراً لكل رجل من اصحابه ، وجعل مع الدينار جبة وبرنسا وعمامة وخفين لكل واحد منهم (٩٢) .

وبعد ان تم فتح حصن أليونة (الفسطاط) ، أقر عمرو أهله على انهم ذمة ، ووضع الجزية في رقابهم والخراج في ارضهم (٩٤) .

ويبدو ان البلاد من حول أليونة ، دخلت فيما دخلت فيه أليونة ، فقليل ان صاحب أليونة ، لما فرغ من امر الاتفاق عن مدينته مع عمرو ، صالح عن جميع أهل مصر على مثل صلح مدينته (٩٥) . الا ان حسم الموقف في مصر جاء من الاسكندرية معقل البيزنطيين الاخير في مصر ، ومركز تجمعهم بعد فتح أليونة ، فلما هزم البيزنطيون في المرة الاولى عام ٢١ هـ ، والثانية عام ٢٣ هـ وعجزوا عن الاحتفاظ بالاسكندرية فضلا عن استعادة مصر ، صارت مصر كلها في سلطان المسلمين .

وبالرغم مما جاء عن الاسكندرية وبعض قرى مصر مثل : سلطيس ، ومصيل ، وبليهب ، التي عاندت المسلمين وساندت البيزنطيين ، وقيل فتحت عنوة ، وان لاهد ولا عقد لها ، فان الروايات تكاد تكون متشابهة في ذكر الفرائض المالية التي وضعت على مصر .

ففي رواية ، قيل ، كان صلح أهل مصر دينارين على كل انسان جزية وارزاق المسلمين (٩٦) .

وفي رواية ثانية ، قيل ، كانت مصر كلها صلحا بفريضة دينارين دينارين ، على كل رجل ، لا يزداد على أحد منهم في جزية رأسه أكثر من دينارين ، الا انه يلزم بقدر ما يتوسع فيه من الارض والزرع (٩٧) . والاشارة الاخيرة في هذه الرواية تقوم مقام الارزاق للمسلمين التي ذكرت في الرواية الاولى .

وفي رواية اخرى ، قيل أقر عمرو بن العاص أهل مصر على انهم ذمة ، ووضع الجزية في رقابهم ، والخراج في ارضهم (٩٨) .

وتكاد الروايات تتفق على ان جزية الرأس كانت دينارين على كل حالم ليس فيهم امرأة ولا صبي ولا شيخ ، وتتفق كذلك في وضع ضريبة الخراج ، الا انها تختلف بعض

الشيء في مقدارها ، فقليل ألزم كل ذي أرض مع جزية رأسه ثلاثة أرادب حنطة ، وقسطي زيت ، وقسطي غسل ، وقسطي خل ، رزقا للمسلمين (٩٩) ، وقيل جعل على كل جريب من الأرض دينار ، وثلاثة أرادب طعاما (١٠٠) .

ومما يشير الى اخذ جميع مصر بنفس المعاملة من وضع الجزية والخراج ، أن ابن شهاب الزهري يذكر أن فتح مصر كان بعضها بعهد وذمة ، وبعضها عنوة ، فجعلها عمر بن الخطاب جميعا ذمة وحملهم على ذلك (١٠١) .

والى جانب ما ذكرنا من الفرائض المالية ، قيل أن المسلمين اقتصوا في مصر ، وألزم أهل مصر بتقديم كسوة كاملة من الملابس لكل واحد من المسلمين في كل عام ، وكانت كسوة الشخص الواحد تتألف من جبة صوف ، وبرنس ، وعمامة ، وسراويل ، وخفين ، هذا الى جانب اقامة الانزال ، والضيافة للمسلمين ثلاثة ايام (١٠٢) .

ويبدو أن الفرائض العينية ، على نحو ما يذكر الليث بن سعد ، قومت في فترة تالية من خلافة عمر بن الخطاب نقدا ، وصار كل حالم من أهل الذمة بمصر يدفع أربعة دنائير ، دينارين جزية رأسه ، ودينارين عوضا عن الفرائض العينية (١٠٣) .

ولكن الروايات التي تذكر ما كانت تقدمه ولاية مصر من الفلال الى أهل الحجاز في خلافة عمر بن الخطاب ومن جاء بعده (١٠٤) ، والكتاب الذي أورده دينيل دينيت في مؤلفه موجهها من قرّة بن شريك الى أهل باكونيس من كورة افروديتي وفيه : أنه اصابكم من جزية سنة ثمان وثمانين ، اربعمائة دينار وثمانية وتسعون ، ومن ضريبة الطعام ، مائة وثمانية وعشرون اردب قمح ونصف اردب ، ونصف وبة (١٠٥) ، لتدل على أن الالتزام بهذه القاعدة ، والغاء الفرائض العينية التي كانت تؤخذ الى جانب الفرائض النقدية ، لم يكن عاما ودائما .

انتفع المسلمون في ادارة الامور المالية في مصر بالخبرات الادارية المحلية ، واستعانوا بالجهاز الاداري السابق في امور الخراج على نحو ما جرى في العراق والشام ، ويبدو هذا واضحا في الرواية التي يذكرها المقرئزي (١٠٦) عن زيد بن اسلم قال ، لما استبطأ عمر بن الخطاب عمرو بن العاص في الخراج ، كتب اليه أن يبعث رجلا من القبط من أهل مصر ، فلما حضر القبطي ، استخبره عمر عن مصر وخراجها قبل الاسلام ، وعن وجوه عمارتها ، كما يبدو ذلك واضحا في طريقة جباية الخراج .

وبخصوص طريقة جباية الخراج ، روى ابن عبد الحكم (١٠٧) قال ، لما استوسق

الامر لعمر بن العاص أقر قبط مصر على جباية الروم ، وكانت جبايتهم بالتعديل ، اذا عمرت القرية وكثر اهلها زيد عليهم ، وان قل اهلها وخربت نقصوا ، فكان يجتمع عرفاء كل قرية (ورويت عرافسوا ، وعرافسى ، وعسرافسوا) وماروتها ، ورؤساء اهلها ، فيتناظرون في العمارة والخراب ، حتى اذا أقروا من القسم بالزيادة ، انصرفوا بتلك القسمة الى الكور ، ثم اجتمعوا هم ورؤساء القرى ، فوزعوا ذلك على احتمال القرى وسعة المزارع ، ثم ترجع كل قرية بقسمهم ، فيجمعون قسمهم ، وخراج كل قرية وما فيها من الارض العامرة ، فيبتدئون ويخرجون من الارض فدادين لكنائسهم ، وحماماتهم ، ومعدياتهم من جملة الارض ، ثم يخرج منها عدد الضيافة للمسلمين ، ونزول السلطان ، فاذا فرغوا ، نظروا الى ما في كل قرية من الصنائع والاجراء ، فقسّموا عليهم بقدر احتمالهم ، فان كانت فيهم جالية قسّموا عليها بقدر احتمالها ، ثم ينظرون ما بقي من الخراج ، فيقسمونه بينهم على عدد الارض ، ثم يقسمون ذلك بين من يريد الزرع منهم على قدر طاقتهم ، فان عجز احد وشكا ضعفا عن رزق ارضه ، وزعوا ما عجز عنه على الاحتمال ، وان كان منهم من يريد الزيادة اعطي ما عجز عنه اهل الضعف ، فان اختلفوا قسّموا ذلك على عدتهم ، وكانت قسمتهم على قراريط الدينار اربعة وعشرين قيراطا يقسمون الارض على ذلك .

بلغت جباية مصر السنوية مليونين من الدنانير في ولاية عمرو بن العاص ، ثم ارتفعت في ولاية عبد الله بن سعد زمان عثمان بن عفان الى اربعة ملايين (١٠٨) ، فقال عثمان لعمر بن العاص : يا عمرو ، هل تعلم ان تلك اللقاح درت بعدك ! ، فقال عمرو ، ان فصالحها هلك (١٠٩) . وقد لا تكون الزيادة راجعة الى التشديد والزيادة في الجباية فحسب ، بل قد تعود ايضا الى تقويم الضرائب العينية وأخذها نقدا .

وقيل بلغت جباية مصر زمن عمر بن الخطاب اثني عشر مليون دينار (١١٠) ، وقيل اربعة عشر مليون دينار (١١١) ، وقيل جناها عمرو بن العاص عشرة ملايين (١١٢) ، وجباها في العام المقبل اثني عشر مليون (١١٣) ، وجباها عبد الله بن سعد اربعة عشر مليون (١١٤) ولكن المرحوم الرئيس ، يستبعد اكثر هذه التقديرات ، ويرى ضمن الادلة التي يحتج بها ، ان جباية مصر في عهد الامويين والعباسيين كانت اربعة ملايين ، ولم يحدث ما بين خلافة عثمان بن عفان وخلافة معاوية من فساد او خراب في الارض نحو ما يذكر المقرئ (١١٥) ، حتى تهبط جباية مصر من اربعة عشر مليون دينار كانت تؤديها في عهد الراشدين ، الى اربعة ملايين في عهد الامويين والعباسيين . لذلك فانه يرجح ان جباية مصر كانت زمن الراشدين اربعة ملايين دينار (١١٦) .

هذا الى ما كان من فتح برقة زمن عمر بن الخطاب ، حيث صالح عمرو بن

العاص أهلها على جزية قدرها ثلاثة عشر ألف دينار سنويا ، كانوا يدفعونها الى والي مصر من غير ان يأتيهم حاث او مستحث (١١٧) . وفتحت أطرابلس عام ٢٢ هـ (١١٨) ، وفتحت افريقية عام ٢٧ هـ في خلافة عثمان ، وصالح أهلها على مليونين ونصف من الدنانير ، ولكن المسلمين لم يدخلوها ثانية الا في خلافة معاوية بن أبي سفيان (١١٩) ، وغزا المسلمون جزيرة قبرص عام ٢٨ هـ ، وقيل عام ٢٩ هـ في خلافة عثمان ، وصالح أهلها على جزية سنوية مقدارها سبعة آلاف دينار (١٢٠) . وغزا المسلمون في خلافة عمر بن الخطاب النوبة وصالحوهم على الهدنة واقامة علاقات تجارية بين الجانبين (١٢١) .

شرق العراق وخراسان :

لما جاء عمر بن الخطاب خبر فتح نهاوند عام ٢١ هـ ، أذن للمسلمين بالانسياح في البلاد الشرقية (١٢٢) . وقد حقق المسلمون في هذا الوجه نصرا كبيرا ، وبدأت حواضر هذه البلاد تجيب المسلمين الى الجزاء والمنعة ، فعقد المسلمون لهم الذمة وكتبوا العهود والمواثيق .

قيل صالح أهل مدينة نهاوند عام ٢١ هـ على الخراج والجزية (١٢٣) ، وصالح على مثل صلحهم ، أهل الدينور ، وما سبذان ، ومهرجا نغذق ، وقزوين ، وزنجان ، وهمدان . وتكثت همدان ، ففتحت ثانية في خلافة عثمان ، ودفعت للمسلمين مائة ألف درهم (١٢٤) . ولا تذكر الروايات بصدد الفريضة المالية على هذه المدن ، شيئا عن مقاديرها .

وقيل صالحت بعض المدن الاخرى على الجزية في كل سنة على قدر طاقة كل حال فيها ، وعلى ان ينصحوا للمسلمين ، ويدلوهم على الطريق ، ويقرأوا ضيفهم يوما وليلة (١٢٥) ، وعلى مثل هذا ، صالحت ماه بهراذان ، وماه دينار عام ٢١ هـ ، وصالحت الري وقومس عام ٢٢ هـ ، وقيل صالحت على الجزية والخراج ، واعطوا خمس مائة ألف درهم ، وان يكونوا اسوة أهل نهاوند في خراجهم (١٢٦) . وصالحت اذربيجان عام ٢٢ هـ وقيل صالحت على ثمان مائة ألف درهم ، وقيل صالحت على مائة ألف درهم (١٢٧) . وصالحت الباب وتوَّج ، واصطخر ، وقم ، وقاشان ، واصبهان ، وقيل صالحت على الجزية والخراج ، وان اشرافها ، أي اشراف اصبهان ، انفوا من الجزية فاسلموا ، وادوا الخراج (١٢٨) .

وصالحت الاهواز عام ١٦ هـ على مليونين وثمان مائة وتسعين ألف درهم ، ثم

نقضت ، ففتحت ثانية عام ١٧ هـ ، ووظف عمر بن الخطاب عليها عشرة ملايين واربع مائة الف درهم ، ثم ردها الى الجزية (١٢٩) . وصالح اهل سابور عام ٢٦ هـ على ثلاثة ملايين وثلاث مائة الف درهم (١٣٠) ، وصالح اهل ارجان واهل دارابجرد عام ٢٧ هـ على مليونين ومائتي الف درهم لكل منهما (١٣١) .

وقيل فتحت خراسان خلا مرو عام ٢٢ هـ وصالحت على مليونين ومائتي الف اوقية (١٣٢) ، ثم نقضت زمان عثمان بن عفان فسار اليها عبد الله بن عامر عام ٣١ هـ وفتحها . وصالحت مرو على مليونين ومائتي الف درهم (١٣٣) ، وصالحت ابرشهر على مليون درهم وطعام ، وصالحت بلخ على اربع مائة الف درهم ، وصالحت سرخس على مائة وخمسين الف درهم (١٣٤) ، وصالحت نيسابور على مليون ، ويقال سبع مائة الف درهم ، وصالحت نسا على ثلاث مائة الف درهم ، وصالحت ابيورد على اربع مائة الف درهم ، وصالحت طوس على ست مائة الف ، وصالحت هراة وبوشنج وباذغيس على الجزية ، وقيل على مليون درهم تقسم على الارض عدلا بينهم (١٣٥) ، ثم انتقضت خراسان في خلافة علي بن ابي طالب ، فلم تزل منتقضة حتى قتل (١٣٦) .

وصالحت زرنج من سجستان عام ٣٠ هـ على الف وصيف ، مع كل وصيف جام من ذهب (١٣٧) . وصالح دهقان زالق من سجستان المسلمين ، وان يكون بلده كبعض ما افتتح من بلاد فارس وكرمان (١٣٨) . وغزا الحارث بن مرة العبدي في خلافة علي بن ابي طالب السند فظفر واصاب مغنما وسبيا (١٣٩) .

اما بخصوص طريقة الجباية ، فنلاحظ ان الذين تولوا مصالحة المسلمين ، كانوا اولي الامر في الحكومة المحلية في المدينة ، او امير المدينة الحاكم ، او صاحب الاقليم ، فيروى ان (الفرخان) صالح المسلمين عن الري وقومس ، وصالح مرزبان اذربيجان على جميع اهل اذربيجان ، وكان اليه جباية خراجها ، وصالح دهقان الاهواز المسلمين على مال ، وصالح الهربد على دارابجرد ، وصالح عظيم فسا على مثل صلح دارابجرد ، وصالح دهقان زالق ، ودهقان زرنج من سجستان ، وصالح مرزبان نيسابور على جميع نيسابور بوظيفة يؤديها للمسلمين قيل كانت مليون درهم ، وصالح مرزبان الطالقان والغارياب ، وصالح صاحب نسا ، وصاحب سرخس . وفي خلافة علي بن ابي طالب ، قدم مرزبان مرو الى علي بن ابي طالب في الكوفة ، فكتب له علي الى الدهاقين والاساورة والدهشلاوية ، ان يؤدوا اليه الجزية ، وكانت مرو صالحت المسلمين على مليونين ومائتي الف درهم ، وان عليهم قسمة المال ، وليس على المسلمين الا قبضها (١٤٠) ، وهذه اشارات تدل على ان المسلمين جعلوا جمع الفرائض المالية الى الرؤساء المحليين ، والعظماء ، والامراء ، فكان اذا جمع هؤلاء المال ، دفعوا للمسلمين ما صالحوا عليه ،

وهذا خلّاف ما كان عليه الحال في سواد العراق ، حيث كان عمال الخراج من المسلمين يسكنون بزمام الامور المالية في سواد العراق ، ويستعينون على جمعها بالدهاقين ، اما في هذه البلاد ، فكان الرؤساء المحليون هم الذين يسكنون بزمام الامور المالية ، ويدفعون من المال للمسلمين ما صالحوهم عليه .

اما مقدار الجباية السنوية فغير معلوم ، ولا يمكن اجراء حساب عام لها ، لعدم توافر المعلومات عن مقدار الجزية في كل بلد ، وما ذكره الجهشيارى عن جباية هذه البلاد زمن الخليفة الرشيد ، ومقداره يزيد على مائة وخمسين مليون درهم فضلا عن الاشياء العينية (١٤١) ، لا يفيد شيئا في اعطاء فكرة عن جباية هذه البلاد زمن الراشدين ، لاسباب يعود بعضها الى اختلاف رقعة البلاد بين العهدين .



والى جانب الفرائض المالية التي كانت تجبى من الناس والارض في البلاد المفتوحة ، تناولت التنظيمات زمن الراشدين فرائض المال على التجارة .

عرف المال الذي كان يؤخذ من اهل التجارات في فترة ما قبل الاسلام باسم العشور او المكوس ، وكانت العرب تتعامل به في اسواقها التي كانت تعقدتها للتجارة . ويروى من هذا القبيل ان اكيدر السكوني ، وقنافة الكلبي كان من ولي منهما سوق دومة الجندل يأخذ العشور من التجار الذين كانوا يحضرون السوق ويبيعون بضاعتهم فيها ، وكان بنو تميم يعشرون التجار في سوق المشقر ، وكان الجلندي بن المستكبر يعشر التجار في سوق دبا وفي سوق صحار بعمان ، وكانت الابناء تعشر التجار في سوق عدن وسوق صنعاء (١٤٢) ، فلما جاء الاسلام الفيت المكوس ، ولم يجز الرسول (ص) لمسلم ان يأخذ مكسا من تجار المسلمين ، ومما روي عنه (ص) لا يدخل الجنة صاحب مكس « (١٤٣) ، وكتب لمن اسلم من اهل الامصار مثل ثقيف واهل البحرين ودومة الجندل وغيرهم ، انهم لا يحشرون ولا يعشرون (١٤٤) ، فلما كان زمن عمر بن الخطاب وفتحت البلاد ، كتب زياد بن حدير اليه في تجار الحرب الذين يأتون ديار الاسلام ، فكتب اليه عمر ، ان يأخذ منهم مثلما يأخذون من تجار السلميين (١٤٥) ، وقيل اخذ من تجارات اهل الحرب العشر على حسب ما كانوا يفعلون بمن يدخل اليهم من تجار المسلمين ، فانهم كانوا يأخذون من اموال المسلمين وامتعتهم اذا ادخلوها بلدهم العشر (١٤٦) . وروي عن عمر انه كتب ايضا بخصوص تجار الحرب ، قال : « من اقام

منهم ستة اشهر فخدمه العشر ، ومن اقام سنة فخذ منه نصف العشر» (١٤٧) . ولعل عمر بن الخطاب فعل ذلك بقصد الدعاية للاسلام او تقوية الحركة التجارية (١٤٨) ، ومن هذا القبيل ، كان الخليفة عمر يأخذ من تجار النبط الذين كانوا يأتون سوق المدينة بالزيت والحنطة من الشام نصف العشر لكي يكثر الحمل الى المدينة (١٤٩) .

ولم يقتصر اخذ العشور على تجار اهل الحرب ، وانما شمل تجار اهل الذمة وتجار المسلمين . روى ابو عبيد أن انس بن سيرين كتب لانس بن مالك سنة عمر فجاء فيها : يؤخذ من المسلمين من كل اربعين درهما ، درهم ، ومن اهل الذمة من كل عشرين درهما ، درهم ، ومن لاذمة له (تجار الحرب كانوا يفدون الى دار الاسلام) من كل عشرة دراهم ، درهم . وذكر زياد بن حدير قال ، استعملني عمر على العشر فأمرني أن آخذ من تجار المسلمين ربع العشر ، ومن تجار اهل الذمة مثلي ما آخذ من تجار المسلمين ومن نصارى بني تغلب العشر (١٥٠) .

غير ان العشور على تجار الذمة ، وتجار المسلمين ، لم توضع على جهة مكوس الجاهلية وعشورها ، وانما وضعت على جهة اخرى . فبالنسبة لاهل الذمة قيل صالحوا على ذلك صلحا ، واقرؤا على ان يدفعوا من اموالهم التي يختلفون بها للتجارة من كل عشرين درهما ، درهما ، فكان يؤخذ منهم نصف العشر .

واما بالنسبة لتجار المسلمين ، فالفريضة التي كانت تؤخذ من تجارتهم ، كانت تؤخذ منهم على جهة الزكاة المفروضة في اموالهم كل سنة ومقدارها ربع العشر ، واموالهم التي يؤخذ منها ربع العشر ، هي الاموال التي يطلق عليها « الصامته » ، او « الاموال الباطنة » من الذهب والفضة وعروض التجارة ، وسميت بذلك لامكان اخفائها ، وهي غير الاموال الظاهرة من الماشية والحرث والنخل (١٥١) .

كان الخليفة ابو بكر ، اذا اراد ان يعطي المرء نصيبه من المال سأل ان كان عنده مال قد حلت فيه الزكاة ، فان اخبره ان عنده مالا قد حلت فيه الزكاة ، قاصه مما يريد ان يعطيه . وكذلك كان عثمان بن عفان يفعل في خلافته ، فكان اذا خرج عطاء احدهم ، سأل ان كان عنده مال وجبت فيه الزكاة ، فان كان عنده مال وجبت فيه الزكاة ، حاسبه به من عطائه (١٥٢) ، وقيل ترك عثمان امر زكاة الاموال الظاهرة الى اصحابها يخرجونها بأنفسهم (١٥٣) .

فلما كثرت الفتوح ، وتصرفت التجار في البلدان ، جعل الخليفة عمر بن الخطاب العشارين ليأخذوا زكاة ما يمر بهم من اموال التجار ، ويعتبروا النصاب والحول (١٥٤) .

قال انس بن مالك ، بعثني عمر بن الخطاب على جباية العراق وقال : اذا بلغ مال المسلم مائتي درهم فخذ منها خمسة دراهم ، وما زاد على المائتين ، ففي كل اربعين درهما ، درهم (١٥٥) . وذكر الشيباني ان عمر بن الخطاب بعث زياد بن جرير (وقيل بن حدير) مصدقا الى عين النمر ، وأمره بان يأخذ من كل من يمر عليه بماله من المسلمين ولم يؤد ذكاته ، ان يأخذ من أموالهم ربع العشر ، ومن اهل الذمة اذا اختلفوا بها للتجارة نصف العشر ، ومن اموال اهل الحرب العشر ، وجعل عمر بن الخطاب نفقة العاشر ، أي المصدق ، من المال الذي يأخذه منهم (١٥٦) .

اما بخصوص زكاة الاموال الظاهرة ، فان ابا بكر حارب القبائل التي منعته ورفضت تأديتها الى عمال الصدقات الذين كان بعثهم اليهم ليأخذوها ، فلما اعيدوا الى الطاعة صار عمال الصدقات يخرجون اليهم يأخذونها منهم في مياههم وبأفنيتهم ، ولا يكلفونهم الانتقال بمواشيهم من مواضعهم اليهم يبتغون التيسير عليهم ، وقد ارشد الرسول عليه السلام الى ذلك من قبل قال : « ... ولا تؤخذ صدقات المسلمين الا على مياههم وبأفنيتهم » (١٥٧) . وكان الخلفاء ، ابو بكر وعمر وعثمان وعلي ، يوصون عمال الصدقات الا يأخذوا حرزات المسلمين ، أي خيار أموالهم ، فلا يأخذوا الربى ، وهي الشاة التي يتبعها ولدها ، ولا الماخض ، أي الحامل ، ولا ذات الدر ، ولا الشاة السمينة التي اعدّها أهلها للذبح ، لما يحدث ذلك من الضرر لاصحاب المال ، والضيفنة عندهم ، وان لا يأخذوا الهرمة وذات العوار وامثالهما ، لما في ذلك من الحاق الاذى بالمصلحة العامة ، وكان عمال الصدقات يفرقون المال ثلاث فرق ، ثم يختار صاحب المال ثلثا ، ويأخذ المصدق الزكاة من الثلث الثاني . وكان بمقدور رب الماشية ان يبادل بما عنده الى صنف اخر ، كأن يبادل معزى ببقر ، او ابلا ببقر ، أو أن يدفع مالا نقدا ، دون ان يجبر احد على ذلك ، وانما كان يقبل ذلك تيسيرا على الذين يؤخذ منهم ، ووفاء للذين تؤخذ لهم (١٥٨) .

روي عن ابي بكر قال ، اذا تباينت أسنان الابل في فرائض الصدقات ، فمن بلغت عنده صدقة الجذعة ، وليست عنده جذعة ، وعنده حقة ، فانها تقبل منه ، ويجعل معها شاتين ، ان استيسرتا له ، او عشرين درهما ، ومن بلغت عنده صدقة الحقة ، وليست عنده الا جذعة ، فانها تقبل منه ، ويعطيه المصدق عشرين درهما ، او شاتين . وجاء عن معاذ بن جبل وعلي بن ابي طالب مثل ذلك (١٥٩) .

كانت جباية الصدقات تتم بعد ان يكون اصحاب الماشية قد تجمعوا على مياههم وبأفنيتهم ، ورجعوا بمواشيهم من المواضع التي كانوا يرتادونها في فصل الربيع للكلا والمرعى ، وكان ذلك يحدث عادة في فصل الصيف . وروي عن عمر بن الخطاب انه

كان يبعث عمال الصدقات في قُبَل الصيف ، وروي عن مالك بن انس قال ، سنّة السّعة (عمال الصدقات) أن يبعثوا قبل الصيف ، وحين تطلع الثريا ويسير الناس بمواشيهم الى مياههم ، لان ذلك رفق بالناس باجتماعهم على الماء ، وعلى عمال الصدقات لاجتماع الناس بالناس . وأحب الشافعي ان يكون أخذها في شهر المحرم ، كان المحرم في الصيف او في الشتاء (١٦٠) .

وكانت الصدقة بعد ان تجمع ، تقسم في فقراء القوم الذين من ارباب الاموال فيهم أخذت الزكاة ، فان فضل شيء ، ففي فقراء القوم الذين يلونهم وهكذا (١٦١) . فاذا توفر شيء من أموال الزكاة بعد ان يكون قد فرغ من سد حاجة اصناف مستحقيها ، حمل الى المدينة . ومما روي في هذا السبيل ان معاذ بن جبل كان يصدق الناس في اليمن زمن النبي (ص) وابي بكر ، ثم زمن عمر ، فبعث الى عمر بثلاث صدقة الناس ، فانكر ذلك عمر وقال ، لم ابعثك جابيا ولا آخذ جزية ، ولكن بعثتك لتأخذ من اغنياء الناس فتردها على فقرائهم ، فقال معاذ ، مابعثت اليك بشيء وانا أجد احدا يأخذه مني ، فلما كان العام الثاني بعث اليه شطر الصدقة ، فتراجعا بمثل ذلك ، فلما كان العالم الثالث بعث اليه بها كلها ، فراجعها عمر بمثل ما راجعه قبل ذلك ، فقال معاذ : ما وجدت احدا يأخذ مني شيئا (١٦٢) .

ودفع من كان مسلما من اهل البلاد المفتوحة ما عليه من زكاة في مواشيه وزروعه . ذكر البلاذري ان الاعشار في بلد ، وديار ربيعة ، هي اعشار ما اسلمت عليه العرب او عمرته من الموات (١٦٣) . وبامتداد الاسلام الى خارج شبه الجزيرة ، صادف المسلمون في البلاد المفتوحة من الزروع ما اختلف في الوفرة والنوع عما كان مألوفا في شبه الجزيرة ، وهو امر سيؤدي الى اختلاف الآراء حول ما يجب فيه الزكاة من الزروع وما لا يجب فيه ، للتنوع من جهة ، والوفرة التي جعلتها في عداد الثروة الاقتصادية في هذه البلاد من جهة اخرى ، ونذكر من هذه الزروع ، القطني بأنواعها ، والزيتون ، والسلت والذرة (١٦٤) .

أما بخصوص مقادير أموال الزكاة التي كانت تجبى كل عام فأمر غير معروف ، والاشارات التي تذكر بعض الارقام اشارات جزئية وغير دقيقة ، ولا تنفع في اعطاء تقدير كلي ، قيل ان عمر بن الخطاب حمى ارض الريدّة لنعم الصدقة ، وكان يحمل عليها في سبيل الله ، وكان مقدار ما يحمل عليه كل عام في سبيل الله اربعين الفا من الظهر (١٦٥) ، وولى عثمان بن عفان الحكم بن ابي العاص صدقات قضاة ، فبلغت ثلاث مائة الف درهم (١٦٦) .



وبعد هذا ، ننتقل الى الحديث عن الاثار الاقتصادية التي ترتبت على فتح البلاد المحيطة بشبه الجزيرة العربية ، وما اتخذ فيها من التنظيمات ، ودور ذلك في حياة الدولة والناس .

اما بالنسبة للدولة ، فقد أدت الفتوحات على التدرج الى كثرة الاموال التي صارت تؤول الى نظرها ، مما جعل دورها يكبر في حياة الناس اكثر فاكثرا ، وكان في خلافة ابي بكر ، اذا جاءه المال قسمه بين الناس على السوية ، فقليل جاءه مال من البحرين ، فأعطى كل انسان كان رسول الله (ص) وعده شيئا ، وكان جابر بن عبد الله قال لابي بكر ، قال لي رسول الله (ص) ، لو جاء مال البحرين اعطيتك هكذا وهكذا يشير بكفيه ، فقال له ابو بكر خذ ، فأخذ بكفيه ، ثم عده فوجده خمسمائة ، ثم قال له ، خذ اليها الفا وبقيت بقية من المال قسمها بين الناس بالسوية ، على الصغير ، والكبير ، والحر ، والمملوك ، والذكر ، والانثى ، فأصاب كل انسان سبعة دراهم وثلاث الدرهم ، فلما كان العام المقبل ، جاءه مال كثير هو اكثر من ذلك فقسمه بين الناس ، فأصاب كل انسان عشرين درهما ، ومرة اخرى جاءه مال فقسمه بين الناس ، فأصاب كل انسان نصف دينار ، وطالبه بعض الناس بتفضيل اهل السوابق والقدم والفضل في القسم فقال ، فما اعرفني ذلك ، وانما ذلك شيء ثوابه على الله جل ثناؤه ، وهذا معاش ، فالاسوة فيه خير من الاثرة (١٦٧) .

ومنذ خلافة عمر بن الخطاب ، كثرت الاموال لاتساع الفتوح وامتدادها ، وضمن قرار وقف الارض المفتوحة ، وعدم قسمتها بين الغانمين ، موردا ماليا ثابتا للدولة . واذا جمعنا ما كان يؤخذ من الاموال من ارض العنوة ، وارض الصلح ، ومن اهل الذمة جزية وضريبة على التجارة ، ومن اهل الحرب اذا دخلوا بلاد الاسلام للتجارة ، (١٦٨) صار ما مقداره سنويا ، عدا الاموال العينية ، عشرين مليون دينار تقريبا ، (١٦٩) زد عليه او انقص منه قليلا ، الامر الذي شجع عمر بن الخطاب عام ٢٠ هـ على سن الرواتب السنوية للمسلمين .

لم يتبع عمر التسوية في العطاء ، وانما أثر التفضيل ، وجعل السبق الى الاسلام والقراية من الرسول (ص) اساسا في تقدير الرواتب ، واتخذ المشاهد المشهورة في تاريخ الدعوة الاسلامية معالم في ترتيب الناس على طريق السبق وتقدير الرواتب ، فجعل بدرا ، والحديبية ، وفتح مكة ، وحرب الردة ، والحروب الاولى التي عرفت بـ « الايام » في العراق والشام ، والقادسية واليرموك ، وما بعدها ، علامات في تدرج الرواتب والتفاضل بينها ، فأعطى على سبيل المثال ، من كان اسلم قبل بدر اكثر ممن

كان اسلم بعد بدر ، واعطى من كان اسلامه قبل فتح مكة اكثر ممن كان اسلامه بعد فتح مكة وهكذا . وكانت الرواتب ، اذا استثنينا بعض الحالات (١٧٠) ، تتراوح بين خمسة الاف درهم ، وثلاثمائة درهم وقيل مائتي درهم في السنة .

ففي المدينة ، اعطي اهل بدر من المهاجرين والانصار خمسة الاف خمسة الاف في كل سنة ، حليفهم ومولاهم معهم بالسواء ، والحق بهم الحسن والحسين لقرابتهما برسول الله (ص) ، وفرض لمن كان له اسلام كاسلام اهل بدر ، ومن مهاجرة الحبشة ممن شهد احدا اربعة الاف اربعة الاف ، وفرض لابناء البدريين الفين الفين ، وفرض لاسامة بن زيد بن حارثة اربعة الاف لمحبة رسول الله (ص) ابيه زيد بن حارثة ، وفرض لعمر بن ابي سلمة اربعة الاف لان امه ام سلمة زوج الرسول (ص) ، وفرض للناس على منازلهم وقراءتهم القرآن وجهادهم ، ثم جعل من بقي من الناس بابا واحدا ، والحق من جاء من المسلمين بالمدينة في خمسة وعشرين دينارا (١٧١) .

وفي العراق ، فرض لاهل الايام ثلاثة الاف ثلاثة الاف ، وفرض لاهل القادسية الفين الفين ، وفرض لاهل البلاء البارع منهم في الفين وخمسمائة بزيادة خمسمائة لكل واحد ، ثم فرض للروادف المثني خمسمائة خمسمائة ، ثم للروادف الثلاثي بعدهم ثلاثمائة ثلاثمائة ، وفرض للروادف الربيع مائتين وخمسين ، وفرض لمن بعدهم على مائتين (١٧٢) .

وفي الشام ، فرض لاهل اليرموك الفين الفين ، وفرض لمن جاء من بعد ذلك الفا الفا ، وفرض لاهل اليمن وقيس بالشام والعراق لكل رجل ما بين الفين ، الى الف وتسعمائة الى خمسمائة ، الى ثلاثمائة (١٧٣) .

وكتب عمر الى عمرو بن العاص في مصر ، انظر من قبلك ممن بايع تحت الشجرة (اي كان من اهل الحديبية) فاتم له العطاء مائتين ، اي مائتي دينار وهو ما يعادل الفين وخمسمائة درهم تقريبا ، واتمها لنفسك لامرئك ، واتمها لخارجة بن حذافة لشجاعته واتمها لعثمان بن ابي العاص لضيافته (١٧٤) .

وفرض لامراء الجيوش ما بين تسعة الاف وثمانية الاف ، وسبعة الاف ، على قدر ما يصلحهم من الطعام ، وما يقومون به من الامور .

وشمل العطاء الموالي ، وفرض لاربعة الاف جندي انضموا الى المسلمين في معركة القادسية الفا الفا ، وانضم للمسلمين عدد من الاساورة بقيادة (سياه) احد قادة

يزدجرد ، فكتب عمر الى ابي موسى الاشعري فيهم ، ان الحقهم على قدر البلاء في افضل العطاء ، واكثر شيء اخذه احد من العرب ، ففرض لمائة منهم الفين الفين ، ولسته منهم في الفين وخمس مائة (١٧٥) .

كما شمل العطاء النساء . ففرض لنساء مهاجرات ، منهن صفية بنت عبد المطلب ، ستة الاف درهم ، واسماء بنت عميس الف درهم ، وام كلثوم بنت عقبة الف درهم ، وام عبد الله بن مسعود الف درهم ، وفرض لنساء المهاجرين والانصار ستمائة ستمائة ، واربع مائة اربع مائة ، وثلاث مائة ثلاث مائة ، ومائتين مائتين (١٧٦) ، وفرض لنساء اهل الايام في العراق ثلاث مائة ثلاث مائة ، وفرض لنساء اهل القادسية في العراق ، ونساء اهل اليرموك في الشام مائتين مائتين (١٧٧) .

وفرض العطاء للذرية . وكان عمر لا يفرض للمولود حتى يظم ، فترك ذلك ، وأمر مناديا ينادي ، لا تعجلوا اولادكم عن الطعام ، فانا نفرض لكل مولود في الاسلام (١٧٨) . وفرض للطفل اذا ولدته امه مائة درهم ، فاذا ترعرع فرض له مائتين ، فاذا بلغ زاده (١٧٩) . وفرض للاطفال اللقطاء مائة مائة ، وكان يوصي بهم خيرا ، ويجعل رضاعهم ونفقتهم من بيت المال (١٨٠) .

والى جانب الرواتب ، فرضت الارزاق للمرأة والرجل والملك بمقدار جريين من الطعام كل شهر (١٨١) ، واعطيت اموال اضافية على شكل معونة وسميت «المعاون» ، وقد امر عمر بن الخطاب بصرفها في فصل الربيع معونة للجند الذين كانوا يخرجون حينذاك الى البادية ليربعوا خيولهم ودوابهم (١٨٢) ، كما جعل لكل نفس نفوسة في رمضان درهما في كل يوم ، وفرض لازواج الرسول (ص) درهمين درهمين ، فأقر عثمان بن عفان الذي كان صنع عمر في رمضان ، وزاد فوضع طعام رمضان للمتعب الذي يتخلف في المسجد ، وابن السبيل ، والفقراء من الناس (١٨٣) .

كانت الاموال من الرواتب ، والارزاق ، والمعاون ، تصرف لاصحابها من واردات البلد الذي ينزلون فيه حسب سجلات أعدت لذلك (١٨٤) ، وكان توزيعها يتم وفق طريقة منظمة ، فكانت الرواتب في البصرة على سبيل المثال ، تدفع الى الامراء (كان الناس في البصرة زمن الراشدين موزعين الى اسباع ، وعلى كل سبع أمير) والامراء يدفعونها الى العرفاء والنقباء والامناء ، ويدفعها هؤلاء الى اصحابها في دورهم (١٨٥) . وكان ذلك يتم عادة في شهر المحرم من كل سنة (١٨٦) . الا ان دفعه في وقته المحدد لم يكن أمرا ميسورا دائما ، فكان العطاء يتأخر ، وكان يدفع احيانا اقساطا . واما الارزاق فكانت تجمع في دار تدعى «دار الرزق» (١٨٧) ، ويأخذ الناس ارزاقهم منها .

وكان عمر بن الخطاب يوزع العطاء في المدينة ، ويحمل ديوان خراعة حتى ينزل قديدا ، فيأتيه الناس ، فلا يغيب عنه امرأة بكر ولا ثيب فيعطيهن في ايديهن ، ثم يروح فينزل عسفان فيفعل مثل ذلك (١٨٨) .

وبخصوص عطاء أهل المدينة وازراقهم ، فبعد أن تم اتخاذ الديوان وجعلت واردات كل بلد موقوفة على منفعة أهله من رواتب وغيرها ، عد أهل المدينة شركاء الفاتحين في البلاد المفتوحة ، وعلى سبيل المثال ، كتب عمر بن الخطاب الى عثمان بن حنيف في العراق ، ان احمل الى أهل المدينة اعطياتهم ، فانهم شركاؤهم ، فكان يحمل ما بين العشرين الف الف الى الثلاثين الف الف (١٨٩) ، ولا بد انه كان يحمل الى المدينة من بلاد الشام ومصر ، وان كنا لانعلم مقدار ذلك ، سيما وقد شارك أهل المدينة في فتوح الشام ومصر . وكان عمر بن الخطاب يبعث في كل سنة غازية من أهل المدينة ترابط بالاسكندرية (١٩٠) .

وقيل لما كثر المال قال عمر ، لئن عشت الى هذه الليلة من قابل ، لالحقن آخر الناس باولاهم حتى يكونوا في العطاء سواء ، فتوفي قبل ذلك (١٩١) .

وعلى أية حال ، فان الوقت كان كفيلا بتقليل الفوارق بين الناس في الرواتب ، وكان الموت من أهم العوامل التي كانت تعمل على ازالة الفئات التي فضلت في العطاء ، نظرا الى ان السبق الى الاسلام وهو علة الاثرة في العطاء والتفضيل لا يسورث . وفي خلافة عثمان كثر الخراج ، واثاه المال من كل وجه ، وادر الارزاق ، وكان لما استخلف زاد الناس مائة درهم في العطاء (١٩٢) ، غير ان توسعه في بذل الاقطاعات من ارض الصوافي (١٩٣) ، وهيمنة بني امية على زمام الامور ، ادى الى انتقاد سياسة الدولة ومنها سياسة الاقتصاد في زمنه والثورة عليه ، فلما استخلف علي بن ابي طالب ، اعطى الناس بالسوية ، ولم يفضل احدا على احد ، واعطى الموالي كما اعطى الصليبة ، وكان كلما جاءه مال وزعه في الناس ، فاعطى في سنة واحدة اربع مرات وقال ، اني لست لكم بخازن (١٩٤) .

ومما يجدر ذكره ، ان العطاء والارزاق كانت تفرض لاهل الحاضرة من المسلمين دون غيرهم من الذين كانوا لا يحضرون محاضر المسلمين ولا يشهدون مشاهدتهم ، وهي اشارة الى ان الجهاد والدفع عن البلاد والعباد كان المبرر لبذل العطاء . وخطب عمر ابن الخطاب الناس بالجابية فقال « . . فمن اسرع الى الهجرة ، اسرع به العطاء ، ومن ابطأ عن الهجرة ، ابطأ عنه العطاء ، فلا يلومن رجل الا مناخ واحلته » (١٩٥) . وقيل ان رجلا من اهل البادية سأل ابا عبيدة ان يرزقهم فقال ، لا والله ، لا ارزقكم حتى ارزق

اهل الحاضرة ، فمن اراد بحجة الجنة فعليه بالجماعة (١٩٦) ، ومما قاله ابو عبيد بهذا الخصوص : « فاما درور الاعطية على المقاتلة واجراء الارزاق على الذرية فلم يبلغنا عن رسول الله (ص) ولا عن احد من الائمة بعده انه فعل ذلك الا باهل الحاضرة الذين هم اهل الفناء عن الاسلام » (١٩٧) . وكان عمر لا يعطي اهل مكة عطاء ، ولا يضرب عليهم بعثا . وكان اهل البادية الذين كانوا لا يشتركون في الجهاد ، لاعطاء من بيت المال لهم ولا ارزاق ، وانما كانت تؤخذ الصدقات من اغنيائهم وترد في فقرائهم ، واذا اصابتهم الجوائح اغيثوا حتى يرفع ما بهم عنهم (١٩٨) ، على نحو ما جرى في عام الرمادة .

وانشئت المدن والمساجد في البلاد المفتوحة ، البصرة والكوفة في العراق ، والفسطاط في مصر ، ووسع عثمان بن عفان عام ٢٦ هـ المسجد الحرام ، وابتاع من اجل ذلك من قوم منازلهم . ووسع عام ٢٩ هـ مسجد الرسول (ص) في المدينة ، وحملت له الحجارة من بطن نخل ، وجعل في عمده الرصاص وجعل طوله مائة وستين ذراعا ، وعرضه مائة وخمسين ذراعا (١٩٩) .

ودفعت الدولة اضافة لما سبق ذكره من العطاء والارزاق ، الرواتب للموظفين ، فكان زياد بن ابيه على سبيل المثال ، يتقاضى كل يوم درهمين اجرا على قسمة الفنائم ، وبلغ راتب عامل كل كورة من كور الموصل مائتي درهم (٢٠٠) ، هذا اضافة الى رواتب الخلفاء والولاة والقضاة وباقي موظفي الجهاز الاداري . كما ساهمت الدولة في الانفاق على الحملات العسكرية ، والمنشآت العامة ، ومشاريع الري وامثال ذلك من المصالح العامة (٢٠١) .

والشواهد السابقة تدل على مدى الدور الذي صارت تلعبه الدولة في حياة الناس ، ولكنها لم تتخذ هذا الدور في هذه الفترة للهيمنة عليهم ، والغلبة والقهر نهم ، فقد ابى عمر بن الخطاب ان يوسع على نفسه في معيشته التي فارقه الرسول (ص) وابو بكر عليها (٢٠٢) . وكان اذا استعمل عاملا . كتب له عهدا ، واشهد عليه رهطا من المهاجرين والانصار ، واشترط عليه ان لا يركب برذونا ، ولا يأكل نقيا ، ولا يلبس رقيقا (٢٠٣) ، ويقول لهم اني انزلت نفسي واياكم من هذا المال بمنزلة والي اليتيم ، قال تعالى : « ومن كان غنيا فليستعفف ، ومن كان فقيرا فليأكل بالمعروف » (٢٠٤) . وكان اذا وفدوا عليه انتبه الى لباسهم واكلهم عنده . قيل ان عمرو بن العاص قدم عليه مرة ، فقدم له ثريدا ، وادخل عمر يده في الثريد فملأها ، وناولها عمروا ، فجعلها عمرو في يده اليسرى ويأكل باليمنى ، ووقد مصر ينظرون ، فلما خرجوا قال عمرو ، والله لقد علم اني بما قدمت به من مصر لغني عن الثريد الذي ناولني ، ولكنه اراد ان يختبرني ، فلو لم

اقبلها للقيت منه شرا (٢٠٥) . وكان اذا بلغه عنهم كثرة في المال قاسمهم ، وقاسم عمرو بن العاص ، وسعد بن ابي وقاص ، وابا هريرة وغيرهم (٢٠٦) .

كان عثمان بن عفان يعيش من ماله ، وكان علي بن ابي طالب متقشفا . ويصف ابن الطقطقي دولة الراشدين بانها لم تكن من طرز دول الدنيا ، وكان هديها هدي الاولياء ، وهي بالنبوات ، والرتب الدينية ، والامور الاخرية اشبه من الرتب الدنيوية في جميع الاشياء (٢٠٧) .

اما بالنسبة للناس . فقد وجد المسلمون منهم في البلاد المفتوحة سعة من بعد ضيق ، فانشأوا المدن ، واختطوا المنازل فيها ، وسكنوا ماجلا عنه اهله من الدور والمنازل في الاسكندرية ، ومدن بلاد الشام وغيرها . وكانوا اذا حل الربيع خرجوا بدوابهم يتربعون ، فكتب عمر بن الخطاب الى سعد بن ابي وقاص وعتبة بن غزوان في العراق ، ان يتربعا بالناس في كل حين ربيع في اطياب ارضهم من كل سنة ، وامر لهم في وجههم هذا بمعونة من المال (٢٠٨) . وخطب عمرو بن العاص الناس في مصر فقال : يا معشر الناس ، انه قد تدلت الجوزاء ، وذكت الشعري ، واقلعت السماء ، وارتفع الوباء ، وقل الندى ، وطاب المرعى ، ووضعت الحوامل ، ودرجت السخائل ، وعلى الراعي بحسن رعيته ، حسن النظر ، فحي لكم على بركة الله الى ريفكم ، فنالوا من خيره ، ولبنه ، وخرافه ، وحسيده ، واربعوا خيولكم ، واسمنوها ، وصونوها والزموها ، واستوصوا بمن جاورتموه من القبط خيرا . وكانوا يقيمون في وجههم هذا حتى يحمض اللبن ويشتد العود ، ويكثر الذباب ، وهي اشارة الى انتضاء الربيع ودخول الصيف ، فعند ذلك يعودون الى القسطنطينية ، وكانت قبائل العرب في مصر تنزل المواضع المختلفة ، فكان آل عمرو بن العاص ، وآل عبد الله بن سعد ينزلون في منف ووسيم ، وكانت هذيل تنزل في بنا وبوصير ، وعدوان في بوصير ، وعك في بوصير ومنوف واتريب ، وهذيل في منف وطرابيه ، الصدف ولخم في الفيوم وغيرها (٢٠٩) .

وكثرت الاموال في ايدي المسلمين ، وبلغت ثروات بعضهم مقادير كبيرة تدعو الى الشك والارتياب ، فقليل كانت ثروة عثمان بن عفان يوم قتل خمسون ومائة الف دينار ، والاف الف درهم ، وقيمة ضياعه بوادي القرى وغيرها مائة الف دينار ، وخلف خيلا كثيرا وابلا (٢١٠) ، واشترى علي بن ابي طالب ارضا بينبع بثلاثين الف درهم وكانت له مزارع في ارض ينبع والمدينة ، وحرّة الرجلاء ، وفدك ، ووادي القرى (٢١١) . وبلغ مال الزبير بن العوام بعد وفاته خمسين الف دينار ، وخلف الف فرس ، والف عبد وامة ، وكان قد ابتنى دارا بالبصرة ، وابتنى دورا في القسطنطينية والاسكندرية والكوفة (٢١٢) . وكانت غلة طلحة بن عبيد الله من العراق الف دينار كل يوم ، وغلته

بناحية السراة أكثر من ذلك ، وبنى دارا بالكوفة ، وشيد دارا بالمدينة ، وبنها بالاجر والجص والساج . وبلغ ربع ثمن مال عبد الرحمن بن عوف اربعة وثمانين الفا ، وكان على مربطة مائة فرس ، وله الف بعير ، وعشرة آلاف شاة من الغنم ، وبنى دارا بالمدينة ووسعها . وكان لسعد بن ابي وقاص دار بالعقيق ، فرفع سمكها ووسع فضاءها ، وخلف زيد بن ثابت من الذهب والفضة ما كان يكسر بالفؤوس ، غير ما خلف من الاموال والضياع التي بلغت قيمتها مائة الف دينار . وبلغت تركة يعلى بن منية ثلاثمائة الف دينار (٢١٣) .

ويقول ابن خلدون بصدد هذه الثروات ، وهم ، أي الصحابة ، مع ذلك على خشونة في عيشهم ، فكان عمر يرقع ثوبه بالجلد ، وكان علي يقول ، ياصفراء ويابيضاء غري غري ، وكان ابو موسى يتجافى عن اكل الدجاج ، وعلى الجملة كانت اموالاحللا ، وكان حالهم فيها على القصد والاعتدال ، ونفقاتهم في سبيل الحق ومذاهبه ، واكتساب الدار الاخرة (٢١٤) ، فحبس عمر بن الخطاب بعض ماله في وجوه الخير وتوفي مدينا ، وحبس علي بن ابي طالب مزارعه صدقات بين بنيه وأهله واقاربه وفي سبيل الله (٢١٥) ، وكذلك فعل الزبير بن العوام (٢١٦) .

ولكن وفرة المال ادت عند البعض الى ظهور البذخ والترف ، مما افضب الاتجاه الذي كان ينادي بالتزام التقشف ابداء ، كما ادت الى ارتفاع اسعار بعض السلع ، ففي عهد الرسول (ص) كانت الدية مائة من الابل ، وقيل كانت قيمة البعير اذ ذاك اربعين درهما ، فكانت الدية اربعة الاف درهم ، ثم غلت الابل في خلافة ابي بكر ، فكانت قيمة البعير ثمانين درهما ، ثم غلت في خلافة عمر ، فكانت قيمة البعير عشرين ومائة درهم ، فكانت الدية على عهد عمر بن الخطاب اثني عشر الف درهم (٢١٧) .

اما المواد الغذائية ، وبخاصة ما كان يوزع منها مجانا ، كالقمح ، ارزاقا للمقاتلة وذرياتهم ، فيبدو انها شهدت في هذه الفترة ثباتا في الاسعار بعض الشيء ، فمن جهة ، كانت الدولة تقبل الفرائض المالية العينية على الارض من المزارعين ، فكانوا لا يضطرون الى بيع منتوجاتهم باسعار رخيصة ، ومن جهة اخرى ، كان المقاتلة وعيالاتهم نتيجة اخذ ارزاقهم عينا ، لا يحتاجون الى شراء هذه المواد الغذائية . اما السلع الاخرى ، وبخاصة الكمالية منها ، فلا بد انها شهدت تغيرا في اسعارها (٢١٨) .

اما بخصوص أهل الذمة من الناس ، فقد حببت الدولة اليهم البقاء ، وعدم الجلاء عن البلاد المفتوحة ، وعقدت لهم الذمة والعهد ، وتركت الارض بايديهم يزرعونها ، ويؤدون عنها الفريضة المالية المقررة ، وقد فرضت الدولة عند تقرير الضرائب ، ان .

لا يظلم احد ، وان لا يكلف احد فوق ما يطيق (٢١٩) ، وجعلت ادارة هذه المصلحة مركزية ، والاشراف عليها مباشرة ، وألغت الامتيازات القديمة ، وتحسّر الفلاح من سيطرة الدهاقين وامثالهم . وتحول هؤلاء ، أي الدهاقين ، الى جباة ، وصار الفلاح مسؤولا عن خراج ارضه وجزية رأسه (٢٢٠) . قيل لعامر الشعبي ، أحد فقهاء العراق واعلامه العلماء ، ان اناسا يزعمون ان اهل السواد عبيد ، فقال الشعبي ، فعلام تؤخذ الجزية من العبيد (٢٢١) ، وهي اشارة الى انهم احرار .

وكان اذا حضر مال الجباية عمر بن الخطاب ، خرج مع المال جماعة من المصر اليه ، يشهدون اربع شهادات بالله انه من طيب ، مافيه ظلم مسلم ولا معاهد (٢٢٢) .

وروي عن علي بن ابي طالب ، انه استعمل رجلا على عكبري (على بعد عشرة فراسخ من بغداد) فقال له على رؤوس الناس ، لا تدعن لهم درهما من الخراج ، ثم قال له القني عند انتصاف النهار ، فلما حضر قال له ، لا تبيعن لهم في خراج حمارا ، ولا بقرة ، ولا كسوة شتاء ولا صيف ، وارفق بهم ، فان عصيتني نزعتك ، وكان من الرفق بهم في هذا الوجه ، ان يؤخذ منهم مما يسهل الاداء فيه عليهم (٢٢٣) .

واضافة الى فتح باب الزراعة امام اهل الذمة ، فتحت ابواب الصناعة والتجارة وغيرها من المجالات الاقتصادية ، ووفرت لهم الدولة بجيشها الامن على الاموال والنفوس ، واتاحت لهم المناخ المناسب للكسب والانتاج . وكانت المعاملات الاقتصادية من البيوع والشركة وغيرها تجري بحق المسلمين واهل الذمة على السواء . واحيطت حالات التحول الى الاسلام بالرضا والسرور ، ورفعت الجزية عن راس كل من كان يسلم منهم (٢٢٤) . وكانت وصية الخلفاء بهم : اوصي الخليفة من بعدى ، بأهل الذمة خيرا ، ان يوفى لهم بعهدهم ، وان يقاتل من ورائهم ، وان لا يكلفوا فوق طاقتهم (٢٢٥) .

ولما كانت الدولة لا تصرف الرواتب الا للمقاتلة ، ولا تجعل الاستحقاقات للجند الا بعلقة الجهاد والدفع عن البلاد . ولم تقسم الارض بين الجند الفاتحين وجعلتها وقفا على المصلحة العامة للمسلمين ، وكان باستطاعة اهل الذمة ان يتحولوا الى الاسلام ، وينضموا للجيش ، وكان الجميع ، بفضل الجيش ومرابطته ، يتفيؤون ظلل الامن والطمانينة ، ويباشرون ما احبوا من المهن والصنائع ، صار القول بان العلاقة بين الدولة واهل الذمة كانت اقرب الى علاقة بين راع ورعيته منها الى شعب يعيش على حساب شعب ، وشعب يحصد ما يزرع غيره (٢٢٦) . هذا علاوة على ان اي بلد لا بد له من جيش يحميه ويدودعنه ، فضلا عن ان يكون حامل فكر للناس . وضمان العيش للقومة بهذه الاهداف ، اي الجيش ، لا يجيز ان نصف الجيش بهذا السبب انه شعب يحصد ما يزرع غيره ، وهذا اذا سلمنا ان الناس يؤثرون الجندية على غيرها ، وانها مجال لا يوازيه في المنفعة والمكاسب المادية مجالات العمل الاخرى .

الحواشي :

- (١) اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي ج ٢ ص ١٣١ ، ابو عبيد بن سلام الاموال ص ١١٧، ٢٩ . البلاذري ، فتوح البلدان ج ٢ ص ٢٩٧ .
- (٢) يحيى بن ادم القرشي ، الخراج ص ٥٢ .
- (٣) البلاذري ، فتوح البلدان ج ٢ ص ٢٩٨ .
- (٤-٥) ابو جعفر الطبري ، تاريخ الطبري ج ٣ ص ٣٤٦ . البلاذري ، فتوح البلدان ج ٢ ص ٢٩٩ . ابو هلال العسكري ، الاوائل ص ٢١٨ .
- (٦-٧) خليفة بن خياط ، تاريخ خليفة ص ١١٧ - ١١٩ . البلاذري ، فتوح البلدان ج ٢ ص ٣٠٤ .
- (٨) البلاذري ، فتوح البلدان ج ١ ص ١٣٤ ، ابن الاثير ، الكامل في التاريخ ج ٢ ص ٢٨١ .
- (٩) اورد البلاذري بخصوص ذلك قول ابي حنيفة قال : ايما ارض اخذت عنوة مثل السواد والشام ولم تقسم ففي رقاب اهلها الجزية وعلى الارض الخراج . انظر : البلاذري ، فتوح ج ٣ ص ٥٤٦ .
- (١٠) روى خليفة بن خياط قال : جهد زياد في سلطانه ان يخلص الصلح من العنوة فما قدر . انظر : خليفة بن خياط ، تاريخ خليفة ص ١٣٦ .
- (١١) ذكر خليفة بن خياط بخصوص فتح الري : فافتتحت الري عام ٢٤ هـ صلحا او عنوة . انظر : خليفة بن خياط ، تاريخ خليفة ص ١٥٧ .
- (١٢) ابو عبيد بن سلام ، الاموال ص ١٤٦-١٤٧ . البلاذري ، فتوح البلدان ج ١ ص ١٣٨-١٣٩ .
- (١٣) ابو جعفر الطبري ، تاريخ الطبري ج ٣ ص ٣٧٥ ، ٥٨٧ ، ج ٤ ص ٣١ . البلاذري ، فتوح البلدان ج ٢ ص ٣٠٠ .
- (١٤) من هذه القرى : اليس ، الحيرة ، بانقيا ، انظر : ابو جعفر الطبري ، تاريخ الطبري ج ٣ ص ٥٨٤ . يحيى بن ادم القرشي ، الخراج ص ٥٢٠-٥٢١ .
- (١٥) ابو عبيد بن سلام ، الاموال ص ١٠٣ ، ابن قتيبة ، المعارف ص ٢٤٨ . ابو جعفر الطبري ، تاريخ الطبري ج ٣ ص ٥٨٧ .
- (١٦) ابن قتيبة ، المعارف ص ٢٤٨ . خليفة بن خياط ، تاريخ خليفة ص ١٣٦ .
- (١٧) ابن قتيبة / المعارف ص ٢٤٧ - ٢٤٨ . ابن عبد الحكم ، فتوح مصر ص ٨٩ . البلاذري ، فتوح البلدان ج ١ ص ٣٦٤ ، ٢٦٦ . السيوطي ، تاريخ الخلفاء ص ١٥٦ .
- (١٨) ابن عبد الحكم ، فتوح مصر ص ٨٢-٩٠ . خليفة بن خياط ، تاريخ خليفة ص ١٤٣-١٤٤ . السيوطي ، تاريخ الخلفاء ص ١٣٢ .
- (١٩) اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي ج ٢ ص ١٥٠ . خليفة بن خياط ، تاريخ خليفة ص ١٣٩ . ابو عبيد بن سلام ، الاموال ص ١٤٦ - ١٤٧ . ابن قتيبة ، المعارف ص ٢٤٨ . البلاذري ، فتوح البلدان ج ١ ص ٢٠٥ .

- (٢٠) انظر : ابو يوسف ، الخراج ص ٢٣-٢٨ ، ٣٥ .
- (٢١) كان ممن يرى رأي عمر من الصحابة : عثمان بن عفان ، وعلي بن ابي طالب ، وطلحة بن عبيدالله ومعاذ بن جبل وعبد الله بن عمر وغيرهم ، وكان ممن يخالف رأي عمر عبد الرحمن بن عوف والزيبر بن العوام وبلال بن رباح .
- انظر : ابو يوسف ، الخراج ص ٣٥ . ابن عبد الحكم ، فتوح مصر ص ٨٨ .
- (٢٢) ابو عبيد بن سلام ، الاموال ص ٧٢-٧٩ . البغدادي ، تاريخ بغداد ج ١ ص ٩ . الماوردي ، الاحكام السلطانية ص ١٣٧ ، ١٤٧ .
- (٢٣) ابو يوسف ، الخراج ص ٣١-٣٢ . الشافعي ، الام ج ٢ ص ١٠٢ ، ٨١ . ابو عبيد بن سلام ، الاموال ص ٨٦-٨٧ . البلاذري ، فتوح البلدان ج ٢ ص ٢٢٨ .
- (٢٤) ابن عساکر ، تهذيب تاريخ دمشق ج ١ ص ١٨٢ ،
وانظر : محمد بطاينة ، فتح فلسطين - بحث في المؤتمر الدولي لتاريخ بلاد الشام ، المجلد الثالث ص ٤٩ .
- (٢٥) ابو جعفر الطبري ، تاريخ الطبري ج ٣ ص ٥٨٦ - ٥٨٧ . ابو عبيد بلام ، الاموال ص ٨١-٨٤ . البلاذري ، فتوح البلدان ج ١ ص ١٧٩ ، ج ٢ ص ٣٢٧ . ابن الاثير ، الكامل في التاريخ ج ٢ ص ٣٦٤ .
- (٢٦) كتب سعد بن ابي وقاص عن العرائ الى عمر بن الخطاب قال : « .. وعدنا قليل ، وقد كثر اهل صلحنا ، وان امر لنا واوهم لمدونا تالفهم » . ابو جعفر الطبري ، تاريخ الطبري ج ٣ ص ٥٨٥ .
- (٢٧) سورة الحشر الايات ٦-١٠ .
- (٢٨) ابو يوسف ، الخراج ص ٢٦-٢٧ .
- (٢٩) ابو يوسف ، الخراج ص ٢٤-٢٦ . الازدی ، فتوح الشام مخطوط ص ٤٧ . ابو عبيد بن سلام ، الاموال ص ٨٠-٨٧ . يحيى بن ادم ، الخراج ص ٢٧ . ابن عساکر ، تهذيب تاريخ دمشق ج ١ ص ١٨٢ .
- (٣٠) ابو حنيفة الدينوري ، الاخبار الطوال ص ١١٧ . ابو جعفر الطبري ، تاريخ الطبري ج ٣ ص ٥٩٤ .
- (٣١) ابو عبيد بن سلام ، الاموال ص ٢٠٥ . ابو جعفر الطبري ، تاريخ الطبري ج ٣ ص ٥٩٤ .
- (٣٢) خليفة بن خياط ، تاريخ خليفة ص ١٢٠ . البلاذري ، فتوح البلدان ج ١ ص ١٥٥ .
- (٣٣) ابو عبيد بن سلام ، الاموال ص ٢٥٧ . ابن عساکر ، تهذيب تاريخ دمشق ج ١ ص ١٧٦ .
- (٣٤) يوليوس فلهوژن ، تاريخ الدولة العربية ص ٢٧ .
- (٣٥) يوليوس فلهوژن ، تاريخ الدولة العربية ص ٢٨-٢٩ .
- (٣٦) بشأن مدلول لفظي « الجزية والخراج » انظر : محمد الرئيس ، الخراج والنظم المالية ص ١١٦-١٢٧ .
- (٣٧) دينيل دينيت ، الجزية ولاسلام ص ٣ ، ٤١ ، ٤٢ . يوليوس فلهوژن ، تاريخ الدولة العربية ص ٢٩ .

- (٣٨) دينيل دينيت ، الجزية والاسلام ص ٦٣،٦٠،٣٣ .
- (٣٩) المصدر نفسه ص ٤٠ .
- (٤٠) من الشواهد التي تدل على وجود ضريبتين : ضريبة الرأس (الجزية) وضريبة الارض (الخراج) : ما ذكره ابو يوسف عن محمد بن اسحاق عن الزهري قال : فترك (عمر) الارض واهلها ، وضرب عليهم الجزية ، واخذ الخراج من الارض . ابو يوسف ، الخراج ص ٢٨ ، ص ٣٥ . وما ذكره ابو عبيد قال : وفرق عمر بين خراج الرأس وخراج الارض . ابو عبيد بن سلام ، الاموال ص ٢١١ . وقال حسن بن صالح : واما سوادنا هذا ، فاننا سمعنا انه كان في ايدي النبط ، فظهر عليهم اهل فارس ، فكانوا يؤدون اليهم الخراج ، فلما ظهر المسلمون على اهل الجزية ، تركوا السواد ومن يقاتلهم من النبط والرهاقين على حالهم ، ووضعوا الجزية على رؤوس الرجال ، وقسموا عليهم ما كان في ايديهم من الارض ، ووضعوا عليها الخراج .
- انظر : يحيى بن ادم القرشي ، الخراج ص ٢٢ .
- (٤١) ابو هلال العسكري ، الاوائل ج ١ ص ٢٤٣ - ٢٤٤ .
- (٤٢) روى ابو جعفر الطبري عن ابن اسحاق قال : وافتتحت نهاوند ، فلم يكن للاعاجم بعد ذلك جماعة . انظر : ابو جعفر الطبري ، تاريخ الطبري ج ٤ ص ١١٦ . وانظر : د. صالح العلي ، التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية ص ١٣٣ .
- (٤٣) ابو يوسف ، الخراج ص ٢٧-٢٨ .
- (٤٤) الجهشباري ، الوزراء والكتاب ص ٥٠ . ابو حنيفة الدينوري ، الاخبار الطوال ص ٧١ . المسعودي ، التنبيه والاشراف ص ٨٩ . ابن الاثير ، الكامل في التاريخ ج ١ ص ٢٦٨ .
- (٤٥) ابن الاثير ، الكامل في التاريخ ج ١ ص ٢٦٨ .
- (٤٦) اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي ج ٢ ص ١٥٢ .
- (٤٧) ابو يوسف ، الخراج ص ٣٨ . ابو عبيد بن سلام ، الاموال ص ٩٨ . البلاذري ، فتوح البلدان ج ٢ ص ٣٣٠ - ٣٣١ .
- (٤٨) ابو عبيد بن سلام ، الاموال ص ١٠٣، ١٢١ .
- (٤٩) يذكر اليعقوبي جبايتين للسواد في خلافة عمر بن الخطاب بلغت الاولى ثمانين الف الف درهم وبلغت الثانية عشرين ومائة الف الف درهم ، فاذا كان التنظيم المالي في العراق بدا عام ٢١ هـ ، وحصلت الجباية الاولى عام ٢٢ هـ ، فتكون الجباية الثانية اخذت عام ٢٣ هـ على اساس التعديل الذي يمكن ان يكون تم عام ٢٢ هـ ، وقتل عمر بن الخطاب عام ٢٤ هـ . تاريخ اليعقوبي ج ٢ ص ١٥٢ .
- (٥٠) انظر : البلاذري ، فتوح البلدان ج ٢ ص ٣٣١ .
- (٥١) من اجل هذه الاختلافات ، انظر :
- ابو يوسف ، الخراج ص ٣٦ . ابو عبيد بن سلام ، الاموال ص ٩٦-٩٨ . اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي ج ٢ ص ١٥٢ . البلاذري ، فتوح البلدان ج ٢ ص ٣٢٩ - ٣٣٢ . ابو هلال العسكري ، الاوائل ج ١ ص ٢٤٤ .
- (٥٢) انظر : اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي ج ٢ ص ١٥٢ . البلاذري ، فتوح البلدان ج ٢ ص ٣٣٢-٣٣٣ .

- (٥٣) انظر : اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي ج ٢ ص ١٥٢ . البلاذري ، فتوح البلدان ج ٢ ص ٣٣٢-٣٣٣ .
- (٥٤) ابو عبيد بن سلام ، الاموال ص ٣٩٩ . ابو جعفر الطبري ، تاريخ الطبري ج ٣ ص ٥٨٦-٥٨٧ .
- (٥٥) يقول يحيى بن ادم بخصوص الصوالي : فذلك للمسلمين ، وهو الى الامام ، ان شاء اقام فيها من يعمرها ويؤدي الى بيت مال المسلمين عنها شيئاً ، ويكون الفضلة له ، وان شاء انفق عليها من بيت مال المسلمين ، واستاجر من يقوم فيها ، ويكون فضلها للمسلمين ، وان شاء اقطعها رجلاً ممن له غناء عن المسلمين . يحيى بن ادم القرشي ، الخراج ص ٢٢ .
- (٥٦) ابو عبيد بن سلام ، الاموال ص ٣٩٩ . البلاذري ، فتوح البلدان ج ٢ ص ٣٣٤ .
- (٥٧) ابويوسف ، الخراج ص ٢٨ . ابو جعفر الطبري ، تاريخ الطبري ج ٣ ص ٣٧٥ ، ٥٨٤ ، ٥٨٧ ، ج ٤ ص ٣٣ . ابو عبيد بن سلام ، الاموال ص ١١٦ - ١١٧ . البلاذري ، فتوح البلدان ج ٢ ص ٣٠٠ . دينيل دينيت ، الجزية والاسلام ص ٥٤ .
- (٥٨) ابو جعفر الطبري ، تاريخ الطبري ج ٤ ص ٥ ، ٣١ . البلاذري ، فتوح البلدان ج ٢ ص ٣٢٧ .
- (٥٩) الدوري ، النظم الاسلامية ص ١٢٥ . وكان عثمان بن حنيف بعد ان فرغ من عرضهم واحصائهم أعلم الدهاقين بعددهم وكسر الخواتيم . ابو يوسف ، الخراج ص ١٢٨ .
- (٦٠) ابو يوسف ، الخراج ص ١٢٨ ، ٢٧ . البلاذري ، فتوح البلدان ج ٢ ص ٣٣٢ .
- (٦١) كتب عمر بن الخطاب الى امراء الاجناد ان يضربوا الجزية ، ولا يضربوها على النساء والصبيان ، ولا يضربوها الا على من جرت عليه الموسى . ابو يوسف ، الخراج ص ١٢٨ . ابو عبيد بن سلام ، الاموال ص ٥١ ، ٥٥-٥٦ . البلاذري ، فتوح البلدان ج ١ ص ١٤٨ ، ١٨٠ . يحيى بن ادم القرشي ، الخراج ص ٧٣ .
- (٦٢) ابو جعفر الطبري ، تاريخ الطبري ج ٣ ص ٥٨٣ .
- (٦٣) ابو عبيد بن سلام ، الاموال ص ٥٥ .
- (٦٤) المصدر نفسه ص ٧٤ .
- (٦٥) ابو يوسف ، الخراج ص ١٢٢ - ١٢٣ . ابو عبيد بن سلام ، الاموال ص ٥٦ . البلاذري ، فتوح البلدان ج ٢ ص ٣٢٦ ، ٣٣٠ . ابو هلال العسكري ، الاوائل ج ١ ص ٢٤٥ .
- (٦٦) اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي ج ٢ ص ١٥٢ . البلاذري ، فتوح البلدان ج ٢ ص ٣٣٣ .
- (٦٧) ابو جعفر الطبري ، تاريخ الطبري ج ٤ ص ٣٢ . ابو عبيد بن سلام ، الاموال ص ٢١٣ - ٢١٤ .
- (٦٨) كان من عمال الخراج على السواد في خلافة عمر بن الخطاب : عثمان بن حنيف على ماسقى الفرات ، وجذيفة بن اليمان على ماسقى دجلة . انظر : ابو يوسف ، الخراج ص ٣٦-٤٨ .
- (٦٩) ابو عبيد بن سلام ، الاموال ص ٧٤ .
- (٧٠) اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي ج ٢ ص ١٥٢ . البلاذري ، فتوح البلدان ج ٢ ص ٣٣٢ .
- (٧١) ابو هلال العسكري ، الاوائل ج ١ ص ٢٤٥ .
- (٧٢) دينيل دينيت ، الجزية والاسلام ص ٥٧ .
- (٧٣) ابو يوسف ، الخراج ص ١٢٢ . ابو عبيد بن سلام ، الاموال ص ٩٠-٥١ .

- (٧٤) الازدي ، فتوح الشام ص ٨٢ . قدامة بن جعفر ، الخراج وصناعة الكتابة ص ٢٨٨ . البلاذري ، فتوح البلدان ج ١ ص ١٣٤ .
- (٧٥) البلاذري ، فتوح البلدان ج ١ ص ١٤٨ .
- (٧٦) قدامة بن جعفر ، الخراج وصناعة الكتابة ص ٢٩٠ ، ٣٠٠ . البلاذري ، فتوح البلدان ج ١ ص : ١٣٧ ، ١٣٩ ، ١٥٥ ، ١٥٦ ، ١٦٤ ، ١٧٩ .
- (٧٧) البلاذري ، فتوح البلدان ج ١ ص ١٤٨ .
- (٧٨) أبو يوسف ، الخراج ص ١٣٨ . أبو عبيد بن سلام ، الاموال ص ٥٥ ، ٦٩٥ . يحيى بن آدم القرشي ، الخراج ص ٧٣ . البلاذري ، فتوح البلدان ج ١ ص ١٤٨ . ابن عساكر ، تهذيب تاريخ دمشق ج ١ ص ١٥١ .
- (٧٩) البلاذري ، فتوح البلدان ج ١ ص ١٥٧ .
- (٨٠) المصدر نفسه ج ١ ص ١٨٧ .
- (٨١) ابن عساكر ، تهذيب تاريخ دمشق ج ١ ص ١٧٦ .
- (٨٢) دينيل دينيت ، الجزية والاسلام ص ٩٦ - ٩٧ .
- (٨٣) ابن عساكر ، تهذيب تاريخ دمشق ج ١ ص ١٨٣ - ١٨٤ .
- (٨٤) اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي ج ٢ ص ٢٣٣ - ٢٣٤ .
- (٨٥) الجهشياري ، الوزراء والكتاب ص ٢٨٦ - ٢٨٧ .
- (٨٦) قدامة بن جعفر ، الخراج وصناعة الكتابة ص ١٧٥ - ١٧٦ .
- (٨٧) أبو يوسف ، الخراج ، ص ٤١ . البلاذري ، فتوح البلدان ج ١ ص ٢٠٥ .
- (٨٨) البلاذري ، فتوح البلدان ج ١ ص ٢٠٦ - ٢٠٨ . قدامة بن جعفر ، الخراج وصناعة الكتابة ص ٣١٣ .
- (٨٩) أبو يوسف ، الخراج ص ٢٠ - ١٢١ . البلاذري ، فتوح البلدان ج ١ ص ٢١٦ .
- (٩٠) قدامة بن جعفر ، الخراج وصناعة الكتابة ص ٣١٤ . البلاذري ، فتوح البلدان ج ١ ص ٢١١ .
- (٩١) أبو يوسف ، الخراج ص ٤٠ . الدوري ، النظم الاسلامية ص ١٢٨ .
- (٩٢) اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي ج ٢ ص ٢٣٣ - ٢٣٤ .
- (٩٣) ابن عبد الحكم ، فتوح مصر ص ٦٠ .
- (٩٤) البلاذري ، فتوح البلدان ج ١ ص ٢٥٠ . قدامة بن جعفر ، الخراج وصناعة الكتابة ص ٣٢٧ .
- (٩٥) البلاذري ، فتوح البلدان ج ١ ص ٢٥٢ .
- (٩٦) ابن عبد الحكيم ، فتوح مصر ص ٨٥ .
- (٩٧) المصدر نفسه ص ٨٢ - ٨٤ .
- (٩٨) البلاذري ، فتوح البلدان ج ١ ص ٢٥٠ . قدامة بن جعفر ، الخراج وصناعة الكتابة ص ٣٢٧ .

- (٩٩) ابن عبد الحكم ، فتوح مصر ص ٧٠ ، ٧٢ . البلاذري ، فتوح البلدان ج ١ ص ٢٥٢ . قدامة بن جعفر ، الخراج وصناعة الكتابة ص ٣٣٧ .
- (١٠٠) البلاذري ، فتوح البلدان ج ١ ص ٢٥٢ .
- (١٠١) ابن عبد الحكم ، فتوح مصر ص ٩٠ .
- (١٠٢) ابن عبد الحكم ، فتوح مصر ص ٧٢،٧٠ .
- (١٠٣) البلاذري ، فتوح البلدان ج ١ ص ٢٥٤ . قدامة بن جعفر ، الخراج وصناعة الكتابة ص ٣٣٨ .
- (١٠٤) البلاذري ، فتوح البلدان ج ١ ص ٢٥٣ .
- (١٠٥) دينيل دينيت ، الجزية والاسلام ص ١٥٠ - ١٥١ .
- (١٠٦) المقرئ ، خطط المقرئ ج ١ ص ١٣٦ - ١٣٧ .
- (١٠٧) ابن عبد الحكم ، فتوح مصر ص ١٥٢-١٥٣ . المقرئ ، خطط المقرئ ج ١ ص ١٤١ .
- (١٠٨) البلاذري ، فتوح البلدان ج ١ ص ٢٥٣ ، ٢٥٦ . قدامة بن جعفر ، الخراج وصناعة الكتابة ص ٣٤٠ .
- (١٠٩) ابو جعفر الطبري ، تاريخ الطبري ج ٤ ص ٢٥٧ .
- (١١٠) المقرئ ، خطط المقرئ ج ١ ص ١٤٤ ، ١٨٢ .
- (١١١) اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي ج ٢ ص ١٥٤ .
- (١١٢-١١٣-١١٤) المقرئ ، خطط المقرئ ج ١ ص ١٤٤-١٤٥ .
- (١١٥) المقرئ ، خطط المقرئ ج ١ ص ١٨٢ .
- (١١٦) محمد الرئيس ، الخراج والنظم المالية ص ٤٩ - ١٥٥ .
- (١١٧) البلاذري ، فتوح البلدان ج ١ ص ٢٦٤ .
- (١١٨) المصدر نفسه ج ١ ص ٢٦٦ .
- (١١٩) ابو جعفر الطبري ، تاريخ الطبري ج ٤ ص ٢٥٦ .
- (١٢٠) ابو جعفر الطبري ، تاريخ الطبري ج ٤ ص ٢٦٢ ، ٢٦٣ . البلاذري ، فتوح البلدان ج ١ ص ٢٦٨ - ٢٦٧ .
- (١٢١) البلاذري ، فتوح البلدان ج ١ ص ٢٨١ .
- (١٢٢) ابو جعفر الطبري ، تاريخ الطبري ج ٤ ص ١٢٨ .
- (١٢٣) البلاذري ، فتوح البلدان ج ٢ ص ٣٧٥ . قدامة بن جعفر ، الخراج وصناعة الكتابة ص ٣٧١ .
- (١٢٤) البلاذري ، فتوح البلدان ج ٢ ص ٣٧٧ ، ٣٨٠ ، ٣٩٥ . قدامة بن جعفر ، الخراج وصناعة الكتابة ص ٣٧٢ ، ٣٧٣ .
- (١٢٥) ابو جعفر الطبري ، تاريخ الطبري ج ٤ ص ١٣٧ ، ١٤٧ ، ١٥١ ، ١٥٢ ، ١٥٥ ، ١٥٧ ، ١٧٤ ، ١٧٥ .

- (١٢٦) البلاذري ، فتوح البلدان ج ٢ ص ٣٩٠ .
- (١٢٧) المصدر نفسه ج ٢ ص ١٤٠ .
- (١٢٨) المصدر نفسه ج ٢ ص ٢٨٣ - ٢٨٤ .
- (١٢٩) خليفة بن خياط ، تاريخ خليفة ص ١٣٤ ، ١٣٦ .
وانظر : ابو جعفر الطبري ، تاريخ الطبري ج ٤ ص ٧٨ - ٧٩ .
- (١٣٠) خليفة بن خياط ، تاريخ خليفة ص ١٥١ ، ١٥٨ .
- (١٣١) المصدر نفسه ص ١٥٩ .
- (١٣٢) اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي ج ٢ ص ١٦٧ .
- (١٣٣) ابو جعفر الطبري ، تاريخ الطبري ج ٤ ص ٣٠٣ .
- (١٣٤) خليفة بن خياط ، تاريخ خليفة ص ١٦٥ .
- (١٣٥) البلاذري ، فتوح البلدان ج ٣ ص ٤٩٩ - ٥٠١ .
- (١٣٦) قدامة بن جعفر ، الخراج وصناعة الكتابة ص ٤٠٤ .
- (١٣٧) خليفة بن خياط ، تاريخ خليفة ص ١٦٥ .
- (١٣٨) قدامة بن جعفر ، الخراج وصناعة الكتابة ص ٣٩٢ .
- (١٣٩) البلاذري ، فتوح البلدان ج ٣ ص ٥٢١ .
- (١٤٠) انظر : قدامة بن جعفر ، الخراج وصناعة الكتابة الصفحات : ٣٧٤ ، ٣٧٨ ، ٣٨٤ ، ٣٨٨ ، ٣٩٢ ، ٣٩٣ ، ٤٠١ ، ٤٠٢ ، ٤٠٤ . وانظر : دنييل دينيت ، الجزية والاسلام ص ١٨٥ . الدوري ، النظم الاسلامية ص ١٠٥ - ١٥١ .
- (١٤١) انظر : الجهشياري ، الوزراء والكتاب ص ٢٨١ - ٢٨٦ .
- (١٤٢) ابن حبيب ، المحبر ص ٢٦٤ - ٢٦٦ .
- (١٤٣) ابو عبيد بن سلام ، الاموال ص ٧٠٣ .
- (١٤٤) قدامة بن جعفر ، الخراج وصناعة الكتابة ص ٢٤١ . ابو عبيد بن سلام ، الاموال ص ٧٠٧ .
- (١٤٥) ابو عبيد بن سلام ، الاموال ص ٧٠٦ ، ٧٠٩ .
- (١٤٦) قدامة بن جعفر ، الخراج وصناعة الكتابة ص ٢٤٢ .
- (١٤٧) يحيى بن ادم القرشي ، الخراج ص ٢٥ .
- (١٤٨) الدوري ، النظم الاسلامية ص ١٣٦ .
- (١٤٩) ابو عبيد بن سلام ، الاموال ص ٧١٢ .
- (١٥٠) المصدر السابق نفسه ص ١٧١ ، يحيى بن ادم القرشي ، الخراج ص ١٧٩ .
- (١٥١) الماوردي ، الاحكام السلطانية ص ١١٣ .
- (١٥٢) الشافعي ، الام ج ٢ ص ١٤ باب الزكاة . ابو عبيد بن سلام ، الاموال ص ٥٦٣ .

- (١٥٣) ابو هلال العسكري ، الاوائل ج ١ ص ٢٦٥ .
- (١٥٤) المصدر نفسه ج ١ ص ٢٦٥ .
- (١٥٥) ابو عبيد بن سلام ، الاموال ص ٥٧٧ .
- (١٥٦) الشيباني ، شرح السير الكبير ج ٥ ص ٢١٢٣-٢١٢٤ .
- (١٥٧) الشافعي ، الام ج ٢ ص ١٧ باب الزكاة . ابو عبيد بن سلام ، الاموال ص ٥٥٥ .
- (١٥٨) ابو عبيد بن سلام ، الاموال ص ٥٥٦-٥٥٢ .
- (١٥٩) ابو عبيد بن سلام ، الاموال ص ٥١٤-٥١٥ .
- (١٦٠) الشافعي ، الام ج ٢ ص ١٤ باب الزكاة .
- وانظر : صالح العلي ، تنظيم جباية الصدقات في القرن الاول الهجري ، مجلة العرب الجزء العاشر السنة الثالثة تموز ١٩٦٩ ص ٨٧٠ - ٨٧٣ .
- (١٦١) ابو عبيد بن سلام ، الاموال ص ٧٨٢ - ٧٨٣ .
- (١٦٢) ابو عبيد بن سلام ، الاموال ص ٧٨٤ - ٧٨٥ .
- (١٦٣) البلاذري ، فتوح البلدان ج ١ ص ٢١٤ .
- (١٦٤) انظر : الشافعي ، الام ج ٢ ص ٢٩-٣٠ . ابو عبيد بن سلام ، الاموال ص ٦٣٧-٦٣٩ ، ٦٦٧ ، ٦٧١ . يحيى بن ادم القرشي ، الخراج ص ١١٢ ، ١٥٠ .
- (١٦٥) الشيباني ، شرح السير الكبير ج ٤ ص ٢٠٨٥ . ابو عبيد بن سلام ، الاموال ص ٤١٩ .
- (١٦٦) البلاذري ، انساب الاشراف ج ٥ ص ٢٨ .
- (١٦٧) ابو يوسف ، الخراج ص ٢٤ . ابو عبيد بن سلام ، الاموال ص ٣٧٣-٣٧٤ .
- (١٦٨) ابو عبيد بن سلام ، الاموال ص ٢٥ .
- (١٦٩) جاء التقدير اعتمادا على ان خراج مصر كان اربعة ملايين دينار ، وخراج الشام مليون ونصف دينار ، وخراج الجزيرة خمس وخمسون مليون درهم أي ما يعادل اربعة ملايين ونصف المليون من الدنانير ، وخراج العراق مائة مليون درهم أي ما يعادل ثمانية ملايين دينار .
- (١٧٠) نذكر من الحالات الاستثنائية ، ان عمر بن الخطاب فرض لكل واحدة من أزواج الرسول (ص) عشرة الاف درهم ، الا عائشة ، فانه فرض لها اثني عشر الف درهم ، والحق بهن جويرية بنت الحارث وصفية بنت حيي، وقيل بل فرض لكل واحدة منهن ستة الاف درهم .
- والحق باهل بدر العباس بن عبد المطلب والحسن والحسين لكانتهم من رسول الله (ص) وقيل الحق بهما ابا ذر وسلمان الفارسي ، وقيل فرض للعباس اثني عشر الفا ، وقيل فرض له سبعة الاف درهم .
- انظر : ابو جعفر الطبري ، تاريخ الطبري ج ٣ ص ٦١٤-٦١٥ . ابو يوسف ، الخراج ص ٤٢-٤٤ .
- الملاوردي ، الاحكام السلطانية ص ٢٠١ . البلاذري ، فتوح البلدان ج ٤ ص ٥٤٨ .
- (١٧١) انظر : ابو يوسف ، الخراج ص ٤٤ . البلاذري ، فتوح البلدان ج ٣ ص ٥٥٠-٥٥١ .

- (١٧٢) ابو جعفر الطبري ، تاريخ الطبري ج ٣ ص ٦١٥ .
- (١٧٣) البلاذري ، فتوح البلدان ج ٣ ص ٥٥٣ . الماوردي ، الاحكام السلطانية ص ٢٠١ .
- (١٧٤) ابن عبد الحكم ، فتوح مصر ص ١٤٥ . ابو عبيد بن سلام ، الاموال ص ٣٢٣ .
- (١٧٥) ابو جعفر الطبري ، تاريخ الطبري ج ٤ ص ٩٠-٩١ . وانظر : يحيى بن ادم القرشي ، الخراج ص ٦٠ .
- (١٧٦) البلاذري ، فتوح البلدان ج ٣ ص ٥٥٢ .
- (١٧٧) ابو جعفر الطبري ، تاريخ الطبري ج ٣ ص ٦١٤-٦١٥ .
- (١٧٨) ابو عبيد بن سلام ، الاموال ص ٢٣٨ .
- (١٧٩) ابو يوسف ، الخراج ص ٤٦ .
- (١٨٠) اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي ج ٢ ص ١٥٠ . البلاذري ، فتوح البلدان ج ٣ ص ٥٥٢ .
- (١٨١) ابو يوسف ، الخراج ص ٤٧ .
- ابو جعفر الطبري ، تاريخ الطبري ج ٣ ص ٦١٥ . ابو عبيد بن سلام ، الاموال ص ٢٥١-٢٥٢ .
- (١٨٢) ابو جعفر الطبري ، تاريخ الطبري ج ٤ ص ٤٣ .
- (١٨٣) المصدر نفسه ج ٤ ص ٢٤٦ .
- (١٨٤) انظر : المصدر نفسه ج ٣ ص ٥٩٧ ، ج ٤ ص ٢٩٤ . البلاذري ، فتوح البلدان ج ٦ ص ١٥ .
- (١٨٥) ابو جعفر الطبري ، تاريخ الطبري ، ج ٤ ص ٤٨ .
- (١٨٦) المصدر نفسه ج ٤ ص ٤٣ .
- (١٨٧) انظر : ابن عبد الحكم ، فتوح مصر ص ١٦٦ . البلاذري ، فتوح البلدان ج ١ ص ٢٥٢ ، ٢٥٣ .
- ابو جعفر الطبري ، تاريخ الطبري ، ج ٢ ص ٤٦٦ ، ٤٦٩ ، ٤٧٠ ، ٤٧٤ .
- (١٨٨) ابو جعفر الطبري ، تاريخ الطبري ج ٤ ص ٢١٠-٢١١ .
- (١٨٩) اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي ج ٢ ص ١٥٢ .
- (١٩٠) ابن عبد الحكم ، فتوح مصر ص ١٩٢ .
- (١٩١) ابو يوسف ، الخراج ص ٤٦ .
- (١٩٢) ابو جعفر الطبري ، تاريخ الطبري ج ٤ ص ١٩٤ ، ٢٤٥ .
- (١٩٣) انظر : البلاذري ، فتوح البلدان ج ٢ ص ٣٣٥ . ابن عساكر ، تهذيب تاريخ دمشق ج ١ ص ١٨٤ .
- يحيى بن ادم القرشي ، الخراج ص ٧٩ .
- وقيل ان سعيد بن العاص الاموي قال وهو وال لعثمان بن عفان على الكوفة ، انما هذا السواد بستان لقريش ، فقال الاشتر النخعي ، اترجم ان السواد الذي افاده الله علينا بمسيفتنا بستان لك ولقومك .
- تاريخ الطبري ج ٤ ص ٣٢٣ .
- (١٩٤) اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي ج ٢ ص ١٨٣ .

- (١٩٥) ابو عبيد بن سلام ، الاموال ص ٣١٩ .
- (١٩٦) المصدر نفسه ص ٢٢٤ - ٢٢٥ .
- (١٩٧) ابو عبيد بن سلام ، الاموال ص ٢٣٠ .
- ويورد ابن عساكر حديث بريدة لاسامة قال له ، شهدت رسول الله (ص) يوصي اباك ان يدعوهم الى الاسلام ، فان اطاعوه خيرهم ، فان احبوا ان يقيموا في ديارهم ويكونوا كاعوان للمسلمين فلا شيء لهم في الفداء ولا في الفدية ، الا ان يجاهدوا مع المسلمين ، وان تحولوا الى دار الاسلام كان لهم ما للمهاجرين ، وعليهم ما على المهاجرين .
- ابن عساكر ، تهذيب تاريخ دمشق ج ١ ص ١٢٤ .
- (١٩٨) ابو عبيد بن سلام ، الاموال ص ٣٢٦ .
- (١٩٩) اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي ج ٢ ص ١٦٤ ، ١٦٦ . خليفة بن خياط ، تاريخ خليفة ص ١٥٩ ، ١٦٣ .
- (٢٠٠) البلاذري ، فتوح البلدان ج ٢ ص ٤١٠ ، ٤٢١ .
- (٢٠١) انظر : صالح العلي ، التنظيمات في البصرة ص ١٦٥ - ١٧٠ .
- (٢٠٢) الازدي ، فتوح الشام ص ٢٥٣ - ٢٥٤ . ابو جعفر الطبري ، تاريخ الطبري ج ٣ ص ٦١٧ . المسعودي مروج الذهب ج ٢ ص ٢١٣ - ٢١٥ . ابن الاثير ، الكامل في التاريخ ج ٢ ص ٣٥٢ .
- (٢٠٣) ابو جعفر الطبري ، تاريخ الطبري ج ٤ ص ٢٠٨ .
- (٢٠٤) سورة النساء اية ٦ .
- (٤٠٥) ابن عبد الحكم ، فتوح مصر ص ١٧٩ .
- (٢٠٦) انظر : اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي ج ٢ ص ١٥٧ . ابو عبيد بن سلام ، الاموال ص ٣٨١ - ٣٨٢ . ابن عبد الحكم ، فتوح مصر ص ١٤٧ - ١٤٨ .
- ومما يروي ان خالد بن الصق وقيل عمرو بن الصق شكى الى عمر بن الخطاب ما عليه الولاة من جمع المال وكتب ذلك شعرا قال :
- | | |
|--------------------------------|-------------------------------|
| ابلق امر المؤمنين رسالة | فانت ولي الله في المال والامر |
| فارسل الى النعمان فاعلم حسابه | وارسل الى جزء وارسل الى بشر |
| ولا تنسين النافعين كليهما | وصهر بني غزوان عندك ذا وفر |
| اذا التاجر الهندي جاء بغارة | من المسكراحت في مفارقهم تجري |
| نبيع اذا باعوا ونغزوا اذا غزوا | فاني لهم مال ولسنا بذي وفر |
| فقاسمهم نفسي فداؤك انهم | سيرضون ان قاسمتهم منك بالشر |
- وفي ظني ان الاسماء الواردة في هذا الشعر هي لعمال في خلافة معاوية وليس في خلافة عمر ، ولكن مقاسمة عمر للعمال جرت .
- انظر من اجل الشعر : ابن عبد الحكم ، فتوح مصر ص ١٤٦ - ١٤٩ .
- (٢٠٧) ابن الطقطقي ، الفخري ص ٧٣ ، ٧٢٩ .
- (٢٠٨) ابو جعفر الطبري ، تاريخ الطبري ج ٤ ص ٤٢٣ .
- (٢٠٩) ابن عبد الحكم ، فتوح مصر ص ١٤١ - ١٤٢ .

- (٢١٠) المسعودي ، مروج الذهب ج ٢ ص ٣٤١-٣٤٢ .
- (٢١١) عمر بن شبة ، تاريخ المدينة المنورة ج ١ ص ٢١٩-٢٢٥ .
- (٢١٢) المسعودي ، مروج الذهب ج ٢ ص ٣٢٢ .
- (٢١٣) المصدر نفسه ج ٢ ص ٣٤٢ .
- (٢١٤) ابن خلدون ، المقدمة ص ١٥٣-١٥٤ .
- (٢١٥) من اجل كتاب صدقة علي بن ابي طالب ، انظر : زيد بن شبة ، تاريخ المدينة المنورة ج ١ ص ٢٢٦ - ٢٢٨ .
- (٢١٦) زيد بن شبة ، تاريخ المدينة المنورة ج ١ ص ٢٣٠ .
- (٢١٧) المصدر نفسه ج ٢ ص ٧٥٦ - ٧٥٧ .
- (٢١٨) صالح العلي ، التنظيمات في البصرة ص ١٧٤ ، ١٧٥ ، ١٨١ .
- (٢١٩) ابو يوسف ، الخراج ص ٣٧ ، ابو عبيد بن سلام ، الاموال ص ٥٦-٥٧ .
- (٢٢٠) انظر : الدوري ، تاريخ العراق الاقتصادي ص ٥٩ . مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي ص ٢٩ . جمال جودة ، العرب والارض في صدر الاسلام ص ١١٠-١١١ .
- (٢٢١) ابو جعفر الطبري ، تاريخ الطبري ج ٣ ص ٥٨٧ .
- (٢٢٢) ابو يوسف ، الخراج ص ١١٤ .
- (٢٢٣) ابو عبيد بن سلام ، الاموال ص ٦٢-٦٣ .
- (٢٢٤) انظر : يحيى بن ادم القرشي ، الخراج ص ٢٢ .
- (٢٢٥) ابو يوسف ، الخراج ص ١٢٥ .
- (٢٢٦) انظر : فون كريمر ، تاريخ الحضارة في الشرق ج ١ ص ١٧١ .



البلقاء

من الفتح الإسلامي حتى نهاية القرن الثالث الهجري
(دراسة سياسية إدارية)

د. محمد عبد القادر خريسات
الجامعة الأردنية

الاسم والمداول

ورد اسم البلقاء في المعاجم العربية والمصادر الجغرافية والتاريخية الإسلامية غير أن هذه المصادر لم تتفق على معنى الاسم ومدلوله .

ففي المعاجم العربية جاءت كلمة ((البلقاء)) بمعنى مختلفة ، ومشتقة من الألفاظ التالية :

أبلىق : بمعنى السواد والبياض المختلطين ولذلك قيل أبلىق وبلقاء لمن كانت فيه هاتان الصفتان . ووردت كذلك بمعنى الفتح ، أي أبلىق الباب بمعنى انفتح . والبلقاء تانيث لكلمة أبلىق ، والبلوقة الأرض القفر التي لا ينبت فيها الشجر . أما كلمة البلقاء نفسها فقد جاءت بمعنى الفسطاط والأرض المستوية (١) .

هذا من الناحية اللغوية ، أما من الناحية الاصطلاحية فالبلقاء شأنها شأن المسميات الأخرى في بلاد الشام التي نسبت إلى أقوام أو أشخاص سكنوا هذه المنطقة ، فكان أن نسبها بعض الجغرافيين والتاريخيين إلى بلىق بن مآب أو إلى بلىق ابن سويرية من بني عمان ، أو بلىقاء بن صفر (٢) . وبلىق هذا هو ملك المؤابيين الذي استعان

بالعرفاء بلعام Balaam ليصب لعنته على اليهود (٢) . ومن خلال ما تقدم فان تسمية البلقاء قد جاءت إما من الاشتقاق اللغوي ، وإما بنسبتها الى شخص ما . وهنا لابد من مناقشة الأمرين علنا نتوصل الى عامل مرجح لهذه التسمية .

ان نسبة الاسم الى الاشتقاق اللغوي المأخوذ من البلوقة ، أي الارض القفر التي لا تنبت الشجر ، لا ينطبق وواقع البلقاء التي اشتهرت بخصوبة تربتها وبحسن انتاجها لمحبوب خاصة القمح الذي ضرب به المثل (٤) ، ولا لكثرة غاباتها التي كانت منتشرة في الزرقاء الى الشرق من عمان حتى أطلق عليها اسم « المسبعة » (٥) لكثرة سباع غاباتها ، ولا لغابات السلط الكثيفة الواقعة الى الغرب من عمان حيث جاءت تسمية المدينة من الكلمة اللاتينية Saltus (٦) أي الغابات الكثيفة . هذا بالإضافة الى الاشجار المثمرة التي كانت منتشرة في معظم أنحاء البلقاء كما سنرى . لكل ذلك يستبعد ان تكون البلقاء قد اخذت اسمها من الاشتقاق اللغوي لكلمة البلوقة التي جاءت بمعنى الارض القفر .

ومن ناحية نسبتها الى شخص معين « كبالق » فان هذه التسمية بعيدة الاحتمال لكون كثير من الجغرافيين كانوا يلجأون الى مثل هذه التسميات قياسا على مناطق نسبت فعلا الى أشخاص معينين . هذا من ناحية ، ومن ناحية ثانية ان التوراة لم تورد هذه التسمية ، كما أنها لم تشر الى أن بالق بن صفور (٧) ملك المؤابيين هذا قد أطلق اسمه على بعض المناطق التي كانت تحت سيطرته ، بالإضافة الى أن حدود المؤابيين لم تتجاوز وادي الموجب في حين كانت سهول ميدبا (مادبا اليوم) وحشبون (حسبان اليوم) من أملاك الاموريين (٨) وربة عمون من أملاك العمونيين (٩) . وهذه المناطق هي من أرض البلقاء فلا يعقل ان يطلق الاموريون والعمونيون على مناطقهم اسم ملك بلد مجاور . وهذا يرجح ان التسمية قد اطلقت في وقت متأخر عن بالق بن صفور ، لكن الجغرافيين نسبوها الى بالق ملك المؤابيين حتى يصفوا على هذه التسمية شيئا من الاهمية .

ومما يدعم احتمال بعد هذه التسمية ان المصادر التي ذكرت نسب بالق هذا قد جاءت مختلفة ولم تتفق على نسق واحد في تسلسل هذا النسب (١٠) .

ومن الجدير بالذكر أيضا ان هناك مناطق أخرى قد سميت « بالبقاء » دون ان تنسب الى أسماء أشخاص كما نسبت البلقاء موضوع الدراسة (١١) .

ومما تقدم فان أحد الاشتقاقات اللغوية لكلمة البلقاء بمعنى البلق أي السواد

والبياض المختلطين ، وبمعنى الارض المستوية ، هما أقرب الاحتمالات لمصدر هذه التسمية للأمور التالية :

١ - ان منطقة البلقاء كانت مطروقة لعرب الجزيرة العربية منذ عصور ما قبل الميلاد ، بل أن بعض الدول اليمنية قد أقامت لها مستوطنات على الطريق التجاري كعمان التي كانت مستعمرة هامة للمعنيين (١٢) وقد حملت هذه المستعمرة اسمهم فسميت بيت بعل معون (١٣) .

٢ - ان هجرة القبائل العربية الى اطراف الشام قد بدأت مع مطلع الالف الاول قبل الميلاد ، ثم ظهرت بصورة متزايدة في القرن الثالث الميلادي ، ومن هذه القبائل قضاة التي غلبت على معظم مناطق البلقاء (١٤) واتخذت لها راية سمتها « البلق » (١٥) والبلق كما رأينا من الاشتقاقات اللغوية لكلمة البلقاء ، ولعل في هذه التسمية ارتباط بين الراية ومناطق قضاة في هذه المنطقة .

٣ - ضمت البلقاء مناطق جبلية بيضاء أشار اليها المقدسي في اواخر القرن الرابع بقوله (١٦) :

« ان بعمان جبال بيض تسمى الحوارة فيه أدنى صلابة يبيض به السقوف ويطين به السطوح . . » .

والى جانب القمم البيضاء وجدت الغابات في جبال وسهول البلقاء ، بالإضافة الى ان المنطقة المتاخمة لها من الجهة الشمالية والشمالية الغربية قد أطلق عليها اسم السواد ، فذكر ياقوت (١٧) بأن السواد موضعان : أحدهما قرب البلقاء سميت بذلك لسواد حجارتها . . والاخر بالعراق سمي بذلك لسواده بالزروع والنخيل والاشجار .

٤ - الى جانب مناطق السواد والبياض في البلقاء ضمت هذه المنطقة اراضي مستوية واسعة في سهول حسيبان او مناطق الازرق او مناطق معان .

وفي ضوء ما تقدم يمكن القول بان كلمة البلقاء كلمة عربية جاءت من الاشتقاق اللغوي للبلق وهو بمعنى السواد والبياض والارض المستوية وليس من نسبتها الى شخص معين كما نقلت لنا بعض المصادر .

حدود البلقاء :

ان اختلاف التقسيمات الادارية عبر العصور الاسلامية ادى الى عدم اتفاق

المصادر على تعيين حدود البلقاء ، ورغم هذه الاختلاف فإنه يمكن رسم الصورة التالية لحدود البلقاء خلال فترة هذه الدراسة .

ان حد البلقاء من الجنوب هو الحد الفاصل بين بلاد الشام والجزيرة العربية ، وفي هذا الحد تقع بادية الشام وبادية الجزيرة ، فتيماء وبرية خشاف الى قرب وادي القرى والحجر من بادية الجزيرة ، واما حد بادية الشام فأوله ايلة وديار طيء وبذلك تصبح ايلة أول حد البلقاء من الجنوب . وهذا يخالف ما ذكره ياقوت من أن وادي القرى هو الحد الفاصل بين الجزيرة العربية وبلاد الشام (١٨) . وعلى هذا الاساس تقريبا جرى رسم الحدود بين الاردن والسعودية في الوقت الحاضر . ومن الغرب فقد سارت حدود البلقاء الى الغرب من الطريق التجاري القديم المار من بصرى والمتجه جنوبا الى نهر الزرقاء ، ومن جنوب نهر الزرقاء كان نهر الاردن وامتداده « وادي عربية » الى ايلة (العقبة) هو الحد الفاصل عن جند فلسطين الذي امتد عرضه من يافا الى اريحا (١٩) . ومن الشمال وصلت حدود البلقاء الى أذرعات والبثنية فما كان من جنوبها فهو من البلقاء (٢٠) .

ومن الشرق امتدت البلقاء الى ما بعد منطقة الازرق حيث بادية الشام (٢١) . وهكذا نجد أن البلقاء قد اطلقت على جميع المنطقة التي سميت فيما بعد بشرق الاردن باستثناء المنطقة الواقعة الى الغرب من الخط التجاري القديم الممتد من بصرى الى الجنوب والمحصورة بين نهري اليرموك شمالا والزرقاء جنوبا ، اذ كانت هذه المنطقة من جند الاردن (٢٢) . وقد قدرت المسافة بين القدس والبلقاء بمرحلتين ومن مشارف حوران الى البلقاء بثلاث مراحل (٢٣) .

وفي العصور الحديثة استقرت حدود البلقاء بالمنطقة المحصورة بين نهر الزرقاء شمالا ونهر الموجب جنوبا الى نهر الاردن غربا والازرق والبادية شرقا (٢٤) .

البلقاء عند الفتح الاسلامي :

كشفت الحفريات الاثرية في بعض مناطق البلقاء ان هذه المنطقة كانت مأهولة منذ العصور الحجرية القديمة (٢٥) ، ومع بداية القرن الثالث عشر قبل الميلاد نشأ في هذه المنطقة ممالك صغيرة كان من أهمها الادوميون والمؤابيون في جنوب البلقاء والاموريون والعمونيون في شمالها . وفي مطلع القرن الاول قبل الميلاد نشأت في جنوب البلقاء دولة عربية هي دولة الأنباط التي بلغت أوج مجدها زمن الملك الحارث الرابع (٩٠ ق.م - ٤٠ م) وامتد نفوذها على شرق الاردن اليوم جميعها وجنوب فلسطين وحتى حدود دمشق وشمال الجزيرة العربية (٢٦) .

وفي هذه الفترة ، أي القرن الاول قبل الميلاد ، بدأت هجرة القبائل العربية الى أطراف الشام . ثم تتابعت في القرن الثالث الميلادي فكانت قضاة من أوائل القبائل المهاجرة واستقرت في البلقاء (٢٧) . وفي أواخر القرن الثالث الميلادي هاجرت قبيلة غسان برئاسة عمرو مزقياء بن عامر بن ماء السماء واستوطنت أول أمرها البلقاء (٢٨) ثم استولت بعد ذلك على مناطق سليح في حوران واقامت في الشام مملكة الغساسنة التي امتد نفوذها زمن الملك جبلة الاول (ت ٤٩٧ م) الى فلسطين (٢٩) .

ومع مطلع القرن السادس الميلادي دب الضعف في مملكة الغساسنة الذين انقسموا الى خمس عشرة فرقة على كل منها رئيس او شيخ ، كان أبرزها آل جفنة . وبذكر ابن سعيد الاندلسي (ت ٦٨٥ هـ / ١٢٥٩ م) ان الروم قد أخذت دمشق من آل جفنة بعد ان ضعفت مملكتهم وأخرجتهم الى عمان مدينة البلقاء ، وجعلت دمشق متنزها للوكةم (٣٠) .

وقبيل الفتح الاسلامي سكنت قبيلة غسان البلقاء في مناطق أذرح ومعان والقسطل وعمان بالإضافة الى حوض اليرموك والجولان وصيدا وجبلة (٣١) . هذا وقد ترك الغساسنة آثارا متعددة في البلقاء منها صرح الغدير ، وهو عبارة عن حمام شيده عمرو بن جفنة في المنطقة المحاذية لحوران في السهل الواقع الى الشرق من قصر الحلابات (٣٢) ، وقصر أبير (باير) ، وقصر معان وشيدهما الحارث بن جبلة (٣٣) ، وقصر القسطل الواقع على بعد ٨ كم الى الغرب من المشتى ، ويعتقد بان جبلة بن الحارث قد أمر ببنائه بالإضافة الى القناطر وأذرح (٣٤) .

وشارك الغساسنة في البلقاء قبائل منها جذام التي امتدت مناطقها من وادي القرى وبادية الشام الى حسمى وأذرح وجبال الشراة ومعان وأيلة الى حدود فلسطين (٣٥) ، وقد جعل هذا الاتساع منها قبيلة قوية تقف على قدم المساواة مع مملكتي كندة والغساسنة (٣٦) . ومنها عذرة ما بين وادي القرى والبلقاء (٣٧) ، ولخم في جنوب البلقاء بالإضافة الى مناطقها في الجولان وحوران والبشنة ونوى (٣٨) ، وقضاة في أيلة وجبال مؤاب وبادية الشام مما دعا الروم الى استعمالهم على هذه البادية (٣٩) ، ومنها سليح ما بين غزة وجبال الشراة والموقر وخارج البلقاء في السلمية وحوران (٤٠) ، وبلي خاصة بني أراشة جنوب البلقاء قرب مؤتة (٤١) ، كما استقرت بعض فروعها في غرندل بالإضافة الى منطقة الحياتيات في كورة جرش والجولان ونوى والبشنة (٤٢) .

مما تقدم نرى ان البلقاء كان يقطنها عند الفتح الاسلامي قبائل غسان وجذام وعذرة ولخم وقضاة وسليح وبلي ، وقبائل اقل شأنًا مثل بهراء وبلقين في غرندل (٤٣) .

وكان للبلقاء قبل الفتح الاسلامي أهمية تجارية كبرى نظرا لموقعها على الطريق التجاري الواصل من قلب الجزيرة العربية الى مصر مروراً بالبلقاء وفلسطين ، كما أصبحت هذه المنطقة أيضاً ملتقى للطريق العرضاني الواصل بين العراق والبحر المتوسط من جهة والطريق الطولاني (طريق ماريس Via Maris) الذي يبدأ من دمشق الى حوران ثم جلعاد ومنها الى مؤاب ثم الى الجنوب ليتصل بطريق القوافل التجارية . ونظرا لأهمية هذا الطريق التجاري والعسكري فقد تم رصفه في أواخر القرن الأول الميلادي على يد القائد الروماني تراجان (٩٨ - ١١٧ م) . وقد أصبح هذا الطريق فيما بعد طريقاً للقوافل التجارية وقوافل الحجاج الى مكة (٤٣) .

وقد أكسب هذا الموقع البلقاء أهمية خاصة في علاقاتها مع الحجاز ، سواء في ميادين التجارة أم العبادة . ويستدل على العلاقة التجارية أن أبا سفيان قد امتلك ضيعة في البلقاء تدعى بقيش (٤٤) . وفي ميادين العبادة حمل عمرو بن لحي صنم هبل من البلقاء وتوجه به الى مكة عندما رأى أهل البلقاء يعبدونها ويستمطرونها ويستنصروا بها على عدوهم ، فنصبه في الكعبة وطلب من الناس عبادته وتعظيمه (٤٥) .

وزيد بن عمرو بن نفيل الذي خرج يلتمس دين إبراهيم عليه السلام فلما توسط أرض جدام قتل بأرض ميفعة (٤٦) .

ولم تقتصر أهمية البلقاء على الموقع التجاري فحسب بل جاءت أيضاً من الأهمية الزراعية والصناعية ، فمن الناحية الزراعية تميزت أرض البلقاء بخصوبة التربة ووفرة المياه مما ساعد على تنوع المحاصيل الزراعية فيه . ويأتي على رأس المحاصيل الزراعية التي اشتهرت بها المنطقة الحبوب وخاصة القمح حتى سميت البلقاء بمعدن الحبوب (٤٧) نظراً لكثرة إنتاجها منه وجودته .

ونظراً لحاجة أهل الحجاز الى هذا المحصول نشطت العلاقات التجارية، فالحجاز يأخذ القمح ، والبلقاء يحصل على التمر . وقد ذكر ابن حجر العسقلاني (٤٨) اسم أحد تجار القمح الى الحجاز وهو سيماء البقاوي ، وقد كان هذا بالإضافة الى مهنته التجارية شماساً في البلقاء ، وقد التقى بالنبي (ص) أثناء بعض رحلاته فأسلم على يديه .

واشتهرت البلقاء كذلك بأشجار الزيتون في أذرح ووادي موسى ، واللوز والتين والرمان والكروم في أذرح ومآب والسلط (٤٩) ، والنخيل في زغر حتى أن ثمرها سمي « بالانقلاء » ووصف بأنه من أجود أنواع التمور عذوبة وأحسنها منظراً (٥٠) ، وكذلك في أيلة (٥١) . وشجرة النيل في زغر والفور التي كانت تستخدم في الصباغة (٥٢) ، وقصب

السكر في الغور (٥٢) والزعفران في جادية (٥٤) ، والرواند الشامي في عمان (٥٥) بالإضافة الى أنواع أخرى من الفاكهة والخضار . وفي مجال الصناعات تميزت جنوب البلقاء بصناعة السيوف لتوفر مادة الحديد ، وقد وجدت هذه الصناعة في مشارف ، واليها نسبت السيوف المشرفية (٥٦) ، ومؤتة التي ذكرها الشاعر كثير عزة بقوله (٥٧) :

إذا الناس ساموكم من الامر خطة لها خمطة فيها السمام المثل
أبى الله للشم الانوف كلها صوارم يجلوها بمؤتة صيقل

والشراة التي ينسب اليها السيوف الشروية (٥٨) . واشتهرت زغر بصناعة الكنائن الحمر (٥٩) .

واشتهرت جنوب البلقاء كذلك بصناعة الخمور خاصة في زغر ومآب حيث كانت تكثر شجرة الكرمة ، وكان أهل البلقاء يلقحونها بالحرر الذي كان يستخرج من البحر الميت (٦٠) . وقد وصف خمر زغر ومآب الشاعر حاتم الطائي بقوله (٦١) :

سقى الله رب الناس سحاً وديمة جنوب الشراة من مآب الى زغر
بلاد أمريء لا يعرف الدم بيتسه له المشرب الصافي وليس له الكدر

ومن الصناعات التي اشتهرت بها البلقاء الطواحين التي ساعدت وفرة المياه على وجودها (٦٢) .

وفي عهد الرسول « ص » لم تقتصر العلاقات على النواحي التجارية بل امتدت كذلك الى الناحية السياسية عندما بعث عليه الصلاة والسلام رسلاً الى ملكي البلقاء من الغساسنة الحارث بن ابي شمر الفساني وابن عمه جبلة بن الأيهم (٦٣) ، والى فروة بن عمرو الجذامي عامل الروم على معان (٦٤) ، ويحنة بن رؤبة صاحب ايلة (٦٥) .

وقد ادى مقتل الحارث بن عمير رسول رسول الله « ص » من قبل صاحب بصرى الى بدء المواجهة الحربية بين المسلمين والقبائل العربية المنتصرة في الشام تدعمهم بيزنطة، فكانت غزوة مؤتة . ولئن مني المسلمون بهزيمة من الناحية التعبوية فان هذه الغزوة مكنت الرسول « ص » فيما بعد من اقامة علاقات ودية مع كبرى قبائل المنطقة وهي « جذام » (٦٦) ، كما عقد صلحاً مع ايلة واذرح والجرباء (٦٧) . وبالإضافة الى نشر الاسلام فقد كان هم الرسول « ص » الوصول الى صناعة السيوف التي كانت منتشرة في جنوب البلقاء كما ذكرنا

وقد ساعدت هذه الاتصالات على تكوين منطقة نفوذ للمسلمين امتدت من المدينة الى جبال الشراة في البلقاء . وربما كان هذا النفوذ مشجعا للرسول «ص» في تجهيز حملة أسامة بن زيد للاغارة على البلقاء والداروم من فلسطين (٦٨) ، إلا أن هذه الفزوة لم تنفذ في حياته ونفذت في عهد خلفه ابي بكر الصديق .

وأمام سرايا الرسول «ص» الى المناطق الجنوبية من البلقاء وسرية أسامة بن زيد فيما بعد أدرك البيزنطيون أهمية البلقاء ودورها العسكري في مواجهة المسلمين والدفاع عن دولتهم فاتخذوا رابطة (حامية) لهم في عمان قدر عددها بخمسة الاف رجل (٦٩) .

فتح البلقاء :

أصبحت البلقاء منطقة مواجهة فعلية بين المسلمين والبيزنطيين ، ونظرا لموقعها العسكري الهام فلا بد وأن تكون أول المناطق التي ستجهز لها الجيوش . والواقع ان ابا بكر الصديق رضي الله عنه أدرك أهمية هذه المنطقة رغم انشغاله بحروب الردة فعقد لخالد بن سعيد بن العاص وطلب منه ان ينزل تيماء على حدود البلقاء ولا يبرحها والا يقاتل الا من قاتله حتى تأتية أوامر الخليفة .

وأمام ارسال خالد بن سعيد الى تيماء قام الروم باستعدادات عسكرية فطلبوا من عرب الضاحية (القاطنون خارج المدن) لينفروا اليهم ، فنفرت بهراء وكلب وسليح وتنوخ ولخم وجندام وغسان ونزلوا بالقرب من زيزاء ليكونوا خطا دفاعيا للرابطة (الحامية) التي كانت في عمان . والظاهر ان خالد بن سعيد بعد ان تجمعت لديه القبائل التي كانت على حدود ومشارف البلقاء تشجع للتقدم فأرسل الى الخليفة يستأذنه بذلك فوافق الخليفة ، وبدأ خالد بالتقدم فانضم اليه عامة من تجمع له من عرب الضاحية والتقى بالرابطة البيزنطية قرب زيزاء فوقع به الروم هزيمة منكرة ، فاستبدل ابو بكر جميع جيش خالد فسمي الجيش جيش البدال (٧١) .

وبعد ان فرغ ابو بكر من قتال المرتدين اهتم بالاتجاه نحو الشام ، فجهز جيوشه وأمرها ان تسلك طريق القوافل التجارية (طريق البلقاء) ، فسار ابو عبيدة من وادي القرى الى الحجر وذات المنار الى مأب فصالحت أبا عبيدة فكانت أول مناطق البلقاء صلحا وهي يومذاك فسطاطا ولم تكن بمدينة (٧٢) . ومن مأب توجه ابو عبيدة الى عمان فخرجت اليه حاميتها فهزمهم المسلمون فتحصن الروم بداخل المدينة وشدد المسلمون عليهم الحصار (٧٣) .

والظاهر أن المسلمين قد فكوا الحصار عن المدينة ثم عادوا بعد ذلك اليها ، فيذكر الواقدي (٧٤) أن جيوش الفتح قد توزعت على مناطق الشام ، فكان يزيد بن أبي سفيان في البلقاء ، وشرحبيل بن حسنة في بصرى ، ومعاذ بن جبل في حوران وعمر بن العاص في فلسطين .

وقد تمكن يزيد بن أبي سفيان من فتح عمان صلحا وفق الشروط التي فتحت بها بصرى على أن يمنح أهلها الأمان على دمائهم وأموالهم مقابل دفع الجزية للمسلمين (٧٥) . ويذكر الواقدي (٧٦) أن جنان وهي حصن منيع بالقرب من عمان قد صالح أهلها على عشرة آلاف دينار ، كما يذكر المقدسي (٧٧) أن صلح البلقاء كان على ألف ألف درهم وطيلسان وهذا يدل على أهمية المنطقة وغناها .

وبعد الفتح استقرت قبائل جديدة في البلقاء خاصة في القطائع التي كانت تحت يد أنباط القرى والتي لحقت بالروم بعد الفتح الاسلامي ، فصارت تلك المزارع والقرى صافية للمسلمين موقوفة عليهم (٧٨) . وقد سكنت هذه المناطق بالإضافة إلى القبائل التي كانت قبل الفتح الاسلامي بعض بطون قريش في الشراة (٧٩) ومعان (٨٠) ، وبعض بطون قيس ، كبني مرة وفزارة (٨١) وثقيف (٨٢) في البلقاء وحوران ، بالإضافة إلى قبيلة طي التي كانت متنقلة في البلقاء (٨٣) .

ومن الناحية الادارية كانت البلقاء من ضمن جند دمشق ، وضمها إلى هذا الجند نابع من أهميتها التجارية ووقوعها على طريق الحج ، ولا تذكر المصادر أول من تسلم البلقاء لكن من المرجح أن فاتحها يزيد بن أبي سفيان كان أول من تسلم هذه المنطقة . وبعد وفاته أشارت المصادر إلى أن معاوية بن أبي سفيان قد عين على البلقاء بالإضافة إلى الأردن وفلسطين والسواحل وأنطاكية ، ثم جمعت له الشام كلها فيما بعد (٨٤) . هذا ولا تشير المصادر من كان على البلقاء قبل تسلم معاوية الخلافة في حين أنها أشارت إلى تعيين علقمة بن علاثة بن عوف بن الاحوص على حوران من قبل عمر ابن الخطاب ، وحوران كانت من جند دمشق (٨٥) .

البلقاء في العهد الأموي :

نالت البلقاء عناية خاصة من الأمويين نظرا لوقوعها على الطريق التجاري وطريق الحج من جهة ، ولكونها أصبحت المتنفس لخلفاء وأمرأ بني أمية من جهة ثانية . وبدل على هذا الاهتمام تلك القصور التي شيدها الأمويون في هذه البلاد والتي لا تزال آثارها ماثلة للعيان في جميع أنحاء البلقاء ، في أيلة (العقبة) ومعان وأذرح والجرباء والحميمة وغور الأردن والبادية وعمان (٨٦) .

ومن قصور الامويين في البلقاء قصر عمره ، وقصر الحراثة (الخراثة) في شمال شرق عمان ، وقد بني في عهد الوليد بن عبد الملك ، وقصر العويند جنوب شرقي قصر عمرة ، وقصر المشتى جنوب غربي الموقر وتم بناؤه في عهد الوليد بن يزيد بن عبد الملك ، وقصر الموقر في عهد يزيد بن عبد الملك ، وقصر أبير (باير) وهو قصر غساني أعيد ترميمه من قبل الامويين ، وقصر معان الذي شيد على تلة مرتفعة ليزيد بن عبد الملك وابنه الوليد بن يزيد ، وقصر عمان الذي كشفت عنه الحفريات مؤخرا وقامت دائرة الآثار بترميمه (٨٧) .

ومن الطبيعي أن يشيد الامويون الى جانب القصور المساجد ، فكان أن أقاموا مسجدا في عمان وصفه المقدسي (٨٨) بأنه كان مزينا بالفسيفساء حتى صار يضاهي مسجد مكة ، ويقوم مكانه اليوم المسجد الحسيني في وسط عمان . ومسجد خان الزبيب على بعد ٨ كم الى الغرب من القطرانة ، ومسجد أم الوليد على بعد ٩٥ كم الى الغرب من زيزا ومسجد أهل الكهف في الرقيم ومسجد قصر الحلابات (٨٩) .

واهتم الامويون كذلك بالمشروعات المائية سواء كانت للشرب أم لري المحاصيل الزراعية ، فعلى سبيل المثال أقاموا بركة ماء في زيزاء لتسقي قوافل الحجاج ، وبركة ثانية في الموقر وثالثة في الضليل ، كما عثر في هذه المنطقة على آبار تعود الى الفترة الاموية (٩٠) .

أما من الناحية الادارية فقد كانت البلقاء من الوحدات المتميزة في بلاد الشام، وتظهر هذه الميزة أن الحصين بن نمير السكوني اشترط على مروان بن الحكم عندما بايعه بالخلافة بأن يجعل له ولقومه كورة البلقاء ، ووافق مروان على هذا الشرط الا أنه لم يف به بعد أن استقرت له الامور (٩١) . هذا مع العلم بأن أهل البلقاء قد وقفوا الى جانب مروان بن الحكم وكانوا من الداعين له بالخلافة بعد وفاة معاوية بن يزيد وقيام مروان بن الحكم بالمطالبة بالخلافة (٩٢) .

ونظرا لاهمية البلقاء كان واليها يعين في حالات كثيرة من قبل الخليفة ، ففي عهد عبد الملك ورد اسم والي البلقاء مع أجناد الشام الاخرى على النحو التالي (٩٣) : فلسطين وعليها سليمان بن عبد الملك ، وحمص وعليها عبد الله بن عبد الملك ، والاردن وعليها أبو عثمان بن مروان بن الحكم والبقاء وعليها محمد بن عمر الثقفي . ووليها في عهده أيضا أبان بن مروان بن الحكم ، وعلى شرطتها الحجاج بن يوسف الثقفي (٩٤) .

هذا وقد أصهر عبد الملك بن مروان الى البلقاء عندما تزوج الشقراء بنت شبيب

بن عوانة الطائية على مهر مائة من الابل وعشرة الاف درهم وما يتبع من الطيب والخدم والاثاث . ونالت الشقراء عنده حظوة مما دفع عاتكة بنت يزيد بن معاوية أن ترجسو روح بن زنباع الجذامي ان يفسد من شأنها عند عبد الملك (٩٥) .

وفي عهد عبد الملك بن مروان كانت « عمان » مركز البلقاء ومركزا لضرب بعض العملات الأموية خاصة بعد ان قام عبد الملك بتعريب النقود . وقد كشفت التنقيبات الاثرية التي تمت في ساحة السوق الرومانية وسط عمان ما بين عام ١٩٦٥ - ١٩٦٧ عن مجموعة من الفلوس النحاسية الأموية ضربت في عمان (٩٦) .

وفي عهد الوليد بن عبد الملك لا تشير المصادر الى ولاية البلقاء بالرغم من انها كانت متنزها للوليد ، ويدل على ذلك القصور التي شيدها في البلقاء كما ذكرت سابقا .

وفي عهد سليمان بن عبد الملك تبدو البلقاء كمركز من مراكز القيسية خاصة لآل أبي عقيل من ثقيف ، فنقم عليهم وسلمهم الى يزيد بن المهلب ليخرج أموالهم ويعذبهم ، وقد حاول يزيد بن عبد الملك التوسط لدى ابن المهلب لاطلاق سراحهم ، الا أنه لم يقبل شفاعته فقال له يزيد : « أما والله لئن وليت من الامر شيئا لأقطع منك عضوا . فرد عليه ابن المهلب : وأنا والله لئن كان ذلك لأرمينك بمائة ألف سيف » (٩٧) .

وفي عهد عمر بن عبد العزيز حافظت البلقاء على أهميتها، حيث ورد في التقسيمات الادارية أسم واليها مع اجناد الشام الاخرى، اذ جاءت التقسيمات على النحو التالي (٩٨): دمشق وعليها عبد الله بن الحساس العذري وفلسطين وعليها النصر بن بريم بن ابراهيم ابن الصباح والاردن عبادة بن سبي الكلبي وحمص وعليها يزيد بن حصن السكوني، وقنسرين وعليها الوليد بن هشام بن الوليد بن عتبة ، والבלقاء وعليها الحارث بن عمرو الطائي .

ويجىء تعيين وال على البلقاء من طي ليضع عمر بن عبد العزيز حدا لسيطرة القيسية على البلقاء ، وخاصة آل عقيل ، ويستدل على ذلك من الرسالة التي بعث بها الى واليه الحارث الطائي يقول له : أما بعد فاني بعثت اليك بال عقيل ، وبئس والله اهل البيت في دين الله تعالى وهلاك المسلمين ، فأنزلهم بقدر هوانهم على الله تعالى وعلى أمير المؤمنين (٩٩) .

ولما تسلم يزيد بن عبد الملك الخلافة اتخذ من الموقر في البلقاء مقرا له فوفد اليه الشعراء ، ككثير عزة (١٠٠) والفرزدق (١٠١) وجريز (١٠٢) وغيرهم . وقد بقي في البلقاء حتى وفاته سنة ١٠٥ ، فذكرت بعض المصادر أنها كانت بعمان (١٠٢) والبعض الآخر أنها كانت باربد من الاردن (١٠٤) .

وفي عهد هشام بن عبد الملك عين على البلقاء صفوان بن سلمة الأراشي وهو سليل النواح بن سلمة بن كهلة الأراشي أدرك الرسول « ص » وجده كهلة الذي مطله أبو جبل حقه فلجأ إلى قريش فلم يجبه أبو جهل ، فقصد الرسول « ص » وذهب معه إلى أبي جهل فأعطاه حقه فلامت قريش أبا جهل على قبوله شفاعته محمد « ص » ورفض شفاعتهم فقال أبو جهل : رأيت معه بعيراً فاغرا فاء والله لو امتنعت لأكلني (١٠٥) .

وفي عهد هشام صارت البلقاء مركزاً لولي هذه الوليد بن يزيد خاصة بعد أن ساءت علاقاته مع عمه ومعه خاصته ومواليه فنزل على ماء يقال له الأغدف بالأزرق بعد أن خلف كاتبه عياض بن مسلم مولى عبد الملك بن مروان بالرصافة كي يطلعه على أحوال الدولة (١٠٦) . ولكون البلقاء كانت مركزاً لإقامة والده من قبل ومركز أخواله من ثقيف (١٠٧) فقد استمر بها بعد بيعته بالخلافة ، وشيد بها القصور كما ذكرت . وفي موسم الحج كان يتخذ من محطة زيزاء مركزاً لإقامة له ليشرف على قوافل الحجاج ، وذكر الطبري (١٠٨) أنه كان يطعم الحجاج ثلاثة أيام ويعلف دوابهم ويجيب دعوة من يسأله . ونظراً لقرب عمان من الأزرق ، وحتى يبقى خصومه تحت أنظاره ، اتخذ منها سجناً للخارجين عليه من بني أمية ، فعندما اشتد الخلاف بينه وبين أبناء هشام بن عبد الملك ضرب سليمان بن هشام مائة سوط وحلق لحيته وغربه إلى عمان فلم يزل محبوساً بها حتى قامت الثورة على الوليد بن يزيد (١٠٩) . واستمر الوليد في البلقاء ، حتى بعد أن وصلت أخبار الثورة عليه إلى أن قتل على أرضها ، ولم يسمع لنصائح أعوانه بالخروج منها إلى مناطق أخرى بالشام (١١٠) . وبعد مقتله خرج سليمان بن هشام من سجنه في عمان وأخذ ما كان من الأموال واتجه إلى دمشق يلعن الوليد ويعيبه بالكفر (١١١) .

ولما تسلم يزيد بن الوليد بن عبد الملك الخلافة نقم على آل أبي عقيل نظراً لارتباطهم بالوليد بن يزيد ، فقتل يوسف بن عمر الثقفي الذي خرج هارباً من العراق إلى موطنه في البلقاء ، فالتقى عليه مسلم بن ذكوان ومحمد بن سعيد بن مطرف الكلبي القبض ومعهما خمسون رجلاً من جند البلقاء فأودع السجن إلى أن مات مقتولاً فيه سنة ١٢٦ هـ (١١٢) .

ولما أخذت الدعوة العباسية تشتد في الحميمة وعلم بها مروان بن محمد كتب إلى والي دمشق الوليد بن معاوية بن عبد الملك أن يأخذ إبراهيم بن محمد الإمام من الحميمة ، فكتب الوليد بن معاوية إلى عامل البلقاء سفيان بن يزيد بن محمد بن عطية السعدي ليأخذ إبراهيم بن محمد الإمام فصار إليه والي البلقاء وأرسله إلى دمشق ، ثم أرسل بعد ذلك إلى مروان بالجزيرة حيث لقي حتفه هناك (١١٣) .

ولما قامت الثورة على الامويين ، واشتركت بها معظم الاحزاب والقبائل ، بقي أهل البلقاء على ولائهم للامويين بالرغم مما لحق ببعض أهله من قتل وتعذيب على أيدي بعض الخلفاء الامويين ، ولم يكتفوا بذلك بل توجه جند من البلقاء الى دمشق العاصمة لمحاولة لنجدة الامويين فيها ، الا أن جيوش العباسية كانت أقوى من جند دمشق والبقاء فحاصرتهم في دمشق الى أن اقتحم العباسيون المدينة في العاشر من رمضان سنة ١٣٢ بقيادة عبد الله بن علي (١١٤) .

ولم يقف أهل البلقاء عند هذا الحد بل قاموا بمحاولة الثورة على العباسية تحت زعامة الحبيب بن مرة الثقفي وبايعته قيس وغيرها في مناطق البلقاء والبثنية وهوران ، وزاد من خطورة الموقف على العباسيين عندما بيّض في نفس الفترة أبو الورد مجزأة بن الكوثر بن زفر الكلابي بقنسرين مما دفع عبد الله بن علي لمصالحة حبيب بن مرة وخرج متوجها الى قنسرين (١١٥) .

البقاء في العهد العباسي

بدأ وجود بني العباس في البلقاء عندما قطع عبد الملك بن مروان الحميمة في جنوب البلقاء الى علي بن عبد الله بن العباس الذي قدم الى الشام بعد ان استقر الامر فيها لعبد الملك ، فأحسن عبد الملك وفادته ليقوى بمكانته علي ابن الزبير .

ويذكر مؤلف أخبار الدولة العباسية (١١٦) أن عليا نفسه قد سأل عبد الملك ان يقطعه الحميمة بناء على وصية من والده عبد الله بن العباس ، ولكن من خلال الحوار الذي جرى بين عبد الملك وعلي يستدل على أن عليا كان يرغب في الإقامة في منطقة بعيدة عن العاصمة دمشق حتى لا يعرض نفسه للتهمة فقد قال لعبد الملك : « أحب المنازل اليّ أخلاها وأبعدها عن العوام ، فاني متى أقمت معك بدمشق لم آمن من أن يلقاك بعض أهل الشام فيقول : قال علي ، ولقي علي ، وعرضني لتهمتك » . وقد رحب عبد الملك بهذا الطلب وقال له : وصلتك رحم ، ما أنت بمتهم ، والبقاء منزل صدق تضم فيه أهلك وحشمك ، وتقيم عندي ما أحببت ، وتأثيني اذا شئت ولست تبعد عني ، ولا ينسأك ذكر ولا يبعد عنك خبر من بالحجاز من أهل بيتك . فنزل بالشرارة من البقاء ونزل من الشراة الى الحميمة (١١٧) .

ومما تقدم نرى ان العرض قد جاء من عبد الملك نفسه وليس بطلب من علي بن عبد الله ، كما أن الحميمة لم تكن منطقة خالية وبعيدة عن الناس لانها كانت تقع على طريق الحج والطريق التجاري ، وهذا ما يجعله يستطلع أخبار أهل الحجاز والشام معا .

وفي الحميمة ولد من العباسيين محمد بن سليمان بن علي ، وأبو العباس السفاح ، وأبو جعفر المنصور ، والمهدي (١١٨) ، وسكنها منهم رائطة بنت عبيد الله وكانت تحت عبد الملك بن مروان ثم تزوجها علي فانجبت له أبا العباس السفاح (١١٩) ، وإبراهيم بن محمد الإمام وزوجته زينب بنت سليمان بن علي بن عبد الله ، واليهما ينسب الزينبيون من ولد العباس ، وكانت من أولات الفضل والعلم ، حدثت عن أبيها سليمان وروى عنها عاصم بن علي الواسطي وجعفر بن عبد الواحد ابن أخيها ، وعبد الصمد بن موسى بن محمد بن إبراهيم ، وأبو العباس أحمد بن الخليل بن مالك ابن ميمون ، ومحمد بن صالح القرشي ، كما حكى عنها المؤمن . وقد عمرت طويلاً ، وهي التي دخلت على مروان بن محمد عند هلاك إبراهيم بن محمد الإمام تستأذنه في دفنه فأذن لها (١٢٠) .

ومن منطقة الحميمة في البلقاء انطلقت الدعوة العباسية ، وسهل من انتشار دعوتهم وقوع هذه المنطقة على طريق الحجاج والطريق التجاري ، فكانت والحالة هذه ملتقى لثيعة بني العباس (١٢١) ، وأخذ الدعوة يترددون عليها لنقل أخبار الدعوة بين مناطقها في خراسان والكوفة والحميمة (١٢٢) .

ولما تسلم العباسيون الخلافة تعرضت بعض مناطق البلقاء للتدمير والتخريب شأنها شأن بلاد الشام التي قاومت العباسيين ، ويستدل على ذلك من الشعر الذي أنشده أبو نخلة عندما دخل علي أبي العباس السفاح بعد مقتل مروان بن محمد وقال (١٢٣) :

وامسست الانبار دارا تعمّر	وخربت من الشام ادور
حمص وباب التبن والموقر	ودمرت بعد امتناع تدمر
وواسط لم يبق الا القراقسر	منها ولا الدير بان الاخضر

وان تعرضت بعض مناطق البلقاء لمثل هذا التدمير كالموقر فانه ناتج عن شدة المقاومة التي أبدتها القبائل القيسية تجاه الدعوة العباسية في البلقاء .

وبعد أن وطد العباسيون الامر في بلاد الشام قسمت الشامات الى ولايتين كبيرتين (١٢٤) .

الاولى : وضمت اجناد قنسرين ودمشق والاردن وحمص وعليها عبد الله ابن علي .

الثانية : وضمت فلسطين والبلقاء وعين عليها صالح بن علي . وقد عين صالح ابن علي على البلقاء علي بن صفوان بن سلمة الاراشي سيد قضاة الشام كلها (١٢٥) ، وربما كان هذا الاجراء من العباسيين كرد مناhez للقبائل القيسية التي ناهضت العباسيين ، واستمر علي بن صفوان في ولايته للبلقاء حتى وفاة السفاح سنة ١٣٦هـ / ٧٥٤ م .

وفي عهد المنصور ، وعندما قام عبد الله بن علي سنة ٧٥٥/١٣٧ بثورته عليه ، أدرك المنصور خطورة جمع مناطق كبيرة لوال واحد ، فعادت الشامات الى أجنادها السابقة ، وعادت البلقاء الى جند دمشق ، فعين عليها عبيد الله (عبد الله) بن سليمان ابن محمد بن عبد المطلب واستمر فيها حتى نقل منها الى اليمن سنة ١٥٨هـ (١٢٦) حيث خلفه ابنه محمد ، الا ان ولايته لم تطل ، بسبب غضب المنصور عليه ، فحمل مع البريد ومعه المال الذي وجد عنده (١٢٧) .

وفي زمن هارون الرشيد هاجت العصبية القبلية بين القيسية واليمانية في البلقاء سنة ١٧١ هـ . مما أدى الى عزل والي دمشق عبد الصمد بن علي لعجزه عن القضاء على هذه الفتنة وعين بدلا منه ابراهيم بن صالح بن علي .

وسبب هذه الفتنة ان رجلا من القين خرج الى البلقاء ليطحن قمحا له ، فاعتدى على حائط رجل من جذام ولخم فيه بطيخ وقثاء ، فانتهى الشجار بينهما الى قتل يمانى ، فلما خاف الناس أن يتفاقم الامر خرج رجال من قريش وقيس وقضاة الى القين ، فأوكلت القين الامر الى هؤلاء الرجال لحل النزاع مع اليمانية . ثم توجهوا بعد ذلك الى اليمانية فكلموهم فقالوا لهم : انصرفوا عنا حتى ننظر فيما جئتم له . فانصرفوا الى رحالهم ، فلم تشعر الا بالخييل تدوسهم فقتل من القين ما بين ٣٠٠ - ٦٠٠ رجل ، واصيب معهم رجل من قيس ، فاستنجدت القين بقضاة وسليح فلم ينجدوهم ، فتوجهوا الى قيس فأنجدتهم وانضم معهم خمسون رجلا من بني عامر بن عوف فخرجوا الى العواليك (١٢٨) من أرض البلقاء فقتلوا ستمائة من اليمانية ثم توجهوا الى الربة (قرب الكرك اليوم) فقتلوا ثمانماية ، ثم انصرفوا وكثر القتال بينهم ، واستمر النزاع أكثر من سنتين ، وقد لعب ابو الهيثم عامر بن عمارة بن خريم المري دورا بارزا في هذه الفتنة (١٢٩) .

ويذكر الطبري (١٢٠) ان الفضل في اخماد هذه الفتنة يعود الى موسى بن يحيى ابن خالد البرمكي الذي استطاع القبض على رؤوس الفتنة وأرسالهم الى بغداد فمدحه أحد الشعراء بقوله :

قد هاجت الشام هيجا يشيب رأسى وليده
فصب موسى عليها بخيلسه وجنوده
فدانت الشام لما اتى نسيج وحده

وفي سنة ١٨٠ عادت الفتنة الى الظهور مرة أخرى ، فاغتم الرشيد من ذلك حتى انه فكر في الخروج الى الشام بنفسه وقال لجعفر بن يحيى البرمكي : اما ان تخرج انت أو اخرج أنا ، فقال له جعفر : بل اتيك نفسي ، فخرج ومعه على شرطته العباس ابن محمد بن المسيب بن زهير وعلى حرسه شبيب بن حميد بن قحطبة فتمكن من قتل مدبري الفتنة بعد ان جمع الاسلحة من أهل البلقاء حتى انه لم يدع رمحا ولا فرسا فعاد الامن والطمأنينة الى البلقاء (١٣١) .

وبعد أن خمدت نار العصبية في البلقاء عين الرشيد على دمشق عيسى بن العكي وعلى البلقاء صالح بن سليمان . ويستدل على شدة استفحال هذه الفتنة تلك الخطبة التي خطبها جعفر بن يحيى بين يدي الرشيد بعد عودته الى بغداد (١٣٢) .

وفي عهد المأمون (١٩٨-٢١٨ هـ / ٨١٣ - ٨٣٣) قامت في البلقاء حركة مناوئة للعباسيين و بدأت من قرية الفدين (١٣٣) تحت زعامة سعيد بن خالد بن محمد بن عبد الله ابن عمرو بن عثمان بن عفان الفديني مدعيا الخلافة ، فخرج من الفدين وأغار على ضياع السعديين في البلقاء وأخذ يغير على القيسية ويفتك بهم ويتعصب لأهل اليمن ، فوجه اليه والي دمشق محمد بن صالح بن بهس جيشا تحت قيادة محمد بن يحيى بن صالح ، فهرب الفديني الى زيزاء ، فهدم يحيى زيزاء وخربها فغادرها الفديني الى الماسوح (قرية قريبة من عمان) . واتخذ يحيى من عمان مقرا له ، وفي الماسوح انضم الى الفديني زيوندية الغور وأراشة وعيارة من بني أمية ومن جلا منهم من دمشق وقوم من غطفان فصار في زهاء عشرين ألفا ، فلم يزل يحيى يحاربه حتى أجلاه عن الماسوح ، فتوجه منها الى حسان فحاصره فيها مدة طويلة فتفرق عنه أصحابه وتركوه مهملا وحيدا ، ولم يعرف مصيره (١٣٤) .

وبقيت البلقاء تحت السيطرة الفعلية للعباسيين الى أن تمكن أحمد بن طولون سنة ٢٦٤ هـ / ٨٧٧ من اقامة الدولة الطولونية فأصبحت البلقاء من أملاك الطولونيين ، وتمكن العباسيون من استردادها من الطولونيين زمن الخليفة المكتفي بالله سنة ٢٩١ هـ / ٩٠٤ م (١٣٥) ، الا ان السيطرة الفعلية للعباسيين لم تدم طويلا حيث تمكن محمد بن طفج الاخشيدي والي البلقاء من قبل أبي منصور تكين الجرزي والي الشام سنة ٣٠٦ من

الانفصال عن والي دمشق وتكوين الدولة الاخشيدية في مصر التي دامت من ٣٢٣ - ٣٧٨ هـ / ٩٣٥ - ٩٦٨ (١٢٦) . وفي هذه الفترة قسمت البلقاء الى كور هي :

١ - كورة الجبال ومركزها غرنديل (١٢٧) ، وذكرت بعض المصادر انها روات (١٢٨) ومن أبرز مناطقها فيما بعد الطفيلة ، وربما كانت أيلة تابعة لهذه الكورة ، وكان معظم أهل هذه الكورة من قريش وغسان وبلقين (١٢٩) .

٢ - كورة الشراة (١٤٠) ومركزها أذرح ، وكانت أذرح معسكرا رومانيا قبل الفتح الاسلامي (١٤٦) ، وفيها كان أمر التحكيم بين علي بن ابي طالب ومعاوية بن ابي سفيان (١٤٢) . وضمت هذه الكورة الحميمة ومعان وقد كانت حصن الشراة (١٤٣) وابنى (١٤٤) والجرباء (١٤٥) وميفعة (١٤٦) ووادي موسى (١٤٧) ، وجبال الشوبك (١٤٨) فيما بعد . وعامة أهل هذه الكورة من العرب خاصة من قبيلة قيس (١٤٩) . واشتهرت هذه الكورة بكونها مركزا لصناعة السيوف ، كما نسب اليها عدد من العلماء والفقهاء منهم علي بن مسلم بن الهيثم الشروي وأحمد بن محمود بن نافع ابو العباس الشروي (١٥٠) .

وتذكر المصادر الجغرافية ان هاتين الكورتين كانتا مضمومتين الى جند فلسطين (١٥١) ، وهذا الضم لا يعني أنها كانت من جند فلسطين بل ان هذا الاجراء الاداري قد حدث زمن الطولونيين والاخشيديين لتأمين حركة الاتصال بين مصر وفلسطين وبلاد الشام ، ولابقائها تحت اشرافهم المباشر .

٣ - كورة مآب (١٥٢) ومركزها مآب وقد أقيم على انقاضها فيما بعد الربة (١٥٣) ، وضمت مناطق زغر (١٥٤) وشيخان (١٥٥) وصرفة (١٥٦) ومشارف (١٥٧) ، وفيما بعد الكرك (١٥٨) والقطرانة (١٥٩) . وأهل هذه الكورة أخلاط من الناس (١٦٠) .

٤ - كورة الظاهر (ظاهرة البلقاء) ومركزها عمان (١٦١) ، وقد أطلق عليها في بعض الاحيان كورة عمان (١٦٢) ، وضمت هذه الكورة المناطق التالية : الازرق (١٦٣) ، بقيس (١٦٤) ، جادية (١٦٥) ، جنان قرب عمان (١٦٦) ، الرقيم (١٦٧) ، الزرقاء (١٦٨) ، زيزاء (١٦٩) ، الصمان (١٧٠) ، العلفدان قرب زيزاء (١٧١) ، القسطل (١٧٢) ، الماسوح قرب عمان (١٧٣) ، الموقر (١٧٤) ، حسبان (١٧٥) ، الفدين (١٧٦) .

٥ - كورة جبال الغور ومركزها أريحا (١٧٦) . والظاهر أن هذه الكورة كانت تضم مرتفعات السلط المطلة على الغور بالإضافة الى المنطقة الممتدة من جنوب عمتا (دير علا) آخر عمل جند الاردن الى البحر الميت . وربما كان هذا هو السبب الذي

دعا اليعقوبي (١٧٧) الى اعتبار أريحا من ضمن البلقاء مع العلم انها من جند فلسطين . ويقع ضمن هذه الكورة بالإضافة الى اريحا ، الصلت (السلط) (١٧٨) وكفر- يهوذا (١٧٩) وبيت رامة (١٨٠) .

وهذه التقسيمات الادارية مشابهة الى حد التقسيمات الادارية في الوقت الحاضر حيث تضم كورة الشراة اليوم محافظة معان وكورة الجبال محافظة الطفيلة وكورة مآب محافظة الكرك وكورة ظاهر البلقاء محافظة العاصمة ، وكورة جبال الفور محافظة البلقاء وتمتد حدودها الى نهر الاردن أما أريحا فقد كانت تابعة لمحافظة القدس قبل الاحتلال الاسرائيلي عام ١٩٦٧ .

وخلال هذه الفترة التاريخية والفترات التي تلتها نسب الى البلقاء عدد من الفقهاء والمحدثين منهم :

— حفص بن عمر بن حفص بن صالح بن عطاء بن السائب بن أبي السائب المخزومي القرشي العماني البلقاوي اصله من المدينة تولى قضاء عمان حدث عن الزهري عن سعيد بن المسيب عن أبيه ، كما حدث عن الازاعي عن عبده بن أبي لبابة، سمع عامر بن يحيى والهيثم بن خارجة (١٨١) .

— ابو طاهر محمد بن عطاء بن ايوب البلقاوي سافر مصر وحدث عن مالك إلا انه كان متروك الحديث (١٨٢) .

— أبو طاهر موسى بن محمد الدمياطي البلقاوي روى عن الموقري ، وروى عنه أهل الشام والعراقيون (١٨٣) .

— يحيى بن عبد الله بن أسامة القرشي ، سمع من حفص بن عمر كما روى عنه زيد بن أسلم (١٨٤) .

— أبو بكر بشر بن الوليد بن محمد الموقري (ت ٢٨٢ هـ) وكان مولى ليزيد بن عبد الملك روى عن الزهري وعطاء الخراساني ، كما روى عنه علي بن حجر والوليد ابن مسلم وغيرهم ، واتهم الموقري بالكذب (١٨٥) .

— أحمد بن حفص بن عمر بن صالح بن عطاء بن السائب المخزومي البلقاوي (١٨٦) .

— أحمد بن الحكم أبو حزية ويقال له أبو حرب البلقاوي من أهل البلقاء عمل دمشق حدث عن عبد الله بن ادريس (١٨٧) .

— محمد بن كامل العماني البلقاوي (ت ٢٧١ هـ) . حدث عن أبان بن يزيد العطار ، وروى عنه محمد بن زكرياء الاضاخي (١٨٨) .

— نصر بن مسرور بن محمد ابو الفتح الزهري العماني البلقاي ، حدث عن ابي الفتح محمد بن ابراهيم الطرسوسي (١٨٩) .

— ابو الندى حسان بن تميم بن نصر بن عبد الواحد الانصاري العماني المعروف بالزيات حدث بدمشق عن الفتح نصر بن ابراهيم بن نصر بن داود القدسي الزاهد ، كما سمع منه ابو الخطاب العلمي وكان شيخا مكرما (١٩٠) .

— ابو محمد الحسن بن ابراهيم بن عثمان العماني قدم دمشق وسمع بها ، وحدث عن محمد بن عبد الله الربيعي ، تسلم قضاء عمان كان حيا سنة ٣٨٦ هـ (١٩١) .

— السائب بن احمد بن حفص بن عمر بن صالح بن عطاء بن السائب بن ابي السائب ابو عطاء القرشي المخزومي العماني من اهل البلقاء ، كان من رواة الحديث وحدث عن ابيه عن سحيم مولى بني زهرة (١٩٢) .

— السائب بن عمر بن حفص بن عمر بن صالح بن عطاء بن السائب بن ابي السائب المخزومي العماني ، حدث عن جده حفص بن عمر عن يحيى بن عروة عن ابيه عروة بن الزبير (١٩٣) .

— أسلم بن محمد بن سلامة بن عبد الله بن عبد الرحمن ابو دفانة الكنازي العماني قدم الشام وحدث بها عن عطاء السائب بن أحمد بن حفص العماني المخزومي ومحمد بن هارون بن بكار وعبد الله بن محمد بن جعفر القزويني القاضي ، وروى عنه ابو الحسين الرازي وأبو بكر أحمد بن صافي التنسي (ت ما بين ٣٢٤-٣٢٥ هـ) (١٩٤) .

— عطاء بن السائب بن أحمد بن حفص العماني . وقد حدث عنه أسلم بن محمد ابن سلامة (١٩٥) .

— الحسين بن علي بن عيسى ، ابو عبيد المعنى الأزدي المعاني من اهل البلقاء ، روى عن عبد الرزاق بن همام وروى عنه محمد وعامر ابنا خريم وعمرو بن سعيد ابن سنان المنبجي وغيرهم وكان ضعيف الحديث (١٩٦) .

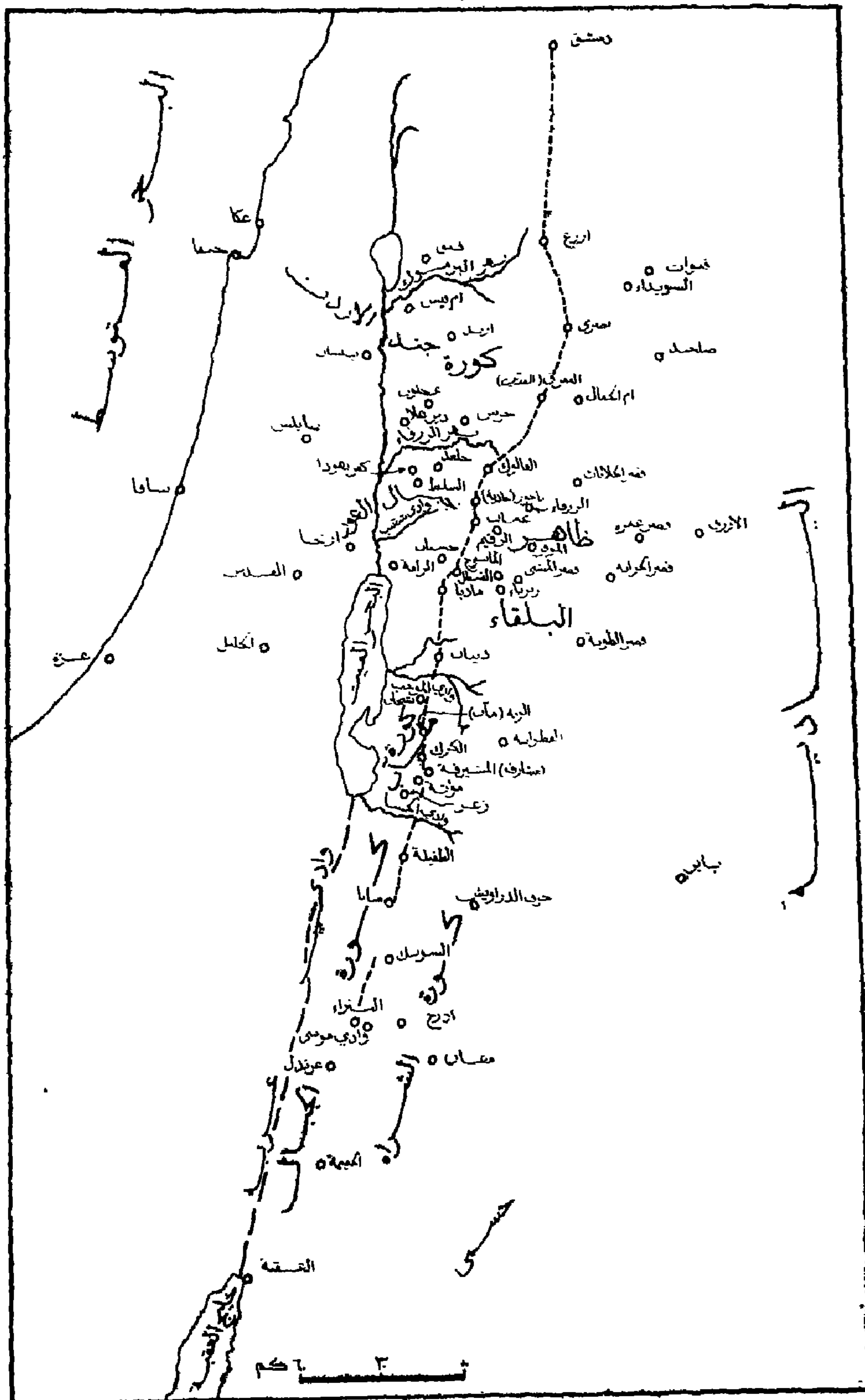
— علي بن مسلم بن الهيثم الشروي ، روى عن اسماعيل بن مهران وروى عنه الحسن ابن عليل العتري (١٩٧) .

— أحمد بن محمود بن نافع أبو العباس الشروي اشتهر بالرمي سمع عن أبي الوليد الطبالسي وعبد الله بن أبي بكر العتكي وعمران بن ميسرة ، وروى عنه أبو الحسين ابن المنادي (ت ٢٧٤ هـ) (٩١٨) .

هذا بالإضافة إلى فقهاء وعلماء أيلة ومنهم في هذه الفترة يونس بن يزيد الأيلي (توفي بصعيد مصر سنة ١٥٢ هـ) واسحق بن اسماعيل بن عبد الأعلى بن عبد الحميد ابن يعقوب الأيلي (مات بأيلة سنة ٢٥٨) وحسان بن أبان بن عثمان أبو علي الأيلي ولي قضاء دمياط وتوفي بها سنة ٣٣٢ هـ .



البلقاء



الحواشي :

- (١) انظر معنى البلقاء وبلق في : الفراهيدي ، العين ١٧٢/٥ . ابن منظور ، لسان العرب مادة «بلق» . الفيروز آبادي ، القاموس المحيط مادة بلق . ياقوت ، معجم البلدان مادة « بقاء » . البكري ، معجم ما استعجم ٢٧٥/١ .
- (٢) انظر نسبة البلقاء في : البغدادي ، المنق ١٧٧ . ابن عساكر ، تاريخ دمشق ١٩/١ . ابن الاثير ، اللباب في تهذيب الانساب ١٤٢/١ . ابن شداد ، الاعلام الخطيرة (دمشق) ١٨-١٩ . ياقوت ، معجم البلدان مادة « بقاء » . الحميري ، الروض المعطار ٩٦ .
- (٣) The Encyclopedia of Islam. Vol I, p. 1001.
Dictionary of The Bible, Vol I, p. 234.
Medebille, Salt, p. 3.
- (٤) المقدسي ، احسن التقاسيم ١٨٠ . ياقوت ، معجم البلدان . مادة « بقاء » .
- (٥) ياقوت ، معجم البلدان مادة الزرقاء .
- (٦) Medebille, Salt, pp. 6-7.
- (٧) التوراة ، سفر العدد الاصحاح ٢٢ آية ٥
- (٨) التوراة ، سفر العدد الاصحاح ٢١ آية ٢٤ . التثنية ، الاصحاح ١ آية ٤ .
- (٩) التوراة ، سفر يشوع الاصحاح ١٢ آية ١ .
- (١٠) انظر حاشية رقم (٢) .
- (١١) انظر الازدي ، تاريخ الموصل ١٩ . البكري ، معجم ما استعجم ٢٧٥/١ . ياقوت ، معجم البلدان مادة بقاء ، والمشارك وضعها والمفترق صقعا ١٤٧ . الاصفهاني ، بلاد العرب ١٢٧ - ١٢٨ . البغدادي مراصد الاطلاع ٢١٩/١ .
- (١٢) حتي ، تاريخ العرب ٨٨ ، جواد علي ، الفصل في تاريخ العرب ٧٦/١ .
- (١٣) انظر التوراة سفر يشوع ، الاصحاح ١٣ آية ٢٢ .
- (١٤) الدوري ، العرب والارض في بلاد الشام ، تاريخ بلاد الشام ٢٥ .
- (١٥) المروزي ، كتاب الفتن ، مخطوطة ، ورقة ٦٩ ب .
- (١٦) احسن التقاسيم ١٨٠ . وهذه المادة متوفرة ايضا بالسلط الى الغرب من عمان وكانت تستعمل في تبيض البيوت ويطلقون عليها اسم « الحور » وهي محرفة من الحوارة .
- (١٧) معجم البلدان ، مادة « السواد » .
- (١٨) انظر عن هذا الحد : ابن حوقل ، صورة الارض ٢٧-٣٠ ، الاصطخري ، المسالك والممالك ٢١-٢٨ الانديسي ، نزهة المشتاق ٣٥٢/٤ . وقارن ، ياقوت ، معجم البلدان مادة بقاء . البغدادي ، مراصد الاطلاع ٢١٩/١ . القزويني ، آثار البلاد واخبار العباد ١٥٦ .
- (١٩) انظر : ابن حوقل ، صورة الارض ١٥٧ ، ١٧٠ . هذا وقد اعتبر يعقوبي بأن اريحا من البلقاء (البلدان مع الاعلام النفسية) ١١٣ كما ذكر المبرد بأن بها ديرا كان يسمى « دير البلقاء » ثم

اطلق عليه في عهد سليمان بن عبد الملك دير الخصيان ، انظر الكامل في اللغة ٢/٦٣٥ ، الهفوات النادرة ٤٠-٤٢ .

- (٢٠) انظر ياقوت ، معجم البلدان مادة « الذرعات والصمان » . البغدادي مراصد الاطلاع ٢/١٦٧ .
- (٢١) الادريسي ، نزهة المشتاق ٤/٣٧٩-٣٨٠ .
- (٢٢) انظر ياقوت ، معجم البلدان مادة جرش . ابن شداد الاعلاق الخطيرة (لبنان والاردن وفلسطين) ٩٨ .
- (٢٣) الاصطخري ، المسالك والممالك ٨ . القلقشندي ، قلائد الجمان ١٨ .
- (٢٤) Encyclopedia of Islam, Vol. 1, p. 1001 .
- وانظر : غوانمة ، شرق الاردن (القسم السياسي) ٨ نقلًا عن العمري ، مسالك الابصار ٣ لوحة ٤٤١ . والبلقاء اليوم احدى محافظات الاردن ومركزها السلط .
- (٢٥) ابو طالب ، آثار الاردن وفلسطين في العصور القديمة ٢٥ وما بعدها .
- (٢٦) حتي ، تاريخ سورية ١/١١٥ - ١١٦ .
- (٢٧) انظر : اليعقوبي ، تاريخ ١/١٧٨ . ابن قتيبة ، المعارف ٦٤ . الاصفهاني ، تاريخ سني ملوك الارض ٩٨-٩٩ . حتي ، تاريخ سورية ١/١١٥ - ١١٦ . عبد الرؤوف ، الحواضر الاسلامية ٨ .
- (٢٨) اليعقوبي ، تاريخ ١/١٧٨ .
- (٢٩) نولدكة ، امراء غسان ١٦ . حتي ، تاريخ سورية ١/١١٥ - ١١٦ . صالح العلي ، محاضرات في تاريخ العرب ١/٥٧ .
- (٣٠) نشوة الطرب ١/٢٠٨ وانظر جواد علي ، الفصل في تاريخ العرب ٣/٤٣٨ .
- (٣١) عن اماكن غسان انظر : الاصفهاني ، تاريخ سني ملوك الارض ٩٩-١٠٠ الهمداني ، صفة جزيرة العرب ٣٣١ . البغدادي ، الحبر ٢٦٣ . اليعقوبي تاريخ ١/١٠٨ ، البلدان (مع الاعلاق النفسية) ٣٣٦ . السعدي ، مروج الذهب ٢/١٠٩ . ابن سعيد نشوة الطرب ١/١٩٩ .
- (٣٢) الاصفهاني ، تاريخ سني ملوك الارض ٩٩ . جواد علي ، الفصل في تاريخ العرب ٣/٤٠٢ .
- (٣٣) الاصفهاني ، تاريخ سني ملوك الارض ٩٩ . الالوسي ، بلوغ الارب ١/٢١٠ - ٢١٢ ، جواد علي ، الفصل في تاريخ العرب ٣/٤٠٣-٤٠٤ . بهنسي ، الشام لمحات اثارية ١٤٢ وما بعدها ، طوقان ، الحائر ٦ .
- (٣٤) الاصفهاني ، تاريخ سني ملوك الارض ١٠٠ . طوقان ، الحائر ٧٥ .
- (٣٥) عن اماكن جذام انظر : ابن اعثم ، الفتوح ١/٢٩٩ . اليعقوبي ، البلدان (مع الاعلاق النفسية) ٣٣٩ . الهمداني ، صفة جزيرة العرب ٢٧١-٢٧٤ .
- Donner, The Early Islamic, p. 101.
- (٣٦) Trimingham, Christianity, p. 122.
- وانظر : الادريسي ، نزهة المشتاق ٤/٥٣ - ٣٥٤ . ابن منظور ، لسان العرب مادة «جذام» .
- (٣٧) من اماكن عذرة انظر : الهمداني ، صفة جزيرة العرب ٣٣٢ . الاصفهاني ، تاريخ سني ملوك الارض ٨٨ . ابن عساكر ، تراجم النساء ٢٥١ .

- (٢٨) الهمداني ، صفة جزيرة العرب ٢٧٢ - ٢٧٣ .
Donner, The Early Islamic, p. 103. وانظر :
- (٣٩) الهمداني ، صفة جزيرة العرب ٣٦٩ . ابن خلدون ، تاريخ ٢/٢٤٩ .
- (٤٠) الهمداني ، صفة جزيرة العرب ٣١٩ ، ٣٣٤ .
- (٤١) الهمداني ، صفة جزيرة العرب ٢٧٣ ، ٣٢٠ ، ٣٣٢ . ابن خلدون ، تاريخ ٢/٢٤٧ . وانظر :
Donner, The Early Islamic, p. 166,
- (٤٢) اليعقوبي ، البلدان ٨٢ - ٨٣ وانظر الهمداني ، صفة جزيرة العرب ٢٧٤ ، ٣٣٢ . وانظر :
Donner, The Early Islamic, p. 166,
- (٤٣) حتي ، تاريخ سورية ٣١٩/١ .
- (٤٤) البلاذري ، فتوح البلدان ١٣٥ . ياقوت ، معجم البلدان مادتي بقنس ، نقنس .
- (٤٥) ابن هشام السيرة النبوية ٢٣١/١ . قارن ابن الكلبي ، الاصنام ٢٨ .
- (٤٦) انظر : ابن هشام ، السيرة ٢٣١/١ - ٢٣٢ ، البغدادي ، المحبر ١٧٢ المسعودي ، مروج الذهب ٧٠/١ . البكري . معجم ما استعجم ١٢٨٤/٢ . الذهبی ، سيرة اعلام النبلاء ٩٠/١ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ٢/٢٣٨ . ابن حزم ، جمهرة انساب العرب ١٥٠ - ١٥١ ، البغدادي ، مراصد الاطلاع ٣/١٨٥ . الالوسي ، بلوغ الارب ٢/٢٤٧ - ٢٥١ .
- (٤٧) المقدسي ، احسن التقاسيم ١٧٥ . ياقوت ، معجم البلدان مادة بلقاء .
- (٤٨) الاصابة ٢/١٠٤ .
- (٤٩) عن هذه المنتوجات انظر : ابن حوقل ، صورة الارض ١٦٠ ، الادريسي ، نزهة المشتاق ٤/٣٥٧ . ياقوت ، معجم البلدان مادة « اذرج » ، مأب ، وادي موسى ، ابو الفداء ، تقويم البلدان ٢٤٥ وما بعدها .
- (٥٠) ابن حوقل ، صورة الارض ١٦٩ . الاصطخري ، المسالك والممالك ٧ وحرفت كلمة التمر الى يسر . ياقوت ، معجم البلدان مادة زغر .
- (٥١) ياقوت ، معجم البلدان مادة ايلة .
- (٥٢) ابن حوقل ، صورة الارض ١٦٩ وعن نخيل الغور انظر ١٦٠ .
- (٥٣) ياقوت ، معجم البلدان ، مادة الاردن ، اريحا ، الغور ، وانظر المقدسي - احسن التقاسيم ١٦١ حمارنة ، زراعة قصب السكر وصناعاته عند العرب المسلمين . حولية دائرة الآثار العامة عدد ٢٢ ص ١٢ .
- (٥٤) ياقوت معجم البلدان مادة جادية وانظر مراصد الاطلاع ١/٢٣٣ . لسترانج ، فلسطين في العهد الاسلامي ٣٥٥ .
- (٥٥) ابن الاخوة القرشي ، معالم القرية ١١٨ والرواند عبارة عن عروق خشبية طوال مستديرة في غلف الاصابع يسمى روائد الدواب يستعمله البيطرة لاسقا للدواب عندما تحترق اكبادها وهو مضر بالناس .

ولزيد من التفاصيل حول المحاصيل الزراعية انظر حسين ، الحياة الزراعية في بلاد الشام ص ١٠٦ - ١١٦ .

- (٥٦) ياقوت ، معجم البلدان مادة مشارف . قارن ابن رشيق ، العمدة ٢/٢٣٢ .
- (٥٧) ياقوت ، معجم البلدان مادة مؤتة . كثير عزة ، الديوان : ٣٤٠ .
- (٥٨) بهنسي ، صناعة السيوف الدمشقية ، الندوة العالمية الاولى لتاريخ العلوم عند العرب ١/٤٩٥ وما بعدها . وانظر ياقوت معجم البلدان مادة الشراة . ابن خلكان وفيات الاعيان ٣/٢٧٨ .
- (٥٩) ياقوت ، معجم البلدان مادة نفر ، ابن رشيق ، العمدة ٢/٢٣١ .
- (٦٠) ابن حوقل ، صورة الارض ١٦٩ . الاصطخري ، المسالك والممالك ٤٧ .
- (٦١) ياقوت معجم البلدان مادة مآب . الطائي ، ديوان حاتم وشعره ١٩٠ .
- (٦٢) ابو الفداء ، تقويم البلدان ٢٧٧ . ابن عساكر (عاصم - عايد) ٣٩٥ ، لسترانج ، فلسطين في العهد الاسلامي ٣٧٥ .
- (٦٣) ابن حزم ، جوامع السيرة ٣٠ .
- (٦٤) العيني ، السيف المهند ٢٢١ وانظر البلاذري ، انساب الاشراف ١/٥١١ ، النويري ، نهاية الارب ١٨/٢٠٨ .
- (٦٥) ابن حجر العسقلاني الاصابة (نقلا عن الواقدي) ١/٣٣٢ .
- (٦٦) انظر البلاذري ، انساب الاشراف ١/٥١١ . النويري ، نهاية الارب ١٨/٢٨ .
- (٦٧) انظر : البلاذري ، فتوح البلدان ١٧١ .
- (٦٨) انظر : ابن هشام ، السيرة النبوية ٢/٦٠٦ وما بعدها . الطبري ، تاريخ ٣/١٨٤ . ابن عبد البر ، الاستيعاب (بهامش الاصابة) . ابن حجر العسقلاني ، الاصابة ١/٥٦٣ .
وانظر : Hitti, History of The Arab, p. 147.
- (٦٩) الواقدي ، فتوح الشام (منسوب اليه) ١/١٨٢ .
- (٧٠) الطبري ، تاريخ ٣/٣٨٩ ابن عساكر (التهذيب) ١/١٣٢ .
- (٧١) الطبري ، تاريخ ٣/٣٨٩ . ابن عساكر (التهذيب) ١/١٣٢ . ابن خلدون ، تاريخ ٢/٨٢ .
- (٧٢) الطبري ، تاريخ ٣/٤٠٦ .
- (٧٣) الازدي ، فتوح الشام ٢٩ وانظر: ابن خياط ، تاريخ ١/٨٦ .
- (٧٤) فتوح الشام (منسوب اليه) ١/٤٩ ، ١٨٢ - ١٨٤ ، ٢٢٨ .
- (٧٥) الطبري ، تاريخ ٣/٤٠٦ . قدامة ، الخراج ٢٨٨ . البلاذري ، فتوح البلدان ١٢٢ - ١٢٣ .
- (٧٦) فتوح الشام (منسوب اليه) ١/١٨٢ .
- (٧٧) البدء والتاريخ ٥/١٦٦ .
- (٧٨) ابن عساكر (التهذيب) ١/١٨٣ - ١٨٤ .

- (٧٩) انظر : اليعقوبي ، البلدان ٨٢-٨٣ . ابن خياط ، تاريخ ٣٦٩/٢ ، ٤٣٧ ، ٤٥٨ . الطبري ، تاريخ ١١١/٧ . المسعودي ، مروج الذهب ٣٤٢/٢ . ابن عساكر ، تراجم النساء ١١٤ . ياقوت ، معجم البلدان مادة حميمة ، الشراة . ابن خلكان : وفيات الاعيان ١٩٥/٣ ، ٢٧٨ ، ٣٦٥/٦ .
- (٨٠) ياقوت ، معجم البلدان (مادة معان) .
- (٨١) اليعقوبي ، البلدان (مع الاعلاق النفسية) ٣٢٦ . الادريسي ، نزهة المشتاق ٣٥٧/٤ .
- (٨٢) ابن خياط : تاريخ ٣٠١/١ .
- (٨٣) مجهول ، اخبار الدولة العباسية ١٥٧ . البيهقي ، المحاسن والمساوي ٣٨٩-٣٩٠ .
- (٨٤) ابن خياط ، تاريخ ١٢٩/١ . الطبري ، تاريخ ١٤٤/٤ - ١٤٥ .
- (٨٥) ابن قتيبة ، المعارف ٣٣١ . القلقشندي ، صبح الاعشى ٢٨٩/١ .
- (٨٦) انظر : هاردنج ، اثار الاردن ١٥٣ . بهنسي ، الشام لمحات اثارية وفنية ١٤٢ . طوقان ، الحائر ٦ . حولية دائرة الآثار الاردنية عدد ٢٥ ص ٦ .
- (٨٧) عن هذه القصور انظر الكتب التالية على سبيل المثال : هاردنج ، اثار الاردن . بيشة القصور الاموية في الاردن . بهنسي ، الشام لمحات اثارية وفنية . طوقان ، الحائر . حولية دائرة الآثار الاردنية عدد ٢٥ .
- (٨٨) احسن التقاسيم ١٧٥ .
- (٨٩) عن هذه المساجد انظر : طوقان ، الحائر ٧٦-٧٩ ، ٤٢٣ .
- (٩٠) عن هذه البرك انظر : ياقوت ، معجم البلدان مادة زيزاء . طوقان الحائر ٧٤، ٢٨٤ .
- (٩١) الطبري ، تاريخ ٥٢٤/٥ .
- (٩٢) البلاذري ، انساب الاشراف ١٤٩/٥ .
- (٩٣) ابن خياط ، تاريخ ٣٠١/١ .
- (٩٤) ابن عساكر : التهذيب ١٠٣/٣ .
- (٩٥) مجهول ، اخبار الدولة العباسية ١٥٧ . البيهقي ، المحاسن والمساوي ٣٨٩-٣٩٠ .
- (٩٦) الحديدي ، فلوس نحاسية اموية من عمان ، حولية دائرة الآثار عدد ٢٠ ص ٩ سنة ١٩٧٥ .
- (٩٧) ابن الاثير ، الكامل في التاريخ (دار صادر) ٥٧/٥ .
- (٩٨) ابن خياط ، تاريخ ٣٣٠/١ .
- (١٠٠) الديوان ٣٤٤ ، ٣٤٩ .
- (١٠١) الديوان ٣٤٦/١ .
- (١٠٢) الديوان ١٦٥ - ١٦٦ ، ١٨٥ .
- (١٠٣) الكتبي ، الوالي بالوفيات ٣٢٢/٤ .
- (١٠٤) ابن خياط ، تاريخ ٢٤٠/١ . الطبري ، تاريخ ٢٢/٥ . المسعودي ، التنبيه والاشراف ٢٧٧ . البغدادي ، المحبر ٢٩ . الازدي ، تاريخ الموصل ١٨ .

- (١٠٥) ابن حجر العسقلاني ، الاصابة ٥٨٧/٣ .
- (١٠٦) الطبري تاريخ ٢١١/٧ .
- (١٠٧) م.ن ٢٢٦/٧ .
- (١٠٨) تاريخ ٢١٧/٧ - ٢١٨ .
- (١٠٩) الطبري ، تاريخ ٢٣١/٧ - ٢٣٢ . مجهول ، العيون والحدائق ١٣١/٣ .
- (١١٠) انظر ، ابن خياط ، تاريخ ٣٨١/١ . مجهول ، العيون والحدائق ١٣٦/٣ ، ابن عبد ربه ، العقد الفريد ١٩٢/٥ .
- (١١١) الطبري ، تاريخ ٢٦٢/٧ .
- (١١٢) الطبري ، تاريخ ٢٧٣/٧ - ٢٧٤ .
- (١١٣) مجهول ، اخبار الدولة العباسية ٣٩٢ ، ٣٩٧ ، ٣٩٩ . الازدي ، تاريخ الموصل ١٠٧ .
- (١١٤) الطبري ، تاريخ ٤٤٣/٧ .
- (١١٥) الطبري ، تاريخ ٤٤٣/٧ - ٤٤٤ . ابن الاثير ، الكامل في التاريخ (دار صادر) ٤٣٢/٦ - ٤٣٣ .
- (١١٦) مجهول ، ١٥٤ .
- (١١٧) مجهول ، اخبار الدولة العباسية ١٥٤ .
- (١١٨) ابن خياط ، تاريخ ٣٦٩/٢ ، ٤٣٧ ، ٤٥٨ .
- (١١٩) ابن عساكر ، تراجم النساء ١٠٥ .
- (١٢٠) ابن عساكر ، تراجم النساء ١١٤ .
- (١٢١) مجهول ، اخبار الدولة العباسية ١٨٣ . المسعودي ، التنبيه والاشراف ٢٩٢ .
- (١٢٢) ابن عساكر ، (التذييب) ١٠٣/٣ .
- (١٢٣) الاصفهاني ، الاغانى (الهيئة) ١٤/٢٠ - ١٥ .
- (١٢٤) الطبري تاريخ ٤٦٧/٧ .
- (١٢٥) ابن حجر العسقلاني ، الاصابة ٥٨٧/٣ .
- (١٢٦) الزيري ، نسب قريش ٨٧ . ابن حزم ، جمهرة انساب العرب ٧١ .
- (١٢٧) الزيري ، نسب قريش ٨٧ . الطبري ، تاريخ ٨١/٨ .
- (١٢٨) تقع الى الشمال من عمان على بعد ١٢ كم من طريق عمان جرش وتسمى العالوك .
- (١٢٩) انظر عن هذه الفتنة اليعقوبي ، تاريخ ١٤٧/٣ ، ابن الاثير ، الكامل في التاريخ (دار صادر) ١٢٨/٦ وما بعدها . ابن عساكر (عاصم - عايد) ٣٩٥ وما بعدها .
- (١٣٠) تاريخ ٢٥٢/٨ .
- (١٣١) الطبري ، تاريخ ٢٦٢/٨ وانظر اليعقوبي ، تاريخ ١٤٧/٣ .

- (١٣٢) انظر نص هذه الخطبة في الطبري ، تاريخ ٢٦٣/٨ - ٢٦٤ .
- (١٣٣) يذكر ياقوت بان الفدين من أرض حوران ، ومن المرجح بانها مدينة المفرق اليوم الواقعة على بعد ٤٩ كم الى الشمال من عمان .
- (١٣٤) عن هذه الفتنة انظر : ابن عساكر (التهذيب) ١٢٥/٦ - ١٢٦ . ياقوت معجم البلدان مادة الفدين .
- (١٣٥) الطبري ، تاريخ ١١٥/١ - ١٢٠ . ابن الاثير الكامل في التاريخ (دار صادر) ٥٣٥/٧ .
- (١٣٦) ابن خلكان ، وفيات الاعيان ٥٦/٥ - ٥٧ .
- (١٣٧) اليعقوبي ، البلدان (مع الاعلاق النفيسة) ٣٢٦ .
- (١٣٨) انظر ابن حوقل ، صرة الارض ١٦ . الاصطخري ، المسالك والممالك ٤٤ . الادريسي ، نزهة المشتاق ٣٥٧/٤ وضبطها المحققون دراب .
- (١٤٩) اليعقوبي ، البلدان (مع الاعلاق النفيسة) ٣٢٦ .
- (١٤٠) انظر اليعقوبي ، البلدان (مع الاعلاق النفيسة) ٣٢٦ ، ابن حوقل ، صورة الارض ١٦ ، الاصطخري ، المسالك والممالك ٤٤ .
- (١٤١) لزيد من التفاصيل عن أذرح انظر : الطبري ، تاريخ ١٠٨/٣ ، ٥٧/٥ . المقدسي ، أحسن التقاسيم ١٧٨ ياقوت ، معجم البلدان مادة أذرح . ابن شداد ، الاعلاق الخطيرة (لبنان والاردن وفلسطين) ٨٢ ، الحميري الروض المعطار ٩٦ .
- (١٤٢) الاصطخري ، المسالك والممالك ٤٨ . ولزيد من التفاصيل عن معان انظر : ياقوت ، معجم البلدان مادة معان . ابن شداد ، الاعلاق الخطيرة (لبنان والاردن وفلسطين) ٦٧ . البخيت ، معان وجوارها استعراض تاريخي . مجلة دراسات تاريخية . جامعة دمشق ايار ١٩٨٣ .
- (١٤٤) عن ابني انظر : ياقوت معجم البلدان مادة ابني . البغدادي ، مراصد الاطلاع ١٧/١ .
- (١٤٥) عن الجرباء : انظر البلاذري ، فتوح البلدان ٧١ . الطبري ، تاريخ ١٠٨/٣ ، ياقوت ، معجم البلدان مادة جرباء .
- (١٤٦) انظر : التوراة ، سفر يشوع الاصحاح ١٣ آية ١٧ . البكري ، معجم ما استعجم ١٢٨٤/٢ ، ابن حزم جمهرة انساب العرب ١٥٠ - ١٥١ ، مراصد الاطلاع ١٨٥/٣ .
- (١٤٧) انظر ياقوت ، معجم البلدان مادة وادي موسى .
- (١٤٨) انظر ياقوت ، معجم البلدان مادة الشوبك . وقارن مادة شابك ايضا في المعجم المذكور . ابن شداد ، الاعلاق الخطيرة (لبنان والاردن وفلسطين) ٨٠ .
- (١٤٩) الادريسي ، نزهة المشتاق ٣٥٧/٤ .
- (١٥٠) انظر : ياقوت ، معجم البلدان مادة « الشراة » . ابن خلكان ، وفيات الاميان ٢٧٨/٣ .
- (١٥١) ابن حوقل ، صورة الارض ١٥٧ . الاصطخري ، المسالك والممالك ٤٤ .
- (١٥٢) اليعقوبي ، البلدان (مع الاعلاق النفيسة) ٣٢٦ ابن حوقل ، صورة الارض ١٥٧ ، الاصطخري ، نزهة المشتاق ٣٧٧/٤ ولم يهتد المحققون الى ضبطها وجاءت كفر مأب .

- (١٥٣) أبو الفداء ، تقديم البلدان ٢٤٨ . هذا ولم يهتد ياقوت الى تعيين موقعها فذكر بانها قرية بسين طرف الفور بين ارض الاردن والبلقاء . انظر ياقوت معجم البلدان مادة ربة .
- (١٥٤) عن زغر انظر : اليعقوبي ، البلدان (مع الاعلان النفسية) ٣٢٦ . ابن حوقل ، صورة الارض ١٥٧ ، الاصطخري ، المسالك والممالك ٤٧ . الادريسي ، نزهة المشتاق ٣٥٣/٤ . الهمداني ، صفة جزيرة العرب ٢٧٣ . ياقوت . معجم البلدان مادة زغر . ابن عساكر ، تاريخ دمشق ١٩/١ . ابن شداد الاعلاق الخطيرة (دمشق) ١٨ . ابن رشيقي ، العمدة ٢٣١/٢ .
- (١٥٥) انظر : ياقوت ، معجم البلدان مادتي شيخان وسيخان . ابو الفداء ، تقويم البلدان ٢٤٨ .
- (١٥٦) انظر ياقوت ، معجم البلدان مادة صرفة .
- (١٥٧) انظر ياقوت ، معجم البلدان مادة مشارف .
- (١٥٨) عن الكرك انظر : ياقوت ، معجم البلدان مادة الكرك . ابن شداد ، الاعلاق الخطيرة ٦٩ .
- (١٥٩) انظر : الغزي ، الكواكب السائرة ١٥٧/٣ . كبريت رحلة الشتاء والصيف ٢٣٢ .
- (١٦٠) اليعقوبي ، البلدان (مع الاعلاق النفسية) ٣٢٦ . الاريسي ، نزهة المشتاق ٣٧٧/٤ .
- (١٦١) اليعقوبي ، البلدان (مع الاعلاق النفسية) ٣٢٦ ، معجم البلدان مادة « بلقاء » .
- (١٦٢) الادريسي نزهة المشتاق ٣٧٧/٤ .
- (١٦٣) عن الازرق انظر : الطبري ، تاريخ ٢١١/٧ . ياقوت ، معجم البلدان مادة « أزرق » . هاردينج ، اثار الاردن ١٥٥ .
- (١٦٤) انظر البلاذري ، فتوح البلدان ١٣٥ . ياقوت ، معجم البلدان مادتي بقيس ونقنس .
- (١٦٥) انظر : ياقوت ، معجم البلدان مادة جادية . البغدادي ، مراصد الاطلاع ٢٣٣/١ . لسترانج ، فلسطين في العهد الاسلامي ٣٥٥ .
- (١٦٦) انظر الواقدي ، فتوح الشام (منسوب اليه) ١٨٢/١ .
- (١٦٧) انظر : الاصطخري ، المسالك والممالك ٤٧ . ابن رسته ، الاعلاق النفسية ٢٧٥ . ياقوت ، معجم البلدان مادة الرقيم .
- (١٦٨) انظر : ياقوت ، معجم البلدان مادة زرقاء . الخياري ، تحفة الادباء وسلوة الفرياء ١٨٨/١ . كبريت ، رحلة الشتاء والصيف ٢٣٢ .
- (١٦٩) انظر : ياقوت معجم البلدان مادة زيزاء . ابن بطوطة ، الرحلة ٧٧ . البغدادي ، مراصد الاطلاع ٥٢١/١ . لسترانج ، فلسطين في العهد الاسلامي ٣٩٥ .
- (١٧٠) انظر ياقوت ، معجم البلدان مادة الصمان .
- (١٧١) ابن واصل ، مفرج الكروب ٢٥/٥ .
- (١٧٢) البكري ، معجم ما استعجم ٢٧٥/١ . ياقوت ، معجم البلدان مادة القسطل .
- (١٧٣) ابن عساكر ، (التهذيب) ١٢٥/٦ - ١٢٦ .
- (١٧٤) ياقوت ، معجم البلدان مادة الموقر . وانظر الاصفهاني ، الاغانى (الهيئة) ٤١٤/٢ - ٤١٥ .

- (١٧٥) انظر : ابن عساكر (التهذيب) ١٢٥/٦ - ١٢٦ . أبو الفداء ، تقويم البلدان ٢٧٧ . لسترانج ، فلسطين في العهد الاسلامي ٣٧٥ .
- (١٧٦) اليعقوبي ، البلدان (مع الاعلاق النفيسة) ٣٢٦ . الادريسي نزهة المشتاق ٣٧٧/٤ . ولم يهتد المحققون الى ضبطها فوردت كورة جبرين القور .
- (١٧٧) اليعقوبي ، البلدان (مع الاعلاق النفيسة) ٣٢٦ .
- (١٧٨) عن الصلت (السلط) انظر : ابن سعيد المغربي ، الجغرافيا ١٥٢ . ابن شداد ، الاعلاق الخطيرة (لبنان والاردن وفلسطين) ٨٣ . أبو الفداء ، تقويم البلدان ٢٤٥ . القلقشندي ، صبح الامشى ١٠٦/١ .
- (١٧٩) انظر : ابن شداد ، الاعلاق الخطيرة (لبنان والاردن وفلسطين) ٨٣-٨٤ . احسان عباس ، الحياة العمرانية والثقافية في فلسطين . المؤتمر الدولي الثالث لتاريخ بلاد الشام (فلسطين) ٣٥٢/٢ .
- (١٨٠) ياقوت ، المشترك ١٩٧ .
- (١٨١) عن حفص انظر : البخاري ، تاريخ ج ١ ق ٢ ترجمة رقم ٢٧٨٤ ص ٣٦٦-٣٦٧ . ابن منظور ، مختصر تاريخ دمشق ٢٠٥/٧ . السمعاني ، الانساب ٢٩٢/٢-٢٩٤ . ياقوت ، معجم البلدان مادة « بلقاء » .
- (١٨٢) السمعاني ، الانساب ٢٩٣/٢ . ابن الاثير ، اللباب في تهذيب الانساب ١٤٢/١ .
- (١٨٣) السمعاني ، الانساب ٢٩٣/٢ .
- (١٨٤) ياقوت ، معجم البلدان مادة « بلقاء » . فوائدة ، عمان ١٨٢ .
- (١٨٥) ابن الاثير ، اللباب في تهذيب الانساب ١٩٠/٣ . السمعاني ، الانساب ٥٤٥/٧ . ياقوت ، معجم البلدان مادة الموقر . الذهبي ، العبر ٢٨٣/١ .
- (١٨٦) ابن منظور مختصر تاريخ دمشق ٥٦/٣ .
- (١٨٧) ن.م. ٥٧/٣ .
- (١٨٨) ابن الاثير ، اللباب في تهذيب الانساب ١٥٦/٢ ، الذهبي ، المشتبه في الرجال ٤٧٠/٢ السمعاني ، الانساب ٥٣-٥٢/٩ . ابن ماكولا ، الاكمال ٣٦١/٦ - ٣٦٢ . ياقوت ، معجم البلدان مادة عمان .
- (١٨٩) انظر ن.م. (١٩٠) ابن منظور ، مختصر تاريخ دمشق ٢٨٩/٦ .
- (١٩١) ن.م. ٣١٨/٦ .
- (١٩٢) ن.م. ١٩٨/٩ .
- (١٩٣) ن.م. ١٩٩/٩ .
- (١٩٤) بدران ، تهذيب ابن عساكر ٩/٣ . ياقوت ، معجم البلدان مادة عمان ، فوائدة عمان ١٨٢ .
- (١٩٥) ياقوت ، معجم البلدان مادة « عمان » . فوائدة عما ١٨٢ .
- (١٩٦) ابن منظور ، تهذيب ابن عساكر ٥٠/٧ وورد في كنيته ابو عبد الغني . ياقوت ، معجم البلدان مادة « معان » .
- (١٩٧) ن.م. مادة « الشراة » .
- (١٩٨) ن.م. مادة « الشراة » .
- (١٩٩) من علماء ايلة انظر : فوائدة ، ايلة (العقبة والبحر الاحمر ١١١-١٢٢) . درادكة ، لمحات من تاريخ ايلة (العقبة) مجلة دراسات تاريخية العددان ١٥-١٦ سنة ٩٨٤ ص ٨٥-٨٩ .

المصادر والمراجع :

الكتاب المقدسي ، العهد القديم .

ابن الاثير ، ابو الحسن علي بن ابي الكرم محمد من عبد الكريم الشيباني (ت. ٦٣٠هـ) .

الكامل في التاريخ . دار صادر بيروت ١٢٨٥/١٩٦٥ .

اللباب في تهذيب الانساب ، مكتبة المثنى بغداد (ل.ت) .

الادريسي ، ابو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله ، نزهة المشتاق في اختراق الافاق ، نابولي روما ١٩٧٦ .

الاذري ، محمد بن عبد الله ، فتوح الشام ، تحقيق عبد المنعم عامر ، سجل العرب ، القاهرة . ١٩٧٠ .

الاذدي ، ابو زكريا يزيد بن محمد بن اياس بن القاسم ، تاريخ الموصل ، تحقيق علي حبيبة ، القاهرة ، المجلس الاعلى للشؤون الاسلامية ١٩٦٧ .

الاصطخري ، ابراهيم بن محمد ، المسالك والممالك ، تحقيق محمد جابر عبد العال (سلسلة ترائنا) القاهرة ١٣٨١ / ١٩٦١ .

ابن اعثم ، ابو محمد احمد الكوفي ، الفتوح ، دائرة المعارف ، حيدر اباد الدكن - الهند ١٣٨٨هـ / ١٩٦٨ .

الاصفهاني ، ابو الفرج علي بن الحسين (ت ٣٥٩/٩٧٦) ، الاغانى (دار الهيئة المصرية) .

الاصفهاني ، حمزة بن الحسن ، تاريخ سني ملوك الارض والانبياء ، مكتبة الحياء بيروت (ل.ت) .

الاصفهاني ، الحسن بن عبد الله ، بلاد العرب ، تحقيق حمد الجاسر وصالح العلي ، منشورات . المجمع العلمي العراقي ، اليمامة - الرياض ١٣٨٨/١٩٦٦ .

الالوسي ، محمود شكري ، بلوغ الارب في معرفة احوال العرب ، مؤسسة مصر للطباعة والنشر ، ط ١٣٤٢/٣ هـ .

البخاري ، ابو عبد الله محمد بن اسماعيل ، التاريخ الكبير ، دائرة المعارف العثمانية ، حيدر اباد الدكن - الهند ١٣٦١هـ / ١٩٤٢ .

البخيث ، محمد عدنان ، معان وجوارها (استعراض تاريخي) مجلة دراسات تاريخية ، جامعة دمشق ابرار ١٩٨٣ .

البطائنة ، محمد صيف الله ، بحوث في التاريخ الاسلامي ، دار مجدولاي للنشر ، عمان ١٩٨٣ .

ابن بطوطة ، محمد بن عبد الله بن محمد بن ابراهيم (ت ٧٧٩هـ / ١٣٧٧) ، تحفة النظار في غرائب الامصار وعجائب الاسفار (رحلة ابن بطوطة) دار الكتاب اللبناني ، بيروت (ل.ت) .

البفدادي ، ابو جعفر محمد بن حبيب (ت ٢٤٥/٨٥٩) ، المعبر ، تصحيح ايلزه ليختن شتيتير ، المكتبة التجارية بيروت (ل.ت) . المنق في اخبار قريش ، صححه وعلق عليه خورشيد احمد فاروق ، دار المعارف العثمانية ، حيدر اباد - الدكن - الهند ١٣٨٤هـ / ١٩٦٤ .

البغدادي ، صفي الدين عبد المؤمن بن عبد الحق ، مرصد الاطلاع على أسماء الامكنة والبقاع ، تحقيق علي محمد البجاوي ، دار احياء الكتب العربية ، القاهرة ١٩٥٤ .

البكري ، ابو عبيد الله عبد الله بن عبد العزيز (ت ٤٨٧ هـ) ، معجم ما استعجم ، تحقيق مصطفى السقا ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ١٩٤٥ .

البلاذري ، ابو الحسن احمد بن يحيى ، انساب الاشراف ج ١ ، تحقيق محمد حميد الله ، دار المعارف مصر ١٩٥٩ . انساب الاشراف ج ٥ القدس ١٩٣٦ . فتوح البلدان ، مراجعة رضوان محمد رضوان ، دار الكتب العلمية ، بيروت ١٣٩٨ هـ / ١٩٧٨ .

بهنسي ، عفيف ، صناعة السيوف الدمشقية ، ابحاث الندوة العالمية الاولى لتاريخ العلوم عند العرب ، معهد التراث العلمي العربي ، حلب ١٩٧٧ . الشام ، لمحات اثرية وفنية ، دار الرشيد للنشر ، بغداد ١٩٨٠ .

البيهقي ، الشيخ ابراهيم بن محمد (ت ٣٢٠ هـ) ، المعاصن والمساوي ، بيروت ١٣٨٠ / ١٩٦٠ .

بیشه ، غازي ، القصور الاموية في الاردن ، دائرة الآثار العامة ، عمان ١٩٧٤ .

التوحيدي ، ابو حيان ، البصائر والدخائر ، تحقيق ابراهيم الكيلاني ، مكتبة اطلس ، دمشق ، (لا.ت) .

جرير بن عطية ، « ديوان جرير » ، دار صادر ، بيروت ١٩٦٠ .

ابن جعفر ، قدامة ، الخراج وصناعة الكتابة ، شرح وتعليق محمد حسن الزبيدي ، دار الرشيد ، بغداد ١٩٨١ .

جلابرت ، لويس ، السكة الرومانية من مادبا الى عقبة ، مجلة المشرق العربي ، مجلد ٨ عدد ١٠ / ١٩٥٥ .

حتي ، فيليب ادوارد جرجي ، جبرائيل جبور ، تاريخ العرب المطول ، دار الكشف عن العرب ، بيروت ١٩٥٠ .

حتي ، فيليب ، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين ، ج ١ ، ترجمة جورج حداد ، دار الثقافة بيروت ١٩٥٨ . حمارة ، صالح ، زراعة قصب السكر وصناعاته عند العرب المسلمين ، حولية دائرة الآثار العامة ، عمان ، عدد ٢٢ : ١٩٧٧-١٩٧٨ .

حديدي ، عدنان ، فلوس نحاسية أموية في عمان ، حولية دائرة الآثار العامة ، عمان ، عدد ٢٠ سنة ١٩٧٥ .

ابن حزم الاندلسي ، ابو محمد علي بن احمد بن سعيد (ت ٥٦٠ هـ) ،

جوامع السيرة النبوية ، راجعه وعلق عليه الشيخ نايف العباسي ، مؤسسة علوم القرآن ، دمشق - بيروت ط ١ ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٤ .

جمهرة انساب العرب ، تحقيق عبد السلام محمد هارون ط ٣ ، دار المعارف ، مصر ١٣٩١ / ١٩٧١ . حسين ، فالح ، الحياة الزراعية في بلاد الشام في العصر الاموي ، مطابع دار الشيعب ، عمان ١٣٩٨ هـ / ١٩٧٨ .

الحلي ، ابو البقاء هبة الله ، المناقب الزيدية في اخبار الملوك الاسدية ، تحقيق صالح درادكة ومحمد خريسات ، مكتبة الرسالة ، عمان ١٩٨٤ .

- ابن حوقل ، ابو القاسم النصيبي ، صورة الارض ، منشورات دار الحياة بيروت (ل.ت) .
- الحميري ، ابو عبد الله محمد بن عبد الله ، الروض المعطار في خبر الاقطار ، تحقيق احسان عباس ، مكتبة لبنان ، بيروت ١٩٧٥ .
- ابن خلدون ، عبد الرحمن بن محمد ، العبر وديوان المبتدأ والخبر في ايام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الاكبر (تاريخ ابن خلدون) (ل.مطبعة) ١٣٩١هـ / ١٩٧١ .
- ابن خلكان ، ابو العباس شمس الدين احمد بن محمد بن ابي بكر ، وفيات الاعيان وانباء ابناء الزمان ، تحقيق احسان عباس ، دار صادر بيروت (ل.ت) والطبعة المصرية تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، النهضة المصرية ١٣٦٧هـ / ١٩٤٨ .
- الخيارى ، ابراهيم بن عبد الرحمن ، تحفة الادباء وسلوك الفرياء ، تحقيق رجائي السامرائي ، دار الرشيد للنشر ، بغداد ١٩٨٠ .
- ابن خياط ، خليفة ، تاريخ ، تحقيق اكرم ضياء العمري ، مطبعة الاداب ، النجف الاشرف ١٣٨٦ هـ / ١٩٦٧ .
- الدوري ، عبد العزيز ، العرب والارض في بلاد الشام في صدر الاسلام ، مؤتمر بلاد الشام ، تاريخ بلاد الشام من القرن السادس الى السابع عشر ، عمان ١٩٧٤ .
- درادكة صالح ، لمحات من تاريخ ايله (العقبة) في العصر الاسلامي ، مجلة دراسات تاريخية ، جامعة دمشق ، العددان ١٥-١٦ / ١٩٨٤ .
- ديسو ، رينيه ، العرب في سورية قبل الاسلام ، ترجمة عبد الحميد الدواخلي ، مراجعة محمد مصطفى زيادة ، لجنة التأليف والنشر ، القاهرة ١٩٥٩ .
- الذهبي ، ابو عبد الله محمد بن احمد بن عثمان بن قايماز ، المشتبه في الرجال اسمائهم وانشابهم ، تحقيق علي محمد البجاوي ، الباب الحلبي ، القاهرة ط ١ / ١٩٦٢ .
- العبر في خبر من غبر ، تحقيق صلاح الدين المنجد ، الكويت ١٩٦٠ .
- سير اعلام النبلاء ، تحقيق صلاح الدين المنجد ، الكويت ١٩٦٠ .
- سير اعلام النبلاء ، تحقيق شعيب الارنؤوط ، مؤسسة الرسالة ١٤٠١ هـ / ١٩٨١ م .
- ابن رشيقي القيرواني ، ابو علي الحسن (ت ٤٥٦ هـ) ، العمدة في محاسن الشعر وادابه ونقده ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، دار الجليل ، بيروت ط ٤ / ١٩٧٢ .
- الزبيري ، ابو عبد الله المصعب بن عبد الله المصعب (ت ٢٣٦ هـ) ، نسب قريش ، تحقيق ليفي بروفنسال ، ط ٢ دار المعارف ، مصر ١٩٧٦ .
- ابو زرعة الدمشقي ، عبد الرحمن بن عمرو بن عبد الله ، تاريخ ، دراسة وتحقيق شكر الله بن نعمة الله الفوجائي ، مطبوعات مجمع اللغة العربية دمشق ١٩٨٠ .
- الزمخشري ، محمود بن عمر ، الامكنة والمياه والجبال ، تحقيق ابراهيم السامرائي ، مطبعة السعدون بغداد (ل.ت) .
- سبط ابن الجوي ، شمس الدين ابو المظفر يوسف بن قزاوغلي ، مراة الزمان في تاريخ الاعيان ، غني بنشرة علي سويلم ، الجمعية التاريخية التركية انقر ١٩٦٨ .

- ابن سعد ، محمد ، الطبقات الكبرى ، دار صادر ، بيروت ١٣٧٦/١٩٥٧ .
- ابن سعيد الاندلسي ، نشوة الطرب في تاريخ جاهلية العرب ، تحقيق نصرت عبد الرحمن ، مكتبة الاقصى ، عمان ١٩٨٢ .
- ابن سعيد المغربي ، ابو الحسن علي بن موسى (ت ما بين ٦٨٣ - ٦٨٥ هـ) ، كتاب الجغرافيا ، تحقيق اسماعيل العرب ، منشورات المكتب التجاري ، بيروت ١٩٧٦ .
- السمعاني ، ابو سعد عبد الكريم بن محمد بن منصور التميمي ، الانساب ، تحقيق الشيخ عبد الرحمن يحيى العلمي اليمني ، بيروت ١٤٠٠/١٩٨٠ .
- ابن شداد ، عز الدين ابو عبد الله محمد بن علي بن ابراهيم ، الاعلاق الخطيرة في ذكر امراء الشام والجزيرة (دمشق) ، (لبنان والاردن وفلسطين) ، تحقيق سامي الدهان ، دمشق ١٣٧٥/١٩٦٥ .
- شيخ الربوة ، شمس الدين ابو عبد الله محمد بن ابي طالب الانصاري (ت ٧٢٧ هـ) ، نخبة الدهر في عجائب البر والبحر ، مكتبة المثنى ، بغداد ، نسخة مصورة عن لينزغ ١٩٢٣ .
- الصابي ، غرس النعمة ، ابي الحسن محمد بن هلال (ت ٤٨٠ هـ) ، الهفوات النادرة تحقيق صالح الاشر ، منشورات مجمع اللغة العربية ، دمشق ١٣٧٨ هـ / ١٩٦٧ .
- الطائي ، يحيى بن مدرك ، ديوان شعر حاتم بن عبد الله الطائي واخباره ، رواية هشام بن محمد الكلبي ، دراسة وتحقيق عادل سليمان جمال ، مطبعة المدني ، القاهرة (لا.ت) .
- ابو طالب محمود ، اثار الاردن وفلسطين في العصور القديمة ، وزارة الثقافة والشباب عمان ١٩٧٨ .
- الطبري ، ابو جعفر محمد بن جرير ، تاريخ الرسل والملوك ، تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم ، ط٢ ، دار المعارف ، مصر ١٣٨٧ هـ / ١٩٦٧ م .
- طوقان ، فواز احمد ، الحائر ، بحث في القصور الاموية في البادية ، وزارة الثقافة والشباب ، عمان ١٩٧٩ .
- العابدي ، محمود ، عمان في ماضيها وحاضرها ، امانة العاصمة ، عمان ١٩٧١ .
- عادل ، نبيه ، تاريخ العرب القديم وعصر الرسول ، دار الفكر ، دمشق ، ١٣٩٤ هـ / ١٩٧٥ .
- المؤتمر الدولي الثالث لتاريخ بلاد الشام فلسطين ، عمان ١٩٨٣ .
- عباس ، احسان ، الحياة العمرانية والثقافية في فلسطين خلال القرنين الرابع والخامس الهجري ، المؤتمر الدولي الثالث لتاريخ بلاد الشام - فلسطين ، عمان ١٩٨٣ .
- ابن عبد البر ، ابو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد ، الاستيعاب في معرفة الصحابة ، تحقيق محمد علي البجاوي ، مكتبة النهضة المصرية (لا.ت) . وبهامش الاصابة في تمييز الصحابة ، مكتبة المثنى ، بغداد ، نسخة مصورة عن الطبعة الاولى سنة ١٣٢٨ هـ .
- ابن عبد ربه ، احمد بن محمد ، العقد الفريد ، تحقيق محمد سعيد العريان ، المكتبة التجارية الكبرى (لا.ت) .
- عبد الرؤوف ، عصام الدين ، الحواضر الاسلامية الكبرى ، دار الفكر ، القاهرة ١٩٧٦ .
- ابن عساكر ، ابو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله ، تاريخ دمشق ج ١ ، تحقيق صلاح الدين المنجد ، دمشق ١٩٥١ . تاريخ دمشق (تراجم النساء) تحقيق سكيئة الشهابي ، دمشق ١٤٠٢/١٩٨٢ . تاريخ دمشق

- (عاصم - عايد) تحقيق شكري فيصل ، دمشق ١٣٩٧/١٩٦٧ . تاريخ دمشق ، تهذيب الشيخ عبد القادر بدران ، دار المسيرة بيروت ١٣٩٩/١٩٧٧ .
- ابن حجر العسقلاني ، شهاب الدين ابو الفضل احمد بن علي ، الاصابة في تمييز الصحابة ، نسخة مصورة عن الطبعة الاولى سنة ١٢٢٨ هـ . مكتبة المثنى بغداد .
- علي ، جواد ، الفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام ، بيروت ١٩٦٨ .
- العلي ، صالح احمد ، محاضرات في تاريخ العرب ، ج ١ ، مكتبة المثنى ، بغداد ١٩٦٠ .
- العيني ، بدر الدين ، السيف المهند في سيرة الملك المؤيد ، تحقيق فهد شلتسوت ، دار الكاتب العربي ، القاهرة ١٣٨٧ هـ/١٩٦٧ .
- الغزي ، الشيخ نجم الدين ، الكواكب السائرة باعيان المائة العاشرة ، تحقيق جبرائيل سليمان جبور ، بيروت (لا.ت) .
- غوانمة ، يوسف درويش ، عمان حضارتها وتاريخها ، دار اللواء للصحافة والنشر، عمان ١٣٩٩/١٩٧٩ . ايلة (العقبة) والبحر الاحمر ، دار هشام للنشر والتوزيع ، اردب ١٩٨٤ . التاريخ السياسي لشرق الاردن في عصر دولة المماليك الاولى ، ط ٢ دار الفكر ، عمان ١٩٨٢ .
- ابو الفداء ، عماد الدين اسماعيل بن محمد بن عمر (ت ٧٣٢ هـ) ، تقويم البلدان ، طبعة باريس ١٨٨٤ .
- الفراهيدي ، ابو عبد الرحمن الخليل بن احمد (ت ١٨٥ هـ) ، كتاب العين ، تحقيق مهدي المخزومي وابراهيم السامرائي ، دار الرشيد للنشر ، بغداد ١٩٨٢ .
- الفرزدق ، همام بن غالب ، « ديوان الفرزدق » دار صادر ، بيروت ١٩٦٠ .
- الفيروز ابادي ، الشيخ مجد الدين محمد بن يعقوب ، القاموس المحيط ، دار العلم للجميع ، بيروت (لا . ت) .
- ابن قتيبة ، ابو محمد عبد الله بن مسلم ، المعارف ، تحقيق ثروت عكاشة ، ط ٢ ، دار المعارف، مصر (لا . ت) .
- القرشي ، ابن الاخوة ، محمد بن محمد بن احمد ، معالم القرية في احكام اهل الحسبة ، عني بنقله وتصحيحه روبين لبوي ، دار الفنون ، كمبردج ١٩٣٧ .
- القلقشندي ، ابو العباس احمد بن علي ، صبح الاعشى في صناعة الانشا ، نسخة مصورة عن الطبعة الاميرية . قلائل الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان ، تحقيق ابراهيم الابياري ، دار الكتب الحديثة ، القاهرة ١٣٨١ / ١٩٦٣ .
- كبريت ، محمد بن عبد الله الحسيني الموسوي ، رحلة الشتاء والصيف ، تحقيق محمد سعيد الطنطاوي ، المكتب الاسلامي للطباعة والنشر ، بيروت ١٣٨٥ هـ .
- الكتبي ، محمد بن شاعر ، فوات الوفيات والذيل عليها ، تحقيق احسان عباس ، دار صادر ، بيروت ١٩٧٤ .
- ابن كثير ، عماد الدين ابو الفداء اسماعيل بن عمر (ت ٧٧٤ هـ) ، البداية والنهاية دار الفكر العربي القاهرة ١٩٣٥ .

كثير عزة ، كثير بن عبد الرحمن ، « ديوان كثير عزة » تحقيق احسان عباس ، دار الثقافة ، بيروت ١٩٧١ .

ابن الكلبي ، ابو المنذر هشام بن محمد ، الاصنام ، تحقيق احمد زكي ، الدار القومية للطباعة والنشر ، القاهرة ١٣٨٤/١٩٦٥ .

لسترانج ، جي ، فلسطين في العهد الاسلامي ، ترجمة محمود عمارة ، منشورات دائرة الثقافة والفنون ، عمان ١٩٧١ .

ابن ماكولا ، الامير الحافظ ، الاكمال في رفع الارتياح عن المؤلف والمختلف في الاسماء والكنى والانساب صححه الشيخ عبد الرحمن بن يحيى العلمي اليماني ، دار المعارف العثمانية حيدر اباد - الدكن - الهند ١٩٦٦ .

المبرد ، ابو العباس محمد بن يزيد ، الكامل في اللغة ، المكتبة التجارية الكبرى ، القاهرة ١٩٥١ . مجهول ، .. اخبار الدولة العباسية وفيه اخبار العباس وولده ، تحقيق عبد العزيز الدوري وعبد الجبار الطلبي ، دار الطليعة للطباعة والنشر ، بيروت .

مجهول ، .. العيون والحدائق في اخبار الحقائق ج ٣ مكتبة المثنى (ل.ت) .

المروزي ، ابو عبدالله نعيم بن حماد ، كتاب الفتن ، مخطوط مصور ، مركز الوثائق - الجامعة الاردنية ، شريط رقم ٣٠١ .

المسعودي ، ابو الحسن علي بن الحسين (ت ٣٤٦هـ) ، مروج الذهب ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، المكتبة التجارية الكبرى ، ط ٢ ، ١٣٦٧هـ / ١٩٤٨ .

التشبيه والاشراف ، دار التراث ، بيروت ١٣٨٨/١٩٦٨ .

المقدسي ، مطهر بن طاهر ، البدء والتاريخ ، مكتبة خياط ، بيروت (ل.ت) .

المقدسي ، ابو عبدالله محمد بن ابي بكر . احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم ، بريل ١٩٠٦ .

ابن منظور ، ابو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم (ت ٧١١هـ) ، لسان العرب ، دار صادر بيروت (ل.ت) .

مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر :

ج ٣ تحقيق رياض عبد الحميد مراد مراجعة روحية النحاس ، دار الفكر ، دمشق ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤ .

ج ٦ تحقيق محمد مطيع الحافظ ونزار ابازة ، مراجعة روحية النحاس ، دار الفكر ، دمشق ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤ .

ج ٧ تحقيق احمد راتب حموش ومحمد ناجي العمر ، مراجعة رياض عبد الحميد مراد ، دار الفكر ، دمشق ١٤٠٥ / ١٩٨٥ .

ج ٩ تحقيق نسيب نشاوي ، دار الفكر دمشق ١٤٠٥ / ١٩٨٥ .

نولدكة ، تيودور ، امراء فسان ، ترجمة بندلي الجوزي وقسطنطين زريق ، المطبعة الكاثوليكية ، بيروت ١٩٣٣ .

النوري ، شهاب الدين احمد بن عبد الوهاب ، نهاية الارب في فنون العرب ج ١٨ ، تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم ، الهيئة المصرية للكتاب ، القاهرة ١٣٩٥/٩٧٥ .١

هاردنج ، لاتكستر ، اثار الاردن ، تعريب سليمان موسى منشورات وزارة السياحة والآثار ، المطبعة الوطنية عمان ١٩٧١ .١

ابن هشام ، ابو محمد بن عبد الملك (ت ٢١٣) ، السيرة النبوية ، تحقيق مصطفى السقا و ابراهيم الابياري وعبد الحفيظ شلبي ، الباب الحلبي ، ط ٢ ، ١٣٧٥/١٩٥٥ .

الهمداني ، الحسين بن احمد بن يعقوب ، صفة جزيرة العرب ، تحقيق علي الاكسوع دار اليمامة ، الرياض ١٣٩٤/٩٧٤ .١

ابن واصل ، جمال الدين محمد بن سالم ، مفرج الكروب في اخبار بني ايوب ، تحقيق حسنين محمد ربيع راجعه وقدم له سعيد عاشور ، دار الكتب القاهرة ١٩٧٧ .

ياقوت الحموي ، شهاب الدين ابو عبد الله ، معجم البلدان ، دار صادر بيروت (لا.ت) . معجم الادباء ، سلسلة الموسوعات العربية الباب الحلبي ، القاهرة (لا.ت) . المشترك وصفا والمفترق صقعا ، غوتنجن ١٨٤٦ م .

اليعقوبي ، احمد بن يعقوب بن واضح ، تاريخ ، قدم له محمد صادق بحر العلوم ، المكتبة الحيدرية ، النجف ، ١٣٨٤/١٩٦٤ .

— البلدان (مطبوع مع الاعلاق النفسية) لينن ١٨٩١ ، وطبعة النجف .

المراجع بالاجنية

- 1 — Encyclopaedia of Islam .
- 2 — Dictionary of the Bible.
- 3 — Hitti. Philip.k., History or the Arabs, London 1947.
- 4 — Jones, A.H.M., The Cities of the Eastern Roman Provinces, oxford 1971
- 5 — Le Strang , Palestine under the Moslems, London 1890.
- 6 — Pierre Médebille, Salt, History d'une Mission, Jerusalem.
- 7 — Smith, George Adam , The Historical Geography of the Holyland
Fontana Library London 1960.
- Donner, Fred MC Grau, The Early Islamic Conquests, Princeton
University Press, Princeton - New Jersey.
- 9 — Trimingham , J. Spener. Christianity among the Arabs in Pre -Islamic
time, Longman , London and New york 1979 .

* النظام المالي عند الحفصيين

د. صالح فياض أبوديالك
جامعة اليرموك

يعد ديوان الخراج من أهم دواوين الدولة ، واعتبره ابن خلدون الركن الثالث من أركان الملك . ولهذا اهتم به خلفاء الدولة الإسلامية عبر الفترات التاريخية للحكم الإسلامي (١) .

وأول من قام بتأسيس هذا الديوان من الخلفاء ، هو الخليفة الراشدي عمر بن الخطاب ، فقد أبقى سجلات دواوينه باللغات التي كانت عليها ، وهي اللغة الفارسية في العراق ، واللغة الرومية في بلاد الشام ، واللغات القبطية واليونانية في مصر (٢) .

وقد ظلت سجلات الدواوين على ما كانت عليه قبل الفتح دون تغيير أو تبديل إلى عهد الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان ، حيث استقرت في عهده دعائم الدولة العربية ، ورسخت قواعدها ، وانتقل العرب إلى أنماط حياتية جديدة ، ومهروا في القراءة والكتابة بعد جهلهم بهما ، وظهر من بينهم ومن مواليتهم كتاب وأهل حساب ، فأمر الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان في سنة ٧٨ هـ / ٦٩٧ م ، سليمان بن سعد والي

* يعود أصل بني حفص إلى قبيلة هنتانة التي هي فرع من المصامدة ، وكان أبو حفص عمر بن يحيى مؤسس دولتهم ، استقل بنو حفص بإفريقية - تونس - بعد استيلاء المرينيين على مراكش ودام حكمهم ثلاثة قرون ، وامتد نفوذهم حتى وصل برقة . راجع ، ابن خلدون تاريخ الدول بالقرب الجزائر ١٨٥١ ج ١ ، ص ٣٧٤ .

الأردن في عهده ، بتعريب ديوان المال في بلاد الشام ، وقد تم تعريبه في خلال سنة واحدة وأصبح يتولاه من يتقن اللغة العربية بعد أن كان لا يتولاه إلا من يتقن اللغة الرومية ، وكان ممن تولاه قبل التعريب سرجون بن منصور الرومي النصراني (٣) .

أما ديوان العراق ، فقد أمر الخليفة عبد الملك واليه الحجاج بتعريبه ، وقام الحجاج بدوره بتكليف كاتبه صالح بن عبد الرحمن مولى ابن عبيد من بني مرة بتعريب الدواوين .

وكان صالح يتقن اللغة الفارسية التي نعلمها من زادان بن فرّخ (٤) الذي قتل في حرب ابن الأشعث ، وتمكن صالح من تعريبه في مدة وجيزة . أما ديوان مصر ، فقد أمر عبد الله بن عبد الملك بن مروان والي مصر من قبل أبيه بنقله إلى اللغة العربية ، وعين له بعد تعريبه ابن يربوع الفزاري من أهل حمص بدلا من عبد الله بن اثيناس .

وفي خراسان ، قام إسحاق بن طليق كاتب بني نهشل بنقله من اللغة الفارسية إلى اللغة العربية زمن الخليفة هشام (٥) بن عبد الملك سنة ١٢٤ هـ / ٧٤١ م . ونشج عن حركة التعريب في الدواوين انتشار اللغة العربية ، وأصبحت اللغة السائدة في جميع أجهزة الدولة ، في مختلف الاقطار الإسلامية (٦) .

أما عن تقسيم الخراج ، فقد عزم الخليفة عمر على أن يضع خراجا على أرض السواد والاهواز وما افتتح من المدن في بلاد العراق وفارس ، فأشار عليه المسلمون بتقسيمها دون فرض الخراج عليها ومن هؤلاء بلال الحبشي ، وعبد الرحمن بن عوف ، ولكن عمر رفض رأيهما وأيده في رفضه من الصحابة عثمان وطلحة . واستقر الرأي على فرض الخراج ، فبعث الخليفة عمر حذيفة بن اليمان : وعثمان بن حنيف إلى أرض السواد في الأراضي المفتوحة وأرض الجزيرة الفراتية فوضعا على هذه الأراضي خراجا يتفق والشريعة الإسلامية (٧) . وقد اتبع نظام عمر في الخراج في الأراضي المفتوحة من جاء بعده من الخلفاء مع الأخذ بعين الاعتبار نوعية التربة ، وأنواع المحاصيل والأشجار المثمرة ، والأحوال الطبيعية للبلاد ، وعادات أهلها في الزراعة وجني المحصول ، وكيفية سقي الأراضي بماء المطر أو بالري . وكانت البلاد المغربية من البلاد الوافرة بالمياه (٨) ، الخصبة بالانتاج ، علاوة على اهتمام العرب المسلمين بالتعمير وإصلاح الأراضي . من هنا يقال أنهم اهتموا ببناء المسجد وزراعة الحقل .

ففي عهد الأغالبة ، على سبيل المثال ، شهدت أفريقية زيادة في مساحة الأرض المزروعة ، بفضل العناية بطرق الري والأكثار منها ، كما شهدت زراعة محاصيل جديدة

قدم بها الفاتحون من بلاد الشام والعراق ، وتقدمت الصناعة والتجارة في هذه البلاد وغيرها من البلدان المغربية .

واصبحت القيروان حاضرة البلاد الافريقية من المراكز التجارية المهمة على البحر المتوسط ، الى جانب بلدان اخرى ، مثل بجاية ، وسوسة ، ورقادة ، والعباسية وغيرها من المدن الافريقية (٩) . وحدثت هذه المدن حذو المدن المشرقية ، فعرفت نظام الاسواق المتخصصة (١٠) ، مثل اسواق المدن بالشرق ، كما تأثرت النظم المالية فيها بنظيراتها في الامصار الاسلامية وخاصة المشرقية منها .

فالدارس للعملة المغربية بافريقية الاغلبية يعرف مدى تأثيرها بالعملة العباسية ببغداد كما نلاحظ ان وظيفة متولي الضرائب التي وجدت بافريقية الاغلبية هي تقليد لما عرفته العراق ، ومجاورة افريقية للشرق وموقعها بين القارات الثلاث - اوروبا وآسيا وافريقيا - سهلت سبل الاتصال البري والبحري بينها وبين المشرق من جهة وبينها وبين القارات الثلاث من جهة اخرى .

وارتبطت افريقية بمصر بطريقين كبيرين احدهما بمحاذاة الساحل والاخر اتجه الى الجنوب حيث توغل في الداخل . اما الطريق الاول ، فيمر بالفسطاط ويتجه غربا دون ان يمر بالاسكندرية ، ويلتقي عند برقة بالطريق الآتي من الاسكندرية ، ثم يتحد الطريقان في طريق واحد معبد الى المسندن الافريقية مارا بذات الحمام والطاحونة . اما الطريق البحري فقد ربط المدن الواقعة على البحر المتوسط ابتداء من الاسكندرية مرورا بالموانئ الافريقية مثل تونس ، وسوسه ، وبجاية وغيرها ، ولكن افريقية الاغلبية كانت تعتمد على الطرق البرية اكثر من الطرق البحرية لان البيزنطيين كانت لهم قوة بحرية يعتد بها في البحر المتوسط (١١) . الا ان هذه القوة انهارت ، ونشطت بعد انهيارها الطرق البحرية بين الساحل التونسي والمدن الساحلية المغربية الاخرى ، مثل نول ، ولطة ، واصبحت هذه الطرق تمتد من المحيط الاطلسي غربا الى الاسكندرية على البحر المتوسط شرقا ، ونشطت طريق الصحراء بعد اكتشاف الذهب في المناطق الافريقية المحاذية لمدينة سجلماسة الواقعة الى الجنوب من مراكش ، فكانت القوافل التجارية تأتي من سجلماسة عبر وجدة ، ومنها الى تلمسان ومنها الى بلاد الزاب وقسطيلة محملة بالتبر مما ادى الى الراج التجاري في الاسواق المغربية بعامة ومن ضمنها الاسواق بافريقية (١٢) .

ونشطت دار السكة في مدينة العباسية الواقعة الى الجنوب من القيروان بسك العملة الذهبية فيها والتي على وجهي قطعها النقدية اسماء خلفاء بني العباس (١٣) .

وحرص الاغالبية كما حرص من سبقهم ومن عاصرهم ومن اتى بعدهم من حكام المغرب على تأمين الطرق التجارية قصد المحافظة على اقتصاد البلاد وازدياد الرخاء فيها(١٤).

ولما جاء الفاطميون للمغرب واستولوا على افريقية التي كانت من ضمن الاقطار المغربية التي استولوا عليها ، لجأوا الى عدد من الاساليب التي لم يعهد لها المغاربة من قبل ، اذ امروا بأخذ الخمس من الفنائم عملاً بقول جعفر بن محمد : « الخمس لنا أهل البيت ليس للناس معنا فيه شيء » (١٥) ، وهو ما يخالف آراء الفقهاء من أهل السنة الذين يرون بان سهم الرسول انتهى بموته ، وأنه يصرف في المصالح العامة . واستحدث الفاطميون دواوين جديدة لجبي الاموال مثل ديوان الكشف وديوان الضياع ، وقاموا بمصادرة أموال التجار خاصة الاندلسيين ، وكان من ابرزهم جعفر بن خيرون الماعفري لانه لم يكن على وفاق معهم ، واطلقوا العنان لقادة الجيش في جباية الاموال سنة ٣٠٩ هـ / ٩٢١ م من هؤلاء التجار . ومن ابرز هؤلاء القادة مصالة بن حبوس ، ويبدو انه اشتط في جمع الاموال ومصادرتها خاصة من التجار (١٦) .

وشجع الفاطميون جباةهم على الاكثار من المال الذي عد وسيلة لترقية الموظف وتعيينه في المناصب العليا أمثال محمد بن عمران النفطي قاضي طرابلس الذي نال منزلة عند عبيد الله بسبب جمعه المال الكثير وتقديمه لخزينة الدولة (١٧) .

وابتكر الفاطميون وظائف للجباية جديدة ، مثل وظيفة التقسيط الذي ابتدعها القاضي ابو عمران بن احمد بن عبد الله بن أبي محرز عندما ولاه عبيد الله المهدي على خراج افريقية سنة ٣٠٣ هـ / ٩١٥ م ، فنظر في اكثر كمية من مال العشور وأقلها وأخذ متوسطها وفرضه على كل ضيعة من ضياعها (١٨) .

وعرف هذا النوع من الجباية عندهم بالتقسيط ، وبعد سنتين من ابتكار هذه الوظيفة قاموا باصلاح في الجباية سموه « التضييع » وعدوه اصلاح الاصلاح وكان ذلك سنة ٣٥٠ هـ / ٩٦١ م . وفيه يقول ابن عذارى : « وفيها (سنة ٣٥٠ هـ) اخذ أهل الضياع بأعمال افريقية بمفرم سمي التضييع ، وزعموا انه من بقايا التقسيط » . وإلى جانب ذلك ، انشأوا داراً سموها (بدار المحاسبة) كاجراء احتياطي لعدم اختلاس الاموال من قبل الجباة (١٩) .

بالاضافة الى هذا التنظيم الدقيق في الجباية، اهتم الفاطميون بالتجارة، فعمدوا الى تنظيم الاسواق وانشاء غيرها ، فقد انشأوا حي القاسمية التجاري في مدينة القيروان ونقلوا اليه التجار ، وبعد الانتهاء من مدينة المهدية التي بنيت في عهد عبيد

الله الفاطمي ، انشأوا فيها الاسواق التجارية ونقلوا اليها التجار من مختلف الامصار واجروا نظاما دقيقا عليهم في استخلاص المكوس منهم (٢٠) ، وبسطوا سيطرتهم على الطرق البحرية التي دوت عليهم اموالا كثيرة وحاولوا الوصول الى مسالك تجارة الذهب ببلاد السودان (٢١) ، ولكنهم وقعوا في صراع حاد مع الامويين بالاندلس وانتقل هذا الصراع بدوره الى القبائل المغربية المناصرة لهم والمعادية . فقبائل زناته كانت معادية لهم مناصرة للامويين ، اما صنهاجة فكانت معادية للامويين مناصرة للفاطميين مما ادى الى اشتعال الحروب فيما بينهم . ولكن هذا الصراع لم يضعف خزينة الدولة فكان لها من افريقية والمغرب عامة ما يزود خزينتها بالمال الكثير من العملة الذهبية (٢٢) ، حيث تصف بعض المصادر رحيل المعز لدين الله الفاطمي الى مصر وحمله سبائك الذهب على شكل طواحين ، ولعل هذه الثروة الذهبية هي التي اعتمد عليها المعز لدين الله الفاطمي في اسقاط العملة العباسية بمصر اذ نقص دينار الخليفة الراضي بمقدار الربع واصبح يصرف الدينار المعزي بمقدار خمسة عشر درهما ونصف (٢٣) . اما المرابطون ، فقد اقتصر خراج افريقية في عهدهم على زكاة الفطر والاعشار ، والجزية المفروضة على الذميين ، والخمس من غنائم الجهاد ، واما ما عدا ذلك من الضرائب الاخرى التي تخالف الشرع فقد الغيت جميعها .

ويشيد السيلاوي بحسن عملهم في جباية الاموال بقوله : « ولم ير في بلد من بلاده » يوسف بن تاشفين « ولا عمل من أعماله ، على طول ايامه ومن أتى بعده ، رسم مكس ولا خراج في حاضرة ولا بادية ، الا ما أمر الله به ، وأوجبه حكم الكتاب والسنة » (٢٤) وتضمنت وصية الخليفة العباسي القائم بأمر الله التي تحمل صك البيعة للامير يوسف بن تاشفين سنة ٤٢٠ هـ / ١٠٢٩ م والتي كتبها ابو سعيد العلاء بن وهب بن موصلايا ما يأمره فيها بأخذ الزكاة حسب الاصول الشرعية ، واختيار عمال الخراج والضيايع والاعشار ورجال المحاسبة ممن اتصفوا بالصدق والعفة والنزاهة واوصاه بمحاسبة النظار على ما يأخذون من الاموال العينية من الضيايع والتزام سعاة الصدقة بأخذ المقرر لهم من المواشي على السائمة منها دون العاملة حسب السنة النبوية .

وركز في وصيته على دار السكة واوصاه بان يكون النقد المسكوك حسب الميثاق الشرعي خاليا من الغش والتدليس .

وطلب منه بأن لا يرهق اهل الذمة بالجزية ، وان تؤخذ منهم على قدر استطاعتهم حسب ما هو مألوف ، وان لا تؤخذ من النساء والصبيان والشيوخ ، ومن تبطل من الرهبان ، وان يرسل الى الخليفة العباسي ما اوجبه الشرع من الفياء والغنائم (٢٥) .

وعلى هذا النهج سار الأمير يوسف بن تاشفين ومن تبعه من أحفاده بأخذ الضرائب إلى حد ما .

وأما الدولة الموحدية ، فقد حرصت في بادئ أمرها على الاقتداء بالدولة المرابطية التي قامت على انقاضها فالتزمت أحكام الشرع في جباية الضرائب ، ويظهر هذا واضحا في الرسالة التي أنفذها الخليفة الموحد عبد المؤمن بن علي إلى الطلبة والمشايخ والأعيان والناس بالاندلس كافة سنة ٥٤٣هـ / ١١٤٨م ، والمسماة في التاريخ بالرسالة الجامعة (٢٦) ، يخبرهم فيها بأسقاط المغارم والمكوس والقبالات وتحجير المراسي وغيرها من وظائف الجباية المخالفة للشريعة الإسلامية (٢٧) وأرسل رسالة أخرى بنفس المضمون إلى أهل قسنطينة عند الاستيلاء على مدينة بجاية من أيدي المرابطين سنة ٥٤٣هـ / ١١٤٨م ، تحدث فيها عن أهل « الاختلاق والبدع » وما فرضوه من قبالات ومكوس وأعشار ، مطالباً إياهم بإجراء الشريعة عند سن قوانين الجباية . وراحة الناس من وظائف الجباية المخالفة لها ، على أن هذه الإجراءات لم تكن إلا مجرد شعارات قصد منها ترسيخ دعائم الدولة لأن الأموال المجبية لم تكن كافية لسد حاجاتها خاصة وأن الجيش الموحد ازداد عدده واتسعت رقعة نفوذه في المغرب والاندلس ، مما اضطر الدولة إلى البحث عن موارد جديدة لتغطية النفقات المتزايدة (٢٨) .

مع هذا ، قام الخليفة عبد المؤمن بمسح أراضي الدولة سنة ٦٦٤هـ / ١٢٦٥م ، ورسم خريطة لذلك اسقط منها ثلثي أراضي الخراج ، وفرض على الباقي من الأراضي خراجا يدفع نقدا أو عينا (٢٩) ، وسمي عمله (بالتكسير) (٣٠) ، وساعده عدد من خبراء الخراج والفقهاء مراعين في فرضه حالة السكان ونوع التربة والإنتاج لأفريقية وبقية البلاد المغربية في عهدهم . وضمت خطة الأشغال في الدولة الموحدية مناصب عدة ، منها مناصب متولي أشغال البرين - المغرب والاندلس - الذي كان يسمى في الأيام الأولى للدولة الموحدية بالأعمال العلية والأشغال السلطانية والذي أسند إلى زيد ابن يوجان (٣١) أيام الخليفة المنصور الموحد ، لكنه سرعان ما تغير من حيث التسمية والمهام واستعيز عنه بمنصب (أشراف البرين وضم الأعمال وتفقد الأشغال) . وأصبح موكلا لغير واحد يقوم بمهامه ويسمى بصاحب الأشغال ، ويأتي بعده في الترتيب الوظيفي ، صاحب الأعمال المخزنية ، يليه متولي المجابي ثم متولي أموال النفقات والمحاسبة ، ومتولي أعمال المستخلص (٣٢) .

وكان لمتولي الأعمال المخزنية سلطات واسعة تختلف عن غيره من متولي وظائف الجباية في الدولة ، فله الحق في الإشراف على جمع الأموال وانفاقها ، وفي مراقبة العمال المشرفين ومحاسبتهم والقبض على الجناة منهم (٣٣) . وكان له وكلاء في سائر

المدن الكبرى يسمون بالمشرفين ، وله من ينوب عنه في اشبيلية بالاندلس يسمى (بصاحب المخزن) . ولكل مشرف من هؤلاء المشرفين عدة موظفين يختلفون عن بعضهم باختلاف اشرافهم يسمى كل واحد منهم بالخازن ، فهناك خازن على المال ، وخازن على الطعام وجميع هؤلاء المشرفين مسؤولون أمام صاحب الاعمال المخزنية عن الصادر والوارد للمخازن العامة التابعة للدولة ، بالإضافة الى رقابة سجلات الجباة الذي يجبون الضرائب من مختلف المناطق (٢٤) .

ونظرا لكثرة أعمالهم وتعدد مسؤولياتهم ، فقد عين لهم وكلاء يقومون بالاشراف على الجباة المنتشرين في مختلف المناطق ، وهم الصلة ما بين المشرفين والجباة ، ولذا كانت تصدر أموالهم وتزهق ارواحهم بسبب ما يتهمون به من الاختلاس (٢٥) .

أما متولي المجابي ، فتقتصر مهمته على تحصيل الضرائب ، والجزيات على مختلف اصنافها وله عمال في المدن والقرى يساعدونه في اداء مهمته .

وأما متولي المستخلص ، فتتخصص مهمته في الاشراف على أموال السلطان والمحافظة عليها ، فيقوم بتحصيل ما يتعلق بها من الاموال من مختلف ابواب الدخل .

وقد تسند هذه الوظيفة الى صاحب الاعمال المخزنية ، فيباشر الاشراف على السهام السلطانية ، وياخذ ما للسلطان من حصص وحقوق شرعية من الغنائم والفيء ، التي تذهب الى خزينة الدولة ، وما يضاف لها من الاموال المصادرة التي تؤخذ من خصوم الدولة ، ومن يلحق بهم من عمال الجبايات المتهمين بالاختلاس (٢٦) .

ولم تقتصر المصادرة على هؤلاء ، بل تعدتهم الى رجال الذمة من اليهود والنصارى من رعايا الدولة ، خاصة أيام الاضطهاد والمطاردات التي كانت تحدث لهم بين الحين والآخر ، بالإضافة الى فرض ضرائب جديدة ومكوس على مختلف أنواع المعاملات من البيع والشراء ، والصادر والوارد ، وبالجملية كانت الضرائب تفرض على ابناء الأمة كلما احتاجت الدولة اليها ، شأنها في ذلك شأن غيرها من الدول المعاصرة لها .

وكانت العملة الموحدة مكونة من الدينار الذهبي والدرهم الفضي ، وربما استعمل الميثقال الذي له نفس وزن الدينار ، واستعملت الاوقية التي لها نفس وزن الدرهم .

وقام الخليفة المنصور الموحي باحداث تغييرات على نظام العملة ، مثل مضاعفة وزن الدينار بقصد تسهيل المعاملات بين الناس (٢٧) .

واهتمت الدولة الموحدية في بداية عهدها بالزراعة ، وشهدت البلاد رخاء كبيرا ، لكنه ما لبث أن انتكس بسبب المحن الطبيعية والفتن الداخلية (٣٨) . فقد قام عرب افريقية بمؤازرة الثائر ابن غانية ، وعاثوا في الارض الافريقية فسادا ، فقطعوا السبل ونهبوا المتاجر وخربوا البسائط مما انعكس على اقتصاد افريقية خاصة والمغرب عامة ، وما كادت الدولة تنتهي من هذه الفتنة حتى منيت بكارثة عسكرية كبيرة ، تمثلت في معركة العقاب سنة ٦٠٩ هـ / ١٢١٢ م زمن الخليفة محمد الناصر الموحي فكان لها آثار سلبية كبيرة على الناحية العسكرية والاقتصادية حيث تفشى الغلاء ونهبت المتاجر واضطربت الاحوال ، ونشبت حروب أهلية بسبب الصراع على كرسي الخلافة ، واشترك في هذا الصراع بعض القبائل العربية والبربرية ، مثل هسكسورة وعرب الخط ، كل هذا عجل بنهايتها والقضاء عليها على ايدي المرينيين الذين استولوا على الحاضرة مراكش وانتهى الحكم الموحي في المغرب بقتل آخر خليفة موحي المعروف باسحاق سنة ٦٧٤ هـ / ١٢٧٥ م .



اما الحفصيون ، فكانت خزينتهم تتكون من الزكاة والخراج التي سلخوا في اخذها مسلك الدولة الموحدية ، فكان يشرف على ديوان الجباية **صاحب الاشغال** (٤٠) الذي كان يقوم بمراقبة الصادر والوارد الى الخزينة ، وجباية الاموال في اوقاتها والتأكد من صحة كشوفها ومحاسبة من تهاون من الجباة في عمله . وبالجملية يقوم بمراقبة من هو دونه من اصحاب وظائف الجباية ، ولاهميته كان يشترط فيه ان يكون من عصابة الموحيين (٤١) ، فان تعذر وجوده لعدم خبرته في الحسابات عين غيره ممن اتصف بالاخلاص والاتقان وحسن التصرف ، وهو الذي اشار اليه ابن خلدون في مقدمته : « بقوله : » وكان صاحبها يستقل بالنظر في استخراج الاموال وجمعها وضبطها ، وتعقب نظر الولاة والعمال فيها ، ثم تنفيذها على قدرها وفي مواقيتها . وكان يسمى بصاحب الاشغال ، وفي بعض الجهات قد يليها غير الموحيين ممن يحسنها » (٤٢) .

ولجأت الدولة الحفصية فيما بعد الى الاستعانة ببعض خبراء هذه المهنة من الاندلسيين لممارستهم اياها في بلادهم ، ويبدو ان مثل هذه الوظائف وغيرها من وظائف الدولة اخذت - احيانا - طابعا اسريا يورثها الاب لابنه ، فأسرة بني سعيد القادمين من قلعة يحصب الواقعة بالقرب من غرناطة والمعروفين ببني أبي الحسن ، استخدمهم الامراء الحفصيون في هذه الخطة ، وارتضوا بهم دون سواهم ، واصبحت متداولة

بينهم وبين الموحدين ، ولكن الحفصيين طوروا اسلوب الاختيار في التعيين فلم يقصروها عليهم ، بل افسحوا المجال لغيرهم من عمال الجباية من اتصفوا بالكفاية وابدوا من حسن الاعمال ما يسترعي النظر . من هؤلاء ، ابن محمد الجوهري الذي شد نظر السلطان ابي زكريا في ضبطة جباية (مال العمود) (٤٢) ، وهي الجباية المفروضة على البدو بافريقية من العرب والبربر ومن ساكنهم ، وقام بتسجيلها في الديوان (٤٤) باسم ضريبة العمود بعد أن فصلها عن غيرها من خطط الجباية . واستطاع بحسن تصرفه ان يدخل للخزينة منها أموالا كثيرة كانت تذهب الى جيوب العمال والولاة ، فكانت سببا في ترقيته وتعيينه في جباية الاشغال بمدينة تونس (٤٥) .

لكن الجوهري هذا ، عادى ابناء مهنته واصحاب الشأن في الدولة أمثال ابي علي بن النعمان (٤٦) وابي عبد الله بن الحسين (٤٧) ، فوشيا به ، واثبت سلوكه صدق قولهما فيه ، بالاضافة الى اكتنازه الاموال ، وتقريبه الرجال واغتراره بنفسه ، فكان غروره سببا في قتله .

ومن الذين عينوا من اهل البلاد ، زمن السلطان المستنصر ، أحمد اللياني (٤٨) الذي كان واليا على الخطط المخزنية ومن ضمنها خطط البحر (٤٩) . ولم يقتصر الامر على الموحدين وسكان البلاد الاصليين بل تعداهم الى الموالي ، أمثال المملوك مدافع الذي عين على خطة الجباية زمن السلطان ابي اسحاق بن الواثق . ومن الاندلسيين ، محمد ابن يعقوب ، وابو القاسم بن الطاهر وغيرهم ممن شغلوا هذا المنصب في اواخر القرن السابع واولائل القرن الثامن الهجري (٥٠) ، وبالجمله فان وظائف الجباية في الدولة كانت توزع على من يتقنها وان استأثر الاندلسيون بها اكثر من سواهم بسبب معرفتهم اسرارها .

والملاحظ ان صاحب الاشغال كان عرضة للاتهامات وغالبا ما يكون مصيره القتل ، فاللياني قتل على عهد السلطان المستنصر بالله (٥١) سنة ٦٥٩ هـ / ١٢٦١ م ، وسعيد ابن ابي الحسين قتل على عهد الواثق بالله وصودرت املاكه وذلك سنة ٦٧٦ هـ / ١٢٧٨ م ، وابو بكر محمد بن خلدون قتله مفتصب العرش ابن ابي عمارة (٥٢) ٦٨٢ هـ / ١٢٨٣ م .

وبصرف النظر عن التهم الموجهة اليهم من اختلاس الاموال ، الا ان سعي الوشاة وكيد الحاسدين والصراع على الوظيفة كان سببا جوهريا في حدوث هذه النكبات . ولكن الامر لم يقتصر على الفقهاء او الكتاب بل تعداه الى رجال الجيش ، فقد وكل السلطان المتوكل على الله ابو فارس بن ابي العباس أحمد مملوكه وقائد جيشه نبيلًا

أبا قطاية خراج قسنطينة وما حولها ابتداء من بيجابة وانتهاء بعنابة لمدة خمس سنين وذلك سنة ٨٠٠ هـ / ١٣٩٧ م ، فانفرد بها واصبحت له سطوة وحرمة عند الرعية فكانت ترهب جانبه وتخشى بطشه وتتقي غضبه ، وركبه الفروور مثلما ركب غيره ، وكان اذا انفرد ذو الحاجة به وجده موافقا لغرضه محققا لطلبه ، لكنه كان يأخذ بالظن ويبني عليه احكامه (٥٢) . وظن انه انفرد بالسلطة ، لكنه سرعان ما لقي مصيره مثل سابقيه ، فقد أمر السلطان ابو عبد الله محمد المنتصر بتعذيبه حتى زهقت روحه ، وصودرت امواله التي قدرت بمبالغ طائلة ، وضعت في خزينة الدولة (٥٤) .

ويبدو ان بيت المال كان محط اعين الطامعين والمتكالبين عليه فقد مر بظروف حرجة فكان صاحبه يؤخذ بالظنة ، زيادة على سوء تصرف البعض من موظفيه ممن ركبهم الفروور وتصرفوا بالامور حسب اهوائهم .

وقد اسند بيت المال في بعض الفترات الى حياة من النصارى شأنهم في ذلك شأن جيرانهم من الدول الاسلامية كبني مرين بالمغرب ، والمماليك (٥٥) بمصر ولعل هذا يرجع الى دراية النصارى بهذه المهنة واثقتانهم لها ، بيد ان منهم من ركب ما ركب غيره من حياة المسلمين . فقد حدث ان توسل رجل من المسلمين لاحد الجبابرة من النصارى في امر من امور المال ، فاستشاط الجابي (٥٦) غضبا وقال له : « والله لو جاء معك نبيك ما نفعتك ذلك » وعندما علم السلطان استشاط غضبا وعد هذا التصرف استهتارا بالدين ، فأمر باحراقه ، واحتج اهل ملته على هذا الحكم ، وعرضوا على السلطان افتدائه بالمال ولكن السلطان رفض قائلا : « والله لو بدلوا لي فيه ملء الدنيا ذهباً ما بعت بذلك عرض النبي صلى الله عليه وسلم » ، وأمر باحراقه (٥٧) . ويبدو ان هذه الوظيفة قد زاولتها كثير من الايدي مما أدى الى الفوضى والاضطراب فيها الامر الذي كان يدفع السلطان الى وضع حد للعابثين وللمنتحلين لها ، ومن التقاليد المتبعة لدى الامراء ان يقوم الامير الجديد في بداية ولايته بالغاء الاموال المتبقية على العمال وهو ما كان يسمى عندهم « بأزمة الخطايا » (٥٨) ، ولكن سوء تصرف بعض الجبابرة ممن اولاهم السلطان ثقته كان يشنيه عن اسقاطها مثلما فعل الفقيه يحيى بن عبد الملك الفافقي المكنى بابي الحسن والمعروف بابن الخبير الذي منع السلطان اللواتق من اصلاح حال الرعية باسقاط عدد من الضرائب عند التولية (٥٩) مع ان هذا الالغاء لا يدوم طويلا فما أسرع ما يلقي السلطان ما أعلنه ويعيد الضرائب الى ما كانت عليه وربما الى أسوأ ، فيمتنع أبناء الامة عن تاديتها ، أما لفداحتها واما لعجزهم عن ادائها فيقوم السلطان بتجريد الحملات العسكرية للولايات المتمردة .

ومن هؤلاء السلاطين ، أبو عمرو عثمان الذي امر بتجهيز حملة عسكرية سنة

٨٩٦هـ / ١٤٩١م لغزو تلمسان وتآديب الاعراب للضاريين حولها لامتناعهم عن دفع الضرائب، وقبل ان يصل الى تلمسان علم الاعراب بقدومه ، فأوفدوا اليه وفدا مكونا من عرب السويد وبني يعقوب والذواودة من بني عبد الوادي وبني عامر معلنين له الطاعة ومعهم الجبايات المفروضة عليهم .

ويبدو ان هذا الامر لم يكن عند بني حفص فحسب ، بل كان عند جميع الدول المجاورة لهم ، وهذا ناتج عن منح السلطان الاقطاعات الكبيرة الى شيوخ القبائل ثم مصادرتها فيما بعد ، وفرض ضرائب على ما تبقى منها مما يدفع الشيوخ الى اعلان التمرد ، فتضطر الدولة الى تجريد الحملات العسكرية لاختمادها .

ويبدو انه تم حدوث اتفاق غير مدون ما بين الدولة من جهة ومشايخ القبائل من جهة اخرى ، فالسلطان ابو عمرو عثمان ، انتقض عليه اعراب افريقية من اولاد مسكين واولاد يعقوب والشنانقة بعد رجوعه الى تلمسان بسبب عدم انصافهم في العطاء الذي كان يقدمه لهم كل عام ، فقد حدث في هذا العام ان اعطاهم الامير نقدا جديدا بدل القديم ، ولانه كان اقل وزنا من القديم فقد عدوه ناقصا وطالبوا بالنقد القديم بدلا منه (٦١) .



وبعد الاشارة الى سلوكيات اصحاب الجباية ، لابد لنا من الاشارة الى وظائف الجباية في الدولة واهمها : الاشراف على جباية تونس وبيجاية التي تعد من وظائف الجباية العليا ، وقد يقتصر اشراف صاحبها على جباية الحضرة (تونس) دون غيرها من المدن ، ويسمى صاحبها بصاحب (٦٢) الاشغال ، وقد يوكل اليه الاشراف على اموال السلطان الموسومة بعلامة مميزة تميزها عن غيرها من الجبايات ليسهل معرفتها وعدم اختلاطها بأموال الدولة (٦٣) وتسمى (بالسهام السلطانية) يقوم بجمعها من مختلف ابواب الدخل ، ويضعها في خرائط خاصة بها .

وفي هذا الصدد يشير المراكشي الى السهام السلطانية للسلطان ابي محمد عبد الواحد بن الشيخ ابي حفص المتوفى سنة ٦١٨هـ / ١٢٢١م بقوله : « . . ولم يصد يوجد بتركته الا خرائط (٦٤) مكتوب على كل واحدة قبرة » (٦٥) . وهذا اشارة الى المال الذي خلفه السلطان من سهامه السلطانية بقرية قبرة الواقعة بنواحي الحاضرة قرطبة بالاندلس .

والملاحظ ان صاحب هذه الوظيفة يتمتع بمكانة خاصة عند السلطان ، فقد يتولى اخذ البيعة له من العامة والخاصة . ومن الجباة الذين تولوا هذه الخطة زمن السلطان المستنصر ، ابو عثمان سعيد (٦١) بن ابي يوسف ، الذي أخذ له البيعة من الخاصة والعامة سنة ٦٧٥هـ / ١٢٧٦م ، وتولاها من بعده كل من كاتب السلطان الفقيه يحيى ابن عبد الملك الفافقي المكنى بابي الحسن والمعروف بابن الخير (٦٧) ، وابن تافراجين الذي كان يجري العوائد السلطانية في الدولة (٦٨) .

وارتبط بصاحب هذه الوظيفة المسمى بافريقية (بصاحب الاشغال) وبالاندلس والمغرب ب (مختص الحضرة) متولي المجابي المختص بتحصيل الضرائب على مختلف اصنافها وله عمال في المدن والقرى يساعدونه في اداء مهمته . من متولي هذه الخطة ايام السلطان عمرو عثمان ، ابراهيم بن عصفور .

وممن ارتبط بصاحب الاشغال ايضا ، كاتب قلم الجباية والتنفيذ ، وناظر بيت الحساب المسمى الان بدار المحاسبة . وكان ممن تولى هذه الخطة ، ابو عبد الله محمد المسلاتي (٦٩) سنة ٨٦٠هـ / ١٤٥٤م . ولكنه لم يمض عام على تعيينه حتى عزل عنها في اواخر شهر رمضان من نفس السنة ، وعين بدلا منه الفقيه محمد بن الكماد (٧٠) .



اما الضرائب ، فمنها ضريبة التضييف (٧١) التي ابتدعها ابن نخيل كاتب الدولة (٧٢) الرسمي حينذاك والتي كانت تفرض على القرى والبوادي ، وبقيت قائمة الى ان قام السلطان ابو العباس احمد بن عبد الله محمد بالفائها من قرى قرطاجنة ٧٩٩هـ / ١٣٩٦م ، وعلموا هذا التصرف من محاسن افعاله . ومن الضرائب ، ضرائب ديوان البحر (٧٣) الذي كان مميزا عن غيره من الضرائب ، فكانت جميع الموانئ التجارية مفتوحة مع اوروبا ، وكان لهذه الموانئ مكاتب خاصة بها تتبع ديوان الاشغال وتقوم بقبض الاتاوات المعبر عنها بالخمس والتي تقدر نسبتها بين ٢٠ - ٣٦ ٪ ، بالاضافة الى المستوردين الاوربيين . ويطلق على مثل هذه المكاتب ، احيانا ، اسم الديوان . وهذه المكاتب شبيهة بمكاتب القبض الجمركي (٧٤) ، والمراقب المحلي لها يسمى المشرف . ولتسهيل العمليات الجمركية وضمان أمن التجار المسيحيين والمحافظة على بضائعهم ، نجد قرب هذا الديوان مخازن لكل فئة من فئات الامم المتاجرة (٧٥) .

ومن ضرائب الجباية الهامة لخزينة الدولة ، جباية ولاية قسنطينة التي تولوها

محمد بن الدباغ ايام السلطان عمر بن ابي زكريا ، فقام باختلاسها ، والتجأ الى زاوية الزبيديين (٧٦) فارا من وجه العدالة ، فاحتال عليه السلطان حتى اخرجته منها فسجنه بعد ان كبله بالحديد وفرض عليه خمسين الف دينار ذهباً ، فدفعها واطلق سراحه .

وقام بعض السلاطين بتخصيص ضرائب للاعمال الخيرية ، من هؤلاء ، السلطان ابو فارس عبد العزيز الملقب بعزوز الذي تولى الامارة بعد ابيه السلطان ابي العباس وذلك سنة ٧٩٦هـ / ١٣٩٣ م ، وهذه الضرائب هي :

- مجبى سوق الدهادنة (٧٧) ، وكان قدره عشرة الاف دينار ذهباً .
- مجبى سوق العطارين ، وقدره مائتان وخمسون ديناراً ذهباً .
- مجبى فندق الملح ، وقدره الف وخمسمائة دينار ذهباً .
- مجبى فندق البياض ، وقدره الف دينار ذهباً .
- مجبى قائد الاشغال ، وقدره ثلاثة الاف دينار ذهباً .
- مجبى سوق القشاشين (٧٨) ، وقدره مائة دينار ذهباً .
- مجبى سوق الصفارين (٧٩) ، وقدره خمسون الف دينار ذهباً .
- مجبى سوق العزافين ، وقدره خمسون ديناراً ذهباً .
- مجبى سوق الصابون ، وقدره ستة الاف دينار ذهباً . وقد ابيح عمله بعد ان كان ممنوعاً ، وكان يغرم صانعه بالعقوبة المالية والبدنية معا . والفى السلطان ما كان من منكر الخراج ، كخراج الشرطة ، الذي كان يلزم غير واحد من الفقراء والمساكين بدفع ثلاثة دنائير ونصف الدينار ذهباً ، يدفعونه لحاكم المدينة ، وقد غير السلطان ابو فارس عبد العزيز الاسلوب المتبع في اخذها ، خاصة وان الجباة القائمين عليها كانت تنقصهم التقوى ومخافة الله ، فاشتطوا في جمعها وارهاق الناس بها بقصد ملء جيوبهم من أموالها ، فعين السلطان موظفين بمنزلة أعوان للحاكم اتصفوا بالتقوى وسداد الرأي ، وأجرى لهم رواتب معينة من اجل الحد من الطمع فيها . والفى ما كان على الفخارين (٨٠) من وظائف جبائية ، وأسقط ما كان على الزفانين (٨١) والغانيات (٨٢) والمخنثين من مفارم واجلاهم من جميع بلادهم لما بلغه عنهم من عمل المناكر (*) .

(*) انظر لوحة من النظام المالي عند الحفصيين في نهاية البحث .

أما النقود ، فكانت معاملة الدولة الحفصية من الدراهم على نوعين ، أحدهما يسمى القديم ، والآخر الجديد ووزنهما واحد ، ولكن النقد الجديد خالص ، وتقصد القديم مغشوش بالنحاس تسهيلا للمعاملة في البيع (٨٣) والشراء . وأي درهم يقبل دون ان يميز ، فهو درهم عتيق ، وهناك تفاوت بينه وبين الدرهم الجديد . إذ ان كل عشرة دراهم عتق تساوي ثمانية دراهم جدد ، وفي مصطلح الاهالي ان كل عشرة دراهم عتق تساوي دينارا .

والى جانب الدينار استحدث الخليفة المستنصر بالله سنة ٦٦٠ هـ / ١٢٦١ م ، سكة من النحاس على قيمة الدرهم من الفضة حاكي بها الفلوس بالمشرق تسهيلا للناس في معاملتهم وتيسيرا لقضاء حاجاتهم ، وسميت بالهندوس يعني السوداء تمييزا لها عن غيرها من القطع النقدية (٨٤) ، لكنها هي الاخرى لم تسلم من الفش والتدليس والنقص في الوزن ، مما ادى الى افسادها وعدم الثقة بها ، الامر الذي دعا السلطان الى عقاب من قام بفشها ، وعمل على افسادها ، واصبح وجودها مشكلة ونتج عنه اضطراب في البيع والشراء ، فانهى بها الامر الى الفائها . وقد اقتدى سلاطين بني حفص في سك القطع النقدية من حيث الشكل والكتابة بدولة الام « الدولة الموحدية » (٨٥) . ولم يشد السلاطين من بعد السلطان ابي زكريا يحيى بن ابي محمد عبد الواحد ، المؤسس الاول لهذه الدولة ، عن هذا الاقتداء الا في أواخر القرن العاشر الهجري ، اذ قلدوا نقود الاتراك في سكهم .

وقد اصدر السلطان ابو زكريا ديناراه المكتوب عليه في الدائرة من الوجه الاول : « بسم الله الرحمن الرحيم ، صلى الله على سيدنا محمد ، والهكم اله واحد لا اله الا هو الرحمن الرحيم » ، وفي وسط المربع منه « الامير الاجل ابو زكريا ، يحيى بن ابي محمد بن ابي حفص » وفي وسط المربع منه « ابو محمد عبد المؤمن بن علي - امير المؤمنين - الحمد لله رب العالمين » . ونقش في وسط ديناره المربع احيانا والمستطيل احيانا اخرى قبل بيعته بالخلافة (٨٦) من قبل شريف مكة العبارة التالية : الشكر لله ، والمنة لله ، والحوّل والقوة بالله » ، ولما جاءت البيعة رسم على ديناره « المستنصر بالله ، المؤيد بنصر الله - امير المؤمنين » وفي وسط المربع : « ابو عبد الله محمد - بن الامراء الراشدين » (٨٧) .

وعندما دخلت الدولة تحت الحماية الاسبانية ساءت نقودها ، واصبحت على جانب كبير من الرداءة من حيث السبك والكتابة مما دل على دنو اجلها ، لان الكتابة والسبك الجيد دليل على رقيها .

وأما رطل الدولة فمقداره ست عشرة اوقية ، ووزن الاوقية واحد وعشرون درهما من دراهم الدولة (٨٨) .

أما الكيل فهو على نوعين ، قفيز وصحفة ، فأما القفيز ، فهو ست عشرة وبيه ، وكل وبيه تساوي اثني عشر مدا قرويا (٨٩) ، أي ما يقارب المد النبوي ، وتساوي ثمانية بالكيل الحفصي (٩٠) .

وأما الصحفة ، فتساوي اثني عشر مدا بالكيل الحفصي ، أي ما يساوي مدا ونصف بالكيل القروي .

وأما الاسعار : فغالبا ما يكون ثمن كل قفيز من القمح خمسين درهما من الدراهم القديمة والشعير دون ذلك .

وأما الحسبة ، فكان لكل محتسب زمام باسماء المكاييل ، فمن عثر على كيل غير مضروب او غير مطبوع ، أو مطبوع في غير وقته عوقب صاحبه .

وكان لكل نوع من المواد الغذائية مكيال يناسبه ، فالزيت له مكيال من الفخار لانه يفسد في المواد المعدنية ، وترسم في المكيال علامة ظاهرة ينتهي اليها حد الكيل ليُبصرها البائع والمشتري (٩١) .

وفي نطاق الاحباس عند الحفصيين ، بنى السلطان ابو عمرو عثمان الميضا (٩٢) الضخمة الموجودة بدرب ابن عبد السلام داخل جامع الزيتونة ، وأمر باجراء المَاء الساخن لها في الشتاء .

وبنى السبالة الواقعة شرقي صومعة جامع القصبة بالحضرة ليشرب منها المارة ، وبنى سبالة أخرى وضع عليها جعابا من النحاس ليشرب العطشى من الناس . وقام بحفر بئر بالقرب من مارستان الحضرة ، لقلّة الماء في المارستان وبذلك انتفع به المرضى ومن يسكنون بجوار المستشفى .

ودفعه اهتمامه بالمرافق العامة الى بناء زاوية تسمى بزاوية الفندق وزودها بجميع ما تحتاجه من فرش وكساء ومواد غذائية لينزل بها الغرباء القادمين من ضواحي مدينتي القيروان وتونس ، وبنى على منوالها الكثير من الزوايا في اماكن مختلفة من القطر التونسي للغرض نفسه . وأمر ببناء باب الجبيلة الواقع ما بين بابي برج الاونقي بتونس ، وجلب له الماء من خارج الحضرة (٩٣) .

وقام السلطان ابو يحيى ابو بكر بحبس ربع املاكه على الجامعين الاعظمين بقسنطينة (٩٤) . اما نظارة الاحباس في مدينة تونس فكان لها ارتباط بجبايتها فقد عين صاحب الاحباس بالحاضرة على الجباية فيها مثلما حصل مع ابي عبد الله محمد ابن عصفور الذي نقل من نظارة الاحباس الى الجباية بتونس زمن السلطان ابي عمرو عثمان سنة ٨٥٨هـ / ١٤٥٤م لما عرف عنه من ضبط الاعمال وحسن الاشراف ، فقام بواجبه خير قيام في ادارة الاحباس ، ومنع من تسول له نفسه الاستيلاء عليها او تعطيل مهامها او تغيير مكانها (٩٥) .

كما اشرف على المرافق العامة من طرقات وقنوات وبساتين اوقفت ليتامى البلد ومساكينها ، فيقوم بالمحافظة عليها وعلى ثمارها لينتفع من ثمارها ذوو الحاجة من الفقراء . وكان عمله في المحافظة على المعالم المحبسة منطلقا من الاية الكريمة :

« فمن بدله (٩٦) بعد ما سمعه فانما أثمه على الدين يبدلونه ، ان الله سميع عليم » (٩٧) .

والواقع ان الاحباس ادت ادوارا متعددة فالى جانب ما تقوم به من اعالة المساكين كانت تقوم بمهام ثقافية وعلمية ، فقد عهد السلطان ابو عمرو عثمان الى الشيخ الفقيه محمد الزنديوي بالاشراف على المدرسة التي بناها بمدينة تونس سنة ٨٣٧هـ / ١٤٣٣م ، وعهد اليه في الوقت نفسه بالاشراف على الزاوية المعروفة بدار صولة في نفس المدينة وحبس عليها ما يقوم بنفقاتها ، وقام باصلاح المدرسة الموجودة بسوق الفلقة (٩٨) احدى اسواق المدينة بتونس بعد ان كانت مهملة وعين مشرفا عليها الفقيه ابا عبد الله محمد عقاب ، وحبس عليها من العقارات والاراضي ما يقوم بسد نفقاتها (٩٩) .

ودفعه اهتمامه بالمراكز العلمية الى تجديد بناء مقصورة الشيخ محمد بن خلف الواقعة شرقي جامع الزيتونة ، وزود خزائنها بما تحتاج اليه من الكتب العلمية .



وبعد ، فقد انطبق على النظام الجبائي الحفصي من كثرة الضرائب والاستغلال مثلما انطبق على غيره من نظم الجباية للدول المعاصرة له او التي سبقته ، فنرى ان الدولة في بداية امرها حرصت على ان يكون نظام جبايتها يتفق والشريعة الاسلامية قصد

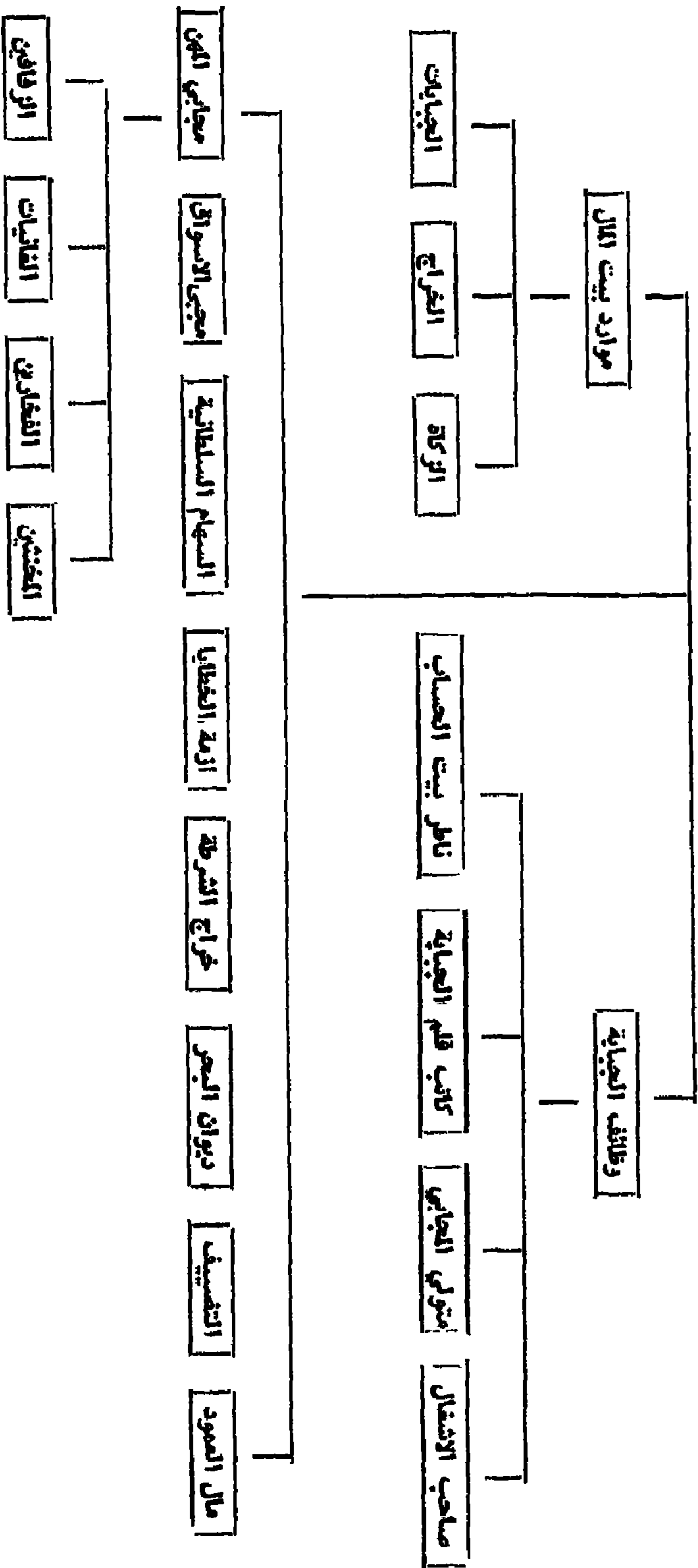
دعم أركانها ولكنها ما لبثت أن كثرت من الألقاب المكوسية ووظائف الجباية في فروع بيت المال قصد تغطية النفقات وكثرة العطاء من حكامها إلى أهل عصبتهم وصنائعهم ، مما أحوجها إلى المال فلجأت إلى فرض الضرائب على مختلف المبيعات ، وازدادت نسبة الضرائب ازديادا طرديا مع حاجتها إلى المال ، خاصة عندما بدأ يدب فيها الهرم ، مما أدى إلى حدوث اختلال في الاقتصاد واضطراب في الأحوال المعيشية للسكان (١٠٠) .

ودفعت الحاجة إلى المال إلى مقاسمة بعض العمال والجباة أموالهم بتهمة الاختلاس وربما اختلس بعضهم بدافع الأغراء ، ولشعوره بعدم البقاء في وظيفته لكثرة المتنافسين عليها فتقوم الدولة في « امتكاك عظامه (١٠١) » حسب قول ابن خلدون (١٠٢) .

وقد يشعر أمير من الأمراء لسبب من الأسباب بعدم الطمأنينة على عرشه فيسلب أموال الخزينة وما تقع عليه يده من متاع مثلما حصل مع السلطان أبي يحيى زكريا اللحياني الذي نهب أموال الخزينة السلطانية وهرب بما أخذه من مال إلى الإسكندرية وبقي يعيش في كنف السلطان المملوكي الناصر محمد بن قلاوون إلى أن مات سنة (١٠٣) ٧٢٧ هـ / ١٣٢٦ م ولكن على الرغم من هذا وذاك ، فقد اتسم النظام الجبائي عندهم بطابع خاص ، ميزه عن غيره من الأنظمة الجبائية للدول المعاصرة ، ويرجع ذلك إلى ما اتسمت به التجارة من ازدهار في ظل الأمن والاستقرار اللذين تمتعت بهما البلاد ، نظرا لعدم قيامها بحروب خارجية مثلما كان الحال في الدولة المرينية التي بذلت جهودا مشكورة في انقاذ الأندلس على منوال ما فعلته الدولة الموحدية من قبلها لتحقيق نفس الغرض .

كل هذا شد نظر الأندلسيين ، فرحلوا بأعداد كبيرة إليها واستوطنوها ، فنشطت التجارة والزراعة بفضلهم ونعمت البلاد - إلى حد ما - بنوع من الاستقرار الاقتصادي باستثناء الفترة المتأخرة من حكم الحفصيين وعلاقاتهم مع الأسبان ضد الأتراك وما نجم عنه من كره الشعب لهم خاصة الأمير الحسن الحفصي وابنه محمد وذلك في الفترة الواقعة ما بين ٩٣٦-٩٨١ هـ / ١٥٢٩ - ١٥٧٤ م (١٠٤) .

لوحة عن النظام المالي عند الحلبيين
أنواع الجبايات



الهوامش

- (١) ابن خلدون ، عبد الرحمن محمد الحضرمي ، المقدمة ج ٢ تحقيق علي عبد الواحد وافي ط (٣) دار النهضة ، الفجالة مصر (د.ت) ص ٦٧٨ .
- (٢) نفس المصدر - ص ٦٧٦ .
- (٣) نفس المصدر - والصفحة .
- (٤) نفس المصدر - والصفحة .
- (٥) تولى الخلافة بعد الخليفة يزيد بن عبد الملك من سنة ١٠٥ - ١٢٥ هـ / ٧٢٤ - ٧٤٣ م، قام باصلاحات عدة الى جانب تعريب الديوان منها ، تعمير الاراضي ، وتقوية الثغور وحفر القنوات والبرك في طريق مكة . راجع ، المسعودي ، ابو الحسن علي بن الحسين ، مروج الذهب ومعادن الجوهر ، ج ٢ ص ١٨٤ ، القاهرة ١٩٥٨ .
- (٦) ابن خلدون ، المقدمة ج ٢ ، تحقيق - علي عبد الواحد وافي ص ٦٧٧ .
- (٧) ابو يوسف ، يعقوب بن ابراهيم ، الخراج ، القاهرة ط ٣ سنة ١٣٨٢ هـ ص ٢٨-٤١ .
- (٨) الادريسي ، الشريف ابو عبد الله محمد ، صفة بلاد المغرب وارض السودان ومصر والاندلس - لندن سنة ١٨٦٤ م ص ١١٥ وما بعدها .
- (٩) ابن عذارى ، ابو عبد الله محمد : البيان المغرب في اخبار المغرب ج ١ ، بيروت سنة ١٩٥٠ ص ٢٧ .
- (١٠) حسن ابراهيم حسن ، تاريخ الاسلام السياسي ، القاهرة ١٩٦٢ ج ٣ ص ٣٢٠ .
- (١١) لويس (ارشيبالد) : القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط ، تعريب عيسى القاهرة - د - ت ص ١٧٤ .
- (١٢) ياقوت الحموي (شهاب الدين ابو عبد الله) معجم البلدان ، دار صادر ، بيروت ، ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٤ م مج ٢ ص ١٢-١٣ .
- (١٣) ابن الاثير - محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني : الكامل في التاريخ القاهرة سنة ١٣٥٧ هـ ج ٥ ص ٢٦ .
- (١٤) الادريسي ، صفة المغرب ص ١١٦ - ١١٧ .
- (١٥) القاضي النعمان ، الهمة في ادب اتباع الائمة ، القاهرة - د - ت ص ٦٦ .
- (١٦) اليماني - محمد بن محمد ، سيرة الحاجب جعفر بن علي ، مجلة كلية الاداب - الجامعة المصرية، مج ٤ ج ٢ سنة ١٩٣٦ م ص ١٠٨ ، القرطبي - عريب بن سعيد ، صلة التاريخ الطبري ، لندن سنة ١٨٩٧ ، ص ٥١ وما بعدها .
- (١٧) ابن عذارى ، البيان المغرب ج ١ ص ١٨٨ .
- (١٨) نفس المصدر ص ١٧٣ .
- (١٩) نفسه ص ١٣٩ : يبدو من بعض النصوص ان جباية التقسيط والتفصيل كانت مرهقة للفلاحين ، وادت الى فقر الكثير منهم ، يخبرنا الخشني عند الحديث عن ابي جعفر احمد بن احمد بن زياد

المتوفي سنة ٣١٨ هـ / ٩٣٠ م ، انه كان من الموسرين لكن مفارم التضييع افقرته . راجع ، الخشني: محمد بن الحارث بن اسد ، طبقات علماء افريقية ، الجزائر ١٩١٤ ص ١٦٨ .

(٢٠) المريزي ، تقي الدين احمد ، اعاظ الحنفا باخبار الائمة الفاطميين الخلفا ، القاهرة سنة ١٩٤٨ م ، ج ١ ص ٩٢ .

(٢١) Robert, Dets, J.De Vise, Tegdaoust, I, Paris 1970.

ويبدو ان الفاطميين تعاونوا مع قبائل البجة المنتشرين في صحراء النوبة في وضع ايديهم على ذهب السودان ، وقد ازدهرت تجارة الذهب في المناطق الممتدة ما بين اسوان بمصر حتى وادي العلاقي الذي يعتبر من أهم مناجم الذهب في العصر الوسيط ، راجع ابراهيم - حركات ، دور الصحراء الافريقية في التبادل والتسويق خلال العصر الوسيط مجلة البحوث التاريخية السنة ٣ عدد يناير ١٩٨١ « مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية ص ٣١ » .

(٢٢) المريزي ، اعاظ الحنفا ج ١ ص ٩٤ .

(٢٣) المريزي ، شذور العقود في ذكر النقود ، النجف ١٩٦٧ م ص ٢٦ وما بعدها .

(٢٤) السلوي ، ابو العباس احمد بن خالد الناصري ، الاستقصا لاخبار دول المغرب الاقصى ، دار الكتاب - الدار البيضاء - المغرب ١٩٥٤ ج ٢ ص ٦٠ .

(٢٥) القلقشندي ، ابو العباس احمد ، صبح الاعشى في صناعة الانشا - القاهرة - ست ج ١ ص ٣٥-٤٥ .

(٢٦) مما جاء فيها : « .. ولقد ذكر لنا في امر المفارم الكوس والقبالات ، وتحجير المراسي وغيرها ما راينا انه اعظم الكيثر جرما وافكا ، وادناها الى من تولاهما دمارا وهلاكاً .. » راجع ، ابن عذاري ، البيان المغرب ، القسم الاول ص ٢١ ، « رسائل موحدية - الرسالة السابقة » .

(٢٧) نفسه ص ٤٠٠ .

(٢٨) ابن عذاري ، البيان المغرب ، القسم الاول ، تحقيق - ج - كولان ، ليفي بروفنسال ، دار الثقافة - بيروت ١٩٦٧ م ٣٣٧ .

(٢٩) نفسه ، ص ٣١٥-٣١٦ ، المراكشي - عبد الواحد ، المعجب في تلخيص اخبار المغرب ليدن ١٨٨١ م ص ١٨٣ .

(٣٠) تسمى عملية المسح بمصر المملوكية ب « (الروك) » راجع ، حسن - علي ابراهيم ، دراسات في تاريخ الماليك في عصر الناصر محمد ط ٣ مكتبة النهضة المصرية - القاهرة ١٩٤٨ م ص ٣٢٦ ، ابن صاحب الصلاة - عبد الملك ، تاريخ المن بالامامة على المستضعفين بان جعلهم الله ائمة وجعلهم الوارثين ، السفر الثاني ، تحقيق - عبد الهادي التازي ، دار الاندلس - بيروت ط ١ سنة ١٩٦٤ ص ٣٢١ .

(٣١) البيان المغرب - القسم الثالث ، تحقيق ، ج - كولان ، ليفي بروفنسال دار الثقافة - بيروت ١٩٨٠ م ص ٢٠١ - ٢٣٦ .

(٣٢) نفسه ص ٢٢٧ - ٢٨٣ .

(٣٣) نفسه ص ١٣١ ، ٢٠١ ، ٢٣٧ .

- (٣٤) نفسه ص ١٣١ ، ١٧٢ .
- (٣٥) نفسه ص ٣١ ، ١٠٨ ، ١١٢ ، ١٣١ ، ٢٢٧ .
- (٣٦) البيان المغرب القسم الثالث ص ٧٣ .
- (٣٧) ابن صاحب الصلاة ، المن بالامامة ، السفر الثاني ، ص ٦١ ، ٢٠١ ، ٢٠٤ ، ٢٠٧ ، ٢٢٠ ، المتونى - محمد ، العلوم والاداب والغنون على عهد الموحدين تطوان ١٩٥٠ ص ٢٥٧ .
- (٣٨) عنان - عبد الله ، عصر المرابطين والموحدين في المغرب والاندلس ، جزءان ، لجنة التأليف والنشر القاهرة ط ١ ، ١٩٦٤ م ص ٢٦ - ٦٢٧ .
- (٣٩) ابن خلدون - عبد الرحمن محمد ، تاريخ ابن خلدون مج ٧ دار العلم بيروت ست ص ١٨٢ .
- (٤٠) حدث تغيير في تسميته زمن السلطان ابي فارس عبد العزيز او عزوز سنة ٧٩٦ - ٨٣٧ هـ / ١٣٩٤ - ١٤٣٢ م ، وصار يسمى بالمنفذ أي صاحب الجباية والتنفيذ في الدولة راجع :
Brunschrig, Robert, La Berberie orientale sous les Hafsides , 2 tomes, Paris 1940 - 1947 , P. 58.
- (٤١) عين بعض السلاطين اولادهم على خطط الجباية في الدولة . راجع : الباجي ابو عبد الله محمد المسعودي ، الخلاصة النقية في امراء افريقية ص ٧٠ .
- (٤٢) ابن خلدون ، المقدمة ، مؤسسة الاعلمي للمطبوعات - بيروت ست ص ٢٥٤ .
- (٤٣) سميت بمال العمود لانها تعني الخيمة ، فكانت تؤخذ من اصحاب الخيام من هذه الضريبة راجع ، ابن خلدون ، تاريخ الدول الاسلامية بالمغرب ، دار الطباعة السلطانية ، الجزائر ١٢٦٣ هـ / ١٨٤٧ م ج ١ ص ٣٩٥ ، الزركشي ، (ابو عبد الله محمد بن ابراهيم) : تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية ، تحقيق محمد ماضور ، المكتبة العتيقة تونس ١٩٦٦ ص ٢٩ .
- (٤٤) مكان تسجيل المكوس والاعشار وادائها ، ثم خصصت كلمة « الديوانة » للمراكز المقامة على الحدود بين قطر واخر لمراقبة السلع المجلوبة والمسوقة - المستوردة والمصدرة - واستخلاص الضرائب المفروضة عليها فهي تعادل كلمة جمر ك . والملاحظ ان هذه التسمية مازالت متداولة على السنين العامة في الجزائر فيسمون دائرة الجمارك بالديوانة (مشاهدات الباحث) .
- (٤٥) كانت هذه الخطة نقطة انطلاق لتوليها لرئاسة الخراج .
- (٤٦) كان من شيوخ البساط عند الموحدين ، ومن كبار مشايخ السلطان المستنصر بالله . راجع ، ابن قنفذ ، ابو العباس احمد بن حسين بن علي بن الخطيب القسطنطيني ، الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية ، تحقيق محمد الشاذلي النيفر وعبد المجيد تركي ، الدار التونسية للنشر ١٩٦٨ ، ص ١١٥ ، ١١٨ .
- (٤٧) هو ابو عبد الله محمد بن الحسين ابن ابي الحسين العنسي ، من بني سعيد اهل القلعة بجوار غرناطة ، كان قهرمان - مسؤولا عن اهل بيت - السلطان ابو زكريا بن ابي محمد عبد الواحد ومن اهل خاصته ، راجع ابن قنفذ ص ١٦٦ .
- (٤٨) اللياني نسبة الى قرية الليانة الواقعة على الساحل من اعمال المهدية ، اهتم بقراءة الادب والفقه حتى برع فيهما ، وضع تقييدا على المدونة لابن سحنون ، تولى بعض الخطط السلطانية وخاصة ديوان البحر . راجع ، الزركشي . تاريخ الدولتين ص ١٨ .

- (٤٩) المقصود بها الثغور البحرية حيث تقام عليها مكاتب المكوس - الجمارك .
- (٥٠) ابن خلدون ، المقدمة ، ط بولاق القاهرة ١٢٨٤ هـ ، ص ٢٤٥ .
- (٥١) الزركشي ، تاريخ الدولتين ص ٣٧ ، ابن قنفذ ص ٢٤٧ .
- (٥٢) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٢٤٥ ، الزركشي ص ٤٧ .
- (٥٣) ابن قنفذ ، الفارسية ص ١٩٤ .
- (٥٤) الزركشي ، تاريخ الدولتين ص ١٤٧ .
- (٥٥) علي - ابراهيم حسن ، دراسات في تاريخ الماليك ط ٣ القاهرة ١٩٤٨ م ، ص ٣٤٣ .
- (٥٦) ما زالت هذه الكلمة مستعملة بين العامة من الجزائريين ، يطلقونها على من يقوم بقطع التذاكر لركاب الحافلة ويسمى بالعاجبي (مشاهدات الباحث) .
- (٥٧) ابن قنفذ ، الفارسية ص ١١٥ .
- (٥٨) الزركشي ص ٤٢ ، والملاحظ ان كلمة الخطية وجمعها خطايا ما زالت مستخدمة في المغرب العربي وتعني المخالفة عندنا (مشاهدات الباحث) .
- (٥٩) الزركشي ص ٤٢ ، ابن قنفذ ، الفارسية ص ١٣٤ - ١٣٥ .
- (٦٠) من الملاحظ ان كل عشرة دراهم عتق تساوي ديناراً ، راجع ، العمري ، المسالك ، وصف «فريقية والمغرب» ، ص ٢٤-٣ ، تحقيق عبد الوهاب حسن حسني .
- (٦١) الزركشي ، ص ١٥٢ .
- (٦٢) الزركشي ، ص ٣٧ .
- (٦٣) الزركشي ، ص ١٩ .
- (٦٤) ربما المقصود بها الحافلة .
- (٦٥) الزركشي ، ص ١٩ .
- (٦٦) نال ابو عثمان مكانة مرموقة في الدولة الحفصية ، وكان مغروراً بنفسه ، وكانت نهايته على يد صنيعة ابي عثمان ، ابو زيد عبد الرحمن بن ابي الاعلام ، ومات تحت ضرب السياط سنة ٦٧٦ هـ / ١٢٧٧ م ، راجع ، ابن قنفذ الفارسية ص ٣٥ .
- (٦٧) ابن قنفذ الفارسية ص ١٣٤ .
- (٦٨) الزركشي ، ١٠٦ .
- (٦٩) الزركشي ص ١١٥ ، ١٣٤ ، ١٣٩ ، ١٥٤ .
- (٧٠) نفسه ص ١٥٤ .
- (٧١) روى ان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، صالح اهل الذمة على ضيافة المسلمين مدة ثلاثة ايام لا يزيدون عليها ، كما صالح عمر نصارى الشام على ضيافة من مر بهم من المسلمين ثلاثة ايام يطعمونهم مما ياكلون ، وضيافة التضييف وجدت في دول الاسلام على غير اهل الذمة ، ففي ايام الماليك البحرية زمن الامير الناصر محمد بن قلاوون المملوكي سميت بـ (حق الضيافة) حيث

- يؤخذ من كل فلاح حصة من المنتوجات الفلاحية وتقدم الى كل امير مملوكي ، راجع ، ابن الفراء ،
ابو يعلى محمد بن الحسين الحنبلي ، الاحكام السلطانية دار الكتب العلمية ، بيروت ١٤٠٢ هـ /
١٩٨٣ م ص ١٥٦ ، علي ابراهيم حسن ، دراسات في تاريخ المماليك ص ٣٦ .
- (٧٢) راجع ، الزركشي ، ص ١٨ ، ٥٢ ، ابن قنفذ ، ص ١٠٥ ، ٩٢ .
- (٧٣) الزركشي ، ص ٣٦ ، ٥٢ ، ابن قنفذ ص ١٧٤ ، ٩٢ .
- (٧٤) لم تستعمل كلمة جمر في تونس او المغرب الا في عهد الحماية الاجنبية . راجع ابن شنو سعيد
الحميد ، النظام لادري بالمغرب ص ٤٣ .
- (٧٥) راجع ، دائرة المعارف باللغة الفرنسية ، مادة Divan
- (٧٦) كان لهذه الزاوية مكانة في نفوس الحكام والخاصة والعامة من الناس بحيث لا يجرؤ احدا على
اقتحامها لاجراء الملتجأ منها .
- (٧٧) الاصل (الدهانة) وهو تحريف ، صوابه ما اثبتناه هنا بالمتن نقلا عن المؤنس والدهانة هم باعة
الامتعة والملابس المتجولون ويفسره ما بعده ، وهو اصطلاح قديم مسمى به في اكثر المدن التي بها
الاسواق . راجع ، الزركشي ص ١١٦ .
- (٧٨) هم باعة لاشياء القديمة او ما يعبر عنه بالخردة .
- (٧٩) هو سوق النحاس .
- ٨٠) نحن امام امرين ، اما ان اسقاط الضرائب عن الفخارين كان بدافع تشجيع صناعة الفخار ولاسيما
ان هذه الماة استخدمت في حفظ العقاقير الطبية وقد بينت الحفريات الاثرية الايطالية التي كشفت
عن آوان فخارية من صنع عربي بصقلية قد استخدمت لهذا الغرض ، واما كما نرجح - حدوث
تصنيف في اللفظ لعل المقصود به الخمارين ، لانه داخل في نطاق المنكر وقطع دابره بسبب ما أدى
من انتشار الفساد والفتن الناتج عن تجمعات الخمارين في اماكن معينة ، مما دفع السلطان ابا فارس
الى الفائه . راجع ، الزركشي ص ١١٧ .
- (٨١) في الاصل الزفافين كما اثبتناه في المتن واصله الزفن وهو الرقص وفي حديث لعب الاحباش في العيد
- عند صحيح مسلم : انهم كانوا يزفنون أي يرقصون وينقرون - وبقيت هذه العادة مستعملة الى
عهد قريب ولا سيما بالساحل ، فيسمون فرقة الغناء فيها من اصحاب الطبل والزمارة ومن
معها من الراقصات وخاصة الزوج انداك فرقة « زفانة » . ووردت كلمة (الزفن) في كتاب مجمع
بحار الانوار ، كانت تزفن للحسن أي ترقصه واصله اللعب والدفع ومنه جاء حبش (يزفنون)
بفتح ياء وسكون زاي وكسر فاء أي يرقصون بلعب السلاح . والملاحظ ان هذه الكلمة (الزفن)
ما زالت مستعملة في بعض النواحي بتونس والجزائر ، ويقولون لمن اراد لهو الحياة يقولون بما
معناه (صاحب زفانة ولهو) مشاهدات الباحث . راجع ، الزركشي ، تاريخ الدولتين ص ١١٧ ،
الكجراتي - محمد الطاهر الصديقي الهندي الفتني ، مجمع بحار الانوار وقرائب التنزيل ولطاف
الاخبار ج ٢ ، طبع بمطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية - بحيدر اباد - الدكن - الهند
١٣٩٠ هـ / ١٩٨٠ م ص ٤٢٨ .
- (٨٢) لعل المقصود بهن المغنيات ، وهذه الظاهرة كانت ناتجة عن رحيل الاندلسيين باعداد ملحوظة الى
تونس اكثر من غيرها من الاقطار المغربية ، وقد استنكر بعض العلماء هذه الظاهرة امثال الفقيه عبد

الله الحيدري المعروف بابن الحاج المتوفي سنة ٧٣٧هـ / ١٣٣٦م صاحب كتاب المدخل . راجع، رضا كحالة ج ١١ ص ٢٨٤ ، فراب - سعد ، الفتاوى وقيمتها الاجتماعية ، مجلة حوليات الجامعة التونسية - كلية الآداب والعلوم الإنسانية عدد ١٦ سنة ١٩٧٨ ص ٩٥ .

(٨٣) كانت معرفة النقد الصحيح الوزن من الناقص تتم بواسطة الصنوج المصنوعة من الزجاج مكتوب على احد وجهيها كتابة بارزة تدل على ان مثقالها هو وزن الدرهم او الدينار الرسمي الشرعي ، وتطبع بدار السكة وتوزع على الصيارفة حتى يختبروا الدراهم او الدنانير المراد صرفها وهناك صنوج اعدت للمجوهرات ، وأخرى للعطور وغيرها من المواد الأخرى . راجع الزركشي ، تاريخ الدولتين ، ص ١١٦ - ١١٧ ، المسالك - وصف إفريقية والمغرب ، تحقيق عبد الوهاب - حسن حسني ، ص ٣ - ٤ ، ص ٤١٩ ، ٤٢٠ .

(٨٤) هذا ما نبه اليه ابن عبدون بقوله : « يجب ان ينهى الصيرفيون عن الربى وان لا يجري في البلد الاسكة دون غيرها ، لان اختلاف السكك مدعاة لفساد النقد » ، راجع ، ابن عبدون ، رسالة في الحسبة ص ٢٤٩ .

(٨٥) راجع ، عبد الوهاب - حسن حسني ، وثائق من الحضارة العربية بإفريقية التونسية ، القسم الاول ص ٥٥ - ٦٦ .

(٨٦) سمي السلطان المستنصر بالله ، بالخليفة بعد وصول البيعة اليه من شريف مكة ابن نهي بتأثير من ابن سبعين الصوفي المرسى عند سقوط بغداد في ايدي التتار . ومما جاء هذه البيعة (.. و ذكر بهاء الدين التبريزي في ملحمة : .. اذ خرجت نار الحجاز بقتل خليفة بغداد ، ويستقسم ملك المغرب ، وتبسط كلمته في الاقطار ، ويخطب له على منابر خلفاء بني العباس .. الى ان يقول : .. بعد بعض البعض سنته محمدي ، وسيرته بكرية ، وسيرته علوية ، وسلالته عمرية .. كتب تجاه الكعبة العظيمة في الجانب الغربي من الحرم الشريف » ، راجع ، ابن خلدون ، كتاب تاريخ الدول الإسلامية بالمغرب ، ج ١ ص ٤١٧-٤٢٨ .

(٨٧) راجع ، الزركشي ، تاريخ الدولتين ، ص ٣٣ ، المسالك ، وصف إفريقية والمغرب والاندلس اواسط القرن الثامن للهجرة ، ص ٣ .

(٨٨) الزركشي ، ص ٣٨ ، المسالك ص ٥٥ - ٦٦ .

(٨٩) لقد عمل سلاطين بني حفص وسلاطين بني مرين على تعديل الصيغان المغربية حسب المد القروي بغاس الذي عدل مد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقام السلطان ابو الحسن المريني بتعديل مدين مصتوعين من النحاس الاصفر على مد الامير يوسف بن يعقوب الذي اعتمد بدوره على المد القروي وذلك سنة ٧٣٤ هـ / ١٣٣٣م ، والمدان كانا موجودان بالكتبة الكتانية بغاس ثم نقلتا الى المتحف .

(٩٠) هو كيل قرره سلاطين بني حفص ، فسمي باسمهم .

(٩١) ابن عبد الرؤوف ، أحمد بن عبد الله ، رسالة في الحسبة ، بيروت ١٩٦٣م . الفصل الثاني ص ١٠٨ - ١٠٩ ، الجرسيفي ، عمر بن عثمان بن العباس ، رسالة الجرسيفي في الحسبة ص ١٢٧ .

(٩٢) الميضات ، اسم مكان الوضوء ، وهو في عرف اهل المغرب باسم جامع لكان التفوط ، ويسمى ايضا مطهرة أي مكان للطهارة ، واذا كان خاصا بالتفوط سمي (بيت الماء) راجع ، السبتي ،

- محمد بن القاسم الانصاري ، اختصار الاخبار عما كان بسببته من سنى الآثار ، تحقيق عبد الوهاب بن منصور ، المطبعة الملكية - الرباط ١٣٨٩ هـ / ١٩٦٩ م ص ٤٤ .
- (٩٣) الزركشي ، تاريخ الدولتين ص ٥١ ، ١٣٥ ، ١٣٦ ، ابن قنفذ ، الفارسية ص ١١٢ ، العمري ، المسالك ، وصف افريقية والمغرب ص ٢٤ .
- (٩٤) ابن قنفذ ، الفارسية ص ١٦٣ .
- (٩٥) الزركشي ، ص ١٤٩ ، ١٥٠ .
- (٩٦) تنطبق هذه الآية الكريمة على كل حكم كان معمولاً به ثم عمد الى تغييره .
- (٩٧) اية ١٨١ من سورة البقرة .
- (٩٨) اصبحت هذه المدرسة داراً للسكنى وقد درست معالها مثلما درس معالم غيرها من الآثار الاسلامية الهامة . اما سوق الفلقة فقد ورد ذكره في وثيقة تجارية ذات صبغة اجتماعية تحمل رقم ١١٢ تتضمن اشهاد محمد بن عبد النبي الغدامسي من جماعة سوق الفلقة بتونس بقبض مائة ريال من محمد بن محمد بن حمود ليشترى بها صوفاً من بلدة سوف بالجزائر بقصد التجارة بينهما . والوثيقة مؤرخة في اواسط ١٣ شوال سنة ١٢٢٥هـ / ١٨١٠ م . راجع عن المدرسة . المراكشي ، تاريخ الدولتين ص ١٣٦ ، وعن سوق الفلقة ، يوشع - بشير قاسم ، غدامس وثائق تجارية - تاريخية اجتماعية ، منشورات مركز دراسة جهاد الليبيين ضد الغزو الايطالي سنة ١٩٨٢ م ليبيا ، ص ٢٣١ .
- (٩٩) الزركشي ، تاريخ الدولتين ١٣٦ .
- (١٠٠) ابن خلدون ، المقدمة ، مؤسسة الاعلمي دت ، ص ٢٨٣ .
- (١٠١) امتك الفصيل ضرع امه اذا مصه مصاً شديداً . راجع ، ياقوت الحموي - شهاب الدين أبو عبد الله ، معجم البلدان ، بيروت ١٩٥٥ م ج ٥ مادة مكة ص ١٨١ .
- (١٠٢) ابن خلدون ، المقدمة ، مؤسسة الاعلمي ص ٢٨٣ .
- (١٠٣) ابن حجر العسقلاني ، شهاب الدين احمد بن علي ، الدرر الكامنة في اعيان المائة الثامنة ، دار الجيل ، بيروت د.ت. ج ٢ ص ١١٤ .
- (١٠٤) ابن أبي ضياف - احمد ، اتحاف اهل الزمان باخبار ملوك تونس وعهد الامان ط ٢ ، الدار التونسية للنشر دت ج ٢ ص ١٢ ، ١٦ وما بعدها .

ثبت باسماء المصادر والمراجع

- الادريسي ، الشريف ابو عبد الله محمد .
 * صفة بلاد المغرب وأرض السودان ومصر والاندلس ، ليدن ١٨٦٤ .
- ابن الاثير ، محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني .
 * الكامل في التاريخ - القاهرة سنة ١٣٥٧هـ ج ٥ .
- الجرسيقي ، عمر بن عثمان بن العباس .
 * رسالة الجرسيقي في الحسبة .
- حسن ، علي ابراهيم .
 * دراسات في تاريخ الممالك في عصر الناصر محمد ط (٣) مكتبة النهضة المصرية القاهرة ١٩٤٨ م .
- ابن حجر العسقلاني ، شهاب الدين احمد بن علي .
 * الدرر الكامنة في اعيان المائة الثامنة ، دار الجيل ، بيروت دت ، ج ٢ .
- حسن - ابراهيم حسن .
 * تاريخ الاسلام السياسي ، القاهرة ١٩٦٢ م .
- حركات ابراهيم .
 * الصحراء الافريقية في التبادل والتسويق خلال العصر الوسيط ، مجلة البحوث التاريخية السنة ٢ عدد ١ يناير ١٩٨١ م - مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية - ليبيا .
- ابن خلدون ، عبد الرحمن بن محمد الحضرمي .
 * المقدمة ، ج ٢ - تحقيق - علي عبد الواحد وافي ط (٣) دار النهضة - القاهرة مصر دت .
 * المقدمة ، مؤسسة الاعلمي للمطبوعات ، بيروت ، دت . ط - بولاق - القاهرة سنة ١٢٨٤ هـ .
 * تاريخ ابن خلدون مجلد ٧ دار العلم - بيروت دت .
- الخشنى ، محمد بن الحارث بن اسد .
 * طبقات علماء افريقية الجزائر ١٩١٤ م
 * دائرة المعارف باللغة الفرنسية مادة (Divan) .
- الزركشي ، ابو عبد الله محمد بن ابراهيم .
 * تاريخ الدولتين الموحدية والحنفية ، تحقيق - محمد - ماضور ، المكتبة العتيقة تونس ١٩٦٦ م .
- السلوي ، ابو العباس احمد بن خالد الناصري .
 * الاستقصا لخبار دول المغرب الاقصى ، دار الكتاب - الدار البيضاء - المغرب سنة ١٩٥٤ م .
- السبتي ، محمد بن القاسم الانصاري .
 * اختصار الاخبار عما كان بسبته من سني الآثار ، تحقيق - عبد الوهاب بن منصور ، المطبعة الملكية الرباط ١٣٨٩هـ / ١٨٦٩ م .

- ابن شنو - عبد الحميد
* النظام الاداري بالمغرب ط ٣ - الرباط ١٩٦٣ م .
- ابن صاحب الصلاة .
* تاريخ المن بالامامة على المستضعفين بان جعلهم الله ائمة وجعلهم الوارثين ، السفر الثاني ، تحقيق
- عبد الهادي التازي ، دار الاندلس - بيروت ط (١) سنة ١٩٦٤ م .
- ابن ابي ضياف - احمد
* اتحاف اهل الزمان باخبار ملوك تونس وعهد الامان ، ط (٢) الدار التونسية للنشر دت ج ٢ .
- ابن عذاري ، ابو عبد الله محمد .
* البيان المغرب في اخبار المغرب ج ١ ، بيروت سنة ١٩٥٠ م ، والقسم الاول ، تحقيق - ج - كولان ،
ليفني بروفنسال ، دار الثقافة - بيروت سنة ١٩٦٧ م ، والقسم الثالث سنة ١٩٨٠ م .
- العصري ، شهاب الدين بن فضل الله .
* المسالك ، وصف افريقية والمغرب ، تحقيق - حسن حسني عبد الوهاب تونس دت .
- ابن عبد الرؤوف ، احمد بن عبد الله .
* رسالة في الحسبة ، بيروت ١٩٦٣ م .
- عبد الوهاب - حسن حسني .
* ورقات من الحضارة العربية بافريقية التونسية ، القسم الاول - تونس ١٩٦٨ م
- ابن عبدون
* رسالة في القضاء والحسبة المجلة الاسيوية حزيران ١٩٢٤ م .
- عنان - عبد الله .
* عصر المرابطين والموحدين في المغرب والاندلس جز ١ ، لجنة التأليف والنشر ، القاهرة ط (١)
سنة ١٩٦٤ م .
- علي - ابراهيم حسن .
* دراسات في تاريخ الماليك ط ٢ - القاهرة ١٩٤٨ م .
- غراب - سعيد
* الفتاوي وقيمتها الاجتماعية ، مجلة حوليات الجامعة التونسية - كلية الاداب والعلوم الانسانية
عدد ١٦ سنة ١٩٧٨ م .
- ابن الفراء . ابو يعلى محمد بن الحسين الحنبلي .
* الاحكام السلطانية ، دار الكتب العلمية بيروت ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣ م .
- ابن قنفذ ، ابو العباس احمد بن حسين بن علي بن الخطيب القسنطيني .
* الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية ، تحقيق - محمد الشاذلي النيفر ، عبد المجيد تركي ، الدار
التونسية للنشر ١٩٦٨ م .

- القلقشندي ، ابو العباس احمد .
* صبح الاعشى في صناعة الانشا ، القاهرة - دت ، ج ١ .
- القاضي النعمان
* الهمة في ادب اتباع الائمة ، القاهرة ، د.ت .
- القرطبي - عريب بن سعيد .
* صلة التاريخ الطبري ، لندن سنة ١٨٩٧ م .
- الكجراتي - محمد الظاهر صديقي الهندي الفتني .
* مجمع بحار الانوار وغرائب التنزيل ولطاف الاخبار ، ج ٢ ، طبع بمطبعة مجلس دائرة المعارف
العثمانية - بحيدر اباد - الدكن - الهند سنة ١٢٩٠هـ / ١٩٧٠ م .
- لويس (ارشيبالد) .
* القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط ، تعريب - عيسى ، القاهرة - دت .
- المسعودي ، ابو الحسن علي بن الحسن .
* مروج الذهب ومعادن الجوهر ، ج ٢ - القاهرة - ١٩٥٨ م .
- المقريزي - تقي الدين احمد
* اتماظ الحنفا باخبار الائمة الفاطميين الخلفا - القاهرة - ١٩٤٨ م
* شذور العقود في ذكر النقود ، النجف سنة ١٩٦٧ م .
- المراكشي - عبد الواحد
* المعجب في تلخيص اخبار المغرب ليدن ١٨٨١ م .
- النوني - محمد
* العلوم والاداب والفنون على عهد الموحدين ، تطوان (١٩٥٠ م) .
- ابو يوسف ، يعقوب بن ابراهيم .
* الخراج ، القاهرة ط (٣) سنة ١٢٨٢ هـ .
- اليمني - محمد بن محمد
* سيرة الحاجب جعفر بن علي ، مجلة كلية الاداب - الجامعة المصرية ، مجلد ٤ ج ٢ سنة ١٩٣٦ م .
- ياقوت الحموي (شهاب الدين ابو عبد الله) .
* معجم البلدان ، دار صادر ، بيروت ، سنة ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤ م مجلد ٢ ، مجلد (٥) مادة مكة ص ١٨١ ،
بيروت ١٩٥٥ م .
- يوشع - بشير قاسم .
* فدامس وثائق تاريخية اجتماعية ، منشورات مركز دراسة جهاد الليبيين ضد الغزو الايطالي سنة
١٩٨٢ م ليبيا .

استعمال العربية في الدواوين المالية قبل عبد الملك بن مروان وبعده

د. فالح حسين

الجامعة الاردنية

تهدف هذه الدراسة لتوضيح فكرة أن استعمال العربية في الدواوين المالية أمر يختلف عن تعريب هذه الدواوين ، لذا لن يكون الحديث عن الدواوين بقدر ما يكون من استعمال اللغة العربية فيها ، إذ أن استعمال العربية شيء وتعريب الدواوين شيء آخر . فالامر الثاني يفترض انه الوقت الذي أصبحت فيه اللغة العربية هي الوحيدة في الديوان ولا لغة سواها . هذا التعريب الذي نتحدث عنه المصادر انه حدث في وقت محدد في كل من الشام والعراق ومصر وخراسان ، يختلف عن استخدام العربية كلفة ادارة في الدولة ضمن لغات أخرى ، لم يكن بمقدور الادارة العربية الاسلامية الاستغناء عنها في بادئ الامر .

ففي حين تذكر المصادر الاولى التي تطرقت لهذا الموضوع (١) أن التعريب بدأ في عهد عبد الملك بن مروان (٦٥-٨٦ / ٦٨٥ - ٧٠٥) في الشام والعراق واستمر في عهد ابنه الوليد (شوال ٨٦ - جمادى الآخرة ٩٦ / ايلول ٧٠٥ - شباط ٧١٥) في مصر ، الى ان امتد في أواخر الدولة الاموية في سنة ١٢٤ / ٧٤١ - ٧٤٢ الى خراسان أيام ولاية نصر بن سيار في خلافة هشام بن عبد الملك (أواخر شعبان ١٠٥ - أوائل ربيع الآخرة ١٢٥ / أواخر كانون ثاني ٧٢٤ - أوائل شباط ٧٤٣) . ومع اخذ ذلك كله بعين الاعتبار ، فإن استعمال العربية كان قبل ذلك بوقت طويل ، ولكنها استعملت الى جانب لغات أخرى ، كما استمر استعمال العربية الى جانب هذه اللغات بعد الفترة التي حددت لتعريب الدواوين ، ونرى ذلك واضحا بدرجات متفاوتة .

وما هو واضح ان العربية ازداد استعمالها طرديا مع الزمن بينما كان استعمال اللغات الاخرى عكسيا مع تقدم الزمن . وبالإمكان القول ان الربع الاخير من القرن الاول الهجري هو البداية الحقيقية لتراجع اللغات الاجنبية في الدواوين المالية أمام العربية، والعكس صحيح بالنسبة لها . فأول وثيقة عثر عليها حتى الان مدونة باللغة العربية وحدها تعود الى ما قبل التاريخ الذي يذكر انه زمن التعريب ، فهي تعود الى سنة ٦٥ هـ ، وتحدث عن اجراء تحقيق في قضية احد أطرافها امرأة . وما وصلنا من هذه الوثيقة يمثل الجزء الاخير منها والذي يحمل لحسن الحظ تاريخ كتابتها ، وقد اكلت الارضة بعض كلماتها نثبت فيما يلي بعض الاسطر المتبقية منها نظرا لاهميتها هنا :

[فاذا جا]ك كتبي هذا فان [اقامت]

[البيئة و]استخراج لها ح[قها ولا]

في حقها او ا[كتب]

[الى به] والسلام [على من اتبع]

[الهدى و] كتب ابان بن [في]

[س]نة خمس [و] ستين (٢) .

وتزايد الوثائق المكتوبة باللغة العربية في مصر بالذات ابتداء من سنة ٩٠ هـ أثناء ولاية قرّة بن شريك في خلافة الوليد ، هذا في حين ان استعمال العربية في مصر كلفّة وثائق مالية رسمية الى جانب اليونانية - لغة الادارة قبل الفتح - يعود الى فترة بعيد الفتح مباشرة . وأول الوثائق العربية التي عثر عليها حتى الان تعود الى جمادي الاولى ٢٢ هـ / نيسان ٦٤٣ ، وهي ثنائية اللغة كتبت بالعربية واليونانية ، اذ كتب النص نفسه بالعربية اولا ثم باليونانية بعد الاسطر العربية مباشرة ، وتمثل ايصال قبض مواد عينية من بعض المدن المصرية، نرى ان اثباتها هنا ذو اهمية خاصة باعتبارها اول الوثائق العربية التي عثر عليها في مصر ، او هي اول وثيقة عربية اسلامية معروفة لدينا حتى الان ، وتحمل تاريخ تدوينها بوضوح والنص كما يلي:

بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما اخذ عبد الله

ابن جبر واصحبه من أهنس اخذنا

من خليفة تدرق ابن ابو قير الاصفر ومن خليفة اصطفن ابن ابو قير الاكبر

خمسين شاة من الجزر وخمس عشرة شاة اخرى اجزرها اصحب سفنه وكتبه

وثقله في شهر جمادي الاولى من سنة اثنتين وعشرين وكتب ابن حديد و (٣) .

وعن استعمال العربية في دواوين الشام المالية لدينا دليل وثائقي على استعمالها منذ عهد معاوية حسب ما اوضحته برديات Nessian التي عثر عليها في جنوب فلسطين ، وهي وثائق بردية ضرائبية كتبت باللغتين العربية واليونانية ايضا ، ونشبت النص العربي لاحداها كدليل مادي لبرهنة ما ذهبنا اليه من استعمال العربية قبل قرار تعريب الدواوين الرسمي:

[بسم الله الرحمن الرحيم
[من] الحرث بن عبد الله الى اهل نصتان
[من] ورة غزة من اقليم الخلوص
[فاعطوا] عسر عدى بن خالد من بني
[سعد بن م] لك رزق ذى [العقد] هـ و
[المحرم وصفر] و [شهر] ربيع
[سبعة] م [دى] ق [امح] ومثله زيتا و
[كتب] ابو سعيد في ذى العقدة
من سنة أربع وخمسين (٤) .

وهذه الوثيقة ليست الفريدة من نوعها كحال سابقتها من مصر بل هناك وثائق تعود لسنة ٥٥ و ٥٦ و ٥٧ و ٧٠ هـ ، وكلها كتبت بالعربية واليونانية حول الموضوع نفسه ، مما يجعلنا نؤكد باطمئنان استعمال العربية في الشام كما هو الحال في مصر قبل فترة التعريب التي نسبت لعبد الملك (٥) .

بمثل هذا الوضوح لا نستطيع اثبات استعمال العربية في العراق لا فتقارنا الى الوثائق الرسمية ، الا أن البلاذري يقول في معرض حديثه عن صالح بن عبد الرحمن في رواية عن المدائني ما نصه « فلما ولي الحجاج العراق استكتب زاذان فروخ بن بيري وكان معه صالح بن عبد الرحمن مولى بني تميم يخط بين يديه بالعربية والفارسية » (٦) . فاللغتان استعملتا جنبا الى جنب كحال العربية واليونانية في الشام ومصر .

وقبل الاستطراد في الحديث عن استعمال العربية او سواها من اللغات الاجنبية في الدواوين المالية لابد من القاء نظرة على الاوضاع التي سادت البلاد المفتوحة لحظة الفتح ، فيما يتعلق بادارتها واللغات المستعملة فيها ، وظروف الفتح ، وكيف تعامل العرب المسلمون مع الاوضاع الجديدة بعد الفتح .

من المعروف ان الجيش العربي الاسلامي عند خروجه من الجزيرة العربية دخل

بلاداً غير متساوية في بعدها عن العرب جغرافياً أو ثقافياً ، فاطراف الشام والعراق المحاذية للجزيرة هي بلاد عربية السكان ، وبالتالي فإن اللغة العربية هي اللغة التي يتعامل بها القوم على المستوى الشعبي على الأقل ، فالعربية اذن ليست غريبة عن المنطقة وأهلها ، في حين ان النظم التي سبقت العرب المسلمين في كل من الشام والعراق ومصر هي نظم غريبة عن السكان العرب المقيمين بدرجات متفاوتة من الكثافة السكانية فيها. فالنظام الفارسي السائد في العراق على علاقة متوترة مع قبائل العرب في الحيرة وما حولها بعد القضاء على حكم المناذرة ، والنظام البيزنطي هو السائد في الشام ومصر وبعض الجزيرة ، وعلاقته مع السكان ليست ودية على كل حال . وعليه فان ثقافة النظامين ، التي اصطبغت بالصبغة الفارسية والبيزنطية ، كانت غريبة عن الاهالي .

ولما جاء العرب يحملون عقيدتهم لشعوب هذه المناطق وجدوا امامهم اصول النظامين السابقين تسيير امور البلاد على ضوئها ، ولم يكن باستطاعة العرب ان يغيروا الاوضاع القائمة بين ليلة وضحاها (٧) . ومع شعورنا بضرورة الاشارة الى اننا لا نتفق مع من يصفون العرب في هذه الاونة بانهم مجموعات بدوية بعيدة عن الحضارة وليس لها من التراث ما يؤهلها أصلاً لحكم الدول المنظمة ، كما كان الحال بالنسبة للروم والفرس (٨) ، ولكن الظروف الجديدة فرضت على العرب الاستعانة بما وجدوه امامهم خاصة فيما يتعلق بالادارة والتنظيم ، فكان لابد من استخدام اللغات التي كانت مستعملة وهي الفارسية واليونانية ، وكذلك استخدام الموظفين المؤهلين من اهالي البلاد المفتوحة لادارة دفة الامصار ، والادارة المالية بالتحديد . لان خلق جهاز اداري جديد يحتاج الى وقت طويل ، اذ ان الحصول على الكادر المؤهل ليس بهذه البساطة تماماً ، كالاستغناء عن المؤهلين الذين لم يكن باستطاعة الدولة العربية الجديدة ان تقوم به فور نجاح الفتح . ولم تكن قلة خبرة العرب هي الاساس في الموضوع ، اذ احتاج العرب اناساً قادرين على مخاطبة الاهالي بلفتهم فكان لابد من استخدام من يحسن ذلك ، لاقتدارهم لمن كان باستطاعتهم التعامل مع الاهالي باللغة التي يعرفونها . ومن هنا بدا استعمال العربية الى جانب اللغات الاخرى منطقياً ، اذ لابد للدولة أيضاً من معرفة ما يجري . لذلك كله نرى استخدام اللغتين جنباً الى جنب ، العربية مع اللغة الاجنبية المستعملة في مصر ، فكانت الاستعانة بموظفي الادارة القديمة الذين استمر الاعتماد عليهم وعلى خبرتهم في ادارة شؤون الدواوين المالية على وجه الخصوص ، وهذا ما تقره المصادر العربية في الشام والعراق (٨) . وينقل ترتون عن مؤلف سرياني مجهول قوله انه حتى اواخر القرن الاول الهجري « كان النصارى يشغلون مناصب الكتابة والولاية

(*) انظر الدوري ، التكوين التاريخي للامة العربية ، نشر مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت ١٩٨٤ ص ٢٤ وما بعدها .

وحكم الاقاليم نيابة عن العرب « (٩) . بالاضافة الى المصادر المسيحية القبطية والسريانية واوراق البردي التي تعد اكبر شاهد على مدى استعانة العرب بأهل الذمة في ادارة الدواوين المالية سواء بمصر أو في الشام والعراق وغيرها من الامصار . ومن هنا فان دعوى عدم استعانة العرب بغير المسلمين منذ عهد الفتوحات تبقى غير معبرة عن الواقع ولا سبيل للاخذ بها (١٠) .

وربما كانت هذه الدعوى فيما بعد وفي حالات خاصة لظروف شاذة واستثنائية، وقد تعبر عن مدى معارضة المسلمين لكثرة تولي أهل الذمة الوظائف ، فنبدا بسماع اجراءات خاصة ضد أهل الذمة (١١) ، حتى ان عمر بن عبد العزيز الذي ينسب اليه عدم الاستعانة بأهل الذمة نجده يبرر الاستعانة بهم ابتداء بقوله لعماله : « ان المسلمين كانوا فيما مضى اذا قدموا بلدة فيها أهل الشرك يستعينون بهم لعلمهم بالجباية والكتابة والتدبير فكان لهم بذلك مدة فقد قضاها الله بأمر المؤمنين فلا أرى كاتباً ولا عاملاً في شيء من عملك على غير دين الاسلام الا عزلته واستبدلت مكانه رجلاً مسلماً » (١٢) . واستعانة العرب بأهل الذمة والافادة من خبرتهم بالاضافة الى تركهم يديرون شؤونهم الخاصة وفق شرائعهم مرده الثقة بالنفس وروح التسامح التي تحلى بها العرب (١٣) . ويبدو ان الظروف التي دعت الى فرض اجراءات معينة على أهل الذمة ، كمسألة اللباس مثلاً ، كانت وقتية واستثنائية دائماً، فما ينسب لعمر بن عبد العزيز (١٤) دائماً يعني أنهم كانوا يشغلون الوظائف لذا حصل التذمر . ونسبت بعض الاجراءات لعمر بن الخطاب من قبله (١٥) . لكن هل توقف استخدامهم بعد ذلك؟ الجواب قطعاً بالنفي، فلو كان ذلك صحيحاً لما سمعنا باجراءات المتوكل ، في القرن الثالث سنة ٢٣٥ هـ ، التي اصدرها لوضع القيود على أهل الذمة ، كما نسب اليه منعهم من الوظائف (١٦) .

لكن النص الذي اوردده الطبري يقول « ونهى ان يستعان بهم في الدواوين واعمال السلطان التي يجري احكامهم فيها على المسلمين » (١٧) . والملفت للنظر ان المعن في الكتاب الذي بعثه المتوكل لعماله في شوال سنة ٢٣٥ هـ لا يتضمن مثل هذا النهي بل العكس ، ويفهم منه ان كتاب أهل الذمة شملوا بتدابير اللباس مع سواهم « من لبسها من تجارهم وكتابهم » (١٨) ، فذكر الكتاب من أهل الذمة ضمن من عليهم تنفيذ أمر اللباس . اضافة الى ان كتب التاريخ والوثائق مليئة بما يدل على استمرار استخدامهم في شتى فترات التاريخ الاسلامي .

وعلى هذا الاساس نقول بان العرب ابقوا الموظفين الكبار ، زيادة على الموظفين المنفذين في الاقاليم ، في مناصبهم . لكنهم ومن البداية ابقوا امرتهم تحت سلطة رئيس

عربي اعلى هو الوالي او صاحب الخراج ، الذي كان في بداية الامر عربيا دائما ، فبقيت جيوش الكتاب والموظفين في شتى مجالات الادارة المالية لكنهم خضعوا لادارة الوالي المباشرة (١٩) . الا ان هذا لا يعني ان ادارة البلاد اقتصرت على موظفين من القبط او اليونانيين او الفرس ، ففي اواخر القرن الاول كان المسؤولون الرئيسيون في ادارة مصر عربا وليس قبطا او يونانيين (٢٠) . ومع ان الملاحظات السابقة تتحدث عن مصر لان وضعها اصدق ما يمثل الواقع نظرا لتوافر الوثائق الرسمية التي تجعل التقرير امرا مؤكدا وافتقار بقية انحاء الدولة الاسلامية لها ، الا ان الامر نفسه يصدق على بقية المناطق .

ومع ان الادارة العربية في البلاد المفتوحة استلزمت الاستعانة بالموظفين القدامى ونتج عنها بقاء اللغات التي تعامل بها هؤلاء الموظفون في ظل الدولة الاسلامية بادىء ذي بدء ، لكن هذا لا يعني ان الدولة الفتية اديرت من قبل اجانب وبلغة او لغات اجنبية ، اذ وجدت دواوين عربية صرفة ، عربية برجالها ولفتها من الوهلة الاولى نظرا لطبيعة هذه الدواوين كديوان الجند (العطاء) الذي كان ديوانها عربيا خالصا منذ انشائه ايام عمر بن الخطاب ، وكذلك ديوان الخاتم والرسائل والبريد وما اليها ، ولم يعهد عنها انها عرفت لغة لادارتها غير العربية او رؤساء غير عرب مسلمين او مسلمين من المستعربة (٢١) . هذه الدواوين لاتعينا في هذه الدراسة اذ انها ليست مشكلة اصلا فيما يتعلق باستعمال العربية في ادارتها ، وانما يعينا النوع الاخر من الدواوين وهي الدواوين المالية التي تعني بالخراج والضرائب ، او كما يسميها الجهشيارى (وجوه الاموال) وثبت النص هنا لانه يوضح ما ذهبنا اليه بجلاء: « ولم يزل بالكوفة والبصرة ديوانان احدهما بالعربية لاحصاء الناس واعطيائهم وهذا الذي كان عمر قد رسمه ، والاخر لوجوه الاموال بالفارسية ، وكان بالشام مثل ذلك ، احدهما بالرومية والاخر بالعربية ، فجرى الامر على ذلك الى ايام عبد الملك بن مروان » (٢٢) . وهذا ما يوضح ذكر اسماء الكتاب العرب على الدواوين في الكوفة ، اذ كانت مهمتهم الاشراف على الديوان الاول (٢٣) . اما الديوان الثاني فهو الذي اضطرت الادارة العربية الاسلامية ان تستخدم لادارته موظفين من غير العرب وغير المسلمين من اهل البلاد لمامهم بأصول اللغة المحلية والعمل الاداري ، خاصة دواوين الضرائب (الخراج) .

ففي الشام استعمل سرجون بن منصور الرومي الذي « كان روميا نصرانيا كتب لمعاوية ولمن بعده الى عبد الملك بن مروان » (٢٤) . وكتب لمعاوية على ديوان حمص ابن اثال النصراني (٢٥) ، وكتب لزياد بن ابيه على الخراج زاذان فروخ الذي بقي كما يبدو حتى ايام الحجاج (٢٦) ، بينما بقي دهاقين العراق وخراسان يتولون ادارة شؤون جباية

الضرائب (٢٧) ، وكانوا يقومون بهذه المهمة في العصر الساساني فاستمروا على ذلك بعد الفتح العربي (٢٨) . وعن استمرار وجود الموظفين الماليين من القبط في مصر لدينا الكثير من الوثائق التي توضح ذلك ، كالرسائل المرسلة من الوالي قره بن شريك (٩٠-٩٦هـ) انى باسيل صاحب كورة أشقوه ، والتي تعود لسنتي ٩٠-٩١هـ (٢٩) . ولم يكن باسيل هو الوحيد بل ان موظف الضرائب في مدينة اهناس سنة ٩١ هـ مثلا كان بطرس بن جرجة (٣٠) .

الا ان هذا الوضع لم يستمر طويلا فأوضاع الدولة العربية الاسلامية تجري عليها سنة التطور ايضا ، هذا التطور الذي كان لابد ان يأخذ مجراه ليتوقف استخدام اللغات الاجنبية وممثلي الثقافة الاجنبية ايضا . لذا كان ايضا تعريب النقد في الوقت الذي بدأت فيه الدولة اصلاحها الاداري . ويبدو ان محاولة لتعريب النقد قد جرت في وقت مبكر لكنها كانت سابقة لاوانها فلم تنجح ، وذلك عندما حاول الخليفة الاموي الاول معاوية بن ابي سفيان تعريب النقد ، هذه المحاولة التي عرفناها عن طريق احد المؤلفين السريان ، فقد نشر نولدكه نصا سريانا مجهول المؤلف وقام بترجمته الى الالمانية جاء فيه أن « معاوية ضرب النقود الذهبية والفضية الا انها لم تقبل لانها لم تحمل علامة الصليب » (٣١) .

وفي مجال الحديث عن تعريب النقد اود ان اوضح نقطة هامة ، فقد ورد سبب تعريب النقد في رواية لدى البلاذري ملخصها ان امبراطور الروم اعترض على وضع علامات اسلامية في القراطيس (أي الورق المصنوع من البردي) الذي كان يصنع في مصر ، وهدد الخليفة عبد الملك بالكف عن فعل ذلك « فان تركتموه والا اتاكم في الدنانير من ذكر نبيكم ما تكرهونه » (٣٢) . فثقل ذلك على الخليفة وقرر ضرب الدنانير ، وكان الدولة العربية الاسلامية كانت تستورد النقد المضروب لدى البيزنطيين ، الامر الذي ينقضه ما لدينا من معلومات في مصادرنا الاولى كالبلادري نفسه ، الذي يبين ان العرب ضربوا النقود على الهيئة الساسانية والبيزنطية القديمة . ولكن الضرب كان على ايديهم منذ عهد عمر بن الخطاب مرورا بالخلفاء والولاة في الشام والعراق والمشرق حتى عهد عبد الملك (٣٣) نفسه ، واكد ذلك ما عثر عليه من القطع النقدية العديدة .

ثم هل يمكن ان تعتمد دولة عظمى كالدولة الاسلامية في ذلك الوقت على استيراد عملة اجنبية تصدرها لها دولة معادية ؟ . ولنقل الدولة المعادية الاساسية ؟ . ولكن الدولة في دمشق كانت مضطرة لضرب النقد على الهيئة المعتادة طوال هذه الفترة لاسباب اقتصادية لا نريد الخوض فيها في هذه الدراسة .

هذه الاوضاع التي اضطرت العرب للابقاء على عناصر الادارة المالية ولغاتهما لابد وان تتغير ، ومن المنتظر ان يزداد استخدام الموظفين العرب او المستعربين الذين دخلوا الاسلام في الدواوين ، فزيادة استعمال العربية يتبعه بالضرورة زيادة الاستغناء عن العناصر الاجنبية ولغاتهما ، تلك الخطوة بالذات تمثل الفترة التي سميت بفترة تعريب الدواوين ، فهي البداية المنظمة او النقطة الحاسمة في الولايات الاسلامية التي بدأ فيها الاستغناء عن الموظفين الاجانب ولغاتهم يتبع خطة مرسومة نفذت بالتدريج ، اذ لم يكن بالامكان اصدار القرار وتنفيذه فوراً ، ففهم الموضوع على هذا المنوال يعتبر تبسيطاً للامور وبعيداً عن تتبع التطور الطبيعي للأشياء الذي تحتاجه مثل هذه العملية ، لانها عملية مرتبطة بالتغلغل الثقافي العربي الاسلامي في البلاد المفتوحة دون شك (٢٥) .

وكذلك الامر بالنسبة لما اصطلح عليه بتعريب الدواوين الذي ينسب الى خليفة او وال بعينه اقر ذلك ونفذه في سنة محددة ، وكأن المسألة مجرد اصدار قرار ، فقضية التعريب من العمليات التي كان التدرج اهم ميزاتها . واول علامات التدرج ما نجده في قرارات التعريب في الامصار الرئيسية وبأوقات متتابة ، اذ بدأ في العراق ثم الشام ثم مصر الى ان وصل اخيراً الى خراسان .

ففي العراق بدأت العملية بمبادرة من الحجاج وبالصدفه(*) ، فقد كان على ديوان الفارسية زادن فروخ فخلفه مرة صالح عبد الرحمن فاعجب به الحجاج فأخبر صالح زادن بذلك وتوقع ان يسند اليه هذا الديوان فاستبعد زادن الفكرة على اعتبار ان الحجاج لا يمكنه الاستغناء عنه لانه « لا يجد من يكفيه الحساب » فبرهن صالح له على مقدرته بالحساب ، وحصل ماتوقعه صالح فكان ان « أمر الحجاج صالحاً بنقل الدواوين الى العربية في سنة ثمان وسبعين » (٣٦) . وكان فضل صالح بعد ذلك عظيماً لان « كتاب العراق كلهم غلمانهم وتلاميذهم » (٣٧) . ونقل البلاذري عن عبد الحميد الكاتب شهادته بدور صالح « لله در صالح ما اعظم منته على الكتاب » (٣٨) . ورواية البلاذري اكثر دقة في توضيح مسألة التعريب في العراق ، فقد روى عن المدائني عن اشياخه « قالوا : لم يزل ديوان خراج السواد وسائر العراق بالفارسية فلما ولي الحجاج استكتب زادن فروخ بن بيري وكان معه صالح . . يخطبين يديه بالفارسية والعربية . . فوصل زادن فروخ صالحاً بالحجاج وخف على قلبه » (٣٩) ، فصارح صالح رئيسه بالامر ولمح اليه استلطاف الحجاج له وانه قد يقدمه عليه فلم يعأبقوله لان الحجاج لن يستطيع الاستغناء عنه لحاجته اليه فهو بحاجة زادن اكثر من حاجته

(*) هكذا تصور الروايات الوضع وكأنه صدفة لكننا لا نتفق معها اذ ان التعريب لابد وانه جرى بناء على خطة من الدولة .

صالحا لعلمه بالحساب الذي لا يتقنه سواه ، عندها أجابه صالح : « والله لو شئت ان احول الحساب الى العربية لحولته قال فحول منه شطرا حتى أرى ففعل فقال له : تمارض فتمارض فبعث اليه الحجاج طبيبه فلم ير به علة وبلغ زادان فروخ ذلك فأمره ان يظهر . ثم ان زادان فروخ قتل ايام عبد الرحمن بن محمد بن الاشعث الكندي وهو خارج من منزل كان فيه الى منزله او منزل غيره ، فاستكتب الحجاج صالحا فأعلمه الذي كان جرى بينه وبين زادان فروخ في نقل الديوان فعزم الحجاج على ان يجعل الديوان بالعربية ، وقلد ذلك صالحا ، فقال مردا نشاه بن زادان فروخ : كيف تصنع بدهويه وششويه قال : اكتب عشر ونصف عشر . قال : فكيف تصنع بويد ؟ قال : اكتبه ايضا . والويد : النيف والزيادة ، فقال : قطع الله اصلك من الدنيا كما قطعت اصل الفارسية » (٤٠) . فعرض عليه رشوه لظهار العجز « فأبى ونقله » . يتبين من الرواية ان مشكلة الديوان ربما تمثلت في المصطلحات الحسابية التي اتقنها صالح مع اتقانه العربية فسهل عليه نقل هذه المصطلحات للعربية ، كما نفهم منها ان تكليف صالح كان بسبب وفاة زادان فروخ أيام فتنة ابن الاشعث ، وهذه اشارة جد هامة فهي تجعل التعريب بعد التاريخ الذي ذكره الجهمشياري أي سنة ٧٨ (٤١) . فحوادث فتنة ابن الاشعث وقعت في عام ٨٢ (٤٢) ، كما يجعله المقرئ بعد سنة ثمانين (٤٣) . وهذا هو التاريخ الاكثر ملاءمة اذ ينتظر ان يبدأ التعريب في العاصمة لدى الخليفة وليس في الولايات ، وقد اعطي صالح مهلة لنقل الديوان ، أي لوضع سجلات الحسابات المالية بالعربية (٤٤) .

اما تعريب ديوان الشام فيعيدده البلاذري الى سبب تأديبي نتج عن ردة فعل الخليفة على ما نسب الى أحد الكتاب الروم واعتبر غير لائق وذلك عندما « احتاج ان يكتب شيئا فلم يجد ماء فبال في الدواة ، فبلغ ذلك عبد الملك فأدبه وامر سليمان بن سعد بنقل الديوان ، فسأله ان يعينه بخراج الاردن سنة ففعل ذلك وولاه الاردن فلم تنقض السنة حتى فرغ من نقله وأتى به عبد الملك فدعا بسر جون كاتبه فعرض ذلك عليه فغمه وخرج من عنده كئيبا فلقه قوم من كتاب الروم ، فقال : اطلبوا المعيشة من غير هذه الصناعة فقد قطعها الله عنكم » (٤٥) .

ولم يكن السبب المذكور السبب الوحيد الذي ذكرته المصادر ، فيذكر الجهمشياري سببا آخر وان لم يكن قاطعا ولكنه اقرب الى الحدوث ، وهو أن عبد الملك امر سرجون ابن منصور الرومي « يوما بشيء فتشاقل عنه وتوانى فيه ، فعاد لطلبه وحشه فيه فرأى منه تفريطا وتقصيرا ، فقال عبد الملك لابي ثابت سليمان بن سعد الخشنى - وكان يتقلد له بديوان الرسائل - اما ترى ادلال سرجون علينا ؟ واحسبه قد رأى ضرورتنا اليه والى صناعته ، افما عندك حيلة ؟ قال : لو شئت لحولت

الحساب الى العربية ، قال : فافعل ، فحوله فرد اليه عبد الملك جميع دواوين الشام « (٤٦) . ويؤكد الصولي قضية تواني سرجون في عمله وانها السبب في اتخاذ القرار » ثم رأى منه توانيا فطلب من سليمان بن سعد تحويل دواوين الشام « (٤٧) . وبقي سليمان على رأس عمله حتى ايام عمر بن عبد العزيز ويزيد بن عبد الملك ، كما كان كتاب الوليد بن يزيد بن عبد الملك وهشام وكتاب يزيد بن الوليد كلهم عربا « (٤٨) .

فقد استتبع امر التعريب في الحالتين السابقتين تغيير الكتاب مع الامر بنقل الدواوين الى العربية ، اذ استبدل بهم عرب او مستعربون . وكانت ردة فعل ممثلي اللغات الاجنبية تقريبا واحدة اذ اعتبروا النقل هو بداية تغيير يستهدف الاستغناء عنهم وعن لغاتهم . لكن سبب النقل التافه لا يمكن ان يمثل نقطة الحسم بالعملية ، وكان التعريب نتج لمجرد رغبة الخليفة بتأديب كاتب . واستغرقت عملية نقل الديوان في حالي الشام والعراق عاما واحدا . واخيرا تؤكد رواية البلاذري ان تعريب الشام حصل سنة ٨١ هـ وبذلك تكون بداية التعريب قد انطلقت من الشام وليس من العراق ، اذا ما اخذنا بالرواية التي تجعل تكليف صالح بن عبد الرحمن ايام فتنة ابن الاشعث التي حصلت سنة ٨٢ هـ . وهذا هو الامر الطبيعي ، ان يبدأ التعريب من دمشق وليس من الكوفة .

هذا في حين ان الحديث عن تعريب الدواوين في مصر لا نلمس فيه مثل الاسباب السالفة الذكر ، بل ان القرار جاء كأمر رسمي فحسب « وامر عبد الله بن عبد الملك بالدواوين فنسخت بالعربية وكانت قبل ذلك تكتب بالقبطية » « (٤٩) . أما رواية ابن عبد الحكم فهي ان عبد الله هو « أول من نقل الدواوين الى العربية » « (٥٠) ، بينما لا يتحدث البلاذري والجهشياري عن التعريب في مصر مع انهما تحدثا عن تعريب الدواوين الاخرى كما راينا . وعن اسامة بن زيد يتحدث البطريق القبطي سفروس « فلما وصل القسطنطينية التمس علوم جميع الكور وكتبها بالعربي (كذا) وكان كثير الفهم » « (٥١) .

لكن الى أي مدى تطابق هذه الروايات واقع الحال ؟ . لاول وهلة يفهم منها ان العربية لم تكن معروفة في الدواوين حتى ذلك الوقت ثم غدت هي اللغة الوحيدة . كما نرى ان الكندي وقع في مغالطة تاريخية ذلك ان اليونانية هي لغة الدواوين الرسمية وليست القبطية التي لم تكن لغة الدولة قبل الفتح ، ومن هنا لم تتخذ كلغة ادارة من قبل العرب . والمعطيات التاريخية المعتمدة على وثائق البردي العربية تبين ان اللغة العربية استعملت رسميا في مصر في فترة مبكرة جدا بعد الفتح ، وكذلك الحال كان بالشام كما ذكرنا في اول هذا الحديث ، لكنها لم تستعمل وحدها بل الى جانب الرومية (اللغة اليونانية) لغة ادارة البلاد الاصلية ، ولكن فيما اذا أصبحت العربية

لغة الدواوين الوحيدة بعد قرار عبد الله بن عبد الملك فان ذلك لا يمكن تقريره لانه ينقض وثائقها اذ كتبت الوثائق الصادرة عن الديوان بالعربية وبالغربية واليونانية وباللغونية فقط ، وكذلك فان عمل اسامة بن زيد يدل على ان مسألة التعريب لم تكن قد اكتملت بعد . اذا ينتظر ان يكون تعريب الدواوين اجراء تدريجي الى ان اكتمل فاستغني عن غير العربية نهائيا ، وذلك بعد فترة من ادخال مبدأ التعريب كاجراء رسمي وضمن سياسة عامة سارت عليها الدولة الاموية ابتداء من أوائل الربع الاخير من القرن الاول الهجري . والرواية التي تجعل نقل الدواوين الى العربية سنة ٨٦ - ٨٧ هـ يفهم منها انها غدت الوحيدة الرسمية في الديوان ، ولكن الوثائق التي كتبت بعد ذلك كانت ثنائية اللغة (٥٢) . والاعداد الكبيرة من الرسائل الرسمية الصادرة عن مكتب الوالي نراها مكتوبة باليونانية فقط (٥٣) ونشر بعضها مترجمة الى الانكليزية في مجلة الاسلام (٥٤) ، تجعلنا تؤكد على مبدأ التدرج في الاستغناء عن اللغات الاجنبية واحلال العربية محلها . وأول الوثائق العربية التي وصلتنا في حالة جيدة جدا بعيد اصدار قرار التعريب من قبل عبد الله بن عبد الملك تعود الى سنة ٩٠ هـ (٥٥) .

وتتوالى بعد ذلك الوثائق العربية بدرجة ملحوظة (٥٦) . اما اخر البرديات ثنائية اللغة فتعود الى سنة ٧١٩/١٠١ . بينما تعود اخر وثيقة يونانية الى سنة ١٦٤ هـ ، الا انها لا تعتبر مقياسا لبقاء اليونانية في الاستعمال ، بل هي مسألة استثنائية (٥٧) ، اذ كانت غلبة العربية قد حسمت فعليا منذ اوائل القرن الثاني الهجري (٥٨) . واخر الوثائق التي عثر عليها واستعملت فيها اللغات الثلاث جنباً الى جنب ، العربية واليونانية والقبطية ، تعود الى الفترة بين ١٣٧ - ١٤٠ هـ / ٧٥٤-٧٥٧ م (٥٩) .

وتبع تعريب الديوان في مصر تعريب مصر كلها ، وذلك عندما غلبت الثقافة العربية على البلاد حتى بين اولئك الذين احتفظوا بعقيدتهم المسيحية ، فما ان جاءت اواخر القرن الثالث الهجري حتى وجدوا انفسهم لا يفهمون سوى العربية ، فاضطر لذلك البطريق القبطي في هذا الوقت ان يكتب لرعاياه تاريخ كنيستهم بالعربية ، لانها الوحيدة المفهومة في مصر . فهو يقول في معرض الحديث عن مادة كتابه انه مضطر لـ « نقل ما وجدناه منها بالقلم القبطي واليوناني الى القلم العربي الذي هو الان معروف عند اهل الزمان باقليم ديار مصر لعدم اللسان القبطي واليوناني من اكثرهم ليكتفي بذلك عند وقوفه عليه » (٦٠) اذن وجدت الكنيسة نفسها لا مفر لها من مخاطبة ابنائها باللغة التي يفهمونها وهي العربية (٦١) .

اما اخر مراحل التعريب الرسمي للدواوين فنجدها في خراسان ، الولاية

البعيدة عن المركز ، وذلك ايام خلافة هشام بن عبد الملك وفي ولاية نصر بن سيار سنة ٧٤١/١٢٤-٧٤٢ . اذ يذكر الجهمياري أن الحسابات بقيت في خراسان بالفارسية وأكثر الكتاب كانوا من المجوس ، الى ان كتب والي العراق يوسف بن عمر سنة ١٢٤ الى نصر بن سيار عامل خراسان بأمره اليه ان ينقل الدواوين الى العربية . وكان الناقل رجل من بني نهشل وهو اسحق بن طليق الذي كان من جماعة نصر « فخص به » (١٢) . فاجراء التعريب تبعه استبدال عرب او مستعربين بالكتاب السابقين ، كما حصل في مصر والشام والعراق من قبل (١٣) .

واخيرا فان قضية التعريب ايام عبد الملك وابنائنه لايمكن نسبتها الى اسباب بسيطة ، لانها حركة كبرى شملت الدواوين والنقد ، فكانت مرحلة حاسمة في التطور الاداري والثقافي والاستقرار السياسي والاقتصادي . وربما كانت هذه الحركة اهم حدث ثقافي سياسي بعد جمع القرآن ، جرى وفق خطة شاملة ، مع ان الروايات تظهرها وكأنها مرتجلة كفضب الخليفة من تلكو كاتب ، او ردة فعل من الخليفة على تهديد بيزنطة بالتعريض برسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يتعلق بتعريب النقد ، وكأنهم كانوا يسكون النقد للدولة الاموية (١٤) .

ويمكن حصر ما توصلت اليه هذه الدراسة في النقاط التالية :

- ان استعمال العربية في الدواوين المالية كان قبل حركة التعريب المنظمة .
- ان العربية استعملت الى جانب اللغات الاخرى في الامصار الاسلامية .
- ان بعض الدواوين لم تستعمل اصلا الا اللغة العربية في ادارتها .
- وضع التعريب حدا لاستعمال غير العربية عندما اكتمل في اوائل القرن الثاني الهجري .
- كما وضع حدا لاستعمال غير العرب ، واكد على استخدام ممثلي الثقافة العربية الاسلامية من عرب او مستعربين .

الحواشي :

(١) البلاذري ، احمد جابر بن يحيى (ت حوالي ٢٧٩ هـ ، فتوح البلدان ، تحقيق م.ج دي ثويه ، بريل-ليدن ١٨٩٥ ، ص ٣٠٠-٣٠١ . ويشار لهذا المصدر عنه وروده فيما بعد هكذا : البلاذري ، فتوح .

- ابن عبد الحكم ، عبد الرحمن بن عبد الله (ت ٢٥٧ هـ) ، فتوح مصر واخبارها ، تحقيق شارلس تورى ، نيوهافن ١٩٢٢ ، ص ١٢٢ . ويشار لهذا المصدر عندو وروده فيما بعد : ابن عبد الحكم ، فتوح .

- الجهشياري ، محمد بن عبدوس (ت ٣٣١ هـ) كتاب الوزراء والكتاب ، تحقيق مصطفى السقا و ابراهيم الابياري وعبد الحفيظ شلبي ، القاهرة ، ١٩٣٨ ، ص ٣٨ ، ٣٩ ، ٤٠ ، ٦٧ . ويشار لهذا المصدر عندو وروده فيما بعد هكذا : الجهشياري ، الوزراء .

- الصولي ، ابو بكر محمد بن يحيى (ت ٣٣٥ هـ) ادب الكاتب ، تحقيق محمد بهجة الانثري ، المطبعة السلفية (نشر المكتبة العربية) ، القاهرة ١٣٤١ هـ ص ٩٢ - ٩٣ ، ويشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا : الصولي ، ادب الكاتب .

- الماوردي ، علي بن محمد حبيب (ت ٤٥٠ هـ) الاحكام السلطانية والولايات الدينية (اوفست) طبعة البابي الحلبي ، القاهرة ١٩٦٦ ص ٢٠٢ - ٢٠٣ . ويشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا : الماوروي ، احكام .

(٢) Diem, Werner, « Der Gouverneur an den Pagarchen. Ein verkannter Papyrus vom Jahre 65 der Hira » , Der Islam, Bd . 60 . Helft I , (1983) P. 105.

(٣) Grohmann, Adolf, From the world of Arabic Papyri (FWA), Cairo, 1952, P. 113-114, Hussein, Faleh, Das Steuersystem in Aegypten., Frankfurt/ M - Bern, 1982, P. 53.

وبشان النص اليوناني انظر دينيت ، الجزية والاسلام ، ترجمة فوزي فهم جاد الله ، بيروت ، ١٩٦٠ ، ص ١٢٦ .

(٤) Kraemer, Casper J., Excavations at Nessana, Vol. 3, Non - Literary Papyri, Princeton, 1958, No. P. 180.

ومؤرخة ذو القعدة سنة ٥٤ هـ / تشرين اول - ثاني سنة ٦٧٤ م .
وسنشير الى هذا المرجع فيما بعد Nessana

Kraemer, Nessana, Vol. 3 (٥)

No. 61, P. 182 (رجب ٥٥ / اب ٦٧٥) .

No. 62, P. 184 (شوال ٥٥ / تشرين اول ٦٧٥) .

No. 63, P. 186 (نفس التاريخ)

No. 64, P. 189 (ربيع اول ٥٦ / شباط ٦٧٦)

- No. 65, P. 192 (٦٧٥/هـ - ٦٧٦ م)
- No. 66, P. 194 (ربيع اول ٥٧ / شباط ٦٧٧)
- No. 67, P. 196 (٦٨٩/٧٠).
- (٦) البلاذري ، فتوح ص ٣٠٠ .
- (٧) انظر فلهاوون ، الدولة العربية وسقوطها ، ترجمة ابو ريذة ص ٢٧ ، ٣١ .
- (٨) انظر : الجهشيارى ، ص ٣١ ، ٣٢ ، ٣٣ ، ٣٨ ، ٤٠ .
- (٩) ترتون ، اهل الذمة في الاسلام ، القاهرة ، ١٩٦٧ ، ص ١٧ .
- (١٠) انظر ابن قيم الجوزية ، احكام ص ٢١٠ - ٢١٢ ، وانظر الخراعي ، تخرىج السدلالات السمعية ص ٧٩٨ - ٧٩٩ .
- (١١) انظر ابو يوسف ، الخراج ص ١٢٧ - ١٢٨ ، ابن عبد الحكم ، سيرة ص - ١٦٧ ، الكندي ، كتاب الولاة والقضاء ، ص ٦٠ ، وانظر الدوري ، اليهود في المجتمع الاسلامى عبر التاريخ ص ٨٦-٨٧ ، ترتون ص ١٢٨ .
- (١٢) ابن عبد الحكم ، سيرة عمر بن عبد العزيز ص ١٦٥ .
- (١٣) الدوري ، اليهود في المجتمع الاسلامى ص ٨٥-٨٦ .
- (١٤) ابن عبد الحكم ، سيرة ص ١٦٥-١٦٦ .
- (١٥) ابو يوسف ، الخراج . ص ١٢٧-١٢٨ .
- (١٦) الطبرى ، تاريخ . ص ١٧١-١٧٥ .
- (١٧) الطبرى ، تاريخ ج ٩ ص ١٧٢ ، القرزى خطط ج ٢ ص ٤٩٤ .
- (١٨) الطبرى ، تاريخ ج ٩ ص ١٧٤ . وعندما يتحدث اليعقوبى فن موضوع اللباس فانه لا يتحدث عن منعهم من الوظائف تاريخ ج ٢ ص ٤٨٧ .
- (١٩) Becker , C. H. « Neue arabische Papyri des Aphroditofundes » , Der Islam, Bd. 2, P. 361
- Bell, H. I. « Translations of the Greek Aphrodito Papyri in the British museum » , Der Islam, Bd . 2, P. 270.
- John Bishop of Nikiu , The Chronicle of John Bishop of Nikiu , Translated from Zotenberg's Ethiopic Text by R.H. Charles, Oxford 1916, P. 200-201 .
- سفروس بن المقفع ، تاريخ بطارقة الاسكندرية ، تحقيق سيبولد ، لبيلا ١٩٠٤ ، ص ١٣٤ .
- حتى ان عبد العزيز استقدم معه كاتباً له من اهل الذمة هو يناس بن خمايا من اهل الرها
- انظر الجهشيارى ، الوزراء ، ص ٣٤ .
- (٢٠) Bell, « Tow official letters of the Arab period » , Journal of Egyptian Archaeology (JEA), Vol. XII, P. 278; Bell, « The administration of Egypt under Umayyad Khalifs » , Byzantinische Zeitschrift (Byz. Z). Vol. 28, P. 27,

Becker, « Arabische Papyri des Aphroditofundes » , Zeitschrift fur Assyriologie und verwandte Gebiete (ZA). Vol. XX, P.97.

(٢١) نقل حميد الله في الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة نصا عن البلاذري ، انساب الاشراف قسم ٥٨٥/٢ من مخطوط اسطنبول رواية غريبة في بابها ، وهي ان عمر بن الخطاب ارسل لواليه في الشام ان « ابعت الينا برومي يقيم حساب فرائضنا » ص ٥٢ ، رقم ٣٦٨/١ بيت . ومن غير الممكن ان يكون عمر قد طلب منه ذميا لحساب الفرائض ، فهي شرعية محضة ولا بد لحاسبها ان يكون مسلما عالما بها .

(٢٢) الجهشيارى ، ص ٢٨ . ورواية الصولي لها نفس الدلالة فقد روى عن القحظمي « كان بالبصرة والكوفة ديوانان لاعطاء الجند والمقاتلة والذرية بكتاب بالعربية ، وديوان بالفارسية ، وبالشام ديوان بالعربية لمثل ذلك ، وديوان بالرومية » ادب الكاتب ، ص ١٩٢ .

(٢٣) الجهشيارى ، ص ١٦ ، ١٧ ، ٢١ ، ٢٢ ، الطبري ، تاريخ ، ج ٦ ، ص ١٨٠-١٨١ .

(٢٤) الصولي ، ادب الكاتب ص ١٩٢ ، الجهشيارى ص ٢٤ ، ٣١ ، ٣٣ ، ٤٠ .

(٢٥) الجهشيارى ص ٢٧ ، ابن اوتال . انظر الطبري ، تاريخ ، ج ٥ ، ص ٢٢٧-٢٢٨ .

(٢٦) الجهشيارى ، ص ٢٦ .

(٢٧) انظر الطبري ، تاريخ ج ٦ ص ١٣٢ ، ٢٣٥ ، ٢٤٠ ، ٢٥٧ ، ج ٧ ص ٩٦ ، ٩٧ ، ١٤٠ ، ١٤٠ .

(٢٨) الدوري ، النظم ص ١١٢ .

(٢٩) انظر :

Becker, Papyri schott - Reinhardt I, Veroeffentlichung aus der Heidelberger papyrussammlung III. Heidelberg 1906, Nr. 1,2,3,4,12.

وعددا كبيرا من الوثائق التي نشرها Bell في كتابه.

Greek Papyri in the British museum , Vol. 4, London

ونشر بعضها مترجما الى الانكليزية في مجلة Der Islam تحت عنوان :

Translations of the Greek Aphrodito Papyri in the British museum. Vol. 2,3,4,17.

(٣٠) انظر :

Grohmann, FWA, P. 130 ff.

Diem, « Philologisches Zu den arabischen Aphroditopapyri » , Der Islam, Bd. 61, P. 261-262.

Nöldeke, Th. « Zur Geschichte der Araber in I. Jahrh. d.H. aus syrischen Quellen » , Zeitschrift der Deutschen morgenländischen Gesellschaft (ZDMG) , Bd. 29 (1879), P. 69. (٣١)

ونشبت هنا النص باللاتينية لاهميته :

« Er Prägte auch Gold-und Silbergeld, aber das nahm man nichtan, Weil Kein Kreuz darauf War».

- (٣٢) البلاذري ، فتوح ص ٢٤٠ .
- (٣٣) البلاذري ، فتوح ، ٤٦٦ - ٤٧٠ . وانظر النقشبندي ، الدرهم الاسلامي المضروب على الطراز الساساني ، ص ٩٦٤، ٩٦٥-٩٦٦ .
- حلاق ، تعريب النقود والدواوين في العصر الاموي ص ٢٢-٢٥ ، ٣٢-٣٥
- (٣٤) النقشبندي ، الدرهم الاسلامي ، ص ٣٤ وما بعدها .
- (٣٥) يمكن فهم التطور التدريجي في مسألة التعريب بناء على ما نلاحظه هذه الايام من سير عملية التعريب في الجزائر ، انها تسير منذ حوالي ربع قرن سيرا حثيثا ولم تكتمل بعد .
- (٣٦) الجهشيارى ، ص ٣٨ ، الصولي ، ادب الكاتب ١٩٢ ، الماوردي ، ص ٢٠٢-٢٠٣ .
- (٣٧) الصولي ، ادب الكاتب ١٩٢ ، الجهشيارى ص ٣٩
- (٣٨) البلاذري ، فتوح ص ٣٠١ .
- (٣٩) البلاذري ، فتوح ص ٣٠٠ .
- (٤٠) البلاذري ، فتوح ٣٠٠-٣٠١ ، الماوردي ، ص ٢٠٢-٢٠٣ .
- (٤١) الجهشيارى ، ص ٣٩ .
- (٤٢) انظر الطبري ، تاريخ ج ٦ ص ٣٤٢ - ٣٥٠ .
- (٤٣) المقرئى ، خطط ، ج ١ ، ص ٩٨ .
- (٤٤) البلاذري ، فتوح ٣٠١ .
- (٤٥) البلاذري ، فتوح ص ١٩٣ ، الماوردي ص ٢٠٢ .
- (٤٦) الجهشيارى ، ص ٤٠ .
- (٤٧) الصولي ١٩٢-١٩٣ .
- (٤٨) الجهشيارى ، ص ٤٧ ، ٥٣ ، ٥٦ ، ٥٧ ، ٥٩ ، ٦٨ ، ٧٠ .
- (٤٩) الكندي ، ص ٥٨ - ٥٩ ، وانظر المقرئى ، خطط ، ج ١ ص ٣٠٥ .
- (٥٠) ابن عبد الحكم ، فتوح ص ١٢٢ .
- (٥١) سفيروس ، طبعة سيبولد ص ١٥٠ .
- (٥٢) انظر على سبيل المثال :
- Becker, **Papyri Schott-Reinhardt**, ..., P. 108-113, Nr. a-L, P. 82-90, Nr. 5-9.
- (٥٣) فقد اصدر Bell كتابا كاملا بالوثائق اليونانية هو :
- Greek Papyri in the British museum, Vol . 4.**
- Bell, « **Translations of the Greek Aphrodito Papyri in the British museum** », **Der Islam** , Bd . 1,2,3,4,17.
- Becker, **Papyri Schott - Reinhardt I**, ... Nr. 4, P. 78-79 .
- Becker, **Papyri schott-Reinhardt I** ... Nr. 1,2,3, P. 58-77.

Diem, « Vier Dienstschriften an 'Ammār, Ein Beitrag zur arabischen Papyrologie » (ZDMG) Bd . 133 (1984), P. 240, 242, 247-248 .

Diem, « Philologisches zu den arabischen Aphroditopapyri » . Der Islam, Bd. 61, P. 260-261 .

جروهمان ، اوراق البردي العربية .

ج ٣ ، ص ٥-٨ ، ٩-١٢ ، ١٣-١٥ ، ١٧-١٩ ، ٢٠-٢٢ ، ٢٤-٢٧ ، ٢٨-٣٥ وغيرها كثير .

Becker, Beiträge zur Geschichte Aegyptens unter dem Islam, Heft, (٥٧) I, Strassburg , 1903, P. 131,

Hussein, Das Steuersystem in Aegypten..., P. 114.

(٥٩) جروهمان ، اوراق البردي العربية ، ج ٣ ص ٧٩-٧٢ رقم ١٦٧ .

(٦٠) سفروس ، طبعة سيبولد ص ٦ .

Becker, Beiträge zur Geschichte Aegyptens ..., Heft. I, P. 131. (٦١)

(٦٢) الجهشيارى ، ص ٦٧ .

(٦٣) الرنزي ، خطط ج ١ ص ٩٨ .

(٦٤) أنظر الدوري ، مقدمة في تاريخ صدر الاسلام ص ١٤ .

المصادر والمراجع

المصادر البردية :

Becker, C.H.

- Papyri Schott-Reinhardt I, Veröffentlichung aus der Heidelberger Papyrussammlung III, Heidelberg 1906.
- Arabische Papyri des Aphroditofundes, Zeitschrift für Assyriologie U. Verw , Gebiete, Bd . 20, 1907 (ZA) .
- Neue arabische Papyri des Aphroditofundes , Der Islam, Bd. 2, 1911.

Bell, H.I.

- « Two Official letters of the Arab period » Journal of Egyptian Archaeology, Vol. 12, 1926 (JEA).
- « Translations of the Greek Aphrodito Papyri in the British museum », Der Islam, Bd. 2,3,4,17 (1911, 1912. 1923, 1929) .
- Greek Papyri in the British museum, Catalogue with texts, Vol. 4, London 1899 - 1900 .

Diem, Werner

- « Der Gouverneur an den Pagarchen, Ein Verkannter Papyrus Vom Jahre 65 der Hira », *Der Islam* , Bd. 60, 1983.
- « Vier Dienstschriften am 'Ammar, Ein Beitrag zur arabischen Papyrologie, » *Zeitschrift der Deutschen Morgenlaendischen Gesellschaft*, Bd. 133, 1984 (ZDMG) .
- Philologisches Zuden arabischen Aphroditopapyri, *der Islam*, Bb. 61, 1984 .

Grohmann, Adolf

- *From the world of Arabic Papyri*, Al-Maaref Press, Cairo 1952,

جروهمان ، ادولف

أوراق البردي العربية بدار الكتب المصرية ج٣ ترجمة حسن ابراهيم حسن مراجعة عبد الحميد حسن . دار الكتب - القاهرة ١٩٦٢ .

kraemer, Casper J.

Excavations at Nessana Voc. 3 Non - Literary Papyri. Princeton University Press 1958 .

المصادر التاريخية :

- البلاذري ، احمد بن جابر بن يحيى ، فتوح البلدان (انظر ص ١)
- الجهشياري ، محمد بن عبدوس ، الوزراء والكتاب (انظر ص ١) .
- الحيدر ابادي ، محمد حميد الله ، مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة دار النفائس . الطبعة الرابعة - بيروت ١٩٨٣ .
- الخزاعي ، ابو الحسن علي بن محمد الخزاعي التلمساني (ت ٧٨٩) ، تخرىج الدلالات السمعية على ما كان في عهد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) من الحرف والصنائع والعمالات الشرعية تحقيق احمد محمد ابو سلامة القاهرة ١٩٨٠ .
- سفيروس بن المقفع اسقف الاشمونين ، تاريخ بطارقة الاسكندرية تحقيق ف.سيبولد نشر اوتسو هاراسوفتس ١٩٠٤ .
- الصولي ، ابو بكر محمد بن يحيى ، ادب الكاتب (انظر ص ١) .
- الطبري ، محمد بن جرير . ٣١٠ هـ ، تاريخ الرسول والملوك ١ . اجزاء تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم دار المعارف - القاهرة ١٩٦٦ - ١٩٧٠ .

- ابن عبد الحكم - عبد الرحمن ، فتوح مصر واخبارها (انظر ص ١) .
ابن عبد الحكم ، سيرة عمر بن عبد العزيز تحقيق احمد عبيد الطبعة الثالثة . المطبعة الرحمانية
القاهرة ١٩٦٤ .
ابن قيم الجوزية - ابو عبد الله محمد بن ابي بكر ت ٧٥١ هـ ، احكام اهل الذمة ، جزءان تحقيق
صبحي الصالح دمشق ١٩٦٣ .
الكندي ، محمد بن يوسف ، كتاب الولاة وكتاب القضاة بمصر تحقيق رفرن جيست ، لندن - لندن ١٩١٢ .
المقرئزي ، تقي الدين ابو العباس احمد بن علي ، الخطط المقرئزية . جزءان . بولاق - القاهرة
١٢٧ / ١٨٥٣ .
الماوردي ، علي بن محمد حبيب ، الاحكام السلطانية والولايات المدنية (انظر ص ١) .
اليقوبي ، احمد بن ابي يعقوب بن واضح ت ٢٧٨ هـ ، تاريخ اليقوبي جزءان دار صادر - دار
بيروت . بيروت ١٩٦٠ .
ابو يوسف - يعقوب بن ابراهيم ١٨٢ هـ ، الخراج ، دار المعرفة ، بيروت ١٩٧٩ اوفست عن طبعة
بولاق ١٣٠٢ هـ .

John, Bishop of Nikiu

The Chronicle of John Bishop of Nikiu. Translated from Zotenberg's
Ethiopic Text by R.H. Charles , Oxford 1916.

Nöldeke, Th

Zur Geschichte der Araber im I. Jahrh. d.H. aus syrischen Quellen ,
(ZDMG) Bd. 26, Leipzig, 1879 .

المراجع :

Becker, C.H.

Beiträge zur Geschichte Ägyptens unter dem Islam, Heft. I, Strassburg,
1903.

BELL, H. I.,

« The administration of Egypt under Umayyad Khalifs, » Byzantinische
Zeitschrift, Bd. 28, 1928, (Byz.Z) .

ترنون ، أ.س ، اهل الذمة في الاسلام ترجمة حسن حبشي . الطبعة الثانية . دار المعارف القاهرة
١٩٦٧ .

حلاق ، حسان علي ، تعريب النقود والدواوين في العصر الاموي ، نشر دار الكتاب اللبناني - بيروت
دار الكتاب المصري - القاهرة ١٩٧٨ .

Hussein, Faleh

Das Steuersystem in Ägypten Von der arabischen Eroberung bis Zur Machtergreifung der Tuluniden 19 -254/636 - 868 mitbesonderer Berücksichtigung der Papyrusurkunden, Hos -3- hersg -Anton Schall, Verlag Peter Lang, Frankfurt/M- Bern 1982.

الدوري ، عبد العزيز ، النظم الإسلامية بغداد . ١٩٥٠ . مقدمة في تاريخ صدر الإسلام . الطبعة الثالثة : دار المشرق بيروت ١٩٨٢ .

اليهود في المجتمع الإسلامي عبر التاريخ ، ضمن سلسلة مقالات في كتاب القضية الفلسطينية والصراع العربي الصهيوني والصادر عن اتحاد الجامعات العربية نشر جامعة الموصل ١٩٨٣ .

دينيت ، دانيال ، الجزية والإسلام ، ترجمة فوزي فهم جاد الله ، مؤسسة فرانكلين - مكتبة الحياة بيروت ١٩٦٠ .

فلهاوزن ، يوليوس ، تاريخ الدولة العربية من ظهور الإسلام الى نهاية الدولة الأموية ، ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريدة . سلسلة الألف كتاب (١٣٦) نشر لجنة التأليف والترجمة والنشر الطبعة الثانية القاهرة ١٩٦٨ .

النقشبندي ، ناصر ، الدرهم الإسلامي ج١ الدرهم الإسلامي المضروب على الطراز الساساني . مطبوعات المجمع العلمي العراقي ، بغداد ١٩٦٩ .

الأدب في التاريخ الآرامي القديم

د. محمد عرب فرزات
جامعة دمشق

مقدمة :

أولا : إنه من الطبيعي الا يفهم من الادب في زمن الادب الآرامي القديم ما يفهم منه في عصرنا ، فلا ينبغي لنا ان نبحث هنا عن الكاتب الملتزم بالعمل الأدبي من أجل تحقيق انجاز فني رفيع ، لان مفهوم الادب في ذلك العصر كان يعني الثقافة العامة والتعليم ، فكلمة «إدب» الآكديّة - التي ربما جاءت منها كلمة أدب العربية - كانت تعني المكتبة والمدرسة « بيت الألواح » ، وما كان يسعى اليه الكاتب شيبرا = Sapra هو ان يقدم بشكل جميل وجذاب العناصر الثقافية اللازمة التي تساعد على تكوين الكتاب الموظفين .

ولكن هذا لا يعني بالضرورة استبعاد الجمالية في الادب ، لكنه يبقى أدبا عمليا ، من أجناسه كتابة الحوليات التاريخية^(١) وأجناس أخرى كالرسائل والشعر والنثر والقصة والأمثال وغير ذلك . . ولا بد أنه كان للكتاب الآراميين العاملين في دواوين القصور وفي خدمة المعابد فرص الاطلاع على الآداب المعاصرة والموروثة من الآكديّة ومن المصرية والفينيقية ، وهذا ما يفسر لنا التشابه الكبير بين موضوعات الادب الآرامي وموضوعات الآداب القديمة الشرقية الأخرى .

ثانيا : نعني بالادب الآرامي القديم ما كتب بالآرامية القديمة ، أي حتى ظهور المسيحية ونشوء الادب السرياني . ولا نعني بالادب الآرامي كما يحب أن يرى بعض

الكتاب آداب آرام ، لانه وجدت في بلاد آرام (سورية القديمة) اداب أخرى غير ارامية كتبت بالاكديّة المسمارية ، وبالأوجاريتية والكنعانية .

فهذا اذن بحث في ادب قديم ، بل انه بحث في تاريخ هذا الادب الارامي القديم ، نحاول فيه تقصي جذور الحياة الادبية في مرحلة قديمة من تاريخ سورية سبقت انتصار اللغة العربية وادابها وثقافتها ، ونسعى الى التوصل الى شواهد من ادب قوم من الاقوام العربية القديمة ، ومن الاعمال الادبية لاجيال عاشت على هذه الارض العربية وانشأت ثقافتها عليها وجعلت لغتها أهم لغة في تاريخ البلاد حتى اواسط القرن السابع للميلاد . واذا لم يمتد التاريخ الارامي السياسي أكثر من قرون معدودة وبخاصة ما بين القرنين العاشر والثامن ق.م ، فان الثقافة والاداب التي احتوتها اللغة الارامية بلهجتها وعصورها المختلفة استمرت قرونا عديدة وامتد عمرها أكثر من ألف وخمسمائة العام . ولئن تراجعت هذه اللغة منذ قرون عن دورها الاول في المنطقة امام تقدم اللغة العربية ، لغة الحضارة العربية التي استوعبت واحتوت ، عن طريق النقل والترجمة والتعريب والتفاعل الحضاري ، الثقافات المحلية السابقة للإسلام : الهلينية المتأخرة (البيزنطية) ، والفارسية والسريانية (في سورية وارض الرافدين) والقبطية (في مصر) والعبرية أيضا ، وغرقت من كل الثقافات القديمة ، فان هذه الثقافات بلغاتها الخاصة ، ومنها السريانية ، بقيت اداة من ادوات المعارف والاداب الى جانب العربية أيضا حتى تقلص دورها بالتدريج واقتصر اخيرا على التعليم الديني لمئات الآلاف من الناس ، في سورية والرافدين والجزيرة وایران .

هذا من حيث موقع الادب الارامي على مدرج الزمن . لكن هناك ، في تصوري ، مسائل أخرى قد تطرحها ترسبات الارامية بكونها لغة وثقافة ، بمعناها الواسع ، في بحر الثقافة العربية الشاملة . وهذه المسائل قد يمكن تناولها من زاوية النظر اللغوية لمعرفة ما في العربية من الارامية (٢) . وهذا مما يدخل في ايامنا هذه في علوم اللسان . وقد يمكن تناولها من زاوية النظر في الاتصال الحضاري الثقافي في الوطن العربي ، وهذا مما يدخل في ميدان تاريخ الادب والاداب المقارنة . وعلى سبيل المثال ربما يجوز الزعم باننا قد يمكن لنا ان نفهم المعري أكثر لو اننا تعرفنا على تراث لوقيانوس السميساطي صاحب « حوار الموتى » وربما يمكن للمؤرخ ان يتنبه الى امور فاته الانتباه اليها لو انه رجع الى ميخائيل السوري وابن العبري السرياني الى جانب رجوعه الى ابن الاثير وابن العديم وابن القلاسي عند البحث في احداث بعض الفترات الحرجة من التاريخ العربي .

بهذا الاعتبار يكون للبحث في الادب الارامي القديم بعض الجدوى والمؤدى ، في

الوقت الذي نرى فيه الى محاولات مفتصبي الارض العربية في فلسطين وهم يعملون على سلب التراث الشعبي والفني ويتطاوون ايضا على التراث الحضاري للمنطقة لينسبوه الى انفسهم ، وليدعموه لتاريخ خاص بهم طالما ان هذا التراث مهمل من اصحابه متروك ومستنكر من اهله وأربابه .

لكن البحث في الادب الارامي القديم له صعوباته التي لا بد للباحث من الاعتراف بها قبل التصدي لمواجهتها والعمل على محاولة تذييلها . فخلافا لما هو معروف عن اللغات المصرية والسومرية والاكادية والاورجارية والحثية ، فان اللغة الارامية القديمة لم تترك لنا اثارا او نصوصا يمكن وصفها مباشرة بأنها نصوص ادبية ، باستثناء نص واحد هو نص احي يقر (احيقار) ، الا انها كانت لغة الحياة اليومية العامة للمشرق القديم من الفرات الى النيل منذ الالف الاول ق.م . ، وازدهرت لغة الادارة والتجارة في كل انحاء المملكة الكلدانية ، وفي الامبراطورية الفارسية لمدة قرنين ما بين القرنين السادس والرابع ق.م . قبل ان يقتحم الغرب الكلاسيكي ابواب وعواصم حضارات النيل والعاصي والاردن والفرات . هكذا اصبحت لغة المفلولين لغة الغالب . اما اهم النصوص الارامية التي تعود الى ما يدعى بارامية الامبراطورية ، فقد وجدت في مصر التي يمكن مناخها من حفظ الوثائق المنقوشة على النحاس او المكتوبة على لفائف البردي او على كسرات الفخار .

إننا من خلال هذه المصادر الباقية سنحاول اللقاء بالضوء على بعض ملامح الادب الارامي القديم . ولكننا سنتحدث بايجاز عن الاراميين قبل ان نتحدث عن ادابهم .

١ - من هم الاراميون ؟

الاراميون هم من الاقوام العربية القديمة ، يرجعون بأصولهم الى قبائل بدوية عاشت وتنقلت في البادية العربية الشامية ، وبخاصة ما بين سلسلة الجبال التدمرية وجبل بشري ، قبل ان تستقر على أرض الرافدين وبلاد الشام في النصف الثاني من الالف الثاني ق.م .

على ان اهم ما كان يوحد هذه الاقوام ويربط فيما بينها على تعددها وتفرقها هو اللغة الارامية بلهجاتها المختلفة التي تحتل في تاريخ اللغات العربية القديمة محلا وسيطا بين اللغة الاكادية ، أقدم لغة عربية مكتوبة ، وبين اللغة العربية . فهي لم تكن لغة لاجيال من الناس ولدول قامت ودالت على أرض الشام والرافدين وحسب ، بل كانت لغة حضارة وثقافة ، حتى تغلبت على العبرية وحلت محلها فاستخدمت لكتابة سفرين

اثنين من اسفار التوراة (دانيال وعزرا) ثم شروح التوراة والتلمود (الجمارا) ، واضحت لغة رسمية في دولة كبرى . وعندما ظهر السيد المسيح كانت الارامية لغة الناس في فلسطين وسائر سورية فخطبهم بها وحدثهم ووعظهم وعلمهم .

اما المصادر التي مكنت من إعادة تكوين التاريخ الارامي فهي متنوعة يمكن حصرها في ثلاث مجموعات :

أولاً - اشارات الى الاراميين في اسفار العهد القديم التي بفتت الى جانب الاخبار المتواترة والمرويات في تقاليد المنطقة المصدر الاساس للتاريخ الارامي حتى ظهور نتائج التنقيبات الاثرية منذ اواخر القرن الماضي .

ثانياً - إشارات الى الاراميين في المصادر الاشورية والبابلية ، يمكن الرجوع اليها في الحوليات ومجاميع الوثائق والنصوص المسمارية .

ثالثاً - النقوش الارامية التي تعود الى مطلع الالف الاول ق.م ، والوثائق الارامية التي تعود الى النصف الثاني من الالف الاول .

وقد فتحت هذه المجموعة الاخيرة من المصادر ، وهي المصادر الارامية الاصلية ، ابواباً جديدة لإعادة النظر في كل ما يخص التاريخ الارامي وتطور تاريخ المنطقة كله .

ويقر كاتب سفر التكوين بقدوم الاراميين وسبقهم العبريين في الاستقرار والحضارة في مناطق الجزيرة (حران) ويشير الى تحركات قبائلهم وعلاقاتهم الاجتماعية ومصاهراتهم . واذا ما كانت الشكوك مطروحة حول اصول العبريين ومنشأهم قبل الخروج وبعده ، فان التوراة نفسها في سفر الخروج تعترف بمنشأ الاراميين العربي من البادية العربية الشامية ، التي تحركوا منها فيما بعد نحو بلاد الشام (٢) كلها .

ويرد ذكر قبائل الاخلامو الارامية على الفرات لأول مرة في وثيقة بالاكديّة من رسائل تل العمارنة في صعيد مصر تعود الى القرن الرابع عشر ق.م . ولكن بعد حوالي نصف قرن آخر نجد اثار هذه القبائل على ضفاف نهر دجلة .

اما المصادر الاشورية فتلاحق الاراميين بعد ذلك وتتحدث عن طردهم وتعقبهم الى منطقة الخابور وحوض الفرات الاوسط (٤) . وقد ورد ذكر الاراميين لأول مرة بعد ذلك في وثائق بالمسمارية الاشورية تعود الى حكم تكلات بلاصر الاول ملك اشور (١١١٦ - ١٠٣٦) الذي يتباهى بتوجيه ثمانية وعشرين حملة ضد الاخلامو والاراميين على طول جبهة امتدت من الفرات الاوسط الى تدمر (٥) .

وعلى الرغم من هذه المقاومة الاشورية العنيفة للانتشار الارامي فقد نجحت القبائل الارامية منذ القرن الثاني عشر ق.م في تأسيس امارات وممالك ودول حول مراكز مهمة عديدة في سورية وبلاد الرافدين ، قامت بعدئذ بدور مهم جدا سياسيا وعسكريا واقتصاديا خلال النصف الاول للالف الاول ق.م ، فقد سيطر الاراميون على معظم البلاد السورية من الجزيرة الى العقبة ، واقاموا مملكة بيت عديني وعاصمتها تل برسيب (تل احمر) على ضفتي الفرات جنوبي كركميش (جرابلس) . أما في وادي الخابور فقد انشأوا عددا من الامارات اهمها بيت بخياني التي حلت محل غوازنا الحثية حول تل حلف قرب رأس العين ، بينما سيطرت قبيلة التيمانين ، التي ربما يعود أصلها الى تيماء في شمالي نجد ، على مناطق نصيبين وماردين وانتشرت حتى وصلت شمالا الى هضاب طور عابدين ، ثم توغلت قبائل ارامية اخرى غربا حتى وصلت الى سفوح جبال حمانو (امانوس) وسهول كيلكية واستقرت في شمال (زنجرلي) .

وقامت اهم مراكز الاستيطان الارامي في مناطق حلب حيث قامت اثنتان من اهم الممالك الارامية : بيت اجوشي في حوض نهر قويق ومقرها في أرفاد ، ومملكة حماة على العاصي . ولكن اهم نجاح للاراميين كان في استقرارهم في سورية الوسطى حول رادي البقاع وعلى سفوح جبال لبنان الشرقية . حيث تأسس عدد من الممالك والامارات الصغيرة في صوبة (عنجر) في البقاع الأدنى وفي بيت رحوب وبيت معكة وجشور بين حوض الليطاني ويناابيع الاردن عند بانياس وتل القاضي ، كما برزت مملكة دمشق عند واحة دمشق التي تمتاز بموقعها الفد على حافة البادية العربية . وقد استطاع تحالف هذه الممالك الارامية الجنوبية بزعامه صوبة (عنجر) في الربع الاخير من القرن الحادي عشر ان ينشئ اتحادا سياسيا عسكريا انضم اليه بعدئذ العمونيون وآراميو الفرات للوقوف بوجه توسع تحرك قبائل اخرى بقيادة الملك داود . ولكن المصادر التوراتية هي الوحيدة التي تحدثنا عن هذا الصراع ، ولما يعثر بعد على أية وثائق ارامية حول هذا الموضوع . ثم انتقلت زعامة العالم الارامي الى دمشق التي استطاعت بزعامه القائد رصين ان تقود كفاحا مريرا وطويلا لتوحيد البلاد سياسيا واقتصاديا حتى حققت اكبر قدر من النجاح بقيادة الملك حزائيل الذي امتد نفوذه الفعلي من الفرات شمالا الى العقبة وغزة جنوبا ، فاتحا طرق القوافل التجارية نحو مصر والحجاز .

وامام هذا التقدم الآرامي في الجنوب كان التراجع في الشمال بعد انتصبات الاراميين المؤقتة ، حتى بدت آشور كأنها محاصرة من كل جانب ولم يعد لها منفذ على البحر بعد تحكم الاراميين بطرق المواصلات بين الفرات والبحر المتوسط . لقد دخلت آشور نتيجة لهذه التطورات في مرحلة من التقهقر والضعف بعد الازدهار والقوة اللتين

شهدتهما في النصف الاول من الالف الثاني ق.م : عندما كانت طرق التجارة في المشرق العربي مفتوحة امام القوافل الآشورية نحو الاناضول او نحو وادي العاصي الاسفل . وفي خضم الصراع ، برز الجيش الآشوري كالعمود الفقري الذي نهض به جسم المجتمع الآشوري امام التهديد الآرامي ، وظل هذا الجيش ذراع الثأر لاستعادة حدود البلاد وللتخلص من الفقر والبؤس عندما توقفت التحركات والهجرت وتعزز المجتمع الآشوري بالحكومة المركزية القوية ، في حين أخفق الآراميون في إنشاء مملكة مركزية ، وان نجحوا احيانا ، حسب الظروف ، في اقامة اتحادات مؤقتة او أحلاف فيما بينهم للتصدي للهجمات الآشورية المتكررة .

وعندما استفاقت آشور من غفوتها ونهضت مسن كبوتها نشب ذلك الصراع الرهيب الدامي الطويل بين آشور وآرام ، وانتصرت آشور واحتوت بجناحيها العالم الآرامي بعد صراع استمر اربعة قرون (٦) . فقد تساقطت الممالك الآرامية الواحدة بعد الاخرى أمام ضربات الجيش الآشوري المتلاحقة : سقطت أرفاد في ٧٤٠ ق.م ثم سقطت دمشق ، الحسن الأخير للعالم الآرامي وآخر الدول الآرامية المستقلة في ٧٣٢ . وقد تابع الزعماء الآراميون في بابل مقاومتهم لآشور ونجحوا في انشاء امارات وممالك صغيرة ، كانت فعالة احيانا لكي تحمل بعض عواهلها الى عرش بابل مثل مردوخ أبال إدين . واخذ العالم الآرامي يندمج في العالم الآشوري ليغدو هذا الاندماج في الدولة القائمة أقوى وأشد وضوحا في الدولة الكلدانية . لقد استمرت المجتمعات الآرامية محتفظة بكياناتها وبهويتها الثقافية المتمثلة في لغتها في ظل الممالك الكبرى والدول الفاتحة ، من الفرس الى الاسكندر والمملكة السلوقية حتى الرومان والبيزنطيين ، الى ان جاء العرب الفاتحون المحررون في القرن السابع الميلادي .

٢ - الادب الآرامي حتى القرن الخامس ق.م .

عندما ظهر هؤلاء الآراميون على مسرح الأحداث في المشرق القديم لم تكن لهم لغة مكتوبة او أدب . كانوا في غالبيتهم قبائل بدوية ، ومن المرجح أن الامراء الذين استقروا في مراكز الحكم الجديدة تبنا اللغات السائدة في المناطق التي استقروا فيها ، فبقيت الاكدية الآشورية في بعض المناطق الشمالية واستخدمت الآرامية الى جانبها ، كما نلاحظ . ذلك في نص تل فخيرية (القرن التاسع) المنقوش بالآشورية والآرامية (٧) ، بينما استخدمت الآرامية الى جانب الكنعانية / الفينيقية في يعوديا / شمال . لكن ما عتت لغة الفاتحين المنتصرين حتى تطورت بسرعة واضحت لغة للكتابة والادب والنقوش التذكارية .

كانت الآرامية هي اللغة التي حملها الفاتحون من موطنهم الأصلي ، من منازل فبائلهم في البادية العربية التي عاشوا فيها قرونا طويلة قبل استقرارهم .. وتنتمي هذه اللغة الى أسرة اللغات العربية القديمة السامية وهي لغات شعوب واقوام الجزيرة العربية شمالها وجنوبها وهي بالاساس الاكدية والكنعانية والآرامية واخيرا العربية ، أقوى هذه اللغات واغناها ، والتي استوعبتها أخيرا واحتوتها . كان لهذه اللغة الآرامية بفروعها المختلفة مقوماتها الأساسية في بيئتها الأصلية عندما كانت لغة اقوام بدوية ، لكنها تلقت مفردات لغات الحضارات المجاورة لها والمتعاملة معها كالاكدية والكنعانية والمصرية (٨) .

إن قدرة اللغة الآرامية على الاستيعاب والنمو والتلتي جعلها لغة حية تطورت من لغة مجمع بدوي الى لغة مجتمعات مستقرة عاشت وتطورت وبقيت لغة الثقافة والتجارة والادارة والفكر والادب عهدا طويلة تقرب من ألفي عام ، الى ان أخذت تتراجع امام اللغة العربية التي حملت لواء الحضارة العربية المتجددة في القرن السابع .

لقد عاشت الآرامية طويلا خلال العصور القديمة لانها كانت قادرة على التلاؤم مع مقتضيات التطور الحضاري . ولقد برهنت هذه اللغة على قدرتها وعلى توفر عناصر القوة فيها في انتصارها على لغات كانت حية قبلها كالاكدية والحثية ، ولقد اوضحت الآرامية لغة شعوب كثيرة غير آرامية بالاصل ؛ اوضحت لسان الاشوريين والبابليين (الكلدانيين) والعبريين . كما استخدمتها شعوب فارسية قديمة وكتبت بها كتبها الدينية ..

ولا بد أن الآرامية كانت لغة مزدهرة في بلاط الملوك الذين رعوا الحياة الفكرية في قصورهم وعواصمهم ، كدمشق وارقاد وحماة وشمال . ولا بد انهم فعلوا كما فعل الاشوريون من معاصريهم فأمروا الكتاب بكتابة الحوليات الملكية والقصص والملاحم والانشيد والحكم والامثال .

لقد بقيت دمشق مركز الثقل في العالم الآرامي مدة تزيد على قرنين ، من القرن العاشر الى القرن الثامن قبل الميلاد ، أخضعت دولا كثيرة من كيليكية الى البادية ومن الفرات الى البحر المتوسط ومدت نفوذها الى غزة ، بوابة التجارة مع مصر ، والى العقبة - ايلة ، المحطة الهامة على طريق التجارة الى الحجاز واليمن ، وافتتحت اسواقا في مدن فلسطين الكبرى على الرغم من الكيانات الدينية المحلية لاسرائيل ويهوذا خلال القرن الثامن . فاذا كان حال آرام على هذه الدرجة من القوة السياسية والاقتصادية ولهم مثل هذه اللغة القوية الحية ، اليس يفترض ان يكون لهم في لغتهم ما يوازي في

الادب العبري المعاصر آداب الرواة اليهوديين والايلوهيميين الموروثة عن آداب مصر وكنعان . . . وهل يعقل ان يظهر في العبرية ، وهي بصورة ما لهجة محلية كنعانية ، حكماء وشعراء مثل عاموس واشعيا وغيرهما ، ولا يكون للآرامية شعراؤها وحكماؤها ، وهي اللغة التي ورثت في موقعها الحثية والكنعانية والاكادية العمورية ، واضحت لغة مجتمعات ودول اكبر وأعظم وأقوام اكثر عددا واطول يدا رباعا ؟ .

ويجيب الاستاذ أندره دوبون - سومر على مثل هذه التساؤلات بقوله : « اننا نعتقد ان اللغة الارامية عاشت عشرين القرنين في القرون التي امتدت من القرن العاشر الى الثامن ق . م ، أي في العصر الذي بلغت فيه الدول الارامية اقصى قوتها (٩) » .

ولكن نصوص الادب الارامي القديم من تلك المرحلة المبكرة تلفت كلها وبالإسف ، لان تلك النصوص كانت تكتب على اوراق البردي الذي لا يقدر على مقاومة عوامل الجو الرطب في سورية بينما بقي الكثير من البرديات في مصر لاماكان الاحتفاظ بها طويلا في جو جاف كجو صعيد مصر . . . ولقد لحق الادب الكنعاني الفينيقي ما أصاب الادب الارامي القديم ، ما عدا الادب الاوجاريتي الذي بقي منه ما نقش على الواح من الطين . وربما كان من الممكن ان يكون مصير الادب العبري كذلك بعد قضاء الاشوريين على مملكة اسرائيل وقضاء الكلدانيين على مملكة يهوذا ، لولا حفظ هذا الادب في كتاب . . . ذلك ان المجتمع اليهودي الذي عاد بعد النسي من بابل بمساعدة ملوك الفرس ، عمل بجهود حكمائه وكتابه على جمع نصوص التراث العبري التاريخي والديني والادبي في كتاب على يد النبي عزرا ، ثم قام الكتاب والخطاطون بنسخ النصوص المحفوظة جيلا بعد جيل ، ثم قاموا بشرحها ونسخها وحفظها بعيدا عن الاخطار كما في مكتبة طائفة الايسينيين الذين حفظوا مكتبتهم ، عند الخطر ، في مغاور وكهوف قمران على مقربة من البحر الميت بعد تصنيفها في ملفات ضمن جرار من الفخار (١٠) .

ولكن شيئا من هذا لم يحدث في العالم الارامي . فالدول الارامية سقطت امام التوسع الاشوري الواحدة بعد الاخرى ، وتقوضت اركانها بسقوط مملكة ارام دمشق عام ٧٣٢ ق . م . ولم تقم للدول الارامية قائمة بعد ذلك . ولذا لم يشهد الادب الارامي القديم اي انبعاث واندمجت الحياة الثقافية للمجتمعات الارامية في حياة شعوب المنطقة ودولها في ظل اشور وبابل وامبراطورية فارس ، الى ان حدث التغير الثقافي الكبير باقتحام الحضارة اليونانية قلاع المشرق العربي مع الاسكندر . وبعد سقوط مراكز الثقافات القديمة نصبت على بوابات المشرق منارات للفكر اليوناني : انطاكية واللاذقية وافاميا في سورية والاسكندرية وبيرنيقه في مصر ، واعقب ذلك الاجتياح الروماني الذي ضم العالم العربي القديم بقوة النار والقانون الروماني (قرطاجة وتدمر)

الى المحيط الثقافي الهليني - الروماني لآمد طويل استمر حتى الفتح العربي الاسلامي في القرن السابع .

لقد غرق التراث الارامي القديم وضاع في غياهب الزمن وان بقيت منه صور ونتف حملتها اداب العصور التي تلت في اداب الفرس واليونان . ثم ترددت في الاداب السريانية . وهي اداب المجتمعات الارامية المسيحية في سورية والمشرق العربي القديم ، اصداء الماضي واخباره وقصصه وامثاله واسماء اعلامه . ويعود الفضل الى علم الاثار في الكشف عن بعض اثار هذا الماضي ، وفي العثور على بعض النقوش ، وهي نصوص محفورة على الحجارة والانصاب التذكارية، في انحاء مختلفة من سورية: كيليكية وحلب والخابور وحماة ودمشق وغيرها . مما يسمح للباحثين المختصين بتكوين فكرة واضحة عن اقدم عصور الادب الارامي ولغته وخطوطه .

لنقدم الان بعض الامثلة :

في اواخر القر التاسع اوائل القرن الثامن ق.م تمكن (زكر) (١١) ملك حماة ولعش (وهي منطقة في محافظتي ادلب وحلب الان) من صد تحالف قاده ضده ملك دمشق برهدد ، فأقام لتخليد ذكرى هذا الانتصار نصبا تذكاريًا نقش عليه واحد من اقدم النصوص الارامية المعروفة . يرفع الملك يديه الى السماء مسبحا رب السموات (بعل شمين) شاكرًا نعماءه على مساعدته في تخليص مفره في حزرك (ربما كانت اريحا) من حصار مميت ضربه حوله المهاجمون المتحالفون :

لنقرأ النص اولا بالارامية بعد ان نقلناه من مصادره الى الحرف العربي (١٢) .

- ٢ - انه زكر ملك حمت ولعش . إش عني أنه [حصل
- ٣ - [ناي بعل شمين وقم عمي وهملكني بعل شمين ب]
- ٤ - [ح] زرك وهو حد علي بر هدد بر حزئل ملك أرم -
- ٥ - شة [عسر ملكين بعزرك .
- ٦ - وشمو كل ملكيا إل مصر على حزرك [ك]
- ٧ - وهرمو سر من سر حزرك وهعمقو حرص من حر [صه]
- ٨ - وإشي يدي إل بعل شمين ويعينني بعل شمين [ويومر] .
- ٩ - [لي] بعل شمين إل تزحل كي انه هملا [كتك] وانه ا
- ١٠ - قم عمك وانه أحصلك من كل ملكيا .

إن مقارنة بسيطة بين مفردات هذا النص وبين العربية توضح لنا بجلاء مدى التشابه في اللفظ والصرف مما يدعو الى استنتاج النتيجة المنطقية وهي اننا امام لفة من اللغات العربية القديمة .

هملكني : املكني ، هي صيغة افعل جعلني ملكا .

هوحد : وحد .

عهمقو : حفروا بعمق عمقوا ،

يعينني : يعينني

إل تزحل : لا تزعل ، وزعل بالعربية الفصحى ، تالم وغضب .

انه احصلك : انا احصلك ، الحق بك لاخلصك

اما اذا نقلنا النص الى العربية ، عربيتنا ، فيكون كما يلي :

انا (زكر) ملك حماه ولعش إني انسان معني ،

خلصني رب السموات (بعل شمين) وقام معي ،

وجعلني بعل شمين ملكا على (حزرک) .

حينما وحد برهدد برحزئل ملك ارام ضدي ستة عشر ملكا ،

جاؤوا جميعا وضربوا الحصار حول حزرک ،

رفعوا سورا أعلى من سور حزرک ،

حفروا خندقا أعلى من خندقها ،

عندئذ رفعت يدي داعيا بل شمين ،

فأعانني بعل شمين ،

وكلمني بعل شمين بلسان العرافين والمنجمين ،

قال لي :

لا تزعل لانني انا الذي جعلك ملكا ،

وانا اقوم معك .

انا الذي يخلصك من كل هؤلاء الملوك الذين ضربوا الحصار على مدينتك .

نستطيع القول ان هذا النص لا يخلو بما فيه من تكرار وإيقاع وعمق المشاعر

الدينية والعاطفية العميقة من نبرة شعرية تذكر برثاء المدن والبكاء على اطلالها في الادب العبري التوراتي فيما بعد .

لنعرض الان مثالا آخر :

انه نص مختلف تماما ، منقوش على الحجر ومعروف انه نصب من انصاب سفيرة (١٢) الواقعة الى الجنوب الشرقي من حلب ، وهو مقطع من نص عهد عقد بين ملك ارفاد متع ال بن عتر سماك وبرجايه ملك كتك . وقد جعلت الارباب شهودا لتوثيق العهد وصبت اللعنات على من يجترىء على نقضه او على الحنت باليمين .

« واذا ما نقض متع ال بن عتر سماك ملك ارفاد العهد لبرجايه ملك كتك :

واذا ما نقض احد من عقب متع إل العهد لاحد من عقب برجايه ملك كتك ...
لتلقح سبعة كباش نعجة فلا تحمل .

ولتمسح سبع مرضعات حلمات ائدائهن وليرضعن رضيعا فلا يشبعنه .

ولترضع سبع افراس مهرا فلا تشبعنه .

ولترضع سبع بقرات عجلا فلا تشبعنه ..

ولترضع سبع نعاج حملا فلا تشبعنه .

ولئن خان متع إل برجايه وابنه وعقبه فلتكن مملكته مملكة قائمة على الرمال ومملكة كاطفاث احلام تنطفئ كما تخدم جذوة النار .

ولينشر الرب هدد فوق ارفاد كل ما على الارض وما في السماء من شر ولينشر فوقها كل ما عنده من آلام .

وليرمها بما عنده من برد كالحجارة .

وليلتهم الجراد زرعها سبع سنين ،

ولياكل الدود ثمرها سبع سنين ..

وليعم القحط فيها فلا نبت عليها عشب .

ولا ظهرت على وجه ارضها خضرة .

وليصمت في ارفاد صوت القيثارة .

وليسمع في اهلها صراخ المرضى وانينهم ،

وعويل الفوثى ومراثي الموتى وشكاوى المعوزين ،
ولتستحل ارض أرفاد الى صحراء وبنيانها الى كوم من الانقراض ..

الا تتضح من هذا النص روح العصر المتسم بالتشاؤم والذعر والخوف من
المستقبل ؟ الا يذكرنا بمواعظ النبي اشعيا التي كتبت بعده وبخاصة ما يرد في
الاصحاحين الخامس والثاني والثلاثين ، عن تنبؤاته بمصير مدن فلسطين ..

وفي نص اخر من أواسط القرن الثامن يتحدث الملك برركوب (١٤) عن ذكرى
أبيه بانامو ومآثره في مملكته الواقعة على سفوح جبال الامانوس وكانت تمتد على
أراضي كيليكية والاسكندرونة :

« القمح والشعير والتعاج والابقار كلها كانت وفيرة في أيامه ،

عندما أكل أهل يأدي (شمال) وشربوا .. كان أبي ملكا قديرا بين الملوك ، كانت
له أراض شاسعة وعربيات حربية ،
كان مالكا للفضة والذهب .. »

ثم يتحدث برركوب عن علاقة شمال بمملكة آشور وولائه لها . ويبدو هذا النص
وكأنه صفحة من صفحات الحوليات التاريخية الرسمية ويرتفع الاسلوب الادبي به
أحيانا بما فيه من مبالغة وتصوير واقعي للطولة والانتصار الى مستوى الملحمة .

ويبرز هذا الانطباع بدرجة اشد عندما يتحدث برركوب عن نفسه وعن منجزاته
في نص آخر (١٥) لا يخلو من بلاغة ومسحة أدبية ..

وفيما يلي مقتطفات من هذا النص :

« أنا برركوب بن بانامو ملك شمال .. »

بصدق أبي وبصدقني اجلسني الربم ركب ال بتاييد سيدي تكلاث بلاصر على
كرسي أبي ..

وعمل بيت أبي أكثر مما عمل أي بيت آخر .

وقبضت على زمام الامر في بيت أبي وجعلته مزدهرا أكثر من أي بيت من بيوت
الملوك الاقوياء .

وغبطني اقراي من الملوك على ما احرزه بيتي من الازدهار ،

واخواني من ملوك شمال لم يكن لهم قصر جميل كقصري ..

كان لهم قصر كيلامو . .
كان لهم قصر الشتاء وكان لهم قصر الصيف .
لكنني انابيت هذا القصر » .

بعد عرض هذه النماذج من الكتابات الارامية من بعض ما تبقى من اثار قديمة ، يمكن لنا ان نتبع تطور اللغة الارامية فنلاحظ ما احرزته هذه اللغة من درجة عالية من النضج بكونها لغة للكتابة وللادب حتى استطاعت ان تعيش وان تستمر على البقاء بعد سقوط الدول الارامية في اواخر القرن الثامن حتى انها فرضت نفسها على فاتحيها المتعاقبين . . .

فبعد ان كانت الدول الارامية تستخدم الاكدية الاشورية الى جانب الارامية في القرن التاسع ، كما يبرهن على ذلك نص ادد يسعي (١٦) ملك جوزانا المكتشف في تل حلف على الخابور . . ، نجد اتجاهها لاستخدام الادارة الاشورية نفسها للارامية الى جانب اللغة الاشورية . وهذا ما يؤكد ان الدولة الاشورية في عهد الامبراطورية الحديثة لم تعد منذ اواسط القرن الثامن دولة احادية الهوية ، بل اصبحت دولة ثنائية الهوية ، اشورية - ارامية (١٧) . . الى ان غدت الارامية وحدها لغة المجتمع الاشوري في القرون اللاحقة .

فالاراميون على اثرهم من هزيمتهم العسكرية ، ومن سقوطهم سياسيا وتقوض اركان دولهم المستقلة ، لم يختفوا عن مسرح التاريخ في المشرق القديم ، لان السياسة التي اتبعها ملوك اشور في نقل السكان من اجل اخماد المقاومة والقضاء على الثورات الناشبة ضدهم كانت سياسة ذات حدين ، لانها ادت الى نقل افواج عديدة من الاراميين الى قلب نينوى وآشور ، حيث عاش الاراميون مع الاشوريين جنبا الى جنب وقامت بين الطرفين اوثق الصلات وامتن العلاقات وبخاصة في ميدان التجارة . واذا ما كان الامر كذلك فهل يستغرب العثور على اعداد وفيرة من الوثائق الاقتصادية موهورة بالارامية الى جانب الاشورية المسمارية في القرن السابع (١٨) . .

اننا نرى ان لهذه الظاهرة دلالتها التي نحاول ان نتبعها فيما يلي :

لقد تلاقى على ارض سورية نظامان للكتابة : نظام الكتابة المسمارية ، ونظام الكتابة الابجدية . وفي حين تقدمت المسمارية الى سورية في الالفين الثالث والثاني ق.م (ماري وابلا والاخ . .) حتى تطورت المقطعية الى المسمارية الابجدية في اوجاريت حيث توقفت بنهاية المدينة ، تقدمت الابجدية الجبيلية ووضحت نظام الكتابة للكنعانية الفينيقية ثم

الارامية . لقد اخذت الارامية تراحم الاكدية البابلية الاشورية حتى احتلت محلها لانها كانت لغة عملية وكتابتها بسيطة . وكان الانتقال من استخدام الكتابة المسمارية ، بعلاماتها التي تعد بالمئات ، الى الابجدية المؤلفة من بضعة وعشرين حرفا ، من أعظم المراحل الفاصلة في تاريخ الفكر والحضارة . لهذا اوضحت الكتابة الارامية هي المفضلة عند رجال الاعمال والتجار والموظفين وغيرهم ، الذين وجدوا فيها الاداة المثالية للتسجيل والتوثيق ، فتقدمت الى موقعها الجديد لتتفجج جنبا الى جنب مع الاكدية والمسمارية لا لكتابة النصوص الاقتصادية وحسب بل لكتابة نصوص تاريخية ونثرية:

من النصوص الارامية التي تقدم لنا صورة عن لغة ذلك العصر (الكلداني) هذا النص من نقش جنزي عثر عليه في نيرب (١٩) عند مدخل من مداخل حلب ، من القرن السادس ق.م . يقول :

« سين أجبر ، (سين يحمي) كاهن شهر (القمر) في نيرب ، هاهي صورتي ،
لصدقي قبله اسماني اسما طيبا وأطال ايام حياتي .
يوم موتي لم يحرم فمي من الكلام ،
وبعيني كنت ارى بجلاء ،
وبكاني اولاد من الجيل الرابع من أحفادي ، ونحبوا بدمع سخين ،
لكنهم لم يدفنوا معي أشياء من الفضة او من النحاس ،
بملابسي وحدها أرقدونني ، حتى لا ينبش احد فيما بعد قبري ..
ولتكن من تكون ، ان أسأت الي او تسببت في ما يؤذيني ..
فليمتك شهر وتكال ونسكو اشنع ميتة .
ولتهلك ذريتك » .

كان أكبر تغيير في العصر الكلداني تقدم اللغة الارامية لا في بابل وحدها بل في كل انحاء المملكة البابلية الحديثة الكلدانية التي غلب فيها الاراميون ودخلت ارض الرافدين والشام قبائل عربية كثيرة باعداد كثيفة .

ولقد عثر بين انقاض بابل على حجارة تأسيسية من زمن نبوخذ نصر الملك الفاتح البابلي والمصلح ، تحمل كتابة مزدوجة بخط مسماري وبخط ارامي .. ففي ذلك العصر اوضحت الارامية لغة الدبلوماسية في كل الشرق العربي بعد الاكدية - البابلية ، واخذت

تتطور لتصبح لغة دولية بل لغة عامة للمشرق العربي القديم كله وهو دور لم تصل إليه لا اللغة المصرية ولا الفينيقية . . فقد وجدت وثيقة هامة هي رسالة دبلوماسية ارسلها احد ملوك الفينيقيين الى فرعون مصر ، ومعنى هذا ان كتابا يتقنون الارامية كانوا يعملون في البلاط الفينيقي كما كان يوجد في البلاط المصري الفرعوني كتاب اراميون . . وهكذا ورثت الارامية دور الاكدية لتكون لغة التفاهم والخطاب العامة ولتحتل المركز الاول بين لغات المنطقة ، ولتحتفظ بهذا الدور قرونا الى ان حلب العربية في هذا الدور .

وعندما استولى قوروش ملك فارس على بابل واسقط الامبراطورية البابلية . . بقيت اللغة الارامية المظهر الباقي من التراث الحضاري السابق ، وفرضت لغة بابل وحلب ودمشق نفسها لغة للامبراطورية (٢٠) الشاملة الفارسية الاخيمنية ، لغة لمملكة عظمى امتدت من برقة ووادي النيل والمتوسط الى السند والهند وشملت شعوبا وأقواما مختلفة اللسنة متعددة اللغات ، كانت الدولة بحاجة الى لغة تسهل التعامل فيما بينها وبين هذه الشعوب ، والاتصال بين الولايات في التجارة والادارة . هكذا كانت الارامية وهي الاكثر انتشارا بين كل لغات الامبراطورية هي المؤهلة للقيام بهذا الدور . ولم يكن بوسع لغة اخرى منافستها . وقد لخص الاستاذ أندره كاكوف في محاضراته الافتتاحية في الكوليج دو فرانس (٢١) الوضع اللغوي والثقافي في المشرق العربي خلال تلك المرحلة من الالف الاول ق.م موجزا بمقولة خطيرة مفادها انه « بينما حمل الكنعانيون الفينيقيون لغتهم وحضارتهم الى المغرب واسبانيا وجعل الاراميون من لغتهم امبراطورية ظلت العبرية لغة كانتون محدود » .

ان هذه الآرامية التي انتشرت منذ القرن الخامس ق.م ، آرامية الامبراطورية ، تركت وثائق متنوعة عشر عليها في بابل وآسية الصغرى وشمال جزيرة العرب وفي فلسطين ومصر . . وأهم هذه الوثائق وأوفرها عددا هي التي عشر عليها في مصر ومنها مجموعة من الرسائل الادارية التي وجهها الحاكم الفارسي (ارسام) من سوزا وبابل الى كبار الموظفين في مصر باللغة الآرامية (٢٢) .

أما ينبغي قوله بالحاح فهو ان لغة هذه الوثائق في كل هذه المناطق ومن اي بلد اتت تمثل وحدة لغوية واضحة ، وحدة لم تعرفها المنطقة من قبل بهذه الدرجة من الاتساع والشمول . . ذلك أن وجود حكومة مركزية ساعد على تأييد استخدام لغة واحدة . كانت الدولة تعد الكتاب (الكاتب = سفرا بالآرامية) الذين يتخرجون في مدارس لها نظام واحد ومنهج تعليمي موحد ، وتفرض في كل ولايات الدولة اسلوبا في الإنشاء والتعبير يستند الى قواعد نحوية واملائية موحدة .

حتى ان جاليات يهودية وجدت في تلك الفترة في مصر استخدمت الارامية في مكاتباتها ومراسلاتها . ويؤكد الاستاذ أندره دويون - سومر ان لغة الوثائق التي عثر عليها في ملفات البردي والخاف في فيلة عند أسوان والتي تعود الى القرنين السادس والخامس ق.م ، انما هي الارامية ، ولا يوجد أي أثر للعبرية (٢٢) في لغة هذه النصوص .

ومن هذه النصوص ، الرسالة التي وجهها أحبار واعيان الجالية اليهودية الى الادارة الفارسية في فلسطين (٢٣)م وجواب الادارة عليها بشأن ما اصاب المعبد اليهودي في فيلة الواقعة في صعيد مصر . وجاء في الشكوى ان المصريين اغتتموا فرصة غياب الحاكم الفارسي أرسام ، فاستمالوا الى جانب الموظفين الفرس وهاجموا اليهود وقبلوا المعبد اليهودي في فيله رأسا على عقب . ويطلب مقدمو العريضة بالتعويض . ويعتبر الباحثون هذه الرسالة نموذجا ممتازا للنشر الارامي في العصر الفارسي . ولكنها من وجهة نظر المؤرخ تعتبر وثيقة هامة تعكس موقف المجتمع المصري من اليهودية وهو موقف لا يتفق ابدا مع موقف هذا المجتمع من عقائد المجتمع الارامي المقيم في أسوان وهرموبوليس ومنفيس .

وفيما يلي الترجمة العربية للرسالة التي وجهها بالارامية احبار واعيان الجالية اليهودية الى الادارة الفارسية في فلسطين .

« الى مولانا باجوهي حاكم اليهودية من عبيدك يدونيا (عطا الله) ورفاقه احبار كنيس فيلة .

عليك سلام ربنا ، وليحظك اله السماء بمزيد من عنايته الكريمة ابدا . ويرفع قدرك عند الملك . أطال الاله حياتك ! ولتشملك السعادة والمسرة دائما ! وبعد . يعرض يدونيا ورفاقه ما يلي :

في شهر تموز من العام ١٤ للملك داريوس ، عندما غادر الحاكم أرسام ليحظى بمقابلة الملك تأمر كهنة الرب جنوب (خنوم) في حصن فيله مع فيدرانج الذي كان حاكما هنا ، وقالوا « يجب ان يزال من هنا معبد الاله يهو في حصن فيلة » . عندئذ فيدرانج المجرم ارسل رسالة الى ابنه نفايان الذي كان قائد حامية في حصن أسوان تتضمن مايلي : « ليهدم المعبد في حصن فيلة ! » عندئذ قام نفايان بقيادة جماعة من المصريين مع الجنود والمساعدين . وصلوا الى حصن فيلة بأسلحتهم . وهدموا المعبد وسووه بالارض وحطموا اعمدته الحجرية ، وخمس بوابات حجرية من

الحجر المقطوع وبواباتها الخشبية الشعرية المتينة المصفحة بالصفير (البرونز) والسقف المبني بخشب الارز . كل هذا مع اشياء اخرى مما كان في المكان جعل طعما للنيران . اما الاواني الذهبية والفضية والاشياء الاخرى التي كانت في المعبد فقد أخذوها واستملكوها .

انه منذ أيام ملوك مصر بنى اجدادنا هذا المعبد في حصن فيلة . وعندما دخل قمبيز الى مصر وجد هذا المعبد عامرا . وقد دمرت كل معابد الهة مصر . ولكن احدا لم يجرؤ على تسبیب ادنى اذى لهذا المعبد .

وعندما حدث ما حدث ، فاننا مع نساءنا واطفالنا لبسنا اثوابنا الخشنة ووضع كل منا نفسه في كيسه ، وصحنا وتوجهنا بالدعاء الى يهو رب السماء .

والان ، خدامك يدونياه ورفاقه وكل يهود فيلة يقولون مايلي : اذا اراد سيدنا فليفكر بهذا المعبد ليعاد بناؤه ، لانهم لا يدعوننا نعيد بناءه . انظر الى اصدقائك والى محظيك الموجودين هنا في مصر ! لترسل اليهم رسالة بشأن معبد يهو هذا تامرهم فيها باعادة بنائه كما كان من قبل ! وعندئذ ستقدم الاضاحي والنجور والمحارق على مذبح الاله يهو باسمك ! ونصلي لاجلك الى الابد نحن ونساؤنا واطفالنا هنا . .

في ٢٠ من شهر مرحسوان من العام ١٧ للملك داريوس . . . » .

٣ - قصة احيقار وحكمته ؛ موضوع القصة وأصولها الاولى :

اما اهم عمل أدبي حقيقي معروف حتى الان بالارامية القديمة ، اي قبل المسيحية ، فهو قصة احي يقر (احيقار) (٢٤) ، الشخصية الارامية البارزة في الدولة الاشورية . فما هو موضوع هذه القصة وما هو أصلها ؟ موضوع القصة قديم ومتكرر في آداب الشرق الادنى القديم ، يدور حول تكريم بطل القصة المخلص للملك والدولة ومكافاته على قيامه باعمال باهرة . . وهو يذكرنا بقصة سنوحي في مصر (٢٥) التي تعود الى الالف الثاني ق.م . . اما القصة الاشورية الارامية فتعود الى القرن السابع . ويعتبر النص الارامي الذي عثر عليه في جزيرة فيلة ، هو الاقدم لكنه غير تام وتنقصه أجزاء كثيرة ، وهو يعكس الاصل المسماري-الاشوري كما يؤكد غرولو (٢٦) . ويستند ليو او بنهايم الى دراسة نشرها فان دايك لرقيم مسماري لتأييد الحقيقة التاريخية لشخصية احيقار (٢٧) وان نسجت حولها خيوط صورة اسطورية ، وهو أمر مألوف في الادب الرافدي كما في ملحمة جلجاميش وقصة أدايا (٢٨) . ملحمة

جلجامش معروفة ، اما ادايا فهو بطل قصة رافدية باسمه خلاصتها انه رجل هو من الراحلين الفانين مثل جلجامش ، لكنه من اصل الهى كأبطال الاساطير الاغريقية . وكما اضحى جلجامش رمزا خالدا بين الفانين ، اضحى ادايا احكم الحكماء بين الناس .

عثر على قصة ادايا في لوح مسماري كان يستخدم لتعليم الاكديّة المسمارية للكتاب في مصر في عصر العمارنة (من أواسط الالف الثاني ق.م) وقد عثر على نكت منها في الواح مكسورة من مكتبة آشور بانيبال (من أواخر القرن السابع ق.م) .

تقول القصة ، قصة ادايا التي يحتمل ان تكون اساس قصة أحيى يقر ، انه عندما كسر ادايا حارس مدينة اريدو المتمتع بحماية إيا ، الرياح القادمة من الجنوب التي حولت اتجاه مركب الصيد الذي كان يقوده ، دعي للمثول أمام الرب آنو رب السماء للدفاع عن نفسه لاقترافه جريمته .

نصح إيا ادايا بان لا يتناول طعاما او شرابا يقدم اليه في السماء لان إيا يعرف ان لدى الآلهة طعاما يؤدي الى الموت والفناء . لانعرف نهاية قصة ادايا لكن يعرف من تقاليد العقائد السومرية ان الاله آنو (رب السماء) اكرمه وتلاميذه السحرة في اريدو نأعطوا قوة خارقة لمقاومة المرض والاشباح فاضحى ادايا الساحر الاكبر (اشيبو) بين السحرة الكبار (ابكالو) . اما الصيغ السحرية المنسوبة الى ممثلي هذه القوى الإلهية فقد صارت تكتب بعدئذ على شكل تمائم تعلق في البيوت لحمايتها من الارواح الشريرة .

فمن العودة الى هذه الاصول تتبين لنا معاريكا رينر E. Reiner الجذور العميقة لقصة احيقار الحكيم وتتضح صورة الوزير الارامي ومغزى تجربته . ومن هذه النصوص المسمارية يفهم انه في زمن الملك اسرحدون ملك آشور وجدت في البلاط شخصية باسم ابا-انليل-ناري ، والاحلامو الاراميون يسمونه أخواقر . فالاصل الارامي لآخي يقر واضح ومؤكد لكنه اضطر الى اتخاذ اسم آشوري لتسهيل دخوله في البلاط الاشوري . اما اصل موضوع القصة فهو سومري اكدي . ثم اضحت شخصية الرجل محورا لقصة واحداث وحكم زيدت اليه والحققت به عبر العصور حتى وصلت اصدااء شهرته الى الغرب عن طريق العالم الهليني باسم ايسوب ، وهو مؤلف خرافات باللغة اليونانية من اصل فريجي من آسية الصغرى عاش في القرن السادس ق.م . ويرجع الدارسون قصته وحكمته الى اصول مشرقية تتصل بقصة أخي يقر (احيقار) وحكمته . وما من شك في ان خرافات ايسوب المقتبسة عن أخي يقر هي مما أوحى بخرافات لافونتين المعروفة في الادب الفرنسي .

لنسمع هذه الحكاية من أحي يقر : يصادف فهد عنزة وهي ترتجف من البرد فيقول لها : تعالي اغطيك بجلدي . تجيب العنزة : لماذا انا يا سيدي ! لا تأخذ مني جلدي لانه ليس من المألوف ان تحيي الفهود الطباء الا لكي تلعق دمها ! .

أليس في مثل هذه الحكاية القصيرة وامثالها بدور قليلة ودمنة ... وخرافات لافونتين ؟ .

وكان مؤلف الخرافات الاغريقي بابريوس Babrius قد نظم كثيرا من خرافات ايسوب في القرن الثاني الميلادي ، وكتب وهو يتذكر اصولها القديمة قائلا : ان الخرافة هي من عمل السوريين الذين كانوا يعيشون تحت حكم نينوس (اي نينوى) وبعل (المعبود آنذاك) لكن اول من رواها للهلينيين هو ايسوب الحكيم .

ففي هذه الاشارة ما يدل على الاصول الاكدية الاشورية لقصة أحي يقر التي نقلت الى اللغة الارامية ، وهي اللغة التي اُضحت من اللغات العالمية عندما انتشرت منذ العصر الفارسي من الهند الى المتوسط .

ثم في تاريخ الادب الكلاسيكي يذكر ان الكاتب اللاتيني فيدر Phédre (القرن الاول م) هو الذي أدخل خرافات ايسوبيوس الى الادب اللاتيني الروماني بعد ادخال كثير من التعديل عليها وتحميلها معان وتعاليم تربوية اخلاقية ..

ويشير الاستاذ دوبون - سومر (٢٩) اخيرا الى انه في قصة أحي يقر كما سردها ماكسيم بلانود في العصور الوسطى يضحى نادين في القصة انو والملك سنحريب ليكروس . ولكن على الرغم من التغيير الطفيف فان العودة الى اصول القصة تبرز الاساس الاكدي الارامي لعمل الكاتب الاغريقي ايسوب .

إننا نستطيع ان نأخذ فكرة عن هذا الاثر الادبي الارامي ولكن من المستحيل حتى الان اعادة تكوين الاثر كما كان في روعته الاولى لما لحقه من تحريف وتغيير وتعديل بانتقاله الى لغات اخرى سوى اليونانية واللاتينية ، اذ نجد صدى القصة في سفر طوبيا ثم بطبيعة الحال في السريانية وريثة الارامية القديمة .

٤ - خلاصة قصة احيقار (٣٠) :

كان احيقار رجلا حكيما وفاضلا من حكماء الاراميين .. لم يكن له ولد ، وكان نادين ابن اخته فحدث نفسه قائلا : « سأأخذ ولدا » . كان الحكيم مستشار ملك اشور سن اخي ايبا = سنحريب ثم اشور اخي إدّينا = اسرحدون .

يتحدث أحيقار عن نادين مرددا ما في نفسه : « ها اتني رجل شيخ ، فمن سيكون نبي ولدا ليكون من بعدي كاتباً وحاملاً لاختام الملك أسرحدون ملك آشور كما كنت أنا للملك سنحريب أبيه ملك آشور ؟ » .

يجيب بنفسه قائلاً :

« بعدئذ ، أنا أحيقار اتخذت نادين ابن اختي ولداً ، ربته وعلمته وأغدقت الإحسان عليه ، رافقته إلى باب القصر وأوصلته إلى الملك ليمثل أمامه وهو بين أفراد حاشيته . قدمته لأسرحدون ملك آشور . اختبره الملك بأسئلة عن الحكمة فأجاب عن كل ما سئل عنه . أحبه أسرحدون ملك آشور ورضى عنه وقال : « لتعمر حياة الكاتب الحكيم مستشار آشور كلها الذي أوصل ابنه ، بل ليس ابنه هو ، ابن اخته . » . يضيع حديث أحيقار المباشر بعد ذلك لكن قصة أحيقار رمت من مصادر سريانية لتواترها فيها كما يلي :

لقد استطاع الوزير الشيخ اقناع الملك بخلافة ابنه المتنبي نادين له في مهامه متعهداً بتعليمه حكمته وتجربته وخبرته . وهنا تأتي الحكم والأقوال التي فاه بها أحيي يقر ، وسنعرض أمثلة منها فيما بعد ، أما تنمة القصة فهي كما يلي :

« ما أن استقر نادين الشاب في منصبه حتى خان أباه الطبيب ، فوشى به عند الملك بتهم مختلفة أغضبت الملك الذي أمر بقتله . لكن الضابط الجلاد نابوسوم — يسكن ، الذي كان أحيي يقر ولي نعمته ، وفر حياة الحكيم البريء وأعدم بدلاً عنه مجرماً كان يحتفظ به في السجن . ندم الملك بعد ذلك على تسرعه ، وكان بحاجة إلى عقل أحيي يقر وحكمته لإيجاد مخرج من موقف حرج وضعه فيه فرعون مصر . اعترف الجلاد عندئذ بخدعته فأحضر أحيي يقر للمثول أمام الملك ، وبفضله استطاع الملك الآشوري أن يرد على تحدي الملك المصري بمسائل سأله عنها وأن ينتصر . أما نادين الناصر للجميل فقد ألقى في غياهب السجن وبقي فيه إلى أن مات » .

موضوع القصة هو كما نرى العقاب العادل للجاحد الناصر للجميل ، والخاتمة الطيبة والأكرام والجلال للعالم المخلص الحكيم .

وقد ألحقت بالحكاية مجموعة من الحكم وجهها أحيي يقر إلى نادين ليعلمه قبل أن يخلفه ، ثم ليؤنبه بعد انكشاف أمره وسقوطه .

٥ - حكمة أحيقار (٢١)

هذه بعض حكم وأقوال أحيي يقر الماثورة ، ومنها ما ترك ولا شك أثره في آداب الأمم ،

وبخاصة في الادب التوراتي ، وفي الحكايات والخرافات الى ان نقلت الى آداب شعوب البحر المتوسط ، ونستطيع ان نسمع ترداد اصداؤها في أدبنا العربي وفي تراثه الغزير من الامثال والحكم والاقوال المأثورة .

في التربية يقول :

« لا توفر على ابنك ضرب العصا ، فانك لن تستطيع بدونها ان تقيه من الشر » .

« إن ضربتك يا بني فلن تموت ، ولكنني ان تركتك على هواك فلن تعيش » .

اليس هذا ما نجده في سفر الامثال (٢٣ : ١٢-١٤) : « وجه قلبك الى الادب وأذنيك الى كلمات المعرفة . لا تمنع التأديب عن الولد . لانك ان ضربته بعصا لا يموت ، تضربه انت بعصا فتتقذ نفسه من الهاوية » .

وفي آداب الكلام يوصي بحسن الاستماع وبالحذر وكنم السر والكلام في اوانه . يقول احيقار :

« لاتخمد جذوة كلام الملك ، سيكون كلامه شفاء لعظامك » . ونجد في سفر الامثال (٢٤ : ١٦) « الكلام الحسن شهد غسل حلو للنفس وشفاء للعظام » ويقول : « يا بني ! لاتكن ثرثارا فتبوح بكل ما يرد على خاطرك لان العيون والاذان في كل مكان متجهة الى الافواه ، وكن حذرا فان صنت لسانك سلمت » .

وفي امثالنا : « لسانك حصانك ان صنته صانك وان خنته خانك » .

ويقول ايضا :

« راقب فمك وصن ما سمعت في قلب اصم لان الكلام كالعصفور ان انطلق من بين يديك لن تسترده ابدا » .

« لا تكشف سرّك حتى للصديق لكي لا يكون اسمك سخرية » .

« الاناء الطيب يحفظ الكلمة الطيبة ، لكن الاناء المكسور يسرب ما فيه » .

الا نجد المعنى واللفظ في القول العربي المأثور : « الاناء ينضح بما فيه » .

وينهى احيقار عن مصاحبة الاشرار محذرا من خبايا السرائر : « لا يعرف احد ما في قلب صاحبه ، فان ما رأى امرؤ امرا آخر تافها فليحذره . ليبتعد عن طريقه ولا يتعامل معه . هذا ما يفعله الانسان الطيب مع الخبيث » .

وفي السياسة والدبلوماسية والسلام والحرب يوصي قائلا :

« انسج الاعيب فمك ثم اعرض مقاصدك في الوقت المناسب لان حيلة الفم اقوى من حيلة الحرب » .

الا انه ينهي عن الافتراء والاثم : « يابني تحقق باذنيك كل ما تسمع لان نجاة الانسان في اخلاصه وصدقه اما مايقبحه فهو الافتراء على شفتيه » .

ويضيف الحكيم : « السيف يعكر صفو المياه الهادئة بين الجيران » .

لكنه يوصي بالاعتدال : « لا تكن شديد الحلاوة فتؤكل ، ولا تكن شديد المرارة فتقذف » (لا تكن صلبا فتكسر ولا ليناً فتعصر) .

ويستنكر العدوان والاعتداء قائلا :

« لا تشد قوسك ولا تصوب سهمك الى الانسان الصالح مخافة ان يؤيده الاله فيرتد السهم عليك » .

ويضيف بحكمة فيها خلاصة فلسفة الجبر والاختيار قائلا :

« لئن شددت القوس ووجهت السهم الى انسان صالح فالسهم منك لكن حركته من الالهة » .

وبشهادة يتباهى حكيم ارام بنجدة المستجير قائلا :

« رفعت القش وحملت النخالة لكنني لم اجد اخف حملا من المستجير الدخيل » .

ويتحدث عن الفقر والفنى والعمل فيقول :

« رفعت الرمل وحملت الملح لكنني لم اجد اثقل من الدّين » .

ويؤكد فكرته بقوله :

« يا بني ان كان الدين باهظا والدائن خسيسا فلا تعاقد عليه ! ولكن ان عاقدت على دين فلا تترجح لك نفس حتى تفني بكل ما عليك ! الدين مريح ان كان قصير الاجل ، لكن الوفاء به يعادل محتوى البيت ! »

ويعبر عن استنكاره للفقر :

« ذقت المر حتى العلقم لكن لم اجد اشد مرارة من الفقر » .

لكنه يحث على العمل ناصحا بالسعي في سبيل العيش : « احسير انت يابني !

إذن احصد أي حصاد ! واصنع أي صنيع استطعت ، عندئذ ستأكل وستشبع وتعطي لأطفالك ! » .

وهو يوصي بعمل كل انسان ما هو مؤهل له :
« لا توجه العربي (البدوي) الى البحر ولا الصيدوني الى الصحراء لان لكل شأنه »

وبهذا المعنى يقول عاموس :

هل تركض الخيل على الصخر او يحرق عليه بالبقر (٦ : ١٢) .
وينهي الفني عن الاغترار بثروته :

« لا تغتر بثروتك ولا تمل مع هوى قلبك » .
« ولا يقل الفني ابدا انني مشهور لاني ثري » ..

ويحدث نفسه مناجيا شاكيا ما حل به من بلاء :

« إن كان شقائي مني انا نفسي فممن ابتغي انصافي » . ثم يعترف رغم علمه وحكمته بجهله عندما يتحدث عن الانسان : « عديدة هي نجوم السماء التي لا تعرف أسماؤها ! كذلك هو الانسان لا يعرفه أحد ! » .

اليسست هي عين الحكمة على معبد دلفي : « أعرف نفسك ! » اليس هذا ما قاله سوفوكليس أيضا :

« ما أكثر عجائب هذا العالم وما أكثر غرائبه ، لكن ليس أعجب ولا أغرب من الانسان ! » .

ولعل حكيم المعرة قد تجاوز حكيم آرام محققا في البيت الرائع : اتحسب انك جرم صغير وفيك استوى العالم الاكبر ؟ ..

خاتمة :

عند قدوم الهلنيين الى الشرق مع جيوش الاسكندر المقدوني انتهى دور الارامية الرسمي بحلول اليونانية محلها لغة للثقافة والادارة . وبفقدان الارامية للعامل الاساسي في وحدتها مع انهيار الادارة الفارسية المركزية ، اخذت تنتصر العوامل المحلية والاقليمية فانقسمت الارامية وتفرعت الى لهجات بالكلام واساليب الكتابة والخط . لكن ميدان

انتشارها بقي واسعا جدا بعد ان اوضحت لغة اليهودية الى جانب العبرية واكتسبت مكانة مقدسة بعد ان اوضحت الارامية السريانية لغة المسيح وحوارييه وتلاميذه . وقد وقع الفتح العربي في وقت كان فيه الادب السرياني في أقصى درجات تطوره ، واستمر ازدهاره في الحضارة العربية حتى القرن العاشر . . ونستطيع ان نقول ان حركة انسانية Humanisme عربية سبقت انسانية الغرب بقرون قامت في دمشق وبغداد ومدن المشرق العربي حلب والرقه وحران وطرابلس وانطاكية على اساس الاتصال بالعلوم والمعارف التي قدمتها الحضارات القديمة ، وكانت السريانية التي احتفظت بدور مواز للعربية في الاوساط العليا الفكرية أداة الاتصال الى ان أخذت العربية تنتصر بالتدريج لتصبح لغة المحادثة والحياة العامة قبل ان تصبح لغة التعليم والكتابة والتأليف للسريان وغيرهم (٢٢) . واستمر هذا التراجع متباطئا حتى القرن الرابع عشر ، لكنه تسارع حتى القرن السابع عشر ، فانحصرت السريانية في بعض المناطق مثل معلولا وجبعدين وبخعة وبعض مناطق الجزيرة العليا وطور عابدين ، وتوقف الانتاج الادبي الارامي تقريبا لتبقى بقايا الارامية لغة طقسية تردد أصداء ثقافة عريقة وحضارة قديمة .

هكذا كان دور اللغة الارامية ودور ادبها التاريخي جسرا عريضا مديدا اتصل بالعربية وثقافتها الحية المتجددة القائمة منذ قرون .

الحواشي :

- (١) ومنها نماذج فارسية مترجمة الى الارامية عثر عليها بين ملفات فيلة في مصر .
انظر :
- A. Cowley (ed.) , *Aramaic Papyri of the fifth century B.C.* (Oxford, 1923) , 204 - 248 .
- (٢) مار افناطيوس افرام برصوم ، الالفاظ السريانية في المعاجم العربية (دمشق ١٩٤٨-١٩٥١) .
- (٣) سفر التكوين ، ١١ : ٢٨-٣٢ ، ٣١ : ١٧-٣٠ ، ٢٩ : ١ .
- (٤) حول تفرع الاراميين من الاخلامو :
- J. A. Brinkman, *A Political History of Post - Kassite Babilonia 1158-722* (Rom 1968) .
- (٥) تتبع طريق حملات تكلات بلاصر الاول ، راجع :
- J. Starcky, *Palmyre, l'Orient ancien illustré* , (Paris 1952) , 28.
- (٦) انظر مراحل الصراع في:
- P. Garelli, V.Nikoprowetzky, *Le Proche - Orient Asiatique II*, (Paris P.U.F. 1974), P. 110.
- (٧) A. Abou Assaf, P.Bordreuil, A.R. Millard, *La statue de Tell Fekheryé et son inscription bilingue assiro - araméenne* (Editions Recherches sur les civilisations, (Paris 1928) , cahier No 7.
- (٨) انظر مثلا :
- H.Farzat, « Encore sur le mot TQm » *Semitica*, (Paris 1968).
- (٩) A. Dupont-Sommer, « Littérature araméenne » *Histoire des Littératures I*, (Pléade, Paris 1955) ,P. 633
- (١٠) انظر : معمود العابدي ، مخطوطات البحر الميت (عمان ١٩٦٧) .
- (١١) انظر النص بالارامية في :
- John C.L. Gibson, *Textbook of Syrian Semitic Inscription. vol. II*, (Oxford 1975) p. 8.
- (١٢) الترجمة الى العربية من عمل مؤلف البحث .
- (١٣) انظر النص بالارامية في نقش سفيرة الاول (السطور ١٤-٣٠) ، راجع الطبعة الاساس :
- A. Dupont - Sommer , et J. Starcky, *Les inscriptions araméennes de Sefire*, (Paris 1958) pp. 4-5.

ايضا :

- H. Donner-W. Röllig, *Kanaanäische u. Aramäische Inschriften* (Otto Harrassowitz. Wiesbaden 1973), p. 238, No 222-224.
- H Donner-W. Röllig, *KAI*, II. No 215,9-15; (١٤)
- idem, No 216. (١٥)
- Abou Assaf et Bordreuil et Millard, *Op. Cit.* (١٦)
- انظر : (١٧)
- A. Lemaire et J.M.Durand , *Les inscriptions Araméennes de Sefiré et l'Assyrie de Shamshi Ilu*, (Paris 1984).
- L. Delaporte, *La Mesopotamie, l'Evolution de l'Humanité*, (Paris 1923); *Epigraphes Araméennes* (Paris 1912), p. 23. (١٨)
- KAI*, 226; J.Gibson, *Op. cit.*, No 19,p.79. (١٩)
- F. Altheim, R.Stiehl, *Die Araber in der Alten Welt*, Ier Band, (Berlin 1964), « Aramaisch als Weltsprache » , PP. 181 - 236. (٢٠)
- A. Caquot, *"Leçon Inaugural"*, (Collège de France 1972) . (٢١)
- انظر هذه الرسائل في : (٢٢)
- G. R. Driver, *Aramic Documents of the fifth century B.C.* (Oxford 1954), 1957.
- وانظر دراسات بورتن وغرولو (بالانكليزية والفرنسية) :
- B.Porten , *Archives from Elephantine* (Berkeley 1968) ; P. Grelot , *Documents Araméennes d'Egypte*, (Paris 1972).
- A. Dupont-Sommer, *La Littérature araméenne*, *Op. Cit.* (٢٣)
- idem. (٢٤)
- جورج حداد « حكمة الوزير احيقار واثرها في الادب العالمي » مجلة الحوليات الاثرية السورية ، دمشق ١٩٥١ ، ص ١٠ - ٢٨ . كان الدكتور حداد من اوائل من نبه في اللغة العربية الى اهمية احيقار في الادب الارامي والاداب العالمية .
- G. Lefébvre, *Romans et Contes Egyptiens de l'Epoque Pharaonique*, (Paris 1949); (٢٥)
- وبالعربية انظر ايضا : جون ولسون (ترجمة احمد فخري) ، الحضارة المصرية ، القاهرة ١٩٦٠ .
- J. A. Wilson, dans *ANET*, pp; 412-424.
- P. Grelot, *Documents Araméennes d'Egypte*, pp. 427 - 429.
- راجع حول الاصل السامري لقصة احيقار : (٢٦)
- J. Van Dijke, *Afo* (Archiv für Orientforschung) 1939, pp. 215-218;

J. C. Greenfield, JAOS (Journ. of the Am.Or. Society), 1962, P.293ss.

L. Oppenheim, *La Mésopotamie* (Paris 1970) = *Ancient Mésopotamia* (1964) P. 380.

(٢٨)

R.Labat *Les Religions du Proche-Orient*, (Paris 1970) .

وحول القصة انظر :

L. Oppenheim, *La Mésopotamie* p. 274 et n.46 p.380.

A.D.S., « Litterature araméenne » *Histoire des Litteratures*, p.642.

(٢٩)

انظر النص في الانكليزية وفي الفرنسية في :

(٣٠)

Cowly, *Op. Cit.*, pp.204 ff.; P. Grelot, *D.A.E. Op. Cit.* ; A.Dupont - Sommer, *Op. Cit.*

انظر المراجع السابقة نفسها . تعريب حكم احيقار هنا هي من عمل المؤلف .

(٣١)

انظر الدراسة للباحث محمد عبد الحميد حمد ، ، مار ديونيسسيوس التامحري ، من وقائع الندوة الدولية لتاريخ الرقة واثارها ، ١٩٨١ ، منشورات المديرية العامة للآثار والمتاحف .

(٣٢)

الابلائية لغة مدونة في وثائق ملكية

د. سري الكجك

خلفت لنا الحضارة الإبلائية ، التي عاشت في سورية في الالف الثالث قبل الميلاد، سجلات يزيد عددها على ستة عشر الف رقيم ، مكتوبة بكتابة مسمارية مقطعية ، تحكي قصة هذه المملكة وأحداث عصرها . فأين وجدت هذه المخطفات ...؟ وعم تتحدث ...؟ وبأي فترة كتبت ...؟ وما هي اللغة التي دونت بها ...؟ هذا ما سنحاول الاجابة عليه في مقالنا هذا .

لسنوات قليلة خلت ، كان علماء الآثار والحضارات الشرقية ، متفقين على ان سورية ، خلال العصر البرونزي القديم ، كانت بلادا واقعة تحت السيطرة الرافدية، وتحوي العديد من المدن والواحات التجارية ، التي كانت بمثابة صلة الوصل ما بين بلاد الرافدين ومصر ، او شواطئ المتوسط . وظل هذا الرأي سائدا على الرغم من العثور على عدة كتابات يرد فيها اسماء مراكز حضارية الى غربي الفرات . ولم تأخذ هذه الوثائق أهميتها الحضارية الا فيما بعد .

كان مجد الحضارة السورية عند علماء الاشوريات ، يبدأ من ماري في عصر زيميرليم (الفترة البابلية القديمة) ، حيث جلت المكتشفات الاثرية السجلات الملكية لماري ، والقصر الملكي العائد للالف الثاني قبل الميلاد(١) . وحتى هذا الكشف اعتبر بشكل او باخر رافديا ، لان ماري كانت تخضع احيانا للسيطرة الرافدية ، لاهميتها كموقع متقدم على الحدود الرافدية . وتلا هذا مجد اوغاريت وابجديتها العالمية ، ونادرا ما تذكر كتب الشرق القديم ، حتى الحديث منها ، وخاصة المؤلفات باللغة

العربية ، الحضارة السورية الراقية التي عاشت قبل ذلك ، وتركز الاهتمام على حضارة بلاد الرافدين فقط ، خلال الالفين الرابع والثالث قبل الميلاد .

ان التنقيبات الاثرية المثمرة عن الحضارة السورية في الالفين الرابع والثالث قبل الميلاد ، لا يزيد عمرها على العشرين عاما . وقد بدأت بالكشف عن معابد قديمة على ضفة الفرات اليمنى ، اثناء عمليات انقاذ آثار الفرات عند بناء السد ، على يد بعثة بلجيكية (٢) وقد اعتبرت آنذاك اثارا سومرية ، واصبح جليا ان هذا غير اكيد بعد الحفريات الابلائية التي اجرتها في تل مردوخ البعثة الاثرية لجامعة روما .

وفي الحقيقة لعب الحظ والمصادفة دورا كبيرا في الكشف عن الحضارة الابلائية ، وحتى البعثة المنقبة لم تكن تتوقع انها بصدد العثور على حضارة مهمة ، بل مملكة ضخمة . حتى ان اسم إبلا الذي ظهر على اكثر من قطعة اثرية في الموقع ، لم يكن يعني الشيء الكثير ، وان كان هذا الاسم قد ورد اكثر من مرة في وثائق رافدية ، منها هذان النصان لوثيقتين تعودان الى العصر البرونزي القديم (الالف الثالث قبل الميلاد) ، لاهم ملوك اكاد ، صارغون و نارام-سن ، يرد فيها ذكر مدن اجتاحتها خلال حروبهما ، وحددا مواقعها بانها في الشمال باتجاه البحر .

يقول صارغون (٣) : « صارغون الملك ، سيسجد في صلاة في تيتول امام دجن . دجن قد اعطاه البلاد العليا : ماري ، يرماني ، إبلا ، حتى غابة الصنوبر وجبال الفضة » . ويقول نارام-سن (٤) : « ابدا منذ بدء الخليفة ، لم يستطع أي ملك من الملوك تدمير ارمانوم وابلا ، في . . . » ، نرجال قد فتح طريق نارام-سن القوي ، واعطاه ارمانوم وابلا وقدم له كذلك الامانوس ، جبل الارز والبحر العلوي وبفضل جنود دجن ، واشعاع مجده ، نارام - سن القوي ، هزم ارمانوم وابلا ، ابتداء من شاطيء الفرات حتى السوم ، لقد تحدى الاشخاص الذين وهبهم دجن له ، والذين سيحملون السلال لابا إلهه ، لقد سيطر على الامانوس وعلى غابة الارز » .

يبدو واضحا ، ان صارغون ، في وثيقته ، مسرور بانتصاره على إبلا وماري ويرماتي ، هذا النصر الذي اوصله الى غابة الارز وجبال الفضة . ولكن نصه قصير ، مما يدل على ان النصر كان مهما وليس حاسما ، أي ان إبلا ربما هزمت ولكنها لم تدمر ، كما ورد في نص حفيده نارام-سن الذي تبدو سعادته اكبر بنصره ، فهو قد دمر مدنا لم يستطع تدميرها أي ملك منذ بدء الخليفة ، وقد كرر فخره اكثر من مرة بهذا النصر ، وبدأ وثيقته بزهو عظيم . واما نتيجة انتصاره فهي كما ذكر جده ، كانت الوصول الى غابات الارز وجبال الفضة ، او بمعنى اخر الوصول الى منابع المواد الاولية .

وهنا يحضرنا السؤال التالي : هل كانت إبلا على درجة من القوة العسكرية والسياسية بحيث لم يستطع أي ملك من قبل تدميرها والانتصار عليها . . ؟ إذا صح ذلك فهو يقلل من قيمة نصر جده ، وهل كانت من القوة الاقتصادية بحيث سيطرت على منابع الثروة ، اذ على الأرجح قصد كلا الملكين بغابة الارز جبل لبنان ، وبجبل الفضة بلاد الاناضول . هذه الاسئلة جعلت مؤرخي هذه الفترة يستبعدون ان تكون إبلا في سورية ، فالطبيعة الجغرافية لا تعطي هذه المؤهلات لمنطقة في سورية . دعم هذا الرأي وثيقة اخرى وجدت في الالاح ، فاختلفت اراء الباحثين ، حول موقع إبلا ، وبقي لفزها ، والمدن الاخرى التي وردت في النص باستثناء ماري ، قائما ، كالكثر من الفاز الحضارات القديمة ، وغاب عن الازهان ربط النصين السابقين مع اقدم خريطة في العالم ، عثر عليها في جصور (في العراق) تعود لفترة الامبراطورية الاكادية (نحو ٢٣٦٠ - ٢١٨٠ ق.م) ، ذكرت فيها إبلا تحت اسم (مشكن - دور إبلا) او (مشكن - باد - ابلا) ، الاسم الذي ربما كان الاسم السومري للمدينة (٥) .

استمر عمل بعثة تل مردوخ (إبلا) منذ عام ١٩٦٤ وحتى ١٩٧٣ دون الوصول لنتائج مشجعة . فقد تم الكشف خلال هذه المدة عن آثار مدينة تعود الى العصر العموري في المنطقة ليس في مخلفاتها ما هو فريد من نوعه ، ومع ذلك استمر عمل البعثة في التنقيب في الاعوام اللاحقة . وفي عام ١٩٧٤ تم العثور على أولى مخلفات الحضارة الابلائية وهي عبارة عن ٤٢ سجلا وثائقيا ملكيا ، اثار العثور عليها ضجة عالمية كبيرة على الصعيدين العلمي والصحفي ، وتعددت حولها الاراء . وهكذا غدا من المؤكد بالدليل ان ابلا المفقودة هي في سورية ، على بعد خمسة وخمسين كيلومترا جنوبي حلب ، وسبعة كيلو مترات جنوب شرقي سراقب ، في موقع تل مردوخ الاثري (٦) . وبتتالي سنوات التنقيب ، اخذت الحضارة الابلائية ، عمارة وآثارا ، طريقها الى النور من جديد . كان هذا الكشف جميلا وجذابا للمهتمين والفضولين ، المفرض منهم والمخلص ، ومع هذا لم تكن إبلا قد قدمت اجمل ما فيها ، حتى عام ١٩٧٦ ، حيث تم العثور اثناء التنقيب ، وبطريق الصدفة ايضا ، على الكنز الذي لم يكن من ذهب او فضة ، بل اكبر قيمة واكثر فائدة ، انه سجلاتها الملكية المكتوبة بكتابة مسمارية مقطعية ، وهكذا توصلنا الى رسول صادق أمين ، يحدثنا عما كان يجري منذ خمسة الاف سنة على ارض الشرق القديم ، وسيطول حديثنا عنه سنوات . فآين وجدت هذه السجلات . . ؟ وما فحواها . . ؟

وجدت هذه السجلات بكاملها في رحاب القصر الملكي المسمى (ج) ، الذي يعود الى سلالة اكريش - ظلم التي حكمت ما بين (٢٤٠٠ - ٢٢٥٠ ق.م) . بنسي هذا القصر في قمة تل مردوخ ، مطلا على المدينة في هندسة فنية رائعة ووفق خريطة اعدت

سابقا ، مما هو جديد كل الجدة في عصره . وهذا موضوع لا مجال للحديث عنه الان .
تم العثور على السجلات ، بشكل اساسي في صاليتين ، اولاهما كانت مخصصة لديوان
السجل وهي الصالة (ل ٢٧٦٩) ، وضمت اكبر عدد منها ، حيث قارب عدد ما جمع
حوالي (١٤) ألف رقيم ، حفظت على رفوف خشبية متتالية من اسفل الى اعلى تبعا
لثقلها وحجمها ، ورتبت تبعا لموضوعاتها ، والثانية هي (ل ٢٧١٢) حيث عثر على
(١٠٠٠) لوح ذات ملامح زراعية ، وهذه الصالة كانت عبارة عن مخزن وتقع خارج
القسم الاداري للقصر ، (٤٠٠) لوح تقريبا ذات ملامح اقتصادية وتاريخية ، وادارية
وجدت في بهو القصر في الصالة (ل ٢٨٧٥) ، (٥٠٠) لوح وجدت في القسم الشرقي من
الجناح الاداري للقصر ، ذات ملامح اقتصادية (ل ٢٧٦٤) ، كما وجدت حوالي (٢٠)
لوحة في ساحة القصر ، كانت حتما قيد الكتابة عندما هدم (٧) ، اذ يبدو واضحا جدا
ان القصر قد احرق على حين غرة ، فحتما لم يكن ملك إبلا يتوقع الهزيمة امام
مهاجميه ، وخراب مدينته واحراق قصره ، هذا ما كان له نتيجتان : احداهما سلبية ،
فقد فقدنا اجمل تحف وآثار القصر الفنية ، التي سرقت قبل احراقه ، وما ترك من
اثاث جميل كان خشبيا فاحترق . والثانية ايجابية تتمثل في كون نصوص الرقم
الطينية ، قد حفظها الحرق من البلى فشويت ، مما شوه منظرها ولكنه حافظ على
نصها وتماسكها .

وهكذا نلاحظ ان ما خلفته لنا الحضارة الابلائية من نصوص ، تناولت كل
مجريات الحياة اليومية في القصر الملكي ، الذي تعاقب على حكمه ستة ملوك من سلالة
واحدة ، هي سلالة اكريش - خلم ، الذي لا نعرف تماما (حاليا على الاقل) كيفية
وصوله للسلطة ، ودام حكم هذه السلالة زهاء ثلاثة قرون اعتلى عرش ابلا فيها على
التوالي بعد مؤسسها اكريش - خلم ابنه اركاب - دامو ، فابنه ايرانيوم ، وتلاه
ابريوم الذي سجل عهده الكثير من الانتصارات والامجاد ، تلاه ابي - سيبش ،
فدبوخا - ادا ، الذي يرجح كونه صغير السن عندما تولى العرش ، وفي عهده دمر القصر .

تميز ملوك هذه السلالة بانهم كانوا من كبار الموظفين قبل توليهم العرش ، وبمعنى
اخر كان كل واحد منهم وزيرا لوالده عندما كان ولي عهده ، وهنا لابد لنا من الاشارة
الى عدم صحة النظرية القائلة باغتصاب ابريوم للعرش بعد ايرانيوم ، اذ ليس في
السجلات ما يشير لذلك .

تنقسم السجلات الابلائية كما رأينا الى عدة أنواع حسب موضوعاتها ، اولاهما
تاريخية سياسية ، كالنص (TM 75.G.2231) (٨) الذي هو عبارة عن نص مدرسي
يحتوي (٢٨٩) اسما جغرافيا ، يعتبر نسخة عن نص سومري وجد في ابو الصلابيخ في

العراق ، قام بترجمته البرفسور بيغز Biggs (٩) يتميز النص الابلائي بكماله وكونه اطلسا ممتازا لمنطقة الشرق القديم في عصره ، ويكونه مدونا بكتابة مسمارية مقطعية سهلة القراءة اذا ما قورنت مع السومرية التصويرية ، مما يجعل قراءة الاسماء اصح واسلم ، كذلك يفتح هذا النص مجالا مناسباً للدراسة اللغوية المقارنة بين السومرية والابلائية ، وسنتطرق الى ذلك فيما بعد . في نصوص اخرى نجد العلاقات السياسية الابلائية ، التي كانت ذات انماط متعددة ، منها علاقات مع مدن وممالك خاضعة للسيطرة الابلائية المباشرة جاوز عددها السبع عشرة (١٠) ، واخرى مع ممالك خاضعة للسيطرة الابلائية غير المباشرة ، تقدم الجزية السنوية ويكون جيشها على استعداد دائم لخدمة التاج الابلائي ، كملكة ماري التي ما ان حاولت التمرد على هذا النوع من الاستعمار ، في عهد ملكها ايلول ، حتى ارسل ايرانيوم ملك ابلا جيشا جبرا ، بقيادة انا - داکان ، اخضعها من جديد وقتل ملكها ، وعاقب شعبها بان ولى القائد الابلائي نفسه عرشها (١١) ، وثالثها ممالك صديقة تربطها مع ابلا معاهدات دفاع مشترك ، كاشور .

النوع الثاني من السجلات اقتصادي ، كالنص (TM 75.6.1591) (١٢) الذي يتحدث عن مبادلات إبلا التجارية الواسعة ، ذكرت فيه اسماء (٧٨) مدينة كانت إبلا قد صدرت لها واستوردت منها ، اكثرها غير معروف لنا حاليا ، والنادر الذي عرف منها يدل على السعة الكبيرة جدا للعلاقات التجارية الابلائية في عالم الشرق القديم .

ان هذا النوع من التنظيم الاداري لم يسبق له مثيل في بلاد الرافدين ، فاسماء المدن التي ذكرتها السجلات الابلائية ، والتي كانت مجهولة تماما بالنسبة لنا ، تعد بالآلاف . ومن المدونات المهمة التي حوتها السجلات ، المدونات المدرسية ، التي كانت بمثابة وثائق لطلاب سيفقدون موظفين في الدولة ، لذا حرصت الدولة على ثقافتهم ، ونوعية معلوماتهم ، والاحتفاظ بمدوناتهم مهورة باسمائهم واسماء معلمهم ، وحتى مدارسهم ، ومن الجدير بالذكر ان هذه الوثائق مهمة جدا لمعرفة المعلومات التي كانت تقدم للطلاب الابلائي ، والتي هي بالتالي خلاصة علوم عصره وحضارته .

بالاضافة الى الانواع التي ذكرناها سابقا ، ضمت السجلات الملكية مدونات كثيرة ، منها ما يختص بعقود الملكية الزراعية ، والسقاية المائية ، والصناعات ، ونصوصا دينية واسطورية (١٣) ، بالاضافة الى المدونات الادارية اليومية (١٤) .

كل ما ذكرناه عن السجلات الملكية الابلائية ، هو حقيقي وسهل المعرفة سواء من حيث عددها ، ام من حيث مضمونها العام . ولكن تأريخ فترة تدوين هذه السجلات

ليست بالسهولة نفسها . وللوصول الى هذا الهدف هناك وسيلتان : اولاهما المخطفات الاثرية . وثانيتهما ، المخطفات الكتابية . بالنسبة للنهج الاول ، هناك الخزف الابلائي لمردوخ، ١٢ب ١ IIB1 ، واختامه الاسطوانية ومخطفاته الفنية ، وكلها تمثل الدوق الشرقي في الفترة الاكادية ، مع احتفاظها بكثير من الميزات الخاصة (١٥) . بالنسبة الى السبيل الثاني ، وهو النصوص ، فلدينا في السجلات الابلائية دليل واحد اكيد حاليا ، وهو معاصرة ملك ماري ابلول لل ملك ابلا ايرانيوم (١٦) . اما الدليل الثاني لتأريخ هذه النصوص ، فهو بقايا هديتين فرعونيتين كانتا قد ارسلتا للبلاط الابلائي ، اولاهما : قطعتان من بقايا كاس من الديوريت ، تحمل كل منهما سطرا من الكتابة الهيرغليفية ، حيث كتب اسمان من اعظم اسماء الفرعون الرابع من السلالة الرابعة ، منف ، والثانية غطاء وعاء مرمرى يحمل اللقب الاول للفرعون الثالث من السلالة السادسة بيبى الاول (١٧) . ولما كنا نعرف بالتحديد زمن حكم هذين الفرعونين يمكننا بالتالي تحديد فترة وصول هذه الهدايا للقصر الابلائي . ولكننا هنا نقف امام مشكلة تاريخية مهمة ، وهي معرفة طبيعة العلاقات الابلائية المصرية ، حيث ان النصوص المصرية لم تذكر ابلا الا كمدينة عبرها الفرعون تحوتمس الثالث ، في طريقه نحو الفرات (القرن الخامس عشر قبل الميلاد) . اما نصوص ابلا فلم يعثر فيها حتى الان على ما يشير الى طبيعة علاقاتها مع مصر ، مع اننا امام دليل مادي على هذه العلاقة .

من المرجح ان يكون كاس الديوريت ، قد قدم هدية للبلاط الابلائي قبل وصول سلالة اكريش - خلم الى الحكم بعشرات السنين ، وحفظ في القصر كهدية ثمينة . اما الفطاء المرمرى الذي يحمل اسم بيبى الاول ، فيرجح انه نقل الى ابلا عن طريق وسيط ، وليس بشكل مباشر ، وما يدعونا لهذا الافتراض ، هو ما ذكر في السجلات الملكية الابلائية ، عن تصدير كميات هائلة من البضائع لجبيل (١٨) ، لا يعقل ان تكون لاستهلاكها المحلي ، بل لتنقلها بدورها الى مصر ، وجبيل خبرت التعامل مع البلاط الفرعوني ، وكانت دوما صلة الوصل ما بين مصر وسورية .

امام هذه المخطفات الفرعونية ، نقر بحقيقة مهمة ، وهي ان مملكة ابلا (سوية مردوخ ١٢ب ١) ، لم تهدم قبل حكم بيبى الاول ، انما اثناء او بعد حكمه . وباجراء مقارنة زمنية بين حكم هذا الفرعون وملوك اكاد ، نستطيع القول ، بان نهاية القصر الملكي ج ، كانت على يد نارام - سن الاكادي ، داعمين قولنا هذا بالنصين اللذين ذكرناهما في بداية مقالنا هذا ، واللذين من خلالهما ومن خلال العديد من المعطيات التاريخية واللغوية الابلائية التي سنتطرق لها فيما بعد ، نستطيع تماما تصور نهاية ابلا بقصرها وسلالتها الحاكمة على يد نارام - سن نحو ٢٢٥٠ ق . م .

قبل دخولنا في مجال دراسة اللغة الابلائية ، نود الإشارة الى الخطوط العريضة للمناقشات التي تعرضت لها نصوصها ، ففي الواقع عندما اكتشفت السجلات الابلائية كان ذلك حدثا مذهلا ، اولا لوفرتها بشكل لم يكن يتصوره أي باحث في هذا المجال ، وثانيا لكونها مكتوبة بكتابة مسمارية ، لم يجد علماء اللغات السامية ، بشكل عام ، صعوبة في قراءتها . وهنا اختلفت الآراء ، فمنهم من اعتبرها لهجة من اللهجات الاكادية ، كما كانت تعتبر لغة ماري سابقا ، وآخرون أصروا على ابتعادها عن الاكادية ، وتقاربها مع السامية الغربية ، أي الفينيقية والعبرية القديمة ، وآخرون ذهبوا لابتعاد من ذلك ، فجعلوها اصل العربية وقاربوها عن لغة عرب الجنوب ، حتى من الاثيوبية ، هذا الى جانب آراء أخرى اصرت على اعتبارها لغة سامية مستقلة تقترب من الاكادية والعمورية . وبين هؤلاء كان المنطقي والخيالي . واستخدم الصهاينة هذا الكشف استخداما رخيصا وصل بهم الى حد الادعاء بان ابراهيم عند عبوره (حسب قصة التوراة) من الرافدين لارض الميعاد ، مر بابلا واستقر بها لفترة ، وجعلوا من الابلائية عبرية قديمة ، ومن الملك ابريوم ابراهيم ، وما الى ذلك من ادعاءات بعيدة عن العلم والحقيقة ، واخذت الصحافة العالمية الصهيونية تروج لهذا النبأ ، لدرجة انها اتهمت سورية باخفاء النصوص وانكار الحقيقة .

كل هذا اثير عند بداية الكشف الابلائي ، ولكن حاليا ، وبعد مرور اكثر من عشر سنوات على هذا الاكتشاف ، اخذت آراء عديدة تقر بالحقيقة وتراجع عن أخطائها السابقة ، وكتب حول هذا الموضوع عديد من الخبراء ، وغدت الابلائية تدرس من قبل اهل الاختصاص بطرق علمية بحتة .

في الحقيقة ، اننا منذ بداية مقالنا هذا سمينا لغة إبلا الابلائية ، لانها لغة مستقلة وليست لهجة اكادية ، او لهجة لغة أخرى ، وهذا ماسنحاول التعرف عليه في السطور اللاحقة .

ذكرنا سابقا ان السجلات الملكية الابلائية مكتوبة بالمسمارية المقطعية ، وهي في مظهرها العام تشبه السومرية اكثر من الاكادية ، اذ انها مكتوبة باعمدة ضيقة جدا ، وزوايا الرمز المسماري حادة وطويلة وغير مملوءة القمة ، وهي طريقة اتبعت في نصوص فارة وابو الصلابيخ السومرية ، هذا وان استعمالها للرموز السومرية يدل على انها لغة ذات مؤشرات صوتية اكثرها من سواها (١٩) . أما ترتيب الرموز فيها فيتبع العناصر اللغوية (٢٠) ، وهذا ما اتبع في النصوص الاكادية القديمة (ما قبل الفرعونية) ، ونصوص فارة وابو الصلابيخ ، وكذلك نصوص لاغاش في عهد اياناتوم ، وفي اوما في عهد لوكال زاكيزي . ولعله من المفيد ان نذكر هنا انه غدا من المرجح ان النصوص

المدرسية التي اكتشفت في ابو الصلابيخ وفارة ممهورة بالعديد من الاسماء السامية،
ترد حاليا الى طلبة ابلاتين ارسلا ببعثات دراسية الى هاتين المدينتين ليعودوا اساتذة
في بلادهم (٢١) ، فالعلاقات الثقافية في ذلك العهد البعيد كانت متطورة . اكثر من حدود
تصورنا .

عندما درس البرفسور بيغز هذه الاسماء ، واكد انها سامية وليس سومرية ،
اعتبرت لغزا محيرا ، اذ انها كتبت في فترة لم تكن فيها اكاد قد نشأت بعد ، وهنا
تجدد الاشارة للملاحظة هامة ، وهي انه غدا واضحا عن طريقة الكتابة الابلائية وعلاقاتها
الطيبة مع السومريين ، ان ابلا اقدم نشأة وبناء من اكاد ، وهكذا كانت تستقي من معين
سومر العريق والمتطور ، مع المحافظة على منابعها الخاصة ، مما جعل الحضارة
الابلائية ، على كافة الاصعدة ، تسبق عصرها في كثير من الاحيان .



وماذا عن خصائص اللغة الابلائية . . . (. بدىء بدراسة اللغة الابلائية منذ العثور
عليها ، واول من فعل ذلك هو البرفسور بيتناتو ، الذي كان لغوي البعثة الايطالية (٢٢) ،
ثم درسها البرفسور الاميركي جلب (٢٣) ، وتلا ذلك تشكيل لجنة دولية مؤلفة من
عشرة اعضاء . وسنحاول هنا التعرف على خصائص هذه اللغة .

الفعل : الافعال متوافرة بكثرة في اللغة الابلائية ، واليكم بعضها منها ، كما اوردها
بيتناتو في ترجماته : جنفار دامو = Jinhar-Damu داموا مصاب ، جيبخور ملك
= Jiphur-malik ملك قد حصد ، جيشمع ال = Jisma-il هو يسمع ، جيدين
كاميشس = Jiddiñ-Kamiš كمش قد اعطى ، جيبسورني = Jipturni
هو قد حررني أو حررنا . . الخ .

من الملاحظ ان الافعال السابقة ، قد بدأت بمقطع سبق الفعل ، للمفرد المذكر
الفائب ، وكانت جي Ji ، وانها جميعا على وزن جيكتل Jigtul فهل هذا
الوزن يدل على زمن الفعل ، أو مظهر من مظاهره ، اذا كانت الحالة الاولى فالفعل في
الماضي ، فكيف يقاس المضارع او المستقبل منه واذا كان مظهرا من مظاهره فاين
الفعل التام والفعل الناقص . .

يجمع بيتناتو وجلب على اعتبار جيكتل Jigtul كزمن الفعل الماضي ، كما هو

الحال في كتب =Ktub كتب ، وعليه يجب ان يكون المضارع والمستقبل على زمن جيكتيول Jiqqat/i/ul أي باضافة ياء المضارعة ، كما هو الحال في الاكادية، وعليه وزن بيتناتو الفعل الماضي على كتل qatal وعلى وزنها = qatab كتب ، وهذا ما يجعلها تتوافق مع اللغات السامية الغربية ، هذه النقطة لم تؤكد بعد ومازالت قيد المناقشة .

مصدران فقط عرفا حتى الان في الابلائية هما اخدوم = aḥazum
خطف او حجز (٢٤) ، ومخزيدا maḥazida ضرب (٢٥) .

الاسم : في دراسة الاسماء يفضل دوما اللجوء الى الاسماء الشخصية ، حيث ان الدراسة اللغوية من خلال الاسماء ، تختلف عن تلك التي تتم من خلال النصوص ، وتعطي دوما نتائج اسلم .

لقد عرف الابلاطيون نوعي الاسم : المذكر والمؤنث ، و اضافوا للاسم المذكر لاحقة اوم (um) ولل اسم المؤنث لاحقة توم (tum) ، كما في ملكوم = malikum ملك ، وملكثوم = malikatum ملكة ، وكما في تيهاماتوم = Tihamatum المحيط المنخفض (مذكر) وفي مبشتوم = muplistum حياة (مؤنث) .

الفاعل : للفاعل اضيف لاحقة يو (u) ، كما ورد في اسماء احد عشر تلميذا في اللوائح المدرسية (٢٦) . واما اسماء الملوك فقد اضيف لها في اخرها ا (a) او ك (Q) كما هو الحال في الاكادية القديمة ، وكتبت اسماء الالهة على الشكل التالي : داجان كنانيم Dagan Kama naim دجن الكنعاني ، وهنا كنانيم هو اسم ارض كنعان ، تقاربها في العربية كنانة .

الضمائر الشخصية المنفصلة : انا (ana) وهو ضمير المتكلم المفرد ، كما في المثال =A'na malik أنا ملك ، يظهر هذا الضمير في اللغة العمورية بينما يندر استعماله في الاكادية ، وانا واني تستعمل كضمير متكلم في العديد من اللغات السامية الشمالية كذلك (٢٧) .

انت =anta أنت : ضمير المخاطب المذكر المفرد ، تاتي بهذا الشكل في حالة الفاعل ، وكواتي Kuwati في حالة المفعول به ، اما في حالة الجمع فهي امانو =amanu أنتم ، وفي الاكادية استعملت كذلك كواتي كمفعول به وشواتي ايضا Suwati واستعملت شوا =Šuwa هو وشواتي ؛ كضمير المفرد الغائب، وللفاعل تستعمل شوا Su-wa وللمفعول به شواتي .

الضمائر الشخصية المتصلة : وهي على نوعين ، نوع يستعمل مع الاسماء ، واخر مع الافعال . مع الاسماء : هي النون والياء ، فالياء استعملت لاحقة الشخص المتكلم ، كما في توبي ديلو = Tūbī-Dilu ديلو هي إلهتي ، ومن الجدير بالذكر ان هذه اللاحقة مشتركة في جميع اللغات السامية . نا أو ني ، هي لاحقة الجمع المتكلم كما في المثال ربما حادا = Rima-Hadda حادا كاهننا ، عبدني = E' bduni = عبدنا (٢٨) .

شو Šu : لاحقة المذكر المفرد الغائب ، وتكتب سود او شو SuD او Šu هذه اللاحقة لوحظت ايضا في نصوص ماري ما قبل الصرغونية ، والاكاكية وليس في العمورية والاوغاريتية والعبرية (٢٩) .

مع الافعال : الضمير المتصل بالافعال هو ني (ni) سواء في حالة المفرد ام الجمع ، مثال جيبني ليم = Jibbi'ni - lim ليم دعاني او دعانسا ، جيبسورني = Jipturni هو اعتقني او اعتقنا ، هذا الاستخدام وارد كذلك في العربية والعبرية ني - نا .

أداة الإشارة : في الابلائية اميجيوم ammijum (٣٠) = هذا وهذه ، هذه الاداة تاخر ظهورها في اللغات السامية الاخرى ، حتى الالف الثاني قبل الميلاد ، فهي في الاشورية مثلا انجيوم annijum ومعناها هذه .

أداة النسبة : هي شي šī (٣١) ، يماثلها شا - شو - شي ša - šu - šī في الاكاكية القديمة والعمورية ، أما في لغة ماري في عهد سلالة أور الثالثة ، فهي سا - سي - شو sa - si - šu (٣٢) ، وفي استعمالاتها لا يوجد فرق واضح مع الجنس او العدد .

أداة الاستفهام : هي مي (mi) = من او ما ، كما في المثال مي - كا - ال mn-ga-'il = من يحب إل ، ان ما الاستفهامية في الابلائية ، تماثل ما الاوغاريتية والعبرية القديمة والمارية (ما قبل الصرغونية) ، ولكنها تختلف عنها في الاكاكية والعمورية فتكون من man = من العربية .

أداة التذكير : هي مينااما = mi nana ma اي شيء ، وهي ترد هكذا في النصوص الابلائية (٣٣)

أداة العطف : استعمل في الابلائية حرف الواو (W) للعطف ، وقد يستخدم بمعنى لام العطف ، كما في المثال وياتا = W/yta يعطسي ، وتستخدم بنفس المعنى وا (wa) .

اداة التشبيه : هي كا (Ka) ، ولها نفس الاستعمال في العربية مثال : ميكال
Mika-'il من مثله .

ادوات الجر : إن (In) = في وداخل ، وهي مستعملة كذلك في الاكادية الكلاسيكية والبابلية ، ونصوص ماري (ما قبل الصرغونية) وكذلك في نصوص ماري التي تعود لفترة اور الثالثة ، اما في الاشورية القديمة فقد استعملت قبل الاسم الذي يبدأ بحرف ساكن ، واستعملت انا i-na قبل الاسم الذي يبدأ بحرف صوتي .

انا i-na من او الى ، كما في المثال انا بلي سو =i-na-be-li-su الى سيده ، وانا نستطيع قراءتها كذلك في التعويذات التي وجدت في ماري ، والعائدة للفترة ما قبل الصرغونية (٢٤) ، وكذلك عرفت في نصوص فارة . ومن الجدير بالذكر ان انا i-na هي ليست انا a-na = أن المعروفة في اللغات السامية الاخرى .

اش iš = الى - لأن ، هي معروفة في اللغة الاكادية ، ولكنها كانت تستعمل في نهاية الكلمة ، وقد استعملت في الفترة الصرغونية مع الاشياء الصغيرة مثال كاتيش =qâtiš الى اليد ، او مع الحال ، كما في أرخيش =arhiš سريع ، اما استعمالها كأداة جر قبل الكلمة ، فهذا ما تفردت به اللغة الابلائية عن أية لغة سامية (٢٥) .

اش - دا =āš-da مع او من حيث ، وعرفت هذه الاداة في الاكادية الصرغونية ، وكذلك اشتو ištu مع ، واشتوم ištum بعد ، اما كما وردت في الابلائية ، فلم تعرف الا في ندرة من النصوص الادبية البابلية واللغات السامية الاخرى ، دقيقة من جهة ، وغير دقيقة من جهة اخرى ، فما ذكرناه من المقارنات بين الابلائية والسومرية والاكادية ، ولغة ماري ما قبل الصرغونية دقيق ومنطقي ، وذلك لتعايش هذه اللغات وتعاصرها ، ولاحقا سنجري مقارنة اوسع ما بين لغتي ابلا وماري ، واما المقارنة ما بين الابلائية والاوغاريتية والعمورية والعبرية ، وهي لغات بعيدة عنها في الزمن ، فهو ابعد عن الدقة .

فماذا عن اللغة الابلائية ولغة ماري القديمة (ما قبل الصرغونية) ؟ كنا قد ذكرنا سابقا ، بان ماري قد خضعت للحكم الابلائي في فترة من فترات تاريخها القديم ، وخضعت من جهة اخرى مرارا للسيطرة الراقدية ، واعتبرت لغتها ، حتى الكشف الابلائية ، لهجة اكادية لها العديد من الميزات ، اذ كانت ابلا في ذلك الوقت مجهولة تماما ، ولكن في نصوص ماري التي درست نلاحظ قسمين : أحدهما الحديث ، أي

الذي دونت به السجلات الملكية (٣٦) ، والذي يعود للفترة العمورية وعهد سلالة ليم ، وهم القسم الذي اعتبر لهجة اكادية - بابلية . اما القسم الثاني ، فهو النصوص القديمة التي تعود للفترة الاكادية والسومرية والتي كانت عبارة عن بعض النصوص الاقتصادية (٣٧) ، والتعويذات ، وبعض نصوص هبات مقدمة لمعبد الالهة عشتار .

هذه النصوص ليست بلهجة اكادية او بابلية ، وانما نصوص تمت للابلائية بصلات هامة كما سنلاحظ بعد مقارنتهما ، فقد استعملت اداة الجراش $i\bar{s}$ من او الى ، التي تفردت بها الابلائية كما لاحظنا ، كما استعمل ضمير المفرد المذكر الغائب سود او شسو $ns-ans$ ، في النصوص المارية العائدة لعهد الملك ايلول (٣٨) ، كما تعرف في الابلائية والاكادية القديمة ، وفي لغة ماري القديمة . استخدمت بعض المقاطع كأفعال ، كما في المقطع سك ريك $Sag-Rig$ هو اعطى تعويذة ، وفي إي -جوب $=i-Gub$ هو ينهض (٣٩) ، وهذا ما عرف في التقاليد الكيشية في الكتابة ، وفي ابلا كذلك . ميزة اخرى مشتركة بين ابلا وماري ، استعمال بعض المقاطع السومرية النادرة الاستعمال مثال دول تمثال ، واب + اش $AB+AS$ شاهد . الخ .

اذا اردنا اعتبار لغة ماري القديمة اكادية ، فلماذا كتب اسم ابن الملك ايلول ممخارسو ومعناها (من الذي يناوؤه) على الشكل التالي $Mim-mā-hir-sū$ ولم يكتب كما كان يجب ان يكون بالاكادية : مينما خرسو $Min-ma-hirsū$ لقد استعملت الميم محل النون (٤٠) .

وانها لكثيرة ملامح التشابه بين لغتي ماري (ما قبل الصرغونية) والابلائية ، فلدينا مثلا نظام السنين السبعي او الثماني ، وكذلك تسميات الالهة ، وتسميات شهور السنة وترتيبها ، وكلها تشابهت في البلدين وتشابهت مع التسميات السومرية في نصوص أبو الصلابيخ ، وعليه فمن المفيد هنا الاشارة الى ان الفكرة القائلة بان نصوص ماري (ما قبل الصرغونية) سومرية ، تبذرت الان ، فعديدة هي نقاط التباعد وان كان لابد للحضارات ان يكتسب بعضها من بعض .

ونلخص ما سبق فنشير الى عدة نقاط مهمة ، اولا : لا يمكن اعتبار الابلائية لهجة اكادية ، وذلك لان هذه الاعداد الضخمة من النصوص كتبت في وقت لم تكن فيه الاكادية لغة الشرق القديم ، كما تميزت الابلائية عن الاكادية بكثير من نواحيها في كثير من النواحي .

ثانيا : لا يمكن اعتبار الابلائية عمورية ، حيث تنفصل بنفسها ، مثالا على ذلك

عبارة (من يشبهه) في الأبلائية هي مي كا ال Mika-'il ، وفي العمورية هي
مينوكي ال Mannu-Ki-'il

ثالثا : الأبلائية لا يمكن اعتبارها كنعانية ، خلافا لما حاول بيتناتو ادعاءه ، ونحن
لن نوغل في هذه الادعاءات ، التي غدت في عداد المرفوضات ، ورد عليها فكرة فكرة
اللغوي الإيطالي أركي (٤١) ، والكثير من علماء الآشوريات . فاللغة الأبلائية تتباين تماما
في نظام حروفها الصوتية عن الكنعانية ، فكلمة عبد في الأبلائية والأكادية تأخذ حرفين
(الألف والعين) أي تكتب ابدو abdu وعبدو ébdu ، بينما تحافظ على
لفظة واحدة في الكنعانية فهي عبد ebed فالحرفان أع يتميزان تماما في الكنعانية

كالعبرية مثلا ، أما في الأكادية والأبلائية فلا يتميزان ، وبهذا لا يكن مطلقا اعتبار
الأبلائية هي الكنعانية القديمة (٤٢) .

أخيرا نقول ، ان دراسة لغة قديمة كالأبلائية ووضع قواعد ثابتة محددة لها لم
يزل بعيد المنال ، ويحتاج من علماء الساميات لكثير من الجهد ، وخاصة في عملية
تحديد قواعدها وتفريقها عن الأكادية ، وأما إيجاد مكان ترتيبها بين اللغات السامية
الشرقية ، فهو امر ما زال موضع نقاش ، وباختصار ، نستطيع القول بان الأبلائية
يجب ان تضاف لعائلة اللغات السامية كواحدة منها ، قريبة من الأكادية والعمورية ،
تفرمت عنها لغة ماري في احد الايام ، وكل معطيات الحضارة الأبلائية هذا الموضوع
لا يزال بحاجة للكثير من الوقت .

الحواشي :

- (1) Parrot, A., **Mari Capitale Fabuleuse**, 1974.
- (2) Finet, A., « Les Temples Sumériens du Tell Kannâs, » **Syria**, L II, 1975, pp. 157 - 174 .
- (3) Kupper, JP . et Sollberger, E., **Inscriptions Royales Sumériennes et Akkadiennes**, 1971, pp. 79 - 114.
IV 17.35.
في هذا المؤلف راجع النص :
- (4) Ii - II , 28 .
الرجع نفسه ، النص :
- (5) Freedman, DN., « The Nuzi Ebla », **BibR**. XL/1, 1977, pp.32-33.
- (6) Mattiae, P., « Ebla à l'Epoque d'Akkad, » **CRAIB**, 1976, pp. 190-215.
- (7) Mattiae, P., « Tell Mardikh, The Archives and Palace, » **J.Archaeology**, XXX/4, 1977, pp. 244-253.
- (8) Pettinato , G . , « L' Atlante Géografica del Vicine Oriente antica attestato ad Ebla e ad Abu Salabikh , » **Orientalia**, 47 / 1, 1978, pp. 50 - 73 .
- (9) Biggs, RD . , « The Abû Sâlâbakh tablets - Apreliminary survey » , **Cuneiform studies**, XX/2, 1966, pp. 73-88.
- (10) انظر المرجع رقم ٨
- (11) Pettinato, G., « Relations entre les Royaumes d'Ebla et de Mari au troisième millénaire d'après les archives royales de Tell - Mardikh - Ebla , » **Akkadica** II, 1977, pp. 20-29.
- (12) انظر المرجع رقم ٨
- (13) Archi, A., « Diffusione del culto DI' NI - DA-KUL, » **SEB** I/7-8, 1979, pp. 105 - 113 .
- (14) Archi, A., « An administrative practice and the Sabbatical year at Ebla », **SEB** I/5-6, 1979 pp.91-95,
- (15) Mattiae, P., « Preliminary remarks on the royal palace of Ebla » , **Syro - mesopotamian Studies**, 1978/II.
- (16) (TM 75. G. 2367) انظر : المرجع ١١ ، الوثيقة رقم
- (17) Mattiae, P. , « Tell Mardikh : Ancient Ebla, » **AJA** , 1982 / 2 , pp. 540 - 543 .
- (18) Archi, A. , « Notes on eblaite geography , » **SEB**, 1980/ I, pp. 1-10.
- (19) Fronzaroli, P., « Problemi di fonetica eblaïta , I » **SEB** I/5-6, 1979, pp. 65 - 89 .

- (20) Pettinato, G., « Testi Cuneiformi del 3e millenario in paleocananeo rinvenuti nella campagna 1974, Tell Mardikh - Ebla , » *Orientalia*, XLIV, 1975, pp. 361 - 374.

في هذا المقال راجع صفحة ٣٣٦

- (21) Biggs, R.D., « Semitic Names in the Fara period » *Orientalia*, 36, 1967, pp. 55-56 .

- (22) Op. Cit., 20 .

- (23) Geld , i.J., « Thought about Ebla , » *Syro - Mesopotamian studies* , 1978 / I .

- (24) انظر : المرجع ١٩ ، ص ٣٧٢

- (25) Pettinato, G., « The Royal archives of the Tell Mardikh - Ebla, » *Bar*, 39/2, 1976 , pp. 44-53 .

راجع في هذا المقال ص ٥٠

- (26) الامثلة التي نوونها مستمدة من ترجمات بيتيناتو في المرجعين ١٩ و ٢٥

- (27) راجع المقال في المرجع ٢٣

- (28) Archi, A., « Ancora su Ebla e la Biblia » , *SEB* II/2-3, 1980 , pp.17-39.

- (29) المرجع ٢٣ ، ص ١٩-٢٠

- (30) المرجع ٢٠ ، ص ٣٧٠

- (31) المرجع ٢٠ ، ص ٣٧٢

- (32) Linet, A., « Observations aur la grammaire des anciennes tablettes de Mari , » *Syria*, L II, 1975, pp. 37-52 .

- (33) انظر : المرجع ٢٥ ص ٥٠

- (34) Dossin, G., « Les Inscriptions des temples de Ninni - Zaza et de (G) Istarat, » *MAM* / III, 1967 pp. 307 - 331.

- (35) انظر المرجع ٢٣ ص ٢٣

- (36) وثائق ماري الملكية منشورة في عدة مجلدات ، نشرتها البعثة الاثرية الفرنسية التي عملت بموقع ماري برئاسة البرفيسور اندريه بارو (A.Parrot) تحت اسم (Archives Royales de Mari)

كما درست هذه الوثائق ايضا في جولية (Syria) الفرنسية .

- (37) Jestin, R., « Textes économiques de Mari, (IIIe dynestie d'Ur) », *R.A.*, XL VI, 1952, pp. 185 - 202.

- (38) Sollberger, E., « Lost inscriptions from Mari » *XVe, RAI*, 1967 , pp. 103 - 107.

- (39) انظر : المرجع ٤ ، ص ٢

- (40) انظر : المرجع ٢٣ ص ١١

- (41) انظر : المرجع ٢٨

- (42) انظر : المرجع ٢٣ ص ٢٦

ماردو (الأموريون) في نصوص إيبلا

بقلم الفونسو اركي

استاذ المسماريات في جامعة روما وعضو
الهيئة الدولية لدراسة نصوص إيبلا
عربها من الانكليزية

قاسم طوير

المديرية العامة للآثار والمتاحف

ان اقدم دليل وثائقي على كلمة مارتو (أي امورو) موجود في رقيم مسماري ظهر في موقع فارة بالعراق ، حيث يرتبط مع شخص سومري اسمه (اه - سو -) (بو) (أج) يقبض راثبا من مزارع اسمه (إنجار) . ويرد ذكر الاسم مارتو اسما لشعب في وثائق السلالة الاكادية ، ويرقى تاريخ بعض تلك الوثائق الى عهد الملك الاكادي شار - كالي - شاري ، ويرقى تاريخ البعض الاخر - على ما نظن - الى عهد سلفه الملك نارام - سن . وهما هو ارشيف ايبلا يزودنا بحوالي ثلاثين شاهدا على هذا الاسم ، وجميعها ترقى الى عهد اقدم بقليل من عهد السلالة الاكادية .

السفر الجدل العلمي عن تحديد (الجبال التي انهزم فيها الاموريون - مارتو - ام - على يد الملك شار - كالي - شاري) في جبل البشري الذي يمتد بين تدمر والشمال الشرقي من نهر الفرات . ولقد اتاح هذا التحديد التعرف على مناطق ، أو على الاقل على منطقة من مناطق استقرار الاموريين في اواخر القرن الثالث والعشرين قبل الميلاد .

(*) نشرت هذه الدراسة في مجلة اوينتاليا الصادرة عن المعهد البابوي للدراسات المشرقية في روما (العدد ٥٤ لعام ١٩٨٥) .

نستبين من ثنايا نصوص ايبلا ان الاموريين عاشوا في تلك المنطقة منذ القرن الرابع والعشرين قبل الميلاد ، فالرقيم المسماري / ت.م / ٧٥/ج/١٣١٧/ ، الحقل التاسع المطر الثالث يمكن ترجمته كالتالي : « اقمشة من اجل فلان في ايمار (مسكنة على الفرات) نذرا منه بعدما هلك الاموريون (او لان الاموريين قد هلكوا) ، وخروفا من ماشية فلان نفسه ضحية منه للنصر الذي تحقق . اقمشة من اجل فلان في ايمار عندما هلك الاموريون .

وفي جميع الاحوال يبدو واضحا ان كلمة نصر (بالسومرية : جين - شه) تتعلق بالانتصار على الاموريين (مارتو - تيل) . لذلك فانه اذا لم يكن اهالي ايمار (مسكنة/ بالس على الفرات) مسؤولين عن هزيمة الاموريين فلا بد انهم كانوا مشاركين في تلك انحادثة ، لاسيما وانه قد تبين ان ايمار موجودة في موقع مسكنة / بالس على الفرات ، وبالتحديد الى الشمال الشرقي من جبل البشري . يضاف الى ذلك ان الرقيم / ت.م / ٧٦/ج/٥٣٣/ يصف أحد سكان مدينة توتول (لعله تل البيعة المجاور لمدينة الرقة انحالية) ، بانه من مواطني « مارتو » . يرد لفظ هذا المكان في نصوص ايبلا في صور مختلفة ، فهو تارة « مارتو » وتارة اخرى « ماردو » ، وبما ان ايبلا استخدمت الاسم الدارج في بلاد ما بين النهرين فانه من المؤكد ان الاسم ذو اصل سومري ويعني بالدرجة الاولى « جهة الغرب » وبالدرجة الثانية « الناس القاطنين في الشمال الغربي » . وبناء على ذلك فان الاسم يطلق على منطقة وليس على مدينة ، أي ان هناك منطقة مارتو وليس هناك مدينة باسم مارتو . يضاف الى ذلك انه من النادر ان يرد ذكر اسم مدينة بهذه التسمية على طول الفرات أو الخابور ، وهذا يعني ان مارتو كانت على حدود الطرق التجارية التي سلكها الرسل القادمون من ايبلا . وعلى هذا فانه يؤكد لنا بطريقة غير مباشرة صحة المأثورات السومرية التي وصفت الاموري بانه « انسان ثقيل الظل يعيش في الجبال » أو « انسان لا يعرف حياة المدن » أو « الانسان الذي يأكل اللحم نيئا » .

غير ان هذه الصفات تتعارض مع حقيقة ان نصوص ايبلا، خلافا لنصوص السلالة الثالثة في اور بجنوبي الرافدين ، اضافت صفة « الملك » الى الاموريين ، وذلك بكلمتي الصيغتين ، أي لفظة « إن » السومرية التي استخدمها ملوك ايبلا لانفسهم ولنعت حكام المدن السورية ، ولفظه « لوجال » التي استخدمها الديوان الايبلائي في نعت حكام بلاد ما بين النهرين بوجه عام .

ويبدو ان اهالي ايبلا استخدموا الكلمة التي درجوا على نعت ملوك الامم الاخرى بها ، على الرغم من احتمال علمهم بالكلمة التي كانت على علاقة مع ايبلا فان للاموريين مجلس لكبار السن (اب x اش) الى جانب الملك .

تذكر النصوص ارسالي ثلاثة انواع من الاقمشة الى ملك الاموريين (ماردو)
وهي : عباءة (اذا - اوم - توج) وجلباب (اکتوم - توج) ، وحزام (اب + I/III
دار - توج) .

وكانت ايبلا ترسل الانواع الثلاثة الى كبار السن في بلاد الاموريين ايضا ، وذلك
بمعدل ١٢ قطعة من كل نوع كما يرد في النص الاول المنشور في المجلد الاول من ارشيف
ايبلا ، و ١١ قطعة من كل نوع كما يرد في النص / ت.م/٧٥/ ج / ٢٢٧٩ ، و ١١ قطعة
عن كل نوع كما يرد في النص / ت.م/٧٦/ ج/٥٣١/ ، و ٩ قطع من كل نوع كما يرد في
النص / ت.م/٧٥/ ج / ١٢٥٢ .

بيد اننا لا نستطيع ان نستخلص من ذلك عدد كبار السن في مجلس الملك الاموري ،
لكننا نعرف ان عدد الالبسة المرسلة الى كبار السن في مدن مثل ايمار (مسكنة على
الفرات) وحران وناكميوم تتراوح بين ثلاث وخمس قطع من كل نوع من الانواع
المذكورة اعلاه (انظر المجلد الاول من الارشيف الملكي في ايبلا ، تحت اسم : اب x اش) .

واخيرا هناك مرتبة ثالثة في هرم البناء الاجتماعي الاموري بعد الملك ومجلس
كبار السن وهي رتبة « اوغولا » أي الناظر ، وقد بلغ عددهم لدى الاموريين ستة ،
وذلك كما وردت في النص ت.م/١٧٥/ ج / ١٨٩٥ .

سبق ان نوهنا بالهزيمة التي الحقتها ايبلا بالاموريين . لكن ايبلا عقدت معاهدة
مع الاموريين ايضا ، ويتبدى ذلك في النص / ت.م/٧٥/ ج/١٧٥٥/ ، حيث يجلب ستة
من الناظرين الاموريين مقدمة من الزيت وفاء للقسم الذي ادوه ، والنص المذكور هو :
« اقمشة من اجل فلان وذلك من الناظرين في مارتو الذين ذهبوا لتقديم الزيت وتأدية
اليمين في معبد كورا » . وتجدر الاشارة الى ان العلاقات السلمية بين ايبلا وماري
(تل الحريري على الفرات) قد توثقت بحفل ديني مماثل . فالربة كورا كانت ربة
القسم في ايبلا وربما في جميع المدن السورية الاخرى .

يضاف الى ذلك كله ان بلاد مارتو (الاموريين) كانت من بين البلدان التي تشترك
في عبادة الاله نيكادول الذي كان من الارباب الرئيسيين في ايبلا ، وذلك بناء على الرقيم
المسماري / ت.م/٧٥/ ج/٢٣٧٧/ .

ان معظم النصوص المتعلقة بتوريد الاقمشة في الارشيف الملكي في ايبلا لا تذكر اسم
الجهة المرسل اليها ، لكن الرقيم المسماري / ت.م/٧٥/ ج/٢٢٣٩/ ، والرقيم

ت.م. / ٧٥/ج/ ٢٤٠١ / ، والرقيم المنشور تحت رقم / ١٥/ في المجلد الاول من الارشيف الملكي في ايبلا يمكن ترجمة محتوياتها كالتالي : اقمشة من اجل فلان (او عدة اشخاص) من بلاد الاموريين (مارتو) .

فيما يتعلق بانواع البضائع الاخرى فانه ليس من المؤكد اذا كانت كمية الفضة اثبالفة ٢٣٨٠ كغ والمسجلة في الرقيم المسماري / ت.م. / ٧٥/ ١٢٣٨ / مرسلة من الاموريين الى ايبلا ، او ان ايبلا ارسلتها الى الاموريين . غير ان الرقيم المسماري / ت.م. / ٧٥/ج/ ٢٤٩٠ / يذكر توريد بعض الاقمشة الى المدعو يسمع - دامو (يسمع تموزة) ، الذي ارسل بعض النبيذ الى ملك ايبلا ابي - زكير وتم استلامها في بلاد الاموريين (مارتو) . ونستفيد من محتويات الرقيم / ت.م. / ٧٥/ج/ ١٠٠٧٩ / والرقيم / ت.م. / ٧٥/ج/ ١٠٢٥١ / والرقيم / ت.م. / ٧٥/ج/ ١٦٣٨٠ / ، ان الاموريين كانوا يرسلون الفهم الى ايبلا ، اما الرقيم المنشور تحت رقم / ١٥/ في المجلد الرابع من الارشيف الملكي في ايبلا فانه يتحدث عن وصول كمية معينة من الصوف من بلاد الاموريين .

يتألف الرقيم المسماري / ت.م. / ٧٥/ج/ ٣٠٩ / من قائمة باسماء مستخدمين منهم ٢٠٠ فردا من بلاد الاموريين و ١٠ من حران و ٨٦ من مدينة عيبال ، لكن لا توجد اشارة الى نوع العمل المطلوب منهم انجازه . اما الرقيم المسماري / ت.م. / ٧٥/ج/ ٥٤٠١ / فانه يسجل اسمين اخرين من بلاد الاموريين على اساس انهما كانا لاجئين او هاربين (زاغ) .

ثمة خمسة عشرة اسما اموريا ومن بينهم شخص يدعى (اموتي) ومشفوع بلقب ملك (لوغال) . وهذا الاسم لا يظهر مرة واحدة في وثائق ايبلا فهو يرد اسما لمستخدم لدى احد موظفي بلاط ايبلا ، واسما لاحد ملوك مدينة ارادو . كما في الرقيم المسماري / ت.م. / ٧٥/ج/ ١٣٧٣ / ، ويرد في صيغة التصغير اسما لعدد من مدينة ابسوقرب قادش ومدينة جرمو ، واسما لاحد الموظفين (لوكار) في ماري .

ثمة شخصان اموريان في النصوص المسمارية العائدة لسلالة اور الثالثة ببلاد ما بين النهرين يحملان اسم « ياموتوم » و « ابي - اموتوم » ، وثمة اتفاق على ان هذا الاسم مشتق من فعل « مات » ، وقد راج هذا الاسم بين الاموريين خلال العهد البابلي القديم مثل يموت ليم ، ويموت - بعل .

بناء على ذلك فان الاسم الايبلائي « اموتي » يمكن ترجمته « يموتو » لان الالف في لغة ايبلا يمكن قراءته (يا) ايضا (انظر بحث الاستاذ بيليو فرانزارولي بعنوان مواد من اجل معجم ايبلائي - قيد الطبع) .

وثيقة مقدسية تاريخية جديدة

د. كامل جميل العلي

الجامعة الاردنية

كتاب الوقف الذي أنشاه الملك
الظاهر بيبرس بن عبد الله
البندراقي الصالح المتوفى
سنة ٦٧٦ هـ على مقام
النبي موسى
عليه السلام

تقديم :

للملك الظاهر بيبرس (٦٥٨ - ٦٧٦) سلطان مصر المملوكي الكبير ، فضلا عن بطولاته الحربية الباهرة ، أعمال عمرانية جليلة وحسنات عميمة في طول البلاد الشامية وعرضها . وهو قد أحب بيت المقدس وزارها ثلاث مرات سنة ٦٦١ هـ و سنة ٦٦٤ هـ وسنة ٦٦٨ هـ ، وجدد بناء ما كان تهدم من قبة الصخرة ، وجدد قبة السلسلة وزخرفها ، ورتب برسم مصالح المسجد في كل سنة خمسة آلاف درهم ، وأنشأ بجوار القدس خانا كبيرا للمسافرين . وكان من مآثره أيضا أنه بني قبة ومسجدا على قبر النبي موسى عليه السلام قبلي اريحا ووقف عليه وقفا سنة ٦٦٨ . وقد صار مقام النبي موسى من بعد مقصدا لآلاف الزوار الذين كانوا يؤمنونه في « موسم النبي موسى » الشهر في فصل الربيع من كل عام (آذار أو نيسان) . وقد كنت ابحث عن وقفية الظاهر بيبرس على مقام النبي موسى منذ بعض الوقت الى أن وجدتُها في صدفة من محاسن الصدف في الكتاب المخطوط ، الذي لم يتم على ما يبدو ، « اعلام الاسلام في مواطن الانبياء فلسطين » للعلامة المرحوم عبد الله مخلص (ص ١٣١ وما بعدها) وهانذا ابادر الى نشر هذه الوثيقة المقدسية الجديدة التي تتحدث عن مآثره من مآثر السلطان العظيم ، وصفحة من صفحات المجد الغابر . وهذا هو نص الوقفية (التي ذيلناها بحواش وتعليقات) :

(بسم الله الرحمن الرحيم)

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ليس لك من دنياك الا ما اكلت فانيت او لبست فأبليت أو تصدقت فأبقيت » (١) . وقال صلى الله عليه وسلم « اذا مات ابن آدم انقطع عمله الا من ثلاث : علم ينتفع به وولد صالح يدعو له وصدقة جارية على يديه » (٢) . ولما كان أحسن الصدقات وأبر المبرات ما لا ينقطع أمده ولا ينتهي مدده ، وهي الصدقة الجارية الباقية بقاء هذه الدار الفانية لا تكون مشروطة بالحياة ولا مقطوعة بالممات وذلك الوقت الذي تدوم فوايده وتبقى عوايده فيحى ذكر واقفه عند صرف ريعه الى مصارفه ويكون له عمرا ثانيا . ولقد شرف الله سبحانه وتعالى ، تواتر على البرايا بره وتوالى ، بشرف سلوك هذه الطريقة صاحب هذه المجلة الشرعية والوثيقة المرعية المرضية اليقينية مولانا السلطان الملك الظاهر العادل المؤيد المظفر المنصور ركن الدنيا والدين منقذ الاسلام والمسلمين سيد الملوك والسلاطين فاتح الامصار مبيد الافرنج والتتار مقتلع القلاع من أيدي الكفار وارث الملك سلطان العرب والعجم والترك ملك الزمان صاحب القرآن مسترد ضوال (٣) الاسلام من أيدي الطغيان ملك البحرين مالك القبلتين خادم الحرمين الشريفين الأمر ببيعة الخليفة (٤) قسيم أمير المؤمنين خلد الله سلطانه وذلك بعد عودة ركابه العزيز من الحج المبرور وتوجهه لزيارة القدس الشريف تقبل الله عنه في منابه (٥) فأنشأ أنواعا من بقاع الخيرات السنية وأبنية الحسنات البنية فمن جملة ذلك المقام الكريم الذي أنشأه على ضريح موسى الكليم على نبينا وعليه افضل الصلاة والتسليم . ووقف حضرة الواقف العالي الشأن السامي المكان أفاض الله تعالى عليه في جميع الازمان سجال البر والاحسان لمصالح هذا المقام الكريم المبارك عدة من اصناف الاوقاف بنية وافية وعزم كاف فمنها الاراضي والاملاك الجارية في ملكه وتحت تصرفه والتي ابتاعها من ماله الخاص ، وهي جميع القرية المسماة بترمسعيا (٥) وجميع القرية المسماة بالمزرعة (٦) وجميع القرية المسماة بخربة ابي فلاح (٧) وجميع ارض قرية سور باهر (٨) وكلها من اعمال القدس الشريف ومنها جميع الطاحونة الواقعة على المياه المعروفة بواد القلط (٩) وجميع مياه وارضى هذا الوادي وجميع مياه وارضى الفوار (١٠) وقرية اريحا بكاملها ، ومنها جميع اراضى الفور الواقعة بين دير السيق (١١) غربا الى زعترة (١٢) والبحيرة المنتنة (١٣) شرقا من اعمال القدس الشريف ايضا ارضها وترابها وحجرها وماءها وشجرها بجملة مالها من الحدود والمرافق والتوابع واللواحق والطرق والمسالك وسائر ما لا بد منه لذلك ذكر او لم يذكر سطر أم لم يسطر وقفا صحيحا شرعيا حسبا صريحا مرعيا وسبيلا محكما مبرما مرضيا . ولقد تحقق ذلك وصح وتبين شأنه واتضح حيث اقر واعترف مولانا السلطان الملك الظاهر بيبرس البندقداري بانه وقف وسبل كافة ماذكر مجمعا او مفصلا

مما اعد للاستغلال من القرى والموقوفات بجميع حقوقها ومراسمها وحدودها مما يدخل الوقف بمقتضى الشرع المطهر . أما البقاع المباركة المرقومة فقد وقفها وعينها ليتصرف عليها (١٢) في اطعام الطعام لزوار مقام النبي موسى الكليم عليه وعلى نبينا افضل الصلاة والتسليم ابان موسم الزيارة من كل عام وفي الانفاق على التبريدارية (١٤) الموجودين في مقام هذا النبي الكريم . ولا جناح على من وليها ان يأكل منها بالمعروف . وقد نصب متوليا لاقامة مصالح كافة الموقوفات ورعاية مهمات هذه المسبلات من البناء والتعمير والاستغلال والقبض والبسط والحفظ والضبط وأمور التسجيل عين العلماء والمدرسين الكرام بدر سما المعالي الفخام صدر اساطين الموالى العظام قدوة الصلحا الشيخ الشريف عبد الله بن يونس (١٥) وقد رام مولانا الملك الظاهر بيبرس سيد ملوك الارض على الاجماع المخصوص بملك اشرف البقاع ان يرجع عن وقفه هذا (١٦) ويرد الموقوفات الى ملكه القديم فعارضه المتولي المرقوم وتحاكما الى المولى الفاضل فخر الاسلام وشمس الائمة مظهر كلمة الله العليا الحاكم الموقع على الكتاب بتوقيعه الشريف المستطاب لازال عقد المسائل محلولة باسنان اقلامه فنظر في محل النزاع وشاهد في جانب المتولي رجحانا قويا وعان في يده برهانا جليا وحكم بصحة هذه الاوقاف ولزومها على الشرايط المسطورة على رأي من يراه من الائمة رضوان الله عليهم حكما صحيحا شرعيا ووقفا صريحا مرعيا فصار وقفا لازما مسجلا لا يجوز بعد ذلك تغييره وتبديله « فمن بدله بعدما سمعه فانما اثمه على الذين يبدلونه ان الله سميع عليم » (١٧) وأجر الواقف على الله جرى ذلك وحرر في اواسط رجب سنة ثمان وستين وستاية .

شهود الحال

محمد بن عبد الله
ولي مولانا السلطان

جمال الدين بن اقوش النجمي (١٨)
عبد مولانا الملك وولي السلطان

(وقد كتب باعلا كتاب الوقف هذا وعلى الجانب اليسار منه : صدر من العبد الفقير اليه سبحانه وتعالى الخوجه جمال الدين بن ربيع (١٩) المولى خلافة بمدينة القدس عفي عنه) .

حواش وتعليقات :

- (١) صحيح مسلم ، زهد ٢ .
النسائي ، وصايا ١ .
- (٢) مسلم ، وصية ١٤ .
ابو داود ، وصايا ١٤ .
الترمذي ، احكام ٢٦ .
- (٣) ضوال ، جمع ضالة (مؤنث ضال) ، وهي الشيء المفقود الذي تسمى وراه .
- (٤) بيبرس هو الذي اقر خلفاء بني العباس بمصر ، بضد انقراض دولتهم ببغداد .
- (٥) مناب : اناب الى الله : رجع اليه واقبل وتاب ، والمناب هنا : الرجوع الى الله والاقبال عليه .
- (٥) ترعسما : قرية شمال شرق رام الله على بعد ٢٣ كم منها وتقع قرب قرية سنجل . يذكر أهلها انهم حجازيون من بني مرة . تملك ترعسما ١٧٦١١ دونما ، والمشهور ان اراضي القرية موقوفة على مقام النبي موسى . وهذا ما تؤكد الوقفية . (الدباغ : بلادنا فلسطين ج ٨ ، ق ٢ ، ص ٢٨٣ / ٢٨٤) .
- (٦) المزرعة : المقصود ما يعرف اليوم بالمزرعة الشرقية شمال شرق رام الله ايضا على بعد ٣ كم من طريق القدس نابلس عند الكيلو ٣٣ . اقرب قرية لها سلواد ، من قرى بني مرة ايضا (الدباغ ، المصدر السابق ، ص ٢٩٦) .
- (٧) خربة ابي فلاح : شمال شرق رام الله . كفر مالك اقرب قرية لها ، صغيرة ، مساحتها الان ١٩ دونما وتملك ٨١٨٦ دونما ، تحيط بأراضيها اراضي ترعسما والمزرعة الشرقية ، والقرى الثلاث متجاورة . (الدباغ ، المصدر السابق ص ٢٩٩) .
- (٨) سور باهر : (صور باهر اليوم) : قرية تقع جنوب القدس قرب قرية بيت صفافا ، يحيط بأراضيها اراضي عرب السواجرة وعرب العبيدية وسلوان وبيت لحم وبيت صفافا والقدس . كان عدد سكانها ١٩٦١ ، ٢٣٣٥ نسمة .
- (الدباغ ، المصدر السابق ص ١٦٩ / ١٧٠) .
- (٩) وادي القلط : وادي يقع قرب اريحا تنتهي اليه المياه من تلال البيرة وعناتا والرام . وتتجمع فيه ثم تستمر في سيرها نحو الشرق الى ان تنتهي بوادي الاردن . كان اهل القدس يؤمنونه للنزهة . ويحتوي وادي القلط على اثار وبه مغارة فيها كتابات يونانية . (وطاحونة القلط) بها قناة ، ونفق منقور في الصخر وبقايا جسر .
- (الدباغ ، المصدر السابق ص ٥٣٢) .
- (١٠) الفوار : عين الفوار تقع الى الشمال الشرقي من قرية عناتا التي تقع خلف جبل الزيتون الى الشمال الشرقي من القدس . وتقع قرب عين القلط ، بين هذه الاخيرة وعين فارة .
- (١١) دير السيق : كان هذا الدير يقع على نشز عال قبلي القدس ، مشرف على الفوار ، وعلى قبة

- موسى التي بناها الظاهر بيبرس .
(بلدانية فلسطين العربية للاب مرمجي الدومنيكي ص ٨٣ ، نقلا من العمري) . ويقول مجير الدين الحنبلي ان الظاهر بيبرس مر بالدير الذي يبعد عن القدس نحو نصف بريد ، عام ٦٦٨ هـ . . . وكان فيه نحو ٣٠٠ راهبا فامر بهدم صوامعهم خوفا على القدس من العدو المخدول .
(الانس الجليل ، ج ٢ ، ص ٨٧) .
- ويعرف موقع الدير اليوم باسم « دير السوق » او « خربة السوق » وهو موقع اثري . ويطلق على الموقع ايضا « دير الزق » و « خربة مشمش » .
- (١٢) زعترة : يقول الدباغ (ج ٨ ، ق ٢ ، ص ٤٩٨) : ان زعترة قرية قريبة من بيت لحم ومن قرية تقوع . ولا ادري ان كانت هي المقصودة ، ولا ارجح ذلك ، ولعل المقصود قرية اخرى كانت الى الشرق من مقام النبي موسى وقرب البحر الميت .
- (١٣) البحيرة المنتنة ، هي البحر الميت ، ومن اسمائها ايضا : بحيرة زغر ، وبحيرة لوط .
- (١٣) كذا في الاصل ، ولعل وجه الصواب ان يقال : « ليصرف ريعها » .
- (١٤) التبردارية : القيمون على التربة او المقام .
- (١٥) هو جد آل يونس (الحسيني اليوم) بالقدس ، فيما نعتقد .
- (١٦) لا كان الامام ابو حنيفة ، دون تلامذته وباقي الائمة ، يبيع للواقف نسخ الوقف والرجوع عنه فسان الواقف كان يقيم دعوى شكلية على الناظر او متولي تسجيل الوقف لاستعادته العقار الى ملكيته على اساس ان الوقف الذي اعلنه غير لازم ويمكن الرجوع عنه . ولدى نظر الدعوى كان القاضي يثبت الوقف استنادا الى آراء الامام ابي يوسف وغيره من الائمة الذين كانوا يرون عدم جواز رجوع الواقف عن وقفه . وبذلك كان يتأكد لزوم الوقف وتثبت الوقفية .
- (١٧) « فمن بدله . . سميع طليم » الآية ١٨١ من سورة البقرة .
- (١٨) هو جمال الدين اقوش النجمي : كان مملوكا للملك الصالح نجم الدين ايوب ، ثم اصبح استادارا له (اي مديرا لشؤون قصره) ، وانتقل الى خدمة الظاهر بيبرس في ١٩ ذي القعدة سنة ٦٥٨ (٢٦ اكتوبر ١٢٦٠) واصبح استادارا له ايضا . وفي سنة ٦٦٠ اصبح كافلا للممالك الشامية ، اي نائبا للملك في الشام ، ثم عزل في ربيع الاول سنة ٦٧٠ . وتوفي في ٥ ربيع الاول سنة ٦٧٧ ، وقد اناف على السبعين .
- (انظر الذهبي ، دول الاسلام ، ج ٢ ، طبعة حيدر اباد ، ص ١٣٣) . وتاريخ ابي الفدا ، تحقيق رايسته ج ٥ ، ص ٣٠ . وابن تغري بردي ، « المنهل الصافي » ، مخطوط باريس Ar 2069 ورقة 5R,V وليوماير « مجلة دائرة الآثار الفلسطينية QDAP المجلد الثاني ، رقم ١ (سنة ١٩٣٢) ص ٢٧ » .
- (١٩) يقول الانس الجليل ج ٢ ، ص ٣١٧ ، ٣٢٧ ، ٣٣٨ : ان جمال الدين بن ربيع كان امين الحكم في القدس (اي متولي شؤون الايتام في محكمة القدس) وهي وظيفة تولها سنة ٨٨١ . وقد توفي في ١٣ جمادى الاولى سنة ٨٩٢ .

وتظهر الوقفية ان ابن ربيع تولى قضاء القدس أيضا . اما لقب الخوجة (الخواجة) الذي سبق اسمه فكان يطلق على المعلم او التاجر . والذي يظهر لنا ان ملاحظة عبد الله مخلص حول صدور كتاب الوقف عن جمال الدين بن ربيع لا تعني كتاب الوقف الاصلي لبيرس وانما كتاب وقف يثبت كتاب الوقف الاصلي صدر في اواخر القرن التاسع الهجري (أي بعد كتاب الوقف الاصلي بأكثر من مائتي سنة) .

وكانت العادة ان القضاة كانوا يثبتون كتب الوقف الاصلية ، ويشهدون بصحتها ، عندما ترفع لهم قضايا تتعلق بالوقف ، قبل اصدار حكم في القضية .

ومن المؤسف ان عبد الله مخلص لا يشير الى المصدر الذي نقل عنه كتاب الوقف . . (وهو سجل من سجلات المحكمة الشرعية بالقدس على الأرجح) ، ولا يذكر رقم السجل ولاتاريخه .

الأرشيف الوطني الهندي في نيورلهي ومهوراته من وثائق العراق والخليج العربي

ر. مصطفى عبد القادر النجار
الأمين العام لاتحاد المؤرخين العرب

يعد الارشيف الوطني الهندي أكبر مستودع للوثائق في قارة آسيا على الإطلاق، حيث أنه يضم عددا ضخما من وثائق شركة الهند الشرقية وحكومة الهند البريطانية ويرجع تاريخ تلك الوثائق الى عام ١٧٤٨ .

والارشيف الوطني الهندي لا يمكن ان يستغنى عنه طلاب البحث في مختلف حقول المعرفة . وموجوداته لا تقتصر على الوثائق الهندية المحلية ، وانما تتعداها لتشمل وثائق معظم الدول الاسيوية التي تعاملت معها بريطانيا بشكل او باخر ، بما فيها وثائق العراق وبقية اقطار الخليج العربي والجزيرة العربية التي هي موضع اهتمامنا في هذا البحث .

والسجلات تلك تمثل خزينا غير محدود للملايين الوثائق التي تغطي استراتيجية المنطقة بجوانبها المختلفة العسكرية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية ، وحتى النفسية منها ، وذلك للفترة الحديثة .

تأسست دائرة الارشيف الوطني الهندي عام ١٩٨١ . وكانت تعرف باسم (دائرة السجلات الامبراطورية The Imperial Record Department) بعد ان برزت الحاجة الملحة لها ، وذلك بعد ان تكدست الوثائق والسجلات في الدوائر المختلفة واصبح امر ائلافها شائعا (١) .

وعليه فقد شكلت في كلكتا لجنة خاصة للإشراف على فرز الوثائق والسجلات للعمل على حفظ ما هو مفيد منها، وعين (المستر فورست Mr. Forrest) أول مسؤول للدائرة المذكورة حيث بدأ عملية تصنيفها وجمعها في مكتبة مركزية موحدة وذلك وفقا للأسس التالية :

- ١ - سجلات الشؤون الداخلية من عام ١٧٥٢ الى عام ١٨٧٩
- ٢ - سجلات اللجان الصحية من عام ١٨٤٥ الى عام ١٨٥٩
- ٣ - سجلات اللجان العسكرية من عام ١٧٧٧ الى عام ١٨٥٨
- ٤ - سجلات الاشغال العامة من عام ١٨٥٠ الى عام ١٨٧١
- ٥ - سجلات الشؤون الخارجية من عام ١٧٦٤ الى عام ١٨٢٩
- ٦ - سجلات الشؤون العسكرية من عام ١٧٨٦ الى عام ١٨٩٣

وقامت دائرة الارشيف بعد ذلك باصدار سلسلة من المنشورات المطبوعة للوثائق المتوفرة فيه غطت الفترات التاريخية المختلفة ، وضع بعضها باللغة الانكليزية وبعضها الاخر باللغة الفارسية .

والذي يهمنا من وثائق هذا الارشيف بشكل اساسي هو ذلك الجزء الخاص بدائرة الشؤون السياسية والخارجية (Foreign and political Department) التي كانت مسؤولة بشكل خاص عن ادارة الشؤون الخارجية والعلاقات الخارجية لشبه القارة الهندية . لذا فإن الوثائق الخاصة بالعراق والخليج العربي والجزيرة العربية نجدها في هذا القسم (٢) .

ان وثائق قسم الشؤون السياسية والخارجية كانت قليلة في بداية الامر ثم اخذت في الازدياد والتضخم تبعا لازدياد العلاقات الخارجية للسلطات البريطانية في الهند .

ونجد فهارس لوثائق القسم السياسي والخارجي تكاد تغطي جميع الفترات التاريخية منذ بداية تأسيس القسم وحتى بداية القرن العشرين (٣) . والفهارس هذه نجدها قليلة بالنسبة للسنوات الاولى من تأسيس هذا القسم ثم اخذت بالازدياد في السنوات التالية ، فمثلا لانجد للفترة من ١٧٥٦ - ١٨٧٣ الا مجلدين من الفهارس (٤)، ثم اصبح هناك فهرس واحد لكل بضع سنوات ، ثم صارت فهارسا واحدا لكل سنة، وفي المراحل الاخيرة اصبح هناك عدة فهارس للسنة الواحدة .

والفهارس هذه تربو على المائة فهرس جميعها غير منشور عدا فهرس واحد .
اما الفهارس التي تلي هذين الجزاين المطبوعين فنجدها بوضعها القديم بخط اليد ،
وقراءتها متعبة للغاية . وهي مفهرسة بحسب الحروف الابجدية (٥) .

وفهارس الفترات التالية للقرن التاسع عشر افضل للقارىء ، فهي مطبوعة ،
والاسماء فيها واضحة للغاية ، وهناك يجد الباحث اسماء كالبحرين والبصرة وبغداد
وغيرها . وقد ثبت رقم المجلد الذي وردت فيه هذه المعلومات والمناسبة التي ذكر فيها
امام كل اسم من هذه الاسماء (٦) .

وبالنسبة للعراق والخليج العربي والجزيرة العربية موضع اهتمامنا الخاص ،
نلاحظ ان السجلات الاولى لقسم العلاقات الخارجية لم تول تلك المناطق اهتماما
كبيرا ، وذلك ان حكومة بومباي كانت تمارس سلطة كاملة في ادارة الشؤون الخارجية ،
وكان ارتباطها مباشرة بلندن دون ان تكون لها صلة بالمديريتين الاخيرتين (كلكتا
ومدارس) . وحتى بعد تشريع البرلمان البريطاني عام ١٧٧٣ قانون التنظيم الذي
خول كلكتا وحاكمها حق الاشراف على كل من بومباي ومدارس ، فان بومباي استمرت
في ممارسة الانفراد بمعالجة الشؤون الخارجية للبدان الواقعة الى غرب شبه القارة
الهندية ، وبضمنها العراق والخليج وشبه الجزيرة العربية (٧) .

ولهذا السبب يجد الباحث ان المادة المتوافرة في ارشيف كلكتا والموجودة في
الارشيف الوطني الهندي عن العراق والخليج العربي والجزيرة العربية قليلة جدا .

وحدث شيء مهم غير هذه الصورة في القرن التاسع عشر ، وهو ان حكومة الهند
في كلكتا بدأت تمارس سلطة اكبر ونفوذا اوسع على الشؤون الخارجية الهندية ، واخذت
تنتزع شيئا فشيئا الصلاحيات التي كانت تتمتع بها حكومة بومباي (٨) .

ولم تعد لحكومة بومباي أهمية تذكر في ادارة الشؤون الخارجية في اواخر القرن
التاسع عشر وانحصرت ادارة تلك الشؤون بحكومة الهند في كلكتا . ومن ثم في دلهي
بعد انتقال العاصمة الهندية اليهام عام ١٩١١ (٩) . كما ان دائرة السجل الكبرى
اصبحت تابعة لوزارة التربية الهندية بعد ان ظلت تابعة لوزارة الداخلية منذ تاسيسها
حتى ذلك التاريخ .

وبعد انتقال العاصمة صار من الضروري ان تنقل السجلات الرسمية والوثائق
الى المقر الجديد . وقد تم فعلا تخصيص مبنى مستقلا لها شيد عام ١٩٢٦ ، واكتمل

نقل المحفوظات له نهائيا عام ١٩٣٧ . وصار الارشيف الوطني الهندي بعد هذا التاريخ مستعدا لقبول خدمات الباحثين على الوجه الاكمل .

قررت الحكومة الهندية في كانون الاول عام ١٩٣٩ ان تفتح الباب ، بحدود معينة ، لطلاب البحث والدارسين للافادة من المعلومات والاقتباس من الوثائق . وفي عام ١٩٤٣ فهرست موجودات الارشيف من الوثائق والسجلات في (١٠) ٣٩ مجلدا . وقد خففت بعض القيود على الباحثين بعد عام ١٩٤٦ ، وفسح المجال لهم للاطلاع على كافة السجلات لغاية عام ١٩٠١ .

وظل الارشيف الوطني الهندي يطالب الوزارات المختلفة بضرورة توسيع خدماته وان يكشف المزيد من الوثائق للباحثين لتشمل سنوات ما بعد عام ١٩٠١ .

وقد حدث تطور ملحوظ على الارشيف في اب ١٩٤٧ جعلت موجوداته تتضاعف بشكل غير محدود ، نتيجة لهجرة مختلف الوكالات السياسية والتجارية مقر اعمالها مخلفة وراءها سجلاتها ووثائقها كافة للارشيف الوطني . وهي بلا شك ثروة علمية غنية لا تقدر بثمن لطلاب البحث العلمي يمكن اخضاعها للدراسة والاستنتاج والتحليل وكشف الحقائق والتوصل الى نتائج في غاية الاهمية وفي مختلف حقول المعرفة .

وقد واجه الارشيف الوطني صعوبة كبيرة في استيعاب هذا القدر الضخم من السجلات والوثائق ، حيث انها كانت من الكثرة بحيث تجعل الارشيف عاجزا عن استيعابها دفعة واحدة لاسيما وان معظم تلك السجلات والوثائق لم تكن منظمة وفق ترتيب موحد .

وبينما كان الارشيف الوطني الهندي مشغولا بمواجهة ذلك السيل العارم من المحفوظات واذا بوزارة الخارجية الهندية تفاجئه بقرار عام ١٩٤٩ بنقل حوالي مليون محفظة من محافظها ، والتي كانت من قبل محفوظة في سملا ، اليه (١١) .

وهكذا حصلت زيادة مفاجئة في حجم السجلات والوثائق في الارشيف وصار مجموع ما يحتوي عليه قرابة ١١٣ر٠٠٠ ١٠٣ر٠٠٠ مجلد ، وهو في نمو مستمر .

ومما يجدر ذكره ان الحديث عن الارشيف سيبقى ناقصا غير متكامل دون الاشارة الى المكتب الاقليمي (Regional Office) الذي شكل في بهوبال (Bhopal)

عام ١٩٥٤ . وكان هذا المكتب قد أسسته الحكومة المحلية في بداية الامر ثم تقدمت به تلك الحكومة الى الحكومة الهندية التي اوفدت بعثة خاصة لاستلام موجوداته وتنظيمها (١٢) .

وقد صار الارشيف الوطني الهندي محط انظار جميع دارسي شؤون اسيا ، وبضمنها العراق واقطار الخليج العربي والجزيرة العربية .

ويضم الارشيف الان تراثا اسيويا اكثر منه تراثا هنديا ، وهو في كل هذا يتميز عن دور السجلات البريطانية بقدر ضخ من المراسلات المحلية والوثائق الاصلية التي لا يمكن العثور عليها في مكان اخر .

وثمة ملاحظة اخيرة لابد من ذكرها عند المقارنة بين الارشيف الهندي والبريطاني (١٣) والتي تهم كل باحث ينوي الرجوع اليهما ، وهي ان مستوى الخدمات يختلف في الهند عما هي عليه في بريطانيا من حيث التسهيلات وتهيئة مستلزمات البحث ، هذا اضافة الى ان طريقة الحفظ وفهرسة الوثائق والسجلات ليست بالمستوى المطلوب في الارشيف الهندي على العكس من الارشيف البريطاني حيث يعد ارشيفا متطورا على مستوى عالمي ، ويكفي ان نذكر ان عملية الاستعارة في الارشيف الهندي تتطلب انتظارا يتراوح بين ثلاث او اربع ساعات ، وللباحث الحق في استعارة عشرة مجلدات فقط في اليوم الواحد ، على حين انه لا توجد مثل تلك الصعوبات في الارشيف البريطاني . والامل معقود على مثقفي الهند ، لان يولوا هذا التراث العالمي العظيم اهمية خاصة . وان يتوجهوا لادخال احداث الطرق والوسائل لحفظ هذا الخزين العلمي الضخم من اجل النهوض بالارشيف الهندي الى مصاف دور الوثائق والسجلات المتقدمة في العالم .

ونتوجه بالدعوة الى حكومات اقطار الخليج العربي لان تسرع في تصوير الوثائق الخاصة باقطارها قبل ان تنالها عاديات الزمن .

الحواشي :

- راجع عن تفاصيل ذلك :
Handbook to Records of the Government of India in the Imperial Record Department .
- (٢) كانت الوثائق تحفظ في دائرة موحدة يطلق عليها اسم (Public Dept.) لغاية عام ١٧٥٦ حيث أسست دائرة العلاقات الخارجية (Foreign Department) ومنذ ذلك التاريخ صارت تحفظ الوثائق الخارجية بشكل منفصل .
- (٣) K. D. Bhargava : Guide to the Records in the National Archives of India, part I (Introductory) New Delhi, 1959, pp. 1 — 3 .
- (٤) هما بعنوان : Index to Land Revenue Records .
- (٥) معظم الورق الذي كتبت عليه تلك لفهارس ممزق ومتآكل الجوانب . وقد قام الارشيف بلصق تلك الاوراق بالشمع الشفاف وتم حفظها بطريقة جيدة .
- (٦) وثائق العراق والخليج العربي والجزيرة العربية ليست مصنفة تصنيفا منفردا متميزا وانما يمكن للباحث ان يعثر عليها تحت اسم المدن والموانئ التي تخص تلك المناطق . فهو يرجع في الفهرس الى حرف (B) ليعثر على مادته تحت اسماء : بصرة - بغداد - بوشهر - بندر عباس - بحرین، وهكذا .
- (٧) K. D. Bhargava, op. cit.
- (٨) Ibid.
- (٩) نقلت حكومة الهند البريطانية العاصمة الى دلهي حيث أصبحت مقرا لنائب الملك ودوائره الاساسية .
- (١٠) K. D. Bhargava, op. cit. p.8.
- (١١) وذلك بعد ان حصلت الهند على استقلالها فقد ارتأت وزارة الخارجية الهندية الغاء محفوظاتها الوثائقية من سملا وتحويلها للارشيف الهندي في دلهي .
- (١٢) K. D. Bhargava, op . cit. p.8.
- (١٣) لآخذ فكرة عامة عن وثائق الارشيف الهندي في دلهي ومقارنتها بوثائق وزارة الهند في لندن يمكن الرجوع الى المادة الوثائقية التي اعدّها (Jean C. Lencaster) المنشورة في مجلتي :
1 — The British Association. Vol. IX, No. 43. April 1970, pp. 130-141.
2 — British Society for Middle Eastern Studies Bulletin, Vol . 3, No. 1, 1976 , pp. 29 - 35.
- حيث يعطي تفاصيل تلك الوثائق واصنافها ومجلداتها وفترات تاريخية والصور المتوفرة في لندن من الارشيف الهندي .

الدراسات العليا

دراسات تاريخية - ١٣م

- ١٩٣ -

بحوث طلاب الدراسات العليا المرشحين لأحدى شهادتي الماجستير أو الدكتوراه

علاقة كندة بدولة الفرس وعملهم ملوك الحيرة

محمّد يونس

جامعة دمشق

لم يكن لكندة مبدأ سياسي محدد عبر تاريخها التي عاشته وصنعتة ، سواء في حضرموت ، ام في نجد ، قبل رحيلها او بعده . فقد تعددت ولاعاتها السياسية في داخل شبه الجزيرة العربية وخارجها حسب الظروف التي عاشتها . من هنا نجدها تارة مملكة عربية مستقلة لا تربطها اية احلاف او وصايات مع اية قوة اخرى ، وتارة على خصام كبير ومتأزم مع مملكة الحيرة وبلاد الفرس وتارة اخرى على صداقة وود مع الفرس وعملهم العرب ، ونزاع مستعر من الروم وعملهم ، او في حالة وئام وصداقة مع الفساسنة والبيزنطيين ضد الفرس ، ونجدها حينئذ اخر تنهج نهجا استقلاليا خاصا بها تقف من خلاله موقفا معاديا لجميع القوى المجاورة لها .

لم نجد في المصادر العربية وغيرها اشارة تدل بشكل مباشر او غير مباشر على اتصال قبيلة كندة بدولة الفرس او عملهم العرب اللخمييين في الحيرة قبل هجرتها الى غمر ذي كندة ، حيث يبدو انه لم يكن للكنديين ذاك البعد السياسي والقوة التي تؤهلهم الى الاتصال بالدول العظمى كدولة الفرس او الروم ، زد على ذلك انه لم تكن هناك من مصلحة مشتركة تلح على وجود مثل هذا الاتصال انذاك ، ولربما لم يكن ذلك بفعل السياسة الفارسية فاطماع الفرس في شبه الجزيرة العربية لها قدمها التاريخي منذ قرون قديمة قبل الميلاد (١) . ولعل السبب الذي ادى الى ذلك هو عدم بلوغ هذه القبيلة العربية حدا من القوة له التأثير في السياسة العربية الجنوبية ، الامر الذي لا يغري قوة عظمى كدولة الفرس الى تكوين نوع من التحالف او الصداقة مع كندة دون تحقيق مكاسب من خلال ذلك . ويبدو ان انهماك كندة

في الصراعات الداخلية والحروب مع حضرموت (٢) هو الذي جعلها تظهر بهذا المظهر من الصعف فابعد عنها دولة الفرس العظمى المجاورة التي كانت بامس الحاجة الى وجود حلفاء عرب اقوياء لها في شبه الجزيرة ، لما لهذه المنطقة من اهمية استراتيجية باللغة ليس بالنسبة لبلاد الفرس فقط بل للعالم القديم ايضا .

وبمجرد مغادرة كندة حضرموت الى نجد (٣) ، وبعد انتهاء فترة تأسيسها وارساء حجر الزاوية المتين في صرح مملكتها الذي تم في حوالي منتصف القرن الخامس الميلادي على يد ملكها او (سيدها) حجر الملقب بـ (آكل المرار) ، نجد نجم كندة يسطع بقوة بارزة في تاريخ شبه الجزيرة العربية بشكل يبشر بإمكان الاعتماد عليها في فرض سياسات معينة على القبائل العربية المتنوعة في ديارها المختلفة ، كقبائل ربيعة ونزار ومعد ، التي شغلت رقعة واسعة في بلاد العرب القديمة (٤) .

وبعد ان وصلت كندة الى اوج سلطاتها ومنعتها في ظل ملكها الحارث بن عمرو صاحب الشأن الرفيع في بناء تاريخ ومجد هذه المملكة ، بقوته وشجاعته وتوسعاته وكان قد ورث عرش كندة عن ابيه عمرو المقصور ، بدأت هنا ، في هذه المرحلة التاريخية من تاريخ هذه المملكة العربية ، الدول الكبرى المجاورة لها والممالك العربية الاخرى بالتقرب منها وخطب ودها امل بقيام نوع من التحالف معها ، ذلك ان تلك الدول وجدت في هذه المملكة الفتية ما يحقق اهدافها في فرض سياسات ترغب في احلالها في شبه الجزيرة العربية .

لقد عاصر الحارث بن عمرو الكندي اعظم شخصيات الاكاسرة والقيصرة والملوك مثل الملك الفارسي قباد وكسرى ائو شروان ، والمنذر بن ماء السماء في اماره اللخمين في الحيرة ، والحارث بن جبلة الفساني في دولة الفساسنة ، والامبراطور الروماني جستنيان ، وذلك بالاضافة الى معاشسته للنزاعات الشديدة والحرب بين فارس وبيزنطة . فقد تقدمت سياسية بيزنطة بنتيجة تلك الصراعات على السياسة الفارسية في بلاد العرب القديمة ، ويعزو الباحثون والمؤرخون هذا التقدم الى النجاح العسكري الذي حققته دولة الحبشة - حليفة بيزنطة وشريكها في الدين والمصالح الاقتصادية - باحتلال القسم الجنوبي والجنوبي الغربي من شبه الجزيرة العربية (٥) . نتيجة لهذه الانتصارات البيزنطية - الحبشية ، كان لزاما على الامبراطورية الفارسية ، والحال هذه ، ان تجد لنفسها مخرجا تواجه فيه هذا التوسع وتوقفه عند حد معين الى ان تتمكن من دحره نهائيا اذا ما قيض لها ذلك ، وهذا امل حلمت الامبراطورية الفارسية في تحقيقه طيلة فترة الصراع البيزنطي الفارسي على شبه الجزيرة العربية .

في هذه الاثناء قام الملك الكندي الحارث بن عمرو بتجهيز حملة عسكرية كبيرة على راسها ولديه (حجر) و (جبلة) ، وذلك سنة ٤٩٧ م حسب رواية ثيوفانيس (٦) ،

وامرهما بمهاجمة حدود الامبراطورية البيزنطية في الاجزاء الجنوبية من بلاد الشام ، ثم اتبعها بحملة ثانية بعد اربع سنوات قادها ابنه (معد يكر ب) وذلك حسب ثيوفانيس ايضا (٧) . ونجحت الحملة وتمكن الامير الكندي من تخريب مناطق كبيرة من بلاد الشام . وقادت هذه الغارات جميعها الى عقد صلح بين الحارث بن عمرو الكندي والامبراطور البيزنطي انستاسيوس . وكان الطرف المفاوض من قبل بيزنطة هو جد الامبراطور الروماني دون ان يذكر المؤرخان (ننوز) و (ثيوفانيس) (٨) اللذان اوردا خبر هذا الصلح شروطا او بنودا له ، وربما تضمن توقف الحارث الكندي وابنائيه عن غزو المقاطعة الرومانية ومن ثم اصبحت (فلسطين وشبه جزيرة العرب وفينيقيا) تنعم بالسلام والهدوء (٩) كما روى ثيوفانيس ، بالاضافة الى توجيه الحلف ضد فارس وعمالها في الحيرة .

ونجد في تاريخ (يوشع) العمودي (١٠) ما يؤيد مثل هذا ، اذ ذكر ان عرب الرومان الذين يدعون بني ثعلبة قد زحفوا في عام ٥٠٣ م على حيرة النعمان واستولوا على قافلة كانت متجهة اليها ، وعرفت الحيرة في السريانية باسم (حيرتا النعمان) . وبنو ثعلبة الذين قاموا بالهجوم على الحيرة هم بطن من بطون قبيلة بكر بن وائل ينتسب اليها الحارث بن عمرو الكندي من جهة امه . وكانت قبائل بكر وتغلب في تلك الايام تشكل عماد قوة مملكة كندة في غاراتها على اللخمين .

وفي هذه المرحلة نجد النزاع بين الحارث الكندي والمندر بن ماء السماء يصل الى درجة حاسمة ، فقد ذكر الكاتبان جون مالالاس (John Malalas) (١١) و ثيوفانيس (١٢) ان ديوميديس (Diomedes) القائد الروماني في فلسطين تحارب لسبب ما مع رئيس كندة الحارث بن عمرو الكندي ، وان ذلك الرئيس تراجع امام ديوميديس ، خوفا من بطشه الى داخل البلاد نحو الهند (اي جنوب شبه الجزيرة العربية او شرقيها وهي غالبا ما عدها البيزنطيون من الهند) فلما بلغ ذلك الملك الحيري المندر بن ماء السماء استغل فرصته وتبعه بحملة قادها بنفسه حيث تمكن من قتله والاستيلاء على ماله واهل بيته .

وما ان سمع الامبراطور البيزنطي جستنيان بهذا حتى امر جميع عماله العرب في مناطق حدود امبراطوريته بمطاردة الملك الحيري وجيشه ، وكان ممن ذكر من قبل هذين الكاتبين من عمال الروم الذين اشتركوا في مطاردة المندر كل من ديونيسيوس (Dionysius) حاكم فينيقيا و (حنا) حاكم المنطقة الفراتية (وسيباستيانوس) و (كيلاركوس) ثم (الحارث بن جبلة الفساني) امير غسان الذي اصبغ تابعا للرومان بعد موت الحارث الكندي .

ونستطيع ان نستخلص من خلال ما سبق ان العداء كان كبيرا بين الملك الكندي

والدولة الفارسية وعمالها اللخميون ، كما نستنتج مقدار متانة الصداقة البيزنطية الكندية . واما يتعلق بعلاقة الحارث الكندي بالفسانية التي كان يحكمهم اميرهم الحارث بن جبلة فهذا امر ليس واضحا تماما ، ولكن الذي لا شك فيه هو انه لم تكن بينهما خصومة ، لان الحارث بن جبلة الفساني كان بين الذين خرجوا ليثأروا لمقتل الامير الكندي الحارث بن عمرو .

ان تاريخ الحارث بن عمرو الكندي لم يكن كله عداء للفرس وصداقة لبيزنطة وعمالها العرب ، فقد وردت روايات متعددة في المصادر العربية تذكر جميعها ان الملك الفارسي قباد رأى بعد اعتلائه عرش فارس من قوة الملك الكندي وشجاعته ، وما اظهره من مقدرة فائقة في مهاجمة الحدود البيزنطية في بلاد الشام واجبارها على توقيع معاهدة عدم اعتداء بين الجانبين ، انه من المناسب اتباع سياسة تقريه من مملكة كنده وملكها ، ويبدو ان الحارث الكندي كان يتوق الى اللقاء مع الفرس بعد ان افهم بيزنطة انه ليس بالقوة الصغيرة في المنطقة العربية ، وليس بالامكان السيطرة عليه بسهولة ، وربما كانت رغبته في التعامل مع الفرس والملك الفارسي محصلة ظروف دولية كانت تخيم على شبه الجزيرة العربية وافقت مصالح كل من الملك الكندي الذي تاق للسيطرة على الحيرة ، ورغبة الملك الفارسي قباد بالتحالف مع مملكة كنده وملكها القوي بعدما اوقف ارتباطه بالبيزنطيين اثر انعقاد الصلح بين بيزنطة وفارس عام ٥٠٦ م (١٢) ، وبسبب موقف الحيرة من الحركة المزدكية التي تبناها قباد كما سئرى ، اصف الى ذلك ، ان رغبة الحارث الكندي في اقامة مثل هذا التحالف مع الفرس ربما جاءت نتيجة تحرك قبيلتي بكر وتغلب باتجاه الشمال تاركتين مناطقيهما القديمة في اليمامة ونجد لتستقرا في العراق على مقربة من الحدود الفارسية ، وان هاتين القبيلتين كانتا تشكلان عماد قوته العسكرية وبدونهما كان لا يستطيع فرض شيء من رغباته السياسية ، لذا توجب عليه ان يتلاءم مع الوضع المستجد ويقبل بالتقارب مع الملك الفارسي والسياسة الفارسية (١٤) . اما ما يتعلق بالجانب الفارسي وملكه قباد : فقد رأت هذه الدولة لدى عاملها في الحيرة في تلك الاثناء المنذر بن ماء السماء انحرافا عن ولائه التقليدي للفرس وميلا نحو بيزنطة . وقد ايد قيام التقارب بين المنذر اللخمي وبيزنطة المفاوضات التي جرت بين الجانبين اثر الحملات العسكرية التي قام بها المنذر بن ماء السماء ضد ممتلكات الامبراطورية البيزنطية في بلاد الشام واسية الصغرى وتمكنه من اسر قائدين عسكريين كبيرين لبيزنطة عام ٥١٩ م ، فقد اراد الامبراطور البيزنطي ان يفك اسر القائدين ويعقد صلحا وحلفا بين المنذر ودولته فأرسل الى المنذر عام ٥٢٤ م رسولا وبصحبته وفد كبير فاوض المنذر في امر اطلاق سراح القائدين البيزنطيين الاسيرين (١٥) . وقد وصفت تلك المفاوضات بانها كانت تحمل طابع الود لدرجة كبيرة ، وهذا امر بالطبع لم يكن يرضي الملك الفارسي ويوائم سياسة بلاده في بلاد العرب القديمة ، لذا كان على الدولة الفارسية ان تتخذ اجراء سريعا ضد سياسة المنذر العدائية وتنزل به العقوبة المناسبة بطرده من الحيرة .

ويقدم (مناندر Menander) دليلا اخر على اتباع الملك الحيري سياسة تفاهم مع بيزنطة بقوله : « كان المنذر يتسلم من الامبراطورية البيزنطية مساعدات بين الحين والاخر وذلك عندما كان لا ينحاز الى جانب الفرس ، وقد كان متفقا مع الرومان على الا يحرك ساكنا حين تنشب الحرب بينهما » (١٦) . ولعل هذه الاسباب وهذه الشواهد قد دفعت قباذ الى اتخاذ قراره بطرد المنذر بن ماء السماء من الحيرة وتولية الملك الكندي الحارث بن عمرو مكانه واتخذه حليفا بدلا منه ، ويبدو ان الظروف الدولية قد ساعدت على قيام هذا التقارب بين مملكة كندة وبلاد الفرس في هذه الاونة ، فكان التحالف (١٧) .

وعندى لم يكن اعتناق الملك الفارسي للمزدكية ورغبته في تعميمها داخل بلاده وعلى عماله العرب ، وما لاقاه هذا المذهب من ردود فعل سلبية على هذين الصعيدين ورفض المنذر اتباعه ، وقبول الملك الكندي الحارث الدخول فيه ، الا سببا مباشرا اتخذته الملك الفارسي لعزله واحلال الحارث محله . ويقدر بعض المؤرخين ، وفي مقدمتهم جواد علي بعد مناقشات طويلة ان ذلك كان فيما بين ٥١٥ - ٥٣١ م (١٨) . هذا وعلق جواد علي على هذه القضية بقوله : « وليس بمستبعد في نظري ان تكون هذه القصة (قصة دخول الحارث الكندي في المزدكية) ومتابعته دين قباذ من وضع اهل الحيرة المعادين لكندة ، وضعوها والصقوها بالحارث الكندي لتكون سبة له وعارا عليه وعلى كندة لهذا العمل الذي قام به تجاههم ، وهم كما نعلم يكرهون هذا الكندي وينكرون توليته الحيرة ، ولا يدخلون اسمه في قائمة ملوك الحيرة كما صرح بذلك ابن الكلبي » (١٩) .

وقد استقامت طبيعة الود والتحالف بين المملكة الكندية وبلاد الفرس طيلة تولي قباذ عرش الامبراطورية الفارسية ، لكن السياسة الخارجية الفارسية تغيرت بشكل جذري بموت قباذ وانتهاء حكمه واعتلاء ابنه كسرى انو شروان للعرش ، فقد كان منذ حياة ابيه عدوا لدودا للمزدكية ولتعاليمها ، بمجرد وصوله الى العرش اصدر امرا باعادة المنذر بن ماء السماء الى عرش الحيرة وطرد الملك الكندي الحارث بن عمرو منها ، فخرج طريدا باتجاه جنوب شبه الجزيرة العربية خوفا من انتقام المنذر وبطشه .

وبعودة المنذر بن ماء السماء ثانية الى عرش الحيرة بدأت صفحة جديدة من الصراعات العسكرية بين مملكة الحيرة بقيادة المنذر وملوك كندة انتهت بمقتل الملك الحيري على يد الحارث بن جبلة الفساني في يوم مشهور من ايام العرب في الجاهلية اطلق عليه اسم يوم حليلة نسبة الى المكان الذي وقع فيه القتال (مرج حليلة قرب قنسرين) او نسبة الى (حليلة) بنت الحارث الفساني التي كانت تطيب جند ابيها وتلبسهم الدروع وتعدهم للقاء المنذر الحيري ، وقد ارجح المؤرخون هذا اليوم بعام ٥٥٤ م (٢٠) .

ويبدو ان المنذر بن ماء السماء لم يقف عند حد مطاردة الحارث بن عمرو الكندي

او قتله (٢١) في منطقة الشمال من شبه الجزيرة العربية ، بل تابع الصراع مع ابنائه من بعده الذين بقوا متمسكين بما ملكهم والدهم في حياته على بعض القبائل العربية العدنانية وصبروا على قتال المنذر الذي حاول تشتيت امرهم بالخدعة والمكر تارة وبالقتال تارة اخرى ، وحول هذا الامر يذكر لنا اليعقوبي في تاريخه (٢٢) : « انه لما قتل الحارث الكندي قام ولده بما كان في ايديهم من سلطان وصبروا على قتال المنذر طلبا بثأر ابيهم . فلما رأى المنذر تغلبهم على ارض العرب نفسهم ذلك ، واوقع بينهم الشرور فوجه الى سلمة الغلفاء بهدايا ، ثم دس الى شرحبيل من قال له : ان سلمة اكبر منك وهذه الهدايا تاتي من المنذر ، فقطع الهدايا فاخذها ، ثم افترى بينهما حتى تحاربا فقتل شرحبيل ، فكانت معه تميم وضبه فلما قتل خاف الناس ان يقولوا لاختيه سلمة ان اخاك قد قتل وجعل يسمع قولهم فجزع لقتل اخيه وندم على ان المنذر انما اراد ان يقتل بعضهم بعضا ، وفي ذلك قال سلمة شعرا البيتين التاليين :

ان جنبي عن الفراش لناب كتجاني الاسر فون الظراب
من حديث نما الي فما ير فأ دمعي ولا اسيع شرابي .

واذا كانت كندة قد انهارت بانتهاء امر الحارث بن عمرو وابنائهم من بعده بفعل صراعات ونزاعات القوى المختلفة وفي مقدمتها المنذر بن ماء السماء . فان محاولة الامير الكندي امرىء القيس بن حجر الذي بذل جهدا لا يعرف الونى للثأر لابيه واعادة سلطان كندة تحت قيادته ، قد اصطدمت بسياسة الدولة الفارسية المناوئة لكندة وملوكها ، بالاضافة الى حقد الملك اللخمي المنذر الذي اراد بدوره اطفاء شعلة كندة واجتثاث جذورها بكل الوسائل المتاحة ، ولذلك نجده بمجرد التجاء قبيلة بني اسد اليه طالبة الحماية والنجدة ضد امرىء القيس الكندي يعلن لها حمايته ، ويعد العدة مع القبائل العربية الموالية له ، بالاضافة الى جيش الاساورة الذي ارسله انوشروان اليه ، لسحق الاماني والرغبات التي حلم بها الامير الكندي (٢٣) . وحول هذا الجانب من ملاحقة الدولة الفارسية وعاملها على الحيرة لكندة وملوكها يذكر ابو الفرج الاصفهاني في الاغانى (٢٤) ، وابن خلدون في كتابه العبر (٢٥) . « ان امرىء القيس بعد ان انقضت عنه قبيلتي بكر وتغلب التجأ الى معشر الخير ابن ذي جدن احد ملوك حمير حيث امده بخمسمائة فارس وجنود آخرين لمقاتلة بني اسد فلما علمت اسد بهذه الحملة التجأت الى ملك الحيرة المنذر بن ماء السماء الذي وجه في طلبه الفرسان من قبائل اياد وبهراء وتنوخ ، وامده انوشروان بجيش من الاساورة ، فسرجهم في طلبه ففرقت حمير ومن كان معه عنه امام تفوق جيش العدو هذا ، فنجأ من المنذر في عصبة من بني اكل المرار ومعه شيء من ماله وادعه كان قد ورثها عن ابائه » . ويذكر ابن خلدون ان معركة وقعت قبل ذلك جرح فيها امرؤ القيس ، وتحدث ابن قتيبة (٢٦) عن مقتل ثمانية عشر اميرا كنديا في (جفر الاملاك) بعد ان تمكن المنذر من اسرهم في حملته هذه .

واذا كانت معظم علاقات ملوك كندة من بني آكل المرار مع الفرس وعمالهم العرب علاقة نزاع وغزوات وحروب وقتال على نحو ما ذكرنا ، فان الصورة تأخذ شكلا مغايرا تماما بالنسبة لعلاقة ملوك كندة من (بني الجون) مع بلاد الفرس حيث يبدو ان عامل الزمن كان كفيلا بتغيير سياسات الجانب الفارسي ومملكة كندة بعد امرىء القيس بن حجر اخر امراء بني آكل المرار (حوالي منتصف القرن السادس الميلادي) . ففي هذه الفترة كانت فئة ثانية من حكام كندة قد ظهرت على مسرح تاريخها عرفت باسم (الجونيين) نسبة الى (معاوية الجون) (٢٧) .

لم يظهر حكم (معاوية جون) على بعض قبائل كندة فجأة بعد موت امرىء القيس ، بل يعود حكم الجونيين في المنطقة الشرقية لمملكة كندة الى زمن الملك الكندي عمرو المقصور الذي حكم عرش هذه المملكة بعد حجر آكل المرار . ففي هذه الفترة تولى اخوه معاوية الجون الحكم في منطقة اليمامة وهجر (البحرين) (٢٨) . بينما سيطرت بجانبها قبائل عربية قوية بزعامة (كليب وائل) رئيس تغلب على نجد فانشأت قوة مهمة هناك في معارضة مقصودة لا لحمير وحدها بل لعمالها من كندة ايضا (٢٩) .

واذا كانت مملكة كندة قد انهارت بموت الحارث بن عمرو واولاده من بعده في منطقة نجد بعد ملاحقة الفرس والمنذر بن ماء السماء لهم ، وهم من بقي منهم بالعودة الى حضرموت ثانية ، فان ما بقي من الكنديين في اليمامة تحت زعامة معاوية الجون ، كانوا قد تاخروا قليلا بالحق باخوانهم في حضرموت لبعض الوقت . وفي هذا الوقت تعرض الكنديون الى يومين من أشهر ايام العرب في الجاهلية قوة وبأسا خاضهما الكنديون في اليمامة بكل ما استطاعوا من قوة ، هما (يوم جبلة) و (يوم ذي نجب) (٣٠) ، وكانت نتيجةهما نهاية ما لكندة من اثر سياسي في شمالي ووسط شبه الجزيرة العربية ، الى جانب ولادة موقف سياسي جديد شغلته كندة مع الفرس .

لقد وقع يوم جبلة أصلا بين قبائل تميم وعامر ولكنه شمل عدة قبائل اخرى اشتركت في القتال حليفة لهذا الجانب او ذاك ، كان من بينها معاوية الجون ومن معه من رجال كندة حيث لقي مصرعه في المعركة ، وغادر ارض اليمامة على اثرها قسم كبير من الكنديين الى حضرموت كما يذكر الهمداني (٣١) . ومهما يكن من شيء فان الروايات العربية لا تذهب مذهب الهمداني في ان الكنديين اضطروا الى ترك الميدان في اليمامة والبحرين بعد وقعة يوم حليلة مباشرة ، فقد قاتل امير (هجر) من بيت الجون بجيشه من المرتزقة وكندة في وقعة (ذي نجب) في العام التالي ليوم جبلة ، وربما جاءت الضربة القاضية لكندة في يوم ذي نجب فكانت سببا مباشرا لانحلال قوتها نهائيا في شمالي شبه الجزيرة العربية (٣٢) . وما ان انتهى ال الجون من خوض ايامهم في منطقة اليمامة والبحرين حتى اشرف القرن السادس الميلادي على نهايته . وبدأت اخر فلول الكنديين بالعودة الى مكانهم الاول حضرموت بعد ان تلقوا الضربة القاضية

فكانت عودتهم الى ديارهم السابقة كما يذكر الهمداني (٣٤)، ولا بد انها ارتبطت بالتطلعات التوسعية الفارسية في جنوب شبه الجزيرة العربية .

فحول هذه الفترة ، وحول التطلعات السياسية الفارسية في بلاد العرب القديمة وما يمكن أن يكون لمملكة كندة من دور ، يذكر أوليندر . « أن هجرة الكنديين من اليمامة والبحرين الى حضرموت لابد انها حدثت في نهاية القرن السادس الميلادي والتي ترتبط حقا بالغزو الفارسي للعربية الجنوبية ، فلا بد ان كندة في هجر والمشقر قد اعتمدت اعتمادا مطلقا على الفرس الذي نشأ نديهم خلال النصف الثاني من القرن السادس الميلادي ميل قوي نحو التوسع السياسي في الخليج العربي ، ولما امتد هذا التوسع الى العربية الجنوبية ، فان كندة بعدما اصابها من شدائد في نجد واليمامة ربما هالت لامكان عودتها وهي حليفة للفرس الى منازلها الاولى واستئناف علائقها القديمة مع افراد قبيلتها من سكان تلك المشارف» (٣٤) .

* حصل الباحث على شهادة الماجستير في التاريخ برسالته « كندة في الاسلام حتى القرن الثاني للهجرة » باشراف الدكتور سهيل زكار .

المصادر والمراجع :

- (١) لطفي عبد الوهاب يحيى ، العرب في العصور القديمة ، دار النهضة العربية ، الطبعة الاولى ١٩٧٨ م ، ص ٣٩٢ .
- (٢) اليعقوبي : احمد بن واضح ، تاريخ اليعقوبي ، دار صادر بيروت ج ١ ، ص ٢١٦ .
- (٣) الحموي ، ياقوت ، معجم البلدان ، دار صادر ، بيروت ١٩٥٧ ج ٦ ، ص ٩٨ .
- (٤) الضبي ، الفضل بن محمد ، الفضليات ، شرح ابن الانباري ، تحقيق لایل ، بيروت ١٩٢١ م . ص ٤٢٨ . الدينوري ، ابو حنيفة احمد بن داود ، الاخبار الطوال القاهرة ١٩٦٠ م ص ٥٣ وما بعدها .
- (٥) ابن هشام ، ابو محمد عبد الملك ، السيرة ، القاهرة ١٩٥٥ م القسم الاول ، ص ٤٣ وما بعدها .
- (٦) Chronographia, p. 141.
- (٧) المصدر السابق ص ١٤٣ .
- (٨) المصدر السابق والصفحة نفسها .
- (٩) المصدر السابق والصفحة نفسها .
- (١٠) يوشع العمودي ، الفصل ٥٧ .
- (١١) Chronographia, Lib, XVIII (col 641)
- (١٢) Cronographia, p. 179
- (١٣) اوليندر جونار ، ملوك كندة من بني اكل المرار ، بغداد ١٩٧٣ م ، ص ١١٤ .
- (١٤) See O., Blau Arabien in Sechsten Jahrhundert, Z. D. M. G. 23, Leipzig 1869, p. 579 FF.
- (١٥) عاقل نبيه ، تاريخ العرب القديم والعصر الجاهلي ، مطبعة الداودي ، دمشق ١٩٨٢ م ، ص ١٧٥ .
- (١٦) Fragmenta Historicorum Graecorum, call. C, Malleres, V. 4, Paris 1851.
- (١٧) ليس معنى ذلك ان المنذر بن ماء السماء الملك اللخمي عامل الفرس على الحيرة لم يقدم خدمات الى الفرس قبل ميله الى الروم وسياستهم ، فقد خدم الفرس قبل ذلك ونفذ سياستهم وخاص في مناسبات عديدة حروبا ضد عرب الروم (الفساسنة) والروم انفسهم لم يكن لهم مصلحة بخوضها بقدر ما كانت تحقق من مصالح كبرى لدولة الفرس . ومن أشهر المعارك التي خاضها في سبيل ذلك ما حدث عام (٥١٨ و ٥١٩ م) عندما هاجم المنذر ممتلكات بيزنطة في سورية بعدما رفض امبراطور بيزنطة جوستين الاول دفع الاتاة التي قبلت بيزنطة بدفعها لفراس في الصلح الذي عقد بينهما عام ٥٠٦ م ، ثم خاض المنذر المعركة التي حدثت بين الفرس وبيزنطة عام ٥٢٨ م الى جانب الفرس وتوغل في بلاد الشام ، وجدد هجماته على سورية سنة (٥٢٩ م) وتوغل فيها حتى انطاكية وانسرب فيها الى داخل الامبراطورية البيزنطية في اسيا الصغرى واحرق هناك عددا من القرى والمدن من بينها مدينة خلقدونية . نظر : جواد علي ، الفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام ، بيروت ، دار العلم للملايين ١٩٧٦ ، ج ٤ ، ص ٥٤ .
- (١٨) جواد علي : الفصل ج ٤ ، ص ٦٧-٦٩ .

- (١٩) المصدر السابق : ج ٤ ، ص ٧١ . بالاضافة الى ذلك فقد ذكر اوليندر في كتابه ملوك كندة من بني اكل المرار ، بغداد ، ص ١٠٧ مايلي : « ان الحارث استطاع ان يسطر سلطانه على الجزء الاعظم من بلاد اللخمييين في اثناء اعوام الاضطراب ما بين (٥٠٣ - ٥٠٦ م) عندما اشتد اوار الحرب بين بيزنطة والفرس . اما ان الحارث قد عند ملك العراق في نظر قبائله فهذا امر يوضحه شاعر كندة العظيم امرؤ القيس حفيد الحارث في البيت التالي :
- أبعد الحارث الملك بن عمرو
له ملك العراق الى عمان
- انظر شرح ديوان امرؤ القيس ، حسن السندوبي ، القاهرة ١٩٥٩ م ، ص ٢١٥-٢١٦ .
- (٢٠) ابن الاثير : الكامل في التاريخ ، دار صادر ، ج ١ ، ص ٥٤٢ .
- (٢١) هناك روايات عديدة جاء بها الاخباريون العرب في مصادرهم تروي لنا جميعها كيفية موت الحارث الكندي لكن بشكل مختلف . راجع تلك الروايات في كتاب كندة في الاسلام حتى نهاية العصر الاموي ، دمشق ١٩٨٥ ، ص (٩٧-١٠٠) .
- (٢٢) ابو الفرج الاصفهاني ، الاغانى ، دار الكتب المصرية ، القاهرة ١٩٢٧ - ١٩٧٠ م ، ج ٩ ، ص ٩٣ .
- (٢٣) ابن خلدون عبد الرحمن بن محمد ، كتاب العبر وديوان المبتدا والخبر في ايام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الاكبر . دار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر ١٩٥٦ م ، ج ٢ ، ص ٢٧٥ .
- (٢٤) ابو الفرج الاصفهاني ، الاغانى ، دار الكتب المصرية ، القاهرة ١٩٢٧ - ١٩٧٠ م
- (٢٥) ابن خلدون ، العبر ، ج ٢ ، ص ٢٧٥ .
- (٢٦) ابن قتيبة ، الشعر والشعراء ، ليدن ١٩٠٢ ، ص ٤٤ .
- (٢٧) الجون : لقب معاوية الكندي وقد لقب بالجون لشدة سواده . انظر الاغانى : ج ١١ ، ص ١٣٣ .
- (٢٨) الاصفهاني ، الاغانى ، ج ٩ ، ص ٧٩ . حيث جاء فيه : « كان عمرو بن حجر وهو المقصور ملكا بعد ابيه وكان اخوه معاوية وهو الجون على اليمامة واهما شعبة بنت ابي معاهر بن حسان بن عمرو بن تيع » .
- (٢٩) اوليندر : المصدر السابق ، ص ١٨٣ .
- (٣٠) ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ج ٥ ، ص ١٤١ . حيث جاء فيه « قال ابو عبيدة يوم شعب جبلة اعظم ايام العرب » . وفي كتاب الاغانى لابي الفرج الاصفهاني جاء مايلي عن يوم جبلة « فحشدوا (أي بني ذبيان) واستعدوا وخرجوا وعليهم حصن بن حذيفة بن بدر ومعه الحليفان اسد وذبيان يطلبون بدم حذيفة واقبل معهم شرحبيل بن الاخضر الجون بن اكل المرار والجون هو معاوية الكندي في جمع من كندة واقبلت بنو حنظلة بن مالك والرباب عليهم لقيط بن زرارة يطلبون بدم معبد بن زرارة وينشربى بن عدس واقبل معهم حسان بن عمرو الجون الكندي في جمع عظيم من كندة » . وقد عين تاريخ يوم جبلة بعام ٥٥٢ م كما ذكر اليزيدي في نقائص جرير والفرزدق طبعة لایل ، ص ٦٨٦ .
- (٣١) الهمداني (الحسن بن احمد) : كتاب صفة جزيرة العرب ، دار اليمامة ١٩٧٤ م ، ص ١٦٨-١٦٩ .
- (٣٢) ابن الاثير : لكامل في التاريخ ، دار صادر بيروت ، ج ١ ، ص ٥٩٥ .
- (٣٣) الهمداني : صفة جزيرة العرب ، دار اليمامة ١٩٧٤ ، ص ١٧٥ .
- (٣٤) اوليندر ، المصدر السابق ، ص ٢٠٧ .

جغرافية اليمن

في القرن الأول للهجرة / السابع للميلاد

محمد سعيد شكري

جامعة عدن

اختلف الباحثون في سبب تسمية اليمن يمناً ، فمنهم من ينسبها الى يمن بن قحطان ، او الى يمن بن قيذار ، وقيل سميت يمنا لانها واقعة على يمين الكعبة ، او لانها على يمين الشمس ، او لتيامن الناس اليها(١) .

وفي النصوص العربية الجنوبية « المسند » وردت كلمة « يمنت - يمنات » كم منطقة صغيرة ذكرت في نص يعود عهده الى ايام الملك شمريهرعش (٣٠٠ م أو بعدها بقليل) بعد كلمة حضرموت في الترتيب (سبأ وذي ريدان وحضرمون ويمنت) . وتعني يمنت ، في العربية الجنوبية ، الجنوب .

و « يمنت » الواردة في النص السابق في رأي جلاسر (Glaser) منطقة تشمل القسم الجنوبي الغربي من جزيرة العرب ، من باب المتدب حتى حضرموت(٢) .

وفي الكتابات المعينية(*) المهمة، كتابة رقمت برقم Glaser III5 = Halvey 335 (Halevey 578) تتحدث عن حرب وقعت بين « ذيمنت » و « ذشامت » ، أي بين الجنوب والشمال . ومن « يمنت » جاءت كلمة اليمن(٢) .

يتضح ان « يمنت » هي ارض الجنوب ، جنوب الجزيرة العربية ، مقابل

(*) اختلف الباحثون حول الفترة الزمنية للنص ما بين قبل الميلاد وبعده ، لكنه سابق عن نص الملك (شمريهرعش) انظر جواد علي : مرجع سابق ٧٩/٢ .

« شامت » أرض الشمال ، شمال الجزيرة العربية (*) . وبهذا فان النص المعيني يشير الى ان التسمية قديمة ولكن نتيجة للتجزئة السائدة آنذاك في الرقعة السياسية اليمنية لم تتمكن الكلمة من النمو ، فظهرت في نحو القرن الرابع الميلادي (٣٠٠ م أو بعدها بقليل) لتدل على منطقة محددة . وبما ان للكلمة عمقها التاريخي والجغرافي فسرعان ما انتشرت لتشمل كل حدود اليمن الطبيعية وأقسامها ، حسب تحديد المؤرخين والجغرافيين العرب والمسلمين ، في العصور الاسلامية المختلفة .

يحتل اليمن الجزء الجنوبي من شبه جزيرة العرب ، ويشكل بحدوده الطبيعية - في بداية الاسلام - شبه جزيرة طبيعية متميزة ، تمثل صلة الوصل ما بين الهند والصين ، وشرق افريقية والمحيط الهندي (٤) .

وتأتي الاهمية الكبرى لموقع اليمن من كونه يقع على « فرضتى الدنيا » (٥) آنذاك: البحر الاحمر والخليج العربي ، مما جعله معبرا للتجارة العالمية الى فارس ، وشرق البحر المتوسط (بلاد الشام) ، ومصر ، وبلاد الاغريق ، وروما من جهة ، ومع الحبشة ، وشرق افريقية وسيلان والهند والصين من جهة اخرى (٦) .

وهذه الاهمية الاستراتيجية والتجارية للموقع اليمني ، جعلته هدفا ومطمعا لغزوات اجنبية مرات عديدة (٧) .

وقد اثر الموقع في عملية الاختلاط السكاني والحضاري بين اليمن ولاقطار التي اتصل بها ويظهر ذلك على السواحل او في المناطق اليمنية الداخلية (٨) .

كما شكل هذا الموقع الفريد ، منطقة كثافة سكانية عالية في الجزيرة العربية على العصور (٩) .

حدود اليمن :

قسم العرب جزيرتهم الى خمسة اقسام :

تهامة والحجاز وتجبند والعروض واليمن (١٠) . وقد افاض المؤرخون والجغرافيون العرب والمسلمون في العصور الاسلامية في تبيان وتفصيل حدود واقسام اليمن ، التي تحتل الجزء الجنوبي من شبه الجزيرة العربية .

يحد اليمن من الشرق الخليج العربي ، ومن الجنوب المحيط الهندي ، ومن

(*) يرى الهمداني ان الجزيرة العربية « عند اهل اليمن يمن وشام فجنوبها اليمن وشمالها الشام » .
الصفة : ٦٤ .

الغرب البحر الاحمر (القلزم) (١١) . ويفصل بين اليمن في الجنوب وباقي الجزيرة العربية في الشمال خط يبدأ من حدود عمان ويَبْرِين الى حد ما بين اليمن واليمامة فالى حدود الهَجْرَة وتثْلِيت وأنهار جُرْش وكثْنة ، منحدرًا في السراة على شتَعف عنز ، الى تهامة على ام جحدم - وهي أول حدود اليمن - الى البحر حذاء جبل يقال له كدمل بالقرب من حمضة (١٢) .

ويحدد الاصمعي بداية الحدود الشمالية الشرقية لليمن عند بينونة - وهي ليست من اليمن - بين عمان والبحرين (١٣) ومما يلي المشرق غربا رمل بني سعد الذي يقال له يبرين وهو منقاد من اليمامة حتى حضرموت (١٤) .

اما حدود اليمن الشمالية في العصور القديمة ، فلم تشر المصادر الى تحديد رسمي لها ، غير ان هيمنة الدول اليمنية القديمة السياسية والحضارية قد وصلت الى اصقاع بعيدة شمالا ، وناوحت الدول اليمنية القديمة الفرس على حدود العراق والجزيرة ودول الشام ، بل ان السيطرة اليمنية السياسية والاقتصادية كانت لاتضاهي على المنطقة الممتدة من الحجاز الى الشام (١٥) . ويبدو ان علاقات اليمن الاقتصادية فرضت الوجود البشري والسياسي والحضاري في خط الحجاز - الشام (١٦) .

اما الحديث عن سيطرة الدول اليمنية على القبائل العربية في وسط الجزيرة وتعيين ولاية لها على هذه القبائل وعلى اهم مدنها في اليمامة ونجد ، ومكة ويثرب (١٧) ، فذلك ما افاضت بذكره المصادر القديمة .

ولهذا نستطيع ان نقول ان الحدود الشمالية لليمن كانت تتحدد حسب قوة النظام السياسي اليمني وهيمنته على خطوط التجارة ، في الجزيرة العربية ، ومع العراق والشام ، ومدى سيطرته على القبائل في وسط الجزيرة العربية وشمالها .

لكن المصادر الجغرافية والتاريخية الاسلامية اعطت تصورا للحدود اليمنية الشمالية في فترة بداية سيادة الاسلام على اليمن . آخذة في اعتبارها الامتداد السكاني المتصل للقبائل اليمنية ، سواء في تهامة ام سروات الحجاز ونجد ، فالحد الفاصل بين حدود اليمن من جهة تهامة « ام جحدم » ، وهي قرية بين الازد وكنانة (١٨) . ويعتبر ياقوت (الليث) « في اول ارض اليمن » (١٩) ، اما في سروات الحجاز فحد اليمن من يللم ثم على ظهر الطائف (٢٠) . حيث يشير البكري وياقوت (٢١) الى نزول بجيلة وثقيف ، « حضرة الطائف » ، واشتراكهما فيها منذ الجاهلية حتى قيام الاسلام . وما زالت بجيلة في مواطنها حتى عصرنا الحاضر (٢٢) . ثم يمتد الخط (خط الحدود) شرقا الى بلاد خثعم بين بيشة وتربة وما صاقب تلك البلد التي نزلتها (خثعم) منذ العصر الجاهلي (٢٣) ، وتوجد اليوم في هذه المناطق وخاصة تربة والقرى التابعة لها عشيرة البقوم من قبيلة الازد اليمنية وجبلهم المنيع حصن (٢٤) ، الذي كانت تمتلكه قبيلة قضاة اليمنية في الجاهلية (٢٥) .

ويلي خط الطائف - تربة جنوباً سراة الازد «أزد شنوءة» التي يعتبرها ياقوت (٢٦) «مخلاف باليمن» بل ويجعل امتداد أرض شنوءة على محجة مكة إلى عرفة ويفرع إليها سبيل الصلة من ثور . ويسمى البكري (٢٧) سراة شنوءة بالحجاز الأسود تفريقاً له عن حجاز المدينة . وللتفريق الجغرافي السابق دلالة مورفولوجية إذ إن كل قسم يعتبر اقليماً مورفولوجياً له خصائصه المميزة في الارتفاع والمناخ والحياة النباتية (٢٨) . ويطلق على هذه المنطقة سابقة التحديد اليوم «عسير» ، نسبة إلى قبيلة عسير التي تنسب إلى قبيلة الازد اليمنية (٢٩) .

ويلتقي خط الحدود يللم - الطائف - تربة - بيشة المتجه شرقاً بالتحديد السابق للهمداني عند وادي ثلثيت من ديار قبيلة مذجع اليمنية (٣٠) ، وتحدد بعد ذلك بعض المراجع (٣١) الحديثة وادي الدواسر كحد شمالي لليمن ، ومن ثم حدود اليمامة ، فيبرين مرة أخرى .

وهذا التحديد الجغرافي للحدود الشمالية كان نتاج عوامل تضاريسية ومناخية ونباتية ، ناهيك عن الجوانب السكانية ، إذ شكلت اليمن وحدة طبيعية متكاملة ذات خصائص جغرافية متميزة عن باقي وسط الجزيرة العربية وشمالها .

وهذا ما تشير إليه أحدث الدراسات الجغرافية الطبيعية حيث تعتبر اليمن من وجهة نظر التقسيم الجغرافي مصراً (Country) مميزاً ، يشمل حيزاً جغرافياً يمتد من جبال عسير في الحجاز وحتى خليج عدن . . وله خصائصه الجيولوجية والنباتية والمناخية المميزة (٣٢) .

فمرتفعات اليمن الشمالية ، سراة شنوءة (سراة عسير) شكلت اقليماً مورفولوجياً خاصاً ، إذ تعتبر أكثر ارتفاعاً من جبال الحجاز الشمالية ، إذ يتراوح ارتفاعها بين (٨٠٠ - ٣٠٠٠ متر) فوق مستوى سطح البحر (٣٣) .

كما تهطل الأمطار الموسمية على اليمن ، ومنها عسير ، بينما تظل المناطق الشمالية من خط الحدود اليمنية بعيدة عن هذه الأمطار . ولهذا فإن الخصوبة تنتهي شمالاً عند مدينة الليث على شاطئ البحر الأحمر . وتؤمن الأمطار الموسمية زراعة الأرض اليمنية ، زراعة منتظمة ، وتوجد فيها خضرة دائمة في أودية خصبة (٣٤) .

وقد تنبه لهذه الخصوصية الجغرافية اليمنى الهمداني (٣٥) ، حيث ذكر صفة بلاده بـ «اليمن الخضراء لكثرة أشجارها وثمارها وزروعها» .

أما من حيث الحدود الشمالية الشرقية لليمن ، فقد اكتنفتها مناطق صحراوية واسعة خالية من الأبار والسكان والمراعي ، قفرة لا تسلك إلا بصعوبة كبيرة (٣٦) .

ومن الجدير بالذكر ان الصراع في منطقة الحدود الشمالية لليمن ظل قائما بين القبائل الجنوبية والشمالية منذ الجاهلية حتى بداية العصر العباسي دون ان يحصل اي تغيير يذكر في هذه الحدود (٢٧) ، ودليلنا على ذلك ان الوثائق السياسية لم تشر البتة الى اي وجود سكاني كبير للقبائل الشمالية في هذه المنطقة (٢٨) وقد سجلت المصادر (٩٣) بعد ذلك مدا سكانية لاحقا للاسلام ، اتجه جنوبا حيث بدأت عشائر و قبائل شمالية تظهر في مناطق الحدود الشمالية لليمن سواء اكانت مدنا ام قرى او مراعي ، وتشكل فيها اعدادا كبيرة مثل قبيلة عنز في جرش وفريش في قريتي تبالة والمراغة .

واتر هذا المد السكاني تأثيرا كبيرا على المؤرخين والجغرافيين العرب والمسلمين ، فتم تحديد الحدود الشمالية لليمن حسب الفترة التي كتبوا فيها كتاباتهم ، مستجيبين بذلك لاحداث طرات متأخرة على قيام دولة الخلافة الراشدة .

وتأثر بذلك التحديد المتأخر للحدود الشمالية بعض من بحث في تاريخ اليمن (٤٠) في صدر الاسلام ، فجاء تحديدهم لحدود اليمن بعيدا عن المنطلقات الديموغرافية والبيئية والحضارية ، ولم يأخذوا بعين الاعتبار التغيرات التي طرات في فترات لاحقة منذ قيام الاسلام ، فاسقطوا حدود القرن الرابع الهجري لليمن على حدودها الشمالية في صدر الاسلام .

ولهذا فانه من خلال البحث والاستقصاء الكاملين للمصادر الادبية والجغرافية والتاريخية يمكن اجراء الرصد الواضح لحدود اليمن الشمالية في الفترة مدار بحثنا هذا ، وهي صدر الاسلام .

وبناء على التحديد السابق للجغرافيين والمؤرخين العرب والمسلمين للحدود اليمنية فان ما « صار خلف تثليث وما قاربها الى صنعاء وما والاها من البلاد الى حضرموت والشحر وعمان وما بينهما : اليمن وفيها التهائم والنجود واليمن يجمع ذلك كله » (٤١) وتفصيل المناطق اليمنية كما يلي :

سراة بجيلة ، سراة الازد (عسير) بلاد خثعم ، بلاد مذحج ، بلاد فرسان وحكم وعك والاشعريين ، نجران ، مخلاف صنعاء ، مخلاف الجنيد ، حضرموت الاسعاء (الشحر) مهرة عمان (٤٢) .

ومما يؤيد ان هذه المواضع تشملها اليمن « كتب اليهود من الخلائف لولة صنعاء اليمن ومخاليقها ، وعك ، وعمان ، وحضرموت » (٤٣) .

كما تضم اليمن العديد من الجزر في البحر الاحمر مثل : دهلك ، فرسان ، كمران

جزر زقر ، جزر فاطمة ، جزيرة ميون (بریم) عند المدخل الجنوبي للبحر الأحمر . ، وفي البحر العربي مثل جزيرة سقطرة ، وكوريا موريا ومصرة (٤٤) . وتقدر المصادر القديمة مساحة اليمن «نحو الثلثين من ديار العرب» (٤٥) وتختلف المراجع (٤٦) الحديثة في تحديد مساحة اليمن الطبيعية في عصرنا الحاضر .

وتنقسم اليمن تضاريسيا الى الاقاليم التالية :

السهول الساحلية : وتنقسم بدورها الى الاقسام التالية :

١ - السهل الساحلي الغربي لليمن : واشتهر في الكتابات القديمة بتهامة أو الفور . وتمتد تهامة اليمن التي تسمى « بلاد حكم والإشعريين وعك » من الليث شمالا الى باب المندب جنوبا ، ويحدها غربا ساحل البحر الاحمر وشرقا المرتفعات الغربية ، وتقطع هذه المرتفعات اودية عدة تنتهي الى البحر الاحمر ، ويتركز فيها الاستقرار السكاني . ويتراوح عرض سهل تهامة بين ٤٠ و ٧٠ كم (٤٧) . ومن الجدير ذكره هنا ان الهمداني (٤٨) يعتبر عدن جنوبية تهامية ، ويرى القلقشندي (٤٩) ان عدن « اعظم المراسي باليمن » ، وظفار « قاعدة بلاد السحر » تهاميتان ، معتبرا الساحل الجنوبي لليمن من تهائم اليمن .

٢ - السهل الساحلي الجنوبي : وهو سهل ضيق يتراوح عرضه بين ٨ و ١٧ كم حيث يتصل بعد خط طول ٥٧ شرقا برمال الصحراء اليمنية « الربع الخالي » ، ويشمل ثلاثة اقسام رئيسة :

١ - ساحل عدن ب - ساحل حضرموت ج - ساحل ظفار (٥٠) .

٣ - السهول الشرقية وتنقسم الى قسمين .

١ - الباطنة : التي تقابل « تهامة » في غرب اليمن وتمتاز بخصوبتها وسعتها وتمتد بين مسقط جنوبا ودبا شمالا ، ويصب فيها عدة اودية من مرتفعات الحجر الغربي أهمها وادي سمائل ووادي الجزري الذي يصب قرب صحار (٥١) .

ب - السهل السالحي : المطل على الخليج العربي ابتداء من مدخل الخليج حتى حدود اليمن الشمالية الشرقية عند بينونة ، ويقع ضمن نطاق السهول الشرقية للجزيرة العربية (٥٢) .

المرتفعات اليمنية :

١ - اقليم المرتفعات الغربية لليمن « السروات » ، يشكل وحدة طبيعية قائمة بذاتها تمتد من مشارف الطائف شمالا « سراة يجيلة » ، لتضم جبال عسير « سراة

الازد « عند خط ٢٠ شمالاً ، الى جبل العر « شمسان » في عدن جنوباً ، ويتسع امتداد المرتفعات الغربية لليمن نحو الشرق كلما اتجهنا جنوباً ، ويزداد ارتفاعاً ، فيصل ارتفاع أعلى قممها ، جبل النبي شعيب (٣٠ ميلاً غرب صنعاء) الى ٣٧٦٠ متراً .

ويتراوح ارتفاع الجبال اليمنية بين ٥٠٠٠ ر. ١٠٠٠ قدم (٥٢) * ومن أشهرها جبال « هجير في سقطرة » والعر (شمسان) وردفان وحريز وجحاف وثمر والكور والظاهر وصير والتعكر وريمان وحصن ارياب وضوران وشبام وحضور ومسور المنتاب والمصانع وجبل ابها والحضن وبرط وهيلان وتقم وعيبان واسبيل ومشوة والعود (٥٤) .

٢ - المرتفعات الشرقية لليمن « مرتفعات عمان » .

تقع هذه المرتفعات شرق اليمن ، وتختلف بنيتها عن المرتفعات السابقة وتأخذ شكل هضبة ارتفاعها ٤٠٠٠ قدم تمتد موازية لساحل خليج عمان من رأس مسندم في الشمال الى ساحل البحر العربي جنوباً .

وتنقسم هذه المرتفعات الى ثلاثة اقسام : في الشمال صخور مسندم ويليها جنوباً الحجر الغربي . وتمتاز منطقة جبال الحجر الغربي بانتشار مجموعة من الاودية الخصبة فيها تصب في سهل الباطنة ويتمثل قسمها الثالث وهو الجنوبي بكتلتها الجبل الاخضر والحجر الشرقي بالتتابع .

وأعلى جبال مرتفعات اليمن الشرقية الجبل الاخضر اذ يبلغ ارتفاعه ٣٠١٨ متراً (٥٥) .

- الهضاب اليمنية :

١ - الهضبة الشرقية لمرتفعات اليمن الغربية او ما يسمى في المصادر القديمة « نجد اليمن » ، وتقع شرق المرتفعات اليمنية الغربية وتنحدر تدريجياً الى الشرق ، وتقطعها عدة اودية الى الشرق مثل بيشه وتثليت والجوف والى الجنوب مثل تبين وأبين اللذان يصبان في ساحل عدن . ويحد هذه الهضبة شرقاً صحراء اليمن . ويبتدىء طول هذه الهضبة من الجبال الجنوبية لليمن المطلة على لحج وأبين « حريز وجحاف » وبقيّة جبال سروحير ومدحج » وينتهي في الشمال للاقليم اليمني الى اعراض نجد : تثليت وبيشة وتباله . ومن أشهر مدن نجد اليمن جرّش ونجران وصعدة وصنعاء والجند وجبا وجيشان ومنكث وذمار ورداع وردمان وقرن وحصي (٥٦) . ومتوسط ارتفاع الهضبة « نجد اليمن » ٥٠٠٠ قدم ، ويزداد الارتفاع فيها تدريجياً نحو الجنوب في منطقة يريم . وتشتهر الهضبة بالقيعان (الحقول)

لازراعية المتعددة ، أما في شمال الهضبة فان الارتفاع يتراوح بين ٤٠٠٠ - ٥٠٠٠ قدم فوق سطح البحر . واهم التلال الصخرية شمال الهضبة اليمنية جبال القهر ، وجبال الوجيد وجبال القارة الواقعة شرق وادي تثليت (٥٧) .

٢ - هضاب حضرموت ومهرة ، ويحدها من الغرب جبال سرو مذحج وحمير ، والاجزاء الجنوبية من الهضبة السابقة ، وتتدرج في الانحدار صوب الشرق الى أن تصل الى ما يقرب من ١٥٠ مترا عند خط طول ٥٧ شرقا ، ويستمر هذا المستوى نحو ٢٥٠ كيلو متر الى أن تصل الحد الجنوبي لجبال اليمن الشرقية في عمان . ويقطع هذه الهضاب وادي حضرموت من الغرب الى الشرق ويصب بالقرب من سيحوت (٥٨) .

- اقليم الصحراء اليمنية « الربع الخالي » (٥٩) .

وهو اقليم واسع يقع شرق الهضبة اليمنية « نجد اليمن » وشمال وشمال شرق هضاب حضرموت ومهرة ، وغرب مرتفعات اليمن الشرقية في عمان وغرب السهول الساحلية الشرقية لليمن الواقعة على الخليج العربي ، حيث تنتهي حدودها مع حدود اليمن الشمالية والشمالية الشرقية ، ويقسم اقليم الصحراء اليمني الى :

أ - صحراء الصيهد : وتتفرع من الدهناء من ناحية اليمامة ويبرين والفلج ، وتكون شرق اعراض نجد تبالة وببشة وتثليت وترج وشرقي نجران والجوف ومأرب وبيحان (٦٠) .

ب - الاحقاف وتقع شمال هضبة حضرموت ومهرة ورمالها كثيرة وغزيرة (٦١) .

ج - وبار وتشكل الجزء الشمالي الشرقي للصحراء اليمنية وحدودها الشمالية رمل يبرين واليمامة والبحرين (٦٢) .

ويختلف مناخ اليمن باختلاف اقاليمه التضاريسية ، ووفقا للقرب والبعد عن البحر والقرب والبعد من خط الاستواء . وتهب على اليمن الرياح الموسمية سواء الرياح الموسمية الافريقية صيفا التي تسقط امطارها على غرب اليمن ، ام الرياح الموسمية الشتوية الاسيوية لتسقطا مطارها على شرق اليمن في اقليم عمان ومهرة وحضرموت .

ويتركز هطول المطر في اليمن في فصل الصيف . ويحدد ابن خرداذبة شهور المطر في العاصمة صنعاء وما والاها بحزيران ، وتموز وآب وبعض ايلول (٦٣) .

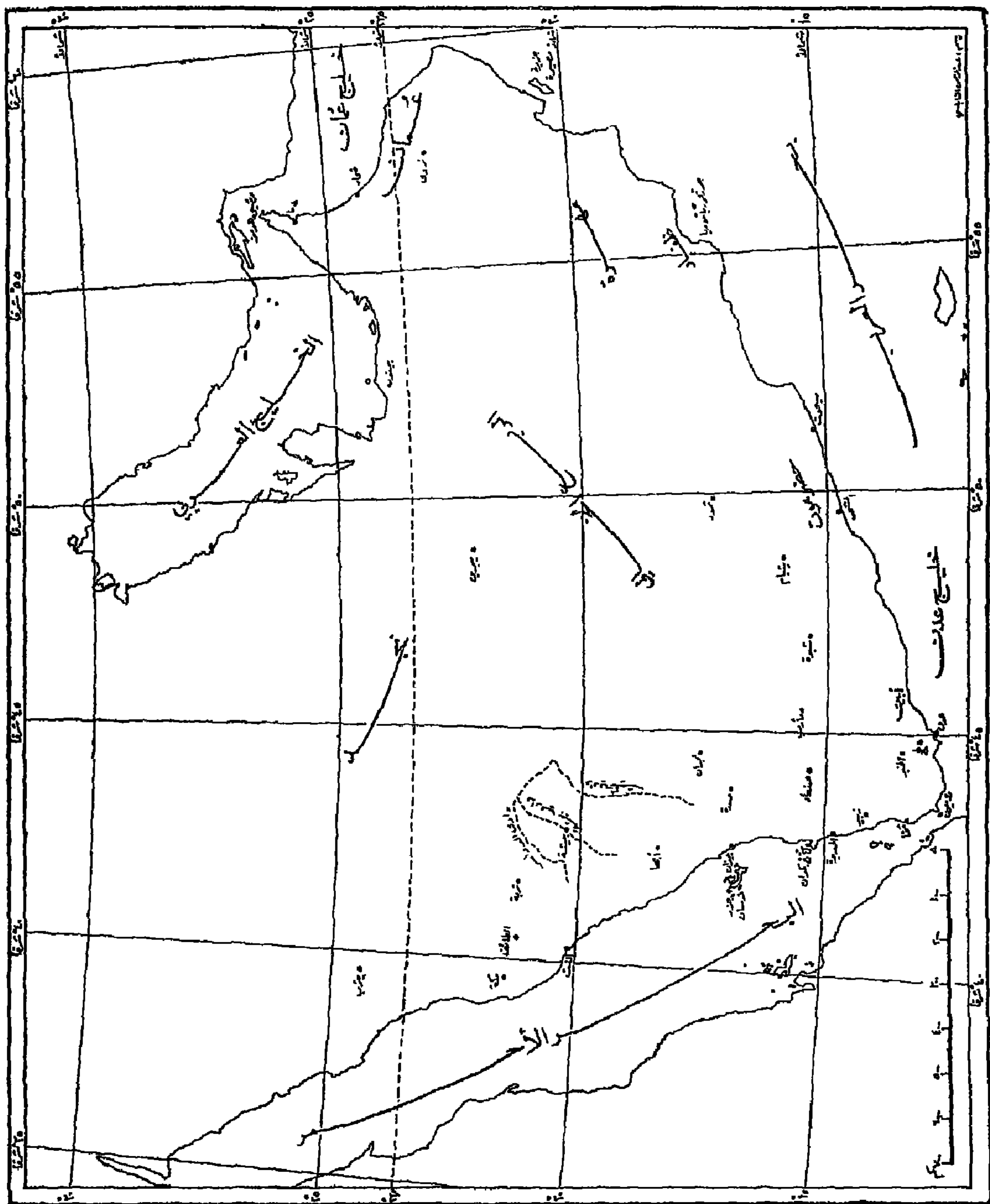
وتشتد درجة الحرارة في التهامم والسهول اليمنية صيفا ، بينما تظل درجة الحرارة في المرتعات والهضاب اليمنية معتدلة (٦٤) ، كما ان معدلات الامطار في سهول

نهامة تقل عن معدلها في المرتفعات . ومطر المرتفعات اكثر من مطر المناطق الهضبية الداخلية (٦٥) .

وتؤثر الامطار في التربة اليمنية فتزداد خصوبتها تبعا لزيادة الامطار . والتربة في اليمن تربة طميية او غرينية في المناطق غزيرة الامطار ، وحمراء بنية او بنية - صفراء في المناطق الجبلية . وهذه الانواع من الترب تكونت نتيجة التعرية المائية في الوديان التي تجري مياهها فترة ليست بالقصيرة بعد نزول الامطار في اقاليم اليمن جميعا ، وهي تربة غنية بخصوبتها (٦٦) .

ونتيجة لتنوع المناخ في اليمن وتنوع انواع التربة ، تتنوع النباتات الطبيعية والغلات الزراعية ، حيث تقوم الزراعة على دلتا الوديان اليمنية الشهيرة ، وفي القيعان الزراعية ومدرجات الجبال الشاهقة (٦٧) .

ونكتفي هنا بذكر انواع النبات الطبيعي ، ويجمل الهمداني (٦٨) ذلك قائلا : « نبات اليمن بين روض وشجر عري ، وعضاة مطعمة ، وعضاة شوكة ، وحشائش وزهور وانوار ، فاما الحشائش ففيها اكثر حشائش العقار » . وتنمو اشجار السلم والاراك والحموض والعلاك والصبر الجحدي في شمال اليمن (٦٩) ، والحشائش واشجار السنط والائل والسلم والقضاب والفضاة والهجليج في سهول تهامة (٧٠) وتنبت في الصحاري الخزامي والرخامي والسخبر والكمأة في فصل الربيع (٧١) ويمكن القول ان الجزء الشرقي والشمال للهضاب اليمنية ، غني بالنباتات الرعوية وينطبق ذلك على هضاب عمان الداخلية وسفوح الجبال فيها (٧٢) .



- (١٢) المسعودي (ابي الحسن علي) ، مروج الذهب ، دار الاندلس ، بيروت ٤٢/٢ ، البكري (عبد الله بن عبدالعزيز) ، معجم ما استعجم ، تحقيق مصطفى السقا ، عالم الكتب ، بيروت ، الطبعة الثالثة ١٩٨٣ ، ١٤٠١/٣ . الرازي (احمد بن عبد الله) ، تاريخ مدينة صنعاء ، تحقيق حسين العمري ، الطبعة الثانية ، ١٩٨١ ، ١٠ . القلقشندي (ابي العباس احمد) ، صبح الاشئ ، المطبعة الاميرية ، القاهرة ، ١٩١٣ ، ٦/٥ .
- (٢٢) علي (جواد ، الفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام ، دار العلم للملايين ، بيروت ، الطبعة الثالثة ، ١٩٨٠ ، ٥٣٠/٢ - ٥٣١ . بافقيه (محمد) ، تاريخ اليمن القديم ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ١٩٧٣ ، ١٤٥ .
- (٣) جواد علي ، ٥٣١،٨٨،٧٩/٢ . بافقيه ١٤٥ .
- (٤) الاصطخري ؟ ابي اسحاق ، الاقليم ، مكتبة المثنى ، بغداد ، ٧ . ابن حوقل (ابي القاسم) ، صورة الارض ، مكتبة الحياة ، بيروت ٢٩ ، ٥١ الهمداني (الحسن بن احمد) ، صفة جزيرة العرب ، تحقيق محمد بن علي الاكوع ، دار اليمامة ، الرياض ، ١٩٧٤ ، ٦٥ البكري ، ٩/١ . ياقوت ؟ شهاب الدين) معجم البلدان ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٧٧ ، ١٣٧/٢ ، ٤٤٧/٥ . القلقشندي ٥٥ ، ١١ - ١٠ ، ٦/٥ . الافغاني (سعيد) اسواق العرب ، دار الفكر ، دمشق ، الطبعة الثانية ، ١٩٦٠ ، ٢٠ . لطفي عبد الوهاب ، العرب في العصور القديمة ، دار النهضة العربية ، بيروت ، الطبعة الثانية ، ١٩٧٩ ، ٣٣٠،٩١ - ٣٣١ . جمال آغا (شاهر) ، جغرافية اليمن الطبيعية ، مكتبة الانوار ، دمشق ١٩٨٣ ، ٧ . الاكواع ؟ محمد) ، اليمن الخضراء ، دار مكتبة الجبيل ، الطبعة الثانية ، ١٩٨٢ ، ١٤٧ . باوزير (عبد الله) تاريخ اليمن القديم ، مشروع كتاب « تطور المجتمع اليمني » جامعة عدن ١٩٨٥ ، ٢٦ ، « الحركات الشعبية في اليمن » . جعفر ظفاري ، مجلة الثقافة الجديدة اليمنية ، عدد مارس ، ١٩٧٥ ، ٨ .
- (٥) المقدسي ؟ شمس الدين ، احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم ، مطبعة بريل (ليدن) ، الطبعة الثانية ، ١٩٠٦ ، ٩٧ .
- (٦) ابن حبيب (ابي جعفر) ، المحبر ، دار الافاق الجديدة ، بيروت ٢٦٥ - ٢٢٦ ، الاصبهاني (ابي فرج) الافغاني ، مطبعة التقدم ، مصر ، ١٣٢٣ هـ ، ١٣٤/٢٠ . المقدسي ، ٩٧ . القلقشندي ، ٥٥/٥ . جواد علي ٦٤٨/١ ، ٦٥٢ ، ٢٣/٢ ، ٢٧٨ . جعفر ظفاري ، ٧ . باوزير : ٢٦ .
- (٧) ابن هشام (عبد الملك) ، السيرة النبوية ، تحقيق مصطفى السقا واخرين ، مطبعة البابي الحلبي مصر ، ١٩٣٦ ، ٧١/١ . الطبري ؟ ابي جعفر محمد) ، تاريخ الطبري ، تحقيق محمد ابوالفضل ، دار المعارف ، مصر ، ١٩٦٠ ، ١٢٧/٢ . الحميري (نشوان) ، منتخبات من اخبار اليمن ، دار الفكر دمشق ، طبعة ثانية ، ١٩٨١ ، ١٤٩ . لاندو (روم) ، الاسلام والعرب ، دار العلم للملايين ، الطبعة الاولى ، ١٩٦٢ ، ٢٢ ، جواد علي ، ٢ / ٦٣١ .
- (٨) الاصبهاني : ٣٠/٦ - ٣١ ابن عبد البر (ابي عمر) ، القصد والامم ، مطبعة السعادة ، القاهرة ، ١٣٥٠ هـ ، ٢٦ . عمارة اليمن (نجم الدين) ، تاريخ اليمن ، تحقيق الاكوع ، مطبعة العلم ، الطبعة الثانية ١٩٧٩ ، ١٣٤ . جواد علي ، ٥٣٠/١ - ٥٣١ ، ٣٠٣ / ٤ ، لطفي عبد الوهاب ، ٩١ . جمال آغا ، ٩ . باوزير ، ٢٨ . الاكواع ، ٣٩٦ وما بعدها .
- (٩) جمال آغا ، ١٠ . حتى ؟ فيليب) ، تاريخ العرب (مطول) ، دار الكشف ، بيروت ، الطبعة الرابعة ، ١٩٦٥ ، ٥٩/١ .
- (١٠) الهمداني ، ٥٨ . البكري ٧/١ . ياقوت ، ١٣٧/٢ .

- (١١) الاصطخري ، ٧ . ابن حوقل ، ٢٩ . الهمداني ، ٦٥ . البكري ، ٩/١ . ياقوت : ، ١٣٧/٢ ،
٤٤٧/٥ . القلقشندي : ، ٦/٥ . ابن ابن المجاود (جمال الدين) ، تاريخ المستبصر مطبعة ليدن ،
٢٩/١ . الزبيدي (محمد) ، تاج العروس ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٦٦ ، ٣٧١/٩ .
- (١٢) الهمداني ، ٦٥ . ياقوت ، ٤٤٧/٥ - ٤٤٨ .
- (١٣) ياقوت ، ٤٤٧/٥ .
- (١٤) الهمداني ، ٦٥ . البكري ، ١٦/١ .
- (١٥) الطبري ، ٨٩/٢ - ٩٠ . الاصبهاني ، ١٧٣/٩ .
- ابن خلدون (عبد الرحمن) ، المقدمة ، دار العودة ، بيروت ، ١٠ . النويري (شهاب الدين) ،
نهاية الارب في فنون الادب ، مطبعة دار الكتاب المصرية ، القاهرة ، ٤٠٦/١٥ . جواد علي ،
١٢١/٢ فيليب حتى ، ٥٢/١ . انظر التوراة سفر اخبار الايام الثاني ٢١ : ١٦ ، ١٧ .
التريسي (عدنان) ، اليمن وحضارة العرب ، مكتبة الحياة ، بيروت ، ١٠ .
- (١٦) نيلسون (ديتلف) ، التاريخ العربي القديم ، ترجمة فؤاد حسين علي ، مكتبة النهضة المصرية ،
القاهرة ، ١٩٥٨ ، ٤٤٢ - ٤٤٣ ، ١٤٧ . جواد علي ، ١٢١/٢ وما بعدها . الاكوع ، ٣٣ .
- (١٧) ابن شريفة (عبيد) ، اخبار عبيد ، يلي « كتاب التيجان في ملوك حمير » ، حيدر اباد ، الدكن ،
مطبعة دار المعارف العثمانية ، ١٣٤٧ هـ ، ٣١٣ . ابن هشام ، ٢٥/١ ، ١١٧ - ١١٨ . الطبري ،
١٠٥/٢ الهمداني ، الاكليل (الجزء الاول) تحقيق الاكوع ، دار الحرية ، بغداد ، ١٩٧٧ ، ٢١٢/١ ،
٢١٦ وما بعدها ، الاكليل (الجزء الثاني) ، تحقيق الاكوع ، مطبعة السنة المحمدية ، القاهرة ،
١٩٦٦ ، ٢٤٨/٢ ، الاكليل (الجزء العاشر) ، تحقيق محب الدين الخطيب ، المطبعة السلفية ،
القاهرة ، ١٣٦٨ هـ ، ٤٢/١٠ . الاصبهاني ، ٦١/٨ - ٦٢/١٥ ، ابن الاثير (عز الدين) ، الكامل
في التاريخ ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٦٥ ، ٥٠٤/١ . ابن خلدون (عبد الرحمن) ، العبر المطبعة
المصرية ، بولاق ١٢٨٤ هـ ، ٣٠/٢ .
- (١٨) الهمداني ، الصفة ، ٦٥ . ياقوت ، ٢٥٠/١ .
- (١٩) ياقوت : ٢٤٤/٢ .
- (٢٠) الاصبهاني (الحسن) ، بلاد العرب ، تحقيق حمد الجاسر وصالح العلي ، دار اليمامة ، الرياض ،
١٩٦٨ ، الطبعة الاولى ، ٣٧٥ . الاصطخري : ، ٧ . ابن حوقل ، ٢٩ . الاصبهاني ، ٢١١/١٨ .
القلقشندي ، ١٥/٥ حول (تحديد موقع يلملم) .
- (٢١) معجم ، استعجم ، ٩٠/١ ، معجم البلدان ، ٢٠٥/٣ . وانظر : الهمداني : الصفة ١٢٠ .
- (٢٢) ابن بليهد (محمد) ، صحيح الاخبار (عما في بلاد العرب من الآثار) ، بيروت ، الطبعة الثانية ،
١٨٥/٢ ، ١٩٧٢ .
- (٢٣) الواقدي (محمد بن عمر) ، المغازي ، تحقيق مارسدن جونز ، دار المعارف ، مصر ١٩٦٦ ،
٧٢٢/٢ . ابن سعد (محمد) ، الطبقات ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٦٠ ، ١٦٢/٢ . الطبري ،
٤١/٣ . الهمداني الصفة ، ٢٥٨ ، البكري ، ٩٠/١ ، المقدسي ، ٨٨ . السهيلي (ابي القاسم) ،
الروض الانف ، شركة الطباعة الفنية المتحدة ، القاهرة ، ١٩٧١ ، ٢٥٢/٣ . ياقوت ، ٥٢٩/١ ،
٢١/٢ . الزبيدي ، ٢٨٥/٤ . حميد الله (محمد) ، الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة
الراشدة ، دار الارشاد ، بيروت ، الطبعة الثالثة ، ١٩٦٩ ، ٢٤٣ - ٢٤٤ .
- (٢٤) حمزة (فؤاد) ، في بلاد عسير ، مكتبة النصر الحديثة ، الرياض ، الطبعة الثانية ، ٢٦ ، ١٩٦٨ .
- (٢٥) الاصبهاني ، ١٢٩/٢١ .

- (٢٦) المصدر نفسه ، ٢٠٥/٣ ، ٣٦٨ - ٣٦٩ . وانظر الهمداني ، الصفة ، ٣٣ . وابن حوقل ، ٣٠ ،
اذ يجعل مكة آخر حد اليمن .
- (٢٧) المصدر نفسه ، ١٣/١ .
- (٢٨) ابو العلا (محمود طه) ، جغرافية شبه جزيرة العرب ، الجزآن الاول والثاني ، مكتبة الانجلو
المصرية ، القاهرة ، الطبعة الثانية ، والجزآن الثالث والرابع ، مطابع سجل العرب ، القاهرة ،
الطبعة الاولى ، ٤٠/١ . الفنيم (عبد الله) اقاليم الجزيرة العربية (بين الكتابات العربية القديمة
والدراسات المعاصرة) جامعة الكويت ، ١٩٨١ ، ٣٦ .
- (٢٩) فؤاد حمزة : ٨٥-٨٦ ، ٩٩ .
- (٣٠) الهمداني ، الصفة ، ٦٥ . البكري ، ٩/١ . ياقوت ، ١٣٧/٢ .
- (٣١) وهبة (حافظ) ، جزيرة العرب في القرن العشرين ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ،
القاهرة ، الطبعة الخامسة ، ١٩٦٧ ، ٤١ . الويسي (حسين) ، اليمن الكبرى ، الترسيسي: ١١٧ .
- (٣٢) جمال آغا : ٥١٥ .
- (٣٣) عبد الله الفنيم : ٤١،٣٦،٢٧ (نقلا عن محمد محمود الصياد في « هذه الجزيرة العربية »)
مجلة جامعة الملك سعود ، العدد الاول ، السنة الثانية ، الرياض ، ١٩٥٤ ، ص ٥٧ . ابو
العلا ، ٤٠/١-٤١ .
- (٣٤) ابن رسته (ابي العلا احمد) ، الاعلاق النفسية ، المجلد السابع ، مطبعة بريل (ليدن) ١٨٩١ ،
١٠٩/٧ وما بعدها . الهمداني : الصفة ٦٥ .
السعودي ، ٣٥/٢ البكري ، ١١٢٩/٣ ، المقدسي ، ٩٣ . ياقوت ، ٥٢٩/١ ، ٢١/٢ . القلقشندي ،
٤٠/٥ وما بعدها . الزبيدي ، ٢٨٥/٤ . حتى ، ٢٠/١ . حافظ وهبة ، ٥-٤ ، ٣٣ ، ٣٦-٣٥ .
ابو العلا ، ٢٠/١ ، ٤٩ ، ٥٩ . الاكوع ، ٣٢ . بلياييف (ي) ، العرب والاسلام والخلافة
العربية ترجمة انيس فريجة ، الدار المتحدة للنشر ، بيروت ، الطبعة الاولى ، ١٩٧٣ ، ٥٩-٦٠ .
الدباغ (مصطفى) ، جزيرة العرب (موطن العرب ومهد الاسلام) ، منشورات الطليعة ، بيروت
الطبعة الاولى ، ١١٢/٢، ١٦٩٣ .
- (٣٥) الصفة ، ٦٥ . وانظر ياقوت ، ٤٤٧/٥ .
- (٣٦) ابن حوقل ، ٤١ . الهمداني ، الصفة ، ٦٥ . البكري ، ١٦/١ .
- (٣٧) ابن عبد ربه (احمد بن محمد) ، العقد الفريد ، تحقيق محمد سعيد العريان ، المكتبة التجارية
الكبرى ، بت ، ٧٦/٦ - ٧٧ . الهمداني ، الاكليل ، ٤٢٥/١ ، الاصبهاني ، ٦٨/٧ ، ١١٣، ٢/٩ ،
١٦-١٧ ، ٦٦/١٠ وما بعدها ، ١٢٦/١١ ، ٤٥/١٢ ، ٦٢/١٣ ، ٦٧ - ٦٨ ، ٩٣/١٥ ،
٢١٥/١٨ . ياقوت ، ١٥/٢ ، ١٢٦ ، ٨٨/٣ . النويري ، ٤١٤/١٥ - ٤١٥ .
- (٣٨) محمد حميد الله ، ١٢٨ - ٢٠٨ ، ٢٤٢ - ٢٤٥ .
- (٣٩) ابن جعفر (قدامة) ، الخراج وصناعة الكتابة ، يلي المسالك والممالك ، لابن خراوازية ، مكتبة
المنشئ ، بغداد ، ١٨٨ . الهمداني ، الصفة ، ٤٣١، ٢٥٨، ٢٥٥ . ياقوت ، ٥٢٩/١ ، ٢١/٢ ، ٧٤/٣ .
- (٤٠) انظر ، نزار عبد اللطيف ، اهل اليمن في صدر الاسلام ، المؤسسة العربية للدراسات ، بيروت ،
١٩٧٨ ، ٣٧ .
- (٤١) الهمداني ، الصفة ، ٥٩ . البكري ، ٩/١ . ياقوت ، ١٣٧/٢ .

- (٤٣) الاصطخري، ٧ ابن حوقل، ٢٩ . الهمداني ، الصفة ، ٦٥ ، ١١٩ - ١٢٠ - البكري ، ٩٤٧/١ ، ١٢ ، ١٦ ، ٦٣ ، ٩٠ ، ٣٠٥ ، ياقوت ، ٥٢٩/١ ، ١١١/٢ ، ١٣٧ ، ٢٠٧ ، ٢٠٥/٣ ، ٤٤٧/٥ ، ٣٦٨ ، ابن المجاود ، ٣٩/١ - ٤٠ . الزبيدي ، ٢٨٥/٤ ، ٣٦٢/٥ ، ٣٧١/٩ . عاقل (نبيه) ، تاريخ العرب القديم والعصر الجاهلي ، مطبعة الداودي ، دمشق ، ١٩٨٢ ، ٢٥ . جواد علي ، ١٧٠/١ وما بعدها ٥٥١/٢ - ٥٥٢ . الاكوع ، ٣٣ . بن بليهد ، ١٨٥/٢ ،
- (٤٣) الهمداني ، الصفة ، ٥٩ .
- (٤٤) الهمداني ، الصفة ، ٦٧-٦٨ . ياقوت ، ١٣٩/٢ ، ٤٩٢ ، ١٤٤/٥ . ابن المجاود ، ٢/٢٧١ . الويسي ، ٢-١ الاكوع ، ٩٢ . الدباغ ، ٢٣/٢ ، ٨١ ، ١٢٢ .
- (٤٥) الاصطخري ، ٧ . ابن حوقل ، ٢٩ . ابن المجاود ، ٤٠/١ .
- (٤٦) الويسي ، ٢-٣ . الترسيصي ، ١١٩ . الاكوع ، ٩٢ .
- (٤٧) الهمداني : الصفة ، ٥٧ ، ٧٠ ، ١٢٠ . ابن حوقل ، ٤٣ . البكري ، ٧/١ وما بعدها . المقدسي ، ٦٩ . ابو العلا ، ٢٧/٣ . الاكوع ، ٣٨-٣٩ .
- (٤٨) الصفة ، ٧٠ .
- (٤٩) صبح الاعشى ١٠/٥ وما بعدها .
- (٥٠) ياقوت ، ٦٠/٤ . القلقشندي ، ١٠/٥ وما بعدها . ابو العلا ، ٢٠/٤ . الفنيم ، ٤٠ .
- (٥١) الدباغ ، ١١٢/٢ ، الفنيم ، ٤٤ .
- (٥٢) ابو العلا ، ٢٧٥/١ . الدباغ ١١١/٢ . الفنيم ، ٤٣ .
- (٥٣) الهمداني ، الصفة ، ٩٩ وما بعدها . ابن حوقل ، ٤٥ . ابو العلا ، ٤٠/١ ، ٢٧٥ الفنيم . ٣٦ ، ٤١ . الاكوع ٤٤ . لاتذكر المصادر القديمة ارقام الارتفاعات الجبلية .
- (٥٤) الهمداني ، الصفة ، ١٤١ - ١٤٢ ، ٢٦٥ - ٢٢٦ . ابي مخرمة ، تاريخ ثغر عدن ، ٨/١ . الاكوع ، ٤٢ وما بعدها . يعقوب (هارولد) ، ملوك شبه جزيرة العرب ، ترجمة احمد المصواحي ، دار العودة بيروت ، ١٩٨٢ ، ٣٨٥ . الدباغ ، ٩/٢ ، ٤٠ ، ٤٢ ، ٨٢ .
- (٥٥) ابو العلا ، ٤٢/١ - ٤٣ . الفنيم ، ٤٥ وما بعدها . الاكوع ، ١٣٧ .
- (٥٥٦) الاصطخري ، ٧ . الهمداني ، الصفة ، ٧٧ وما بعدها المقدسي ، ٦٩ - ٧٠ . القلقشندي ، ٣٧/٥ وما بعدها . ابو العلا . ٤١/١ ، ٣٩/٢ ، ٢٩/٣ - ٣٠/٥ . الاكوع ، ٣٦-٣٧ .
- (٥٧) ابو العلا ، ٣٩/٢ ، ٢٩/٣ - ٣٠ .
- (٥٨) الفنيم ، ٤٠ . ابو العلا ، ٢٣/٤ - ٢٤ ، ٣٠ .
- (٥٩) الفنيم ، ٧٧ . نقلا عن احمد بن ماجد ، كتاب الفوائد في اصول علم البحر والقوامد ، تحقيق ابراهيم خوري ، وعزة حسن ، دمشق ، ١٩٧١ ، ص ٣٠ «حدد ابن ماجد الربع الخالي بانسه مشارق مارب والجوف» .
- (٦٠) الهمداني ، الصفة ، ١٦٦ - ١٦٧ ، الاكوع ، ٤١ ، يخلط عبد الله غنيم بين صيهد ووبساد ، انظر اقاليم الجزيرة العربية ، ٨٤ .
- (٦١) ابن حوقل ، ٤٤ . المقدسي ، ٨٧ . نشوان ، ٢ . ياقوت ، ١١٥/١ . الاكوع ، ٤١ .

- (٦٢) البكري ، ٢/٣٧٥ - ٤/١٣٦٦ ، النويري ، ١٠/١٠٩ ، الاكوع ، ٤٤ .
- (٦٣) ابن خردادبه (ابي القاسم) ، المسالك والممالك ، مكتبة المثنى ، بغداد ، ١٥٦ . ابن رسته ، ٧/١٠٩ . ابو العلا ، ١/٤٨ - ٤٩ ، ٣/٣١ ، ٤/٣٥ . جمال آغا ، ٢٩٩ ، الافوع ، ٦١ وما بعدها .
- (٦٤) ابن رسته ، ٧/١٠٩ . ابن حوقل ، ٤٣ . المقدسي ، ٩٥٤٣٣ . القلقشندي ، ٥/٥٥٤٣٩ . ابو العلا ، ٤/٣٥ . الدباغ ، ٢/١١٢ .
- (٦٥) جمال آغا ، ٢١٩ وما بعدها .
- (٦٦) ابو العلا ، ١/٥٩ . آغا ، ٣٢٢ .
- (٦٧) الهمداني : الصفة ، ٢٤٣ . المجاهد (عبد الله) ، اسس زراعة وانتاج المحاصيل الحقلية في الارض اليمنية ، عالم الكتب ، القاهرة ، الطبعة الاولى ، ١٩٨٠ ، المقدمة ص ٧ . عمر (سلطان) ، نظرة في تطور المجتمع اليمني ، ٦٧ .
- (٦٨) الهمداني ، الصفة ٢٧٦ .
- (٦٩) ياقوت ، ١/٢٥٠ . الزبيدي ، ٤/٢٨٥ .
- (٧٠) ابو العلا ، ٣/٤١ .
- (٧١) الاصبهاني ، ١٠/١٥٩ .
- (٧٢) المجاهد ، ٥٠٤ وما بعدها . الدباغ ، ٢/١١٤ الفثيم ، ٣ .

لمحات عن يهود الجزائر منذ مطلع القرن الثامن عشر حتى ١٨٣٠

محمد راد

حرص أغلب الكتاب اليهود على المبالغة في تصوير ألوان الاضطهاد التي تعرض لها اليهود في الجزائر خلال العهد العثماني ، متناسين عن عمد ذلك الرخاء الذي شهده يهودهم في مختلف النواحي ، ومتجاهلين عن قصد أن الجزائر كانت من أهم المناطق التي آوت اليهود الفارين من وجه الاضطهاد المسيحي في أوربا ، يشهد على ذلك ازدياد عددهم المطرد ، والذي ما كان ليزداد لولا شعورهم بالأمن والطمأنينة والسلام.

وقبل أن نتناول جوانب هذا الموضوع يجدر الإشارة إلى أن يهود المنطقة لم يشكلوا وحدة عنصرية عرقية ، بل كانوا جماعات ترتبط بالدين والتقاليد والعادات، فالموجات المتتالية التي جاءت من أنحاء حوض البحر المتوسط ومن ورائه قد طمست كل الميزات العرقية الواضحة في المنطقة . فبالإضافة إلى العنصر السامي القديم الذي جاء مع الفينقيين منذ تأسيس قرطاج ثم بعد تهديم القدس في عهد « تيتوس » كان هناك عدد لا بأس به من البربر المتحولين إلى اليهودية ، وقدمت من شبه جزيرة ايبيريا موجة أخرى ابتداء من العصور الحديثة . وقد لجأ اليهود إلى الجزائر هربا من الاضطهاد الديني الذي كانوا يلاقونه في هذه البلاد ، كما قدم إلى المنطقة مستوطنون يهود من بعض المدن الأوروبية منذ بداية القرن ١٨ ، ولا سيما من ليفورن، بحثا عن الثروة والاستغلال التجاري .

ومنذ ذلك الوقت بدأ يظهر فرق واضح بين اليهود المحليين (القدامى والوافدين من الاندلس) ، الذين كانوا على صلات طيبة مع المسلمين ، وبين اليهود الليفوريين، الذين أفادوا ، بصفاتهم أجنب ، من نظام الامتيازات ، ومن حماية الحكام الاتراك ، ومن ثم بدأوا يسيطرون على الطائفة اليهودية المحلية وعلى اقتصاد الجزائر وسياساتها

وقد سمحت طبيعة الحكم العثماني في الجزائر خلال هذه الفترة لليهود الليفورنيين ، بتدعيم مراكزهم في البلاد ، اذ أدى تردي الوضع الاقتصادي في الايالة الى نقص عدد المتطوعين في الاوجاق الجزائري ، فعمد حكام الاقاليم العثمانية الى ارسال الاشقياء والمساجين وقطاع الطرق وحثالة المجتمعات (١) ، ومن هؤلاء كان حكام الجزائر ، الذين كانوا غير قادرين على تسير اعمال الدولة لان اكثرهم توصل الى منصبه بفضل تمرد الانكشارية المطالبة بزيادة الاجور ، بعد ان كان هؤلاء الحكام يباشرون مهنا تعد بسيطة لا علاقة لها بشؤون الحكم ، مثل مهنة الفحاميين او الاسكافيين او الكناسين واصدق مثال على ذلك : الداوي مصطفى ، الذي قيل بانه كان كناسا ورفعته اليهود الى مرتبة الداوي (٢) وكذلك الداوي علي الفسال ، الذي كان يفصل الاموات قبل سنة ١٨٠٨ (٣) .

وعلى هذا الاساس ، يمكن القول منذ البداية ، ان فساد الحكم العثماني في الجزائر ، هو الذي يسر لليهود الليفورنيين السيطرة على سياسة الجزائر واقتصادها .

التنظيم الطائفي والحياة الدينية :

في الواقع ان ثمة حقيقة يصح ان نبدأ بها ، وهي ان النظام العثماني في الجزائر ترك لليهود حرية تنظيم امورهم وعلاقاتهم الداخلية حسب شعائهم الخاصة وعباداتهم المرعية .

نظر العثمانيون الى اليهود في الجزائر بوصفهم جماعة متميزة لها ديانتها وعقائدها الخاصة ، فوجب عليهم اذن ، في ظل التسامح ، ان يمنحهم حرية العبادة والاقامة والسفر والتعليم ، وأن يحافظوا على حياتهم واملاكهم ، والا يتدخلوا في شؤونهم الداخلية التي عهد بادارتها الى الرؤساء الدينيين ، ومقابل تلك الحماية التي كانوا يتمتعون بها فرضت عليهم ضريبة معينة هي (الجزية) .

وفي هذا الصدد يقول القنصل الامريكي (وليام شالر) في مذكراته ، فهم « يتمتعون بحرية تامة في ممارسة عقائدهم الدينية ، وهم يخضعون لقوانينهم الدينية في الاحوال الشخصية (٠،٠٠٠،٠) وبوصفهم رعايا جزائريين يتمتعون بحرية التنقل والاقامة حيث يرغبون ، وبممارسة المهنة التي يرونها في حدود القانون في جميع أنحاء المملكة ، واليهود غير قابلين للاسترقاق » (٤) .

كان يتولى ادارة امور اليهود رئيس من ابناء الطائفة يعينه الحاكم (٥) يدعى المقدم او الشيخ (٦) فهو الذي يمثل رعيته في كافة امورها امام السلطات العثمانية ، ويطلع الوزراء على جميع مقررات طائفته ، ويقوم بتنفيذ اوامر الداوي ونزواته

الشخصية ، فهو المسؤول المباشر عن دفع الضرائب تجاه الادارة العثمانية ، التي كانت تنظر الى اليهود كوحدة دافعة للضرائب (٧) .

وبجانب رئيس الطائفة ، كان هناك مجلس للطائفة اليهودية (TOBE - HAIR) يتألف من أربعة اشخاص ، غالبا ما كان يختارهم المقدم . وقد اختلف هذا المجلس بادارة شؤون الطائفة ، وبالناحية المالية خصوصا ، اضافة الى ذلك كان المجلس يقدم خدماته لكل ما يخص الضرائب والمساهمات .

الى جانب المجلس ، كانت هناك وظائف أخرى اشتملت عليها المؤسسة الطائفية مثل وظيفة الكتبار (Guizbar) والكاباي (GABAï) والشابر (CHABER) . فالكتبار ، هو الموظف الذي اختلف بتنظيم المعابد ومراقبتها ، كما اختلف كذلك بتوزيع الصدقات . اما الكاباي والشابر ، فقد اختلفا بدين الموتى ، والى ذلك اختلف الاخير بمراسيم الزواج (٨) .

وقد كفل النظام المالي المحافظة على حياة اليهود الدينية . ومن الجدير بالتنويه ان المصادر الاوروبية في معظمها تجمع على أنه لم تكن هناك قيود على اقامة دور عبادة في الاحياء اليهودية . ويقول (روزي) بهذا الصدد ، ان اليهود كانوا احرارا في بناء الكنيس والاروقة التي كانت تستخدم كعرف للتعليم الديني (٩) .

ويلاحظ ان اغلب اليهود في الجزائر عاشوا تحت تأثير التقاليد الدينية المستمدة من تعاليم التلمود ، وتعلموا مبادئ الديانة مشافهة عن طريق الحاخامية . والجدير بالذكر ان اليهود الليفوريين ، أو اليهود الاحرار كما كانوا يسمونهم ، كانوا لا يخضعون للمؤسسة الطائفية ، غالبا ما نجدهم يتضايقون من اليهود الاهالي في الكنيس عندما كانوا يشاهدونهم يمارسون طقوسهم الدينية (١٠) .

وكانت الصلوات تقام بالعبرية التي كانت مجرد لغة دينية لاغير ، وكان معظم اليهود يجهلون معانيها (١١) . ومن الخطأ كما يقرر (وليام شالر) أنهم كانوا يتكلمون اللغة العبرية ، ولكنهم استخدموا لغة عربية متميزة قليلا من لغة العرب ، وممزجة بكلمات عربية وتركية وافرنجية (١٢) .

وكان اليهود في الجزائر على مذهبين ، فالتلموديون الذين كانوا منقسمين الى سكلين وكبوسيين يمسونهم الاجانب (Fostareros) أو العجم ، والآخرين أي الاهالي ويدعون توشايم (Residents) أي المقيمين ، والمذهب كان مذهب السفارديم وبعض القرائين . اما الاشكنازيم الذين ينحدرون من اصل الماني ، فلم يكن لهم وجود في الجزائر .

ويلاحظ أن كثيرا من اليهود الذين يشعرون أن أجلهم قد اقترب يسلمون كل ممتلكاتهم لورثتهم ولا يبقون لأنفسهم إلا ما يسمح لهم بسد الرمق في القدس التي يقصدونها ليلفظوا هناك أنفاسهم الأخيرة . ولقد شاهد (وليام شالر) في سنة ١٨١٦ عددا منهم وهم يبحرون في آخر حج لهم على متن سفينة استؤجرت خصيصا لنقلهم إلى شواطئ سورية (١٣) . إلا أن هذا السفر الذي كان يقدم عليه اليهود خلال هذه الفترة ، كان يعد مخاطرة كبيرة ، لذلك كانت قلة منهم تصل إلى فلسطين (١٤) . ومما لا شك فيه أن ارتباط اليهود بتراثهم الديني هو الذي كان يربطهم بفلسطين لما كانت تحمله من ذكريات مقدسة ، وهو الذي دفعهم إلى المجيء إليها لأسباب دينية لا غير .

الوضع التعليمي :

تشهد كتب الاوروبيين الذين زاروا الجزائر خلال هذه الفترة ، أن التعليم اليهودي ، كان منتشرا في أنحاء البلاد ، وأن كل يهودي حسب قول (كوهين) كان يعرف القراءة والكتابة (١٥) .

والدولة العثمانية ، كما هو معروف ، لم تتدخل في شؤون التعليم وعدته من جملة الامور المرتبطة بالطوائف الدينية ، فخولت الجماعات اليهودية المنتشرة في أنحاء البلاد حق تأسيس المدارس الخاصة بها وادارتها، وغالبا ما تكون غرنا ملحقة بالكنيس .

ومهما يكن من امر ، فإن الطائفة اليهودية كانت ترمي إلى أن يكون تعليم ابنائها تحت اشرافها حتى توجههم الوجهة التي تريدها ، وحتى يشبوا على ولائهم لدينهم وطائفتهم . وفي هذا المجال عنت بالتعليم الديني وبحث المفاهيم الدينية فيهم ، كما اهتمت كذلك بمبادئ الحساب لأن التجارة والحرف تقضي معرفة ذلك . ولذلك ظل التعليم اليهودي كالسابق تعليما دينيا بحتا ، يبدأ في المنزل على يد الاباء الذين كانوا يسهرون على تربية اطفالهم . فلا يدخل الطفل إلى المدرسة ليتعلم القراءة والكتابة الا وتكون القيم الخلقية والاجتماعية قد ترسخت فيه . أما التعليم في المدارس ، فكان يشرف عليه رجال الدين . غير أن طرق التدريس ظلت كالسابق تقليدية لا تعتمد على أية وسيلة تربوية ، وكان يغلب عليه الحفظ والاستذكار .

هذا وقد كان التعليم اليهودي الذي اشرفت عليه الطائفة يشمل حسب (كلانسوال) على ثلاث مراحل : (١٦)

- ١ - المرحلة الاولى : وفيها يدخل التلميذ الذي تتراوح سنه ما بين الرابعة والثامنة إلى المدرسة ، ويتعلم القراءة تحت اشراف رجال الدين .
- ٢ - المرحلة الثانية : وفيها يدرس الطلاب تاريخ العهد القديم (التوراة) .

٣ - المرحلة الثالثة : وفيها يتلقى الطلاب مبادئ الكتابة والحساب .

أما التعليم في هذه المدارس الدينية ، فكان يتم باللغة العبرية ، ويذكر (هايدو) أن التلاميذ كذلك تعلموا اللغة العربية التي كانوا يكتبونها بأحرف عبرية (١٧) .

وإذا كان الفقراء يكتفون بهذه المراحل من التعليم ، فإن الأغنياء يواصلون تعلمهم فغالبا ما كانت الأسر الفنية تبعث أولادها إلى أوروبا ، وخصوصا إلى إيطاليا ، ليتلقوا مبادئ التجارة ويتعلمون اللغات (١٨) .

الاحوال الاجتماعية :

يمكن تقسيم اليهود إلى ثلاث طبقات رئيسية

- ١ - طبقة غنية وتضم التجار الكبار والصرافين .
- ٢ - طبقة متوسطة وتضم التجار الصغار وبائعي المفرق ..
- ٣ - طبقة فقيرة وتضم الحرفيين والباعة الجوالين .

وقد عاش اليهود في حرية ، وفي كل مكان عوملوا بتسامح من جانب العرب سواء أكانوا يعيشون في أحيائهم أم في بقية أجزاء البلاد . غير أن اليهود تعرضوا مثل بقية العرب لظلم الأتراك العثمانيين ، ولا ينكر أن هذا الظلم تحول في بعض فترات إلى اضطهاد ، ولكن يجب ألا يفهم من ذلك ، أن اضطهاد اليهود هذا كان لمجرد أنهم يدينون باليهودية . وفي الحقيقة ، أن النظام العثماني لم تكن له قوانين مضبوطة ومدونة تحدد ما لقيصر لقيصر وما للرعية للرعية ، لهذا ساد الظلم وارتفع الباطل ، وقلت ثقة السكان في الحكام . ولكن ، ومهما كانت تصرفات الأتراك العثمانيين الشديدة تجاه اليهود ، فإنها لم تصل إلى حد التعدي على معتقداتهم الدينية كما حدث لهم في أوروبا ، بل نجدهم يتمتعون في الجزائر زمن العثمانيين بحرية العبادة والاقامة ، وإلى جانب ذلك عوملوا باحسان بالنسبة للامم الأخرى ..

وعلى هذا الأساس ، فإن سوء معاملة المسلمين لليهود لا ترجع إلى عقيدتهم وإنما ترجع بالدرجة الأولى إلى سلوكهم وأخلاقهم وتصرفاتهم تجاههم . وليس هناك دليل واحد يقيم الحجة على أن المسلمين أساءوا معاملة اليهود لمجرد أنهم يهود . فالمسألة إذن ليست دينية كما فهمها من أراد المس بالدين الإسلامي وبأهله ، ولكنها مسألة سياسية بالدرجة الأولى .

وعلى أية حال ، فالعلاقات بين اليهود والمسلمين كانت حسنة طوال هذه الفترة

ما عدا فترات محدودة لقي فيها اليهود بعض المضايقات الخفيفة ، وخصوصا في أواخر العهد العثماني ، بسبب الظروف الصعبة التي مرت بها البلاد . وفيما يخص هذه الفترة بالذات ، فإن الجزائر قد تعرضت لمجاعات وأوبئة ، وكان طبيعيا أن يستغل اليهود هذه الظروف ليزيدوا في الأسعار ، الأمر الذي أدى الى نقمة المسلمين عليهم .

النشاط الاقتصادي

نتج عن وجود العنصر اليهودي النشط في البلاد الجزائرية خلال هذه الفترة من العهد العثماني ، نشاط اقتصادي غير معهود ، برز في مختلف المجالات الاقتصادية من صناعة وتجارة وخدمات أخرى . ولا نبالغ اذا قلنا إن اليهود أثروا تأثيرا بليغا في الحياة الاقتصادية ، وذلك اعتمادا على القاعدة الوثائقية لهذه الفترة التي توضح بشكل جلي تفوقهم الكبير في هذا الميدان .

ومهما يكن من أمر ، فإن اليهود ساهموا يقينا في تنشيط اقتصاد البلاد . ونحن نعلم أيضا أنهم كانوا ذوي خبرات راقية ومتعددة في ميادين الصناعة والتجارة .

ويلاحظ أن عددا كبيرا من اليهود كان قد استقر بالمدن الكبرى التي اشتهرت بالتجارة وبموقعها الجغرافي ، في الجزائر ، وقسنطينة ، ووهران ، قصد الارتزاق . لكن القطاع الذي استهواهم ، بدون منازع ، أكثر من غيره هو قطاع التجارة ، لأن التجارة كما هو معروف كانت أكثر الحرف التي تدر على أصحابها الأرباح الطائلة . فلا عجب اذا ما طرق اليهود هذا الباب أكثر مما طرقوا غيره ، ولا سيما ان مهارتهم وخبرتهم بالبلاد المسيحية التي تجري معها المبادلات تؤهلهم الى ذلك أكثر من غيرهم .

١ - النشاط الصناعي

يحسن بنا ، قبل كل شيء ، الإشارة الى اننا لا نعرف شيئا عن الزراعة عند اليهود خلال هذه الفترة ، وأكبر الظن أنهم لم يعملوا بها (١٩) وقد كان معظمهم يشتغل في الصناعات الحرفية والتجارة وأعمال أخرى . فقد عمل اليهود في مختلف الحرف ، لاسيما الأعمال التي تتطلب المهارة والنشاط ، وتفوقوا بها على سائر أهل البلاد . فلم تكن هناك صناعة الا وزاولوها ، غير أنهم فضلوا ممارسة بعض المهن والصناعات مثل الخياطة والصباغة والغزل والحيكة وصناعة المطرقات (٢٠) كما عملوا في صناعة الزجاج (٢١) ومقابض البنادق (٢٢) ، الى غير ذلك من الصنائع الشائعة في ذلك الحين .

ومن الصناعات المهمة التي ارتبطت بالوجود اليهودي بالجزائر صناعة الذهب والفضة التي برعوا فيها بشكل لا يجاريهم فيه احد ، والتي أصبح لها شارع خاص

بمدينة الجزائر عرف بشارع الصاغة حيث محلات اليهود ، التي اقتصت بصناعة الحلي من الذهب والفضة . وفي الوصف الذي خلفه لنا (راهبندر) من القرن الثامن عشر للجماعة اليهودية بمدينة الجزائر ، « نجد أن اليهود كانوا يمارسون الحرف التي تتصل بالمعادن الثمينة ، لاسيما منها التي تتعلق بالذهب والفضة ، وكانت ورشاتهم لمزاولة هذه الصناعة تقع بالقرب من قصر الداي في زقاق ضيق ووسخ ، بالإضافة الى ان معظمهم كان يعمل في سك العملة . » (٢٣) . وكانت هذه الصناعات التي تتمثل في الحرف ، تمارس في مختلف مدن الإيالة منظمة في هيآت تتولى كل واحدة صناعة نوع محدد من الادوات والملابس التي يحتاج اليها السكان في الحياة اليومية . وقد انحصرت مهام امناء هذه الهيآت او النقابات في الاشراف على اصول المهنة والحرص على جودة البضاعة وتحديد كميتها .

ب - النشاط التجاري

كانت التجارة في الفترة التي ندرسها من أبرز مصادر الثروة ، وكان اليهود يعتمدون عليها لكسب رزقهم . فنجد اليهود الذين كانوا يقطنون بمدينة الجزائر يمارسون تجارة القوافل التي تمتد بين الجزائر وقسنطينة ، ويعكفون بصفة خاصة على تجارة الحرير والنسيج والاقمشة والمصاييح الاوربية وخردوات اوربا (٢٤) . واعتمد اهل البلاد على اليهود اعتمادا كبيرا لتزويدهم بكل متطلباتهم من السكر والشاي والاقمشة التي اوصلوها عن طريق الباعة المتجولين الى أقصى المناطق النائية في الداخل (٢٥) . فاليهودي بعمله هذا كان اشبه بالذكان المتنقل ، فهو يعرض خدماته ويقدم القروض بفوائد مرتفعة ، وان اضطرته الظروف ذهب الى تخوم الصحراء ليبادل سكانها بما تحمله بغاله من حبوب مقابل ريش النعام والجلود والتبر (٢٦) .

وفضلا عن ذلك ، نجد اغلب اليهود قد حصلوا على ثروات ضخمة نتيجة انسمرة والمراعاة والقيام بدور الوساطة في كل العمليات التجارية مهما كانت بسيطة او تافهة حتى اصبح العربي في مدينة الجزائر على حد تعبير (روزي) « لا يستطيع ان يبيع دجاجتين بدون وساطة مأجورة من أحد اليهود » (٢٧) .

ومن جهة اخرى ، كسب اليهود ثروة طائلة وفوائد جمة من استغلال العبيد او افتدائهم ، وقد أصبحوا الوسطاء الحقيقيين لهذه الحرفة بفضل تمتعهم بمستوى رفيع من التكوين والتدريب بالإضافة الى مرونة الشخصية ومعرفتهم باللغات السائدة في حوض البحر المتوسط ، والى العلاقات التقليدية التي تربطهم في مختلف البلدان . وكانت الجزائر قد دخلت منذ قرون عديدة في حروب مع الدول الاوربية ، حيث ظلت هذه الحروب تعد موردا مهما للدولة . واذا كانت البضائع تباع في كثير من الاحيان بأسعار رخيصة ، فان افتداء العبد كان في اغلب الاوقات له فائدة كبيرة .

وكان العبد لا يطلق سراحه الا بعد ان تدفع عنه قيمة الفدية . وحتى وان حصل الاسير على مبلغ كاف من بلده ليعود الى اهله سالما ، فانه كان يواجه صعوبة كبيرة في اصال الاموال الى اصحابها الحقيقيين ، لان ارسال الفدية الى العبد او الى سيده كان عرضة للخطر وخوفا كذلك من هذا الاخير الذي ربما يحتفظ بالاسير ومبلغ الفدية معا . ولتلافي ذلك اوجد اليهود في العصور الوسطى نظام (الكمبيالة) .

بذلك تمكن اليهود من احتكار التجارة الخارجية التي كانت بيدهم خلال هذه الفترة ، اكثر من أي وقت مضى ، بفضل المكانة الممتازة التي اكتسبوها بسرعة لدى تجار البيوت التجارية في البلدان الاوربية والافريقية ، فكانوا يستغلون مهارتهم التجارية وفرصة انعدام البنوك في تنشيط التجارة وخلق القروض والضمانات بفوائد خيالية الى ان اصبحوا من كبار الاثرياء ، بسبب الخدمات الجليلة التي قدموها للدائيات وكبراء الدولة الذين منحهم حق الاحتكارات التجارية ، وأوكلوا اليهم تنظيم المدفوعات الخارجية وتقويمها فاصبحوا باستماراتهم التجارية بمثابة البنوك يقومون بالتحويلات النقدية والقرضية والحسابية بين الجزائر وأوربا . وقد ساعد التجار اليهود على تنظيم المدفوعات التجارية من قروض وسندات ونقود ما كان لهم من وكلاء وبيوت تجارية في مختلف المدن التجارية المهمة في اوربا وافريقيا واسيا . والمثال على ذلك ، ان عائلتي بكري وبوشناق كان لهما وكلاء في عديد من المدن في حوض البحر المتوسط مثل قرطاجة ومرسيليا وجنوة وليفرون ونابولي وازمير والاسكندرية وتونس ، وبفضل هذا التنظيم الاداري التجاري كان على التاجر سواء كان جزائريا أم اوربيا ان يوفي بدينه لهذه الوكالات اليهودية عن طريق المراسلة دون نقل السبائك الذهبية ، في فترة اشتدت فيها الحروب البحرية ، وهانت فيها النفوس ازاء كل معدن نفيس .

ولقد احتلت المبادلات التجارية مع مدينة ليفورن مكانة كبيرة نظرا لوجود عدد كبير من التجار اليهود فيها ، الذين وجدوا كل التسهيلات التجارية حيث ركزوا الوكلاء والمشرفين على التجارة لتأمين بضائعهم التي كانوا يرسلوها الى شمال افريقيا وأوربا والمشرق (٢٨) . كان اليهود يستعملون مواني الجزائر ، فيصدرون الى ليفورن مقادير من القمح الصلب لا نستطيع تحديد كميتها لعدم وجود الاحصاءات ، وكذلك كميات من المرجان وريش النعام والجلود والصوف وبعض المنتجات المحلية الاخرى (٢٩) . وبالمقابل كانوا يستوردون منها بعض المصنوعات والخردوات وكثيرا من الرخام والاقمشة الحريرية والحلي وغيرها (٣٠) .

من المؤكد ان العلاقات التجارية اليهودية بين الجزائر وأوربا كانت قائمة خلال هذه الفترة التي ندرسها ، وكانت تتطور تدريجيا ، غير اننا لا نستطيع تقييمها بدقة لعدم وجود الاحصائيات المضبوطة ، لان اليهود كانوا يهملون الكتابة والقيد لتجنب

الضرائب التي كانت تفرض على البضائع المصدرة والمستوردة . ولكن الامر الذي نعرفه هو أن ليفورن ومرسيليا احتلتا مرتبة ممتازة في استيراد المواد الاولية من الايالة منتفعة بالطائفة اليهودية المحتكرة لثلثي التجارة الخارجية للجزائر (٢١) .

غير ان الشركة التي تزعمت هذا النشاط هي شركة بكري وبوشناق التي كان لها محلات في عديد من المدن الجزائرية . والمعروف ان احتكار هذه الشركات للتجارة لم يكن مصادفة وانما كان نتيجة تكاتف افرادها وعملهم على استمالة الشخصيات الرسمية والاعيان في البلاد ، بالاضافة الى الوسائل المختلفة التي كانوا يستعملونها ابتداء من الهدايا الثمينة والمساعدات المالية الى التجسس في الداخل والخارج لحسابهم ولحساب الحاكمين الذين يرغبون في استعطافهم .

وبهذه الطريقة تضاعفت رؤوس اموال الشركة اليهودية بسرعة فائقة واستطاعت ان تنفذ بقوة الى المحيط الرسمي ، حيث تمكنت من الاستئثار برعاية اثنين من الشخصيات البارزة آنذاك هما الدايان : بابا حسن (١٧٩٢ - ١٧٩٨) ومصطفى (١٧٩٨ - ١٨٠٥) .

وهناك من يميل الى القول بأن هذين الدايين كانت لهما حصة مما كانت تحصل عليه المؤسسة اليهودية من ارباح طائلة ، ولكننا نعتقد أن هؤلاء اليهود انما تمكنوا من الفوز بثقة السلطات ، لان عيونهم كانت منتشرة في كل انحاء البلاد تزودهم بجميع المعلومات بتحركات القبائل . . . وكان المسؤولون المركزيون يحتاجون الى مثل تلك المعلومات لتدعيم اوضاعهم وللحفاظ على مناصبهم ، كما انهم لم يكونوا يخشون من اليهود ان يستولوا على الحكم .

وهذه الثقة التي احرزوها في مختلف المستويات ، كانت سلاحا حادا لهم وعليهم في الوقت نفسه ، اذ بقدر ما كانت تفتح لهم منافذ الثروة واسعة ، كانت كذلك تعرضهم من حين الى اخر لسخط الاجناد والاهالي الذين كانوا يستنكرون تقربهم من الحكم .

اما خارج الإيالة ، فان شركة بكري وبوشناق قد فرضت نفسها في كثير من البلدان الاوربية ولاسيما في فرنسا التي كانت مركزا مهما للنشاط اليهود التجاري والدبلوماسي فكان تنظيم الشركة يقوم على اساس توزيع العمل بين الشركاء . فبينما كان اولاد بكري يقومون بادارة الشؤون المالية والتجارية للشركة ، كان بوشناق يقوم بالعمليات السياسية في قصر الداوي ، ويشترك في حبك المؤامرات ، ويوزع الرشوة والحظوة كما يشاء . وقد بلغ من النفوذ درجة جعلته يلقب في الاوساط الدبلوماسية بلقب « ملك الجزائر » (٢٢) .

وهكذا ، كان لهذا الوضع التجاري الذي سيطر عليه اليهود تأثير خطير على الأوضاع الاقتصادية للبلاد ، زيادة على الآثار السلبية على حياة السكان ، وذلك بفعل مزاحمة اليهود في كل الأعمال التجارية . وبالفعل فقد تسبب هذا الوضع في إعاقة نمو الطبقة التجارية المحلية بعدما آلت كل الصفقات المربحة والمبادلات المهمة إلى أيدي التجار اليهود بفضل الامتيازات التي كانوا يحظون بها من البابليك (٢٣) .

دور اليهود في السياسة الخارجية الجزائرية

بعدما أحرز اليهود ثقة السلطات الحاكمة ، وتولوا ما يشبه الوصاية على عرش الداي وسيطروا على الحياة الاقتصادية ، أخذوا يوسعون نطاق عملياتهم لتشمل الشؤون الدبلوماسية .

وفي الوقت الذي وجه فيه اليهود نشاطهم نحو أوروبا ، كانت المؤسسات الفرنسية في الجزائر تعاني وضعاً سيئاً بسبب العجز المالي التي كانت تمر به الحكومة الفرنسية آنذاك ، وهذا ما جعلها تستعين بشركة بكري وبوشناق لتمويل فرنسا بالحبوب .

وعندما قامت الثورة الفرنسية ، تعرضت فرنسا خلال هذه الفترة لازمات حادة سياسية واقتصادية . بالإضافة إلى أنها كانت في حالة حرب مع معظم دول أوروبا وقد حاولت الحكومة البريطانية الضغط على الداي للحيلولة دون وصول القمح إلى فرنسا ، ولكن الداي حسن رفض الطلب البريطاني . وعلى أثر ذلك لجأ قنصلها إلى الشركة اليهودية وحاول أن يستعين باليهوديين بكري وبوشناق لمنع وصول شحنات القمح إلى فرنسا . غير أن الانتصارات التي أحرزتها الجيوش الفرنسية ضد « الحلفاء » لم تلبث أن فتحت أعينهما فسارعا إلى المطالبة بمنحهما امتيازاً لتمويل فرنسا بالقمح ، وحصلوا على هذا الامتياز بدون صعوبة .

ولكن علاقات فرنسا والشركة اليهودية سيعتريها بعض الفتور ولفترة قصيرة في أواخر القرن الثامن عشر ، حينما سمعت الحكومة الفرنسية بأن الشركة اليهودية تزود الحامية الانجليزية المرابطة في مضيق جبل طارق ، وعلى أثر ذلك عمدت الحكومة الفرنسية إلى تجميد ديونها . وفي ٢٦ نيسان ١٧٩٧ كتب « دولاكروا » ، وزير خارجية فرنسا إلى زميله وزير المالية رسالة ينصح فيها باتخاذ إجراء التجميد ، جاء فيها قوله : « وباحتفاظنا بالمبالغ المستحقة لليهوديين بهذه الطريقة سنمنعهم من التحول عن مصالحنا ونضطرهم إلى التزام تحفظ أكبر في طرق تعاملهم مع الانجليز ، الذين لا يخدمانهم بهذه الحماسة إلا لأن وجودهم في شمال إفريقيا يثير في نفوسهم الأمل في تحقيق أرباح أخرى » (٢٤) .

ومثل هذا الاجراء هو الذي جعل الداى حسن في ١٨ ايار ١٧٩٧ يتدخل ، ويكتب الى حكومة فرنسا رسالة حملها اليهودي سيمون فند فيها جميع الاتهامات واكد « اخلاص اليهوديين بكري وبوشناق لكل ما يخص مصالح الامة الفرنسية » (٣٥) . ولكن عندما خرج « دولاكروا » من وزارة الخارجية وحل محله « تاليران » في تموز ١٧٩٧ ، تنفس اليهوديان بكري وبوشناق الصعداء ، وسارعا الى ربط علاقتهما « بالشيطان الاعرج » الذي تحول الى محامي بليغ الحجة وحليف قوي لليهود ، مما جعل يعقوب بكري يكتب الى اخيه ابراهيم بكري قائلا : « . . . اذا لم يكن الشيطان الاعرج في يدي ، فانا لن اعتمد على شيء في الدنيا بعد الان » (٣٦) .

فمن الواضح ان تاليران في ذلك الحين ، كان يدرك النفوذ الكبير الذي وصل اليه اليهود ، فكان عليه ان يأخذ في الاعتبار مجمل العلاقات الجزائرية الفرنسية ، التي كان اليهوديان مفتاحا لها . وهكذا كانت المسألة بالنسبة الى « تاليران » ، هي كيف يحافظ على استمرار تمويل فرنسا بالحبوب ويضمن عدم تحول « عواطف » اليهود ، وبالتالي الداى الى انجلترا .

وبينما كان الصراع على أشد ما يكون بين الجزائر وانجلترا في ١٨٠٠ الذي كان من المحتمل ان يؤدي الى حرب بين البلدين ، تدخل بوشناق في وضع حد لهذا النزاع ، حيث حصل من الداى على قرار يمنح العلم البريطاني مكانة الشرف في الايالة ، واكثر من ذلك ، فان الداى نفسه ادى التحية للسفينة التي تحمل القنصل الانجليزي السيد فالكان FALCAN في ١١ ايلول ١٨٠٠ (٣٧) .

وفي السنة التالية ، اي في سنة ١٨٠١ ، كان لبوشناق شرف استقبال قناصل الدانمارك والسويد وهولندا ، وتسلم منهم باسم الداى الهدايا التي تدفعها دولهم الى السلطات العثمانية في الجزائر . . . وكان له الشرف كذلك ان يفاوض في معاهدة الصلح بين الايالة وفرنسا ، وان يقدم للداى في ١٧ كانون الاول ١٨٠١ ، القنصل الفرنسي الجديد لهذه الامة ، السيد « ديبواتافيل » (٣٨) .

وفي ٢٨ آب ١٨٠٣ استقبل مبعوث البرتغال ، السيد « لازارو جوزيف » ، الذي كلف بالتفاوض بشأن معاهدة السلام ، وقام هذا اليهودي بالمفاوضات بين الجزائر والبرتغال من بدايتها حتى نهايتها ، والتي فشلت بسبب الشروط القاسية التي فرضت على البرتغال . وفي ١١ كانون الثاني ١٨٠٤ استقبل بوشناق مبعوث السلطان في الاستانة ، الذي كلف بمهمة صعبة في الجزائر ، فقد اضطر هذا المبعوث الى التحدث مع بوشناق قبل ان يمثل امام الداى ، مما جعل القنصل الاسباني ، الذي لاحظ حالة مماثلة ، ان يطلق على هذا اليهودي بكل بساطة اسم « نائب ملك انجلترا » (٣٩) .

تلك بعض الامثلة لتدخل اليهوديين بكري وبوشناق في نواحي حيوية من سياسة البلد الخارجية .

الثورة على اليهود :

كان السكان خلال سنوات طوال يشاهدون في صبر وتحمل كبير نفوذ اليهود وهو يزداد توغلا مع مرور الزمن في اعمال الحكومة وفي شؤونها الحسابية واسرارها المالية ، وفي الحياة الاقتصادية والسياسية .

يقول « دو غرامون » (٤٠) ان مختلف عناصر السكان وقفت ضد اليهود ، بالاضافة الى الانكشارية والحضر ، كان هناك افراد طائفة البراني واصحاب الحرف البؤساء الذين كانوا يكرهونهم كذلك . فجميع المظالم والجرائم التي ارتكبها الاتراك كانت تعزى اليهم ، وحتى الموظفين وقفوا ضدهم وكانوا على استعداد للاطاحة بهم .

وهكذا ، فان جميع الفئات تضررت من معاملتهم ، كالزارعين الذين كان اليهود يشترون منتجاتهم بأبخس الاثمان ويبيعونها بأسعار خيالية ، والتجار الذين اقترضوا من اليهود المال بالربا الفاحش ، والاهالي الذين كانوا يشترون من اليهود البضائع الفاسدة المفسوشة . وزيادة على ذلك ، فانهم تسببوا في تجويع الشعب باحتكارهم المواد الغذائية الضرورية لحياة السكان مثل الحبوب ، التي كانوا يرفعون اسعارها ويصدرونها الى الخارج في اوقات القحط والمجاعات ، دون مراعاة لشعور السكان وحاجاتهم الاساسية .

ولقد وقع العديد من المحاولات لاغتيال اليهودي بوشناق الذي كان على صلة وثيقة بالدوائر الحاكمة في البلاد ، واشترك مع الداي في تجارة الحبوب ، ومنحه هذا الاخير حق الاحتكار ، ورأينا كيف استطاع هذا اليهودي ان يتبد بالحركة الاقتصادية العامة بمختلف الطرق الشرعية وغير الشرعية . وعلى الرغم من كل محاولات الاغتيال ، فان هذا اليهودي مضى في تحديه وفي جرائمه وغطرسته ، وجرت محاولتان لاغتياله في الشوارع بضربة خنجر ، ونجا في كل مرة دون ان يصاب بأذى . وفي ٢٨ حزيران ١٨٠٥ ، في الساعة السابعة صباحا ، وبينما كان بوشناق خارجا من قصر الداي ، سدد اليه انكشاري يسمى « يحيى » مسدسه واطلق عليه النار قائلا : « تحية اليك يا ملك الجزائر » وهرع الجند وسيوفهم مسلولة الى مكان الحادث ، وقال لهم يحيى : « لقد قتلت اليهودي . . فهل انتم من كلاب اليهودي » وعند ذلك تركوه وشأنه وخرج ولما عاد الى ثكنته حمله رفقاءه على اكتافهم ، وأخذ كل واحد منهم يتلمس طريقة « ليسلم على اليد التي خلصت البلد من المستبد » . واما مصطفى داي السدي اخذ يرتعد خوفا من الخطر ، فبدلا من أن يأمر بالقضاء القبض على الجاني الذي ارتكب الحادث في قصره ، بعث اليه بسبحته رمزا للعفو عنه (٤١) .

وما ان ذاع خبر اغتيال اليهودي بوشناق في المدينة حتى انفجرت الفتنة بشكل كبير ، وقامت مظاهرة شعبية اشتركت فيها جميع عناصر السكان من الجند والحضر والاندلسيين والقبائليين والبسكريين والاباضيين ، واتجهت الى الحي اليهودي ، حيث راحوا ينتقمون بالقتل والسلب والنهب والاحراق ، ويشجعهم في ذلك النسوة اللواتي كن يشاهدن هذه الاحداث من فوق السطح (٤٢) .

فيما يخص مصير مصطفى داي ، فانه بعدما شعر بالخوف على حياته ، عرض على الانكشارية ان يسمح لهم بنهب المدينة اذا قبلوا ان يتركوه على قيد الحياة . ولما رفضوا طلب اليهم ان يسمحوا له بالسفر الى المشرق ، غير أنهم رفضوا هذا الطلب كذلك ، مما جعله يحاول الهرب مع الخزناجي والتوجه الى ملجأ يحميه من غضبة الجماهير ، ولكنها لحقت به فذبح وسحبت جثته في الشوارع ، ثم رميت عند « باب عزون » ، وهكذا مات مصطفى داي والشعب غاضب عليه .

ولأجل تهدة الانكشارية وعدهم الداي الجديد بطرد جميع اليهود من المدينة ماعدا اصحاب الحرف الذين لا يمكن للسكان الاستغناء عنهم .

ومنذ الايام الاولى من وقوع المصيبة التي حلت باليهود اسرعت مجموعة كبيرة من العائلات للهرب خوفا من القتل والنهب . ففي ١ تموز هاجرت نهائيا من مدينة الجزائر ١٠٠ عائلة يهودية الى تونس و ٢٠٠ عائلة اخرى الى ليفورن في ١٠ تموز ١٨٠٥ (٤٣) .

ومما يلاحظ انه على الرغم من جميع هذه الانتفاضات العنيفة ، فان الطائفة اليهودية ظلت بعد هذه الاحداث تعيش في سلام ووئام مع السكان العرب .

كما ان الاغلبية منهم كانت بعيدة عن الصراعات والمؤامرات التي جرت بين الاسر اليهودية الليفورنية للسيطرة على أمور الطائفة . وان جميع الاموال التي جمعها هؤلاء اليهود كانت على حساب السكان من يهود وعرب واثراك على السواء .

الخاتمة :

يتأكد لنا من خلال ما تقدم ان اليهود كانوا يؤلفون عنصرا مهما في المجتمع الجزائري زمن العثمانيين . وقد تمتعوا باستقلال ذاتي في الاشراف على امورهم الدينية وادارة مؤسساتهم حسب قوانينهم وعاداتهم ، فازدهرت احوالهم الاجتماعية من جراء نظرة المسلمين المتسامحة .

ولكن ، ومهما كانت تصرفات العثمانيين الشديدة تجاه اليهود ، فانها لم تصل الى حد التعدي على معتقداتهم الدينية كما حدث لهم في اغلب بلاد أوروبا ، حيث كانوا يتعرضون هناك لابشع الاحقاد ، وكانوا يعيشون في عزلة ، وظلوا عرضة للطرد والاضطهاد والتشريد .

وعلى اية حال ، فقد اتيح لليهود في المجتمع الجزائري خلال هذه الفترة مكانة مرموقة سمحت لهم بالقيام بدور اقتصادي وسياسي كبيرين ، بسبب الثقة التي كانوا يحظون بها من المسؤولين العثمانيين ، الذين يسروا لهم السيطرة على شؤون البلاد . وبذلك راحت اطماع اليهود تزداد باستمرار ، كما ازدادت الامتيازات التي اعطيت لهم رسوخا ، واصبح من المستحيل اخضاعهم ، فكانت النتيجة دمار الجزائر وتسهيل احتلالها .

حصل الباحث على شهادة الماجستير في الاداب برسالتة : « يهود الجزائر في العهد العثماني من مطلع القرن الثامن عشر حتى ١٨٣٠ » باشراف الدكتور محمد خير فارس .

الهوامش :

- (١) Plantet, E., *Correspondance des Deys d'Alger avec la Cour de France*, t.I, Bou Slama, Tunis . 1981, P. XVI.
وكذلك فارس ، محمد خير ، تاريخ الجزائر الحديث من الفتح العثماني الى الاحتلال الفرنسي ، مطابع الفباء - الاديب ، دمشق ١٩٦٩ ص ٧٠-٧٢ و٨١-٨٧ .
- (٢) Esquer, G., *La Prise d'Alger 1830*, La Rosse, Paris 1929, P. 20.
- (٣) Grammont, H. D. de , *Histoire d' Alger sous la dimination turque (1515-1830)* , E. Leroux, Paris 1887 , pp. 369-370.
- (٤) شالر ، وليام ، مذكرات وليام شالر قنصل امريكا في الجزائر (١٨١٦ - ١٨٢٤) ، تعريب وتعليق وتقديم اسماعيل العربي ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ، ١٩٨٢ ، ص (٨٩) .
- (٥) المصدر نفسه ، ص (٨٩) .
- (٦) يقرول هايديو ان رئيس الطائفة اليهودية في الجزائر كان يعرف باسم قسيس ، الا ان الاسم كان يدل على رئيس الطائفة المسيحية راجع :
- Haedo, F. D. de, «Topographie et histoire generale d'Alger», in *Revue Africaine* , 1870, P. 91.
- (٧) Trapani, D . , *Alger tell Qu'elle est ou tableau statistique , morale et Politique de cette regence*, Paris 1830, P.21.
- (٨) تريد من المعلومات حول التنظيم الطائفي راجع :
- Cahen, A., *Les Juifs dans l'Afrique septentrionale*, L. Arnolet, Constantine, 1867, pp. 75-88.
- (٩) Rozet, M. P., *Voyage dans la regence d'Alger*, A . Bertrand, Paris 1833, t. III, P.83.
- (١٠) Pananti, F., *Relation d'un séjour a Alger contenant des observations sur l'état actuel de cette régence*, trad. de l'anglais par Blanquière, Le Normont, Paris 1820, p. 228.
- (١١) Rozet, *Op. Cit.*, t. II, p. 241.
- (١٢) Martin, C., *Les Israelies algeriens de 1830 à 1902*, Herakles , Paris 1936, p. 36.
- (١٣) شالر ، وليام : المصدر السابق ص (٩٢) .
- (١٤) Mainz, E., « Les Juifs d'Alger sous la dimination turque ». in *Journal Asiatique*, TCCXL, 1952, p. 217.

- Cohen, M., **Le Parler arabe des juifs d'Alger**, Champion, Paris 1912, p. 14. (١٥)
- Clausolles , M. P. , **L'Algérie pittoresque ou Histoire de la régense d'Alger**, Paris 1843, p. 96. (١٦)
- Haedo, **Op. Cit.**, p. 91. (١٧)
- Rozet, **Op. Cit.**, t. II, p. 253. (١٨)
- Leynadier, et Clausel, **Histoire de l'Afrique Française**, Paris 1846, p. 153. (١٩)
- Haddey, H. J.M., **Le Livre d'Or des Israelites algériens**, Alger 1871, p.9. (٢٠)
- Grammont, **Op. Cit.** p. 44. (٢١)
- Emerit, M., « Les Quartiers commerçants d'Alger à l'époque turque » in **Algérie**, Février 1952, p. 12. (٢٢)
- Cite par . Eisenbeth, M ., « Les Juifs en Algérie et en Tunisie à l'époque turque » (1516-1830) . in **Revue Africaine** , 1952, p. 334. (٢٣)
- Raynaq, Gt., **Histoire philosophique et politique des établissements et du commerce des européens dans l'Afrique Septentrionale**, Paris 1826, t. II, p.92. (٢٤)
- Boudia, M., **La Formation sociale algérienne précoloniale**, Paris o.p.u., Alger 1981, p. 180. (٢٥)
- Emerit, M., « Les Liaisons terrestres entre le Soudan et l'Afrique du Nord au 17e siècle et au début du 19 e siècle », in **Travaux de l'Institut de Recherches sahariennes**, No 19, 1954, p. 37. (٢٦)
- Rozet, **Op. Cit.**, t. II, pp. 226-227 . (٢٧)
- Filippini, J. P., « Livourne et l'Afrique du Nord au 18e siècle » , in **Revue d'Histoire Magrébine** , No7-8 (1977) , p. 145. (٢٨)
- Haddey, **Op. Cit.**, p. 42. (٢٩)
- Ibid** , p. 44. (٣٠)
- Julien, CH. A., **Histoire de l'Afrique du Nord** , Payot , Paris 1964 , p. 240 . (٣١)
- لزيد من المعلومات حول شركة بكري وبوشناق راجع : الزبيدي ، محمد العربي ، التجارة الخارجية للشرق الجزائري قبل الاحتلال، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر ١٩٧٩، ص(٢٥٥-٢٨٥). (٣٢)

Perrot, A.M., Alger, Esquisse topographique et historique du royaume et de la ville , Paris 1830, p. 26.	(٢٢)
Esquet, Op. Cit. , p.24.	(٢٤)
Plantet, Op. Cit. , p. 463, Note I	(٢٥)
Bloch, I., Inscription tumulaire des anciens cimetières israélites d'Alger , A. d' Urlancher, Paris 1888, p. III.	(٢٦)
Idib , p. 96.	(٢٦)
Idib , p. 96.	(٢٨)
Ibid , p. 97.	(٢٩)
Grammont, Op. Cit. p.360.	(٤٠)
Ibid , p. 361.	(٤١)
Ibid , p. 361.	(٤٢)
Bloch, Op. Cit. p. 102.	(٤٣)

قضية الموصل وصداها في الأوساط العراقية

جعفر الحياي

مقدمة :

في مجرى الصراع بين الاستعماريين ظهرت قضية الموصل وتحولت في فترة ما الى قضية بالغة الحساسية فبتأثير جملة من العوامل الاقتصادية والسياسية تحولت الموصل الى موضع صراع بين الدول الاستعمارية فيما بينها من جهة ، وموضوع لاستغلال كل من فرنسا وبريطانيا لتثبيت هيمنتها الاستعمارية على المشرق العربي (١).

وترجع بدايات الصراع الاستعماري لاستثمار خيرات الموصل بشكل عام ، والنفطية بشكل خاص ، الى عام ١٨٨٨ ، ففي هذا التاريخ اصدر السلطان عبد الحميد الثاني فرمانا حصر بموجبه حق التفتيش عن النفط واعطاء الامتيازات لاستثماره بميزانيته الخاصة . وقد جاء ذلك نتيجة لتنبه الدولة العثمانية لطبيعة الصراع بين الشركات الغربية حول اكتشاف واستغلال المكامن الطبيعية في ارجاء الدولة العثمانية . لكن هذا الامر يستمر طويلا بسبب ضعف الدولة العثمانية وزيادة تأثير الدول الاوربية على سياستها الداخلية ، ففي عام ١٩٠٤ حصلت شركة سكك حديد الاناضول الالمانية على عقد يبيع لها مسح حقول نفط الموصل واستثمارها ، لكن الحكومة العثمانية الفت عقدها مع الشركة الالمانية عام ١٩٠٦ بتأثير الضغط البريطاني ، ودخلت في مفاوضات مع جماعة (دارسي) الاستثمارية البريطانية لاستثمار حقول النفط . وتعرضت المفاوضات البريطانية العثمانية خلال الازمة السياسية الداخلية للدولة العثمانية عام ١٩٠٨ والتي انتهت باضطرار السلطان الى منح الدستور لارضاء الدول الاوربية . واستؤنفت المفاوضات عام ١٩٠٩ بين الشركة البريطانية ووزارة المالية التركية ، الا انها توقفت هي الاخرى بسبب خلع السلطان عبد الحميد في العام نفسه .

وخلال ذلك ، لم تياس الحكومة الالمانية من امكانية العودة الى ايجاد موطىء قدم لها في الدولة العثمانية ، ونجحت في ذلك ، حيث عقدت عام ١٩١٤ اتفاقا مع الحكومة البريطانية تم بموجبه التوصل الى تسوية أدت الى تأسيس شركة النفط التركية براسمال مختلط بريطاني - الماني - انكلوسكسوني (٢) . وحصلت هذه الشركة على وعد من الصدر الاعظم في ٢٨ حزيران (يونيو) ١٩١٤ بالسماح لها بالتنقيب عن النفط في ولايتي الموصل وبغداد . لكن نشوب الحرب العالمية الاولى وانحياز تركيا الى جانب المانيا أدى الى فشل المشروع . وتمسكت بريطانيا من ناحيتها بالوعد بسبب معرفتها بوجود كميات كبيرة من النفط في الموصل (٣) .

الموصل موضع نزاع دولي :

خلال السنتين الاوليين من الحرب أدت المفاوضات بين بريطانيا وفرنسا وروسيا القيصرية الى اقضاء الاخيرة عن المطالبة باعتبار الموصل منطقة نفوذ لها ، لكن روسيا القيصرية كانت تميل الى اعطاء الموصل الى فرنسا . وهكذا خضعت بريطانيا لشكل من التسوية نصت عليه فيما بعد اتفاقية سايكس - بيكو المعقودة في عام ١٩١٦ بين الدول الثلاث ، وبموجب هذه التسوية أصبحت الموصل ضمن منطقة النفوذ الفرنسي . وكانت الموصل موضع اهتمام الفرنسيين الشديد ، بسبب قربها من سورية الداخلية التي كانت من حصتها وفق اتفاقية سايكس بيكو (٤) .

وتطور الاهتمام البريطاني بالموصل بعد انتهاء المعارك في العراق ، فإضافة الى النفط الذي يعد عاملا رئيسيا في اجتذاب انتباه البريطانيين للمنطقة ، كانت هناك عوامل أخرى ، أهمها ادراك البريطانيين الأهمية الاستراتيجية للموصل كعازل طبيعي بين قواتهم في العراق وبين تركيا من جهة ، ومن جهة أخرى اقتناعهم ان السيطرة على وسط العراق وجنوبه تتطلب السيطرة على المناطق التي تقع في شماله (٥) . والسيطرة على الموصل تتيح للبريطانيين تسليط سيطرتهم على الحركة الوطنية في العراق وسورية ، كما ان وضع الموصل تحت نفوذهم المباشر يعني الاحتياط للمستقبل ازاء أي تطور في سورية والعراق لا يلائم المصالح والاطماع البريطانية في المنطقة (٦) . ويعتبر شهر تشرين الاول (اكتوبر) عام ١٩١٨ التاريخ الحقيقي لظهور ما عرف بقضية الموصل ، من النواحي السياسية والحقوقية . ففي هذا التاريخ احتلت القوات البريطانية منطقة الموصل بعد تراجع القوات العثمانية عنها باتجاه اقصى كردستان العراق (لتتخذ منه حصونا منيعة للدفاع عن المنطقة) (٧) .

وأثار احتلال بريطانيا للموصل احتجاج تركيا التي كانت ترى ان الموصل هي مفترق طرق مهمة لكافة البلدان والمقاطعات المجاورة . ومن الناحية السياسية تعني السيطرة عليها فرض الإشراف على كردستان العراق ، والمحافظة على وضع

استراتيجي مميز ازاء بقية العراق وسورية . ومن الناحية الاقتصادية كانت لتركيا مطامع بنفط الموصل شبيهة بمطامع فرنسا وبريطانيا (٨) . اما فرنسا فلم يكن اسامها الا التسليم بالامر الواقع الذي فرضته عمليات الجيش البريطاني في العراق ، والقبول باعتبار الموصل منطقة نفوذ بريطاني . وهو ما تم رسميا في كانون الثاني (يناير) عام ١٩٢٠ ، حيث تم الاتفاق بين فرنسا وبريطانيا على تنازل الاولى عن مطامعها في العراق مقابل اطلاق يدها في سورية ، واعطائها نسبة ٢٥٪ من صافي انتاج النفط الخام في حقوق الموصل ، على ان توافق فرنسا على اعطاء جميع التسهيلات لمرور خطين لانابيب النفط في سورية ولبنان من اجل اوصول النفط العراقي والارمني الى موانئ البحر الابيض المتوسط (٩) وتجسد هذا التنازل في مؤتمر سان ريمو في نيسان (ابريل) عام ١٩٢٠ ، والذي اتفق فيه على وضع العراق وفلسطين تحت الانتداب البريطاني ، وسورية ولبنان تحت الانتداب الفرنسي (١٠) .

لكن الاتراك لم يعترفوا بمقررات مؤتمر سان ريمو ، فيما يتعلق باعتبار الموصل جزءا من الاراضي العراقية . واستمر الجيش التركي بتنظيم العصابات المسلحة للاخلال بالامن على الحدود العراقية ، وهذا ما جعل قضية الموصل من اولى القضايا التي واجهت الدولة العراقية الفتية ، خاصة وان تركيا بعد مجيء (كمال اتاتورك) للحكم نشطت في مطالبتها بالموصل ومزاعمها بانها جزء من الاراضي التركية (١١) . وحولت بريطانيا قضية الموصل الى وسيلة لايتراثر الحكومة العراقية ، من اجل تعديل مدة سريان المعاهدة العراقية - البريطانية الاولى من (٤) سنوات الى (٢٥) سنة (١٢) ، وثبتت اسس الانتداب على قاعدة اكثر رسوخا ، خاصة وان بريطانيا واجهت مصاعب جدية في فرض سيطرتها العسكرية والسياسية على العراق ، وبرز ذلك بشكل خاص منذ ثورة عام ١٩٢٠ ، الامر الذي جعلها تعمل على الايحاء بانها من المدافعين عن المصالح العراقية من خلال دفاعها عن الموصل . وكانت تأمل ان ذلك من شأنه تحسين سمعتها بين اوساط الشعب العراقي وساسته ، ففي هذا الامر كما في بعض الامور الثانوية كانت بريطانيا تتصرف وكأنها تحاول ازالة بعض ما علق في اذهان العرب حول دورها في تجزئة البلدان العربية ، واعطاء فلسطين للصهاينة من جهة ، ومن جهة اخرى كانت تبغي احراج موقف الاستعمار الفرنسي في سورية ، في الاطار العام للصراع بين الاستعماريين على المنطقة العربية ، حيث جزأت فرنسا سورية الى دويلات طائفية مما جعلها في مواجهة مباشرة مع الحركة الوطنية فيها (١٣) .

واستمر الحال كما هو عليه الى عام ١٩٢٣ حيث وقعت دول الحلفاء وتركيا على معاهدة لوزان (١٤) التي نصت فيما يتعلق بقضية الموصل على احالة المسألة الى تركيا وبريطانيا من اجل حلها وديا خلال فترة تسعة اشهر ، وفي حال الفشل يرفع النزاع الى مجلس عصبة الامم ، كما نصت على ضرورة المحافظة على الوضع القائم في منطقة

الموصل كما هو عليه وايقاف كل ما من شأنه الاخلال بالامن او تغيير طابع المنطقة(١٥). وبالفعل جرت مفاوضات بين تركيا وبريطانيا لم تسفر عن نتيجة مما دفع الطرفين حسب ما نصت عليه معاهدة لوزان الى رفع قضية النزاع حول الموصل الى مجلس عصبة الامم .

بحثت عصبة الامم قضية الموصل في ٢٠ ايلول (ستمبر) عام ١٩٢٤ ، واستمر تباعد موقفي بريطانيا وتركيا ، فأصرت بريطانيا على تعيين خط للحدود بين تركيا والعراق تصبح الموصل بموجبه جزءا من الاراضي العراقية ، في حين اصر الاتراك على التمسك بكافة اجزاء ولاية الموصل ، وتوصلت العصبة الى اتخاذ قرار وافقت عليه بريطانيا وتركيا بنص على تأليف لجنة خاصة مهمتها دراسة وضعية الحدود ورفع تقرير للمجلس حول ما ترثيه(١٦) .

وصلت لجنة التحقيق الدولية الى الموصل في ٢٧ كانون الثاني (يناير) ١٩٢٥ ، وبدأت عملها بالاستماع الى وجهات النظر المختلفة ، وبعد انتهاء شهرين من المشاورات كتبت تقريرها الذي نص على رفض فكرة تقسيم ولاية الموصل . وقد اعتمدت اللجنة على الاحصاءات الاقتصادية والبشرية البريطانية في تقرير ارتباط الموصل اقتصاديا ببغداد وبقية انحاء العراق ، وبأن الطابع الديموغرافي لها يؤكد صلتها التاريخية بالعراق ، ومن الوجهة الجغرافية تشكل الموصل حاجزا طبيعيا يقف عائقا امام انتسابها الى تركيا بفضل سلسلة الجبال المعقدة ، التي تفصل الاراضي العراقية عن تركيا وتكون حوض الرافدين . ومن الناحية السياسية والادارية والروحية فقد كانت الموصل تخضع لادارة الحكومة العراقية من الناحية العملية ، ومشاعر سكانها مع بقائهم جزءا من العراق(١٧) .

والغريب في مقرارات اللجنة انها ربطت بين توصياتها حول الموصل ومسألة الانتداب البريطاني على العراق ، فاشتراطت ان يوضع العراق تحت الانتداب البريطاني لمدة ٢٥ سنة ، مما يؤكد ان اللجنة كانت بريطانية اكثر مما هي لجنة دولية . وبعد مداول عديدة داخل عصبة الامم وافقت الاخيرة على قرار يقضي باعتبار ولاية الموصل عراقية ، وذلك بتاريخ ١٦ كانون الاول (ديسمبر) ١٩٢٥ . لكن الاتراك الذين لم يحضروا جلسة مجلس العصبة لم يعترفوا بهذا القرار . وقد ادى هذا فيما بعد الى توتر في العلاقات التركية البريطانية وصل الى حد التهديد بالحرب ، ألا ان الحكومة التركية لم تستطع الاستمرار في تحدي عصبة الامم وبريطانيا الى النهاية ، واضطرت الى اجراء مفاوضات انتهت بعقد معاهدة بين العراق وتركيا وبريطانيا تؤكد عائدة الموصل الى العراق . وقد انتهت هذه المعاهدة في ٥ حزيران (يونيو) ١٩٢٦ ، ودخلت حيز التنفيذ يوم ١٨ حزيران (يونيو) من نفس العام(١٨) .

الموقف العراقي الرسمي والشعبي من القضية الموصل

تعد الموصل جزءا متما للعراق اقتصاديا وسياسيا وبشريا ، ولها أهمية استثنائية في الاقتصاد العراقي ، ففي مصادر المياه تقع روافد نهر دجلة جميعها جنوب مدينة الموصل ، وتروى الاراضي الزراعية من روافد النهر المذكور (٢٠) . واثارت اعمال التنقيب للشركات الاجنبية حول النفط في الموصل ، وصراعها فيما بينها حول الحصول على امتيازات استثماره ، انتباه السياسة العراقيين لاهمية الثروة الجديدة ودورها في الاقتصاد العراقي (٢١) ، والموصل هي واسطة الاتصال الطبيعي والعمرائي والثقافي بين وادي الرافدين وبلاد الشام ، وقامت بدور صلة الموصل بين العراق وبلاد الشام . وكانت الصناعات الحرفية والفنون والثقافة والافكار السياسية تنتقل مع حركة التجارة من العراق واليه ، من سورية ، وهذا الواقع لم ينقطع يوما من الايام (٢٢) ، ولو تم سلخها عن الاراضي العراقية ، لاقتصر الاتصال بين العراق وبلاد الشام على طريق انبائية الصحراوي ، اضافة الى ان استيلاء الاتراك على ولاية الموصل يجعلهم يزدادون طمعا بالاستيلاء على الاسكندرونة ويمدون ابصارهم الى حلب التي تقع بين الموصل والاسكندرونة ، ويعني ذلك بسط الحكم التركي على القسم الشمالي من اسيا العربية (٢٣) . ورغم حداثة تكوين الدولة العراقية ، عبرت الحكومة العراقية والمجلس التأسيسي بأشكال متعددة عن تمسكهما الشديد بالموصل ، ففي خطاب للملك فيصل القاه في الموصل في ايار (مايو) عام ١٩٢٣ دافع فيه عن عروبة الموصل ، كما دافع ايضا عن عروبة ديار بكر واورفه وماردين ، وسخر من مزاعم الاتراك حول احقيتهم بالموصل المنطلقة من ان هناك جالية تركية صغيرة تقطن فيها ، قائلا ان هذا الزعم يبيح للعرب المطالبة بالمناطق العربية الواقعة تحت السيطرة التركية (٢٤) . وفي خطاب اخر له القاه في مدينة الموصل في شهر كانون الاول (ديسمبر) عام ١٩٢٤ اعلن فيه ان ولاية الموصل جزء لا يتجزأ من العراق ، وان الحكومة العراقية لا تستطيع ان تعيش يوما واحدا بدونها ، و اشار الى ان مشكلة الموصل على علاقة بالسلام في الشرق الادنى والشرق كله وبين ان الاتراك طامعون بنفط الموصل ومعادنها ، ودعا سكان المدينة الى الدفاع عن استقلال العراق التام ومن ضمنه منطقة الموصل (٢٥) .

وفي اجتماع المجلس التاسيسي العراقي في ربيع عام ١٩٢٤ اخبرت الحكومة العراقية المجلس عن اهتمامها بقضية الموصل ، واعلنت انه اذا لم يحتفظ بالموصل فلن تكون هناك حكومة عراقية ، كما اعلن بعض النواب ، وخاصة نواب الموصل ذاتها وكركوك ، بما فيهم النواب الاكراد ، عن تمسكهم بالموصل بالتأكيد ان (الموصل هي العراق والعراق هو الموصل) . واكد نائب كردي بان الاكراد لا يريدون الانفصال عن العراق وانهم - اي الاكراد - لا يستطيعون العيش خارج اطار الدولة العراقية (٢٦) .

وكان الموقف الشعبي العراقي اشد سخطا على الاتراك ، بسبب مزاعمهم حول

عائدية الموصل ، وانعكس ذلك في مواقف الأحزاب والجمعيات والشخصيات الوطنية والصحافة والجماهير الشعبية . ففي الاول من ايلول (سبتمبر) عام ١٩٢٤ تأسس حزب الاستقلال العراقي في الموصل . وعرف باتجاهاته القومية (٢٧) ، وكان الهدف الاول لتأسيسه الدفاع عن عروبة الموصل . وقد اذاع الحزب بياناً هاجم فيه الاتراك بشدة وذكر بجرائمهم اثناء حكمهم للمنطقة العربية ، وفند مطالبتهم بالموصل ، ووصم مزاعم الاتراك بالظلم والاستهتار ، واكد ان الموصل عربية عراقية . كما لعب الحزب المذكور دوراً في تحريض الشعب على التمسك بعروبة الموصل والدفاع عنها ، وطلب في بيان وزع على الطلبة العراقيين ان يحيوا عن أي سؤال حول الموصل بانها راسي العراق وهي عربية ، ومن يفكر بفصلها عنه فهو خائن لوطنه وامته (٢٨) .

اما حزب الامة فقد قدم مذكرة الى لجنة التحقيق الدولية المكلفة بالنظر بقضية الموصل ، دافع فيها عن عروبة الموصل ، واعلن معارضته لمطالبة حكومة انقرة غير العادلة بضم هذه الولاية اليها ، واكد ان اية قوة في العالم لا تستطيع اقتطاع الموصل عن العراق . وجاء في المذكرة بحث تفصيلي في القضية العربية والثورة العربية ضد الاتراك ، مع تلخيصها بالحجج الجغرافية والسياسية والقومية والاقتصادية والعسكرية (٢٩) .

واتخذت الجمعيات العراقية مواقف مساندة لمواقف الاحزاب العراقية ، ففي تشرين الاول (اكتوبر) عام ١٩٢٤ ارسلت الجمعية الكردية في مدينة السليمانية مذكرة الى مجلس عصبة الامم عارضت فيها المطالب التركية في ولاية الموصل ، واشارت الى عدم وجود اية روابط بين اكراد العراق وتركيا (٣٠) . وفي كانون الثاني (يناير) عام ١٩٢٥ تأسست (جمعية الدفاع الوطني) في الموصل لمساندة حزب الاستقلال في اللجوء من عروبة الموصل (٣١) ، وقدمت جمعيتا اطباء والصيادلة ، بعد دورة اجتماعات في شهر كانون الثاني (يناير) عام ١٩٢٥ ، مذكرة الى لجنة التحقيق الدولية دافعت فيها عن عروبة الموصل ومنطقة كيتيكيا التي يحتلها الاتراك (٣٢) .

ومن البرز الشخصيات الوطنية التي كان لها دور في الدفاع عن عروبة الموصل عبد المحسن السعدون ، رئيس الوزراء ، الذي أدت جهوده الى خلق التفاف وطني عراقي حول قضية الموصل عام ١٩٢٣ ، وكما جاء في احد التقارير البريطانية ان الاجماع الوطني ضم « الشيخ ورجل المدينة والسني والشيعة واعضاء المجالس البلدية والادارية . . . وصحفيو بغداد ضمو اصواتهم الى عبد المحسن السعدون » (٣٣) . وبعد سناطع الحصري من الشخصيات العربية التي قامت بدور بارز في الدعوة لتبني الرأي العام العراقي حول خطورة قضية الموصل ، حيث قام بزيارة مدينة النجف والاتصال بالعديد من قادة الرأي العام المحلي ورجال الدين ، من اجل دعوتهم للاهتمام بهذه القضية . وفي بغداد ذاتها حيث كان يقيم كانت له لقاءات عديدة مع الشخصيات السياسية لتناقشة الامر ذاته (٣٤) .

ونشرت الصحف العراقية حملة متواصلة ضد مطامع الاتراك ، فنشرت صحيفة (الامل) البغدادية لصاحبها الشاعر معروف الرصافي في عددها الصادر يوم ١٢ تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٢٣ مقالا تحت عنوان « مطامع الترك في الموصل وحلب » هاجمت فيه دعاوى الاتراك ومطامعهم في المنطقة العربية بشكل عام ، وفي الموصل وحلب بشكل خاص (٢٥) ، ونشرت صحيفة (الموصل) الصادرة في الموصل بتاريخ ١٦ حزيران (يونيو) عام ١٩٢٤ مقالة تحت عنوان « صفحة سوداء من تاريخ الترك في الموصل » فضحت جرائم الاتراك ابان حكمهم للمدينة ، وحذرت الجماهير الشعبية من خطر الاطماع التركية في الموصل (٢٦) .

واهتمت الصحافة السورية في الدفاع عن عروبة الموصل . فعندما زار وفد عصبة الامم الموصل من اجل تحديد الحدود بين العراق وسورية ، نقلت صحيفة المقتبس الدمشقية في عددها الصادر يوم ١٣ شباط (فبراير) ١٩٢٥ صورة دقيقة عن معارضة الشعب لمطامع الاتراك في الموصل وتمسكه ، بعربه واكراده ، بالحقوق العربية واستعداده للتضحية في سبيلها (٢٧) .

وبلغ سخط الراي العام درجة من النضج والتبلور رافقت وصول لجنة التحقيق الدولية ، التي استقبلت بمذكرة موقعة من قبل (٣٠٠) شخصية موصلية من المقيمين في بغداد ، اعلنوا فيها ان الموصل بالنسبة للعراق بمثابة الراس من الجسد (٢٨) . وعند وصول اللجنة الى الموصل استقبلت من الاهالي بالهتافات تردد ان الموصل عربية عراقية (٢٩) . وابرق رؤساء الطوائف المسيحية في الموصل الى قداسة البابا وكرادلة لندن وبروكسل وينا وبودابست يحتجون على مطالبة الاتراك بالموصل ويطالبون بالتدخل لدى عصبة الامم لتأييد حق العراق الطبيعي فيها (٣٠) .

خاتمة :

ان ظهور قضية الموصل يؤكد ان الاستعمار الغربي الحديث ، في اندفاعه للسيطرة على المنطقة العربية ، لم يراع سوى مصالحه الاقتصادية والسياسية ، ووضع جانبا الاعتبارات التاريخية والبشرية والاقتصادية والعسكرية وغيرها ، التي تؤكد وحدة المنطقة العربية . ولم يكتف الاستعمار بتجزئة المشرق العربي الى دول ، بل قسم هذه الدول الى دويلات اصغر كما فعل في سورية لخدمة مصالحه . وحين كانت مصالحه تتطلب المحافظة على وحدة دولة عربية ما ، كان ذلك يتم على حساب فكرة توحيد المنطقة العربية ككل ، كما حدث في العراق في قضية الموصل حيث عمل الاستعمار البريطاني على المحافظة على وحدة العراق الجغرافية والسياسية . وكان لتمسك العراقيين بالموصل على انها جزء طبيعي من العراق دوره في اكرام البريطانيين والاتراك

والفرنسيين على الاقرار بهذا الواقع الذي استغل من قبل بريطانيا لتزير سيطرتها على موطنهم قدم افضل ازاء المشرق العربي .، وكان بقاء الموصل على وضعها الطبيعي يعني بالنسبة للبريطانيين وضعها بمكانتها الطبيعية وميزاتها الاستراتيجية تحت سيطرة دولة فتية ضعيفة انداك هي العراق ، يسهل منها المحافظة على المصالح البريطانية لفترات طويلة اكثر مما هو الحال لو كانت الموصل تحت السيطرة التركية .

حصل الباحث على شهادة الماجستير في التاريخ برسالته « العلاقات بين سورية والعراق من ١٩٢٠ - ١٩٤١ دراسة في العمل القومي المشترك » باشراف الدكتورة خيرية قاسمية .

- (١) الحصري ، ساطع ، يوم ميلاد ، دار الاتحاد ، بيروت ١٩٤٥ ص ٦٢ .
- (٢) حسين ، فاضل ، مشكلة الموصل ، دراسة في الدبلوماسية العراقية - الانكليزية - التركية وفي الرأي العام ، الطبعة الثانية ، بغداد ١٩٦٧ ص ٣٠٢-٣٠٤ .
- (٣) البزاز ، عبد الرحمن ، العراق من الاحتلال حتى الاستقلال ، الطبعة الثالثة ، بغداد ١٩٦٧ ص ١٦٧ .
- (٤) الحصري ، المصدر السابق ص ٦٢ .
- (٥) شريف ، ابراهيم ، الشرق الاوسط ، دراسة لاجاهات سياسة الاستعمار حتى قيام ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ في العراق ، دار الجمهورية ، بغداد ١٩٦٥ ص ١٤٩ - ١٥٠ .
- (٦) طيارة ، راشد ، الانتداب وروح السياسة الانكليزية ، مطبعة طيارة ، بيروت ١٩٢٥ ص ١١٢ .
- (٧) الحسني ، عبد الوزاق ، تاريخ العراق السياسي الحديث ج ٢ ، الطبعة الثانية ، صيدا ١٩٥٧ ص ١٠٢ .
- (٨) طيارة ، المصدر السابق ص ١١٢ .
- (٩) فرحوط ، ذوقان ، تطور الحركة الوطنية في سورية (١٩٢٠ - ١٩٢٩) ، دار الطليعة ، الطبعة الاولى ، بيروت ١٩٧٥ ص ٣٠-٣١ و ٢٠٢ .
- (١٠) انطونيوس ، جورج ، يقظة العرب ، تاريخ حركة العرب القومية ، ترجمة د. ناصر الدين الاسد احسان عباس ، دار العلم للملايين ، الطبعة الثانية ، بيروت - نيويورك ١٩٦٦ ص ٤١٩ .
- (١١) الحسني ، المصدر السابق ص ١٠٨ .
- (١٢) البزاز ، المصدر السابق ص ١٩٥ .
- (١٣) الحصري ، المصدر السابق ص ٤١٢ .
- (١٤) اعتبرت معاهدة لوزان في ٢٤ تموز (يوليو) عام ١٩٢٢ الاتفاقية الرسمية للسلام بين تركيا وجميع دول الحلفاء . وفيما يخص علاقات تركيا مع العراق وسورية فقد نصت المعاهدة على ان تقوم كل من بريطانيا وتركيا بالعمل على تسوية الحدود العراقية - التركية ، واعتبار منطقة الاسكندرون جزءا من الاراضي السورية ، كما تم الاتفاق على تنازل تركيا عن كل الحقوق والملكيات للاراضي الواقعة خارج حدودها .
- (١٥) الشريف محمد بديع ، والمعاسني ، زكي ، دراسات تاريخية في النهضة العربية الحديثة، القاهرة، بلا تاريخ ص ٢٢٠ .
- (١٦) فوستر ، هنري ، تكوين العراق الحديث ، ترجمة عبد المسيح جويده ، بغداد ١٩٤٥ ص ٢٩٠-٢٩١ .
- (١٧) حسين ، المصادر السابق ص ٦٠-٦١ .
- (١٨) البرقاوي ، احمد رفيق ، العلاقات السياسية بين العراق وبريطانيا (١٩٢٢ - ١٩٢٢) ، دار الرشيد ، بغداد ١٩٨٠ ص ٩٩ - ١٠٠ .
- (١٩) حسين - المصدر السابق ص ١٨٢ - ١٨٦ .
- (٢٠)

Arnold J.Toynbee, A and Kennethp.
Kirkwood Turkey - London 1926, P. 279.

- (٢١) العلوجي ، عبد الحميد ، واللامني ، خضير عباس ، الاصول التاريخية للنفط العراقي - الجزء الثاني ، بغداد ١٩٧٥ ص ٣٢ .
- (٢٢) كولان ، جاك ، تاريخ الحركة النقابية اللبنانية (١٩١٩ - ١٩٤٦) ، تعريب نبيل هادي ، بيروت ١٩٧٤ ص ١٨٥ .
- (٢٣) الحصري ساطع ، مذكراتي في العراق (١٩٢٧ - ١٩٤١) ، الجزء الثاني ، الطبعة الاولى ، بيروت ١٩٦٨ ص ٤٩٠ - ٤٩١ .
- (٢٤) حسين ، المصدر السابق ص ٢٢١ .
- (٢٥) المصدر نفسه ص ٢٢٥ .
- (٢٦) المصدر نفسه ص ٢٢٢ - ٢٢٤ .
- (٢٧) جاء في المواد الاولى لبرنامج هذا الحزب « ضرورة العمل على استقلال العراق التام وتنشيط حركة الوحدة العربية في الخارج » . و أصدر الحزب جريدة خاصة ناطقة بلسانه أطلق عليها اسم المهد . وصدر العدد الاول منها في ٢٠ يناير / كانون الثاني ١٩٢٥ ، وتولى رئاسة تحريرها عثمان قاسم وهو كاتب سوري هرب الى العراق بسبب ملاحقة السلطات الفرنسية له . بطي ، روافيل ، الصحافة في العراق ، مطبعة دار الهنا ، مصر ١٩٥٥ ص ١٠٠-١٠١ .
- (٢٨) حسين ، المصدر السابق ص ٢٢٦-٢٢٧ .
- (٢٩) المصدر نفسه ص ٢٣٠ .
- (٣٠) الحسيني ، المصدر السابق ، الجزء الثالث ، ص ٢١٠ .
- (٣١) حسين ، المصدر السابق ص ٢٢٩ .
- (٣٢) فرج ، المصدر السابق ص ٧٩ .
- (٣٣) الحصري ، مذكراتي ، الجزء الثاني ، ص ٤٩٠-٤٩١ .
- (٣٤) حسين ، المصدر السابق ص ٢١٠ نقلا عن صحيفة الامل (١١ تشرين الاول ١٩٢٢) .
- (٣٥) المصدر نفسه ٢٢٥ نقلا عن صحيفة الموصل (١٢ حزيران ١٩٢٤) .
- (٣٦) المقتبس السورية ، العدد ٤٢٠٢ ، ١٣ شباط ١٩٢٥ ، وكذلك العدد ٤٢١٧ ، ٣ آذار ١٩٢٥ .
- (٣٧) حسين ، المصدر السابق ص ٢٢٩ نقلا عن صحيفة العالم الجديد (٢٨ كانون الثاني ١٩٢٥) .
- (٣٨) المقتبس ، العدد ٤٢٠٢ ، ١٣ شباط ١٩٢٥ .
- (٣٩) حسين ، المصدر السابق ص ٢٢٠ .

Abonnement : 1986, et anciennes collections annuelles (1981, 82, 83, 84, 85) 10 \$.A. (y compris les frais aéropostales)

Paiement : Chèque bancaire à l'ordre de la revue.

ou : le Compte 3323/23, Banque Centrale de Syrie, Damas .

Correspondance : Rédacteur en chef

Université de Damas

Damas, République Arabe Syrienne

DIRAṢAT TARIKHIYYAH

REVUE HISTORIQUE TRIMESTRIELLE

S'INTERESSE A L'HISTOIRE DES ARABES

Publiée par la Commission de Redaction de l'Histoire des Arabes

Comité de lecture :

CHAKER FAHHAM Directeur

M. KHEIR FARES

NABIH AKEL

ABDUL- KARIM RAFEQ

AHMAD BADR

MOHAMMAD MOUHAFEL

NAZEM KALLAS Redacteur en chef

7^e année, N° 21-22, Mars - Juin , 1986

دراسات تاريخية
مجلة علمية فصلية
تعنى بالدراسات حول تاريخ العرب
تصدرها لجنة كتابة تاريخ العرب بجامعة دمشق

لجنة الإشراف

د. شاكرا الفحام المدير المسؤول
د. محمد خير فارس
د. نبيل عاقل
د. عبد الكريم رافق
د. أحمد بدر
محمد محفل
ناظم كلاس رئيس التحرير

السنة السابعة ، العددان ٢٣ - ٢٤ ، ايلول - كانون الاول ١٩٨٦

● بدل الاشتراك السنوي :

للافراد : (٣٠) ل.س . ثلاثون ليرة سورية

للمؤسسات : (٥٠) ل.س . خمسون ليرة سوريا
(تضاف اليها اجور البريد)

البلاد الاجنبية : (١٠) دولارات اميركية (بما فيها اجور البريد) .

● يتم تسديد بدل الاشتراك بشيك مصرفي لامر :

جامعة دمشق - لجنة كتابة تاريخ العرب

او :

● بتحويل القيمة الى حساب جامعة دمشق المفتوح في مصرف سورية المركزي تحت
رقم ٢٣/٣٣٢٣ .

● يمكن للراغبين باقتناء مجموعات الاعداد الصادرة في السنوات السابقة الاشتراك
بالبدل نفسه لكل سنة (١٩٨١ ، ١٩٨٢ ، ١٩٨٣ ، ١٩٨٤ ، ١٩٨٥ ، ١٩٨٦)

المراسلات : مجلة دراسات تاريخية

جامعة دمشق - لجنة كتابة تاريخ العرب

دراسات تاريخية

١٩٨٦ / ١-٢

٢٣ - ٢٤

ان مجلة دراسات تاريخية تنشر البحوث التي تعالج موضوعات في تاريخ العرب ، مباشرة او بصورة غير مباشرة ، على ان يراعى فيها مايلي :

- أ - ان تتوافر في البحث الجدة والاصالة والمنهج العلمي .
- ب - ان لا يكون البحث منشورا من قبل .
- ج - ان يكون مطبوعا على الالة الكاتبة ، خاليا من الاخطاء الطباعية .
- د - تعرض البحوث ، في حال قبولها مبدئيا ، على محكمين متخصصين لبيان مدى صلاحيتها للنشر ، وفق المعايير المذكورة اعلاه ، والتعديلات اللازم ادخالها عليها عند الاقتضاء ، وتبقى عملية التحكيم سرية .

ومن الجدير بالذكر ان مجلة دراسات تاريخية هي جزء من مشروع كتابة تاريخ العرب ، وخطوة من خطوات تخدم كلها وبمجموعها الغرض الاساسي : كتابة تاريخ العرب من منطلق وحدوي ، وضمن منظوري الفهم الحضاري للتاريخ والتقييد باسلوب البحث العلمي ، فتحاول طرح الجديد في ميدان البحث في التاريخ العربي ، وتبسط الضوء على التيارات العامة التي حركت تاريخ الامة العربية واعطته خط ميسار خاص به ، وايضاح ما لفه الغموض وتصحيح ما شوه وكشف الزيف ان وقع ، وكل ما يمكن ان يشير جدلا علميا واعيا ينتهي عند الحقيقة الموضوعية .

والمجلة ترحب بكل قلم يشارك في اغناء فكرتها وبكل مقترح وراي يساعد في مسيرتها .

دراسات تاريخية

السنة السابعة العددان ٢٣ - ٢٤ ، ايلول - كانون الاول ١٩٨٦

- ٧ ● عبد الرحمن الكواكبي ، دراسة في فكره السياسي
د. سهيلة الريماوي
- ٤٧ ● اوضاع الفلاحين في دمشق وصناعاتها
د. يوسف نعيمة
- ٨٦ ● التجارة الدولية في مناطق شرق الاردن
(من جنوب الشام) في العصر المملوكي
د. يوسف غوانمة
- ١٠٣ ● العلاقات الاقتصادية والاجتماعية
في منطقة ما بين النهرين السورية (في القرنين الخامس والسادس)
د. نعيم فرح
- ١٣٨ ● التاجر ونشاطاته في العصر البابلي القديم
د. عيد مرعي
- ١٦٤ ● ثورة ابن الشريف الدرقاوي ضد الاتراك
في القرن التاسع عشر
الغالي الغربي

تنويه :

- الآراء الواردة في المجلة تعبر عن وجهة نظر كاتبها
- ترتيب البحوث يخضع لاعتبارات فنية

● السياسة التعليمية في منطقة القبائل ١٧٩

عبد القادر حلوش

● عصبية العمل القومي ١٩٠

واسهامها في الحركة القومية في سورية (١٩٣٣ - ١٩٣٩)

مصطفى بلاوني

● بعض مظاهر التنظيم الإداري في بلاد الشام ١٩٩

خلال حكم محمد علي باشا (١٨٣١ - ١٨٤٠)

فندي ابو فخر

مراجعات :

● ملاحظات حول اللغة الإبلائية وقواعدها

د. عيد مرعي

في الاعداد القادمة تنشر مجلة دراسات تاريخية ملفات يدور كل منها حول محور معين ، يشارك في الكتابة فيه باحثون متخصصون ، كل في الجانب الذي يراه ، بحيث تكون بحوثهم دراسة متكاملة للموضوع محور الملف من جميع جوانبه .

وسيكون الملف المنشور موضوع ندوة تعقد في رحاب جامعة دمشق ، يدعى اليها المشاركون فيه لتقييم البحوث المنشورة تمهيدا لاجراها في كتاب .

الملف :

٢ - التحولات الاجتماعية والاقتصادية في الوطن العربي .

١ - الملكية الخاصة وتطورها .

٢ - نظام المشاع .

٣ - الاوقاف ، (١ - الاوقاف الخيرية ، ب - الاوقاف الذرية) .

٤ - اراضي الاولة (١ - استغلالها ، ب - ضرائبها) .

٥ - التحولات الاقتصادية والاجتماعية وعلاقتها بملكية الارض .

ب - الفعاليات الاقتصادية (في المدينة والريف) .

١ - الطوائف الحرفية - الانتاج والتسويق والخدمات .

٢ - التعامل التجاري وطرقه : ١ - نظام المقايضة ، ب - الشراكة والديون والقروض ، ج - طرق التجارة ، د - اسواق الريف ، هـ - النقد ، و - الاوزان والمكاييل .

عبد الرحمن الكواكبي

دراسة في فكره السياسي

د. هيلة الزماوي

الجامعة الاردنية

ان الباحث في الاتجاهات الفكرية عند العرب بشكل عام ، او الباحث في الاتجاهات الفكرية عند العرب في القرن التاسع عشر بشكل خاص ، لابد وان يقف وقفة طويلة امام الاتجاه الفكري الديني - القومي ، الذي ظهر وانتشر مع نهايات ذلك القرن (١)، وكان بمثابة المحصلة العلمية لاطلاع المفكرين العرب المسلمين على الفكر الغربي ومزجه بالتراث العربي الاسلامي . وقد ساهم هذا التيار في رفد المنطلقات التي سعت الى تحقيقها التيارات الفكرية الدينية الاخرى ، وفي مقدمتها فكرة الجامعة الاسلامية (٢) .

ونحن لا نرى اي تناقض في هذا الامر لان المفكرين الذين ينبع تفكيرهم من قاعدة دينية وانطلاقة اسلامية ، مثل الافغاني ومحمد عبده وغيرهما ، او المفكرين السياسيين الذين ينبع تفكيرهم من قاعدة دينية وانطلاقة قومية مثل الكواكبي والنديم ورشيد رضا وغيرهم ، نرى عندهم تفاعل الاساس الديني مع المنطلق القومي ، مدركين ان الدين الاسلامي يعطي مكانة خاصة للعرب بين المسلمين .

ومن ناحية اخرى انه مهما برز الفكر على النطاق القومي لهؤلاء المفكرين المصلحين ، يبقى المنبع التشريعي الرئيسي لا فكارهم في الدين الاسلامي وتشريعه ، وبجد جوده في الحضارة العربية الاسلامية . وفي رأي هؤلاء المفكرين انه « يجب على الامة العربية ان تسعى في تقوية نفسها وجمع كلمتها وحفظ وحدتها » حسب رأي الشيخ رشيد

رضا ، ويجب : « على جميع المسلمين ان يساعدوها على ذلك لانها روح الجامعة الاسلامية التي توجهت اليها افكار عقلائهم بعد ما كاد الضغط يسحقهم سحقاً » (٣) .

وفي رأيي ان عبد الرحمن الكواكبي ، هو خير من يمثل هذا الاتجاه الفكري ، الذي سميته الفكر الديني - القومي ، خاصة وان فكر الكواكبي ، الذي قدمه هدية « للناشئة » العربية الاسلامية ، قد اثر في كثير من الاتجاهات الفكرية المعاصرة التي ظهرت بعد وفاته ، كما اثر في التنظيمات القومية التي ظهرت في اوائل القرن العشرين ، وفي مقدمتها الجمعية العربية الفتاة السرية (٤) .

ترجمة موجزة لحياة عبد الرحمن الكواكبي (٥) :

مولده في مدينة حلب الشهباء ١٨٥٢ (٦) ومثواه في القاهرة ١٩٠٢ ، فكان خط حياته امتدادا عبر المكان وعصرا عبر الزمان ، وكأنه كان يصل بحياته بين اجزاء الوطن التي قطعت اوصالها مصالح الاستعمار والاستغلال ومؤامراتهما قبل ذلك التاريخ وبعده . كما كان يؤكد بحياته هذه بداية عصر « الفتح الفكري » للامة العربية ويمهد لعصر « التكون » الثوري القومي العربي ، الذي يبدأ مع مطلع القرن العشرين ، وقد استقرت فيه ندائم التمرد والوحدة والتقدم والعدالة .

اما عصر الكواكبي ، فهو القرن التاسع عشر ، وهو عصر تفاعلت فيه ثلاث حركات تاريخية ضخمة ، تعد السمات الرئيسية لهذا القرن ، وهي :

- ١ - حركة اليقظة العربية الناشئة .
- ٢ - حركة الرأسمالية الاوربية الصاعدة .
- ٣ - حركة محاولة اصلاح الدولة العثمانية وتقوية سيطرتها على البلاد العربية .

ومن تفاعل هذه الحركات الرئيسية ، بدأت تظهر بوادر الوعي وحركات الاصلاح والتغيير في انحاء الوطن العربي ، كما بدأت تظهر وسائل نقل ونشر ذلك الوعي وهذه الحركات ، فكثر المدارس ، وانتشرت المطابع والصحف ، وبالتالي انتشر التعليم وازدهر ، كما نما وتطور بعد عودة طلاب البعثات العلمية التي توجهت الى اوربا (٧) ولقد ساهم كل ذلك في نقل الافكار التحريرية والثورية التي سادت اوربا في القرن التاسع عشر الى بلاد الامبراطورية العثمانية ، فولد تيارات سياسية جديدة لمفكرين سياسيين ، ثوار ومصلحين ، ظهوروا في ارجاء الامبراطورية وفي الوطن العربي بشكل متجدد ومتطور .

ولا يستقيم لنا تقييم اثر هاتين الحركتين الرئيسيتين ، حركة اليقظة الاصلية، وحركة اليقظة المتأثرة بالغرب والمواجهة له ، الا اذا وعينا في الوقت ذاته ، ان تفاعل هاتين الحركتين وتصادمهما في الوطن العربي وبين ظهرائي الامة العربية ، يتميز عن تفاعلهما في أي مكان آخر في العالم تميزا ظاهرا ، مرده أولا : الصراع التاريخي بين الامة العربية وبين اوربا ، السابق لهذه المراحل والذي بلغ ذروته اثر قرون طويلة من الصراع بانحسار موجات غزو الفرنجة عن الارض العربية . ومرده ثانيا : المكانة الخاصة التي يتمتع بها الوطن العربي بموقعه الجغرافي الذي يشد القارتين الكبيرتين ، اسيا وافريقيا ، أحدهما الى الاخرى ، ويشمل جميع شواطئ المتوسط الشرقية والجنوبية ، فيقع بين اوربا الاستعمارية النامية ، وبين مستعمراتها الشاسعة في اسيا وافريقيا .

ليس غريبا والحال كذلك اذن ، أن نجد الفكر السياسي في الوطن العربي ، وهو في مرحلة اليقظة مع مطلع هذا القرن ، تجسيدا لتفاعل الحركتين التاريخيتين الكبيرتين المشار اليهما ، بما كان يقوم بينهما من تفاعل وتضاد وصراع .

وفي هذه الاوضاع وما ولدته من افكار جديدة ، وما اتاحته من وسائل لانتشار هذه الافكار ، ظهر عدد من المفكرين العرب الرواد الذين كان لا فكارهم ودعواتهم اثر كبير في النهضة العربية ، ومنهم من اقتصر اثره على طرح الافكار التي اسهمت في انضاج الوعي السياسي ، ومنهم من تخطى العموميات الى الخصوصيات ، مطالباً بمقاومة الاستبداد ومصارعة الاستعباد .

واذا كانت قائمة هؤلاء المفكرين الرواد الذين ظهوروا في ربوع الوطن العربي خلال القرن التاسع عشر قائمة طويلة (١) ، فمما لا شك فيه ان المفكرين الرواد من بلاد الشام يكونون نسبة ملحوظة من أسماء هذه القائمة ، ويأتي عبد الرحمن الكواكبي في مركز الصدارة منها .

مصادرها في استقراء الفكر السياسي لدى الكواكبي :

ان المصادر التي يتجه اليها الباحث عن الفكر السياسي للكواكبي ، شأن غيره من المفكرين او المصلحين او القادة السياسيين ، تنحصر دوما في نوعين من المصادر :

المصدر الاول سيرته السياسية وما تنطوي عليه من فعاليات ونشاطات ومسالك ذات دلالة على فكره السياسي سواء في اهدافه او في اسلوبه .

والمصدر الثاني : **اثاره الكتابية** التي يتحدث فيها عن افكاره السياسية بصورة مباشرة او ضمنية . سواء اكانت هذه الاثار في صورة مؤلفات او مقالات او رسائل .

وبالنسبة للكواكبي ، نجد من تتبع سيرته انه لم يتسلم مراكز ذات مسؤولية سياسية ، ولم ينتسب الى منظمات يتطلب منا البحث في فكره السياسي ان ندرس دسائرها او موافيقها او نظمها ، او نتابع فعاليتها ونشاطاتها . وكل مايمكن ان تلقيه سيرته من ضوء على فكره السياسي يمكن ان يركز بصورة موجزة فيما يلي :

ثورته على الاوضاع التي كانت تتجسم في الدولة العثمانية في عهده ووصفه اياها بالاستبداد ، واختياره الصحافة ميدانا للدعوة الى افكاره (٩) ثم التخلي عن وظيفته الادارية التي عمل بها بعد ذلك وجميع الوظائف سواء كان لها اتصال بالتجارة ، او القضاء او التعليم . وهكذا فضل الهجرة الى مصر ، تعبيرا عن موقف سياسي ، وطلبا لموقع يتمكن فيه ان يعبر عن هذا الفكر السياسي الذي يتركز اساسا في دعوة للإصلاح والتقدم ، ولمغالبة الاستبداد كسبيل لتحقيق هذه الدعوة ، الموجهة للعرب بصفة خاصة ، وللمسلمين والشرق بصورة عامة ، حتى انه عندما عمل في المحاماة نقلها من مهنة الدفاع عن الافراد الى الدفاع عن الامة حتى لقب بأبي الضعفاء (١٠) .

ومعنى هذا ان سيرة الكواكبي تضعه في مصاف قادة تيار الفكر السياسي الثوري في عهده ، وهو التيار الذي اسهم في صناعته خلال القرن التاسع عشر كل من الشهاب الآلوسي في العراق ، وخير الدين التونسي ومحمد بيرم ، وابن ابي الضياف في تونس ، واحمد الشدياق واديب اسحق وغيرهم من بلاد الشام ولبنان ، ورفاعة الطهطاوي في مصر ، وعلي مبارك ومحمد عبده في ميدان الإصلاح ، وجمال الدين الافغاني وعبد الله نديم في ميداني الثورة والإصلاح (١١) .

غير ان الكواكبي في رأينا ، كان اول عربي - مسلم يتصدى للاستبداد « بالتحليل والدراسة الجادة » (١٢) نتيجة تفاعل المنطلق القومي عنده مع الاساس الديني الاسلامي لثقافته . لان الدين الاسلامي يعطي العرب مكانة خاصة بين المسلمين من جهة ، ومن جهة اخرى لان الاسلام دين ودنيا ايضا ، ولا بد من حفظ كرامة انسانية الانسان من مظالم وفظائع الاستبداد ، وهذا ما وجد الكواكبي جذوره في الدين الاسلامي وتشريعته .

ولم يخف الكواكبي افكاره بهذه في مخطوطات خاصة محفوظة ، او في مذكرات امتنع عن نشرها ، بل انه عبر عن افكاره في الوقت المناسب بكل وضوح ، وفي اوج عصر الاستبداد « الحميدي » مضحيا بمركزه ومسقط رأسه ومتوجها نحو القاهرة لنشر

افكاره على الملأ بوضوح . ولما كان لم يتقلد مراكز ذات مسؤوليات سياسية كعضوية مجلس المبعوثان ، أو مركز ولاية أو وزارة ، أو غيرها من المراكز ذات المسؤوليات السياسية أو الفكرية (١٢) ولم ينتسب الى منظمة يلتزم بميثاقها وافكارها ، فانه من المفكرين السياسيين الذين تبقى آثارهم المكتوبة هي المصدر الرئيسي للتعرف على افكارهم السياسية والبحث عنهم .

أما الآثار التي خلفها الكواكبي ووصلت إلينا فهي كتابان :

١ - طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد .

٢ - أم القرى (١٤) .

أما كتاب طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد ، فهو يقع في ١٣٦ صفحة من الحجم المتوسط (١٥) ويحتوي على : المقدمة للمؤلف ، ثم على مقدمة الكتاب ، وسبعة فصول تدور في جوهرها حول مفهوم « الاستبداد » وتأخذ العناوين التالية : الاستبداد والدين ، الاستبداد والعلم ، الاستبداد والمجد ، الاستبداد والمال ، الاستبداد والاخلاق ، الاستبداد والتربية ، الاستبداد والترقي ، الاستبداد والتخلص منه .

وقد صدرها المؤلف بقوله : هي كلمات حق وصيحة في واد ان ذهبت اليوم مع الريح ، لقد تذهب غدا بالآوتاد ...

نشر الكواكبي افكاره هذه في صحيفة المؤيد المصرية لأول مرة على شكل سلسلة مقالات ، تحت العناوين التي اشرت اليها سابقا ، ثم اضاف اليها بعض الزيادات وحوالها إلى كتاب .

أما كتاب أم القرى ، فهو « ضبط مفاوضات ومقررات مؤتمر النهضة الاسلامية المنعقد في مكة المكرمة سنة ١٣١٦ هـ » (١٦) وتدور حول ظاهرة الضعف أو « الفتور العام » الشامل الذي يعم المسلمين وديارهم . وقد توصل الكواكبي إلى أسباب الفتور من الحوار السياسي الذي ورد على لسان ممثلي الاقطار العربية والاسلامية في «جمعية أم القرى » التي تهيئها المؤلف .

يقع الكتاب في ٢١٧ صفحة من الحجم المتوسط عدا الفهرست (١٧) ، ويحتوي على مقدمة المؤلف ، ومقدمة الكتاب ، ثم اجتماعات الجمعية . وفي الاجتماع الثاني عشر « أمر الرئيس بقراءة القانون العام لجمعية تعليم الموحدين » .

لقد نشر الكواكبي كتاب « طبائع الاستبداد » قبل كتاب « أم القرى » ، ولكن يرجح البعض « أن يكون تأمل الكواكبي في الطبائع » ، وصياغته له قد جاء بعد تأليف « أم القرى » ، الذي يشير فيه إلى الاستبداد « باعتباره علة العلل التي تسبب الانحطاط » (١٨) .

وفي رأينا أن كتابي الكواكبي يكونان في الواقع تعبيراً متكاملًا عن فكر سياسي متماسك المقدمات والنتائج ، فلا يحسن تحليل افكاره في كل منهما بمعزل عن الآخر ، ومن الاجدى ان يحلل الفكر السياسي لدى الكواكبي كما يبدو في الكتابين كوحدة واحدة . ويشير رشيد رضا إلى العلاقة بين الكتابين بأن سجل أم القرى يتطرق إلى الإصلاح الديني والاجتماعي ، وكتاب طبائع الاستبداد يتطرق إلى الإصلاح السياسي (١٨) . كما أشار أنور الجندى إلى أن فلسفة الكواكبي تكتمل في كتابيه معاً (١٩) . أما الاستاذ أحمد أمين فقد فطن إلى هذه الصلة فقال في معرض حديثه عن الكواكبي « نشر نتيجة دراسته في مقالات كتبت في المجلات والجرائد ، ثم جمعت في كتابين : اسم أحدهما طبائع الاستبداد والآخر أم القرى ، الأول : في نقد الحكومات الإسلامية ، والثاني أغلبه في نقد الشعوب الإسلامية » (٢٠) .

ولكن الاستاذ أحمد أمين على الرغم من ادراكه للصلة بين الكتابين فإنه قصر تقصيرا واضحا في ادراك حقيقة هذه الصلة ، بل في تقييم مضمون الكتابين من حيث اعتبره في أساسه « نقدا للحكومات الإسلامية في الكتاب الأول ، ونقدا للشعوب الإسلامية في الكتاب الثاني » في حين أن مضمون الكتابين أعمق من ذلك واشمل ، والصلة بين مضمونيهما أوسع مما صورها الاستاذ أحمد أمين .

إن الصلة الحقيقية بين مضمون كل من الكتابين هي في الواقع الصلة بين النظرية من جهة ، وبين التطبيق من جهة أخرى ، أو الصلة بين المنطلقات العقائدية والمبادئ العامة من جهة ، وبين تحديد الأهداف وتشخيص التناقض بين ما هو قائم إلى ما يجب أن يقوم ، وتحديد الوسائل لتفجير هذا القائم إلى ما يجب أن يقوم من جهة أخرى .

أن كتاب طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد في جوهره بحث نظري : عقائدي - اجتماعي - سياسي ، في حين أن كتاب أم القرى بحث يركز إلى الأفكار العقائدية - الاجتماعية - السياسية الواردة في طبائع الاستبداد ، يحلل وضع العرب والمسلمين بالنسبة إليها ، فيشخص الداء ويرسم الدواء كهدف وكأسلوب ، كما نبين في دراستنا للكتابين .

ولذلك فأنني أرجح كتابة كتاب طبائع الاستبداد ، قبل كتاب أم القرى . وعلى العموم فإنه من المفيد ، بل من الضروري في رأيي ، أن نحلل نهج الكواكبي في البحث والتحليل ، وفي طرح المسائل ومناقشتها والتوصل الى بعض النتائج حيالها ، قبل أن نبشر بتحليل مضمون الكتابين ، واستخلاص افكار الكواكبي السياسية التي ينطويان عليها ، فبيان هذا النهج ذو قيمة في تقييم الكواكبي كمفكر سياسي ، وفي تقييم افكاره ذاتها .

منهاج الكواكبي في البحث والتحليل :

إن نهج الكواكبي في البحث والمناقشة والتحليل ، كما يبدو في كتابيه « طبائع الاستبداد » و « أم القرى » نهج تحليلي مقارن : تتوفر له مقومات البحث المنطقي الذي يصل الى النتائج من مقدماتها ، كما تتوفر له بعض عناصر البحث العلمي ، الذي ينطلق من تحديد المواقف العقائدية والعامة ليخلص منها بالتطبيق الى المواقف المحددة والخاصة .

وإذا كان أسلوب الكواكبي في كتاب طبائع الاستبداد هو أسلوب الاستنتاج ، فإنه في كتاب أم القرى هو أسلوب الحوار ، أو الجدل . واستعمال الكواكبي لأسلوب الحوار في كتابه الثاني ، يجعله جديراً بأن يسجل له فضل السبق في استعمال هذا الأسلوب بين المفكرين في هذا القرن (أي القرن التاسع عشر) لأنه أسلوب يتيح عرض المسائل ومناقشتها بصورة لا تتحقق بالأسلوب الانشائي - الذي يشير اليه الدكتور سامي الدهان (٢١) مهما كان هذا الأسلوب « الانشائي » مطلقاً أو منطقياً .

لذلك فإننا نلمح معالم هذه السمات في نهج الكواكبي عندما نقرأ مقدمة طبائع الاستبداد فنجد أنها الى حد بعيد تخطيطاً لبحثه ، يتبدى بعلم السياسة ، فموضوع الاستبداد كموضوع من مواضيع علم السياسة ، فتحديد مضمون عبارة الاستبداد ، فبيان أبعاد هذه المسألة كما سيبحثها في كتابه .

كذلك فإننا نجد في كل فصل من الفصول التي تعالج بعداً من أبعاد هذه المسألة ، أن البحث يتبدى بتعريف للمصطلحات ، ومن ثم يسير في نقاش يلتزم بهذا التعريف ، فإذا وصلنا نهاية الكتاب وجدنا الكواكبي في وعي المفكر المسؤول يحدد خمسة عشر بحثاً يعتبرها : « رؤوس مسائل بعض المباحث التي تتعلق بها الحياة السياسية » (٢٢) فيحددها ، ثم يبين الأسئلة التي ينطوي عليها كل مبحث منها بصورة علمية واضحة ، ويقول :

« هذه خمسة وعشرون مبحثا كل منها يحتاج الى تدقيق عميق ، وتفصيل طويل ، وتطبيق عن الاحوال والمقتضيات الخصوصية ، وقد ذكرت بهذه المباحث تذكرا لاولي الالباب وتنشيطا للنجباء ، على الخوض فيها بالترتيب اتباعا لحكمة آيات البيوت من ابوابها » (٢٣) اما هذه المباحث فهي :

- ١ - مبحث ما هي الامة اي الشعب
- ٢ - مبحث ما هي الحكومة
- ٣ - مبحث ما هي الحقوق العمومية .
- ٤ - مبحث التساوي في الحقوق . هكتد
- ٥ - مبحث الحقوق الشخصية
- ٦ - مبحث نوعية الحكومة
- ٧ - مبحث ما هي وظائف الحكومة
- ٨ - مبحث حقوق الحاكمية
- ٩ - مبحث طاعة الامة للحكومة
- ١٠ - مبحث توزيع التكاليفات
- ١١ - مبحث اعداد المنعة
- ١٢ - مبحث المراقبة على الحكومة
- ١٣ - مبحث حفظ الامن العام
- ١٤ - مبحث حفظ السلطة في القانون
- ١٥ - مبحث تامين العدالة القضائية
- ١٦ - مبحث حفظ الدين والاداب
- ١٧ - مبحث تعيين الاعمال بقوانين
- ١٨ - مبحث كيف توضع القوانين
- ١٩ - مبحث ما هو القانون وقوته
- ٢٠ - مبحث توزيع الاعمال والوظائف
- ٢١ - مبحث التفريق بين السلطات السياسية والدينية والتعليم
- ٢٢ - مبحث الترقى في العلوم والمعارف
- ٢٣ - مبحث التوسيع في الزراعة والصنائع والتجارة

٢٤- مبحث السعي في العمران

٢٥- مبحث السعي في رفع الاستبداد (٢٤) .

ويكفي ان نقف امامها في ترتيبها وفي الاسئلة التي تكون كل مبحث منها لنذكر مدى استيعاب الكواكبي للقضية « السياسة » في اسسها وفروعها ، ومدى العلمية والمنطقية في ترتيبها وتحديد ابعادها .
ونلمح معالم النهج المشار اليه كذلك في كتاب « ام القرى » . . حيث نلاحظ هذه المعالم :

اولا : عندما نجد الكواكبي يصنف محاور النشاط الفكري في عصره في اربعة مقاصد رئيسية هي :

المقصد الاول : بيان الحالة الحاضرة ، ووصف اعراضها بوجه عام وصفا بديعا يغير التأثير ويدعو الى التدبر ، على ان ذلك لا يلبث الا عشية او ضحاها .

والمقصد الثاني : بيان ان سبب الخلل النازل هو الجهل الشامل ، بيان اجمال وتلميح ، مع ان المقام يقتضي عدم الاحتشام من التفصيل والتشريح .

والمقصد الثالث : انذار الامة بسوء العاقبة المحدقة بها ، انذارا هائلا تطير منه النفوس مع ان الحال الواقع لا تفني فيه النذر .

والمقصد الرابع : توجيه اللوم والتبعة على الامراء والعلماء والكافة لتقاعدتهم عن استعمال قوة الاتفاق على النهضة ، مع ان الاتفاق وهم متشاكسون متعذر لا متعسر (٢٥) .

ونلمح هذه المعالم :

ثانيا : عندما نجده ينعي على المفكرين في عصره اسلوب النقاش اللفظي غير المجدي ويحدد الاسلوب المفيد « بتشخيص المرض او (الامراض المشتركة) عن طريق مدقق سياسي » فهذه المقاصد القولية قد استوفت حقها من انواع بدائع الاساليب ، وآن الاوان لاستثمارها ، ثم يحدد الكواكبي سير العمل على الشكل التالي : « بالبحث أولا عن مراكز المرض ، ثم عن جرائيمه ، ليتعين بعد ذلك الدواء الشافي الاسهل وجودا والا ضمن نتيجة ، وبالتنقيب ثانيا عن تدبير ادخاله في جسم الامة بحكمة تصرع العناد والوهم ، وتتغلب على مقاومة اعضاء الذوق والشم » (٢٦) .

مضمون الفكر السياسي لدى الكواكبي :

في ضوء ما تقدم ، يمكننا ان نصنف افكار الكواكبي السياسية على الصورة التالية :

اولا : افكاره السياسية العقائدية التي تكون نظريته الاساسية للانسان والمجتمع والحياة وحركة التاريخ . . من حيث كون هذه الافكار العقائدية الاساسية تتفاعل مع الاحداث والوقائع ليكون من نتيجة هذا التفاعل افكاره السياسية المباشرة .

ثانيا : افكاره السياسية المباشرة التي تعبر عن موقفه من المسائل الرئيسية التي تكون مدار الفكر السياسي بصورة عامة وهي :

ا - علاقة الفرد بالدولة في جميع ابعادها : بما ينطوي عليه هذا من رأي او موقف في مسائل : رأس الدولة ، وصلاحياته ، وحقوقه ، وواجباته ، واسلوب ممارسة هذه الصلاحيات ، ثم اجهزة الدولة ، وبصفة خاصة الحكومة في طريقة تكوينها وصلاحياتها ومسلكها ومراقبتها ومحاسبتها ، ثم الفرد في حقوقه وواجباته وطريقة ممارسته لهذه الحقوق وادائه لهذه الواجبات .

ب - علاقات الامم او الشعوب مع بعضها ، ومع الدولة عندما تكون الدولة امبراطورية واحدة تضم اكثر من امة او شعب كالامبراطورية العثمانية .

افكار الكواكبي السياسية العقائدية :

يمكننا ان نجمل الموقف لدى الكواكبي بالقول :

ان الكواكبي مفكر عقائدي ، افكاره تجاه الانسان والمجتمع وحركة التاريخ هي : افكار دينية (اسلامية) - قومية (عربية) - انسانية ، متفاعلة بالعلم والافكار العلمية على صورة لا يقوم معها التصادم بين الايمان والمبادئ والقيم الدينية من جهة ، وبين النظريات والحقائق والمناهج العلمية من جهة اخرى .

وتفصيل هذا الوصف الموجز لموقف الكواكبي ، العقائدي ، يستقى بصورة مباشرة احيانا ، ويستنتج احيانا اخرى من كتابيه موضوع دراستنا .

ففي كل باب من الابواب التي تحدث فيها الكواكبي عن الاستبداد ، في كتابه طبائع

الاستبداد ، وفي المناقشات التي تكون مضمون الاجتماعات الاول والثاني والثالث والرابع من اجتماعات الجمعية التي تخيلها الكواكبي في كتابه ام القرى (٢٧) ، بل في مقدمتي كل من الكتابين ، نجد الكواكبي بأسلوب التقرير احيانا ، وبأسلوب الحوار احيانا اخرى ، يؤكد منطلقات عقائدية اساسية ، ذات تأثير حاسم على افكاره السياسية .

فعلى الصعيد العقائدي :

أولا : الكواكبي مؤمن مسلم (٢٨) :

يؤكد الكواكبي ان المبادئ والقيم التي يبني عليها افكاره السياسية راسخة في الايمان الديني الصافي والواعي ، وراسخة كذلك بصفة خاصة في الاسلام .

على ان هذا الوصف لموقفه ، الديني (الاسلامي) ، لا يحقق ادراكا لمضمونه الثوري وتقييما لنتائج الشاملة اذا فهم تقليديا جامدا . فقد كان الكواكبي في مستوى من الثورة عال وعميق ، عندما تجرأ فقال على لسان **الصاحب الهندي** : « اني كنت ايضا اظن انه يوجد في البشر افراد ممن لا دين لهم ، وان من كانوا كذلك لاخلق لهم ، ثم ان خبرتي الطويلة قد برهنت لي ان الدين بمعناه العام وهو ادراك النفس وجود قوة غالبية تتصرف في الكائنات ، والخضوع لهذه القوة على وجه يقوم في الفكر ، هو امر فطري في البشر ، وان قولهم فلان دهرى او طبيعي صفة لمن يتوهم ان تلك القوة هي الدهر او الطبيعة فيدين لما يتوهم » . وبعد هذا العرض يصل الكواكبي الى النتيجة التالية : بناء على ذلك ثبت عندي ما يقرره الاخلاقيون : من انه لا يصح وصف صنف من الناس بلا دين لهم مطلقا بل « كل انسان يدين بدين » وامام هذه البديهة ، يبدأ بتوضيح هذا الدين بقوله : اما صحيح او فاسد عن اصل صحيح ، واما باطل او فاسد عن اصل باطل ، والفساد ان يكون فسادا اما بنقصان او بزيادة او بتخليط وهذه اقسام ثمانية (٢٩) .

ثم عندما يشرح ما سماه : « الضلال والهداية » على لسان **العالم النجدي** مبينا : ان النوع الانساني مفطور على الشعور بوجود قوة غالبية عاقلة ، لا تتكيف ، تتصرف في الكائنات على نوااميس منتظمة ، فالعامة يعبرون عن هذه القوة بلفظ **الطبيعة** ، والراشدون من الناس مهتدون ان هذه القوة من هو قائم بها ، يعبرون عنه بلفظ **الله** ، ثم يبين ان هذا الشعور ليس واحدا بل يختلف قوة وضعفا ، حسب ضعف النفس وقوتها ، ويختلف الناس في تصور وتوصيف ماهية هذه القوة حسب مراتب الادراك فيهم ، او حسبما يصادفهم من التلقي عن غيرهم وذلك هو : « الضلال والهداية » (٣٠) .

لقد كان الكواكبي بهذا المفهوم الواسع للدين يقيم أساسا لأفكاره السياسية الثورية ، يدعمه تدعيما بينا عندما يتحدث عن الدين والاستبداد ، وعن الدين والعلم بصفة خاصة في طبائع الاستبداد فيؤكد : ان التوحيد كجوهر للدين انما يتركز أساسا في رفض الخضوع الا لله ، ويؤكد كذلك تساوي الناس امام الله ، ويؤكد : ان الدين دعوة للعلم وتكريم للعلماء ، وهما دعوة وتكريم يمجدان العقل والبحث القائم على العقل والمشاهدة (٢١) .

ومعنى هذا ان المنطلق الديني كمنطلق عقائدي اساسي لدى الكواكبي من حيث كونه مفكرا سياسيا هو **منطلق ثوري** يرفض كل اتجاه يحاول ان يجعل من الدين ، ركيزة او أساسا للاستبداد او الاستغلال .

فاذا حاولنا بعد ذلك ان نتبين جوهر الاسلام واركان الاسلامية لدى الكواكبي، فاننا نجد موقفا يتميز بثورية جريئة وصريحة . فهو لا يتورع من القول على لسان **العالم النجدي** مايلي : . . « فهل بقي من شك بعد هذه الابحاث من القول على لسان جمعيتنا ، ولا سيما ما بينه المحقق المدني ، في ان الدين الموجود الان بالنظر الى ماندين به لا بالنظر الى ما نقرره ، وباعتبار ما نفعله لا باعتبار ما نقوله ، ليس هو الدين الذي تميز به اسلافنا مئين من السنين على العالمين ، كلا بل طرات على الدين طوارئ غيرت نظامه » (٢٢) .

وهكذا نجد الكواكبي لا يتردد في ان يقول للمسلمين في عصره صراحة لا ضمننا: ليس الاسلام دينكم الموجود الآن ، وانما الاسلام شيء آخر . . .

فاذا حاولنا ان نتبين هذا الاسلام الآخر ، هذا الاسلام النقي (٢٣) الذي يكون بجوهره التوحيدي وبقيمه الانسانية وبنظامه السياسي مضمون الدين الاسلامي كما يراه الكواكبي ، تبرز امامنا الدعامات التالية :

الدعامة الاولى ، تأكيد شامل وقاطع للمدلول التحرري الانساني ، الذي تتضمنه عبارة التوحيد لا اله الا الله ، ولماذا كانت افضل الذكر ، ولماذا بني الاسلام بل وكافة الاديان على : « لا اله الا الله » ، ومعنى ذلك انه لا يعبد حقا سواه ، اي سوى الصانع الاعظم ، ومعنى العبادة التذلل والخضوع ، فيكون معنى لا اله الا الله : « لا يستحق التذلل والخضوع شيء غير الله » ويتساءل الكواكبي « فهل والحالة هذه يناسب المستبد ان يعلم عبيدهم ذلك ويعملوا بمقتضاه . . ؟ » ويجب الكواكبي مؤكدا : « كلا ثم كلا » (٢٤) .

الدعامة الثانية ، رفض حاسم لمبدأ الجبرية ، وما يترتب عليه من استسلام للتأخر أو الاستبداد اذ يعزوه « للقدر » وهو موقف يحمل به الكواكبي **الإنسان والمجتمع** مسؤوليات « اوضاعهم » وواجبات « مواجهة » هذه الاوضاع في رفض صريح لالقاء تبعة ما يعانوه من استبداد أو استغلال على الاقدار أو على الاغيار . فيقول في مقدمة طبائع الاستبداد . . . « انما اردت بذلك تنبيه الغافلين بمورد الداء الدفين عسى يعرف الشرقيون انهم المتسببون لما هم فيه ، فلا يعتبون على الاغيار ولا على الاقدار ، وعسى الذين فيهم رفق من الحياة يستدركون شأنهم قبل الممات » (٢٥) ولعل الكواكبي كان يقرأ مستقبل العرب ، مما يدلنا على بعد نظره وقوة ملاحظته ، ثم يقول على لسان الفاضل الشامي : « اني ارى ان منشأ هذا الفتور هو بعض القواعد الاعتقادية والاخلاقية ، مثل العقيدة الجبرية التي من بعد كل تعديل فيها جعلت الامة جبرية باطنا قدرية ظاهرا » (٢٦) .

الدعامة الثالثة ، **مهاجمة مفهوم « الزهد »** مهاجمة قاسية ، واعطاء عبارة الزهد مفهوما ثوريا تقديميا يعتبر من ابرز ما جاء به الكواكبي ، من حيث جعل من الزهد موقفا اشتراكيا ، فيقول على لسان الفاضل الشامي ايضا في وصف اسباب الفتور والتأخر لدى المسلمين : « ومثل الحث على الزهد في الدنيا ، والقناعة باليسير ، والكفاف من الرزق ، وامانة المطالب النفسية : كحب المجد ، والرياسة ، والتباعد عن الزينة والمفاخر ، والاقدام على عظام الامور ، ويصل الكواكبي الى هذه النتيجة قائلا : « وكفى بهذه الاصول مفترات مخدرات مشبطات معطلات ، لا يرتضيها عقل ولم يأت بها شرع ، ولمثلها نفى عمر بن الخطاب رضي الله عنه ابا ذر الغفاري ، وهكذا : « يعيش المسلم كميت قبل ان يموت » (٢٧) .

اننا نجد الكواكبي بعد هذا التجريح للمفهوم اللاحياتي للزهد ، يقدم على لسان البليغ القدسي المفهوم الاجتماعي - الاشتراكي للزهد ، فيقول : اذا تتبعنا كل ماورد في الاسلامية حاثا على الزهد ، نجده موجها الى الترغيب بالاثرة العامة ، اي بتحويل المسلم ثمرة سعيه للمنفعة العمومية دون خصوص نفسه ، حتى ان كل ما ورد في الحث على الجهاد في سبيل الله مراد به سعي المؤمن بكل الوسائل ، حتى يبذل حياته لاغزاز كلمة الله واقامة دينه ، لا في خصوصية محاربة الكفار كما تتوهم العامة ، كما ان المراد من محاربة الكفار هي من جهة اعزاز الجامعة الاسلامية ، ومن جهة اخرى خدمة الجامعة الانسانية من حيث الجاء الكفار الى مشاركة المسلمين في سعادة الدارين ، لان للامم المتروكة علما ولاية طبيعية على الامم المنحلة ، فيجب عليها انسانية ان تهديها الى الخير ولو كرها باسم الدين أو السياسة (٢٨) .

وغني عن البيان ، ان مثل هذا المفهوم للزهد ، الذي يدعو له الاسلام مفهوم دافع للتقدم المادي والمعنوي ، ولكنه التقدم الاجتماعي الذي يصب افراد الامة جميعهم باخلاقية لخير كل منهم لغيره او للمجتمع على نفسه ، وهي دعوة بهدفها واخلاقيتها ثورية - اشتراكية ، تتناقض على خط مستقيم مع دعوة الزهد التي يستغلها في اغلب الاحيان المستغلون والمتسلطون غير الزاهدين فعلا لكي يؤكدوا في نفوس المستغلين من قوى الشعب معاني القناعة بالتخلف والبؤس تحت شعار الزهد .

الدعامة الرابعة ، تفسير الآية القرآنية ، « واطيعوا الله ، واطيعوا الرسول واولي الامر منكم » تفسيراً تحروريا ثوريا ، وكذلك تفسير آية الجهاد « وجاهدوا في سبيل الله » تفسيراً عقائديا انسانيا ، حيث يقول على لسان المرشد الفاسي :

« على أن انحصار همة الدخلاء في الجباية والجنودية أدى بهم لاهمال الدين كليا ، ولو أن في القرآن آيتين اثنتين لهجروه ظهريا ، احداهما قوله تعالى : واطيعوا الله واطيعوا الرسول واولي الامر منكم ، مع الغفلة عن المراد باولي الامر ، وما تقتضيه صيغة الجمع ، وما يقتضيه قيد منكم ، والثانية قوله تعالى : وجاهدوا في سبيل الله ، مع اغفال : هل الجهاد المأمور به ما يستحصل به اعزاز كلمة الله ، أم ما تؤيد به سلطة الامراء العاملين على الاطلاق » (٣٩) .

وتفسير الكواكبي للآيتين الكريمتين على هذا النحو ، يضرب بصورة حادة وعميقة في مفاهيم شاسعة تستند الى الآيتين في حماية نظم حكم المستبدين المستغلين وتأييد سلطانهم .

وواضح في غير عناء ان الكواكبي بتركيزه الخاص على هاتين الآيتين المهمتين من الزاوية السياسية ، سواء بالتساؤل الذي يطرحه او باشارته الى ان اولي الامر منكم أي ليسوا اجانب عنكم او من غيركم انه بذلك انما يوجب دينيا عدم الطاعة الا عندما يتولى الامر اولو امر منكم ، أي عندما يتولاه مجموعة لا فردا ، شورى لا انفرادا ، منكم ، لا تسلطا واستعمارا . وانه فوق ذلك يابى على المؤمن الجهاد حيث يكون الجهاد تدعيما لسلطان حاكم ، إلا اذا كان الحاكم وسلطاناه وتدعيمهما انما هو في سبيل الله ، أي في سبيل المبادئ والقيم الاساسية التي يأمر بها الله .

الدعامة الخامسة ، مهاجمة فكرة رجال الدين كطبقة خاصة ، ومهاجمة «العلماء» و « المتعممين » والمنافقين والانتهازيين في عصره . فقد انكر الكواكبي ، « تشويش الدين والدنيا على العامة بسبب العلماء المدلسين وغلاة المتصوفين الذين استولوا على

الدين فضيعوه وضيعوا أهله . كما بين ان الولاء في الدين الاسلامي لعامة المسلمين « فلا يختص بحفظ الرابطة والسيطرة على الشؤون العمومية رؤوساء دين سوى الامام ان وجد » فالكواكبي واضح في انكار كل اتجاه يزعم ان الاسلام يقيم طبقة خاصة من رجال الدين وسيطة بين الانسان وربه ، ويقول على لسان المولى الرومي : « . . وعندي ان داءنا الدفين دخول ديننا تحت ولاية العلماء الرسميين وبعبارة اخرى تحت ولاية الجبهة المتعممين ، وهم المقربون من الامراء على انهم علماء ارتبط القضاء والامضاء بهم ، فان هؤلاء المتعممين في البلاد العثمانية كانوا اتخذوا لانفسهم قانونا سموه طريق العلماء ، وجعلوا فيه من الاصول ما انتج منذ قرنين الى الآن ان يصير العلم منحة رسمية تعطى للجهال حتى للأميين » (٤٠) .

وهكذا نرى ان الكواكبي كان قاسيا قسوة مبررة في هجومه على معتمدين وعلماء لم يقصروا عن اداء واجبهم الايجابي كما يحدده الدين بالنسبة لكل من اوتي العلم ، وانما لانهم تحولوا بالنفاق والانتهاز الى أدوات تتبادل مع الفئات الحاكمة المنافع والقباب التعظيم وتشترك معهم في فرض اوضاع على الشعب باسم الدين ، والدين في حقيقته منها براء (٤١) .

الدعامة السادسة ، عن **المذاهب المتعددة في الاسلام** ورفض الخضوع للخلافات المتجسمة فيها ، وللصراعات الكلامية والفعلية النابعة عنها .

وقد رفض الكواكبي فكرة اغلاق باب الاجتهاد تاكيدا لقدرة المسلمين الواعين المخلصين على استنباط السياسات والمسالك والعلاقات التي توافق احوالهم وعصورهم ، وتنبع من جوهر الدين كما يعبر عنه في الكتاب والسنة بصفة خاصة . فيقول على لسان الرئيس الاستاذ المكي : « ثم يا أيها الاخوان اظنكم كذلك تستصوبون ان نترك جانبا اختلاف المذاهب التي نحن متبعوها تقليدا ، فلا نعرف مآخذ كثير من احكامها ، وان نعتمد ما نعلم من صريح الكتاب وصحيح السنة وثابت الاجماع ، وذلك كي لا نتفرق في الآراء وليكون ما نقرره مقبولا عند جميع اهل القبلة ، اذ ان مذهب السلف هو الاصل الذي لا يرد ولا تستنكف الامة ان ترجع اليه وتجتمع عليه في بعض امهات المسائل ، لان في ذلك التساوي بين المذاهب ، فلا يثقل على احد نبذ تقليد احد الائمة في مسألة تخالف المتبادر من نص الكتاب العزيز او تباين صريح السنة الثابتة في مدونات الصدر الاول » .

ويدعو الكواكبي ، على لسان الاستاذ المكي ، الى ترك النقول المتخالفة خصوصا منها المتعلق ببعض القليل من الاصول « ونجتمسع على الرجوع الى ما نفهمه من

النصوص ، او ما يتحقق عندنا حسب طاقتنا انه جرى عليه السلف ، وبذلك تتحد وجهتنا ويتسنى لنا الاتفاق على تقرير ما نقرره ، ويقوى الامل في قبول الامة منا ما ندعوها اليه « (٤٢) » .

بذلك المنطق الاساسي الواسع في تعريف الدين ، وبهذه الدعامات الثورية في تحديد مضامين الدين الاسلامي واركانه ، تحديدا ذا اثر كبير على الافكار السياسية المباشرة ، يبدو لنا معنى القول ان الكواكبي في منطلقه العقائدي الاساسي كان يقوم على اساس ديني (اسلامي) . ولعل هذه الصورة للمنطلق الديني الاسلامي لديه ، تستكمل ملامحها بصورة اوضح عندما نعي ان الكواكبي يجد في الدين بهذا المفهوم ضرورة انسانية اجتماعية تاريخية ، شديدة الصلة بطبيعة الانسان من حيث كونها طبيعة تتنازعها نوازع الخير والشر في وقت واحد ، فيكون الدين بصورة عامة ، والدين الاسلامي بصورة خاصة ضرورة تحمي نوازع الخير وترجحها على نوازع الشر في الانسان ..

ويقدم لنا الكواكبي وصفا للناموس الطبيعي في البشر « هو ناموس وحشي لا خير فيه » ، لان مبانيه هي تنازع البقاء ، وحفظ النوع ، والتزاحم على الاسهل ، والاعتماد على القوة ، وطلب الغايات وحسب الرئاسة ، وحرص الادخار ، ومجاراة الظروف ، وعدم الثبات على حال ، الى غير ذلك ، ويصفها بانها قواعد شر ومجالب ضر ، لا يلفظها غير ناموس شريف واحد ، مودع في فطرة الانسان ، وهو : « اذعانه الفكري للقوة الغالبة اي معرفة الله بالالهام الفطري ، الذي هو الهام النفس رشدها ، والهامها فجورها وتقواها ..

ولا ريب في ان لهذه الفطرة الدينية في الانسان علاقة عظمى بشؤون حياته لانها اقوى وافضل وازع يعدل سائر نواحيه المضرة ويخفف مرارة الحياة التي لا يسلم منها ابن انثى وذلك بما يؤمله المؤمن من المجازاة والمكافأة والانتقام منه وله « (٤٣) » ..

ثانيا - الكواكبي قومي عربي .

ان موقف الكواكبي النظري والسياسي واضح ، في انه الى جانب منطلقه العقائدي الاول كمؤمن مسلم ، فهو تجاه مسألة المجتمع الانساني في هيئته وحدوده ومقوماته ، قد واجه المسألة القومية وادركها ، وهو كذلك قد ادرك ارتباط القومية بالحقوق السياسية القومية ، اي بالدولة بصورة لا تقيم تناقضا بينا بين المنطلقين الديني الانساني ، والقومي الاجتماعي .

ان استيعاب افكار الكواكبي كما تبدو صراحة او ضمنا في كتابيه موضوع بحثنا تجاه هذه المسألة يوضح انه استعمل ثلاث عبارات للدلالة على ثلاثة مضامين محددة تكشف عن موقفه من هذه المسائل . وهذه العبارات هي : الامة ، القوم ، الامة - الشعب .

اما الامة فيستعملها الكواكبي عبر كتاباته للدلالة على مجموعة من البشر يدينون بدين واحد ، بقطع النظر عن قوميتهم ، وبقطع النظر حتى عن كونهم يشكلون دولة واحدة او لا يشكلون . لذلك فانه يتحدث باستمرار عن الامة الاسلامية التي يعني بها المسلمين على اختلاف قومياتهم .

ولكن الكواكبي وهو يتحدث عن امة المسلمين ، وشؤون المسلمين ، يحاول ان يشخص ويعالج اسباب الفتور القائمة فيما بينهم ، مدركا بجلاء انهم يتألفون من اقوام، بل انه فوق ذلك معني عناية واضحة متميزة بقومية العرب ، وهي عناية تبدو في تأكيد لخصائصهم القومية المميزة كما يراها ، وتأكيد لدورهم القومي المتميز في حركة النهوض بالاسلام وبالامة الاسلامية ، حتى انه بالنتيجة ينتهي الى نتائج سياسية حاسمة :

النتيجة الاولى : ان تحقيق النهضة الدينية ذاتها لا بد وان يعتمد على العرب وقيادتهم (٤٤) . « وحيث كانت الجمعية لا يعنىها غير امر النهضة الدينية ، بناء عليه رات الجمعية من الضروري ان ترتبط آمالها بالجزيرة وما يليها واهلها ومن يجاريهم . وان تبسط لانظار الامة (يقصد الامة الاسلامية) ما هي خصائص الجزيرة واهلها والعرب عموما ، وذلك لاجل رفع التعصب السياسي او الجنسي ، ولجل ايضاح ميل الجمعية للعرب » (٤٥) .

النتيجة الثانية : ان يكون الخليفة ، خليفة المسلمين ، عربيا قرشيا مستجمعا للشرائط في مكة (٤٦) .

كذلك فان الكواكبي كما سنوضح تفصيلا ، عندما يتحدث عن الخلافة وسلطات الخليفة ، وعن صلاحيات (سلاطين الاقوام) ، يكشف بجلاء عن اتجاه قومي يرى في الخلافة رابطا دينيا اكثر منه رابطا سياسيا كاملا ، ويرى خلدون ساطع الحصري ان الكواكبي يجد حلا لتكوين اتحاد اسلامي بين الدول الاسلامية (٤٧) . ومعنى هذا ان عبارة (القوم) لدى الكواكبي تنصرف الى ما نعنيه اليوم بعبارة الامة ، وتكون القومية حينئذ لها اكثر مضامين عبارة (القومية) كما نستعملها اليوم ، وتكون مرتبطة بأصلها

اللفوي المشتقة منه وهي القوم بصورة أوضح . لذلك فأننا نجد ، ان الكواكبي في ندائه الجار الذي يملأ احدى عشرة صفحة من كتابه طبائع الاستبداد (١٠٢ - ١١٦) ، وهو النداء الذي يتكون من فقرات ، تبدأ كل منها بعبارة (يا قوم) انما يخاطب (قومه) العرب .

فهو يقول في مطلع هذا النداء : « وعلى ذكر اللوم الارشادي لاح لي ان اصور الرقي والانحطاط في النفس وكيف ينبغي للانسان العاقل ان يعاني **ايفاظ قومه** ، وكيف يرشداهم الى انهم خلقوا لغير ما هم عليه من الصبر على الذل والسفالة . فيذكرهم ويحرك قلوبهم ويناجيهم » (٤٨) . ويتبع هذه المقدمة بشماني عشرة فقرة تبدأ كل منها بعبارة يا قوم وتنتهي بفقرة واضحة في تحديد مفهومه القومي حيث يقول :

« **يا قسوم** واعني بكم الناطقين بالضاد من غير المسلمين . ادعوكم الى تناسي الاساءات والاحقاد ، وما جناه الاباء والاجداد ، فقد كفى ما فعل ذلك على ايدي المثيرين ، واجلكم من ان لا تهتدوا لوسائل الاتحاد وانتم المتنورون السابقون . فهذه امم اوستريا وامريكا قد هداها العلم لطرائق شتى واصول راسخة للاتحاد الوطني دون الديني والوفاق الجنسي دون المذهبي والارتباط السياسي دون الاداري . . . ويتساءل . . فما بالنا نحن الان نفكر في ان نتبع احدى تلك الطرائق او شبهها فيقول عقلاؤنا لمثيري الشحناء من الاعجام والاجانب دعونا يا هؤلاء نحن ندبر شأننا نتفاهم بالفصحاء ونتراحم بالاخاء ونتواسى في الضراء ونتساوى في السراء ، دعونا ندبر حياتنا الدنيا ونجعل الاديان تحكم في الاخرى فقط ، دعونا نجتمع على كلمات سواء الا وهي ز فلتحيى الامة ، فليحيى الوطن ، فلتحيى طلقاء اعزاء » (٤٩) . وغني عن البيان ان هذه الفقرة ، صريحة واضحة في تأكيد مجموعة المعاني الاساسية التي تكون مضمون الدعوة القومية ، معتمدة على وحدة الوطن ، ووحدة اللغة ، والمصير المشترك .

فاذا قيل ولكن في هذا النداء فقرة نقول : « يا قوم واعني منكم المسلمين قال نبيكم الكريم (ص) » فزعم ان هذه الفقرة تنفي ما نذهب اليه : فأننا نجد على العكس من ذلك تماما انها فقرة تؤكد ما نذهب اليه وتدعمه ، ذلك لان كلمة « منكم » انما تخاطب المسلمين من القوم اي المسلمين من العرب .

والى جانب هذا ، فأننا نجد ان الكواكبي في الباب الاخير من طبائع الاستبداد، وفي معرض البحث السياسي الذي ينصب على التخلص من الاستبداد في الدولة ، وتحديد المباحث التي لا بد من طرحها لتدقيق المطالبين ، نجده يعتبر ان المبحث الاول هو :

١ - مبحث ما هي الامة اي الشعب « هل هو ركام مخلوقات نامية او هي جمعية عبيد لمالك متغلب، ام هي جمع بينهم روابط جنس ولغة ووطن وحقوق مشتركة » (٥٠).

فاذا وعينا ان الكواكبي لدى تحديده هذه المباحث وهي خمسة وعشرون مبحثا قد حددها بصورة سؤال يحدد اتجاه القضية المطروحة في كل مبحث منها موقفين (بصيفة هل . وبصيفة أم) (٥١) وان موقفه في كل قضية منها يتحدد بالجواب الذي يتلو (أم) ظهر لنا ان الكواكبي الى جانب وعيه للامة كجماعة ذات دين واحد ، والى القوم كجماعة تتوافر لها مقومات القومية ، كان أيضا يعي الشعب « جماعة في دولة » ، يكونون رعيته ، وتربطهم روابط الجنس واللغة والوطن والحقوق المشتركة .

مما تقدم يتضح لنا اذن ان الكواكبي كان يعي الى حد كبير ثلاث دوائر لانواع الجماعات ، ويعي كذلك النتائج السياسية التي تترتب على وجود كل دائرة منها، وهي:

- ١ - الدائرة الدينية : الامة ،
- ٢ - الدائرة القومية : القوم ،
- ٣ - الدائرة الرعوية : الشعب .

وسنجد ان هذا الوعي والادراك ذو اثر في افكاره السياسية المباشرة لا يقل عن اثر المنطلق العقائدي الاول ، وهو المنطلق الديني ، وهكذا فقد انطلق بأفكاره ، السياسية القومية ، من قاعدة اسلامية ، فالعروبة والاسلام متلازمان في افكاره السياسية .

ثالثا : الكواكبي مدرك لحركة التطور والتغير كمنطق للحياة والتاريخ ، يعي ان الحياة تطور وتغير وليست جمودا او ركودا ، وهو فوق هذا مدرك بجلاء لاثـر العوامل الروحية والمادية في حركة الحياة والتاريخ .

ان باب الاستبداد والترقي واضح في بيان المفهوم الحركي للحياة والتاريخ عند الكواكبي ، اذ يؤكد : « الحركة سنة عاملة في الخليقة ، دائبة بين شخوص وهبوط ، فالترقي هو الحركة الحيوية اي حركة الشخوص ويقابله الهبوط ، وهو الحركة الى الموت او الانحلال او الاستحالة او الانقلاب . وهذه السنة كما هي عاملة في المادة واعراضها عاملة أيضا في الكيفيات ومركباتها » (٥٢) .

ولسنا بحاجة الى تأكيد هذه النظرة الحركية لدى الكواكبي فدعوتـه وكتاباتـه

صريحة في تأكيد هذا المفهوم ، بصورة ترفض اليأس من امكانات نهوض الامة واستئناف رسالتها ، وتؤكد ان حركة الحياة والتاريخ تعرف مراحل الانحطاط ومراحل التقدم في حياة الامم والشعوب .

على ان ما هو في نظرنا باهمية ادراك هذا المفهوم الحركي للحياة والتاريخ ، ادراك عوامل الدفع لهذه الحركة ووعي اسباب الانحطاط والترقي والجمود والانطلاق ، كما حددها .

وبيان مفهوم الكواكبي المتكامل لتلك العوامل وهذه الاسباب يبدو في بعض الاحيان صريحا محليدا ، ولكنه ، بطبيعة الحال يستخلص من كل باب من ابواب طبائع الاستبداد ، لانه في كل باب منها يشير الى سبب من اسباب نشوء الاستبداد ووسيلة من وسائل مقاومته من اجل الانطلاق على طريق التقدم ، كما ان القسم الاكبر من مناقشات اعضاء الجمعية التي دعاها الكواكبي للاجتماع في ام القرى ، انما هو بصورة مباشرة تحليل منصب على اسباب الركود وعوامل الانطلاق ، او على اسباب « الفتور » وهي الكلمة التي اختارها الكواكبي كوصف دقيق لحالة الامة الاسلامية وعوامل مبالغة هذا الفتور . واذا كنا لا نتعرض بصورة تحليلية شاملة لآراء الكواكبي في هذا المجال ، فاننا مع ذلك نفيه حقه عندما نقول :

١ - ان الكواكبي يعني ويؤكد العوامل الروحية والعقلية والمادية كهوامل محركة لحركة الحياة والتاريخ ، فهو يرفض حكما تفسيرا روحيا صرفا للحياة ويهاجم بقسوة المحاولات لجعل « الدين » بصورة عامة ، « والدين الاسلامي » بصورة خاصة ، أساسا لنظرية في تفسير التاريخ تستخف بالعوامل المادية ، سواء في انسانية الانسان الفرد او في مقومات الامة او الدولة كما تبدو في الاقتصاد (٥٢) .

٢ - انه يرفض بصورة حاسمة القاء مسؤولية حركة الحياة والتاريخ تاحرا او تقدما على الاقدار ، ويحمل الانسان مسؤوليات مصيره وتقرير خط حركة حياته ، فيؤكد المضمون الثوري للاية الكريمة « لا يغير الله ما بقوم حتى يغيروا ما بانفسهم » .

لذلك فان الكواكبي في آرائه السياسية سواء حيث يفسر اسباب الانحطاط او يحدد عوامل التغلب عليه من اجل صنع التقدم يؤكد على النقاط التالية :

الحرية : وهو تأكيد يبدو في انه يعتبر الاستبداد في احد اركانه الجوهرية عدوانا على الحرية . يقول على لسان المولى الرومي (٥٤) في تفسير اسباب الفتور بين المسلمين : « ان البلية فقدنا الحرية » ثم يتساءل وما ادرانا ما الحرية . . . ويجب قائلا : هي ما

حرمانا معناه حتى نسيناه، وحرمانا علينا لفظه حتى استوحشناه وقد عرف الحرية من عرفها : « بأن يكون الانسان مختاراً في قوله وفعله ، لا يعترضه مانع ظالم » . ثم يعدد فروع الحرية « تساوي الحقوق ومحاسبة الحكام باعتبار أنهم وكلاء ، وعدم الرهبة في المطالبة وبذل النصيحة » ، ثم انواع الحرية ومنها : حرية التعليم ، وحرية الخطابة والمطبوعات ، وحرية المباحثات العلمية ، ومنها العدالة بأسرها حتى لا يخشى انسان من ظالم او غاصب او غدار مغتال ، ومنها الامن على الدين والارواح ، والامن على الشرف والاعراض ، والامن على العلم واستثماره (٥٥) . فالحرية هي روح الدين . وينسب الى حسان بن ثابت الشاعر الصحابي رضي الله عنه قوله :

وما الدين الا ان تقام شرائع وتؤمن سبل بيننا وهضاب

ويدعو ان ننظر كيف حصر هذا الصحابي الدين في اقامة الشرع والامن ، ثم يتوصل الى النتيجة التالية قائلاً : هذا ولا شك ان الحرية اعز شيء على الانسان بعد حياته ، وان بفقدانها تفقد الامال ، وتبطل الاعمال ، وتموت النفوس وتتعطل الشرائع ، وتختل القوانين (٥٦) .

اهمية « الوعي » عند الكواكبي :

وفي نطاق الحرية وكامر ملاصق لها يكون اهم مضامينها ، يؤكد الكواكبي حرية الكلمة وحرية البحث العلمي ليلبور ذلك في تأكيد اهمية الوعي النابع من ممارسة الحرية في صنع التاريخ بمغالبة الفتور والتخلف . حتى انه ليقول : « قد اجمع الحكماء على ان اهم ما يجب عمله على الآخذين بيد الامم الذين منهم ثمة مروءة وشرارة حمية الذين يعرفون ما هي وظيفتهم بازاء الانسانية ان يسعوا في رفع الضغط عن العقول لينطلق سبيلها في النمو فتمزق غيوم الاوهام التي تمطر المخاوف » (٥٧) . ويؤكد اهمية البحث العلمي ، وحرية البحث العلمي على لسان الرياضي الكردي : « ان السبب العام للداء هو ان علماءنا كانوا اقتصروا على العلوم الدينية وبعض الرياضيات ، واهملوا باقي العلوم الرياضية والطبيعية ، التي كانت اذ ذاك ليست بدات بال ولا تفيد سوى الجمال والكمال ، ففقد أهلها من بين المسلمين ، واندرست كتبها ، وانقطعت علاقاتها فصارت منفورا منها ، على حكم : (المرء عدو ما جهل) بل صار المتطلع اليها منهم يفسق ويرمي بالزيع والزندقة . ويعقد مقارنة بين الشرق والغرب فيقول : « لقد اخذت هذه العلوم تنمو في الغرب ، وعلى مر القرون ترقى وظهر لها ثمرات عظيمة في كافة الشؤون المادية والادبية ، حتى صارت كالشمس ، لا حياة لذي حياة الا بنورها ، فاصبح المسلمون مع شاسع بعدهم عنها محتاجين اليها لمجاراة جيرانهم ، احتياجا يعم الجزئيات والكليات : من تربية

الطفل الى سياسة الممالك ، ومن استنبات الارض الى استمطار السماء ، ومن عمل الابرّة والقوارير الى عمل المدافع والبوارج ومن استخدام اليد والحصار الى استخدام البرق والبخار « (٥٨) .

الاقتصاد : قد يكون من باب المبالغة ان نقول ان الكواكبي قد صاغ نظرية اقتصادية . ولكنه من باب غمطه حقه ان لا نقول بأنه قد فطن الى مكان العامل المادي-الاقتصادي في حياة الافراد والامم ، او ان لا نقول بأنه في تحليله لهذا العامل قد نهج نهجا ينطوي على كثير من المبادئ والقيم الاشتراكية .

ان باب الاستبداد والمال في « طبائع الاستبداد » ، وكذلك ما قاله الكواكبي على هلى لسان الفقيه الافغاني والسعيد الانكليزي والمولى الرومي ، تضع امامنا بمجموعها، وفي السياق العام لكتابي الكواكبي ، افكارا تبرر ان نقول بان الكواكبي كان اشتراكي النزعة والدعوة . فهو في فصل الاستبداد والمال يقدم تحليلا تاريخيا لتطور العلاقات الانتاجية بصورة عامة يبرز فيها اثر حاجات الناس المادية على حياتهم وتطورهم ، ويبين نشوء طبقات الفقراء والاغنياء وما يواكب هذا النشوء من ظلم واستبداد واستعباد بصورة مؤثرة بليغة عندما يقول : « وهكذا بطل اكل الانسان لحوم الانسان ، الا عند بعض قبائل الزنوج فانه موجود حتى الان . على ان الاستبداد المشؤوم احيا سنة اكل البشر بشكل ادهى وأمر . وذلك انه جعل الاقوام طعمة للظالمين ، فكان الاولون يذبحون ويأكلون من يأسرون من اعدائهم فقط والمستبدون يأسرون جماعتهم ويذبحونهم قصدا بمبضع الظلم ويمتصون دماء حياتهم بغصب اموالهم ، ويقصرون اعمارهم باستخدامهم سخرة في اعمالهم او بغصب ثمرات اتعابهم . وهكذا لا فرق بين الاولين والآخرين في نهب الاعمار وازهاق الارواح الا في الشكل » (٥٩) .

وعلى اساس الانتاج فسر الكواكبي سيطرة المرأة على الرجل بصورة مثيرة : من حيث تمكن بوعيهن لمقام جنسهن في الطبيعة كحافظ لبقاء النوع ، تمكن ان يقتسمن من الذكور اعمال الحياة « قسمة ضيزى » تتبلور في ان : « البدوية تسلب الرجل نصف ثمره اعماله ، والحضرية اثنين من ثلاث ، والمدنية تسلب خمسة من ستة وهكذا تترقى بنت العواصم » (٦٠) .

وعلى اساس الانتاج ايضا يفسر وجود الطبقات بصورة واضحة فيقول : ثم ان رجال البشر تقاسموا مشاق الحياة قسمة ظالمة ايضا ، فان رجال السياسة والاديان ومن يلحق بهم وعددهم لا يتجاوز الواحد في المائة يتمتعون بنصف ما يتجمد من دم البشر او زيادة يتفقونه في الرقعة والاسراف ، وضرب مثالا على ذلك انهم يزبنون

الشوارع بملايين من المصابيح لمروهم فيها احيانا ولا يفكرون في ملايين من الفقراء يعيشون في بيوتهم في ظلام . ثم يتطرق الى اهل الصنائع النفيسة والكمالية والتجار الشرهين والمحتكرين وامثال هذه الطبقة ، ويقدرّون كذلك « بواحد في المائة » يعيش احدهم بمثل ما يعيش به العشرات او المئات او الالوف من الصناع والزراع « وهذه القسمة المتفاوتة بين آدم وحواء الى هذه النسبة المتباعدة هي قسمة جاء بها الاستبداد انسياسي » (٦١) .

ويمضي الكواكبي ليقبل « العمل » مقياسا لانسانية الانسان حيث يقول : « قرر الاخلاقيون ان الانسان لا يكون انسانا ما لم تكن له صنعة مفيدة ، تكفي معاشه باقتصاد ، لا تنقصه فتدله ، ولا تزيد عليه فتطفيه » (٦٢) . وهذه العبارة على ايجازها ذات دلالة اشتراكية كبيرة من حيث تجعل العمل اساسا لاكتمال انسانية الانسان ، ومن حيث كونها ، بعد ذلك ، تتحدث عن « الدخل » الناتج عن هذا العمل في صورة تقتضي ان يكون متناسبا مع حاجة الانسان العامل في غير نقص يبقى العوز وفي غير زيادة تولد الطغيان . وهذا الموقف لا يؤكد ان العمل شرف وواجب فحسب وانما هو يحدد سمة هذا العمل بانه « صنعة مفيدة » ، ولا يمكن تفسير هذه العبارة الا بانها تعني صنعة منتجة ، فهي لا يمكن ان تعني ان استغلال العاطلين بالوراثة لاموالهم صنعة مفيدة مادامت تحقق لهم دخولا يعيشون منها . ان كلمة « مفيدة » هنا تعني مفيدة للمجتمع . . اي منتجة . كذلك فان الحديث عن حدود الدخل في صورة لا يقل فيها عن حد ادنى تقتضيه الحاجة ، ولا يتخطى حد اعلى يدخل باب الطغيان ، هو تعبير عن نظرة اشتراكية لعملية التوزيع .

فاذا بحثنا لدى الكواكبي عن ملكية وسائل الانتاج لنجد موقفه منها باعتبارها مسألة اشتراكية اساسية ، وجدنا انه يبرز الملكية العامة للارض ، وهي اهم وسائل الانتاج في تلك المرحلة حيث يقول : « وكذلك تركت الاسلامية معظم الاراضي الزراعية ، ملكا لعامة الامة ، يستنتبها ويتمتع بخيراتها العاملون فيها فقط ، وليس عليهم غير العشر او الخراج الذي لا يجوز ان يتجاوز الخمس لبيت المال » (٦٣) .

ليس هذا فحسب بل ان الكواكبي يفسر التمول اي ادخار المال تفسيراً علمياً اجتماعياً اشتراكياً : يستخلص منه منطقاً اشتراكياً واضحاً ، من حيث جعله « تطبعا لا طبعا » ، وربطه بظروف معاشية طبيعية او اجتماعية ولم يربطه بالطبيعة الانسانية ذاتها حيث يقول : « التمول اي ادخار المال طبيعة في بعض انواع قليلة من الحيوانات الدنيئة الضعيفة كالنمل والنحل ولا اثر لطبيعة التمول في الحيوانات المرتقية غير الانسان فانه تطبع عليه » وان الانسان تطبع على التمول : « لدواعي الحاجة المحققة

او الموهومة ولا تحقق للحاجة الا عند سكان الاراضي الضيقة الثمرات على اهلها او الاراضي المعرضة للقحط في بعض السنين . ويلتحق بالحاجة المحققة حاجة العاجزين قسما عن التمول في البلاد المبتلاة بجور الطبيعة او جور الاستبداد . وربما يلتحق بها أيضا الصرف على المضطرين ، وعلى المصارف العمومية في البلاد التي ينقصها الانتظام العام « (٦٤) .

فاذا اصفنا الى ذلك تعريفه للمال « المال عند الاقتصاديين ما ينتفع به الناس ، وعند الحقوقيين ما يجري فيه المنع والبذل ، وعند السياسيين ما تستعاض به القوة ، وعند الاخلاقيين ما تحفظ به الحياة الشريفة » (٦٥) . واذا قرنا هذا التعريف الشامل لانواع الاموال على اختلافها ، بتحديد مصدر المال : « المال يستمد من الفيض الذي اوضعه الله في الطبيعة ونواميسها » (٦٦) . ادركنا المعنى الاشتراكي في قول الكواكبي نتيجة للمقدمات المذكورة « المال لا يملك ؟ اي لا يتخصص بانسان) الا بعمل فيه او في مقابله » . فهو اذن يربط بصورة واضحة بين جواز ملكية مال او حصول على مال بعمل يضيفه المالك الى ما يملك ليحقق النفع العام ، او يبذله العامل ليحصل على المال كأجر في مقابله .

وفطن الكواكبي الى الصلة الوثيقة بين الثراء والسلطة والاستعمار ، فبين ان احراز الثراء يمكن اصحابه من السلطة فيحولونها الى وسيلة للمحافظة على ثرائهم ، وبين ان التمول (اي الاستزادة من المال) يؤدي الى تسلط الامة على غيرها من الامم . فاوضح بهذا بصورة اولية التأثير الطبقي في السلطة وفي التسلط داخل الامة الواحدة وبين الشعوب ، فاشتراط التمول الشروط الثلاثة التالية :

الشرط الاول : ان يكون احراز المال بوجه مشروع حلال ، اي باحرازه من بدل الطبيعة او بالمعارضة او في مقابل عمل او في مقابل ضمان .

الشرط الثاني : الا يكون في التمول تضيق على حاجات الغير كاحتكار الضروريات او مزاحمة الصناع والعمال الضعفاء ، او التغلب على المباحات مثل امتلاك الاراضي التي جعلها خالقها ممرحا لكافة مخلوقاته وهي امهم ترضعهم لبن جهازاتها وتغذيهم بثمراتها ، وتأويهم في حضن اجزائها فجاء المستبدون الظالمون الاولون ووضعوا اصولا لحمايتها من ابنائها وخالوا بينهما فهذه ايرلانده مثلا قد حماها الف مستبد مالي من الانكليز ليتمتعوا بثلاثي او ثلاثة ارباع ثمرات اعاب عشرة ملايين من البشر الذين خلقوا من تربة ايرلانده . وهذه مصر وغيرها تقرب من ذلك حالا وستفوقها مالا . وكم من البشر في اوربا المتمدنة وخصوصا في لندرة لا يجد احدهم ارضا ينام عليها متمددا بل

ينامون في الطبقة السفلى حيث لا ينام البقر وهم قاعدون صفوفا يعتمدون بصدورهم على حبال من مسد منصوبة افقية فيتلون عليها يمنة ويسرة .

والشرط الثالث لجواز التمويل هو ان لا يتجاوز المال قدر الحاجة بكثير لأن افراط الثروة مهلكة للاخلاق الحميدة في الانسان ، « فانه ليطغى ان راه استغنى » (٦٧) .

هذه الافكار تؤكد الاتجاه الاشتراكي لدى الكواكبي ، واذا كان الكواكبي لم يعتبر المادة والانتاج والاستغلال الاساس الاواري الوحيد في حركة الحياة والتاريخ فلم يأخذ بالتفسير المادي لتلك الحركة وانما اكد العوامل الروحية والعقلية الى جانب العامل المادي ، فان هذا لا يسلبه اتجاهه الاشتراكي ، كما هو ثابت من التجارب الاشتراكية في هذا العصر حيث تتأكد حتمية الحل الاشتراكي ويتأكد معها الاساس المادي والروحي كمنابع لتلك الحتمية ومضامين لهذه الاشتراكية .

الافكار والآراء السياسية المباشرة لدى الكواكبي :

في ضوء هذه المنطلقات العقائدية الاساسية لدى الكواكبي ننتقل الى عرض افكاره وآرائه السياسية المباشرة في :

أ - علاقة الفرد بالدولة .

ب - علاقة الامة او الشعوب مع بعضها ومع الدولة في دولة امبراطورية واحدة .

ان الافكار والآراء السياسية المباشرة لدى الكواكبي تتجمع بصورة متكاملة في تحديده :

اولا : للسياسة

ثانيا : **المضمون الاستبدادي** وتحديده للعلاقات والمؤسسات السياسية التي تحمي الانسان والشعب منه . وتبدو افكاره تجاه هاتين النقطتين بصورة خاصة في طبائع الاستبداد .

ثالثا : **مقترحاته المباشرة** حول القواعد الاساسية التي يرى ان تبني عليها الجامعة الدينية تحت لواء الخلافة . كما تبدو على لسان الامير في كتاب ام القرى ، وتبدو كذلك في الاجتماعات الخمسة الاخيرة من (السابع حتى الثاني عشر) من اجتماعات جمعية الموحدين .

رابعاً : آراءه في أسلوب العمل السياسي لتحقيق افكاره السياسية ، كما تستنتج من دستور جمعية الموحدين ونظامها ومنهجها .

يحدد الكواكبي مضمون علم السياسة ويعرفه بأنه : « ادارة الشؤون المشتركة بمقتضى الحكمة » . ويضيف انه بذلك « يكون بالطبع اول مباحث السياسة وأهمها بحث الاستبداد أي التصرف في الشؤون المشتركة بمقتضى الهوى » (٦٨) . وواضح من هذا التعريف أن السياسة بصورة عامة تتعلق بادارة شؤون مشتركة ، وواضح أيضاً أن هذه الادارة تكون جديرة بأن تسمى سياسة عندما تكون ادارة بمقتضى «الحكمة» . فاذا تحولت الى تصرف بمقتضى « الهوى » أصبحت استبداداً . وأنه لدو دلالة أن نلاحظ في هذا التفريق بين السياسية والاستبداد عنصرين مميزين :

العنصر الاول ان السياسة ادارة لشؤون مشتركة ، وليست تصرفاً فيها . وهذا المعنى الدقيق يحمل بين طياته التفريق بين نظم سياسية يعتبر الحكام فيها أن مهمتهم « ادارة » شؤون مشتركة فهم في ادارتها موكلون وامناء عليها ، وبين نظم يعتبر الحكام فيها أن مهمتهم « التصرف » في الشؤون المشتركة كأنها ملكهم .

العنصر الثاني : ان السياسة اداء لتلك الوكالة والامانة في ادارة الشؤون بالحكمة ، بينما هي في حالة الاستبداد تصرف فيها بالهوى . ومعنى هذا أن الاستبداد نقيض السياسة وأن النظم المستبدة لا تستحق شرف التسمية بأنها نظم سياسية .

والسياسة شأن نقيضها الاستبداد تنصرف للحكومات حيث تكون الشؤون المشتركة هي شؤون الناس في الدولة كمواطنين فيها أو كقوميات متعددة في دولة واحدة ، أو كدول تتعامل بعضها مع البعض الآخر .

ومن تعريف الكواكبي للحكومة المستبدة يمكننا أن نستخلص آراءه السياسية في علاقات الافراد بالسلطة كما يجب أن تكون وفي ما يترتب على ذلك من تحديد لهوية الحكام والحكومة ، والمؤسسات والاساليب التي يمارس الحكام والحكومات السلطة بموجبها والتي لا بد وأن يراقب الشعب بها الحكومة .

لا نجد لدى الكواكبي محاولة لتفسير اسباب وكيفية نشوء السلطة في المجتمعات البشرية ، أو لمصير الحكومات والسلطة في المجتمعات البشرية في مستقبل تطورها ، فهو يتحدث عن السلطة والحكومة كواقع في المجتمعات البشرية ، وعنصر من عناصر وجودها . والمحور الرئيسي في افكاره تجاه علاقة الافراد والشعب بالحكومة أو بالسلطة يتركز في نقطة اساسية تتفرع منها نقاط كثيرة . وهذه النقطة هي أن الشرط الموضوعي

لادارة شؤون الامة بالحكمة . هو ان تكون دوما تحت المراقبة الشديدة والمحاسبة التي لا تسامح فيها فهو يقول : « وخلاصة ما تقدم ان الحكومة من أي نوع كانت لا تخرج عن وصف الاستبداد ما لم تكن تحت المراقبة الشديدة والمحاسبة التي لا تسامح فيها . كما جرى في صدر الاسلام في ما تقم على عثمان بن عفان رضي الله عنه ، وكما جرى في عهد هذه الجمهورية الحاضرة في فرنسا في مسائل النياشين وبناما ودريفوس » (١٩) .

ومعنى هذا ان الكواكبي يلتزم موقفا « ديمقراطيا » صارما يرفض كل نوع من الضمانات التي قد تساق في معرض حماية المجتمع « من الاستبداد » اذا لم يتوفر شرط المراقبة الشديدة والمحاسبة التي لا تسامح فيها . وانه لا يعتبر الشكل في الحكومة هو معيار الديمقراطية ، او لحماية المجتمع من الاستبداد ، وان كان بالطبع يدرك اثر شكل نظام الحكم ، واثار عوامل اخرى ، على كونه استبداديا او غير استبدادي . لذلك فانه حين يحدد للاستبداد منشأين رئيسيين يرد وجوده في الحالين على تعدد الاشكال الى غياب المراقبة والمحاسبة ففي رايه ان منشأ الاستبداد « امبا كون الحكومة غير مكلفة بتطبيق تصرفها على شريعة او على امثلة او على ارادة الامة وهذه حال الحكومات المطلقة . واما من كونها مقيدة بنوع من ذلك ولكنها تملك بنفوذها ابطال قوة القيد بما تهوى ، وهذه حالة اكثر الحكومات التي تسمى نفسها بالمقيدة » (٧٠) .

ويتضح من هنا ان الكواكبي ضد الحكومات المطلقة ، وانه كذلك ضد الحكومات المقيدة (غير المطلقة) التي تتمكن بنفوذها من ابطال قوة القيد عليها . فيؤكد ان صفة الاستبداد تشمل « حكومة الحاكم الفرد المطلق ، الذي تولى الحكم بالغلبة او الوراثة ، كما تشمل ايضا الحاكم الفرد المقيد الوارث او المنتخب متى كان غير محاسب » (٧١) . ويمضي الكواكبي الى اكثر من ذلك ليؤكد ان حكومة « الجمع » حتى لو كانت الجماعة الحاكمة منتخبة لا تتحقق بها الديمقراطية ، (أي انها لا ترفع الاستبداد) الا اذا توفر للامة امكانية المراقبة والمحاسبة على الرغم من وعيه ان الاشتراك في الراي الذي يقوم بحكومة الجمع ، وبالاقتخاب ، قد يعدل امكانية الاستبداد نوعا ما فيقللها . ولكنه يرى أن امكانية تحول حكومة الجمع المنتخبة الى حالة من الاستبداد اكثر احكاما واشد ضررا من حكومة الفرد .

وفوق هذا فان الكواكبي يرى انه : « حتى الحكومة الدستورية التي يفرق فيها قوة التشريع عن قوة التنفيذ لا تتحقق بها الديمقراطية ، أي دفع الاستبداد ، الا بشرطين : ان يكون المنفذون مسؤولين لدى المشرعين ، وان يكون هؤلاء مسؤولين لدى الامة التي تعرف ان تراقب وان تتقاضى الحساب » (٧٢) .

والى جانب هذا الموقف الديمقراطي الثوري ، نجد أن الكواكبي يعي مسألة أخرى تلازم هذا المبدأ وهي : أن قيام الحكومة العادلة لا يعني أنها تستمر عادلة اذا وجدت سبيلا للاستبداد ، وانه اذن لا يمكن للامة ان تضمن استمرار الحكومة العادلة بغير استمرار المراقبة والمحاسبة حتى على حكومة توفر لها بالتكوين وبالشكل ان تكون حكومة عادلة .

وعندما يضرب الكواكبي مثلا بانحراف حكم عثمان بن عفان رضي الله عنه عن العدل في صدر الاسلام ، وبحكم الجمهورية الفرنسية المعاصر للكواكبي ، فانه في رأينا يريد ان يؤكد ان وجود الدستور العادل (وهو الشريعة الاسلامية في الحالة الاولى ودستور الجمهورية الموروث عن الثورة الفرنسية في الحالة الثانية) لا يكفي لوحده لضمان الحكم العادل والحيلولة دون الاستبداد فلا بد اذن من توفر مراقبة الامة الدائمة للحكم ومحاسبتها له . فتنازل الامة او غفلتها عن تلك المراقبة وهذه المحاسبة يؤدي بالضرورة الى نشوء الاستبداد .

ولا يقف الكواكبي عند هذا الحد تجاه النقطة الاولى بل انه يؤكد ان مجرد المراقبة او المحاسبة « بالقول » لا يكفي لمنع قيام الاستبداد او تصحيحه ، وانما لابد للامة « من العمل » او من اقتناع الحكومة بان هذه الامة قادرة على العمل ، جادة فيه ، الا وهو مراقبة الحكومة ومحاسبتها ، ثم يضع منهجا ثوريا كي تسير الرعية عليه حين يقول : « المستبد انسان مستعد بالفطرة للخير والشر ، فعلى الرعية ان تكون مستعدة لان تعرف ما هو الخير وما هو الشر ، مستعدة لان تتبع القول بالعمل ، والقول الذي ليس وراءه فعل هو موجة من الهواء ، على ان مجرد الاستعداد للفعل ، فعل يكفي شر الاستبداد .

ثم يقدم لنا فكرة عن الانسان المستبد ويعرفه بقوله : المستبد انسان والانسان اكثر ما يالف الغنم والكلاب ، فالمستبد يود ان تكون رعيته كالغنم درا وطاعة ، وكالكلاب تدللا وتملقا وعلى الرعية ان تكون كالخيل ان خدمت خدمت وان ضربت شربت بل عليها ان تعرف مقامها هل خلقت خادمة للمستبد ام هي جاءت به ليعدها . والرعية العاقلة تقيد وحش الاستبداد بزام تستमित دون بقائه في يدها لتأمن من بطشه فان شمع هزت به الزمام وان صال ربطته « (٧٣) » .

فاذا اضعنا الى هذه العناصر التي تكون افكار الكواكبي السياسية تجاه القضية الاولى والكبرى ، الا وهي طبيعة الحكومة وطبيعة صلة الامة بها كي تكون عادلة غير مستبدة ، اذا اضعنا الى ذلك « الاسباب السياسية » التي اوجز فيها الكواكبي على

لسان الفراتي من أعضاء الجمعية (وهو الكواكبي نفسه) التي أدت الى فتور الامة الاسلامية ، وجدنا من بينها الاسباب التالية التي نبرزها من بين الاسباب السياسية التي تشمل ستة عشر سببا تمتد من السبب (٢٤) الى السبب (٣٩)(٧٤) ، باعتبارها ذات دلالة خاصة على المسألة موضوع البحث :

- ٢٤ - السياسة المطلقة من السيطرة والمسؤولية .
 - ٢٥ - تفرق الامة الى عصبيات واحزاب سياسية .
 - ٢٦ - حرمان الامة من حرية القول والعمل وفقدانها الامن والامل
 - ٢٧ - فقد العمل والتساوي في الحقوق بين طبقات الامة .
 - ٣٣ - ابعاد الامراء للنبلاء والاحرار وتقريبهم المتعلقين والاشرار .
 - ٣٤ - مراغمة الامراء للسراة والهداة والتنكيل بهم .
 - ٣٥ - فقد قوة الرأي العام بالحجر والتفريق .
 - ٣٩ - حصر الاهتمام السياسي بالجباية والجنديّة فقط(٧٥) .
- واذا ما صنّفنا الآراء والافكار والسياسة عند الكواكبي بلغة كاللغة المتداولة اليوم نجد المبادئ التالية :

- ١ - مبدأ ان الشعب مصدر السلطة وان الحكومة والسلطة يجب ان تكونا من الشعب وللشعب .
- ٢ - مبدأ فصل السلطات .
- ٣ - مبدأ سيادة القانون .
- ٤ - مبدأ السلطة التشريعية المنتخبة .
- ٥ - مبدأ الحريات الشخصية :
- حرية العقيدة والرأي حرية مطلقة .
- حرية الفعل في حدود القانون .
- ٦ - مسؤولية الحكومة امام السلطة المنتخبة .
- ٧ - مبدأ الملكية العامة لبعض وسائل الانتاج ، ومسؤولية الحكومة عن التطوير والتقدم الذي يشتمل على بذور الاشتراكية .

٨ - سيطرة السلطة التشريعية على السياسة المالية . سواء سياسة الضرائب أو الانفاق .

افكار الكواكبي السياسية حول العلاقة بين القوميات في دولة امبراطورية واحدة

ان افكار الكواكبي تجاه هذه المسألة من مسائل السياسة تنبع اساسا من مواجهته للتناقضات التي تعيشها الدولة العثمانية ، وهي التناقضات التي بلغت في عهده ذروتها ، لا من حيث التخلف والجمود والاستعباد الذي يعاني منه الافراد والطبقات الكادحة فحسب ، وانما من زاوية بداية محاولات التتريك (٧٦) ومناهج الاساءة للامة العربية من قبل الاتراك اساءات تصيب مقومات وجودها وكرامتها كامة يعتز بها الكواكبي ويؤكد تميزها بين اطم الدولة العثمانية تميزا ينبع من بخصال وخصائص قومية يتحدث عنها باسهاب وجراة في مخاطبته اعضاء جمعية الموحدين رغم اختلاف جنسياتهم ، وتنبع كذلك من ان العرب هم حملة رسالة الاسلام الناطقين بالضاد لفة القرآن .

لذلك فان افكار الكواكبي في هذا الموضوع تكون في حقيقتها حلا الحاديا يبقى على الخلافة كجامعة ، ويعطي للشعوب نصيبا غير قليل من الاستقلال الذاتي ، كما يسلب الخليفة كل الصلاحيات تقريبا بصورة واضح فيها ان الكواكبي يستهدف منها منع استبداده بالمركزية في الحقوق السياسية والادارية للشعوب ويستهدف منها كذلك منع استبداد الحاكم بالسلطة المطلقة للرعية (٧٧) .

ولقد كانت آراء الكواكبي في هذا الموضوع تحديا صارخا للدولة العثمانية كما كانت قائمة في عهده ، سواء من حيث مطالبته بالخلافة لقرشي عربي ، او من حيث ما رسمه من توزيع للسلطة والصلاحيات في داخل الدولة بين الشعوب الداخلة في نظامها ، حتى انه ليصح القول انه كان يدعو الى دولة ائحادية تصبح بها الخلافة اقرب الى « الكونفدرال » منها الى « الاتحاد الفيدرالي » (٧٨) .

ونجد دلالات كبيرة في الاسباب السياسية والادارية العثمانية التي اوردها في معرض بيان اسباب الانحطاط والفتور في الامة الاسلامية . ومن أبرز هذه الاسباب كما حددها الكواكبي على لسان السيد الفراتي :

٥٧ - توخيد قوانين الادارة والعقوبات مع اختلاف طبائع اطراف المملكة واختلاف الاهالي في الاجناس والعادات .

٥٩ - التمسك باصول الادارة المركزية مع بعد الاطراف عن العاصمة وعدم وقوف رؤساء الادارة في المركز ، على احوال تلك الاطراف المتباعدة وخصائص سكانها .

٦٥ - التمييز الفاحش بين اجناس الرعية في الغنم والغرم (٧٦) .

ويبدو المخطط السياسي المقترح للجامعة الاسلامية والخلافة فيها ، سواء من ناحية مركز العرب فيه او من ناحية اسباب استحقاقهم لهذا المركز ، في القرار رقم (٦) الذي ينتهي بعد المقدمات والاسباب الموجبة الى القول : « فهذه الاسباب التي جعلت جمعية ام القرى ان تعتبر العرب هم الوسيلة الوحيدة لجمع الكلمة الدينية بل الكلمة الشرقية » (٨٠) .

اما تلك الاسباب فهي ثمانية عشر سببا خاصة بعرب الجزيرة ، وسبعة اسباب تنصرف للعرب عموما .

اما دستور الجامعة الدينية تحت لواء الخلافة وقواعده الاساسية ، فان الكواكبي يجمله على لسان الامير على الصورة التالية بحيث يتحقق « بمثل هذا الترتيب تنحل مشكلة الخلافة ، ويتسهل عقد اتحاد اسلامي تضامني تعاوني ، يقتبس ترتيبه من قواعد اتحاد الالمانيين والامريكانيين مع الملاحظات الخاصة » (٨١) .

ويبدو من دستور الجامعة الدينية الذي يقترحه الكواكبي انه قد وصل الى النقطة التي ينادي بها فعلا بإلغاء الدولة الاسلامية (اي الدولة الدينية) كدولة سياسية ليحولها الى جامعة دينية الخليفة فيها رمز للرابط الديني ورئيس منتخب لهيئة شورى ، تنحصر مهامها في امهات المسائل الدينية . وهو تصور على مقدار كبير من الثورية في حينه ، ومن العلمية والعملية بصورة دائمة ، يحسم به الكواكبي منذ حوالي اكثر من ثمانين عاما مسألة الخلط بين الوحدة الدينية الاسلامية ، وبين الوحدة القومية العربية . بحيث يجعل من الاولى جامعة دينية ومن الاخرى دولة سياسية ، وهو تفريق من المفيد كل الفائدة ان يعيه الذين يناقشون باستمرار وحدة عربية ، ام وحدة اسلامية .

ان جواب الكواكبي يعي الفرق النوعي بين الدائرتين : الدائرة العربية ، ومنطقها

منطق الوحدة القومية السياسية ، والدائرة الاسلامية : ومنطقها منطق الجامعة الدينية الاسلامية .

تقويم افكار الكواكبي :

عملية التقويم ، تقويم الاشخاص والافكار والحركات مسألة لا بد وان يتخطى المتصدي لها حدود العرض والتحليل ، ليبلغ آفاق الدراسة المقارنة من جهة ، وليتبع التأثير النابع عن الشخص او عن الفكرة او عن الحركة ، وتحديد الاصداء الايجابية منها والسلبية ، الفاعلة منها والمنفعلة التي اطلقها الشخص او الفكر او الحركة ، من جهة اخرى ، وفي وسعنا ، في ضوء ما تقدم من عرض للكواكبي في نشأته وعصره وفي افكاره وآرائه ، ان نحاول تقويمه تقويماً اولياً يبقى خاضعاً لاعادة النظر والتعديل في ضوء المزيد من البحث .

ان جوهر تقويمنا للكواكبي يتركز في انه : مناضل مفكر داعية ، ثوري في مضمون افكاره ، اصلاحي في اسلوب تحقيق افكاره ، تأثيره في عصره وما بعد عصره ينشأ عن افكاره ودعوته اكثر من نشوئه عن تنظيم اقامة او حركة فعالة صنعها ، ولسنا بحاجة بعد الذي تقدم من عرض لافكاره في اسسها العقائدية وفي مضامينها السياسية لبيان اسباب وصفنا اياها بالثورية .

يكفي ان نذكر مجدداً مفاهيمه الثورية للدين ، وان نذكر كذلك مفاهيمه للمجتمع ومقوماته ، وان نذكر ايضاً مبادئه في فهم حركة الحياة والتاريخ كما اشرنا اليها فيما سبق .

يكفي ذلك ليتضح لنا ان الكواكبي كان في كل ذلك يجسم في عصره ثورة على الافكار التي كانت تقوم عليها السلطة في ذلك العصر ، والتي كانت تدعمها وتدافع عنها مع تلك السلطة ، طوائف المستغلين والمنتفعين من حكام ومتسلطين ومتعممين .

لقد ضرب الكواكبي بارأته الجريئة في هذه المجالات ، بصورة علمية ومنطقية ، عوامل الجمود والتخلف والتسلط التي كانت تتركز جميعها في الاستبداد .

ولا يخفف من ثورية هذه الافكار الاساسية ، الاسلوب التطوري الذي دعا له الكواكبي او ما اشار اليه صراحة من ان العنف ليس سبيل مغالبة الاستبداد ، ذلك ان وراء هذا الموقف ، كما هو واضح لديه ، اعتقاده بان عملية التوعية هي الخطوة المطلوبة وهي المهمة المحددة مرحلياً .

واذا كان في الامكان ان يناقش تقدير الكواكبي لهذه المسألة او ان يرفض ، فانه يصعب القول بانصاف ان الكواكبي لم يكن ثوريا ثورة عارمة فيما طرحه على المسلمين عامة ، وعلى العرب خاصة ، من افكار جريئة حول واقعهم العقائدي والسياسي والاجتماعي والاقتصادي .

ويكفي بعد ذلك ان يكون الكواكبي في عصره قد اعلن في غير التواء موقفا قوميا عربيا بلغ المطالبة بمركز الخلافة في الدولة الاسلامية للعرب ، وان يكون كذلك قد واجه الامبراطورية العثمانية بارائه في نوع العلاقات التي يرى ان تقوم بين الشعوب التي تتكون منها وان يكون هذا وذاك يقعان في اطار ارائه عن الاستبداد وما ينبع عنها من مطالب تحررية ديموقراطية بل واشتراكية ، لبدو لنا كذلك مقدار ما كان عليه الكواكبي من الثورية .

اما تقويم الكواكبي تقويما مقارنا مع غيره من الدعاة والمفكرين في عصره ، فانه من ناحية المضمون يكشف عن تميز بتسلسل النهج وعلميته في بحث اسباب الانحطاط والتاخر والفتور وفي وصف علاجها ، كما يبدو كذلك في تحديد اكثر وضوحا ، للمضمون السياسي والاجتماعي المطلوب لتحقيق النهضة والتقدم .

واضح ان الكواكبي في تحليله لاسباب الانحطاط والفتور لم يركز تركيزا بيّنا على الاستعمار الاجنبي النامي كقوة غازية جديدة ، وان كان مفهومه للاستعمار ينطوي طبعا على الاستعمار ويدعو للتخلص منه . حتى ليكاد يبدو ان دعوته لمقاومة التسلط التركي اوضح من دعوته لمقاومة الاستعمار الغربي . ولا شك في أن جنوحه للاخذ بأسلوب مقاومة الاستعمار بغير اللجوء للقوة وانما بالتوعية ونشر الوعي اي « التوجيه الارشادي » يضعه في مستوى يقصر عن مستوى دعاة الثورة والمحرّضين عليها ، وهي نقطة تحتاج الى تفسير سيما انه كان يعاصر مرحلة صراعات ونضالات حامية تقوم في اكثر ارجاء الوطن العربي سواء في مواجهة الاستعمار او في مواجهة بداية التتريك ، وفي مرحلة بدأت تتكون وتولد فيها المنظمات العربية السرية المدنية والعسكرية التي تجسم العزم على النضال الثوري والاتجاه للاخذ بمبدأ القوة في مواجهة الاستعمار، وكذلك ظهور الحركة الصهيونية بعد مؤتمر بال (بازل ، ١٨٩٧) .

واذا كنا نجد بهذا الموقف ان الكواكبي لم يكن واثقا من قدرة الشعب ، في اوضاعه تلك ، على اللجوء للقوة والسير على طريق النضال العنيف من اجل دفع الاستعمار وتحقيق الحكم العادل على الصورة التي تصورها ووصفها ، فان عدم الثقة هذه بإمكانات الشعب النضالية تكون نقطة ضعف في التفكير السياسي عند الكواكبي من ناحية الاسلوب .

من هنا نجد بعض الباحثين يعتبر ان الكواكبي اذا قورن بالافغاني مثلا كان في مكان الطبيب اذا قورن بالثائر ، بكل ما يحمله الفرق بين الطبيب والثائر في معالجة الداء من تباين .

مهما يكن الامر ، فان الكواكبي يبقى احد اعلام الفكر العقائدي والقومي والسياسي الثوري في القرن التاسع عشر (٨٢) الذي يستحق قسطه الوافر من فضل اذكاء الوعي الثوري وتفجير الطاقات الثورية التي لا نلبث ان نشهدها وهي تجتاح الوطن العربي مع مطلع القرن العشرين .

اذا كان الكواكبي قد جعل كتابه طبائع الاستبداد « هدية مني للناشئة العربية المباركة الابية ، المعقودة امال الامة بيمن نواصيهم » فلا شك ان تلك الناشئة قد استفادت من الهدية فتحقق للكواكبي كثير من اهداف ذلك الاهداء (٨٢) ولا شك ايضا في ان الناشئة العربية اليوم قادرة ان تجد في الكواكبي كثيرا من الافكار والمعاني التي تتعلم منها وتفخر بها فتكون امام مسؤولية اكتشاف الكواكبي وحياته بصورة اكثر جدية واعترافا بفضله .

المصادر والمراجع :

- احمد امين ، زعماء الاصلاح في العصر الحديث ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٤١ .
احمد عزت عبد الكريم وبيديع الشريف ، دراسات تاريخية في النهضة العربية ، القاهرة ١٩٥٨
انور الجندي ، اعلام واصحاب اقلام ، دار نهضة مصر ، القاهرة (بات) .
رؤيف خوري ، الفكر العربي الحديث ، دار المكشوف ، بيروت ١٩٤٣ .
ساطع الحصري ، نشوء الفكرة القومية ، بيروت ١٩٥٢ .
سامي الدهان ، عبد الرحمن الكواكبي ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٦٤ ، ط ١ .
عباس محمود العقاد ، عبد الرحمن الكواكبي الرحالة (د) ، دار الكاتب العربي ، بيروت ١٩٦٩ ط ١ .
عبد العزيز الدوري ، التكوين التاريخي للامة العربية - دراسة في الهوية والوعي ، مركز دراسات
الوحدة العربية ، بيروت ١٩٨٤ ط ١ .
فهمي جثمان ، اسس التقدم عند مفكري الاسلام في العالم العربي الحديث ، المؤسسة العربية
للدراسات والنشر ، بيروت ١٩٧٩ ط ١ .
محمد احمد خلف الله ، الكواكبي احيائه وآراؤه ، مكتبة العرب ، القاهرة شارع الفجالة .
نوربير تابيري (ترجمة علي سلامة) الكواكبي المفكر الثائر - اسهام في دراسة الاسلام الحديث ،
منشورات دار الادب ، بيروت ١٩٦٨ .

المجلات :

- مجلة الرسالة ، اعداد عام ١٩٥١ .
مجلة المنار ، م ٣ ، ح ٦ ، ص ١٢٤ مقالة بعنوان الوحدة العربية بقلم الشيخ رشيد رضا .
مجلة المنار ، السنة العاشرة ، العدد العاشر - ١٩٠٨ ص ٧٢٧ وما بعدها .
مجلة الحديث ، العدد التاسع ايلول (سبتمبر) ١٩٥٢ م .
ومجلة Revue des Etudes Islamiques (R. E. I.)
العدد الرابع ص ٦٨٩ وما بعدها ، العدد السادس ص ١٧٥ - ٢٢٢ دراسة عن السلفية بقلم
هـ . لاوست .

الهوامش :

- (١) لقد ظهرت في القرن التاسع عشر تيارات فكرية متعددة كان أشهرها التيارات الفكرية ذات المنطلق الديني ، التي تأثرت بالحركة الوهابية ، ومنها المذهب الشوكاني ، والسنوسية والمهدية وغيرها ، ثم هناك التيار الفكري الديني المتجدد ، الذي دعا إلى فتح باب الاجتهاد والاطلاع على الثقافة الغربية ، والتوفيق بين العلم والايمان ثم التيار الديني - القومي الذي نحن بصددده .
- (٢) يشير محمد كرد علي ، أن ثقافة الكواكبي هي ثقافة عربية - تركية ، وأنه أفاد كثيرا من معلوماته التركية ولقائه بعلماء الترك ، وأنه عوض عن جهله اللغات الأجنبية بقراءة الترجمات الغربية بالتركية ، كما أنه يرى أن ما كتبه الكواكبي يمثل اجتهاده الخاص . المعاصرون : ص ٢٨١ وما بعدها .
- (٣) المنار : ٢٢ ج ٦ ص ١٢٤ مقالة بعنوان الوحدة العربية بقلم الشيخ رشيد رضا .
- (٤) للباحثة دراسة وثائقية تدور حول الجمعية العربية الفتاة السرية ، وهي تحت الطبع ، بدعم من الجامعة الأردنية ، وقد لمست هذا التأثير أثناء اعداد الدراسة المذكورة .
- (٥) لا أريد الخوض في ترجمته حيث قدم الدكتور اسعد الكواكبي عن أبيه دراسة مفصلة في مجلة الحديث العدد التاسع ايلول (سبتمبر) ١٩٥٢ .
- (٦) هناك بعض الكتب تشير إلى أن مولد الكواكبي كان في ١٩٤٨ أو في ١٩٥٤ ، وبعضها يذكر ١٩٤٩ .
- (٧) طرح المفكرون الدعاة المفاهيم والقيم الاجتماعية والسياسية الجديدة التي تدور حول النظم السياسية للدولة على البعدين : الداخلي ، مثل النظم السياسية للدولة من زاوية موقف هذه النظم من الفرد وحقوقه وواجباته فيها . والخارجي ، حين تطرقوا إلى تعامل هذه النظم السياسية بعضها مع البعض الآخر ، أو مع النظم السياسية في الخارج .
- (٨) منهم رفاعه رافع الطهطاوي وعبد الله نديم ، وعلي مبارك ومحمد عبده في مصر والشهاب الألوسي في العراق ، وخير الدين التونسي وابن أبي الفضياف في تونس ، وأحمد فارس الشدياق وجمال الدين القاسمي والشيخ طاهر الجزائري ، أديب اسحق ويزق الله حسون والشيخ رشيد رضا وعبد الرحمن الكواكبي ومحب الدين الخطيب في سورية ، هذا بالإضافة إلى الفكر الثوري الإسلامي جمال الدين الأفغاني .
- (٩) عمل وهو في الثانية والعشرين في صحيفة « فرات » العربية التركية وكان قد أنشأها المؤرخ التركي أحمد جودت باشا قبل ذلك بعشر سنوات ، ثم أنشأ في حلب أول صحيفة عربية باسم « الشهداء » مع صديقه هاشم العطار ، ثم أنشأ صحيفة « الاعتدال » بعد تعطيل الشهداء لصراحتها ، فصدر منها خمسة عشر عددا ثم عطلت . .
- (١٠) انظر نوربير تاببيرو : الكواكبي الفكر الثائر ، ص ٥٢ .
- (١١) انظر لزيد من الايضاح : رئيس خوري ، الفكر العربي الحديث .
- (١٢) راجع حول التوسع بهذه الفكرة د. محمود السمرة في كتابه Christian Missions الفصل الرابع ، ص ١٤٨ .
- (١٣) راجع حول المراكب التي شغلها : عباس محمود العقاد ، عبد الرحمن الكواكبي الرحالة له ، ص ٥٨ .

- (١٤) يذكر البعض ان ولاية الدولة العثمانية قد احرقوا بعض نتاج الكواكبي عند تفتيش منزله ، ومنها « صحائف قریش » و « العظيمة لله » وديوان شعره ، ويوميات رحلاته انظر انور الجندي : اعلام واصحاب اقلام ، ص ٢٣٥ .
- (١٥) انظر الطبعة التي اصدرتها سنة ١٩٣١ المطبعة الرحمانية في مصر .
- (١٦) يخصه المستشرق نوريير تابييرو عدة صفحات (٥٧ - ٦١) ليثبت ان هذا المؤثر لا اصل له .
- (١٧) انظر الطبعة التي اصدرتها سنة ١٩٣١ المطبعة المصرية بالازهر .
- (١٧) يؤكد تابييرو ان كتاب ام القرى قد ولد في مخيلة المؤلف قبل طباع الاستبداد . وكذلك انقصر الدكتور فهمي جدعان : اسس التقدم عند مفكري الاسلام ص ٢٩٠ .
- (١٨) انظر المنار السنة العاشرة العدد العاشر ١٩٠٨ ص ٧٢٧ وما بعدها .
- (١٩) انظر انور الجندي : اعلام واصحاب اقلام ص ٢٢٢ .
- (٢٠) احمد امين ، زعماء الإصلاح في العصر الحديث ، مكتبة النهضة المصرية ١٩٤١ ، ص ٢٥٦ .
- (٢١) يشير د. سامي الدهان في كتابه عبد الرحمن الكواكبي الى ذلك بقوله : « واول من حبر موضوعها متصل الحلقات بهذا الاسلوب من الإنشاء » . طبعة دار المعارف بمصر .
- (٢٢) الكواكبي : طباع الاستبداد ص ١٢٤ .
- (٢٣) الكواكبي طباع الاستبداد ، ص ١٣٠-١٣١ .
- (٢٤) الكواكبي طباع الاستبداد ، ص ١٢٥-١٣٠ .
- يشير الدكتور سامي الدهان ، ص ٤٣ ، الى ان مجموعة جريدة المؤيد التي نشرت هذه المقالات غير موجودة الآن ، وان طباعت الكتب التي بين ايدينا « المتداوله » ، عملت فيها يد التحريف والتصحيف . واني كذلك لم اعثر على مجموعة جريدة المؤيد ، لاتمكن من اخذ الافكار السياسية لدى الكواكبي من كتاباته الاولى .
- (٢٥) الكواكبي ام القرى ص ١٠ .
- (٢٦) الكواكبي ام القرى ص ١١ .
- ولعل هذا القول ، جعل الاستاذ احمد امين ، يضع الكواكبي في كتابه زعماء الإصلاح في مكانة الطبيب الذي يفتش عن مراكز المرض ثم يصف الدواء الشافي .
- (٢٧) لقد قدم الدكتور سامي الدهان في كتابه : « عبد الرحمن الكواكبي » ملخصا لاجتماعات كتاب ام القرى وكذلك ملخصا لكتاب طباع الاستبداد .
- (٢٨) لقد ناقش الدكتور محمد احمد خلف الله في كتابه : الكواكبي حياته واراؤه ، وكذلك الدكتور سامي الدهان ، والمستشرق الفرنسي نوريير تابييرو في كتابه « الكواكبي الفكر الشائر » ، وغيرهم كثير ، افكار الكواكبي الدينية من منطلق العودة الى الاصول ، واحاول هنا مناقشة افكار الكواكبي الدينية - الثورية .
- (٢٩) الكواكبي : ام القرى ، ص ٢٢ .
- (٣٠) الكواكبي ام القرى ، ص ٦٥ .

- (٣١) راجع الكواكبي طبائع الاستبداد ، ص ٢٣ .
ويشير الدكتور احمد خلف : الى ان مناقشة الكواكبي للنصوص الدينية ، واستنباط الاحكام منها .
والنصوص عنده ليست الا : « الكتاب والسنة » ص ٤٨ مصدر سابق .
- (٣٢) الكواكبي ام القرى ص ٦٠ .
- (٣٣) هناك عدة دعوات سلفية تدعو للعودة الى الدين الاسلامي النقي ، في مقابقتها الحركة الوهابية ،
والذهب الشوكاني ، والمهدية السنوسية .
- انظر : (R.E.I.) العدد السادس ، دراسة عن السلفية ، ص ١٧٥ - ٢٢٤ بقلم هـ . لاوست .
- (٣٤) الكواكبي : طبائع الاستبداد ، ص ٣٣-٢٤ .
- (٣٥) الكواكبي ، طبائع الاستبداد المقدمة ص ٢ مقدمة المؤلف .
- (٣٦) الكواكبي ام القرى ، ص ٣ ٢ .
- (٣٧) الكواكبي ، ام القرى ، ص ٢٤ .
- (٣٨) الكواكبي ، ام القرى ، ص ٢٥ .
- (٣٩) الكواكبي ام القرى ص ٢٢ .
- (٤٠) الكواكبي ام القرى ص ٢ ٤ .
- (٤١) لقد اورد الدكتور احمد خلف الله الكثير من الاستشهادات التي تدور حول الصلة بين الدين والحكم
المطلق ، والمشاركة بين الدين والسياسة ، والحاكي الظالم ورجل الدين المنافق يمكن الرجوع
اليها من ص ٥٠ ص ٦٠ في كتابه الكواكبي حياته واراؤه .
- (٤٢) الكواكبي ام القرى ص ١٢-١٤ ومن هنا ينتقد الكواكبي بل ويرفض تقليد الناشئة للغرب ، والتخلي
عن العادات والقيم المتعارف عليها في بلادنا .
- (٤٣) الكواكبي : ام القرى ص ٦٢ .
- (٤٤) انظر : Samra, C.M., and W., Ideas in Syrian M. writers, p. 187.
- (٤٥) الكواكبي ام القرى ص ١٩٣ .
- (٤٦) الكواكبي ام القرى ص ٢٠٧ .
- لقد تنبه الكثير ، الى هذه الناحية وهي تمييز الكواكبي للعصر العربي راجع مثلا :
انور الجندى ، اعلام واصحاب اعلام ، ص ٢٧ ٢ ، د. محمد احمد خلف الله ، الكواكبي : حياته
واراؤه ، ص ١٠٧ وما بعدها .
- وانظر :
- al - Husri, Khaldoun Sati, Three Reformers, a Study in Modern Arab
Political Thought, p.85.
- Al, Husri , op. cit., p. 92.
- (٤٧)
- (٤٨) الكواكبي ، طبائع الاستبداد ، ص ١٠٢ .

- (٤٩) الكواكبي ، طبائع الاستبداد ، ص ١١٠-١١١ .
- (٥٠) الكواكبي ، طبائع الاستبداد ، ص ١٢٥ .
- (٥١) انظر هذه المباحث كاملة في : طبائع الاستبداد ، ص ١٢٥-١٣٠ وقد اشرت الى عناوينها في صفحة سابقة من هذا البحث .
- (٥٢) الكواكبي ، طبائع الاستبداد ص ٩٨ . يشير الدكتور فهمي جدمان الى ذلك في كتابه : اسس التقدم عند مفكري الاسلام في العالم العربي الحديث ، ويفسر مفهوم التقدم الذي يعتمد عليه الكتاب ، بنفس المفهوم الذي اوردته الكواكبي . انظر ص ٢٩٦ ط ١ .
- (٥٣) ويشير الشيخ رشيد رضا في المنار ٥/٢٧٩ : وقد كنا على وفاء معه في اكثر مسائل الاصلاح ، حتى ان صاحب الدولة مختار باشا الفازي ، اتهمنا بتأليف الكتاب عندما اطلع عليه ، وربما نشي الى المسائل التي خالفنا فيها الفقيه في هامش الكتاب عند طبعه ، واهمها الفصل بين السلطتين الدينية والسياسية .
- انظر : د. سامي الدهان ، هامش ص ٥٦ .
- (٥٤) المولى الرومي هو من اهل القسطنطينية الذين حرم عليهم سياسة التلفظ بكلمات : حرية وجمعية ووطن ومراد ورشاد وخلافة وخلع ومبعوث ومعتوه ومختل ، . . الى نحو ذلك من الالفاظ التي تمس سياسة الوهم .
- (٥٥) تطرق الدكتور فهمي جدمان في ص ٢٩٠ وما بعدها الى الحرية : اسس التقدم .
- (٥٦) الكواكبي ، ام القرى ، ص ٢٨-٢٩ .
- (٥٧) الكواكبي ، طبائع الاستبداد ، ص ١٠٢ .
- (٥٨) الكواكبي ، ام القرى ، ص ٤٦-٤٧ .
- (٥٩) الكواكبي ، طبائع الاستبداد ، ص ٥٢ .
- (٦٠) الكواكبي ، طبائع الاستبداد ، ص ٥٤ .
- لقد اشار الدكتور احمد خلف الله في كتابه : الكواكبي حياته واراؤه ، ص ٨٨ وما بعدها ، الى الاسرة واهمية تعليم المرأة .
- (٦١) الكواكبي ، طبائع الاستبداد ، ص ٥٥ .
- (٦٢) الكواكبي ، طبائع الاستبداد ، ص ٦٥ .
- (٦٣) الكواكبي ، طبائع الاستبداد ، ص ٥٨ .
- (٦٤) الكواكبي ، طبائع الاستبداد ، ص ٥٧ .
- (٦٥) الكواكبي ، طبائع الاستبداد ، ص ٥٦ .
- (٦٦) الكواكبي ، نفس المصدر .
- (٦٧) الكواكبي ، طبائع الاستبداد ، ص ٥٨-٦٠ .
- (٦٨) الكواكبي طبائع الاستبداد ، ص ٥٠ .

- (٦٩) الكواكبي ، طبائع الاستبداد ، ص ٩ .
- (٧٠) الكواكبي ، طبائع الاستبداد ص ٨
- (٧١) الكواكبي ، طبائع الاستبداد ص ٨ .
- (٧٢) الكواكبي المصدر السابق ص ٨ .
- (٧٣) الكواكبي ، طبائع الاستبداد ، ص ١١ .
- (٧٤) راجع هذه الاسباب كاملة في كتاب طبائع الاستبداد من ص ١٢٨-١٤٩ .
- (٧٥) الكواكبي ، ام القرى ، ص ١٣٩ - ١٤٠ .
- (٧٦) لم تكن محاولة التتريك ظاهرة بشكل واضح في هذه الفترة ، ولكن الجمعيات التركية السرية كانت قائمة ونشطة ، ولكنها ظهرت بشكل علني بعد اعلان اعادة المشروطية (الدستور) ١٩٠٨
- (٧٧) راجع بحثنا حول : تطور مفهوم اللامركزية ، مجلة دراسات تاريخية، المعدادان ١٢، ١٤، ص ١٢٨-١٨٥
- (٧٨) لقد تأثر حزب العهد السري بكتابات الكواكبي وطالب بقيام دولة اتحادية بين العرب والترك يحمل فيها السلطان العثماني التاج المزدوج كما هو الحال بين النمسا والمجر .
- (٧٩) الكواكبي ، ام القرى ، ص ١٤٢ .
- (٨٠) الكواكبي ، ام القرى ، ص ١٤٥ .
- (٨١) الكواكبي ، ام القرى ٢٠٧-٢٠٩ .
- (٨٢) هناك من يربط بين افكار الكواكبي وافكار الكاتب الايطالي « فيثوريو الفيري » ALFIERI في مقالاته عن الاستبداد ، وبين افكاره وافكار جان جاك روسو في العقد الاجتماعي ، وهذا الموضوع بحاجة الى دراسة مقارنة اكثر شمولاً من هذه الدراسة .
- (٨٣) سنشير في دراسة لاحقة الى تجاوب مؤسسي جمعية العربية الفتاة ، مع نداءات الكواكبي ، والى محاولتهم الاستفادة من اهداف ذلك الاهداء .

أوضاع الفلاحين في دمشق وصناعاتهم

١١٨٦ - ١٢٥٦ هـ / ١٧٧٢ - ١٨٤٠ م

د. يوسف جميل نعيمة

جامعة دمشق

شكلت هذه الفترة ارهاصا لمتغيرات هامة في بلاد الشام والممتلكات العثمانية بفعل ما طرا على الساحتين الدولية والداخلية من أحداث ، الامر الذي انعكس بشكل سلبي على مدن بلاد الشام وريفها . الا ان الفلاحين ، كانوا اكثر فئات المجتمع الشامي تعرضا للابتزاز والظلم ، في وقت غابت فيه سلطة القوانين وحل محلها سلطان القوة .

عاش مجتمع بلاد الشام حياة زراعية قامت على خدمته فيها بعض الحرف وانواع من التجارة ، وشكل الفلاحون القاعدة العريضة في الهرم الاجتماعي معتمدين على الزراعة وتربية المواشي . استقر الفلاحون في دمشق وضواحيها واريافها ، وفي المناطق الجبلية المحيطة بها ، وفي السهول الجنوبية . وقامت تجمعاتهم في غالب الاحوال على اصول قبلية عشائرية او اسروية ، ضمن القرية الواحدة او القرى المجاورة او على اساس طائفي ، وفي القليل النادر على اساس عرقية ، كفلاحي حتيقة التركمان في غوطة دمشق او السريان في جبعين ومعلولا او الاكراد في ربض ركن الدين وقرتي قلدون والزبداني، وكان لكل قرية شيخها، كما كان للبساتنة شيخ يدعى « شيخ البساتنة » . كان شيخ القرية رئيس الاسرة الاكثر قوة ونفوذا فيها ، ونظرتة الى الفلاحين نظرة السيد السالب لراحتهم فضلا عن اموالهم ، بطرق واساليب مختلفة (١) ، هذا ان ارضى سادته من الاقطاعيين وهيئة الحكام التابع لهم ، كالمقدمين والاعيان او القضاة والمفتين او الاغوات ، الذين كانوا يضمنون مال الميري من الدولة بالمزاد العلني ،

ويحاولون وبشتى الوسائل جمع اضعاف ما دفعوه للدولة من جيوب الفلاحين ، فيفتعلون الخلافات بين مشايخ القرى وغرمائهم ، ويذكون نار الفتنة فيما بينهم ، ويعزلون شيخ الضيعة بغية ابتزاز الاموال منه ومن غريمه الطامع للمشيخة (٢) .

وجرت العادة على ان يترأس شيوخ القرى شخص يطلق عليه اسم « شيخ مشايخ القرى او المقاطعة » وامترفت الدولة العثمانية بسلطته . وكان هذا على الغالب من الاقطاعيين او من رؤساء القبائل القاطنة في تلك المقاطعة ، او من زعماء السباهية او رجال الدين او الانكشارية ، واحيانا احد مشايخ القرى ، وكان يقوم بجمع الضرائب للدولة من مشايخ القرى التابعة له تسانده في ذلك قوات مسلحة خاصة به (٣) ، كما اتخذ له معاونين ووكلاء اطلق عليهم اسم مشايخ تعزيزا لهم ، وفرض عليهم تأدية مبالغ محددة دون ان يسألهم عن أعمالهم ، فأطلقوا لمطامعهم العنان في مص جهد الشعب بلا شفقة واستبعدوا الفلاحين واتوا بالمنكرات وجاروا ، والفلاحون في طاعة عمياء (٤) .

فئات الفلاحين : كان الفلاحون اكثر عددا من بقية فئات سكان بلاد الشام الا ان نفوذهم السياسي كان شبه معدوم ، ولذلك جاؤوا في المرتبة الدنيا من السلم الاجتماعي ، ويمكن تصنيفهم انذاك الى فئات ، ادناها فئة الفلاحين الخاضعين لغير الاقطاع مباشرة ، وهم افقر الفئات ، حتى ان زواجهم خضع لموافقة الاغا او البيك او الشيخ ، والفئة الثانية هم العمال الزراعيون الذين كان دابهم التجوال للحصول على لقمة العيش انى وجدت ، والثالثة هم الفلاحون الفقراء الذين كانوا يملكون قطعة ارض صغيرة لا تكفيهم للحصول على العيش ، فيضطرون لتقديم خدماتهم لاغنياء الفلاحين ، او يعملون في المدينة أعمالا مختلفة . اما الفئة الرابعة فهم الفلاحون متوسطو الحال ، الذين ملكوا قطعة من الارض تغل عليهم ما يكفي لتأمين حياة متواضعة في القرية . والفئة الخامسة من الفلاحين هي فئة الفلاحين الاغنياء ، وكانوا يقومون بتشغيل فلاحين آخرين في أرضهم وتحت اشرافهم مباشرة ، وهم غير منتجين ولكنهم لا يعرفون التبذير . والفئة السادسة هي فئة فلاحى الدولة الذين عاشوا في قلق دائم ، الا ان احوالهم المادية كانت احسن من احوال الفلاحين الذين عملوا لدى الاقطاعيين (٥) .

ملكية الارض : شكلت ملكية الارض ونوعيتها الدعامة الاساسية للوضع الاجتماعي لفئة الفلاحين ، ومن هنا تبدو أهمية التعرف على انواع الملكية واشكالها ، وعلى ما كان منها تحت تصرف الفلاحين مباشرة وعلى مساحاتها ، وفي ذلك شيء من الصعوبة نظرا لتعدد نظام الملكية واختلافه من مقاطعة لاخرى في ولاية الشام من جهة ،

وعدم توافر احصاءات دقيقة في هذا الميدان من جهة أخرى ، ومع ذلك يمكن رصد أربعة اصناف رئيسة من الملكية وهي :

١ - اراضي الدولة او الاراضي الاميرية او الميرية ، وكانت تعتبر ملكا للسلطان (امير المؤمنين) .

٢ - اراضي الاوقاف ، وهي التي حبست على وجوه خيرية عديدة ، كان منها الاسلامي والمسيحي واليهودي ، كما وجدت اوقاف ذرية ، حبست على ذرية الواقف .

٣ - اراضي الملكية ، وكانت قليلة اذا ماقيست بسابقاتها من الملكيات ، ولصاحبها حق التصرف بها بيعا وشراء واهداء ، وكانت الدولة تتقاضى عنها ضريبة العشر والخراج ، وتجبي الضريبة منها على اساس الفلة ، وتسمى في مثل هذه الحال (خراجا مقسما) ، اوعلى اساس المساحة وتسمى (خراجا موظفا) (٦) .

٤ - والنوع الرابع من الاراضي هو (ارض الحوز) وهي غير عشرية ولا خراجية وهي التي توفي اربابها عنها بلا وارث وآلت الى بيت المال ، ويجوز للامام دفعها للزراع باحدى طريقتين اما باقامتهم مقام الملاك في الزراعة وبالتالي يدفعون الخراج عنها ، او بتأجيرها لهم بقدر الخراج ، فيكون المأجور من حق الامام خراجا ، فان كان دراهم فهو خراج موظف ، وان كان بعضه ثمرا فهو خراج مقاسمة (٧) . وينتج عن تأجير مثل هذه الاراضي اقامة المستأجرين بيوتا عليها ، او زرعهم شجرا فيها بقيت اصوله ، واطلق على ذلك تعبير (القمامة والكراب) ولقد استفتي في شأنه عدد من مفتي دمشق في هذه الفترة (٨) .

الا ان اوسع المساحات من الاراضي الزراعية كانت تنضوي تحت نظام الاقطاع . ولعجز الاقطاعيين عن تلبية حاجات الدولة في المجالات العسكرية اصرروا على الاعتماد على صنف جديد من الجند خصصت لهم الرواتب . وكان لابد من توفير المال لهؤلاء ، لذلك فرض العثمانيون نظام الالتزام للضرائب الميرية بتحصيلها من الاراضي . الا ان هذا النظام فسد بدوره نظرا لما سببه من مظالم للفلاحين ، ونتج عنه تقلص في المساحات المزروعة بسبب هجرة الفلاحين منها ، فتناقص الانتاج الزراعي وتناقصت معه واردات الدولة ، مما اضطرها لاتباع نظام ثالث جديد في هذا المجال وهو نظام « المالكانة » بحيث تعطي للاقطاعي حقا في استثمار الاراضي الميرية مدى الحياة وذلك من اجل رفع المظالم عن الفلاحين والسمي لاستزراع الاراضي وزيادة الانتاج . ويلاحظ ان المالكانات في دمشق قد خصصت لزعماء الجند والسباهية ورجال الدين وغيرهم ،

فمثلا حسين الموصللي المتوفى سنة ١١٥٢ هـ / ١٧٢٩ م كان من زعماء السباهية وله عدة اقطاعات في القرى (٩) ، ثم درويش اغة اليرلية في دمشق المولود سنة ١١٢٦ هـ / ١٧١٥ م تولى بطريقة المالكانة قرية معلولا النصاري وقرية غزة وقرية قب الياس (١٠) ، كما ان غيضة السلطانية بناحية المرج من غوطة دمشق كانت مالكانة لمحمد خليل افندي الصديقي (١١) . وكان لعلي العجلاني (وهو من اشراف دمشق) اقطاعات وقرى بطريقة المالكانة (١٢) ، ثم شاكر العمري الحنفي المذهب الدمشقي المولود ١١٤٠ هـ / ١٧٢٧ م والذي كان مدرسا ، حصل على رتبة التمثلي وتولى قضاء جبلة بطريق الاربلق كما تولى القسمة العسكرية ونيابة محكمة الباب في دمشق مرارا رست عليه قرية بسيمة من نواحي دمشق بطريقة المالكانة (١٣) .

وكان اصحاب المالكانات يقيمون في دمشق أو في الاستانة ، ويلزمون مالكاناتهم لاناس اخرين مقابل مبلغ من المال وعقد يكتب في احدى محاكم دمشق . وعلى سبيل المثال كان لاحمد بيك بن حافظ علي باشا مالكانات كفر بطنة وحرزمة ، وكانت هذه المالكانات بتلزم حافظ آغا بموجب شرطنامة مؤرخة في ١٢٥١ هـ / ١٨٢٦ م . ولما توفي الملتزم المذكور لزمّت لحسين آغا كمخلي الشهير بالبلطجي من طرف الشرع الشريف ، ودفع بدل الالتزام على المنوال السابق لتركة المرحوم حافظ آغا وقدره /٦٥٠٠/ قرش وجمعت اليه جميع ما يتصرف حافظ آغا من ملك المالكانة على جري المادة والقانون (١٤) . وكانت مالكانة عين التينة للحاج سليمان افندي العلمي « كلار اميني » الذي كان يقيم في الاستانة ، وكان وكيله عليها في دمشق عبد الرزاق قباقيبي (١٥) .

وعينت الدولة على القرى موظفين مثل الصوباشي والاستاذ . اما الصوباشي فكان له على كل قرية عدد من غرائر الحنطة والشعير نظير مكبول الشوبصة ، ففي سنة ١٢١٧ هـ مثلا كان على قرية المماردة نظير مكبول الشوبصة ٨ غرائر حنطة و ١٧ غرارة شعير (١٦) . اما منصب الاستاذ فكان موروثا من عهد الاقطاع في زمن المماليك وبقي في العهد العثماني سائدا ، الا اننا لا نعرف مهامه بدقة وجل ما علمناه انه كان يقيم في دمشق بدلا من قرى المالكانات ، وتجري المعاملات المتعلقة بالمالكانة بمعرفته وبحضوره في محاكم دمشق . ومن اساتذة هذه المالكانات التابعة لدمشق استاذ قرية الجعيدية (١٧) وعين التينة (١٨) واستاذ جبعدين (١٩) والبلاية (٢٠) واستاذ حوش عرب (٢١) بالقرب من قرية العال بالجولان . ثم استاذ قرية سكا واستاذ زبددين واستاذ الصنمين واستاذ قرية حلبون (٢٢) ، ثم استاذ قرية الخناصر وكامد اللوز بالبقاع (٢٣) .

طرق المزارعة : تنوعت طرق المزارعة واختلف استغلال الفلاحين من منطقة

لاخرى ، فكان على الزراع منهم خدمة الارض وحرثها وزرعها وحصد محصولها ودرسها وذريرها ، ولهم على ذلك ثلث المحصول (٢٤) . وكانت طريقة المربعة اكثر اشكال المزارعة انتشارا وفيها يقدم الاقطاعي او المعلم « البقر والبدارات والميري وجميع المصاريف والفلاح يقدم تعبته فقط وياخذ ربع الرزق من جميع الاشياء من حبوب وتوتون وحرير وقطن وذرة وسمسم وغير ذلك ولهذا اسمه مرابع ويعني شريكه في الربيع» (٢٥) . ومن اشكال المزارعة أيضا طريقة الشراكة الحموية وهي على انواع اولها : ان يقدم المالك السكن والارض في حين يقدم الفلاح العمل ، وتقسم النفقات الاخرى من بذار وغيره مثالثة ، وبعد دفع الضرائب وغيرها من النفقات يقسم المحصول مناصفة . والطريقة الثانية « يضع المعلم النصف والفلاح النصف الاخر من جميع الامور من الميري الى كل مصروف ويقتسم الرزق مناصفة وبعد القسمة يأخذ الفلاح الربع من حصة الشركة نظير اتعابه عليها» (٢٦) . اما الثالثة « المعلم يحط كل شيء من كيسه من غير الميري الى شيخ الضيعة عليها مبلغ معلوم يطلب من الشيخ . والشيخ بدوره يطلبه من الرعية . وقبل تقسيم الرزق فيما بين الفلاح ومعلمه يأخذ الشيخ الحاصل من جميع الذي يطلع من الستة واحد وفي محلات اخرى من الخمسة واحد وهذا يتبع الاراضي الجيدات والخسعات» . والنوع الرابع والاخير في الجبال والمقاطعات المحيطة بدمشق « فاذا اراد احد يضمن ضيعة من المقدم فلا يتكلف الى شيء كليا ولا يحط الفلاح شيء كليا ، فقط عليه ان يدفع الميري المرتب على الضيعة من الفلاحين ويأخذ من الحنطة والشعير وكامل الحبوب الربع ومن الحرير والتوتون النصف ، ومن الزيتون والفواكه كلها وله على الفلاحين اشيا راتبة اربعة مرات في السنة زخاير معلومة كبار من فحم وخطب وخواريف وجاج وبيض ولبن وحليب وهكذا اشيا فهذه ظاهرة لكن دائما متصلة الزخاير الخدمات الى بيت الضامن ، ولكن لا يقدر الضامن بعمل حركات مثلما يصير في الضيع الساحلي ، مثل حكاية العرايس خوفة من المقدم ، بل يقتضي يمشي بكل ضبط مع الفلاح» (٢٧) .

وكانت نسبة الميري في قرى الفوطة ١٢٪ ، في حين كانت في قرى حوران تقدر بحسب الفدان . وهكذا كانت القرية تدفع اثني عشر كيسا للميري ، فاذا كان هناك ثلاثون زوجا من الثيران فان صاحب كل زوج من الثيران يدفع جزءا من ثلاثين . وكل قرية مسعرة بالنسبة لضريبة الميري في سجل ضريبة الارض الموجودة لدى الباشا او الدفتر دار بمبلغ محدد ، يتناسب مع عدد سكان القرية ، وفي كل ثاني او ثالث ربيع كانت اراضي القرية تقاس بحبال طويلة ، وعندما يترك اي فلاح القرية يوزع شيخ القرية المبلغ المترتب عليه على مجموع سكانها . وكان الفلاحون يتحملون الضريبة المترتبة على الافدنة المزروعة في ذلك العام كاملة . ويمكن ان تزداد او تنقص كمية المال فيما اذا كانت الثيران قوية او ضعيفة . اما اذا قلت كمية البذار المزروعة او الارض

التي زرعت بواسطة اصحابها ، فان كل ذلك لا يؤخذ بعين الاعتبار ولهذا كان على الفلاح أن يحوي قطيعا قويا من الماشية وعليه أن يحرق ما يستطيع من الأرض ، فالبعض كان يزرع ٦ غرارات من القمح أو الشعير في الفدان الواحد ، والبعض الآخر يزرع ٥ غرارات أو ٧ غرارات . أما حدود الحقول فكانت تحدد بواسطة حجارة ضخمة . وكان الميري يدفع عينا أو نقدا ، بحسب رغبة الباشا ، إلا أن الفلاحين كانوا يفضلون دفعه نقدا لأنهم الرابحون بذلك .

وأما قرى جبل حوران فكانت تدفع مغارم أكثر من فلاحي سهل حوران المحيط بهم ، لأنهم كانوا يدفعون بالإضافة إلى الميري الخوات للبدو . فمثلا دفعت قرية (عمارة) عن الفدان الواحد ١٥٠ قرشا ، وقرية أزرع من حوران دفعت ١٨٠ قرشا . وكانت بعض قرى سهل حوران تدفع ١٢٠ قرشا . وفي عام ١٨١٢ وصل ريع الفدان الواحد إلى ٥٠٠ قرش (٢٨) .

— ولما كان الانتاج الزراعي في بلاد الشام جماعيا ، كان على الفلاحين أن ينتجوا ما يكفيهم لسد حاجاتهم اليومية من جهة ، ولدفع الضرائب للدولة ، والاتاوات لرجالها والبدو في المناطق المتاخمة للبادية ، من جهة أخرى .

الري : تفاوتت أهمية ملكية الأرض في بلاد الشام بحسب نوعيتها وطرق سقايتها . فقد اعتمد فلاحو دمشق في زراعتهم على مياه بردى وبعض الينابيع الأخرى ، في حين اعتمد الآخرون ، خارج منطقة الغوطة وفي المناطق الجنوبية على وجه الخصوص ، على ما تجود به السماء من الأمطار . وفي الأراضي البعلية ، كأراضي حوران مثلا ، كان لشح السماء في بعض السنين العجاف ، وانتشار أسراب الجراد والفئران الحقلية والأمراض البائية ، والصقيع والسيول في بعض الأحيان ، أسوأ الأثر على الفلاح الزارع في تلك الأراضي ، وإذا ما حاول الفلاح مجابهة تلك الآفات والأدواء ، فبأساليب لم تستطع في أحسن السنوات ، على الصمود لحالات الطوارئ الاجتماعية والاقتصادية والعسكرية التي كانت تجابهه .

أما في الأراضي المروية ، وهذا ينطبق على فلاحي غوطة دمشق ، فقد اختلف حالهم بعض الشيء عن حالة بقية فلاحي صناعق الولاية ، لكون أراضيهم مروية بمياه دائمة من بردى وفروعه المختلفة ومن بعض الينابيع ، الأمر الذي مكنهم من زراعة المناطق الأخرى خارج الغوطة . ولقد زرع فلاحو الغوطة أراضيهم مرتين في السنة واستخدموا في ذلك أساليب الزراعة الحثيثة الموروثة منذ أجيال ، ولعب التشجير المثمر دورا في رفع سوية دخل الفلاح المادية ، على عكس المناطق البعلية .

ومع ذلك فقد لا قوا كغيرهم من الفلاحين العنت والارهاق حتى اضطروا لبيع اراضيهم بابخس الاثمان* . وقد امتلك الفلاحون في غوطة دمشق مساحات محدودة من الارض، وكان منهم الحراس او الاجراء . واستخدم الفلاحون البغال والجمال والحمير والبقر في جر المحراث الروماني القديم ، وكانوا يسوقونها بعد الانتهاء من الحراثة الى المعالف الخاصة بها حيث يقدم لها التبن والكرسنة او الفول او الجلبان، والماء لسقايتها . وكان لبعض هؤلاء اجر سنوي على ذلك .

وكان من الفلاحين (الشداد) او المستاجر او المزارع للحرث ، ومنهم الخولي . وهذا الاخير عمل لدى شداد الفلاحة او مستاجرها وهو ذو خبرة ومعرفة بسائر امور الفلاحة ، وكان يلاحظ مزاروعات سيده الشداد ، ويقوم بالتفتيش على اشجاره خوفا من التكسير ويراقب المربعين كما يستأجر الفعلة ايام الزبر والعزق والتجبير والتعشيب والتنكيش وينوب عن سيده في اجورهم ، ويستلم قطعة خشبية محفورة يطلق عليها اسم (الروشيم) منقوش عليها اسم سيده او كلمة ياكريم يا حافظ او بركة . فيرشم بها اكوام الحنطة او الحبوب الاخرى (٢٩) . فاذا ما سرق أي شيء من هذه الكومة ينفرط عقدها ويختفي الرشم فيكشف ذلك ويعاقب الفلاح الذي قام بالسرقة .

انظمة الري : اتبع الفلاحون في غوطة دمشق نظاما دقيقا في توزيع مياه بردي ، فكان لكل قرية في الغوطة ايام مخصصة تحصل فيها على حصتها من المياه ، وتعرف بالعدان . ولتحافظ كل قرية على عدانها ، عينت اشخاصا لهذه الغاية ، وكان يسمى احدهم « الشاوي » (٣٠) ولهم اجرة معلومة يتقاضونها سنويا ، وكانت مهمتهم تسريب المياه بنسب معينة ومنع أي اعتداء على هذه النسبة ، وهم الذين يحددون ادوار سوق المياه من قرية لاخرى . وقد كلف شيخ البساتنة والشوباصي بتحديد البساتين وشهدا على بيعها في المحاكم (٣١) . وكان على كل نهر عدد من (الماصات) لصرف المياه الى مجار فرعية بنسب معينة تقدر بالقراريط ، لتروي بدورها البساتين من خلال الطواريق . ويقسم الطاروق الى شعاب (مفردها شعب) (٣٢) . ولقد استخدم فلاحو الغوطة الذين لا تقع اراضيهم تحت مياه الانهار ، او الذين لا تصل اليهم مياهها في فترات التحريق من السنة ، مياه الابار لري اراضيهم ، واستعانوا على رفع مياهها بالنواعير العادية او الفارسية التي تديرها الحيوانات ، واستخدموا في تسميد اراضيهم

* يقول محمد كرد علي : حدثنا الشيوخ .. ان اهل الغوطة كانوا يلقون من العنت والارهاق الشيء الكثير . فاذا دقت الطبله وجاءت سرية من الجند لتحصيل المال المطلوب منهم ، وربما اقام الخمسون جنديا مع خيولهم في القرية بضعة ايام حتى يتيسر جمع مال الدولة وبذلك كره الناس امتلاك الارض فنزل ثمن الفدان الى بضع مئات من القروش ، وربما كان الحقل يباع احيانا بلوح من الصابون او اوقية من التبنالك .. انظر لوتسكي ، ص ١٢٥ .

القمامة التي يشترونها من كناسي القمامة ومن بعض الخانات في دمشق . واستخدم فلاحو القلمون الاقنية القديمة في مناطقهم ، وهي عبارة عن ابار متتالية تفصل بينها مسافات محددة بحيث تسمح المسافة لمياه البئر الاولى بالتسرب الى البئر الثانية تحت الارض وهكذا ، الى ان تخرج في النهاية على شكل نبع ماء متدفق يروي الاراضي التي تقع تحت منسوبه بالراحة . وكان يشرف على هذه القنوات والابار في القلمون شخص يطلق عليه (السواط) ويتناول اجرا سنويا على ذلك (٣٣) .

الفلاحون والاضاع السياسية : ارتبط وضع الفلاحين بالظروف السياسية لولاية دمشق ، وعلى ضوء ذلك يمكن رصد مرحلتين متميزتين : تمتد اولاهما من بداية القرن الثامن عشر الى نهاية الستينات منه ، لتبدأ المرحلة الثانية ، والتي تمتد الى الاربعينات من القرن التاسع عشر .

ففي المرحلة الاولى كلف ولاية دمشق بامرة الحج (١١٤٠ هـ / ١٧٠٩ م) وتجهيز قافلته بما تحتاجه من مواد تموينية ، وكان ذلك يعتمد على ما تغله ارض الولاية . ولضمان زرع الارض كان لابد من توفير الامن للفلاح وتوفير اسباب الاستقرار له . ولقد تمكن ولاية دمشق الاقوياء ، الذين كانوا بمعظمهم من ال العظم ، والذين طالت مدة بقائهم في مناصبهم ، ان يحققوا ذلك بعض الشيء ، وان يدفعوا غارات البدو واعتداءات الجند عن الفلاحين . ويقول البديري ان أحد الولاة من هذه الاسرة ، وهو اسعد باشا العظم « اذهب الكبار والصفار وعظم هيبتة في البراري والقفار » (٣٤) .

وتستهل المرحلة الثانية بانتهاء فترة ولاية دمشق الاقوياء الذين اعقبهم ولاية كان للاحداث الخارجية والداخلية دورها في عجزهم عن تحقيق ما حققه السابقون للفلاحين من الامن والاستقرار ، فسادت الفوضى وانعدم الامن وزاد تعدي الاقوياء من الجند والبدو والهيئة الحاكمة على الفلاحين ، وعجز الولاة عن التصدي للحركة الوهابية التي اشتد ساعدها في الجزيرة العربية وسيطرت على الاماكن المقدسة في الحجاز ومنعت الحجاج من الدخول اليها ، فانصب جام غضب الدولة العثمانية على ولاية دمشق الذين عجزوا عن تسيير قافلة الحج وحمايتها فقصرت لذلك مدة بقائهم في مناصبهم ، وعمت الفوضى وزاد التعدي على الفلاحين . ففي عام ١٢١٨ هـ / ١٨٠٤ م مثلاً عندما خرج السكبان والدلائية من دمشق نهبوا في طريقهم « قرى المزة والمعضمية والجديدة وعرطوز . . وهكذا جميع البلاد هلي في طريقهم من حمير وخيل واواصي وغير ذلك » (٣٥) . وفي العام التالي قام جند والي دمشق ابراهيم باشا بعد عودته من الحج بنهب القرى (٣٦) . وكان الجند يتصرفون مع الفلاحين كسادة مستبدين فيطلبون الخبز والقهوة والتبغ واللحم ويدبحون الدواجن ويرافق ذلك الاهانات والاذلال . فكان

سيفهم مسلطا فوق رقاب الفلاحين يجبرونهم على السكوت على مظالمهم (٢٧) ، وكثيرا ما اجبروا فلاحى الغوطة المحيطة بدمشق للجوء الى اسوارها خوفا من اعتدائهم . فمثلا عندما جرى الصدام بين والى دمشق ووالى صيدا في عام ١٢٢٥هـ / ١٨١٠ - ١٨١١م « انتقلت اهل القرى والميدان الى داخل الصور خوفا من النهب والحرق » (٢٨) .

ولم يكن مصدر المتاعب والمظالم التي تعرض لها الفلاحون من عناصر الهيئـة الحاكمة وزبانيتهـا فحسب ، بل اسهم بعض تجار دمشق بدورهم في هذه المظالم ، فكانوا يستغلون وضع الفلاح وحاجته للمال لشراء البذار والحيوانات او لدفع غائلة الجوع عن أسرته في بعض السنين . ولم يخفف نظام المالكـة التي اقامته الدولة في نهاية القرن السابع عشر الابعاء التي ارهقت الفلاحين ، لان هذا النظام لم يبدل طبيعة العلاقات الزراعية القائمة على الاستغلال ، واجبر الفلاحون من جهة اخرى على دفع اموال الميري على الاشهر القمرية في حين تنضج محاصيلهم حسب الاشهر الشمسية ، الامر الذي دفعهم للاستدانة من تجار دمشق بفائدة تراوح بين ٨ و ١٠ ٪ . وكان ابرز تجار دمشق الذين سلفوا الاموال للفلاحين بالفائدة خليل اغا بن عبد الرزاق المسودن ، الذي قام في ١٢٠٣ هـ بتسليف اهالي قرية سكا ٩٦٨٦ قرشا فضة صحيحة معاملة شامية ، وجاء تفصيل ذلك في سجل المحكمة الكبرى بدمشق على الشكل التالي : ٨٣٣٠ قرشا دين شرعي ، ١٦٦٦ قرشا ثمن بن حجازي وتم ذلك في المحكمة المذكورة ، وشهد شاهدان على ذلك (٢٩) . وفي الحقيقة لم يكن الفلاحون بحاجة لمثل هذه الكمية من البن التي يدعي شراءهم لها ، بل كان ذلك حتى لا تذكر الفائدة امام القاضي او تثبت في سجلات المحكمة لانها محرمة ، مما دفع المرايين لاتباع مثل هذه الحيل للحصول على الفائدة . وقد لعبت السنون العجاف دورها في اجبار الفلاح على الاستدانة بالفائدة ، فكانت تتلقفه ايادي المرايين وبعض افراد الهيئـة الحاكمة الثرية ليسلفوه على مواسمه فلا يبقى له « بعد عذابه في الفلاحة والزراعة والحصاد والدراس وغير ذلك من المشاق العظيمة ودفع الضرائب للدولة من غلاله سوى النذر اليسير . وحتى الاوزان لم تسلم من تلاعب التاجر عندما يستلم الحبوب منه فتصبح عشرة الفلاح تسعة ، واذا ما اشترى الفلاح الغلال من التاجر تصبح احدى عشر ، فيرجع الفلاح المسكين صفر اليدين بعد اتعابه طول السنة وتعاد الكرة مرة اخرى وهكذا » (٤٠) . ويذكر الرحالة فولني الذي زار بلاد الشام في مطلع القرن التاسع عشر ان المرايين كانوا يفرضون على الفلاحين نسبة من الفوائد تتراوح ما بين ١٢ - ١٣ ٪ . فاصبحت حالة الفلاح « بائسة واصبح مأكله الدرة والشعير مع البصل والعدس . . واذا ما توفر له الزيت والشحم فيعتبر ذلك من الماكل الشهية » (٤١) . اما ضريبة الاعشار فكانت اشد الضرائب وطأة على الفلاح لما اضيف اليها من الزوائد للسماسة والملتزمين وارباب النفوذ . وكانت الاعشار تجبى سواء اثمرت ارضه ام لم تثمر ، بالاضافة الى

دفعه ضريبة الخراج التي بقيت على الفلاحين المسلمين الى ان الغيت في ٧ ايار ١٨٥٥ م (٤٢) .

ولقد استطاع ضامنو الاعشار من الدولة ان يجمعوا من الفلاحين نصف حاصلاتهم (٤٣) . اما سيارفة اليهود فقد لعبوا دورا ادهى في ظلم الفلاحين ، اذ استطاعوا ان يملكوا حتى نهاية منتصف القرن التاسع عشر جزءا كبيرا من اراضي القوطة والربوة والمزة (٤٤) باستخدامهم طرقا ملتوية للحصول على الاموال . فمثلا عندما كانوا يكلفون بتمويل قافلة الحج وجنود حراستها ، كانوا ينصبون حبالهم لابتزاز اموال الفلاحين فيقومون بتخفيض سعر النقد قبل موعد خروج قافلة الحج وكان امر ذلك بيدهم بطبيعة عملهم ، ثم يسلفون جنود حراسة قافلة الحج على شكل سندات تؤخذ منهم على حساب الضرائب التي ستجمع من الفلاحين من اموال الميري بعد نضج محاصيلهم . ولحاجة الجنود الماسة الى المال يقوم سماسرة اليهود الذين كانوا يترصدونهم خارج السرايا فيشترون منهم هذه السندات مع اخذهم عمولة على ذلك ، على ان يحصل هؤلاء السماسرة على اموال السندات المشتراة فيما بعد من الفلاحين . ويقوم الصيارفة اليهود بالتواطؤ مع ابناء دينهم السماسرة برفع سعر النقد ، قبل جمع اموال الميري من الفلاحين ، فيضطر الفلاحون عند تسديد ما عليهم من اموال الميري للدولة للدفع بالسعر المرتفع ، ويجني اليهود بذلك الارباح الطائلة من هذه العمليات . ولا غرابة اذا ما اصبح بعض اليهود اغنى سكان دمشق (٤٥) واضحى الفلاحون اشقى فئات الهيئة المحكومة وارتضوا الاستعباد على ان يكونوا احرارا مالكين للارض وذلك تخلصا من الابعاء والضرائب الثقيلة التي لا تتحملها نفس بشرية (٤٦) ، فهجر العديد من الفلاحين قراهم حتى اصبح تدهور الانتاج الزراعي مشكلة خطيرة مما دفع بالسلطات العثمانية في استانبول لاصدار اوامرها الى والي دمشق في سنة ١٢٤٤هـ / للاهتمام بالارض والفلاحين وعدم السماح لهم بالتسكع بالشوارع (٤٧) .

امام الظروف الخارجية المستجدة والضاغطة على الاوضاع في الدولة العثمانية، حاول بعض السلاطين (سليم الثالث ومحمود الثاني) اجراء بعض الاصلاحات بما يكفل للدولة الصمود في وجه المطامع الاوربية ، خاصة بعدما برز للعيان مدى ماسيكون الثورة الصناعية في اوربا من اثار على الاوضاع داخل الدولة العثمانية ، وبخاصة على الحرفيين فيها . فقام السلطان محمود الثاني بالغاء اوجاق الانكشارية في ١٨٢٦م ، والنفي مع السباهية ايضا نظام التيمار في ١٨٣١م ، واعقب ذلك ترتيبات اقتصادية وثقافية تكفل قيام نظام جديد في المجال العسكري يقوى على الصمود في وجه المطامع الاوربية وينهي مفاسد الجند التي استشرت وانعكست سلبا على الاوضاع الداخلية . الا ان هذه الاجراءات لم تحسن اوضاع الفلاحين في بلاد الشام ، حيث قام الحرفيون

القادرون ماليا وبعض التجار ورجال الدين وغيرهم بالحصول على المالكات من الدولة العثمانية في غوطة دمشق وحران والبقاع (٤٨) والمرج والقلمون وغيرها ، وجل ما طرا على حال الفلاحين من تغير ، نتيجة لذلك ، ان بدلوا اسيادا جدد باسياد قداماء .

الفلاحون في ظل الحكم المصري :

عندما احتل المصريون بلاد الشام في ١٨٣١ م ، كانت اوضاع الفلاحين قد وصلت الى حالة مزرية ، فاحتظت المدن باعداد كبيرة من هجروا القرى طلبا للرزق في دمشق وغيرها من المدن الشامية ، الامر الذي ادى بدوره الى حصول خلل كبير في توزيع السكان واليد العاملة بين الريف والمدينة . واصبحت مدن بلاد الشام تختنق بسكانها ولا تقوى على توفير فرص العمل لهم (٤٩) . واصبح الواقدون الجدد اليها يزيدون ازمتهما ضففا على ابالة ، وبالمقابل تراجع الانتاج الزراعي في الريف بشكل مريع واصبح شبح المجاعة يخيم على سكان بلاد الشام في الريف والمدينة . وكان ذلك من اهم المضلات التي جابهت الحكم المصري ، لذلك سمى المصريون لاعادة التوازن بين سكان المدن والريف (٥٠) لضمان تموين قواتهم من جهة ولتوفير الدخل المالي لخزينتهم ، فشجعوا الفلاحين على العودة الى القرى المهجورة والاستقرار فيها وزراعتها ، واتخذوا اجراءات عديدة لتحقيق ذلك ، فضيقوا على الاقطاعيين وخففوا من هيبتهم وسلطتهم وبسطوا الامن على الريف والمدن ، مما وفر الجو المناسب للفلاحين للاستقرار ، فعاد معظمهم الى قراهم التي هجروها في السابق (٥١) ، ووزعت عليهم « الاراضي البور وقام الحكم المصري باعطاء الفلاحين الدارهم من اجل زراعتها وادى ذلك الى كثرة الخيرات في بلاد سورية مع كل ذلك ما كان يكلف البلاد شيء ابدا وكانت ذخاير دائما متواصلة من مصر ، من بكسات وشعير وحنطة وعدس وفول وذرة وسمن وارز وغيره ثم اوعد بتشغيل كامل اراضي البور وعمارة كامل ضيع الخربانة» (٥٢) . وقام المصريون بتجفيف المستنقعات فتوسعت المساحات المزروعة ، ولم يكتفوا بذلك بل قدموا للفلاحين التقاوى والبذار « حتى لا يصير ولا يبقى غدر للفلاحين في امر الزراعة وفي الفلاح بما عليه من اموال الميري واذا لم يستطع فلاحو قرية ما او اكثر من دفع اموال الميري كان يعرض شأنها على المجلس ويدعى للمذاكرة» (٥٣) .

وقام الحكم المصري بنزع سلاح البدو وتشجيعهم على الاستقرار ، وترك حياة الترحال وزراعة الارض ، فاعفى من اقام منهم في الارض من الضرائب . كما التفت الحكم المصري الى ناحية هامة في الانتاج الزراعي وهي عدم ائصال كاهل الفلاحين الذين استقروا مجددا في الارض بالضرائب فاجل دفعهم للضرائب من سنة الى اخرى ، كما

حصل لفلاحي « قرية تلعران في ولاية حلب فكانت القرى المسجلة بدفتر الشواهي بثلاثة ارباع شاهية وحيث انها عمار جديد وعمار الجديد يلزم له مساعدة لاجل ترغيب الفلاحين بالعمار فينبغي ان تنقيد القرية المرموقة بنصف شاهية يكون ترتيب المال عليها من ابتداء سنة ١٢٥٢ هـ «(٥٤) واستخدم الحكم المصري قواته ، وحتى الضباط منها في زرع الارض .

واتاح الحكم المصري للفلاحين ان يتقدموا بشكواهم الى الحكمدار فيما اذا وقع اي ظلم عليهم في مجال تقدير الفدن في القرى والضرائب على الاشجار المثمرة(٥٥). وكانت شكوى الفلاحين تلقى اذانا صاغية من قبل ذلك الحكم . وتساهل المصريون في جمع اموال الميري بحسب رغبة الفلاح الذي كان يفضل دفعها نقدا ، مما خفف عنه مسؤولية تموين الجيش (الشونة) قدر الامكان(٥٦) . ووضع المصريون متسلمين على الصناجق يرتبطون مباشرة بالسلطة المصرية في دمشق ويخضع لهم شيوخ القرى المجاورة . وتحت رئاسة كل متسلم ، شكلت السلطة المصرية مجلسا استشاريا او (شورى) من الملاكين والتجار والرؤساء الروحيين ، وعهدت الى هذه المجالس بوظيفة المحاكم الدينية(٥٧) ، وعينت موظفا خاصا لتحصيل اموال الميري من الفلاحين وهو (الناظر) او (اغاسي) ، وحددوا لناظر القرايا المبلغ الواجب اخذه من الفلاحين دون ان يظلمهم وكان ثمة دفاتر لشونة الجيش ، فاذا ما اضطرت السلطة لاختذ الشونة ، قامت بتوزيعها بالعدل على قرى الصنجق(٥٨) وعينوا ناظر نظار في الصنجق وقسام اموال الميري الذي كان يقوم بجمعها من الفلاحين . وكان ذلك بمثابة تحول كبير في حياة الفلاحين آنذاك ، اذا ما قيس بعهود الظلام التي عاشها الفلاح في الفترة السابقة للحكم المصري . الا انه ، مع ذلك ، بقي الفلاحون يشكون من المظالم ، وكان على رأسها ابتزاز اموالهم من قبل الجند وبعض عناصر الهيئة الحاكمة واجبارهم احيانا على تأمين مبيتهم وطعامهم وتأمين عقيق خيولهم والحراية .

وكان التجنيد عقبة في وجه الانتاج الزراعي ، مما دفع بابناء الفلاحين الشبان للفرار والاختفاء فافتقرت الارض لليد العاملة ، وطلب مشايخ القرى من السلطات المصرية ارسال الجنود من (القشلة) الى القرى لجني المحصول ليتمكن المشايخ من دفع اموال الميري المترتبة على قراهم(٥٩) . ومع ذلك بقيت شعاب الجبال والمناطق النائية بعيدة عن متناول السلطات المصرية . وتغير حال الهجرة فانعكس اتجاهها من المدينة الى الريف ، وربما اسهم في ذلك الفرار من الجندية . وبشكل عام اصبح حال الفلاحين والزراعة افضل منه في الفترة السابقة للحكم المصري ، فزادت المساحات المزروعة وعدد القرى المسكونة(٦٠) .

الا ان الحكم المصري لم يقض على اسلوب الانتاج الاقطاعي وسيطرة الاقطاعيين على الفلاحين ، وان كان قد عمل على تحديد سلطاتهم السياسية ، مما ادخله في صراع معهم ، كما حصل في مناطق حوران واللاذقية ولبنان . ودفع الفلاحون ثمن هذا الصراع . ومن جهة اخرى ، ونتيجة لسياسة الحكم المصري في تصدير المنتجات الزراعية ، زادت المساحات المزروعة من الزيتون والقطن والحبر على حساب الزراعات الاخرى ، فاضطر المزارعون الصغار لزراعة صنف واحد ، واثّر ذلك على زراعة ما يكفيهم ويسد حاجتهم من المزروعات الاخرى التي كانت سائدة قبل دخول المصريين ، فعجزوا عن تأمين كفايتهم الذاتية واضطروا لشراء السلع الاوربية والتعامل بالنقد بدلا من المقايضة ، واثّر ذلك على مستواهم المعاشي (١١) . وحاول المصريون تخفيف وطأة المتغيرات الاقتصادية على الفلاحين ، فقام متسلمو الصناجق بالتخفيف من وطأة الجند المصريين على الفلاحين ، بأن خصصوا (قوناقات) في القرية لنزول الجند فيها عند الحاجة ، وصرفوا لهم العليق والجراية من مرتبات استحقاق الميري على القرية ، وكلفوا ناظر الشونة بتسجيل ذلك في سجلات خاصة ، واذا ما حصل اي اعتداء من الجند على الفلاحين كان يوقع بهم « جزاء لايق » (١٢) . وعلى الرغم من التغييرات التي اجراها الحكم المصري والتي انعكست في بعض جوانبها ايجابيا على اوضاع الفلاحين ، الا انها من جهة اخرى كان لها تأثيرها السلبي عليهم فانعطف بذلك موقفهم وبشكل حاد ضد السلطة المصرية ، وكان من اهمها تسخير الفلاحين في اعمال التحصينات التي اقتضتها الاجراءات الدفاعية عن بلاد الشام وزيادة الغرامة عليهم للايفاء بتلك الحاجيات ، وتجنيد الفلاحين في صفوف القوات المسلحة المصرية ، الامر الذي لم يعتادوه من قبل ، مما دفع الاقطاعيين المحليين لاستغلال ذلك ضد السلطات المصرية فقادوا الفلاحين في انتفاضات مسلحة كان ابرزها ما حصل في فلسطين ١٨٣٤ وفي حوران والجبل الشرقي ١٨٣٧ م . ناهيك عن ربط الاقتصاد الشامي بعجلة الاقتصاد الراسمالي الاوربي ، وما نتج عن ذلك من اضرار بالغة بمصالح الفلاحين ، وادى بدوره الى زيادة ديونهم وبالتالي الى اضطرارهم لبيع اراضيهم بابخس الاثمان ، فانتقلت ملكية اراضي قرى عديدة في الغوطة والرج من الفلاحين الى اسر دمشقية غنية ، كقرية زبددين وبالا والحديثة والمحمدية والافتريس ، وتحول ملاكها السابقون الى متسكعين في شوارع دمشق . . . وقامت تلك الاسر الدمشقية الغنية (المالكة الجديدة لتلك الاراضي) باستخدام وسائل عديدة لمنع الدولة العثمانية من مصادرة تلك الاراضي ، فحولتها الى اراض وقفية ، وقامت باخراجها من ملكية الوقف الى مالكيها الخاص باستخدام اساليب ملتوية (كالتحكير والاحترام والامارتين والمرصد) .

وبخروج المصريين من بلاد الشام واستعادة الدولة العثمانية لسيطرتها قام

السلطان عبد المجيد باصدار فرمانات سلطانية لاعادة الاراضي التي سيطر عليها المصريون الى ملاكها الاصليين ، الا ان ذلك لم يحسن من اوضاع الفلاحين بل زادت سوءا ، وتطالعنا سجلات محاكم دمشق بما آل اليه حال فلاحي غوطة دمشق : جاء في احداث ١٢٥٩ هـ / ١٨٤٤ م ، ان اهالي قرية الشفونية قد اثقلوا بالديون ، ومما جاء في طلبهم نتيجة لذلك الى قضاة دمشق ، تقسيط ما عليهم من الاموال والديون للدولة لعجزهم عن تسديدها دفعة واحدة (٦٣) .

الاسرة الفلاحية :

ازاء الظلم والقهر اللذين مارستهما السلطة العثمانية من خلال ادواتها المتعددة ضد طبقة الفلاحين ، ازداد تكاثف الاسرة الفلاحية الصغيرة من خلال تنظيمات اكبر ، كانت مبنية على اسس اسرية او عشائرية او قبلية . شملت قرية او قرى عديدة .

لهذا كان من المنطق ان يسود تنظيم الاسرة الواسعة على حساب التنظيمات الاجتماعية الادنى ، « وسعت بعض الاسر لاكثر نسلها ، فلجأت الى استيلاء الزوجات بشكل مبكر ، ومجدت الخصوبة لديهن ، وزوجت افراد الاسرة في سن مبكرة ، وطلقت العاقرات » (٦٤) من الزوجات او اهتمتهن ومجدت الذكورة لان الذكر عامل ومقاتل وحافظ للنسل ، ولا يحتمل جلبه للعار كالانثى ، ولا يحتاج للحماية مثلها .

وفي مجال ملكية الارض والعمل عليها قامت الدولة العثمانية بسن القوانين لتنظيم انتقال حق التصرف بالارض وحصره ضمن نطاق الاسرة الواحدة لتضمن بذلك دفع ما يترتب عليها من الاموال والضرائب . فبقيت الارض مشاعة في الاسرة . وسعت الدولة لتخفيف التأثيرات السلبية على الزراعة الناتجة عن هجرة الفلاحين للارض والقرية فوقفت في وجه هجرتهم ، واعطت حق التصرف في الارض الواسعة لاهل القرية ، وكان عليهم دفع الضريبة عنها مهما تناقص عددهم . وادت هذه السياسة الى ترسيخ الاسرة الفلاحية الواسعة .

ومن جهة اخرى خففت الروابط العائلية التي تربط افراد الاسرة الفلاحية من تأثير قوة القهر والظلم التي فرضت على الفلاحين من اصحاب الارض ورجال السلطة ، فعاش الفرد ضمن مجتمع يقنعه بان النظام السائد هو افضل النظم رغم القيود التي كانت تغله (٦٥) .

وعرفت الاسرة الفلاحية تماسكا صلبا في داخلها مكنها من الصمود لافسى

الظروف التي تعرضت لها نتيجة لتكاثف أفرادها وتوزيعها لقوة الضغط ، مما ساعدها على الاستمرار والامتداد والتفرع ، وشهد أفرادها من أزر بعضهم بعضا في السراء والضراء ، وزاد في تماسكها توجه أفرادها في زواجهم إلى داخلها (٦٦) ، فكلما بردت حرارة القربى بحث فيهم زواج جديد دفئا جديدا . ولقد قسمت قرى الفلاحين إلى حارات سميت الواحدة منها باسم إحدى الجهات الأربع أو إحدى الأشجار المعمرة أو أحد النباتات أو المزارات ، أو إحدى الأسر ، ووجد في القرية أحيانا نجار وحداد وصانع فخار وبيطار وبناء ومجبر وكحال ، وأحيانا دابة ، وكلهم يقدمون خدماتهم للأسر القرية ، كما كان فيها بائعون وحراس ومسجد أو كنيسة أو كلاهما . ورغم سعي السلطات المصرية لتعمير القرى وإعادة الفلاحين إلى المهجور منها ، وتشجيعهم على الاستقرار فيها وتوطين البدو ، إلا أن الأسر الفلاحية المسلمة تعرضت لهزات كبيرة فاقت معظم الهزات التي تعرضت لها في الفترة السابقة ، وبرز ذلك في فرض المصريين لنظام التجنيد الإجباري ، وما ترتب عليه من سحب الشباب من قراهم إلى مصر لأعدادهم وتدريبهم على فنون القتال . ولم يكن الفلاحون ، وأبناء بلاد الشام بشكل عام ، قد اعتادوا على ذلك من قبل ، وشعرت الأسر بأن التجنيد سيفقدها أبناءها . وللتخلص من ذلك لجأت إلى تشويه أعضاء ابنائها لتخليصهم من السوق إلى الجندية ، فسمت إحدى عيني الشاب أو قطعت إحدى أصابعه أو كسرت رجله ، فيصبح الشاب بذلك « سقطات غير نافعين للعسكرية وأكثرهم يهربوا يتخبوا بالحروش ودغلات الأشجار » وإذا ما القي القبض على الفارين يربطون مع بعضهم ويرسلون إلى المدينة « مقيدين بالجنائزير إلى حين إرسالهم إلى مصر » فمات الكثيرون من الشباب وفر الأباء « حتى لا يقرؤا على ابنائهم » أما في المدن فكانت الأسر تخبئ أبناءها تحت الأرض سنين طويلة « من غير اظهارهم على وجه الأرض وصار الكبار تخبئ أولادها في بيوت القناصل ومنهم من يسفر أولاده على خارج إيالة الحكم المصري مثل قبرص وكريد وأصاليا وبر الترك واسلامبول وأزمير وغيرها لاسيما عند العرب للجول ، واستمر ذلك زمان طويل حيث ما هومرة واحدة بل خمس مرات حيث عريت البلاد من الشباب فكلما صار عنده مبلغ من الشباب المملوكين يرسلهم إلى مصر ويجيب عسكر مصري بدلهم إلى سورية » (٦٧) . ولم تقو الأسر الريفية على إعفاء أبناءها من التجنيد الإجباري كما فعلت بعض الأسر الفنية التي استخدمت الرشوة في تحقيق ذلك ، وانعكس هذا الوضع بشكل سلبي على الأسرة الريفية وانتاجها .

وعلى الرغم من أن الروابط العشائرية قد وفرت الأمن والتعاون بين الفلاحين ، إلا أنها من جهة أخرى جرت الولايات عليهم في وقت غابت عنهم حماية سلطة القانون . فساد الأقوياء وذر قرن الخلافات العائلية والعشائرية والتي لم تكن بعيدة عن تأجيج نارها ، بين الفينة والأخرى ، عناصر الدولة العثمانية ، وذلك لضعاف الطرفين

المتخاصمين وضمان احكام قبضتها الواهنة عليهما وابتزاز اموالهما . ويقول صاحب المقرب في حوادث الحضر والعرب : « كان ديدبان الحكام وكبار البلد القاء البغض وعدم الرفق والمحبة بين الفلاحين . ولولا وجود البغض بينهم لما كان احد قدر شرب ماء من عندهم » (٦٨) .

لقد جرت الصدمات على الفلاحين الولايات والكوارث فازهقت الارواح وهدمت البيوت ونهبت المواشي والارزاق وقطعت الاشجار وحرقت البيادر وردمت ابار المياه ، وهجر العديد منهم قراهم ، ولم تقتصر الصدمات على فئتين تنازعتا في القرية الواحدة بل حدثت احيانا بين قرية واخرى ، او بين عدة قرى في المقاطعة الواحدة . هذا ناهيك عن اعتداء البدو على فلاحي قرى منطقة المرج من دمشق او القرى التي كانت تقع على حوافي البادية ، ففرضوا الخوات على سكانها ورعوا كل اخضر ، خاصة في السنين العجاف . وزاد الطين بلة ضعف السلطة العثمانية وعجزها عن دفع اذية البدو مما دفع بالفلاحين لهجر قراهم . ويقول الرحالة يوركهارت : « قليلا ما نرى الفلاحين الذين ولدوا في قرية من حوران ، يموتون فيها لكثرة ترحالهم كالبدو تقريبا فلا يستقرون في قرية حتى يمارس عليهم نوع من الاضطهاد والعسف فيدفعهم ذلك للهجرة الى قرية اخرى وكثيرا ما لعب اضطهاد شيخ القرية دورا في هذه الهجرة ، وادى ذلك بدوره الى بروز ظاهرة عدم نشجير الاراضي الزراعية في حوران ، وغياب الارض المزروعة بالخضروات حيث يقول الفلاحون : نحن لا نزرع هذه الارض من اجل الغرياء » (٦٩) اي انهم لن يقطعوا ثمار ما زرعوا لاضطرارهم للهجرة بسبب تلك المظالم او الخلافات .

انزل الفلاحون محاصيلهم الى المدينة وبدأت علاقاتهم بها علاقة اقتصادية ذات منفعة متبادلة وتجري بالنقد المتداول (٧٠) ، في حين كانت علاقاتهم مع بعضهم البعض تقوم على النقد او على اساس المقايضة . ورغم المنفعة المتبادلة بين ابناء الريف والمدينة ، فقد ساد البرود علاقة الفلاحين بالمدينة ، ولم يكن الفلاح ليحظى بالاحترام من ابنائها بل كان محط سخريتهم (٧١) . ومع ذلك فان فلاحي القوطة شاركوا بعض فئات مدينة دمشق في الصراعات السياسية ، وانتصروا لهم بتأثير روابط العصبية الجاهلية . فمثلا اهل الحقله انتصروا لاهل العمارة في صراعهم مع اهل الميدان ، كما اعتمد ابناء دمشق على الفلاحين عندما ثاروا على محمد سليم باشا بسبب ضريبة الصليان في عام ١٨٣١ م ، حيث « نبهوا على اهل الضيع بان الذي ماعنده بارود يشتري والذي ماعنده سلاح يشتري وحينئذ جميع الناس صاروا يشتروا بواريد والسلاح صار عند جميع الناس » (٧٢) .

تموين الاسرة وغداؤها :

ومن حيث التموين فقد اكتفت الاسرة ذاتيا وامنت لنفسها معظم احتياجاتها .

نظرا لكثرة عدد افرادها ، فزودت نفسها باللحم والبيض والحليب والالبان ومشتقاتها، واهتمت بتربية المواشي والطيور الداجنة . ويذكر الصايغ ان الفلاحين كانوا يؤمنون لانفسهم « جميع الفحم والحطب والجاج والبيض والزبدة واللبن والحليب والعنب والتين وأكثر الفواكي من عندهم كذلك جميع الذي يفيض عنهم من حبوب بعد موتهم يبيعونه الى اهل البلد والمدينة ، من كامل اجناس الحبوب حتى البصل والتوم وجميع المأكولات والعسل والشمع وكثير اشيا » (٧٣) . وزرعت الاسرة المحصولات التي تحتاجها في غذائها اليومي ، كالقمح والشعير لتأمين الدقيق ، وصنعت من القمح البرغل الذي نادرا ما خلت منه وجباتها . وزرعت العدس وصنعت منه الحساء او اضافته الى البرغل (مجدرة) (٧٤) . وزرعت الحمص والذرة البيضاء التي كانت اساسية في غذائها .

وسعت الاسرة لتأمين حاجة ماشيتها في فصل الشتاء من التبن والعلف، فزرعت بعض انواع من البقول ، وفي الفوطة زرعت الفصة والبرسيم لهذه الغاية ، والفلول لتأكله اخضر ويابس والخروع لاستخراج زيتة اللازم للانارة ليلا ، واستخدمت في بعض الاحيان زيت الزيتون او الشعوم وحتى زيت بذر المشمش للانارة . بالاضافة الى ذلك قام الفلاحون بتربية الحيوانات المختلفة للاستفادة منها ، كالجمال والخيول والحمير للركوب والنقل والحراثة ، والحمام والدجاج والاوز والبط للاستفادة من لحومها وريشها وبيضها . وملكوا الثيران للحراثة والجبر ، واستخدموها في جر عربات النقل والتحميل ، لانها اصلح الحيوانات في جر العربات على الطرقات والاراضي آثد (٧٥) . وقاموا بتربية الابقار التي اختلفت انواعها ما بين الفوطة وحوران والجولان وجبال القلمون ، وعهدوا برعيها الى رعاة من القرية ، او ربيت في بساتين الفوطة . اما الاغنام والماعز، فعهدوا بتربيتها الى رعاة او الى البدو او بعض الاكراد الذين اتقنوا هذه الحرفة وكان ذلك مقابل اجرة عينية كالحبوب ، او جزء من انتاجها (حليب - خراف - صوف) .

وقامت النساء بدعم الوجبات الغذائية للاسرة بالسعي في الحقول والبراري لقطف الاعشاب التي كانت تؤكل نيئة او مطبوخة ، لوحدها او مع الخبز والبرغل ، فشكلت جانبا من غذاء الاسرة ، اضافة الى ما انتجته الاسرة من الفواكه والثمار ، كالزيتون والعنب والتين والرمان والمشمش والاجاص والجنرك وغيرها (٧٦) . واختلف ذلك من مقاطعة الى اخرى . وكان فلاحو الفوطة اكثر غنى بالفواكه من فلاحو المقاطعات الاخرى نظرا لخصب تربة الفوطة وري بساتينها المستديم ، واعتدال مناخها . وحصل الفلاحون على ملح الطعام من جيروود (ما بين دمشق والقريتين) ومن الملاحات المحلية

الشامية (جبول وتدمر)، وحصل فلاحو حوران على ملحهم من عكا . واستخدم الفلاحون الملح في صنع الطعام والخبز وفي حفظ الجلود .

وقام فلاحو الفوطة بتأمين حاجتهم من زيت الزيتون مما زرعه في أراضيهم . أما فلاحو حوران فاستوردوه من عجلون . وزرع الفلاحون البطيخ والمقاتي في حوران والمناطق المحيطة بدمشق (٧٧) ، وحصلوا على البلح من متاجر دمشق ومن القوافل التجارية التي عبرت مناطقهم ومن البدو الرحل الذين اندفعوا في فصول معينة من السنة باتجاه قراهم . ومن البائعين الجوالين في القرى .

أما السكر والقهوة والرز فكانت من الكماليات ، فاستوردت القهوة من اليمن عن طريق القوافل التجارية حتى القرن الثامن عشر ، وبعد ذلك بدأت الدول الأوروبية (فرنسا انكلترا) تصدرها الى بلاد الشام . واستورد الرز من مصر وكان غالي الثمن*، بحيث كان ثمن الكيلو غرام الواحد يعادل ثمن ١٠ كيلو غرام من القمح ، وكان يقدم للضيوف وللأفلاحين في مضافات الشيوخ خاصة ، ولا تأكله سوى الأسر الغنية لارتفاع أسعاره . ولما كان السكر معتبرا من أعظم المصادر الغذائية في توفير الطاقة للجسم ، فقد ظل تناوله حتى القرن السادس عشر في أوروبا مقرونا بالترف ، واستمرت هذه النظرة إليه في بلاد الشام بعد ذلك بثلاثة قرون وظل معتبرا من الأصناف الغذائية الكمالية حتى النصف الأول من القرن العشرين . وعلى الرغم من أن بلاد الشام كانت مصدر زراعته ونقل عنها الى أوروبا خلال الحروب الصليبية ، إلا أن زراعته في بلاد الشام زالت ولم تعد للظهور إلا في أواخر القرن التاسع عشر ، واعتمد أهلها في استهلاكه على ما تصدره بريطانيا وفرنسا وعلى ما استوردوه من مصر . واستخدم سكان ريف دمشق وفقراؤها بديلا عنه الدبس أو رب العنب والخرنوب والعسل ، وكانت الأسر تبتاعه من أسواق دمشق أو من الباعة المتجولين في الريف .

وكان احتساء القهوة محدودا حتى القرن التاسع عشر بالنسبة للعامة في المدينة والريف ، واقتصر على تقديم المر منها في المضافات ، وبقي احتساؤها في دمشق بشكل سري نظرا لتشدد بعض العلماء والسلطات العثمانية في منعها ، ودام الحال كذلك الى أن أصدرت هذه السلطات بلاغا باباحة شربها علنا (٧٨) ، فأصبح الناس يشربونها في متزهاتهم ومجالسهم ، وأصبح لشربها تقاليد اجتماعية معتبرة (٧٩) .

ولقد اتصف غذاء الأسرة الريفية بالرتابة وقلة التغيير في نوع المأكول . فكان أساس

* بيع اردب الارز في ١٨٤٠ في اللاذقية بمائتين وخمسين قرشا . انظر : الصايغ ، المصدر السابق ، ص ٨٨ . والاردب ثلاث قفلات مصرية .

وجبات الفلاح الحبوب التي صنع من دقيقها الخبز (قمح - ذرة بيضاء - شعير - حمص - جلبان) وكانت تطحن في طواحين تدار بقوة الماء . وتولت المرأة عجن الدقيق وخبزه على الصاج او التنور ، ليؤكل مع البرغل او مع بعض الخضار والاعشاب المطبوخة . وطبخ البرغل وحده او مضافا اليه الحمص والعدس او الخضار او بعض الاعشاب البرية . وصنع الفلاحون الفريكة (خاصة في حوران) نظرا لكثرة انتاجهم من القمح، كما صنعوا الحساء من العدس المجروش او الكشك . وزودوا البرغل او الحساء بالزيت والسمن او الزبدة ومقلي البصل احيانا . كما اعتمدت الاسرة الفلاحية في غذائها على الالبان بعد توالد المواشي ، فصنعت من الحليب السمن والزبدة والجبن وازافت الرائب منه الى مطبوخ الذرة او البرغل ، وصنعت منه الكشك ليؤكل في فصل الشتاء خاصة . وتمونت بالدبس والزيت والتين المجفف ، وبالمقدمات والجبن والزيتون والمخللات والمكاديس وغيرها .

اما اللحوم فلا يرد ذكرها في وجبات الاسرة الريفية آنذا الا في المناسبات ، كالاعياد ، وبعض الافراح وايفاء النذور ، فيتقاسم الاهل لحم الذبيحة ، ولهذا الغرض قامت بعض الاسر الفلاحية (في جبل لبنان والقلمون وغيرهما) بتربية بعض الخواريق وتسمينها لتذبح في تشرين وتحفظ على شكل (قاورما) وكان يفرز اللحم الاحمر ثم الدهن والشحم ويقلى ويوضع بعد ذلك في (مسامن) لتؤكل (مسمنة) بعد اخرى ، عوضا عن اللحم الطازج الغالي الثمن والنادر الوجود في القرية آنذاك (٨٠) .

وقامت المرأة بدور رئيس في تموين الاسرة ، فهي التي كانت تشرف على تربية الدواجن وجمع بيضها وتحلب المواشي وتروب الحليب وتستخرج السمن والقريشة وتصنع الكشك وتنسج الصوف والقطن ، وتدبغ الجلود في بعض الاحيان ، وتنسج البسط والخيام .

وقايضت الاسرة بمنتجاتها للحصول على ما تحتاجه من البائعين ، وفي الاسواق الاسبوعية التي كانت تعقد في القرية او الخانات القريبة والبازارات ، ودفعت ما يترتب عليها من الضرائب في بعض الاحيان عينا من منتجاتها (٨١) .

ولقد اجمع الرحالة الذين زاروا حوران على ان سكانها كانوا يعيشون حياة نظف وكانوا قانعين في شؤون مآكلهم ومشربهم . وحتى الاغنياء منهم كانوا يعيشون حياة فقرائهم ، ولا يتجلى ثراؤهم الا في اكرام ضيوفهم . ويقول بوركهارت لقد اقتصرت الاسر الفلاحية الحورانية في غذائها على وجبتين من الطعام في اليوم وكان خبزها من دقيق الشعير بدلا من القمح ، كما اقتصرت في تناولها اللحم على مرتين في العام (٨٢) .

أما فيما يتعلق بتأمين مياه الشرب فقد اختلف الوضع من قرية الى أخرى، وبحسب وفرة المياه ومصدرها صيفا وشتاء (كالأنهار أو الينابيع والآبار وبرك مياه الأمطار وغيرها) . ولقد أوكلت مهمة جلب المياه من مصادرها الى النساء، واستعملن في جلبه الأواني الفخارية وغيرها ، وكان الزير أبرز الأواني الفخارية التي استخدمت في حفظه ، وهو عبارة عن إناء كبير يوضع في ساحة الدار في مكان مخصص ويملأ بالماء ويفرف منه بقصعات عند الحاجة (٨٣) كما في قرى حوران والقلمون . وكانت مهمة الزير تبريد الماء عن طريق الارشاح والبحر ، ويرسب العوالق به . وكان فلاحو حوران يستوردون أوانيهم الفخارية من راشيا (٨٤) ، الواقعة في سفوح جبل الشيخ الشمالية الغربية .

أزياء أبناء ريف دمشق (٨٥) :

حافظ الريفيون على أزيائهم الموروثة أكثر مما فعل أبناء مدينة دمشق ، ربما يعود ذلك لعزلتهم النسبية عن المؤثرات الوافدة ، وقد لعبت عوامل عديدة دورها في رسم تلك الأزياء وفي مقدمتها الظروف الطبيعية والمناخية والتاريخية المتعددة ، والنظرة للحياة والحس الجمالي ، والمعتقدات الدينية ، فلا غرابة إذا ما صمدت تلك الأزياء في وجه طفيان المؤثرات الغربية فبقيت حتى القرن العشرين ، وما زلنا نراها في بعض قرى الشام . وقد تعددت تلك الأزياء وقصرت المصادر عن ذكر تفصيلاتها ، ولهذا سنقتصر على أهمها لدى الجنسين .

أزي الرجال في الريف : تألف لباس الجزع للرجال من القميص والصدريّة والميتان والقطشية . ولا تختلف هذه الثياب في خطوطها العامة عما كان يلبسه المعاصرون من أبناء مدينة دمشق (٨٦) . وكانت السراويل لباس الوسط الى الكاحلين . وصنعت تلك الثياب من الجوخ أو القطن . أما الجوخ فكان بلون غامق أو أسود أو أزرق أو بني أو (بيج) أو أبيض (٨٧) .

وهناك الشال أو الزنار الذي كان يلبسه أهل القلمون . والتسمية فارسية الأصل . وهو من قماش الموصلين أو الصوف ، وكان يبطن ويطوى بشكل مائل ويلف حول الخصر دوائر متعددة بحيث تبدو ثنياته من الامام متدرجة ومنسقة فوق بعضها بعدد فردي دائما ، وفي طرفيه شريطان يعقدان من الخلف ويلف حول الخصر بصورة أغرض كثيرا أو قليلا عما كان يفعله جنود الانكشارية ، وله قيمته الفنية والجمالية، مما جعله في مقدمة الثياب وجاهة ، فيلبس في المناسبات والأفراح ، ويرتديه أغنياء الريف ، وبه رسوم نباتية وهندسية وحيوانية . أما لونه فكان أحمر أو أخضر أو بنيا

أو أسود (٨٨) . وكانت بعض زنانير اهل الجبال تصنع من الصوف الناعم الرقيق (الكشمير) . وهناك الكمر الذي صنع من القطن وكانت له (أهداب) ، وتحزم به النساء ثيابهن (٨٩) . أما غطاء الرأس فكان يختلف ما بين مقاطعة وأخرى . ففي جبل العرب كان رجال الدين يرتدون تربانا حوله شاش أبيض ، في حين كان أفراد العامة يرتدون الكوفية (٩٠) وتستخدم فوق العرقية أو الطاقية وتثبت بالعقال . وتمايزت الكوفية أحيانا بين قرية وأخرى من حيث لونها وأهدابها وتطريزها ، ففي جبعلين وحلبون وبعض القرى المجاورة لوادي بردى كعين الفيحة كانت لها أهداب (شراشيب) ، وكانت تطرز بالخيوط الحريرية الذهبية وتسمى حينئذ بالأغباني . وكان فلاحو الغوطة يضعونها مباشرة على الرأس لتقيهم من الحر والبرد . أما العقال الذي كان يثبتها على الرأس فكان عبارة عن طارة كبيرة بدائرتين متقاطعتين ، وله من الخلف دلاية تنتهي من الأسفل بطرتين صغيرتين على شكل هلال فتحتة إلى الأسفل ، ويرتبط وجودهما أما بعقائد سحيقية في القدم أو بتقاليد اجتماعية أو طبقية . وكان أبناء الجبال يرتدون فوق الحطة (٩١) . واستعمل أبناء حوران عقالا من وبر الجمال (٩٢) . وحل الطربوش في غوطة دمشق بعد عهد التنظيمات محلها (٩٣) .

وكان من ثياب الفلاحين العباءة ، وجاءت فوق ثيابهم جميعها ومنها أنواع ، كالعباءة الجبلية عند سكان المرتفعات وتسمى الزنارية أو الحمراء أو الدفية أو المشلح أو البشت ، وهي تختلف عن العباءة التقليدية الواسعة المعروفة عند أعراب البادية ، كما تختلف أيضا عما كانت لدى أبناء جبل حوران ، وتعود في جذورها إلى أصول آشورية وفارسية قديمة . وكان قماشها خشنا وينسج من شعر الماعز المبروم أو من الصوف المحلي على أنوال صغيرة يدوية من الخشب ، وقوامها قصير لا يكاد يغطي ركبتَي الرجل ، وأكمامها قصيرة أيضا لاتتعدى المرفقين . وهي ضيقة التفصيل بحيث لا تتلامس أطرافها من الأمام إلا قليلا ، وخالية من العروات أو الأزرار ، ولهذا كانت تحزم من الوسط بشريطين صغيرين ، أو بزناز رفيع لثلاث تعيق صاحبها عن العمل ، وكانت تترك مفتوحة سائبة في الحالات العادية والأعياد والاحتفالات .

والأصل في هذه العباءة أن تكون مخططة بالأبيض والأسود أو البني بأقلام طويلة متوالية ، وهذا النوع قديم جدا خصص للعمل لدى المزارعين والرعاة ، وسمي لديهم بالعباية الدفية ، في حين كانت عباءة العيد والاحتفالات حمراء أو زرقاء مطرزة بالأبرة بصورة جميلة جدا بخيوط من القصب أو بالألوان المختلفة وبأشكال هندسية رائعة ربما رمزت إلى معانٍ تفاؤلية قديمة ، وتنحصر الزخارف على الكتفين والصدر ، وأجملها على الظهر (٩٤) .

وتختلف عباءة جبل حوران عما ذكرناه ، كما تختلف عن عباءة البدو ، وكانت مصنوعة من الجوخ الاسود طويلة متهدلة تصل الى القدمين بأكماس ضيقة وهي من النوع المتصالب الذي يردف فيه الطرف الواحد على الاخر من الامام ، ولها اشرطة امامية من نفس القماش تشبه السقايف في فروة البدو وتستخدم لتثبيتها على الكتفين (٩٥) .

وفي الجبال المحيطة بدمشق كان بعض الرعاة من الاكراد يتميزون بزيتهم الخاص الذي كان اقرب الى زي البدو (٩٦) .

وكان ابناء الريف في الشتاء يلفون ارجلهم بقطع من القماش الطويل الصوفي ، ويلبسون في اقدمهم حذاء عالي العنق يشغل السير الا انه يوفر الدفء . وكان الجنود العثمانيون يستخدمون النوع الاول من القماش او الجلد ويطلق عليه اسم « الطماق » . وتعددت أنواع الاحذية الجلدية التي استخدمها الريفيون فكان منها الملون وغير الملون ، وأهمها : الخف والنعل والشاروخ والمداس والمركوب والبابوج والقندرة والجزمة واليمنية والسرموحة (الزرموحة) والمست والزربول او الزربون أحيانا . وتعددت بعض اسماء الاحذية للمسمى الواحد ، واختلفت باختلاف المناطق والقرى . وصنعت الاحذية في اماكن مختلفة وفي مدينة دمشق كانت لها اسواق خاصة كالزرايلية والجزماتية ، وما صنع منها في ميدان الحصى كان من النوع الرديء ولون جلده ابرش اقرب الى الصفار ، وكان مفضلا لدى فلاحي حوران نساء ورجالا (٩٧) . ولعل احسن ما صنع من الاحذية هو ما يسمى بالفارسية (السرموزة) . وكانت تسمى قديما المركوب ، وكان الرعاة يلبسونه في أعالي الجبال . وكذلك الزربون (الزربول) وهو نوع من الاحذية المكسية الى ما فوق مشط القدم ، حادة الرأس شكلها كالجنودول مرتفعة مع نعل كثيف يتحمل وعورة الارض وقسوتها (٩٨) . أما الصرماية فهي حمراء اللون بدائر دون كعب ، ومنها صنف سمي (بالحلي) يلبسه أهل المدن في حين يرتدي الريفيون نوعا آخر يسمى (نصف كشفة) . واستخدم الريفيون أيضا القباقيب على نطاق ضيق وضمن البيوت او أزقة القرى ، وسار بعضهم حفاة كما في قرى حوران (٩٩) . وكانت ثياب اهل حوران ، مسيحين ومسلمين ، متشابهة وقريبة من ثياب البدو وتتكون من قنباز ورداء مصنوع من قماش القطن الابيض الخشن ، ويعتمرون بالكوفية والعقال « بریم » وفوق ثيابهم العباءة يلفونها فوق الكتفين . اما صدورهم فكانت عارية ويطلقون لحاهم ، ويستخدمون الكحل لتزيين رموش العين رجالا ونساء (١٠٠) . وسجلات محاكم القسمة في دمشق مليئة بتركات عدد كبير من الفلاحين ، واكثر ما يسترعي انتباهنا في تركاتهم قلة ما خلفوه من ثياب اذا ما قيس بتركاتهم من الدور والبساتين والاراضي والدراهم ، مما يدل على عدم اكتراث الفلاحين بهندامهم وثيابهم

من جهة ، وكي لا يصبحوا محط انظار الطامعين من رجال السلطة من جهة اخرى .
مثال ذلك ما خلفه احد فلاحي قرية شبعة وهو مصطفى بن عبد القادر المتوفى سنة
١١٩٨ هـ / ١٧٨٣ - ١٧٨٤ م وكانت تركته مكونة من « ٢٨٥٠٠ قرش في حين لم
تتجاوز تركته من الثياب سوى العنترى ديما وقميص رقيق وشالعة (١٠١) . ثم احمد
بشة بن عمر التلي من اهالي قرية زبدین المتوفى سنة ١١١٩ هـ / ١٧٨٤ - ١٧٨٥ م
كانت تركته تقدر بعشرات الالوف من القروش اما ثيابه فكانت مكونة من جروال جوخ
عنترى ولباس ازرق وخنجر بفضه وسكين وخاتم فضة « (١٠٢) .

الا ان شيوخ القرى كان وضعهم مختلفا وغالبا ما كانوا من اغنياء الفلاحين وشكلوا
صلة الوصل مع السلطات العثمانية المحلية . وكانوا محط القرى ، لهذا كان عليهم الظهور
بما يليق بمقامهم ، فاقتنوا الثياب المتعددة والشمينة اذا ما قيست بما كان لدى الفلاح .
وشاهدنا على ذلك مخلفات شيخ قرية الكسوة المتوفى سنة ١١٩٨ هـ / ١٧٨٣ - ١٧٨٤ م التي
كانت مكونة من الاتي : « بنش فروة ناقة وجبة فروة ناقة وبنش جوج وجروال جوخ
وعنترى الاجة وقميص وزنار وفاس وسيف وطبنجة » بالاضافة الى عدد من رؤوس
الخيول والبقر والحمير والاحواش والاراضي (١٠٣) .

اما زي نساء الريف : فقد اتفق مع زي الرجال في بعض جوانبه واختلف عنه من
حيث شكل لباس الرأس والزر كشة والحلي ، كما اختلف زي النساء فيما بينهن ما بين
الفنية والفقيرة والعازبة والمتزوجة وبين منطقة واخرى . الا ان العام في لباسهن كان :
البدلة التي صنعت من الجوخ او المخمل الاسود لدى نساء جبال القلمون وجبل
حوران ، وتتألف من قطعتين منفصلتين : عليا ضيقة تبعث الدفاء ، وسفلى وتسمى
(التنورة) عريضة وواسعة لتساعد المرأة على المسير . وتزين التنورة من الاسفل
برسوم دائرية متوازية او بدروب من المطرقات المتموجة والمتكسرة وبخيوط من ألوان
تتماشى مع لون الثوب ، وعلى الصدر عدة ثنيات مستقيمة ومتوازية او دروب من
المطرقات ذات مواضع مختلفة كالورود والزهور واهمها شجرة الحياة .

وتضع المرأة زنارا من الشال الصوفي (١٠٤) كشال الرجل الذي اشرنا اليه سابقا
فوق البدلة ويسمى بالحزم ، ولم تكن بهذا الشال عناية الرجل فيه وكانت تفقده من
الامام او الجانب بدلا من الخلف . ولم يكن لهذا الثوب عموما فتحة عند الصدر كما في
قرى القلمون ، في حين وجدت هذه الفتحة في وادي بردى مستديرة الشكل واسعة
بحيث تبرز ثديي المرأة . وتغطي المرأة ثوبها الرئيسي من الامام بواقية نصفية لها
تسميات مختلفة بحسب المناطق ، منها مملوك او مريول او فوقية او حضنية او
قدامية او دراية ، كما في جبل حوران وحماه وحمص (١٠٥) .

الدراعة وكانت المرأة ترتديها فوق البدلة عند الخروج بعيدا عن دارها . وهي عبارة عن معطف مفتوح على طوله من الامام له فتحتان جانبيتان في قسمه السفلي يتراوح طولهما بين ٣٠-٧٠ سم وقلما تصلان الى الخصر ، وتطرز الدراعة بزخارف وموضوعات نباتية وهندسية على الكتفين والكمين والظهر بصورة عامة ، وهذا الثوب الاضافي قصير نسبيا ليسمح للبدلة الرئيسية بالظهور من الاسفل وضيق لا يتلامس طرفاه الاماميان الا بواسطة اشرطة او زنار او ازرار . اما قماشها فمن الجوخ كما في حوران او من الخام البلدي المصبوغ بالازرق المطرز بزخارف هندسية ملونة كما في قرية التواني (من القلمون) ، او من المخمل المطرز بالقصب كما في القلمون التحتاني (القطيفة والرحيبة والمعضمية) وسميت الدراعة في القلمون وارباض دمشق **« بالمدرية »** (١٠٦) .

القطشية وكانت من ثياب المرأة في ريف دمشق عامة بسهولة وجباله ترتديها فوق ثوبها الرئيسي الطويل . وهي من لباس الجزع الا انها نصفية من الامام عريضة وواسعة وذات اكمام طويلة في غاية الروعة ، ولم يكن لها ازرار فتبقى مفتوحة على الدوام ، وتزين بزخارف كثيرة ومطرزات ، ويرتديها الجنسان باعتزاز لا سيما (المرسان والشباب) . ولبسها المعذب في مضافة ابيه بكل تيه فوق سراويله وصدرته وميتانة وشالته وهو يقدم القهوة المرة والنراجيل للحاضرين كاجمل لباس لاجمل مناسبة . وكانت العروس في هذه المناطق تزين بها فوق ثيابها لاسيما يوم زفافها .

وهناك قطشية العمل وهي بسيطة دون زخارف او تقتصر زخارفها على دروب من الخلف باشكال هندسية . وهي متوسطة الطول وذات لون اسود عموما .

القبعة او القباء او الكب او الشرش ، وكان من ثياب المرأة في حوران والجولان والمرج شرقي غوطة دمشق وفي البادية . وهي قديمة في المنطقة وتتألف من قطعة قماش مستطيلة الشكل تثني عند تفصيلها نصفين متساويين بحيث يغطي كل جزء النصف الاخر تماما . ثم تخاط الاطراف الجانبية وتترك فتحتان جانبيتان لتخاط فيهما الاكمام . ويفتح ضلع المستطيل من الاعلى على شكل دائرة ضيقة او على شكل العدد ٧ من الامام ، وذلك حسب مناخ وتقاليدها كل منطقة ، ليدخل منها الرأس والعنق . وتطرز فتحة الصدر هذه بشريط من الزخارف الهندسية او من الورود والزهور الملونة ، وكذلك الظهر والكتفان والكمين وحوافي الثوب السفلى . ويطرز الظهر غالباً بثلث قاعدته الى الاعلى ورأسه الى الاسفل او بالعكس . وقد يكون ضلعا هذا المثلث مسننين على شكل هرم مدرج . وكان هذا النوع منتشرا في بلاد الشام ولونه اسود ، ومن نسيج القطن او الخام البلدي المصبوغ محليا ، او من الحرير مع المبالغة في المطرزات الهندسية الملونة

كلما اتجهنا نحو الشمال السوري . أما الالوان المستخدمة في خيوط التطريز في القبة ، فهي الاصفر والبرتقالي والاحضر والبنفسجي وغيرها . وكان القباء في حوران والجولان من الحرير والاطلس اللامع او الجوخ او المخمل بلون اسود ، وقد يكون ازرق اللون قاتما مع اساور بيضاء من نفس القماش في أعلى الكمين على الطريقة الفرعونية القديمة . وتقتصر المطرزات الهندسية هنا على الياقة والحوافي السفلي للثوب وعلى طرفي الاكمام كما في بصرى الشام ، ويسمى هناك بالشرش او الثوب . وفي القلمون التحتاني كان هذا الثوب من الخام الابيض المقصور او الازرق مع اردان طويلة مثلثة الشكل ومطرزات على غاية من الدقة والاتقان وباشكال هندسية والوان غامقة تشغل مقدمة الثوب والاردان معا ، وكانت تطلق اثناء تفتيلة العروس وترسل على الكتفين وتعقد على الظهر ، وتطرز العروس هذا الثوب قبل الزفاف بابرتها ويستغرق ذلك مدة طويلة ، تعاونها فيه صديقاتها وقريباتها ممن اشتهرن بالدقة والمهارة . وتنسجم مواضيع المطرزات مع موضوع الزواج عامة اذ تتضمن معاني تفاؤلية او وفائية خدمة للعريس في حياتهما الجديدة (١٠٧) .

وكانت المرأة ترتدي فوقها اما قطشية عادية او مزركشة في الجبال او الدراعة كما في حوران وتسمى البيرمية (لفظة تركية تعني العيدية) (١٠٨) لكونها تلبس في المناسبات المفرحة كالاعیاد والاعراس .

وهناك ثياب داخلية كانت ترتديها نساء ريف دمشق (في السهول والجبال) وهي كثرة وثقيلة منها ثوب عريض او ثوبان متشابهان باتيان مباشرة بعد الاثواب الخارجية يليهما قميص نصفي عريض وطويل يدخل ضمن سروال طويل ضيق او عريض يصل الى اسفل القدمين ويعقد بتكة ويمسى (الشنتيان او الجنتيان) ، وهو كسوة الجسد من الوسط الى الكاحلين ويسمى سروالا او شنتيانا او شلوارا او جنتيانا او شخشيرا او لباسا (١٠٩) ، تثبته المرأة بدكة تربط من الخلف على وسطها ليوفر الدفء لها ويفطي ساقها ، ويكون مطرزا في الاسفل في بعض الاحيان بموضوعات هندسية تتناسب مع لونه عامة كما في قرى القلمون .

الزناز النسائي : لتوفير الدفء والزينة ، ولحزم الثوب الرئيس من الداخل او الدراعة من الخارج . وهو على أنواع وله تسميات مختلفة : الشالة المجمية التي استخدمتها نساء القلمون كما في قريتي صيدنايا ورنكوس ، كما استخدمت بعض النساء في منتصف القرن التاسع عشر الشالة الانكليزية كما في قرى الغوطة (١١٠) . والشالة الملونة وكانت من الحرير المقلم بالوان كثيرة طويلة استعملتها العروس والشابات آنئذ ، والكرم من الصوف بطول ٤-٥ أمتار وبعرض ١٠-١٢ سم ، ويلون بأقلام افقية حمراء

وسوداء وخضراء وتنتهي اطرافه بهذاب بالالوان نفسها ، كما في سهول دمشق (حران العواميد) . والحزام الفضي او الذهبي واجتصت به العروس والمرأة الفنية عموما ، وهو سلك فضي رقيق يتراوح عرضه بين ٧-٥ سم وله قفل جميل من الامام بزخارف متنوعة مصاغة بأسلاك رفيعة من الفضة الملتفة والمرصعة بالاحجار الكريمة المختلفة كالفيروز والياقوت (١١١) . ويعقد الزنار القماشى من احد الجانبين او من الامام لتتهز هدايه أثناء السير (١١٢) .

اما زي راس المرأة الريفية آتت فكان متنوعا وبأشكال مختلفة نتيجة لتنوع الموروث التاريخي ، فكان منه ما يعود في أصوله الى الكنعانيين والاشوريين والعثيين ، والمصريين وبلاد ما بين النهرين ، والفرس واليونان والرومان ، وقد اختلفت من منطقة الى اخرى من حيث تزيينه واستخدام المجوهرات والمصاغ في ذلك ، ومن حيث شكل العمام من اسطوانية ومخروطية . والنوع الاخير كان مخبيا للنساء لانه يزيد من طول المرأة ورشاقتها فتلبسها بنوع من الزهو وتلف فوقها طرحة شفافة ، كما في قرى القلمون وحوران .

الطاقية : وهي مستديرة الشكل بيضاء او حمراء وتسمى (عرقية) توضع مباشرة على الرأس ويلف في طرفها السفلي عند الجبهة صف من الفوازي العثمانية الذهبية (١١٣) وتسمى (شك او صفية) . وكانت الفاية من الطاقية تثبتت العمامة وامتصاص العرق . والتريان او الطرطور الذي استخدمته نساء جبل العرب وجبل لبنان ، وبعض القرى المحيطة بدمشق .

العصبة : وهي قطعة مربعة الشكل من القطن او الحرير ، ذات لون اسود او بني او خمري ، مطعمة بالخیوط الذهبية او الفضية في خطوط مستقيمة او بزخارف نباتية ولها هذاب على جميع اطرافها ، تطوى باتجاه احد القطرين بصورة مسننة ، وقد تطبق بانتظام حول الرأس بدارين او اكثر بحيث تظهر صفية الفوازي متدليلة على الجبين وخيوط القصب واضحة من الامام . ثم تعقد اطرافها من الخلف كاكثير مناطق دمشق او من الامام كما لدى نساء قرية زاكية ، او على احد الجانبين كنساء قرية يبرود وبخعة (١١٤) . ولقد سعت اكثر النساء لجعل العصبة عريضة من الامام لتستوعب مجموعات المصاغ الفضي والذهبي ، الذي يعكس في بريقه الازضاء والانوار على وجوههن ، فيزيدهن سحرا وجاذبية . وكانت العصبة تبطن من الداخل بحيث يبلغ وزنها الكيلو غرامين وقد توضع ضمن ثياباتها بعض الحشيات من الخروق لبدو شكل الرأس اكثر كبرا وفخامة ، مما يزيدها جمالا ومهابة . وفي جبل العرب تحولت العصبة الى طربوش احمر طري تثبت على اطرافه السفلى والعليا صفيات الفوازي ، وينتهي في

اعلاه بقرص ذهبي او فضي مصاغ بمواضيع زخرفية باسلاك فضية ملتفة حول نفسها بدوائر متناظرة ، وهذا ما يسمى عند الصياغ بطريقة (كسر جفت) .

ويصف أحد الرحالة الاجانب وهو (لين Lane : الذي زار مصر سنة ١٨٣٦ م فيقول : « ان النساء المصريات يلبسن على رؤوسهن طربوشا يلف حوله قماش او شال من الكشمير ، ويثبت عليه احيانا قرص من الفضة او الذهب ، ربما يدل على ان بنات جبل العرب قد توارثنه من عهد الفاطميين » . وقد تطورت هذه العصبة الضخمة فيما بعد في قرى وادي بردى ووادي تل منين وبعض قرى القلمون ، كالنبك ، الى شاشية رقيقة شفافة يعصب بها الجبين من الامام وعليها رسوم نباتية مختلفة (١١٥) .

الطرحية : وهي غطاء رقيق مؤلف من قطعة مستطيلة الشكل تسبل فوق العصبة فتغطيها كليا او جزئيا ، ويردف قسم منها الى الخلف ليلف به العنق وجزء من الوجه والكتفين . وقد تطول الطرحية عدة أمتار فتلف العنق وتردف الى الخلف حتى تصل الى الارض ثم ترفع الى الاعلى وتعلق بواسطة زنار المرأة كما في بعض قرى القلمون مثل يبرود وبخعة . وهي بيضاء في جبل العرب ووادي بردى وبعض قرى القلمون كالنبك والقطيفة ، وقد يكون لونها خليطا بين الاسود والبني ، كما في معلولا وعين التينة ورنكوس وغيرها من ريف دمشق . وفي بعض الاحيان كانت المرأة تكتفي بوضع لفاح اسود على الراس مباشرة يلف العنق وله طرر او هدايب على اطرافه ، كما في جبرود وصيدنايا . وقد يكون من الصوف البلدي المشغول بسنارة واحدة ، ويسمى صوفية ، كما في النبك ، وتكون سوداء او بلون الصوف . وقد تكون الطرحية من الحرير الطبيعي وتحاك بسنارة وتزين اطرافها وتسمى هذه بالقزية وتكون سكرية اللون (١١٦) .

الشنبر وهو منديل حرير اسود اللون مستطيل طوله متران او اكثر وعرضه بين ٥٠-٦٠ سم يطرح على الرأس مباشرة فيلف شعر الرأس والعنق والصدر ، ثم يردف الى الخلف فيغطي النقرة وتنزل اطرافه ذوات اللون الاحمر تحت ثوب المرأة الرئيسي المسمى (بالشرش) كما في حوران وغيرها .

العصبة كانت الغاية من لبسها على الرأس حماية الرأس من حر الشمس والعينين من الفبار الشديد ، لهذا تكون كثيفة وعريضة من الامام لتسمح بوضع قطع الحللي بصورة ظاهرة ، وتوضع العصبة فوق الشنبر مباشرة . وكانت في هضبة الجولان والجيدور بلون خمري مبرومة كالعقال ومقصة بخيوط من الفضة ، وتسمى في حوران « بالعصابة » وتكون طويلة من القطن وذات لون اسود تعقد عند مؤخرة الرأس بحيث يتدلى طرفها المثلث الشكل الى الاسفل (١١٧) .

الحلي : كان اهتمام نساء الريف بالحلي متفاوتا تبعا لوضعهم الاقتصادي والاجتماعي . صيغ الحلي من الذهب او الفضة وطعم احيانا بالحجارة الكريمة ، كما دخلت فيه قطع النقد المتداول آنذاك ، ذهبية وفضية . وقد تنوعت اشكاله واغراضه ، فكان منه حلي الرأس والاذنين والانف والعنق والصدر والمعصم والاصابع والوسط والكاحل . واهم الحلي التي ورد ذكرها في سجلات القسمة المختلفة هي :

الهرجة وكانت زينة لرأس المرأة . وهي عبارة عن طاقية من الفضة ذات سلسلتين عريضتين متقابلتين بعرض يتراوح بين ٤-٥ سم ، تتدلى منها ثريات فضية تتأرجح على جبينها بشكل اللوزة (١١٨) وترمز الى الماء والنماء والخصب والخير ، عسى ان تلاقيه في حياتها . وفي مؤخرة الطاقية شريط من القماش المزركش والمطرز بالالوان المختلفة مشغول بالابرة تعلق فيه قطع النقد الفضية ، وتغطي هذه العصابة عادة تقرة العروس او المرأة ، وتخرج من اسفلها دلالية من القماش المزخرف ايضا ، شبيهة بالقطعة السابقة بعرض ١٠ سم تقريبا تتدلى على الظهر حيث تعلق فيها مجموعة من الريالات ، العثمانية (المجيدي) ، وتكون عادة بعدد فردي ، ويحمل اخر ريان منها من الاسفل خمس قطع من النقود الفضية الصغيرة . يلي ذلك طرر حريرية ملونة ملتفة مرسلة ، وكانت تستعملها نساء منطقة المرج شرقي القوطة وهوران (٩١١) .

القلادة وهي طوق من الفضة تضعه المرأة في جيدها ويتدلى على صدرها ، ويتألف من سلسلة واحدة او سلسلتين تعلق فيهما قطع مختلفة من النقود الفضية القديمة وتخرج من كل منها عدة دلايات تحمل كل واحدة بدورها قطعة نقدية صغيرة . وتحتوي القلادة عدة سلاسل تحمل بدورها نقودا فضية بشكل القلب او اللوزة او الهلال او القرون او الاجراس ، وهي من حلي نساء القلمون بشكل عام .

الشكل وكانت من اجمل حلي الفضة آثند وتعتبر آية في فن الصياغة السورية ، وتعود في اصولها الى الاشوريين ، وكانت ترى في معظم مناطق ريف دمشق والمقاطعات التابعة لها .

الخلخال : زينت المرأة به ساقها وعضدها احيانا ، وكان من الذهب او الفضة وسمي (بالحجول) واضيف اليه اجراس للاطفال المدللين .

اما القرص المستدير فكان من حلي نساء جبل العرب يضعنه فوق طربوش احمر ، وكان من الفضة او الذهب وبه زخارف من اسلاك الفضة ملتفة على نفسها بدوائر تؤلف في مجموعها موضوعا فنيا رائعا يعود في جذوره الى الفاطميين في مصر (١٢٠) .

وهناك بالإضافة الى ذلك ، الحجاب (١٢١) على الوجه من الفضة ، او الجداذة او الزيقلية .

اما ما يتعلق بلباس القدمين فلم يختلف لدى المرأة عنه عند الرجل بصورة عامة ، فنعله مزدوج ليقاوم وعورة الارض ووجهه من الجلد الاحمر او الاسود او المائل الى الصفرة قليلا . وكانت النساء ينسجن القلشين ليلبسنه في الشتاء .

ومن احذية الفلاحين الصرماية وكان جلد وجهها احمر اللون بدائر ولا كعب لها . ومنها نوع لطيف الشكل يسمى (بنصف كشفة) ، وكذلك نوع اصفر لبسه بعض اهل العلم . وبقيت هذه الصنعة رائجة جدافي الشام (الى النصف الثاني من القرن التاسع عشر) (١٢٢) . ثم البابوج وله وجه اصفر بلا دائر لبسه اهل العلم وفقراء الطلبة غالباً ، وبعض النساء العجائز ، وكان على انواع ، فمنه نوع لنساء الفلاحين وهو انواع ايضا حسب عاداتهم بملبوسهم اذ كان لكل قرية طراز يخالف الاخرى (١٢٣) . ومن الاحذية التي لبسها الريفيون المست الاصفر والاسود (١٢٤) ، والجزمة ، وهي ما يلبسه الرجال وتستر الساق . وهي بدون كعب ، والعالي منها كان مفضلاً لدى امراء العرب ووجوههم ، جلدها احمر قان وبها طيات امام الساق ، وعلى رأس ساقها المطوي طرة حريرية طويلة لونها ازرق تلتف عليها خيوط من اللسيم ، وبأسفل قدمها حذوة من الحديد ، يلبسها البدوي ويفتخر بها وهي مثمرة ، والوسط دونها في القيمة والحسن ، والدون لها سوق مخصوص بميدان الحصا يقال له سوق الجزماتية يشتغلون بها الجزمات الدون لون جلدها ابرش والى الصفار اقرب ، يلبسها فلاحو حوران نساء ورجالا واهل تلك الجهات من البدو (١٢٥) .

ولابد من الاشارة الى ان قسماً كبيراً من الفلاحين ، نساء ورجالا ، لم تمكنه ظروفه المادية من انتعال الحذاء .

التجميل وادواته : لم يسمح المجتمع آنئذ للفتاة ان تضع على وجهها المساحيق والالوان (الغندرة) حتى ليلة زفافها ، واذا ما فعلت احداهن مثل ذلك كانت تعتبر خارجة على مألوف عاداته وتقاليده ، ويستدعي ذلك ذمها وتأنيبها والشك برصانتها ، مما جعل النساء لا يعرفن اصول الغندرة حتى اذا ما جاءت مناسبة غندرة الفتاة ، وهي ليلة زفافها ، استخدمت في ذلك كميات كبيرة خرجت عن المعقول وشذت عن القواعد الجمالية . الا ان المجتمع اقر للمرأة استخدام اساليب وادوات اعتبر من الاسس الجمالية والصحية في وقت واحد ، كالوشم تزين به وجهها مبالغة في ذلك لما له عندها من مكانة هامة ، والمواضع المختلفة من جسمها ، فالنقطة الزرقاء في راس الانف مثلاً

تسمى (دق) والمثلث المسنن من الخارج بين الحاجبين يدعى (حجاب) والخط المستقيم بنصف الشفة السفلى هو (رتمة) كما ان الرسوم على طرفي الفم والعينين والدقن ورأس الخدين والرسفين وعلى الزند والبطن والساق والظهر لكل منها اسمها ووظيفتها التجميلية او الوقائية او العلاجية .

الحناء ، وكانت المرأة تخضب بها يديها وقدميها في مواسم معينة وفي مناسبات خاصة ، كحنة رجب والعيدين وعند الزواج . وكان للحناء اشكال معروفة تسمى كل نقشة باسمها . وشارك الرجل والاطفال النساء في ذلك احيانا ، وجلب هذا الصباغ المسحوق من الهند وهو نوعان الاحمر لليدين والاسود للعجائز يتخذنه صباغا للشعر الشايب . ومن ادوات الزينة الكحل الذي استخدمه الجنسان على حد سواء وهو الاثمد من نوع الالتموان او شحار زيت الزيتون الذي كان يسحق وينخل بشاشة ناعمة جدا ويمزج ببعض الاصبغة العضوية ويوضع بمكحلة فيها ميل رفيع تخطط به العينان والحاجبان ، وكانوا يعتبرونه ذا قيمة تزيينية وطبية اذ يضاعف جمال العينين فيزيدهما اتساعا وصفاء او سوادا فوق البشرة البيضاء ، كما وان الحرارة والفبار الشديد يجعلان منه ضرورة لازمة لانهم كانوا يعتقدون انه يطفىء حرارة الاجفان ويزيد الرجال وقارا ومهابة .

واستخدموا للزينة البراق الناعم (درور) بتثبيته على وجه العروس الريفية ، وكانت تقوم بذلك الماشطة ، وسمي بعرف العرائس ، وكان يعطي لوجه العروس تموجات جميلة واستعمل في (بخعة وجبعدين) ، وهما قرستان سريانيتان ، وفي قرية حينة في جبل الشيخ ، وربما كان من اصول آرامية (١٢٦)

وكانت البنات والنساء يظن شعورهن التي اعتبرت رمزا للجمال، ويجعلنها صفائر محبوكة بجداول من الصوف الازرق يرسلنها على ظهورهن . وكانت الشريات منهن يزين جداولهن بقطع من النقد والفضة المتداولة آتئذ ودام ذلك حتى اواخر القرن التاسع عشر (١٢٧) . وكانت المرأة الريفية تحمل في ثنيات ثيابها حاجات خاصة بها ، كالحجب وفيها آيات قرآنية او بعض الادعية والتعاويد ، في غلاف معدني (فضة او ذهب) ، وتحمل في بعض الاحيان اطواقا من الخرز الازرق وقطع الشب ، تتوسطها احجار العقيق وناب الذئب وموسى صغيرة وجوزة وترس سلحفاة صغير ، ويحمل كل منها تاريخا لعقائد شعبية قديمة تعود لاقدم العصور ، اضافة الى انواع الخرز ، او تحمل الاجراس الرمزية وحذوة الحصان ، ومنها ما يمت لمذهب Animisme بصلة الاعتقاد ورمز الافعى (لباس جلود الحيوانات المفترسة القوية وكلها تعود الى عصر الصيد) وكانت المرأة تحمل في تلافيف زنارها دراهمها ومرآتها وابصرة الخياطة والكشتبان ، ومفتاح

صندوقها ومفتاح الدار الخشبي . واحيانا انواعا من القضاة والزيبب والتين وغيرها (١٢٨) .

وهكذا بقي المجتمع في بلاد الشام ، والريفي منه بشكل خاص ، لم تتبدل اوضاعه في ظل الدولة العثمانية التي حافظت على انماط حياته السابقة دون أي مسعى لتغييرها ، فاناخت عليه بكلكتها وابقتة رهين عادات عصور الانحطاط ، وفرضت عليه نظاما اقطاعيا جائرا ، ورسخت فيه امراض العصبية العائلية والعشائرية والاقليمية وفقدتها لتحصد عرقه وجهده وماله ، مستخدمة في ذلك موظفيها الذين كانوا في معظم الاحيان غرباء عنه ، فغرقوا منه اللحم عن العظم ، ولم تبق له من المقومات ما يتيح له التطور الحضاري مما جعله لا يقوى على مقاومة الاستعمار الغربي الذي سيظهر في الفترة اللاحقة ، ويطغى على ممتلكات الدولة العثمانية في المغرب العربي ومشرقه .

الحواشي :

- (١) انظر مشاققة ، ميخائيل ، مشهد العيان بحوادث سورية ولبنان ص. ٢ ، مصر ١٩٠٨ م .
- (٢) يذكر صاحب « المقترب في حوادث الحضر والعرب » بان الاغا الملتزم يرسل « وراء كبار الضيعة ويقول له انا املك شيخ على الضيعة واعزل فلانا ماذا تعطيني ؟ فيرغب التعيس بهذا الكلام ويدفع الف قرش ام الفين الذي يرتضوا عليه فيعزل الشيخ الحاضر وينصب الجديد . ومن المعلوم ان الشيخ الذي انزل من منصبه وترزل لا يسكت ولا يقبل عليه اللل والعار قدام اهل الضيعة فينزل على البلد ويتراعى على الاغا الضمان ويدفع اكثر مما دفع الشيخ الجديد فحينئذ الضمان يعمل ذنب الى الشيخ الجديد ويرجع القديم الى المشيخة ويكون كسب بهذه الحركة مقدار نصف الضمان ، ويوجد من الضمانة الطماعين الذين يعملون هذه الحركة مرتين في السنة . انظر : الصايغ ، فتح الله بن انطون ، ص ٦٧ آ وص ٦٧ ب ، (مخطوط) .
- (٣) السيوفي ، حبيب ، سورية ولبنان وفلسطين في القرن الثامن عشر ، ج ٢ ، ص ٦٠ ، صيدا ١٩٤٨ م
- (٤) مشاققة . المصدر السابق ص ٣٠ .
- (٥) انظر : حنا ، عبد الله ، القضية الزراعية والحركات الفلاحية في سورية ولبنان ، القسم الاول ، ص ١٢٨ ، ١٢٨ ، ١٢٩ ، بيروت ١٩٧٥ م .
- (٦) انظر : لوتسكي ، فلاديمير ، تاريخ الاقطار العربية الحديث (ترجمة عفيفة البستاني) موسكو ١٩٧١ ، ص ٩ .
- (٧) ابن عابدين ، محمد أمين ، رد المختار على الدر المختار ، ج ٢ ، ص ٥٢ ، القاهرة ١٢٩٩ هـ .
- (٨) يذكر محمد عابدين الذي كان آنذا احد امراء الفتوى في دمشق ، ان المفتي محمد خليل المرادي قد استفتي اكثر من مرة بشأن مثل هذه الاراضي ، واصدر فتواه في ذلك . انظر رد المختار على الدر المختار ج ٥ ، ص ٢١ . ووجد في فوطنة دمشق نوع من الزراعة في مثل هذه الاراضي اسمها (شد السكة) وكانت الارض تبقى بيد المزارع مدى حياته ويسجل ذلك في سجلات المحاكم دمشق وكان تركها والفراغ عنها الفلاح اخر يتم مقابل مبلغ من المال وعن طريق المحكمة وهذا حق يورث للابناء انظر : السجل رقم ٢٣٦ ، محاكم دمشق ١٢٥٠-١٢٥١ هـ ، ص ١٤٠ .
- (٩) المرادي ، محمد خليل ، سلك الدرر في اعيان القرن الثاني عشر ، مصر ، بولاق ١٣٠١ هـ ، ج ٢ ص ٤٢ .
- (١٠) المرادي ، المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ١٠٧ - ١٠٨ .
- (١١) انظر : سجل رقم ٢٢١ محاكم دمشق ص ٢٨٢ .
- (١٢) انظر : المرادي ، ج ٢ ، ص ٢٠٦ .
- (١٣) انظر : المرادي ج ٢ ص ١٨٢ .
- (١٤) انظر : سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ٢٤٠ / ١٢٥٠ - ١٢٥٢ هـ ، ص ٥٢ القضية بتاريخ ٢١ صفر سنة ١٢٥٢ هـ .
- (١٥) انظر : سجل محكمة الميدان رقم ١٢٥٩/٣٧٨ هـ ص ١ .

- (١٦) انظر : السجل رقم ٢٥٠/ص ١٤ ، ١٣٧ / . وفي سنة ١٢١٧ هـ كان (صوباشيا) على قرية برزة السيد ناجي جوريجي .
- (١٧) انظر : السجل رقم ٢٢١/١٢٠١-١٢٠٢ هـ ، ص ٧ ، ٢٨٨ ، ٧٢٤٢٨٩ .
- (١٨) انظر : سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٦٠ / ١٢٢٢ - ١٢٢٣ هـ ، ص ٣٩ ثم سجلها رقم ٣٤١ ، ص ٣٨ .
- (١٩) انظر : سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٥٠ / ١٢١٦ - ١٢١٧ هـ ، ص ٢١٧ .
- (٢٠) انظر : سجل القسم العسكرية بدمشق رقم ٢٤١ / ١٢١٢ - ١٢١٣ هـ ، ص ٤٢ .
- (٢١) انظر : سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٥٠ / ١٢١٦-١٢١٧ هـ ، ص ٧٩ .
- (٢٢) انظر : سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٢١ / ١٢٠١ - ١٢٠٢ هـ ، ص ٧٢ ، ٢١٢ ، ٣٤٣ ، ٣٦٩ ، ٣٧٠ .
- (٢٣) انظر : سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٦٠ / ١٢٢٢-١٢٢٣ هـ ، ص ١٤٩ .
- (٢٤) القاسمي ، محمد سعيد ، وجهال الدين و خليل العظم ، قاموس الصناعات الشامية ، تحقيق ظافر القاسمي ، جزان ، باريس ١٩٦٠ ، ج ١ ص ٩٦ .
- (٢٥) المصدر السابق ج ١ ص ١٢٨ ، ١٥٥ .
- (٢٦) حنا ، المرجع السابق ص ١٢٠ ، ثم القاسمي ، قاموس ، ج ١ ص ١٥٦ ، ١٥٣ ، ١٦٨ .
- (٢٧) انظر الصايغ ، المقرب ، ٧٠ ب ، ٢٧١ .
- (٢٨) Burckhardt, J.I., Travel in Syria and Holyland. London 1822, pp. 299-301 .
- (٢٩) انظر : خنشت ، يوسف موسى ، طرائف الامس فرائب اليوم ، او صورة من حياة النبك وجبل القلمون في اواسط القرن التاسع عشر ص ٤٨ .
- (٣٠) انظر سجل محكمة الميدان رقم ١٩٨/ص ٢٢ . وكان هناك نوعان من العدان عدان كبير وعدان صغير فمثلا قرية الخيارة كانت ترتوي من نهر الزلف لها عدانان كبير وصغير ، الكبير كل ١٤ يوم نهار الخميس وليلة الجمعة كامل النهر اما عدانها الصغير فكان يوم الجمعة الثانية وليلة السبت نصف النهر ، وكما ترى فقد حدد العدان باحد ايام الاسبوع وساعات من اليوم ، مثال ذلك بستان الزاغة من اراضي القنية والحمرية شربه من نهر المعلقات من ماء الخراق ومن الخلخال يوم الاثنين من الفجر الى غروب الشمس في كل اسبوع ومن المعلقات والكلاب نهار الجمعة من الفجر الى غروب الشمس وليلة الاربعاء في خمسة عشر يوما من غروب الشمس الى فجر نهار الخميس انظر : سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٣٢٣ ، ص ١٢٩ .
- وكذلك اراضي التنطاع بالجورة بها اراضي فواكه وزيتون تروى من نهر الانباط عدانان في كل سبعة عشر يوما على نوب اهله وفي كل اربعة وثلاثين يوما خمس ساعات من نهر الانباط والشاغور على نوب اهله وفي كل اربعة وثلاثين يوما خمس ساعات من نهر الانباط والشاغور على نوب اهله اربعة ايام وثلاثا يوم مع لياليها وفي اوائل تشرين السبت من نهر الانباط والاحد من نهر بانياس .
- انظر : السجل رقم ٣٣٦ محاكم دمشق ، ص ٧٢ كما كان مستأجرو بساتين الوقف في دمشق

والتي كانت تروى من فروع بردى يدفعون للدولة مبلغا من المال مقابل ما يدخل الى بساينهم من الماء من ماصية النهر .

انظر : سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٢١ / ١٢٠١-١٢٠٩ هـ ، ص ٤٩ .

(٢١) انظر سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٢٤ / ص ١٨٩ القضية ٨ محرم ١٢١١ هـ ثم ص ٥ من السجل نفسه .

(٢٢) وهي فروع من بردى مثل : يزيد ، قنوات ، بانياس ، الداراني ، تورا ، العقرياني ، الداعياتي ، المليحي ، الزيديني ، الزابون ، البيلائي ، الملك ، الشعراي ، الابيض وغيرها . وكان كل واحد من هذه الفروع يروي جهة معينة من غوطة دمشق اما تقسيمها فكان يعود الى عهود قديمة وكان لكل قرية ايام مخصوصة تعرف بالعدان ، انظر : القاسمي ، قاموس الصناعات الشامية، ج٢، ص ٤٢٩ .

(٢٣) القاسمي ، قاموس الصناعات الشامية ج٢ ، ص ٢٤٢، ٢٤٣ ، ٢٤٩ ، ٢٥٠ .

(٢٤) انظر : البديري الحلاق ، حوادث دمشق اليومية ، تحقيق احمد عزت عبد الكريم ، القاهرة ١٩٥٩ ، ص ٧١ .

(٢٥) العبد ، حسن اغا ، تاريخ حسن اغا العبد ، ص ١١٢ ، تحقيق يوسف نعيمة ، دمشق ١٩٧٩ .

(٢٦) المصدر السابق ص ١٢٠ .

(٢٧) المصدر السابق . ص ١٢١ .

(٢٨) انظر : العبد ، المصدر السابق ص ١٥٢ .

(٢٩) انظر : سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٢١ ، ص ٢٨٨ .

(٤٠) القاسمي ، المصدر السابق ، ج ١ ص ٥٥-٥٦ .

(٤١) Volney, C.F. Voyage en Egypt et en Syrie, 3 vol., Paris 1823, p. 378.

(٤٢) الرافعي ، مصطفى ، الاسلام نظام انساني ، ص ١٢٥ ثم : حنا ، القضية الزراعية ، قسم ١، ص ١١٠ .

(٤٣) القاسمي ، المصدر السابق ج ٢ ، ص ٣١٠ .

(٤٤) حنا ، المرجع السابق ، ص ١٠١ - ١٠٢ .

(٤٥) انظر : مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق العدد ٩ ، ١٩٢٩ م ، ص ٦٤٥-٦٤٦ .

(٤٦) انظر : كرد علي ، محمد ، جباية الشام في الاسلام ، مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق العدد ١ ، ١٩٢١ م ، ص ٢٦٥ .

(٤٧) انظر : الوثائق التاريخية في دمشق ، المجلد الثاني ، ص ٣٦-٣٧ ، الوثيقة رقم ٣ / سنة ١٢٤٥ هـ دار الوثائق التاريخية - المتحف الوطني بدمشق .

(٤٨) خوري ، فيليب ، مؤتمر تاريخ بلاد الشام الثاني ج ١ ص ٤٥٤ ، ١٩٧٨ م .

(٤٩) نفس المرجع ج ١ ص ٤٤٩ .

Polk, W.R., The opining of South Libanon, 1788-1840, Harvard univ. Press, 1963, p. 180. (٥٠)

(٥١) انظر: رستم ، اسد ، الاصول العربية لتاريخ سورية في عهد محمد علي باشا ، بيروت ١٩٢٠-١٩٣٤ المصدر السابق ٤١٣ ص ٨٢ ، ٨٥ ، ٩٨ .

(٥٢) انظر : الصايغ . فتح الله ابن انطون المقرب في حوادث الحضر العرب . ص ٧٦ ب ص ١٧٧-١٨١ ثم انظر : Polk, op. cit., p226

(٥٣) انظر : رستم ، المصدر السابق ، ص ٨١ .

(٥٤) رستم ، اسد المصدر السابق ، المجلد ٣-١ . ص ١٥٠-١٥١ . ولقد سكنت /٧٤/ قرية في منطقة حلب وزادت مساحة الاراضي التي غرست بالاشجار او زرعت اراضيها وزاد عدد القرى من ٢٢٨ الى ٦٨٢ ما بين عامي ١٨٣٦-١٨٣٨ م ، انظر : Polk. op. cit. p. 168

(٥٥) انظر : رستم ، المصدر السابق ، المجلد ٣-١ ص ٢٢٦ . ثم انظر : Polk, op. cit, p. 223

(٥٦) رستم ، المصدر السابق ص ١٦٦ .

(٥٧) حنا ، القضية الزراعية القسم الاول ، ص ١٠٠ .

(٥٨) رستم ، المصدر السابق ص ١٦٨ .

(٥٩) انظر سجل محكمة حماه رقم ١٢٥٠/٥ - ١٢٦٢ هـ ص ١١١ .

Polk, op. cit , p. 169 (٦٠)

Ibid., p 223. (٦١)

(٦٢) انظر : رستم ، المصدر السابق ، المجلد ٣-٤/ص ١٨٥ .

(٦٣) انظر : حنا ، القضية الزراعية ، ص ١٠٠ . وجاء في مراسلة اهالي قرية الشفونية الى القاضي العام مايلي : « اعلاما به لكل واقف عليه وناظر فيه ومستمع اليه من اسباب الديون المترتبة بدمه اهالي قرية الشفونية بوجه العموم يحيطون علما ويدركون اذعانا وفهما انه ثبت لدينسا وتحقق عندنا كثرة ديون اهالي القرية ووفرة مطلوباتهم والاضمحلال احوالهم وتلف مزرعاتهم وموت بقرهم وآل حالهم الى الدثور والاضمحلال ولخراب قريتهم وتعطيل الاموال الميرية المترتبة عليهم وان عليهم ديون كثيرة ومطالب وفيرة لاقدرة لهم على ادائها الا على حكم التقسيط بان يدفعوا اولا الاموال الميرية الذي عليهم وثمان مزرعاتهم وبقروهم ومصارف تمشية احوالهم وبعد ذلك يدفعوا عليهم من الديون لاربابها في عشرة اقساط متساوية كل سنة عشر الديون الذي بدمتهم لاربابها لكل صاحب مائة قرش عشرة غروش من فاضل كسبهم بعد اداء مصاريفهم اللازمة وبعد اداء الستة الاف الذي بدمتهم لايتام الشيخ محمود وبعد ما ابرزوا ما في يدهم عرضحال مشروح عليه لنا من قبل حضرة كتحدا افندينا ولي النعم والي الشام حالا » .. عرض ذلك القاضي العام وقام بدوره برفعها الى الوالي .. تحريراً في تاسع عشر من شوال / سنة ١٢٥٩ هـ .

الداعي السيد محمد نظيف القاضي بدمشق

- انظر : سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ١٢٥٩/٣٧٩ هـ ، ص ٣٧ وما بعدها .
كما ترى مثيلا لهذه العريضة في ١٦ شهر شوال ١٢٥٩ هـ وختام ذو الحجة ١٢٥٩ هـ وثلاثة عشر ربيع الاول سنة ١٢٦٠ هـ .
- (٦٤) الصباغ ، ليلي ، المجتمع العربي السوري في مطلع العهد العثماني ، دمشق وزارة الثقافة ١٩٧٢ ، ص ١٥٠ .
- (٦٥) Gibb, H.A.R. and Bowen, Harold , *Islamic society and the west*, 2vol. in 4 Parts, London 1954, vol. 1, pp. 212-246.
- (٦٦) حطب زهير ، تطور بنى الاسرة العربية ، لبنان ١٩٧٦ ، ص ١٥٩ .
- (٦٧) الصايغ ، المقرب ، ص ٢٧٨ ، ٢٧٩ ب ، ٢٨٠ ، ٢٨٠ ب .
- (٦٨) الصايغ ، المقرب ، ص ٦٠ ب ، ٢٦١ .
- (٦٩) Burckhardt, op. cit. p. 299
- (٧٠) جيب وباوون ، المجتمع الاسلامي والقرب ، (الترجمة) ج ٢ ، ص ٨ ، ٢٣ .
- (٧١) المرادي ، سلك الدرد ، ج ٢ ، ص ٢٧٦ .
- (٧٢) مجهول ، مذكرات تاريخية ، ص ٣٥ .
- (٧٣) المقرب في حوادث الحضرة والعرب ص ٤٥ ب ، ٢٢٦ .
- (٧٤) الصباغ ، المرجع السابق ، ص ٥٨ ، ٥٩ .
- (٧٥) البديري الحلاق ، حوادث دمشق اليومية ص ١٤٤ .
- (٧٦) ياسكوال ، جان بول ، المؤتمر الثاني لتاريخ بلاد الشام . مقالة بعنوان (البيئة والتقليد في حوران في القرن التاسع عشر) ج ١ ، ص ٤١٧-٤١٨ .
- (٧٧) باسكوان ، المرجع السابق ، ص ٤١١ ، ٤١٧ ، ٤١٨ .
- بيع اردب الارض في سنة ١٨٤٠ م في اللاذقية بمائتين وخمسين قرشا . انظر الصايغ ، المصدر السابق ص ٨٨ . والاردب عبارة عن ثلاث قفات مصرية .
- (٧٨) الغزي ، كامل بن حسين بالي ، نهر الذهب في تاريخ حلب ، ج ٢ ، ص ١٢ ، ١٢٦ ، الطبعة المارونية ١٩٢٢ - ١٩٢٦ م .
- (٧٩) تقي الدين ، محمد اريب ، منتخبات التواريخ لدمشق ص ٥٦٩ ، ٥٨٦ ، بيروت ١٩٧٩ م .
- (٨٠) خاطر ، لحد ، العادات والتقاليد اللبنانية ج ٢ ، ص ١٠٤ ، ١٣٣ ، ١٣٤ .
- (٨١) المقرب ، ص ٢٧٤ .
- (٨٢) انظر : باسكوال ، المرجع السابق ج ١ ص ٢٢٣ .
- (٨٣) المرجع نفسه ص ٤٢١ ، ٤٢٢ ، ٤٢٣ .
- (٨٤) Burckhardt, op. cit. pp. 292-94

- (٨٥) نقصد بريف دمشق سكان الريف نساء ورجالا الذين استقروا في المناطق التابعة لدمشق، في القوطة وادي بردى وجبال القلمون وحوران وجبل حوران في هذه الفترة .
- (٨٦) انظر سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ٢٩٩ ص ١٧٥ ، ثم سجلها رقم ٢١٥ ص ١٨٠ .
- (٨٧) حمامي ، حسن ، الاذياء الشعبية وثقاليدها في سورية ص ١٢٨-١٤٣ ، دمشق ١٩٧٢ حيث يقول ايضا : ان الجروال تسمية فارسية الاصل وقد انتشر هذا النوع في بلاد فارس والعراق وسورية وعلى طول سواحل المتوسط حتى اسبانيا حيث كان يسمى فيها (Guraguella) وكان قيسد الاستعمال في اليهود الاسلامية الاولى .
- (٨٨) المرجع السابق ، ص ١٥١-١٥٢ .
- (٨٩) المرجع السابق ، ص ١٦٢ .
- (٩٠) Burckhardt, op. cit. pp. 294, 303, 306.
- (٩١) حمامي ، المرجع السابق ص ١٥٢ .
- (٩٢) Burckhardt, op. cit., P. 294. and see : Russell, A., The Natural history of Aleppo, London 1794 , vol. 1, P. 111.
- (٩٣) انظر سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ١٢٥٦/٢٦٤ - ١٢٥٧ هـ ص ٢٥ : تركة شاكز محمد رجب من اهالي دوما المتوفى سنة ١٢٥٧ هـ .
- (٩٤) ص ١٣٢ - ١٣٤ ، ١٣٧ .
- (٩٥) حمامي ، المرجع السابق ، ص ١٢٨ .
- (٩٦) Porter, J. I., Five Years in Damascus , London 1855, vol. 1, p. 337.
- (٩٧) القاسمي ، المصدر السابق ، ج ١ ص ٨٢ .
- (٩٨) حمامي ، المرجع السابق ، ص ١٦٧ ثم القاسمي ، المصدر السابق ، ج ٢ ص ٢٧ .
- (٩٩) Burckhardt, op. cit., p. 306.
- (١٠٠) IBID ? p. 294 .
- (١٠١) انظر سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ٢١٥ ص ١٨٠ .
- (١٠٢) انظر سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ٢١٥ / ١١٩٧ - ١٢٠٠ هـ ، ص ١٨٠ ، القضية في محرم سنة ١١٩٩ هـ .
- (١٠٣) المصدر نفسه ص ١٠٦ ، القضية في ختام شوال سنة ١١٩٨ هـ .
- (١٠٤) انظر : سجل القسمة العسكرية رقم ٢١٥ ص ٩ ، تركة نفيسة بنت علي بيلسون من قرية كفرسوسية المتوفاة سنة ١١٩٨ هـ ، ثم ص ١٨٨ : تركة رحمة بنت الحاج محمد من اهالي قرية دوما المتوفاة سنة ١١٩٩ هـ .
- (١٠٥) حمامي ، المرجع السابق ، ص ١٧٢ ، ثم سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ٢٩٩ / سنة ١٢٣٧ هـ / ٢١٥ : تركة المرحومة رابعة بنت السيد احمد الجاني من اهالي قرية حرستا .

- (١٠٦) المرجع السابق ، ص ١٧٩-١٨٠ .
- (١٠٧) انظر : يوسف نعيسة ، مجتمع مدينة دمشق ، رسالة لنيل درجة الدكتوراه ، جامعة القاهرة ثم جامعة دمشق ، ١٩٨٣-١٩٨٤ ، ص ٤١٨ .
- (١٠٨) حماني ، المرجع السابق ، ص ١٩٠، ١٩٩ .
- (١٠٩) انظر سجل القسم العسكرية بدمشق رقم ٢١٥ ص ٩ ، تركة نفيسة بنت علي بيغون من قرية كفرسوسية المتوفاة سنة ١١٩٨ هـ ، ثم ص ١٨٨ : تركة رحمة بنت الحاج محمد من قرية دوما المتوفاة سنة ١١٩٩ هـ . ثم رقم ٢٦٥ ص ١٢٤ : تركة صفية بنت الشيخ محي الدين من قرية كفرسوسية المتوفاة سنة ١٢٤٣ هـ .
- (١١٠) انظر : سجل القسم العسكرية رقم ٢٦٥ ، ١٢٥٢ هـ ، ص ١٢٤ : تركة صفية بنت الشيخ محي الدين من قرية كفرسوسية .
- (١١١) انظر : سجل القسم العسكرية رقم ٢١٥ ص ١٨٨ : تركة الحاجة رحمة بنت الحاج محمد من اهالي قرية دوما ، القضية في ١٩ / ربيع الثاني سنة ١١٩٩ هـ ، ثم رقم ٢١٥ ص ٦٨ : تركة كلسن بنت خليل عبدالله المتوفاة ١١٩٧ هـ كان لديها زنار من الفضة وزنار من الذهب .
- (١١٢) حماني ، المرجع السابق ص ١٩٠ ، ١٩٩ .
- (١١٣) استخدمت المرأة أنواعا عديدة من النقود الذهبية عثمانية وغير عثمانية في هذه الصفة وغيرها من أدوات الزينة ، وكان من هذه النقود : غازي قديم ، وفندقلي ، وعادلي ، ومجري وجهادي تاريخي اسلامبولي وفرنجي ابوشوشة ، وفرنجي ابو عامود وغيره . انظر سجل القسم العسكرية بدمشق رقم ٢٦٥ ص ٣٠ .
- (١١٤) انظر : سجل القسم العسكرية بدمشق رقم ٢٢٩ / ص ٢١٨ : تركة اسما بنت علي بن الشيخ عمر من كفرسوسية .
- (١١٥) حماني ، المرجع السابق ، ص ٢٠١ .
- (١١٦) كانت تسمى « شيكان قزي » انظر : سجل القسم العسكرية بدمشق رقم ٣٦٤ ص ٤ : مخلفات اسما بنت محمد شريف المطار المتوفاة سنة ١٢٥٦ هـ .
- (١١٧) حماني ، المرجع السابق ، ص ٢٠٦ ، ٢٠٨ .
- (١١٨) سميت في مدينة دمشق (بالسنبورة) وهي من الذهب . انظر : سجل القسم العسكرية بدمشق رقم ٢١٥ ص ٦٨ : تركة كلسن بنت خليل عبد الله المتوفاة سنة ١١٩٧ هـ في دمشق .
- (١١٩) حماني ، المرجع السابق ، ص ٢٠٩ .
- (١٢٠) المرجع السابق ص ٢١١، ٢١٥ .
- (١٢١) انظر : سجل القسم العسكرية بدمشق رقم ٢٦٥ ص ١٢٢ : تركة الحرمة صفية بنت الشيخ محي الدين من قرية كفرسوسية .
- (١٢٢) القاسمي ، قاموس ، ج ٢ ص ٢٧٠ .
- (١٢٣) المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٥٧ .

- (١٢٤) المصدر السابق ، ج ٢ ص ٤٤٣ .
- (١٢٥) المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٨١ .
- (١٢٦) حمادي ، المرجع السابق ، ص ٢٢٣ ، ٢٢٥ .
- (١٢٧) خنشيت ، المرجع السابق ، ص ١٥ .
- (١٢٨) حمادي ، المرجع السابق ، ص ٢٢٦ .

التجارة الدولية في مناطق شرق الأردن (من جنوب الشام) في العصر المملوكي

د. يوسف درويش عنوانه

جامعة اليرموك

كان لبلاد الشام دور متميز في التجارة الدولية منذ اقدم العصور ، ونالت منطقة شرق الاردن حظا وافرا من تلك التجارة ، منذ ان اصبحت الطرق التجارية تتجه نحو البحر الاحمر والجزيرة العربية عبر الاردن الحالي ، فازدهرت لذلك كل من ايلة (العقبة) ، والبتراء ، وعمان وجرش (١) . ولم تنته العلاقات التجارية بين الشام والغرب الاوربي بالفتوحات الاسلامية ، فالعرب لم يتكفؤوا على انفسهم بسل اعطوا التجارة والعلاقات الدولية عناية خاصة ، وفتحوا اسواق الشام وتجارته امام الغرب الاوربي بشكل واسع (٢) . وظلت أهمية منطقة الاردن قائمة طيلة العصر الاسلامي ، وظلت دروبها تخدم حركة المواصلات والاتصالات البريدية بين الحجاز وبلاد الشام ومصر .

ففي العصر الاموي يبرز ثراء مدينة دمشق التجاري والاقتصادي في وسط بلاد الشام ، وتبقى منطقة الاردن همزة الوصل بين العاصمة والجزيرة العربية (٣) . وفي العصر العباسي تنشط مدينة عمان ، ويتجلى دورها بخروج شبكة من الاتصالات والمواصلات منها ، لتربطها بالعراق والحجاز وبقية المدن الشامية (٤) . واتسع دور بلاد الشام في التجارة الدولية في فترة الوجود الفرنجي في المنطقة ، فالدويلات الايطالية قدمت المساعدات العسكرية لمملكة بيت المقدس مقابل امتيازات تجارية في الموانئ الشامية (٥) . وبقي هذا الدور قائما في العصر المملوكي ، فاستقر بالمدن الشامية وموانئها

عدد كبير من تجار البندقية ، وجنوا ، وامالفي ، وفلورنسا ، وقطلونيا ، وبرشلونة ، وفرنسا (٦) ، وبعض مواطني شمال أوروبا المرافقين للجنويين والبنادقة ، كما استقر فيها وكلاء الشركات الأجنبية الأوروبية التي لها فروع في الشرق ، نذكر منها شركة باردي (Bardi) الفلورنسية ، التي كان لها فرع في مدينة بيت المقدس (٧) .

وسبب اقبال الاجانب على بلاد الشام بهذا الشكل يرجع الى اتصالاتها الوثيقة والمباشرة مع اسواق الشرق ، كما ان مدنها وموانئها كانت مهبط الحجاج المسيحيين الغربيين الى بيت المقدس (٨) . وكانت مواسم الحج الاسلامية والمسيحية فرصة للتبادل التجاري بين الشرق والغرب ومن هنا فان اسواقها فاقت اسواق مصر في تنوع السلع التي ترد اليها (٩) . وفي هذا المجال لابد ان نذكر قبرص التي كانت تستودر التوابل والسلع الشرقية عبر الطريق القادم من سورية وموانئها ، وقد اكتظت اسواقها بالسلع الشرقية ، حتى ان احد الرحالة الالمان قال : « ان التوابل في قبرص اكثر من الخبز في المانيا » (١٠) . وكانت دمشق وبيت المقدس وحلب وبيروت وعكا ويافا وطرابلس وصور وصيدا من المدن التي ازدهرت تجاريا في العصر المملوكي ، واستقر فيها عدد من التجار الاجانب (١١) . ومما تجدر ملاحظته ان الدول الأوروبية بنت علاقات تجارية متطورة مع مصر وبلاد الشام ، واعتمدت هذه التجارة على السلع المتبادلة بين الشرق والغرب ، فالسلع الشرقية تركزت بشكل رئيسي على التوابل ، والحريير والعاج ، وبالمقابل تركزت صادرات الغرب الى الدولة المملوكية على الحديد ، والاشباب وادوات الملاحة ، والرقيق (١٢) .

وقد لعب طريق البحر الاحمر دورا متميزا في نقل السلع الشرقية الى المدن الشامية ، واعتبر البحر الاحمر احد شرايين التجارة الدولية منذ اقدم العصور (١٣) . ونهضت مكة في وسط الحجاز كمركز تجاري له اهميته ، وارتبطت بعلاقات تجارية قبل الاسلام مع الهند والصين واليمن والخليج العربي ، والعراق والشام والساحل الافريقي ، واعتمد اقتصادها على التجارة بالدرجة الاولى ، فقدرت بعض المراجع صادراتها السنوية من السلع الشرقية بمبلغ ١٥٠.٠٠٠.٠٠٠ دولار (١٤) ، ولكن التطور الكبير لتجارة البحر الاحمر يظهر في العصرين الايوبي والمملوكي ، حتى اصبح بحق اهم شريان دولي للتجارة الشرقية ، وذلك بعدما تعطل الطريقان الاخران : طريق الخليج العربي ، وطريق اواسط آسيا ، بسبب الظروف غير المستقرة سياسيا وعسكريا التي المت بالاقطار المحيطة بهما (١٥) . وقد استفل المماليك بذلك هذا الطريق التجاري ، فسنوا الانظمة والقوانين التي من شأنها جلب التجار الاجانب الى بلادهم . نذكر من ذلك المرسوم الذي اصدره السلطان قلاوون ٦٧٨هـ - ٦٨٩هـ / (١٢٧٩ - ١٢٩٠ م) ، للتجار الاجانب في الشرق والغرب يدعوهم لزيارة بلاده وموانئها ، وجلب سلعهم ، حيث

سيلاقون المعاملة الحسنة ، والتسهيلات الخاصة ، بعيدا عن الجور والظلم ، فالعدل في بلاده سيحميهم . ومما ورد في مرسومه قوله :

« فمن وقف على مرسومنا هذا من التجار المقيمين باليمن والهند والصين والسند وغيرهم ، فليأخذ الأمانة في الارتحال اليها ، والقدوم عليها ، ليجد الفعال من المقال اكبر ، ويرى احسانا يقابل في الوفاء بهذه العهد بالاكثر ، ويحل منها في بلدة طيبة ورب غفور ، وفي سلامة من النفس والمال . . ومن احضر معه بضائع من بهار واصناف تحضرها تجار الكارم* فلا يخاف عليه في حق ، ولا يكلف امرا يشق ، ابقى لهم العدل ما شاق ورفع ما شق . . الخ» (١٦) . ويرى لابييدوسى (Lapidus) أن حسن الضيافة والتفهم الجيد والمعاملة الحسنة من الممالك ، شجعت التجار الاوربيين للاتجار معهم (١٧) . ثم ان التجار العرب المسلمين كونوا في العصر المملوكي مستوطنات ومراكز تجارية في وسط وشرق افريقيا وفي المدن الهندية والصينية الساحلية وجزر جنوب شرق آسيا (١٨) .

وحماية للتجارة اقام الممالك الدرك لحراسة الطرق التي تنتقل من خلالها المتاجر والسلع المختلفة ، وبنوا الخانات والفنادق خدمة للمسافرين ، واشاعوا الامن والاطمئنان فيها ، مما مكن القوافل التجارية من التنقل بحرية وامان في الدروب والمسالك الشامية المختلفة (١٩) .

وكان ميناء ايلة (العقبة) على الطرف الشمالي للبحر الاحمر دوره في حركة التجارة الدولية ، فأيلة اتصلت منذ القدم بالبصرة وبطريق اطلق عليه فيما بعد (الطريق السلطاني) (٢٠) . ولكن دور هذا الميناء يبرز واضحا في العصر المملوكي ، فقد كانت السفن التجارية ترسو فيه ، فابن اياس يذكر عن وجود « قصر في (ايلة) يسكن فيه قباض المكوس بسبب مراكب التجار التي ترد هناك من الهند واليمن والصين وغير ذلك من البلاد » (٢١) . ومن هذا الميناء تنقل السلع برا عبر الهضبة الاردنية الى دمشق وبيت المقدس وحلب (٢٢) . وساعد في خدمة حركة التنقل هذه خانات :

* الكارم والكارمية : اسم اطلق على ملاك السفن والتجار المترددين على بلاد الهند والصين ، والساحل الشرقي لافريقيا ، وبدا نشاط هؤلاء التجار منذ العصر الفاطمي ، ولكنهم بلغوا اوج قوتهم ونفوذهم في العصر الايوبي والمملوكي ، وشكلوا اكبر قوة مالية آنذاك . وقد عمل الممالك على الاطاحة بهذه القوة التجارية والتقليل من نفوذهم الاقتصادي والاجتماعي ، ومنعهم من التمتع بالنفوذ السياسي ، فلم يرغبوا بوجود قوة اخرى تناهض قوتهم (جوايتن ، دراسات في التاريخ الاسلامي والنظم الاسلامية ، ترجمة عطية القوصي ، الكويت ، ١٩٨٠ ، ص ٢٧٩) وانظر : القلقشندي ، صبح الاعشى ج ٤ ، ص ٣٢ .

العقبة ، والحسا ، وعنيزة ، والقطرانة ، وعمان ، فاقامت البرك قرب هذه المخططات لسقيا المسافرين ، كما اوجد الممالك مركزا لقباض المكوس في جسر الحسا على امتار قليلة من الخان ، كان المتحصل منه عشرة الاف مثقال من الذهب سنويا (٢٢) ، بالإضافة الى مركز اخر اقاموه في (بويب العقبة) جنوب العقبة الحالية ، لتمكيس السلع التجارية القادمة برا من جدة في طريقها الى الشام ومصر عبر ايلة (العقبة) وسيناء (٢٤) .

وخدمة لحركة التجارة البعيدة المارة عبر منطقة شرق الاردن اقيمت الاسواق الموسمية وبالاخص في فترة مرور قوافل الحج الشامي والمصري في طريقها الى الحجاز . فقوافل الحجيج هذه خدمت حركة التجارة العابرة (الترانزيت) ، فكان موسم الحج فرصة للتجار للبيع والشراء وجلب السلم الشرقية من الحجاز ، وتقل السلع الشامية بالمقابل (٢٥) . ذكر ابو المحاسن ان مدينة جدة في اواخر العصر المملوكي كانت الميناء الرئيسي للسلع الشرقية (٢٦) ، لذا بنوا حولها سورا وزودوه بالابراج الحصينة والمدافع (٢٧) . وكان يصل الى مكة في مواسم وصول سفن الهند الى عدن ما لا يقل عن ٨٠.٠٠٠ جمل ، وفي العادة يوقت وصولها في معظم السنوات في موسم الحج ، وتستمر هذه القوافل في طريقها الى دمشق ، ومن ثم تعود بسلع الشام والغرب الاوربي الى عدن ومنها الى الهند (٢٨) .

وكانت قوافل الحج الشامي تسير من دمشق وتجتمع في مزيريب قرب درعا . ومنها الى الرمثا فتقيم فيها عدة ايام . وقد دلت الكشوف الاثرية التي اجرتها جامعة اثرموك في موقعها الدائم القريب من الرمثا وجود الاف القطع الفخارية المملوكية على مساحة كبيرة وفي اماكن متعددة ، مما يدل على ان هذه القوافل كانت تقيم في هذا المكان للراحة وللبيع والشراء ، وكانت فرصة لتجار المناطق المجاورة ، ورجال القبائل العربية لبيع ما لديهم وشراء ما يحتاجونه . وتواصل هذه القوافل سيرها الى الظليل الواقعة بين الفرق وانزرقاء ، ومنها الى الزرقاء وهي بلدة وافرة المياه ، فتقيم فيها عدة ايام لتواصل سيرها الى زيزاء قرب عمان ، ومنها الى اللجون ، ثم الى الثنية خارج الكرك ، فتقيم اياما ثم تواصل سيرها الى معان ومنها الى عقبة الصوان وذات حج في طريقها الى الحجاز (٢٩) . وقد تغير درب الحج الشامي اكثر من مرة منذ القرن الاول للهجرة (السابع الميلادي) (٣٠) ، ففي بعض الاحيان تسير القوافل من دمشق الى الكسوة ، الصنمين ، زرعه (درعا) ، بصرى ، ومن بصرى كانت تتجه في فتره الاحتلال الفرنسي لمنطقة جنوب الاردن الى الازرق ، باير ، الجفر ، الى ان تصل الى معان (٣١) ، او تتجه من بصرى الى زيزاء راسا - وقد سلك هذا الطريق ابن بطوطة في القرن الثامن الهجري/ (الرابع عشر الميلادي) - ومن زيزاء الى اللجون ، ثنية الكرك ،

معان ، ومن معان الى عقبة الصوان ، ذات حج ، وادي بلدح ، تبوك ثم العلا فالمدينة المنورة (٢٢). و احيانا كان ركب الحجيج الشامي يتجه من معان الى ايلة ثم الى تبوك في طريقه الى الحجاز (٢٣) ويذكر ابن فضل الله العمري ان اسواقا كبيرة كانت تعقد في هذه المحطات وصفها بقوله : « وهي قرى عامرة ذوات ماء واسواق ومعايش وجلابة » (٢٤). وتذكر المصادر ان سوقا تجاريا متشعبا كان يعقد في مدينة ايلة (العقبة) في العصر المملوكي وصفه ابن فضل الله العمري قائلا : « وهو مكان مقصود تأتي اليه اجلاب الشام ، وتقام به الاسواق العظيمة الممتدة المتشعبة التي لا توجد في امهات الاقاليم وكبار المدن . ولعل انه لا يعدم فيها موجود من : الخيل ، والابل ، والفنم ، والدقيق ، والشعير ، والعلف وانواع المأكول والمشارب والمحمل والاكوار والرحال ، والسلاح والقماش والفرش والامتعة ، وغير ذلك ، وايام اقامة الحاج هذا ايام مواسم » (٢٥) .

ولا بد من الاشارة الى ان دمشق ارتبطت بالقاهرة بخط يسير عبر منطقة شمال الاردن في اربد مرورا بالاغوار وفلسطين . فالقلقشندي يذكر ان المنطقة الواقعة قبلي دمشق والتي عبر عنها (بالصفقة القبلية) ، هي طريق الابواب السلطانية الشريفة في القاهرة ، وممر التجار قاصدين الديار المصرية (٢٦) . وتشمل هذه الصفقة بلاد حوران والغور وما الى ذلك ، فالاغوار جميعها كانت داخلة فيها (٢٧) . وقد ربط المماليك بلاد الشام بالقاهرة بخطوط المواصلات البريدية : الطائفة والبرية والمنارات ، وكانت مدينة اربد احد هذه المراكز ، كما نقلوا الثلج على الجمال من دمشق الى القاهرة عبر هذا الطريق (٢٨) . وقد استخدم هذا الطريق لحركة الجيوش العسكرية المملوكية مرورا بالاغوار واريد (٢٩) . ولهذا السبب فقد بني في مدينة اربد الخانات والفنادق خدمة للمسافرين والتجار ، كما اقيمت لهم بركة لسقيا دوابهم (٤٠) . وتذكر المصادر ان القوافل القادمة من بخارى وسمرقند وشيراز وآمد وبلاد الارمن والعراق كان لا بد لها من المرور عبر هذا الطريق مرورا بمدينة اربد في طريقها الى القاهرة ، وكانت هذه القوافل تحمل معها صنوف السلع الشرقية والشامية المختلفة (٤١) . وقد اقام المماليك الجسور فوق نهر الاردن خدمة لحركة المواصلات والاتصالات بين الشام وفلسطين والديار المصرية (٤٢) .

مدينة عجلون وعلاقاتها التجارية :

تذكر بعض المصادر وجود المنشآت والمرافق التجارية في المدن الشامية والمصرية خدمة لحركة التجارة الدولية ، نذكر منها : القيساريات ، ودور الوكالة . وخصصت هذه المنشآت للتجار القادمين الى تلك المدن ، فبعضها اختصت بالتجار الاوربيين (٤٣) ، واخرى بالتجار الوافدين من الاقطار العربية والاسلامية . وقد عكف الامراء المماليك

على بناء هذه القيساريات للكسب واستثمار الاموال . والقيسارية (Caesarea) او (Cesarie) كلمة لاتينية ظهرت في بلاد الشام قبل مصر ، وهي بناء مستطيل او مربع ، مسقوف تعلوه الرباع ، وهي في العادة غرف تؤجر للتجار والصناع للاقامة فيها ، وتحتوي كل قيسارية على عدد من المحال التجارية التي تؤجر للتجار والمصانع الصغيرة ، بالإضافة الى انها تعرض السلع للبيع بالجملة (٤٤) ، ولكل قيسارية حارس يحرسها ، وباب ضخم يفتح ليلا (٤٥) .

ومن المرافق الاخرى التي خدمت حركة التجارة الدولية دور الوكالة . ويرى المقريري ان لا فرق بين الوكالات والخانات والفنادق والقيساريات ، فهي جميعها ابنية ومؤسسات تقوم ، الى جانب مهمة البيع والشراء ، بمهمة اقامة التجار الوافدين من الخارج ، وحفظ اموالهم وخزنها ، بالإضافة الى انها تؤدي مهمة البيع بالجملة والتجزئة (٤٦) . ولكل دار من دور الوكالة هذه وكيل يسمى (وكيل دار الوكالة) ، يقوم بخزن سلع زبائنه ومن ثم بيعها ، وتأمين ثمنها لاصحابها . فيقوم مقام (الصيرفي) ، والتجار الاجانب كانوا يودعون اموالهم عنده وهو بالمقابل يدفع لهم ما يقابلها من عملة بلادهم (٤٧) .

وقد اقام الممالك في منطقة شرق الاردن الخانات خدمة للتجار والمسافرين ، كان بعضها يقدم الغذاء وحذاء الخيل مجاناً للمارين والمقيمين فيها (٤٨) . ووجد بجانب كل خان بركة ماء وحانوت ليتزود منه المارون بما يشاءون (٤٩) ، اطلق عليها (فنادق مبيت القوافل) Caravanserail حيث يستريح التجار ودوابهم فيها (٥٠) . نذكر منها : خان العقبة ، وخان عنيزة ، وخان معان ، وخان الحسا ، وخان القطرانة ، وخان ضبعة ، وخان عمان ، وخان الكرك (٥١) . وما زال ماثلاً للعيان من هذه الخانات : العقبة ، والحسا ، والقطرانة ، وضبعة (٥٢) ، وهي ابنية مربعة الشكل من طابقين بداخلها ساحة سماوية يتوسطها بئر ماء ، ويحف بهذه الساحة بوائك كبيرة لمبيت الدواب وخزن البضائع ، اما الطابق العلوي ففيه غرف صغيرة أعدت لمبيت التجار والمسافرين . ووجد في كل خان مسجد صغير ، وفي زوايا الارباع ابراج للدفاع ومزاغل للمراقبة ، ولكل خان مدخل واسع ببوابة ضخمة تفتح ليلا ، فهي والحالة هذه خانات حصينة ، « ياوي اليها من الجاه المساء ، وينام امنا من طوارق الاعداء » (٥٣) .

وجدت هذه المرافق والمنشآت التجارية في بعض المدن الشامية والمصرية كدمشق ، وحلب وبيروت ، وعكا ، وطرابلس ، وبيت المقدس ، والقاهرة والاسكندرية . فما هو دور المدن الاردنية من هذه المرافق ؟ . من خلال رصدنا للنصوص التاريخية ومشاهداتنا الاثرية ، وجدنا الخانات في بعض المدن ، كعمان ، والكرك ، ومعان ، والعقبة .

أما القيساريات والوكالات فلدينا نص يؤكد وجودها في مدينة عجلون ، فلماذا وجدت في هذه المدينة الداخلية ، وهل يعني وجودها ارتباط مدينة عجلون بعلاقات تجارية خارجية ؟..

تقع عجلون في وسط جبال عجلون عند أقدام جبل عوف الذي يطل عليها من الغرب (٥٤) ، وتبعد عن عمان مسافة ٧٣ كم وعن أربد مسافة ٣٢ كم ، وعلى قمة جبل عوف أقام صلاح الدين الأيوبي قلعة عجلون سنة ٥٨٠ هـ / (١١٨٤ م) في موقع استراتيجي جيد (٥٥) ، فهل كانت عجلون مدينة بالمعنى المتعارف عليه في العصور الوسطى ؟ ، أم أنها مجرد بلدة (Town) ، تقدم خدمات محلية بسيطة إلى سكانها والمناطق المجاورة ، أو أنها لعبت دورا أكبر في بيع السلع والصناعات إلى أسواق أخرى متعددة ، وكان لها اتصالها التجاري مع الأسواق المجاورة ؟.. فإن كانت كذلك فهي والحالة هذه مدينة (City) (٥٦) . وباعتقادي أن عجلون كانت مدينة بالمفهوم الوسيط ، فهي مركز حكم ، وفيها مركز للقضاء ، وجباة للضرائب ، وقوات عسكرية تقيم في قلعتها ، بالإضافة إلى دورها الاقتصادي والتجاري والثقافي المتميز في منطقة شمال الأردن ..

وعجلون مدينة جميلة في قلب منطقة خصبة ، تحف بها الأودية ذات الينابيع الفزيرة ، وغابات السنديان ، وأشجار الزيتون والفاكهة المختلفة . وقد نالت حظا وافرا في العصر المملوكي ، فجعلوا منها نيابة تابعة لمدينة دمشق ، وفي أحيان جعلوها نيابة مستقلة يكون التعيين فيها من قبل السلطان بالقاهرة . ومما يؤكد وجهة النظر هذه ، النص الموجود في النقش الكائن على ضريح الصحابي أبو عبيدة بن الجراح في غور الأردن ، وكان السلطان الظاهر بيبرس ٦٥٨-٦٧٦ هـ / (١٢٦٠-١٢٧٧ م) قد كلف نائب عجلون ببناء هذا الضريح ومما جاء في النقش :

... وذلك بنظر الأمير الأجل الأعمال الكبير ناصر الدين منكلي الجاشنكير الظاهري السعيد نايب مملكة عجلون المحروسة في شهر ذي الحجة سنة خمس وسبعين وستمئة (٥٧) .

وهنا نلاحظ أن الظاهر بيبرس ولى على عجلون أميرا برتبة جاشنكير ، وهي إحدى وظائف أرباب السيوف ، ويتولاها أمير مقدم ، وهي من المراتب الكبرى في الدولة المملوكية (٥٨) . وقد فعل الظاهر بيبرس ذلك لأن الدولة المملوكية كانت في طور التأسيس ، ولاهمية منطقة عجلون وقربها من دمشق العاصمة الثانية للدولة المملوكية ، التي كانت تمثل المركز الثاني بعد القاهرة ، ونوابها كانوا دوما طامعين بالسلطنة ، وفيها يثرون

على الدولة . وعجلون في هذه الحالة تستطيع الوقوف في وجه أي توسع لنائب دمشق ، بالإضافة الى ان الخطر الفرنجي ما زال قائما في فلسطين والساحل الشامي . اضافة الى ذلك عناصر المعارضة الايوبية في بلاد الشام الذين كانوا ينتهزون أي فرصة للانقضاض على الممالك . وقد قام السلطان المنصور قلاوون ، بنفس التصرف فيما بعد عندما جعل من الصلت نيابة مستقلة على رأسها أمير برتبة كبيرة ولديه قواته كي يقف في مواجهة السعيد والمسيود أبناء الظاهر بيبرس في الكرك الذين حاولوا التوسع شمالا حتى ان قواتهم وصلت الى صرخد في حوران (٥٩) . وهذا يدل على الأهمية التي كان يوليها السلطان الظاهر بيبرس لمدينة عجلون ومنطقة شمال الاردن الحالي . بسبب مزاياها الاستراتيجية والاقتصادية . وبعد وفاته أعيدت عجلون نيابة صغيرة تابعة لدمشق ، لتصبح في اواخر دولة المماليك الثانية (الجراكسة) نيابة مستقلة يتم تعيين نائبها من السلطان بالقاهرة (٦٠) .

ويسبب هذا الاهتمام بمدينة عجلون في العصر المملوكي نلاحظ انها بلغت اقصى درجة من التقدم العمراني والثقافي والاقتصادي ، فابن بطوطة مر بها في القرن الثامن الهجري / (الرابع عشر الميلادي) ووصفها قائلا : « وهي مدينة حسنة ، لها اسواق كثيرة ، وقلعة خطيرة ، ويشقها نهر مأوه عذب » (٦١) . ومن هنا فقد اقام الامراء فيها القيساريات ، ونذكر منها قيسارية الأمير سيف الدين بكتمر ، وقيسارية الأمير تنكر ابن عبد الله نائب دمشق وقفها على البيمارستان الذي بناه في مدينة صفد ، والقيسارية القديمة (٦٢) .

وللتدليل على أهمية عجلون الاقتصادية والتجارية ، هناك ثلاث وثائق الاولى ذكرها مفضل بن أبي الفضائل في كتابه « النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد » في الجزء الذي نشر في فرايبورغ بالمانيا سنة ١٩٧٣ م ، ويتضمن الاحداث من سنة ٧١٧ - ٧٤١ هـ . ففي صفحة ٤١ ذكر ان سيلا عظيما دهم مدينة عجلون في سنة ٧٢٨ هـ / (١٣٢٨ م) ، واثبت صورة المحضر الذي ارسله نائب عجلون الى دمشق واصفا فيه ما فعله السيل في المدينة (٦٣) . والوثيقة الثانية ذكرها النويري في كتابه « نهاية الارب في فنون الادب » الجزء ٣١ (مخطوط) ، وهي نسخة المحضر المرسل من مدينة عجلون الى دمشق يورد فيها ما حدثه السيل بالمدينة من خراب (لوحة ٩١) . اما الوثيقة الثالثة فهي نسخة الكتاب الوارد من عجلون والتي ذكرها الشيخ شمس الدين الجزري في تاريخه ونقلها عنه الشيخ علم الدين بن البرزالي ، واثبتها النويري في سفره لوحة ٩١ ، ٩٢ (مخطوط) (٦٤) .

ومن خلال استعراضنا للنصوص الثلاثة نجد تباينا كبيرا فيها من حيث الدباجة

وتفاصيل السيل ، فكثرها ايجازا ما اورده مفضل بن ابي الفضائل ، ويأتي في المرتبة الثانية النص الذي ذكره النويري واسماه نسخة المحضر المرسل من عجلون ، أما النص الثالث الذي نقله النويري عن الجزري والبرازلي فهو اكثرها دقة ، وبه معلومات تفصيلية عن اسواق مدينة عجلون ، ونستطيع ان نجمل ما جاء في هذه الوثائق بما يلي :

اولا : القيساريات

- ١ - قيسارية الامير سيف الدين بكتمر ، ٢ - قيسارية الامير تنكز بن عبد الله ،
- ٣ - القيسارية القديمة .

ثانيا : الوكالات

- ١ - دار الطعم .

ثالثا : الاسواق

- ١ - سوق الادميين ، ٢ - سوق القطانين ، ٣ - سوق الاقباعين ، ٤ - سوق
- الخلعيين ، ٥ - سوق الفرايين ، ٦ - سوق الفاميين ، ٧ - سوق العلافين ، ٨ - سوق
- الحصريين ، ٩ - سوق اللحامين ، ١٠ - سوق السقطيين ، ١١ - سوق الصاغة ،
- ١٢ - سوق البز العتيق ، ١٣ - سوق ام معبد ، ١٤ - سوق الامير سيف الدين ،
- ١٥ - سوق الامير ركن الدين ، ١٦ - حوانيت الخبازين ، ١٧ - حوانيت الطبّاخين ،
- ١٨ - حوانيت البضاعة ، ١٩ - القاضي فخر الدين ، ٢٠ - حوانيت الدق (٦٥) .

رابعا : المرافق الاخرى

- ١ - المصبغة (الدباغة) ، ٢ - العرصة (وتسمى احيانا عرصة الفلال ، ساحة
- واسعة لبيع الفلال) ، ٣ - المسجد الجامع واوقافه ، ٤ - الحمام السلطاني ،
- ٥ - الحمام الصالحي ، ٦ - مسلخ المعز والضان ، ٧ - مسلخ ام معبد ، ٨ - المدرسة
- اليقينية ، ٩ - الجسور والقناطر والاقباء المبنية فوق الودية ، ١٠ - الطواحين .

فمن خلال الارقام السابقة نلاحظ عدد المنشآت والمرافق التجارية وغيرها التي هدمها السيل ، وهي جزء من منشآت ومرافق المدينة ، مما يدل على تشعب اسواق هذه المدينة وكثرتها ، ويؤكد ما جاء في وصف ابن بطوطة لها ، والذي يهمننا هنا هو القيساريات ودار الطعم ، فالوثائق الثلاث اكدت وجود (دار الطعم) في مدينة عجلون ، فما وظيفتها . ٤٠٠ ذكر القلقشندي وجود (دار الطعم) في مدينة دمشق وقال انها

« بمثابة الوكالة بالديار المصرية » (٦٦) . ووجدت في دمشق وظيفة (شاد دار الطعم) ، وهو الموظف المسؤول عن جمع المكوس من السلع المباعة في هذه الدار (٦٧) . فدار الطعم اذن هي دار وكالة بالمفهوم الذي كان شائعا في مصر ، اضيف الى ذلك ان دارا للوكالة وجدت في بيت المقدس في العصر المملوكي ، ونعتتها بعض الوثائق (بالوكالة المرعية) (٦٨) . وقد وجد ما يسمى (بوكيل التجار) الذي كان يقوم بمهمة الخازن للسلع او المودع لها . وهو المسؤول عن التجار الاجانب الذين لا يستطيعون الاشراف على اعمالهم شخصيا . ويتقاضى وكيل التجار عمولة مقابل خدماته التي يقدمها لزبائنه ، ويرتبط عادة بعلاقات مع القناصل الاوربيين المقيمين في بعض المدن الشامية والمصرية (٦٩) . وعلى ذلك فهل كانت مدينة عجلون مكان جذب للتجار الاجانب ، بحيث اقيمت لهم فيها دار الطعم هذه (دار الوكالة) ؟ .

ان النصوص التي بين ايدينا لا تسعفنا بشيء عن وجود مثل هؤلاء التجار الاوربيين صراحة في عجلون ، ولكننا نأخذ بعين الاعتبار تلك الوكالات التي انشئت في القاهرة للتجار الشاميين والعراقيين والشرقيين من المسلمين (٧٠) ، نذكر منها ، وكالة قوصون التي خصصت للتجار الشاميين لخزن الزيت والسمن والصابون ، واللوز والجوز والحلويات وكل انواع السلع الشامية الاخرى (٧١) ، وفندق عمارة ، وفندق دار التفاح ، وفندق الملك السعيد بدار الرمان (٧٢) ، وفندق مسرور (٧٣) . وقياسا على ذلك فاننا نستطيع القول بان (دار الطعم) في مدينة عجلون كانت مخصصة للتجار الاجانب ، سواء كانوا من الاوربيين - لاسيما وقد سمح لهم بالوصول الى بعض المدن الداخلية كدمشق وحلب وبغداد - ام من التجار العرب ، ام التجار المسلمين القادمين الى عجلون من خارج بلاد الشام . وتذكر الوثائق ان شادا لدار الطعم كان موجودا في مدينة عجلون كي يجبي المكوس عن السلع والبضائع الواردة والمباعة في هذه الدار (٧٤) . ويعني ذلك ان تجارة عجلون في العصر المملوكي كانت تجارة كثيفة واسعة ، مما يؤكد اهمية هذه المدينة الاقتصادية والتجارية في العصر المملوكي ، فقد قدر المؤرخ الجزري قيمة الخسائر التي نجمت عن سيل عجلون عام ٧٢٨ هـ (١٣٢٨ م) بما قيمته ٥٠٠٠٠٠ درهم ، عدا الغلات والواشي والبساتين والطواحين ظاهر المدينة (٧٥) . وهذا مبلغ كبير بالنسبة لمدينة داخلية كمدينة عجلون .

خلاصة :

وهكذا فاننا نستطيع التأكيد على ارتباط منطقة شرق الاردن بالتجارة الدولية ، سواء اكان ذلك عن طريق التجارة البعيدة والتجار القادمين الى دار الطعم في مدينة عجلون ، شرقيين أو غربيين ، أو عن طريق القوافل التجارية المارة من خلاله في طريقها

الى الحجاز ، او القادمة من الجنوب العربي عبر الحجاز وايلة (العقبة) في طريقها الى دمشق وحلب وبيت المقدس ، او تلك المارة من خلال العقبة برا في طريقها الى الحجاز والجنوب العربي ، او القادمة من تلك المناطق في طريقها الى مصر والشمال الافريقي ، او تلك القادمة من مصر الى بلاد الشام وبالعكس عبر مدينة اربد . ولنا ان نذكر احصائية على سبيل المثال لاحدى القوافل التجارية المارة عبر منطقة شرق الاردن في طريقها من مصر الى دمشق في القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي) ، فكانت كما يلي :

اولا : عدد الدواب فيها : ٩٠٠٠ جمل ، ٤٠٠٠ راس من الخيل ، ٤٠٠٠ راس من البغال .

ثانيا : الاموال : ٦٠٠٠٠٠٠٠ من الذهب العين

ثالثا : البضائع والسلع ما قيمته ٦٠٠٠٠٠٠٠ دينار (٧٦)

ولا شك ان لهذه القوافل العملاقة التي كانت تجوس دروب الاردن اثرها الاقتصادي الظاهر على البلاد ، بالاضافة الى قوافل الحج الشامي والمصري السنوية التي كانت فرصة للاهالي وتجار البلاد للتجار معها ، وكانوا يرافقونها حتى الديار الحجازية ، اما التجار النصاري فكان يسمح لهم بمرافقتهم حتى العلا فقط ، فاين بطوطة يقول : « واليه تنتهي تجار نصارى الشام ، لا يتعدونها ويباعون الحجاج الزاد وسواه » (٧٧)

الحواشي :

- Grant, *The Syrian desert*. London, 1937, P. 58, 59 . (١)
- أيلة (العقبة) : مدينة على ساحل بحر القلزم ، وهي آخر الحجاز ، كان بها ذرع يسير ، وهي على طريق حجاج مصر ، ذات تجارة هامة (ياقوت ، المشترك وضعاً ، ص ٣١) .
- البتراء: وعرفت في المصادر العربية بالرقيم ، مدينة بالقرب من البلقاء ، بيوتها منحوتة كلها من صخر كانها حجر واحد (الاضطخري ، مسالك الممالك ، ص ٦٤) .
- عمان : بلد في طريق الشام ، وبالقرب منها الكهف والرقيم ، تشتهر بالزراعة والتجارة وبها جامع مفسس (ياقوت ، معجم البلدان ، ج ٣ ، ص ٧١٩) .
- جرش : مدينة في بلاد حوران ، كانت مركزاً عمرانياً هاماً ، وقد اضمحت خاوية على مروشها (العمري ، مسالك الإبصار ، ج ١ ، ص ٢٣١) .
- Lopez, (Robert), *The Commercial Revolution of the middle ages*, London, P. 60. (٢)
- Grant, OP . Cit. P. 65. (٣)
- القدسسي ، احسن التقاسيم ، طبعة لندن ، ١٩٠٦م ، ص ٢٥٠ . (٤)
- Fulcher of Chartres, *A History of expedition to Jerusalem*, tran. by Rita Rayan, New Yark, 1973, P. 151-152. (٥)
- Grant, op. Cit . P. 71. (٦)
- Saponi (Amande), *The Italian merchant in the middle ages*, New York, 1970, P. 51.,
- Newton (Arthur) *Travel and Travellers of the middle ages*, London, 1926, P. 122, 124.
- Saponi, op. Cit, P. 51. (٧)
- Lapidus, *Muslims Cities in the later middle ages*, Harvard University, U.S.A. 1967, P. 24. (٨)
- Grant, op. cit. P. 70.,
- نعيم زكي فهمي ، طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب ، الهيئة المصرية للكتاب ، القاهرة ، ١٩٧٣م ، ص ١٤٧ . (٩)
- Saponi, OP. Cit. P. 83. (١٠)
- Lapidus, OP. Cit. P. 24. (١١)
- Lopez, OP. Cit. P. 63. (١٢)

- (١٣) — Thompson, An Economic and Social History of the middle ages, London, 1928, P. 186.
- (١٤) Ibid , P. 186.
- (١٥) — Lapidus , OP. Cit. P. 52.
- Grant, OP. Cit. P. 70.
- Newton, OP. Cit. P.125, 126.
- Lopez, OP. Cit. P. 108.
- (١٦) القلقشندي ، ص ١٤١ ، نسخة مصورة عن الطبعة الاميركية ، وزارة الثقافة والارشاد القومي القاهرة ، ج ١ ، ص ٢٤٠ ، ٢٤١ .
- (١٧) — Lapidus, OP. Cit. P. 23.
- (١٨) — Newton, OP. Cit. P. 90, 100.
- (١٩) التويري ، نهاية الارب ج ٢٨ ، لوحة ٢٢ (مخطوط دار الكتب المصرية القاهرة) .
القلقشندي ، نهاية الارب في معرفة انساب العرب ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٩٨٤ م ، ص ٢٠٤ .
- Lapidus, OP. Cit. P. 18.
- وانظر :
Grant, OP. Cit. P. 40.
- (٢٠)
- (٢١) ابن اياس ، نشق الازهار في عجيب الاقطار ، لوحة ٨٧ (مخطوط دار الكتب المصرية بالقاهرة) .
- (٢٢) — Grant, OP. Cit. P. 40.
- (٢٣) ابن شاهين الطاهري ، زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك ، نشر بولس راويس ، ١٨٩٤ م ، ص ١٠٨ ، ١٢٢ .
- (٢٤) ابن شاهين ، المصدر السابق ، ص ١٢٢ .
- وانظر : المقرئ ، السلوك لمعرفة دول الملوك ، تحقيق محمد مصطفى زيادة ، القاهرة ، ١٩٢٤ م ، ج ٢ ، ص ٢٥٦ .
- (٢٥) المقرئ ، السلوك ، ج ٢ ، ص ٢٥٦ .
- (٢٦) ابو المحاسن ، حوادث الدهور في مدى الايام والشهور ، تحقيق وليم بوير ، كلفورنيا ، ١٩٢١ م ، ج ١ ، ص ٣٢٧ .
- (٢٧) بن اياس ، بدائع الزهور في وقائع الدهور ، ط الشعب ، القاهرة ، ١٩٦٠ ، ص ١٠٤٤ .
- (٢٨) ابو المحاسن ، حوادث الدهور ، ج ١ ، ص ٣٢٧ . نعيم زكي فهمي ، طرق التجارة الدولية ، ص ١٣٩ .
- (٢٩) ابن بطوطة ، الرحلة ، تحقيق علي المنتصر الكتاني ، مؤسسة الرسالة بيروت ، ط ٢ ، ١٩٧٩ ، ج ١ ، ص ١٢٩ .
- (٣٠) — Grant, OP. Cit . P. 223.
- (٣١) ابن الاثير ، الكامل في التاريخ ، دار صادر بيروت ، ١٩٧٩ ، ج ١١ ، ص ٥٢٩ ، ٥٣٠ .

- (٣٢) ابن بطوطة ، الرحلة ، ج ١ ، ص ١٢٩ ، ١٣٠ ، ١٣١ ، ١٣٢ .
القليل : وادي يقع شمال الزرقاء على الطرق القادمة من دمشق الى مصر والحجاز قديما ، وما زال يشاهد الى اليوم بين الفرق والزرقاء ويشتهر الان بمزارعه وبساتينه العديدة (الباحث).
زيزاء : بلدة كبيرة بالبلقاء جنوب عمان بها بركة ماء ، كانت محطة لقوافل الحجاج وبها مقام لهم سوق للتجارة (ابو الفداء تقويم البلدان ص ٢٤٧ ، ياقوت ، ج ٢ ، ص ٩٦٦).
اللجون : منزلة في طريق المدينة قرب البلقاء وهي غير اللجون المعروفة في فلسطين (القرمانى ، اخبار الدول واثار الاول ، ص ٤٧٥) .
العلا : اسم لوضع من ناحية وادي القرى بينها وبين الشام (ياقوت ، معجم البلدان ، دار احياء التراث العربي ، بيروت ، ١٩٧٩ م ، ج ٤ ، ص ١٤٤) .
— Grant, OP. Cit. P. 224. (٣٣)
(٣٤) ابن فضل الله العمري ، مسالك الابصار في ممالك الابصار ، ج ١ ، ق ١ لوحة ١٧١ (مخطوط دار الكتب المصرية) .
(٣٥) ابن فضل الله العمري ، مسالك الابصار ، ج ١ ق ١ لوحة ١٧١ (مخطوط) .
(٣٦) القلقشندي ، صبح الاعشى ، ج ١٢ ، ص ٣١٤ .
— Lapidus , OP.Cit . P. 12. وانظر :
(٣٧) القلقشندي ، صبح الاعشى ، ج ٤ ، ص ١٠٢ .
(٣٨) والمستقر في كل مركز ست هجن ، خمسة للاحمال وهجن للهجان ، تكون كل نقلة خمسة احمال ، وهذه الهجن من الشام الى العريش على نيابة دمشق ما عدا جنين فهي على نيابة صفد . ومن الواردة الى القاهرة من المناخات السلطانية والكلفة على مصر . ولا تستقر هذه الهجن بهذه المراكز الا اوان حمل الثلج وهي من حزيران الى تشرين ثاني وعدة نقلاته ٧١ نقلة .
(القلقشندي ، صبح الاعشى ، ج ١٤ ، ص ٣٩٧) .
اربند : بالفتح ثم السكون ، مدينة بالاردن قرب طبرية ، تقع على يمين طريق مصر (البغدادي ، مرصد الاطلاع ج ١ ، ص ٤١) .
القلقشندي ، صبح الاعشى ، ج ١٤ ، ص ٣٧٩ ، ٣٨٠ ، ٣٩٣ ، ٣٩٦ ، ٣٩٩ .
(٣٩) بيمرس الداودار ، زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة ، ج ٩ ، لوحة ١٥٠ (مخطوط مكتبة جامعة القاهرة) . النويري ، نهاية الارب ج ٣ ، لوحة ٥٥ (مخطوط) .
(٤٠) ظلت هذه البركة موجودة في اربد حتى الستينات ، وقد شاهدها اذ كانت تمتلئ بالمياه في فصل الشتاء ، وسمي الحي المحيط بها (حي البركة) ، ولكن البلدية طهرتها وانشأت فوقها موقفا لسيارات الاغوار .
(٤١) المقرئ ، السلوك ، ج ٢ ، ص ٥٩٢ .
ابن طولون الصالح ، مفاكهة الخللان في حوادث الزمان ، تحقيق محمد مصطفى ، المؤسسة المصرية للطباعة ، القاهرة ، ١٩٦٢ ، ج ١ ، ص ١٨ ، ١١٠ ، ١١٩ .
(٤٢) ابو المحاسن ، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، طبعة مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية ، وزارة الثقافة والارشاد ، القاهرة ، ج ٧ ، ص ١٤٠ ، ١٤١ .

- (٤٣) Lopez, OP. Cit. P. 100.
- (٤٤) نعيم زكي فهمي ، طرق التجارة الدولية ، ص ٢٩٥ ، ٢٩٦ .
- (٤٥) ابن جبير ، الرحلة ، دار مكتبة الهلال ، بيروت ، ١٩٨١ م ، ص ٢٣٦ .
- (٤٦) القريري ، الخطط ، طبعة بولاق ، ١٩٠٧ م ، ج ٢ ، ص ١٤٤ . وانظر
— Dozy, Supplement aux Dictionries Arbes, Vol. 11, P. 432.
- نعيم زكي فهمي ، المرجع السابق ، ص ٢٨٧ .
- (٤٧) جوايتن ، دراسات في التاريخ الاسلامي ، ص ٢٧٢ .
- (٤٨) ابن حجر العسقلاني ، الدرر الكامنة في اعيان المائة العاشرة ، دار الجيل ، بيروت ج ٢ ، ص ١٧٠ .
- (٤٩) ابن بطوطة ، الرحلة ، ج ١ ، ص ٣١ . القلقشندي ، صبح الاعشى ، ج ١٤ ، ص ٣٧٨ ، ٣٧٩ .
- (٥٠) — Lapidus, OP. Cit. P. 18 .
— Grant, OP. Cit. P. 154.
- (٥١) عن خان الكرك انظر :
ابن حجر العسقلاني ، المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ١٧٠ . وعن خان عمان انظر :
Conder, The Survey of eastern Palestine, London, 1889, P. 59.
وعن خان معان انظر : سبط ابن الجوزي ، مراة الزمان في تاريخ اعيان ، نسخة مصورة بشيكاغو ،
امريكا ، ج ٨ ، ص ٤٢٩ .
- (٥٢) هناك دراسة عن هذه الخانات المملوكية في : يوسف غوانمة ، التاريخ الحضاري لشرقي الاردن في
العصر المملوكي دار الفكر عمان ، ط ٢ ، ١٩٨٢ م ، ص ٢٣٢-٢٤٩ .
- (٥٣) القلقشندي ، صبح الاعشى ، ج ١٤ ، ص ٣٧٨ .
- (٥٤) سمي بجبل عوف لانه كان ينزله قوم من بني عوف من جرم فصاعة ، فعرف بهم (القلقشندي ،
صبح الاعشى ، ج ٤ ، ص ٨٦) .
- (٥٥) ابن شداد ، الاعلاق الخطيرة في ذكر امراء الشام والجزيرة ، تحقيق سامي الدهان ، منشورات
المعهد الفرنسي للدراسات العربية ، دمشق القسم الخاص بتاريخ لبنان والاردن وفلسطين ، ص ٨٦ .
القلقشندي ، صبح الاعشى ، ج ٤ ، ص ١٠٥ .
- (٥٦) — Hourani (A.H.) , The Islamic City in the light of recent research,
from the Islamic city , University of Pensylvania, U.S.A. P. 9.
- (٥٧) انظر نص النقش في بحث : المساجد والاضرحة الاسلامية في شمال الاردن (مركز الدراسات الاردنية
— جامعة اليرموك — لباحث) .
- (٥٨) القلقشندي ، صبح الاعشى ، ج ٤ ، ص ٢١ .
- (٥٩) بيبرس الداودار ، زبدة الفكرة ، ج ٩ لوحة ١٤٨ (مخطوط) . القريري ، السلوك ، ج ١ ، ص ٦٦٥ ،
٦٦٩ .
- صرخد : بلد ملاصق لبلاد حوران من اعمال دمشق ، وهي قلعة حصينة وولاية حسنة واسعة ،
ينسب اليها الخمر . (ياقوت ، معجم البلدان ، ج ٣ ، ص ٤٠١) .

- (٦٠) الخالدي ، المقصد الرفيع المنشأ الهادي لديوان الانشاء ، لوحة ١٤٨ (مخطوط مكتبة جامعة القاهرة) .
- ونلاحظ هنا ان منطقة شرقي الاردن اشتملت اداريا في العصر المملوكي على نيابة مستقلة هي نيابة الكرك ، ونيابتين صغيرتين تابعتين لنيابة دمشق هما : نيابة عجلون ، ونيابة البلقاء . ولكن منذ عام ٨١٤هـ (١٤١١م) اصبح في منطقة شرقي الاردن نيابتان مستقلتان هما : نيابة الكرك ، ونيابة عجلون ، فمناطق جنوب الشام (الاردن وفلسطين) كان فيها خمس نيابات هي : نيابة غزة ، نيابة القدس ، نيابة صفد ، نيابة عجلون ، نيابة الكرك .
- (٦١) ابن بطوطة ، الرحلة ، ج ١ ، ص ٨٠ .
- (٦٢) النويري ، نهاية الارب ، ج ٣١ لوحة ٩٢-٩٠ (مخطوط) .
- (٦٣) مفصل بن ابي الفضائل ، النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد ، حوادث الفترة بين سنتي ٧١٧ و ٧٤١ هجرية ، فرايبورغ ، ألمانيا ، ١٩٧٣م ، ص ٤١ ، ٤٢ .
- (٦٤) النويري ، نهاية الارب ، ج ٣١ لوحة ٩٢-٩٠ (مخطوط) .
- (٦٥) سوق الادمين (الجلود) ، سوق الاقباعين (معد لبيع الاقباع ، وهي عمامة من حرير او جوخ) ، سوق الخلعين (السوق الذي يتعاطى ببيع الثياب القديمة الملبوسة) ، سوق الفامية (سوق الحبوب من حنطة وحمص وعدس وغير ذلك) ، سوق السقطيين (السوق الذي يباع فيسسه احشاء الدبائح) ، حوانيت الدق (والدق هو البقايا المتفحمة من بزور الزيتون والمشمش المحروقة في الافران وتستخدم للتدفئة والطبخ) .
- (٦٦) القلقشندي ، صبح الاعشى ، ج ٤ ، ص ١٨٧ .
- (٦٧) القلقشندي ، المصدر نفسه ، ص ١٨٧ .
- (٦٨) وثيقة وقف رقم ٦ تاريخ ٧٥٢هـ من وثائق المتحف الاسلامي بالقدس .
- (٦٩) — Goiten,
A Mediterranean Society, Economic Foundations, U.S.A. 1967, P.
187, 192 .
- Lapidus, Op. Cit. P. 18.
- (٧٠)
- (٧١) القرظي ، الخطط ، ج ٣ ، ص ١٥١ .
- (٧٢) نعيم زكي فهمي ، المرجع السابق ، ص ٢٩٣ .
- (٧٣) وهذا الفندق منسوب الى مسرور الخادم من خدام القصر في الدولة الفاطمية ، وبقي هذا الخان حتى العصر المملوكي (ابو الحسن النجوم الزاهرة ، ج ٤ ، ص ٤٣) .
- (٧٤) مفصل بن ابي الفضائل ، النهج السديد ، الجزء الخاص باحداث سنتي ٧١٧-٧٤١ هـ ، فرايبورغ ، ألمانيا ، ١٩٧٣ ، ص ٤٢ .
- النويري ، نهاية الارب ، ج ٣١ لوحة ٩٢ (مخطوط) .
- (٧٥) النويري ، نهاية الارب ، ج ٣١ لوحة ٩٢ (مخطوط) .
- (٧٦) ابن شداد ، النوادر السلطانية والحاسن اليوسفية ، القاهرة ، ١٩٠٣م ، ص ١٧١ ، ١٧٠ .
- سبط ابن الجوزي ، مراة الزمان ، ج ٨ ، ص ٢٦٦-٢٦٨ .
- (٧٧) ابن بطوطة ، الرحلة ، ج ١ ، ص ١٢١ .

العلاقات الاقتصادية الاجتماعية في منطقة ما بين النهرين السورية (في القرنين الخامس والسادس)

د . نعيم فزع
جامعة دمشق

١ - في المصادر التاريخية :

لم تلق المصادر السورية (السريانية) حتى يومنا هذا الاهتمام الجدير بها لدى المؤرخين وعلماء الآثار ، ويرتبط هذا الأمر الى حد كبير بصعوبة الوصول الى هذه المصادر بأشكالها الأصلية وبندرة ترجماتها . ومع ذلك فالمؤلفات التاريخية السورية (السريانية) تعتبر من مصادر الدرجة الاولى حتى عصر ازدهار الآداب العربية في العصر العباسي . ان الاسفار السورية (السريانية) بالنسبة للقرنين الخامس والسادس تحتوي على مواد ومعلومات فريدة من نوعها ، وهذه المواد تعطي امكانية الكشف عن العلاقات الاقتصادية - الاجتماعية في المقاطعات السورية التي كانت خاضعة لبيزنطة وايران . ففي العصر الفارسي الساساني لعب السوريون دورا هاما وبارزا في العلاقات المتبادلة بين الدولتين العظيمين ، حيث كانت لغتهم السريانية اللغة الدبلوماسية للشرق الأدنى . ورغم ان المصادر السورية (السريانية) ركزت على الاحداث السياسية الخارجية بالدرجة الاولى ، فهي تقدم جملة من المعطيات التي لها اهمية كبيرة بالنسبة لتحديد العلاقات الاقتصادية والاجتماعية التي تكونت في سورية في تلك المرحلة .

في مجموعة من المصادر التاريخية التي تعتبر مادة للبحث الذي بين ايدينا ، فان اولى المراتب تعود لاسفار يشوع العمودي السريانية ، التي تمثل مصدرا ممتازا

بالنسبة لتاريخ العلاقات بين بيزنطة وإيران (في عصر فيروز ٤٥٩ - ٤٨٤) وابنه قباد (٤٨٨ - ٥٣١) ، كما تقدم طبيعتها المحلية مادة هامة عن حياة المقاطعات السورية التي رزحت تحت السلطة البيزنطية وكانت مقتطعة اصطناعيا من المقاطعات التي تقطنها قبائل موحدة عرقيا وحضاريا (عربية آرامية) وبقيت تحت سلطة الفرس الساسانيين . ان الصورة الكئيبة لاضطهاد الجماهير الكادحة السورية واستغلالها ، التي تكشف هذه الاسفار السريانية النقب عنها ، تؤكد الوصف الذي وصفه انجلس للامبراطورية الرومانية - البيزنطية اذ قال : « تحولت الدولة الرومانية الى آلة معقدة عملاقة ، وذلك لامتناس خيرات رعاياها . فالضرائب الحكومية والجزية المتعددة الانماط قد اغرقت جماهير السكان في بحر من الفقر المتزايد ، وهذا الظلم ازداد واصبح لا يطاق بفعل ابتزاز الحكام وجامعي الضرائب والجنود » (انجلس ، اصل العائلة ونشوء الملكية الخاصة والدولة) . يتفق هذا الوصف الذي قدمه انجلس مع ما تذكره الاسفار السورية (السريانية) التي اعطت مثل هذه الصورة الواضحة لممارسات الابتزاز وأعمال النهب ، وللفقر والجوع الذي عانى منه الكادحون السوريون .

ويكاد المؤرخون الرسميون لا يتطرقون الى هذه الجوانب من حياة الجماهير الشعبية الكادحة . ان حياة القسطنطينية الصاخبة عند جماعة من المؤرخين البيزنطيين البارزين قد ابتلعت كل قدراتهم الروائية . فخلف بهارج وزخارف البسة البلاط وضوء الدسائس الدموية الصاخبة ذهبت فضايا الجماهير الفقيرة الكادحة في زوايا النسيان ، ومع ذلك تعود صفحات « التاريخ السري » (الذي كتبه بروكوبيوس القيساري في القسطنطينية) المظلية بالضجر والبؤس الى مجموعة الوثائق النادرة . فهو يكشف شرور العصر (القرن السادس) بشكل تبدو فيه القدرة الظاهرية والابهة لحكم جستنيانوس الاول باهته ذابلة لا تمثل شيئا امام العري والصوز والفقر الذي يتحدث عنه هذا التاريخ « السري » . لكن اسفار المقاطعات السورية ومؤرخيها يقدمون مادة اكثر غنى من التاريخ السري في هذا المجال . فمصالحهم تحمل طبيعة محلية ، كما انهم يتحدثون عن قضايا معيشية واقتصادية تتيح فرص تلمس حلقات جديدة في تطور اشكال الحياة الاقتصادية - الاجتماعية . وتقدم الاسفار التاريخية السورية (السريانية) مادة من هذا النوع . فهي تعطي صورة واضحة عن حياة العاملين في الارض ، ومنهم العبيد (والكولون) والفلاحون الاتباع الذين يتحملون كل اعباء العمل في الحقول والبساتين والكروم ، ويثنون من وطأة الضرائب والفرائض وقرصنة الجنود المرتزقة والنهب الذي يمارسه موظفو الدولة . وقد اشار انجلس الى استغلال السلطات الرومانية - البيزنطية لسكان المقاطعات الخاضعة لها بالكلمات التالية : « كان نظام الدولة الرومانية - البيزنطية أسوأ من الفوضى اللدودة . أما (البرابرة) ،

الذين بدأت الدولة تحمي المواطنين منهم ، فقد انتظرهم المواطنون كمنقذين « (انجلس : المرجع نفسه) . ونتأكد من صحة هذا الوصف في قصص البؤس التي تقدمها الاسفار السورية ، وفي النقد اللاذع في جملة من سطور كتاب بروكوبيوس «الحرب الفارسية» .

تتضمن مخطوطة يشوع العمودي (التي تحمل العنوان : « اخبار السنوات العابرة ») موضوعين اساسيين هما : تاريخ حملة « الطاغية البشري » الملك الفارسي قباد ، وقصص المحن والمصائب التي حلت بمنطقة ما بين النهرين السورية . الموضوع الاول يقدم مادة للتاريخ السياسي لمنطقة ما بين النهرين السورية . والموضوع الثاني يقدم مادة لوصف نظامها الاقتصادي والاجتماعي . وتعتبر اسفار يشوع العمودي (باللغة السريانية) من المصادر التي يجبان تقوم بصورة متميزة ، لان مؤلفها يتحدث عن الاحداث التي اشترك فيها وعاشها ، او كان معاصرا لها . ووصلت هذه الاسفار الى ايامنا هذه في قائمة وحيدة كجزء متمم لما يسمى : ب «اسفار ديونيسيوس التلمحري» التي يعود تاريخها الى القرن التاسع الميلادي (توفي سنة ٨٤٥ م) . لقد ضمت اسفار يشوع العمودي كلها الى اسفار ديونيسيوس التلمحري ، فأصبحت كلا موحدًا (١) . ان مخطوطة ديونيسيوس التلمحري التي تدخل فيها اسفار يشوع العمودي هي احدى الكنوز التي وجدت في مكتبة دير السريان بمصر ، الذي يقع في برية اسقيط غرب القاهرة . والمعلومات حول هذه المخطوطة مزدوجة . ففي سجل المخطوطات الشرقية للفاتيكان يؤكد السمعاني بانها تعود الى المخطوطات التي جلبت من تكريت في سنة ٩٣٢ على يد رئيس الدير موسى النصيبيني (من مدينة نصيبين السورية) الذي جمع هذه المكتبة (٢) . وفي رواية اخرى للسمعاني ذاته يقول ان هذه المخطوطة قد نسخت مرة ثانية في دير السريان بمصر في القرن التاسع او العاشر (٣) ، وهذا الاحتمال اكبر . هذه الاسفار لم تكن معروفة لدى الكتاب السوريين في العصور الوسطى . فلا ميخائيل السوري (توفي سنة ١١٩٩ م) ولا ابن العبري (توفي سنة ١٢٨٦) يعرفانها ، بل اعتمدا في كتاباتهما على الاسفار المنسوبة لزكريا الميتيليني (الملطي) . ولم يعرفها ايضا المؤرخ اغابايوس المنبجي (الذي كتب بالعربية) ، بل اقتبس اخبار القرن السادس عن زكريا الملطي (٤) . واول من اشار الى مخطوطة يشوع العمودي وغيرها من كنوز الادب السوري (السرياني) هو السمعاني ، العالم الماروني الذي نظم في مطلع القرن الثامن عشر « المكتبة الشرقية » الغنية بمثل هذه الكنوز . فالفصل السادس والعشرون من المجلد الاول (من المكتبة الشرقية) يحتوي على مقتطفات من اسفار يشوع العمودي باللغة اللاتينية (٥) . ان اشارة السمعاني الى مخطوطة يشوع العمودي ، اضافة الى ترجمة بعض المقتطفات منها والتعليقات اصبحت معطيات تساعد على استخدام اسفار العمودي كمصدر هام لدراسة تاريخ حروب ايران مع بيزنطة في اواخر القرن الخامس ومطلع القرن السادس .

لكن عدم كمال النص لدى السمعاني وغياب النص السوري (السرياني) ، إضافة الى الثغرات الكثيرة ، فدفع بولين مارتين الى نشر الاصل السرياني لمخطوطة يشوع العمودي مع الترجمة الفرنسية الكاملة له واجراء بعض التصويبات (٦) . ولما كان هذا النص المنشور والمترجم الى الفرنسية تنقصه الدقة التامة ، فقد اخذ العالم البريطاني رايت على عاتقه نشره مرة ثانية . لقد صحح رايت جملة من الاخطاء والنواقص التي ارتكبها سلفه مارتين ونشر النص السرياني مع ترجمته الانكليزية (٧) . وتحدث رايت عن صعوبة الترجمة قائلا انه حاول نقل صورة النص الاصلي وروحه ، فترجمه بالاسلوب الانجيلي الذي يناسب هذا النوع من الاسفار التاريخية . وكانت الملاحظات القليلة التي وضعها رايت تحت السطور موضحا التسميات الجغرافية ذات اهمية كبيرة . لكن اسفار يشوع العمودي في طبعة رايت بقيت بصورة اجمالية دون تفسير . وفي سنة ١٩٤٠ قدمت الباحثة السوفيتية نينا فيكتوروفنا بيغوليفسكايا ترجمة روسية لمخطوطة يشوع العمودي من السريانية مع بعض الملاحظات والتصويبات (٨) .

تتضمن اسفار يشوع العمودي موضوعين اساسيين هما : الحرب البيزنطية - الفارسية ، والنكبات التي اصاب منطقة ما بين النهرين السورية . لكن الموضوع الثاني اكثر صعوبة بالنسبة للتحليل ، لانه متداخل في موضوع الحرب ويغدو من وقت لآخر الموضوع الاساسي على حساب الموضوع الاول . بالنسبة للمعلومات عن العلاقات البيزنطية - الفارسية في الحقبة السابقة لعصره ، فقد استطاع المؤلف استخدام «الكتب القديمة» التي يتحدث عنها معتبرا اياها احدي مصادره التاريخية . وبالنسبة للمعلومات عن الاحداث المعاصرة فقد اشار المؤلف الى الاخبار الشفهية ، فهو يعرف الكثيرين من اولئك الذين يعملون مترجمين في السفارات البيزنطية والفارسية ، ومعظمهم من السوريين . اما في مسائل الحياة الداخلية لمنطقة ما بين النهرين السورية ، فالمؤلف يتحدث بالدرجة الاولى عن الامور التي كان شاهدا عيانا فيها . وفي حالات اخرى يعتمد على الرأي العام الاجتماعي ويستشهد به ، انطلاقا من ان الحقائق المعطاة معروفة من قبل الجميع . فبعد ان يروي الحقائق المؤلمة والمكربة يؤكد المؤلف على صحتها من خلال اثباتها من قبل كافة السكان في مدينة الرها .

كتبت اسفار يشوع العمودي على شكل رسائل ، فهي جواب على عرض احد الاشخاص (يسميه المؤلف : الراهب الارشمندريت سرجيس) الذي توجه الى المؤلف طالبا منه وصف الاحداث التي حصلت خلال السنوات الاخيرة . ويقول المؤلف انه بدا الكتابة دون رغبة ، لانه غير واثق من قدرته على تلبية الطلب ، كما انه لا يملك موهبة حل هذه المسألة المهمة ، التي لم يوفق في حلها اولئك الذين هم « اكبر منه » . من

هو المقصود بهذا التلميح ؟ . ألم يقصد المؤلف اثنان من معاصريه اللذين نالا شهرة المجد بفضل اتجاهاهما الادبي ، وهما يعقوب السروجي (ت : ٥٢١ م) وفيلكسينس المنبجي (ت : ٥٢٣) اللذان يذكرهما في اسفاره . بالاضافة الى دوافع التواضع فالمؤلف يشير الى عدم قدرته على « خلط » النصائح بالروايات والقصص المحزنة التي يتحدث عنها . وهذه الصفة الاخيرة من صفاته تستوجب الشكر الجزيل من جانب المؤرخ . وبصرف النظر عن جميع التحذيرات ، فالمؤلف وفق الى حد ما في اداء مهمته . لقد حدا حذو المؤرخين البيزنطيين ورتب السنوات وبعض التواريخ ، « وذلك كيلا يسيء الى الرواية ويشوهها » . لقد بدا له ان الكتابة عن الاسعار وغلاء المعيشة في زمن المجاعة غير مفيدة . لكن الطلب الخاص الذي تقدم به مراسله سرجيس (رئيس الدير) دفعه للتنازل عن موقفه والاعلام عن هذا الموضوع « غير المقبول بالنسبة للادب الرفيع » (حسب رأي المؤلف) . وفي حديثه عن القضايا البيزنطية والفارسية ، نجده يستخدم مفردات هذه اللغة وتلك . هناك امور كثيرة تشير الى انه كان يعرف اللغة اليونانية . اما اللغة الفارسية ، فان لم يكن يعرفها ، فهو على اية حال كان مطلما على مصطلحاتها وعلى التقاليد ووجهات النظر والتيارات الاجتماعية المعاصرة في ايران (كالحركة المزدكية على سبيل المثال) ، حيث اطلق كلمة « هرطقة » على التعاليم التي بشر بها مزدك .

من هو هذا المؤلف الذي رسم الصورة الواضحة للحياة التي عاصرها ؟ . لم يتحدث عنه ولم يذكره بشيء احد من معاصريه . فالاسفار سميت باسم يشوع العمودي حسب الملاحظة الموجودة في وسط النص الذي كتبه الناسخ اليشع (الذي كان راهبا في دير زوقنين ونسخ هذا الكتاب عن الاصل) . وينسب الراهب اليشع هذا الكتاب الى يشوع العمودي الذي كتب « اخبار السنوات العابرة » عن النكبات التي حلت بمنطقة ما بين النهرين ، وعن الضرر الذي لحقه بها « الطاغية البشري » - القيصر الفارسي (٩) . لم يكسب النقد كثيرا اذا ما اعتبر هذه الاسفار بمثابة حاشية منسوبة الى مجمل التاريخ المنسوب الى ديونيسيوس التلمحري ، كما قال الباحث الفرنسي نو (١٠) ، او اذا نسبها الى شخص مجهول . ليكن المؤلف شخصا غير يشوع العمودي ، لكن هذه الاسفار قد نسبت اليه .

تشير نصوص الاسفار الى ان المؤلف كان كاهنا او راهبا . ان طريقة توجيه الارشمندريت (رئيس الدير) سرجيس نحوه ، واحترام المؤلف واصغائه له اثناء الاجابات ، والنزعة الكنسية التي تبدو في النصوص بكل جلاء ووضوح ، كل ذلك يدل على ان المؤلف كان من رجال الدين الصغار . فالمؤلف يؤكد دوما اساس ومنطلقات النظام الكنسي . وهو من حيث المذهب مونوفيزيتي يؤمن بالطبيعة الواحدة للمسيح ،

علما بأنه لم يذكر في أي مكان ما يدل على مذهبه . واطلق الباحث جيلزر على يشوع العمودي لقب « المونوفيزيتي السري » (١١) . وبالرغم من أن يشوع لم يخف عواطفه نحو المونوفيزيتيين ، فهو ينتمي إلى المعتدلين ويقف موقفا محبا للسلم . فالمشاعر الطيبة التي أبدتها المؤلف نحو الامبراطور البيزنطي انستاسيوس عبر صفحات الكتاب قد تبدلت في السطور الختامية ، لان هذا الامبراطور بدل سياسته الدينية في اواخر حكمه واتخذ موقفا عدائيا من المونوفيزيتيين .

ليست هناك معلومات عن ثقافة المؤلف ، لكن قاموسه واسلوبه يدلان على ان ثقافته كانت مدرسية . في سنة ٤٨٩م اغلق الامبراطور البيزنطي زينون «مدرسة الفرس» (مدرسة السوريين النساطرة) في مدينة الرها ، بسبب انتشار النسطورية فيها على نطاق واسع ، فهرب الاساتذة النساطرة الى المناطق التي يحكمها الفرس وواصلوا نشاطهم التعليمي في مدينة نصيبين السورية (قرب القامشلي) التي ازدهرت مدرستها طوال قرون عديدة (١٢) . وكان على المونوفيزيتيين والملكيين الخلكيدونيين الباقين في مدينة الرها السورية بعد اغلاق مدرسة النساطرة ان يواصلوا تقاليد هذا المركز التعليمي . ويدل على ذلك ان الرها كانت عبر العصور مركزا ثقافيا تخرج منه المثقفون السوريون من ذوي الاتجاهات الدينية المختلفة . لقد نسخ في الرها عدد كبير من المخطوطات ، وهذا ما يؤكد مرة اخرى وجود المدارس التي كانت تعد كوادرناسخين والكتبة . ومن المحتمل ان يشوع العمودي كان في عداد معلمي المدرسة ، الامر الذي يجعل مخاطبة الارشمندريت له مفهومة . ويتحدث المؤلف ايضا عن بعض الاشخاص فيسميهم « الاخوة من مدرستنا » (١٣) .

يمكن ان يطرح تاريخان بخصوص زمن تأليف هذه الاسفار : سنة ٥٠٧ ، او سنة ٥١٨ . كتبت الاسفار تحت تأثير انطباع مباشر « للنكبات والكوارث » التي ولت منذ فترة وجيزة ، والخر تاريخ لها كان ٢٨ تشرين الثاني سنة ٥٠٦ . اتى النص على ذكر جوستينوس الذي خلف انستاسيوس على العرش البيزنطي ، فمنحه لقب الدوق (الدوكس) دون اية اشارة الى وضعه المستقبلي كامبراطور . لكن الكلمات المتعلقة بسياسة الامبراطور انستاسيوس غير المرغوبة في نهاية حكمه (بسبب معاداته للمونوفيزيتيين) تعود الى سنة ٥١٨ التي توفي فيها ذلك الامبراطور . ويرى الباحث رايت ان هذا الجزء من الفقرة الاخيرة للاسفار عبارة عن حاشية اخيرة اضيفت مؤخرا للاسفار ، في حين ان الاسفار كتبت في سنة ٥٠٧ ، ويعتقد الباحث جيلزر ان الاسفار كتبت في سنة ٥٠٧ ، لكنه يعترف بان الحاشية مكتوبة من قبل المؤلف نفسه بعد موت الامبراطور انستاسيوس - أي عندما صمم على نشر مؤلفه . ووافق نولدكه على وجهة النظر هذه ، لكنه بدل رأيه فيما بعد وقال ان الاسفار كتبت في فترة متأخرة

عن سنة ٥٠٧ هـ بعض الزمن (١٤) . وطالما ان المؤلف يتحدث عن رفاهية مدينة الرها وعن الهدوء والسلامة التي سادتها بعد التكتبات والمصائب التي جلب بها ، نجد ان من الضرورة الافتراض بان ردحا كبيرا من الزمن مضى حتى تمكنت المدينة ومنطقتها من العودة الى صحوتها والنهوض على قدميها . وعلى اية حال ليس لدينا اية مبررات نستند اليها في نسب كتابة الاسفار ونشرها الى فترة مابعد سنة ٥١٨ م . ويمكن للمرء ان يأسف فقط لنقطة واحدة ، وهي ان مؤلف الاسفار يشوع العموي لم يحقق رغبته الحارة في الكتابة عن « ازمة النعم والرخاء » في منطقة ما بين النهرين السورية كما وعد مراسله سرجيس ، او لربما ان مثل هذه الكتابة فقدت بالنسبة لنا كغيرها من كنوز الادب السوري .

ان الراهب او الكاهن ، او ربما معلم المدرسة ، يشوع العمودي لا يعتبر ممثلا للطبقة العليا في الكنيسة . فالاساقفة والبطاركة ورؤساء الاديرة كانوا ينتمون الى المراتب العليا ، كما كانوا من كبار ملاكي الاراضي ويتصرفون دون اية رقابة بأموال الكنائس والاديرة . وعلى هذا فان مصالح هذه الجماعة - القمة - كانت ذات المصالح لدى الاغنياء والوجهاء الاخرين . ففي الاسفار لا نجد اية اشارة تدل على ان المؤلف يتبنى مصالح الطبقة العليا في المجتمع ، بل على العكس ، فعبر الكتاب كله نجده يولي اهتمامه « للفقراء والبسطاء والتعساء » . لقد طالته هو نفسه الاسعار العالية التي فرضت على المواد الغذائية ، فهو يقول : اننا « نحن » عانينا من غلاء المعيشة . وهو يغضب كإنسان عانى من الرشوة ، ومن التوزيع الظالم لاقامة الجنود البيزنطيين في مدينته . انه اذ يتحدث عن الدعاوى والمخاصمات والمضايقات ، يقف الى جانب الناس « الصغار » المعتدى عليهم والمهانين . ينتمي يشوع العمودي الى رجال الدين الصغار . وكانت حياة الحرفيين والفلاحين اقرب اليه من حياة النبلاء الاغنياء ، لذا كان من السهل عليه فهم مصالح هذه الطبقات الكادحة من الشعب . لكنه يخشى الاحتجاج والتذمر والتمرد . فهو يوبخ « المقدامين » و « الوقحين » الذين يفعلون « ما لا يليق » بممثلي « الشعب البسيط » ، والذين صموا على كتابة احتجاجهم في « مواثيق » وتعليقها في الاماكن العامة داخل المدينة . ان العمل ضد « سلطة كبار الملاكين » يبدو له غير مقبول . ففي كلماته نجده يحاول تسوية الصراع بين القائد كيليروس وسكان الرها ، لكنه يفعل ذلك دون ثقة او معرفة . فهو لا يجرؤ على التعبير عن ذلك ، وخائف من ان اولئك الذين « يحبون اللوم والعتاب » سينشرون الشائعات بانه يتكلم « ضد القادة » . انه مسلح بوجهة نظر انسانية تجاه الاحداث . فبصرف النظر عن انه من انصار بيزنطة ، كانت ممارسات جنودها في ايران تشير استنكاره . فإبادة جميع الذكور من السكان ، وحرق القرى واتلاف كروم العنب تبدو له اعمالا شنيعة وشائنة . انه يتحدث برعب صارخ عن حقائق « اكل لحوم البشر » .

والمؤلف نفسه يعتبر اخباره صادقة وحقيقية . انه اذ يخشى من ان بعض الحقائق التي اوردها : كالمجاعة المربعة بعد قدوم الجراد ، والطاعون الرهيب ، قد تثير الشكوك لدى اولئك الذين سوف يعيشون « بعده » لذا يؤكد حقيقة كلماته وصدقها بقوله : « ان الاخبار التي اقدمها في هذا الكتاب يشهد على صحتها جميع الناس في منطقتنا » . وبعد التحليل الدقيق لا تظهر لدينا اية شكوك بمصداقية هذه الاسفار .

ولا جدال في ان اسفار يشوع العمودي افضل مصدر بالنسبة لتاريخ الحرب البيزنطية - الفارسية في عهد انستاسيوس وقباز . لقد حافظ هذا المصدر على النضارة الحية لبعض الحوادث التي لم تفقد العلاقة العامة وتسلسل الاحداث ، ولذا جلب اهتمام بعض الباحثين (١٥) . لكن هناك الكثير من الامور التي تحتاج الى عمل اضافي في هذه المعطيات ، كما تحتاج الى استخدام مصادر اخرى معاصرة لايضاح صورة البحث الذي بين ايدينا .

٢ - في الجغرافية التاريخية لمنطقة ما بين النهرين السورية :

بعد ان احتل الفرس الاخمينيون بابل وعزلوا الاسرة الكلدانية عن عرشها (سنة ٥٣٩ ق.م) تشكلت في المنطقة العربية الممتدة من الخليج العربي الى منابع دجلة والفرات ولاية (ساتراپيا) ادارية واحدة يحكمها وال فارسي وتدعى « ولاية بابل » . وعندما اسقط الاسكندر المكدوني العرش الفارسي الاخميني قسمت تلك المنطقة العربية (في سنة ٣١ ق.م) الى ولايتين : الاولى هي ولاية ما بين النهرين (ميسوبوتاميا) ، او ولاية اسيريا (اشور) في الشمال ، والثانية هي ولاية بابل في الجنوب . وفي البدء اطلق المكدونيون اليونانيون على ولاية ما بين النهرين اسم « سيريا ميسوبوتاميا » Syria - Mesopotamia اي سورية الواقعة في ما بين النهرين (دجلة والفرات) . وفيما بعد اختصر اليونانيون التسمية المزدوجة « سيريا ميسوبوتاميا » ، فحذفوا اسم سورية وابقوا على اسم « ميسوبوتاميا » التي تعني ما بين النهرين ، وذلك تسهيلا لاستعمال اللفظ (١٦) .

وبعد موت الاسكندر المكدوني (في ١٣ حزيران سنة ٣٢٣ ق.م) احدث خلفاؤه (في سنة ٣٢١ ق.م) بعض التعديلات الادارية ، فضموا منطقة اديابينا (الواقعة الى الشرق من دجلة والممتدة حتى مدينة اربيل) الى ولاية « سيريا - ميسوبوتاميا » اي الى سورية في ما بين النهرين . وفي عهد الملوك السلوقيين (خلفاء الاسكندر في سورية) انشئت في المنطقة الشمالية الممتدة الى الشرق من نهر دجلة ولاية ادارية

سلوقية منفصلة عن ولاية ما بين النهرين ، واطلق عليها اسم « بارابوتاميا » (أي ما وراء النهر) Parapotamia (ذكرها وعين موقعها المؤرخ بوليبيوس (١٨٥ ، ١٦ - ٦٩ ، ٥) (١٧) .

وكان اسم « اوسروينا » قد اطلق على ولاية ما بين النهرين الجنوبية (مركزها الرها) في سنة ١٣٢ قبل الميلاد . ومنشأ التسمية يعود الى ان الملك السلوقي في سورية قد عين في الرها حاكما اداريا على ولاية ميسوبوتاميا الجنوبية شخصا ايراني الاصل اسمه اوسرويا . ورغم ان اوسرويا هذا لم يحكم تلك الولاية سوى خمس سنوات (١٣٢ - ١٢٧ ق.م) فقد التصق اسمه بها في المصادر التاريخية قرونا عديدة . وكان من الاصح ان تسمى باسم « الولاية العربية » ، حيث كان معظم سكانها من القبائل العربية ، كما حكمها ملوك عرب منذ ذلك التاريخ (وقبله) حتى العهد البيزنطي . ففي سنة ١٢٧ قبل الميلاد استلم الحكم في الرها (تحت السيادة السلوقية) ابو بار مازور زعيم احدي الاسر العربية التي استأثرت بعرش ولاية اوسروينا بضعة قرون . وعندما كلف بومبي القائد الروماني كراسوس بخوض الحرب مع الفرس البارثيين (سنة ٥٤ ق.م) وقف الى جانبه كل من الابجر الثاني ملك اوسروينا العربي الاصل ، والخودوني زعيم احدي الاسر العربية المسيطرة على القبائل العربية التي كانت تعيش حياة شبه بدوية الى الغرب من نهر الفرات (١٨) .

في عصر الاحتلال الروماني كانت الاراضي السورية الخاضعة للرومان في المنطقة الممتدة الى الشرق من الفرات مقسمة اداريا الى منطقتين : الاولى ، هي منطقة ما بين النهرين الشمالية ومركزها مدينة آمد ، والثانية هي منطقة ما بين النهرين الجنوبية (اوسروينا) ومركزها مدينة الرها (اديسا) . وفي القرن الرابع الميلادي (بداية العصر البيزنطي) كانت تلك المناطق السورية كلها معا تعرف باسم « ولاية ما بين النهرين وأوسروينا » Mesopotamia et Osroena Provinciae (١٩) . ويسمى بهذا الاسم ايضا بروكوبيوس المؤرخ البيزنطي في القرن السادس الميلادي (٢٠) . في زمن الاحتلال الروماني - البيزنطي حافظت مدينة الرها على اسمها السوري « أورهاي » ذي المنشأ الاقدم والمرتبط بالعرب . وفي عصر الخلفاء المسلمين حُرف اسم « أورهاي » الى « الرها » ثم الى « اورفة » بعد ان احتلها الاتراك . وأشار المؤرخ بلينيوس الاكبر (في كتابه : التاريخ الطبيعي) الى ان نهر دجلة كان يمثل الحدود الشرقية للقبائل العربية التي يسميها « عرب الرها » Arabes Oraei (٢١) .

بصرف النظر عن ان يشوع العمودي قد نسب اسفاره التاريخية الى منطقة ما بين النهرين السورية كلها ، فانه من الناحية الفعلية تحدث بالدرجة الاولى عن مدينة

الرها التي تقع في مركز اهتماماته . كانت الرها (اديسا حسب التسمية اليونانية) العقدة التي تلتقي فيها مجموعة كاملة من الطرقات ، بعضها يتجه من الغرب الى الشرق ، والبعض الاخر يربط بين الاجزاء الشمالية والجنوبية لمنطقة ما بين النهرين السورية . وكان البيزنطيون والفرس معا ينظرون الى الرها بمثابة مفتاح للدخول الى عدد من مناطق ما بين النهرين . قالى الغرب من الرها تقع مدينة بيرجيك (افاميا) . وفي الطرف المقابل ، على الضفة اليمنى لنهر الفرات تقع مدينة زيجما . من هناك كانت تمر احدى الطرق القادمة من سورية الوسطى والغربية باتجاه ما بين النهرين . الى الجنوب وعلى الفرات تقع بلدة معروفة في العصر الروماني وما بعده كقلعة وهي اوروبوس او دورا المشهورة اليوم باعتبارها مكانا لاثار القرنين الثاني والثالث الميلاديين (٢٢) . وعلى الفرات ايضا تقع مدينة سميساط . وعند مصب نهر ديسان (الذي تقع عليه مدينة الرها) في نهر غولاب (جلاب) تقع مدينة حران ، التي يتحدث منها يشوع العمودي ، فيقول انها تعرضت في زمن الحرب البيزنطية - الفارسية الى هجوم العرب (ربما يقصد عرب المناذرة) . الى الجنوب من حران ، وبالقرب من الفرات تقع مدينة كالينيكوس (الرقة) ، التي احيطت بسور في سنة ٤٤٩ م ، فأطلق عليها فيما بعد اسم اخر هو ليونتو بوليس (على اسم الامبراطور البيزنطي ليون الاول ٤٥٧ - ٤٧٤) . الى الشرق من الرها تقع مدينة نصيبين (بجوار القامشلي) ، التي بقيت فترة من الزمن تحت السيطرة الرومانية - البيزنطية ، ثم انتقلت الى ايدي الفرس ، ومن ثم ظلت تمثل تفاحة الخصام بين ايران وبيزنطة . الى الشمال من نصيبين ، وعند الحدود الفارسية البيزنطية مباشرة كانت تقع مدينة دارا التي حصنها الامبراطور البيزنطي انستاسيوس الاول (٤٩١ - ٥١٨) وجعل منها مركزا عسكريا لحماية الحدود . وفي منتصف الطريق بين دارا والرها كانت تقع مدينة التلة المحاطة بالاسوار والتي تمثل مركزا عسكريا هاما للبيزنطيين (٢٣) . وكانت مدينة آمد التي تقع على نهر دجلة (الى الشمال من تلة) مسورة بأسوار صعبة المنال ، كما كانت مركزا تجاريا عظيم الشأن (٢٤) .

في مطلع القرن الخامس كانت الرها مدينة كبرى من حيث عدد السكان والتحصين الجيد . كان فيها المسرح والسرک والحمامات العامة وانابيب المياه والورشات الصناعية ومعامل السلاح الحكومية . وكانت توجد بوابات على نهر ديسان الذي يجري في وسط الرها . وبعد هجوم ملك المناذرة النعمان على الرها صنعت لهذه البوابات (في تشرين الثاني سنة ٥٠٢ - ٥٠٣) مزالج (ترابيس) ، والاصح انها صفحت بالحديد لجعلها عصية على من تراوده نفسه اقتحام المدينة عن طريق النهر ، ولم يتوفر الحديد اللازم لتنفيذ هذا العمل ، ففرض على كل بيت بصورة الزامية في مدينة الرها ان يقدم (١٠) ليتر (وزن يوناني) من الحديد (٢٥) . كان نهر ديسان يتحول الى سيل عارم عكر في

الربيع والخريف ، فيفيض من الضفتين ويفرق القطاع المنخفض من المدينة . وكانت الفيضانات المتكررة تسبب ضحايا بشرية . وفي عهد الامبراطور جستنيانوس (٥٢٧ - ٥٦٥) كانت مياه « الفرس الاصيلة او السريعة » (نهر ديسان حسب التسمية اليونانية) توجه باتجاه الشمال في مجرى خاص محفور في الصخر خلف سور المدينة (٢٦) . ويتحدث يشوع العمودي عن وجود انبوين للمياه كانا ممدودين الى المدينة من قرى تل زيماء وموداد الواقعتين الى الشمال من الرها ، وقد تم تجديد هذه المجاري المائية المارة على قناطر مرتفعة في عهد الوالي البيزنطي افلوغيوس سنة ٥٠٥ ميلادية (٢٧) . وكانت المياه خارج حدود الرها تصب في اقنية للري لتسقي البساتين وكروم العنب .

طبقا للوصف الذي يقدمه المؤرخ البيزنطي بروكوبيوس ، كانت الاسوار المحيطة بمدينة الرها مؤلفة من صفين ، الاول يمثل جدارا عاليا ترتفع عليه الابراج . وامام الجدار ذي الابراج كان يمتد منخفض يفصله عن الجدار الثاني (٢٨) . وتعتبر القلعة واحدة من اروع الابنية الحصينة في مدينة الرها . تقع هذه القلعة في ساحة جبلية ترتفع عن مستوى المدينة بحدود مئة متر ، كما انها محاطة بخنادق عميقة ومحمية بأبراج مزودة بقاذفات وتروس (٢٩) .

كان الشارع الرئيسي في الرها يمتد من بوابة المسرح حتى بوابة المفارات وعلى امتداد كورنيش نهر ديسان . وكانت الاروقة على امتداد الشارع ، وفيها تواجد الحرفيون وورشاتهم . هناك كانوا ينون حوانيتهم ومصانعهم التي تغطي كورنيش النهر كله . البناء الذي يسمى « انتيفورس » ويذكره يشوع العمودي يتوجب افتراض وجوده مقابل الساحة العامة (٣٠) . أما بروكوبيوس فيقول بان هذا البناء الذي هدمه الفيضان قد رمم في عهد الامبراطور جستنيانوس (٣١) . وكان في المدينة حمامات صيفية وحمامات شتوية (٣٢) . اما الحمامات الشعبية الجديدة فقد شرعوا بنائها في عهد الحاكم الكسندر سنة ٤٩٧م في المكان الذي كان قد اقترح ان تبنى فوقه قبل مدة طويلة من الزمن ، وهو الى جانب مستودع الحبوب الحكومي (٣٣) أما المستودعات والعنابر الحكومية (التي بنيت الحمامات بجوارها) فيذكرها يشوع العمودي في روايات عديدة . وكانت تخزن في تلك المستودعات وغيرها المواد الغذائية التي ترد بمثابة ضرائب عينية (٣٤) . وكانت اقامة الوالي البيزنطي في البناء الذي يسمى «بريتوريون» - أي قصر الوالي . وخلف سور المدينة عند مدخل بيت شمش كان يوجد بناء عبارة عن مستشفى وبيت المعجزة Hospicium (٣٥) .

ومن المنشآت العامة في الرها ميدان سباق الخيل الذي كان موجودا في الحي الشمالي من المدينة منذ عصر استقلالها . ففي هذا الميدان كانت تجري مباريات سباق

الخييل والمصارعات بين الحيوانات المتوحشة . لكن تلك الالعب منعت في عهد الامبراطور انستاسيوس الاول ٤٩١ - ٥١٨ (٣٦) . أما المسرح الذي يقع في الجزء الشرقي من المدينة، فكان مكانا لمشاهد مفرحة خاضت الكنيسة المسيحية ضدها حملة قاسية، لكنها لم تتمكن من منعها . وكانت من روائع ذلك المسرح المسرحيات والتمثيلات التي ترتبط بالاحتفال بالعيد الوثني في مطلع شهر ايار ، الذي بقي قيد الممارسة الفعلية في الامبراطورية البيزنطية حتى القرن السادس الميلادي . ويتحدث يشوع العمودي عن هذا العيد الوثني باشئمزاز وغضب واستنكار ، لكنه يعطيه وصفا حيا . ذلك العيد كان محببا من قبل الاسلاف « الاباء » ، الذين يطلق عليهم يشوع العمودي اسم « الجهلاء » . في سنة ٤٩٧ - ٤٩٨ كان الاحتفال بهذا العيد يجري على الشكل التالي : « ها هو وقت العيد يقترب من جديد ، العيد الذي تنشد فيه الاساطير الوثنية ، وكان سكان المدينة يبذلون جهودا اكثر مما مضى . خلال سبعة ايام كانوا يهرعون جماعات جماعات الى المسرح في اوقات المساء ، يرتدون الالبسة الكتانية والعمائم ويسيرون بارداف مباحة . كانت الشمعدانات (المصابيح) تضيء امامهم ، ودخان البخور يتصاعد ، وهم في حركة دائمة طوال الليل ، يتجولون في المدينة مباركين الراقصين حتى الصباح بالاغاني والانشيد وهتافات الفطرسية والشموخ (٣٧) . ويتحدث المؤرخ يشوع العمودي عن الاحتفال بذلك العيد الوثني في سنة ٤٩٥ - ٤٩٦ فيقول : « ارتدت المدينة حلة من الزينات بمناسبة العيد ، كما اشعلت اعداد كبيرة من المصابيح . ولم يكن مثل هذا التقليد يمارس في المدينة من قبل . من بوابة المسرح حتى بوابة المغارات وضعت على الارض بمحاذاة النهر المصابيح المشتعلة ، كما علقوا بعضها في الاروقة والشوارع العليا واماكن اخرى كثيرة » (٣٨) .

في المنطقة المرتفعة من مدينة الرهانبني قصور الاغنياء التي كانت مليئة بالمفروشات والسجاد والالبسة والاوراني الثمينة . عن غنى و ثراء الطبقة المستغلة في المدن السورية الواقعة على طرق القوافل التجارية في منطقة ما بين النهرين يمكننا ان نحكم من خلال ما ترويهِ الاخبار التاريخية المنسوبة ل زكريا الميتيليني (الملطي) حول الكنوز التي نهبت من مدينة آمد على يد الملك الفارسي قباد . ويذكر الكاتب من تلك الكنوز : التماثيل ، الساعات الشمسية ، المرمر ، البرونز ، الذهب والفضة ، الالبسة الثمينة (٣٩) . الى جانب صورة الترف والبلذخ في قصور الاغنياء ، كانت هناك صورة تمثل الفقر المرعب للطبقات الشعبية الكادحة التي تقطن في الاكواخ والخيام المثيرة للشفقة . فالالبسة الفاخرة الثمينة التي كان يرتديها الحكام والاغنياء كانت تتميز على خلفية الثياب الرثة التي كان الفقر يغطي بها عورته . وهكذا كان التباين بين الطبقات الغنية والفقيرة صارخا وملفتا للانظار .

كان سكان الرها يتألفون من شعوب مختلفة . لكن السكان الاساسيين للمدينة ومنطقة اوسروينا كانوا من السوريين (العرب القدماء) ، كما كانت لغتهم السريانية هي اللغة السائدة في سورية العظمى كلها . وحتى منتصف القرن السابع الميلادي كان السوريون يسيطرون على خيوط العلاقات التجارية في الشرق والغرب ، كما كانوا في قطاع كبير من الميادين الصناعية دون منافس او مزاحم . وكان الرومان واليونانيون والفرس يشكلون بعض المجموعات في الرها وغيرها من المدن السورية في منطقة ما بين النهرين . اضافة الى تلك الاقليات كان ياتي مع القوافل التجارية ويخرج عبر الاف السنين الجورجيون واللازيون والكوديشيتيون والتموريون والمصريون والاحباش والهنود . وطبقا لذلك كان اللباس متنوعا ، والعادات والتقاليد مختلفة ومتباينة . وكانت خليطة ايضا اللغات واللهجات التي تتحدث بها جماهير المنطقة في ذلك العصر . وكذا كانت متباينة المعتقدات الدينية : الوثنية بكافة المظاهر والاشكال ، الزرادشتية ، اليهودية ، المسيحية بكافة مذاهبها واتجاهاتها - كل هذه الديانات كانت موجودة جنبا الى جنب في منطقة ما بين النهرين السورية .

تعتبر الرها في القرنين الخامس والسادس الميلاديين مدينة نموذجية من مدن الشرق الادنى . فهي مدينة صاخبة خليطة يتكلم سكانها بلغات عديدة . المظهر الخارجي للمدينة (بأبنيتها المحصنة واسوارها والمباني العامة وانايب المياه) كان رومانيا - بيزنطيا . لكن الحياة الصاخبة كانت تشبه حياة كل المدن الشرقية بأسواقها ودكاكينها ومسارحها ومواكبها الطويلة . اعيادها واحتفالاتها التي تقام في الشوارع والساحات تذكر بالامواج المضطربة بعنفها وشدتها . الصناعة والتجارة والترف والثراء والذهب والحجارة الثمينة - كل هذا كان يجذب الناس الى الرها ، كما كان مادة لاطماع جيرانها العسكريين الفرس ، ولكن لم يقدر لهم اغتصاب هذه اللؤلؤة السورية من ايدي جيرانهم البيزنطيين .

٣ - العلاقات الاقتصادية - الاجتماعية في المدن السورية :

أ - التركيب الطبقي في المدن السورية :

١ - الحرفيون والعمال :

كانت الغالبية العظمى من سكان المدن السورية في منطقة ما بين النهرين تتألف من الصناع والحرفيين المنظمين في جمعيات حرفية تشرف عليها الحكومة ، اضافة الى عدد كبير من العمال المياومين والعبيد والمحربين من العبودية . وتطلق اسفار

يشوع العمودي السورية على الصنّاع والحرفيين اسم « يوماني » ، وهذه التسمية السريانية تقابل التسمية اليونانية « تخنيتس » technites والتسمية اللاتينية « فابريكاتور » Fabricator (٤٠) . ويطلق هذا الاسم عادة على الصنّاع المهرة أو الحرفيين المجريين . لكن مضمون المصطلح « يوماني » لا يقتصر على هذا المعنى ، حيث تطلق أسفار يشوع العمودي اسم « يوماني » أيضا على العاملين غير الفنيين وغير المؤهلين . وهذه المصادر السريانية لا تفرق في المصطلحات أحيانا . فعن الحمامات التي كانت تشيد تقول هذه الأسفار التاريخية أن عددا كبيرا من « الناس » كانوا يعملون فيها (٤١) . والقانون السوري يطلق على الحجارة الذين ينون الابنية الحجرية اسم « يوماني » ويقصد بذلك الصنّاع أو الحرفيين (٤٢) . وعندما اقتضت الحاجة للقيام بحفريات قرب مدينة آمد السورية استدعي الحرفيون لهذا العمل من مدن أخرى ، كما ساعدتهم في ذلك العمل « القرويون » (٤٣) . لم يكن « اليوماني » (الصنّاع أو الحرفيون) في القرن الخامس الميلادي يمثلون فئة واحدة ، بل كانوا مجموعة غير متجانسة من الناس الذين لا يمارسون العمل الزراعي . كان يطلق « يوماني » على العامل المياوم غير المؤهل الذي يتحمل أعباء ثقيلة مثل العبد ، كما يطلق أيضا على صاحب الحرفة الماهر الذي يملك مشغله وحانوته الذي يبيع فيه انتاجه الصنّاعي . ونعرف عن العمال المياومين أنهم كانوا « يقفون في سوق العمال » منتظرين دعوتهم الى العمل . وكانت ظروف عملهم أشبه ما تكون بظروف عمل العبيد ، كما كانت أجورهم تؤخر ، وأحيانا لا تدفع ، أو تدفع منقوصة (٤٤) . كان اصحاب الاعمال يسيئون الى العمال بشتى الوسائل ، مستغلين قدراتهم الاقتصادية وامتيازاتهم القانونية .

وتعطي الأسفار التاريخية معلومات عن دفع الاجور . فالتنافس الدائم بين عمل هؤلاء العمال الاحرار وعمل العبيد ، والظروف الحياتية البائسة ، والفش والخذاع أثناء حساب الاجور - كل هذا كان يعاني منه هؤلاء الكادحون . ويمكن الاشارة الى معلومات عن الاجور في القرنين السادس والسابع . كان الحجار في مصر والمياوم يحصل على « كيراتيون » (عملة فضية صغيرة) واحد في اليوم (٤٥) . وتقدم الأسفار التاريخية السورية المنسوبة الى زكريا الميتيليني (المطلي) معلومات عن اجور عمال البناء في المدن السورية في القرنين الخامس والسادس الميلاديين ، لكن هذه المعلومات تحتاج الى تحليل . لقد اختار الامبراطور انستاسيوس (٤٩١ - ٥١٨) مدينة دارا الصغيرة لتكون مركزا استراتيجيا جديدا على الحدود مع الفرس . وعلى جناح السرعة اخذ الصنّاع والعمال ينون الاسوار ويمدون الانابيب لجر المياه من الجبال الى صهاريج مصنوعة خصيصا لحفظ الماء . بني كذلك مستودع للحبوب وحمامات وغيرها من الابنية ذات الخدمات الاجتماعية . وكان الهدف من هذا كله تأمين المعيشة في المدينة في حال وقوعها تحت حصار الاعداء الفرس . ألح الامبراطور انستاسيوس بالاسراع

في عملية البناء وكلف توما اسقف آمد بالاشراف على ذلك العمل . اخذ الاسقف توما يتردد كثيرا على مكان العمل ويرسل وكلاءه احيانا . هذه التفاصيل التي اوردها زكريا الملطي لم يعرفها المؤرخ البيزنطي بروكوبيوس ، الذي اشار في كتابه De aedificiis بملاحظات موجزة عن دارا ، شأنه في ذلك شأن تيوفانس في حولياته التاريخية (٤٦) . أما المصدر السوري (زكريا الملطي) فيذكر المرسوم الخاص الذي اصدره الامبراطور انستاسيوس ، ويفيد بان النقد كان يسك بكميات كافية ، كما وعد الامبراطور الاسقف توما بتغطية كافة النفقات المتعلقة بالبناء . تطلب جمع المواد ونقل الحجارة ايدي عاملة كثيرة ، ولذا استدعى الحرفيون « يوماني » والعبيد « عبدي » والفلاحون « بلاحي » الى مدينة دارا ، كما ارسل اليها عدد كبير من الحجارين والنحاتين . وأمر الامبراطور « بالآ » يساء لاحد في اجرة عمله الذي انجزه « (٤٧) » .

وبفضل « الكرم » بدفع الاجور انجز بناء القلعة خلال وقت قصير نسبيا . كان مراقبو العمل يحصلون على أموال طائلة ملأت جيوبهم (٤٨) . ومما ساعد في جذب الناس الى العمل في بناء قلعة دارا أن دفع الاجور كان يتم دون تأخير ، في حين كان العاملون في أماكن أخرى يعانون عادة من التأخر والغش في دفع الاجور . كان البنائون والنحاتون قد ارسلوا خصيصا من المدن الكبرى . أما الباقون فكانوا من الميامين الذين من بينهم الحرفيون والفلاحون والعبيد المرسلون من قبل أسيادهم ليعملوا ، فيأخذ الاسياد اجرة عملهم . « امتلأت الجيوب » ، « اثرى الكثيرون » ، هكذا يقول المؤرخ السوري زكريا الملطي ، وكان محقا بالنسبة لمراقبي العمال وحدهم .

يجب فهم المعلومات التي يقدمها زكريا الملطي عن اجور العمل اليومي بحذر . « كان العامل (بيالا) يحصل في اليوم الواحد على اربعة كيراتيون ، واذا كان معه حمارة ، فيحصل على ثمانية كيراتيون » (٤٩) . يشير هذا الاجر المرتفع بعض الشك ، لان الاجر اليومي للعامل لم يتجاوز عادة كيراتيونا واحدا . وتفسر اسباب هذه الزيادة في الاجور بضرورة الاستعجال في تنفيذ البناء ، وبضرورة اجنذات العمال لانجاز هذا العمل الذي له اهمية استراتيجية كبيرة . الى جانب ذلك يجب الانتباه الى ان سعر القمح (الذي ذكره يشوع العمودي في سنة ٥٠٤-٥٠٥ م) بلغ اربعة كيراتيون للمد الواحد (المد = ٢ كغ) . بدء البناء في قلعة دارا بعد عقد الصلح بين الفرس والبيزنطيين . في ذلك الحين كان القمح ينقل من الرها الى آمد ودارا ، ولذا كانت اسعار القمح في آمد ودارا بقدر ما هي عليه في الرها تقريبا او اكثر بقليل . وربما هبطت اسعار القمح بعد سنة ٥٠٥ ميلادية ، لكن من المحتمل ان اجور العمال المرتفعة التي افاد بها زكريا الملطي كانت نتيجة ارتفاع سعر القمح في ذلك الحين .

بنى الحرفيون في شوارع الرها وساحاتها مصانعهم وحوانيتهم (٥٠) ، وهم لم يسكنوا فيها ، بل كانوا يأتون اليها مع صناعاتهم للعمل فيها خلال النهار . في تشرين الثاني من سنة ٥١٣ حسب التقويم اليوناني (أي في سنة ٢٠١ ميلادية) حدث في مدينة الرها السورية فيضان كبير أغرق القسم المنخفض من المدينة (٥١) . لقد خرج نهر ديسان (الذي تقع عليه الرها) عن شطآنه ، فسبب كارثة كبيرة . وعلى هذا أمر ملك الرها العربي (الابجر الثالث عشر) « بأن يبعد حرفيو المدينة حوانيتهم عن النهر ، وألا يبني أحد منهم حانوتا له قرب النهر » (٥٢) . والحانون (بالسريانية حانوتا، وبال يونانية ارغستيريا) كان بمثابة مشغل لصنع المواد والادوات ومكان يجري فيه البيع في الوقت نفسه . كان كورنيش نهر ديسان الشارع الرئيسي المفضل للصناع في الرها . ففي القرن الثالث كان هذا الشارع كثير الحركة والنشاط ، وبقي هكذا في القرن الخامس ، حيث كان يتجمهر فيه الشعب في ايام الاعياد ، كما كان ينار بشكل غير عادي (٥٣) . وتجنبنا للضحايا البشرية عند تكرار الفيضانات امر الملك الابجر أيضا بأن « على كل من يجلس في الاروقة ويعمل قرب النهر الا ينام في حانوته من تشرين الاول حتى نيسان » (٥٤) . هذا الامر أخذ بعين الاعتبار أولئك الحرفيين الذين مارسوا عملهم وتجاريتهم في هذه المشاغل ، وأحيانا كانوا يقضون ليلتهم فيها . أما المنزل ، مكان العيش الدائم ، فكان في مكان اخر من المدينة ، وربما في مكان ما من الضواحي . واستخدمت الاروقة كمكان مسقوف يستطيع الصناع عرض انتاجهم وبيعه فيه . وقد اقيمت الاكشاك في تلك الاروقة المسقوفة لتجنب وطأة الشمس المحرقة والامطار . وغص الشارع الرئيسي بتلك الاكشاك ، مما اضطر حاكم المدينة البيزنطي الكسندر (في سنة ٤٩٦-٤٩٧) ان يأمر بخلعها وإزالتها بغية تنظيم المدينة (٥٥) . وكانت الاوساخ ونفايات الانتاج تلقى في ذلك الشارع ، فأمر الحاكم الكسندر باتخاذ مايلزم من اجراءات لتنظيف المدينة من تلك الاوساخ ، خاصة وان مرض الطاعون وغيره من الامراض السارية الجماعية ظلت تهدد مدينة الرها السورية باستمرار (٥٦) .

وعلى غرار الجمعيات الحرفية لعمال المخابر (التي توجد معلومات تفصيلية عنها في المصادر التاريخية) شكل الحرفيون الآخرون في المدن السورية جمعيات حرفية (نقابات) منظمة . وكانت تلك الجمعيات الحرفية تعمل بعلم وسماع من حاكم المدينة الذي يشرف على تنظيمها (٥٧) . وكانت لدى حاكم المدينة قوائم بأسماء الحرفيين من أجل تلبية احتياجات الخزانة بالضرائب .

٢ - الملاكون الكبار :

كان أباطرة روما ومن ثم بيزنطة يملكون في الولايات السورية اراضي خاصة بهم . وقد اشار الى تلك الاملاك القانون البيزنطي الصادر في سنة ٣٨٦ بالعبرة التالية :

« الاملاك الامبراطورية في ولايتي ما بين النهرين واوسروينا » Fundi Patrimoniales
per Mesopotamiam et Osroenam Provincam (٥٨)

ان المصطلح اللاتيني « فوندي باتريمونياليس » Fundi Patrimoniales قد اطلق عادة على املاك الاباطرة الزراعية التي كانت ، كما اشير ، وراء الفرات . ومن المحتمل ان الاملاك الزراعية التي كانت تخص ملوك الرها العرب قد انتقلت ملكيتها الى الاباطرة الرومان بعد الاحتلال الروماني للمنطقة . وفي مطلع القرن السادس الميلادي امتلك الامبراطور البيزنطي انستاسيوس بعض الاراضي الزراعية قرب حصن دارا وجعلها تابعة للدولة .

اضافة الى الاملاك الزراعية التي تخص الاباطرة والدولة البيزنطية المستعمرة ، كانت هناك املاك كبيرة تخص « الاغنياء ورفيعي الشأن والمقام » من السكان السوريين . وتطلق المصادر السورية (السريانية) على هؤلاء الاغنياء والوجهاء والاعيان المحليين اسم « روبان » المشتق من الاصل العربي القديم « رب » . انهم وجهاء المدينة الذين يتألفون من كبار الموظفين وكبار رجال الدين وكبار ملاكي الاراضي والاثرياء . وكان هؤلاء الملاكون الكبار يشكلون الطبقة المستغلة في القرية والطبقة المسيطرة في المدينة ، كما كانوا يمارسون جملة من الوظائف في ميدان الادارة والحكم ، وهم مسؤولون امام الدولة عن جمع الضرائب من المناطق التابعة للمدينة . عندما اصاب الاعياء الملك الفارسي قباذ وجنوده خلال حصارهم مدينة آمد السورية عرض على المدينة فك الحصار مقابل تقديم مبلغ محدد من الفضة . لكن وجهاء المدينة (ومنهم ليونتيوس بن بابي عضو مجلس المدينة ، والوالي كيروس ، وامين الخزائنة « رب بيتا » بولس بن زينب) ارسلوا الى قباذ يطلبون منه ان يدفع هو نفسه الاموال ثمن خضروات البساتين التي اكلها جنوده ، وثمان الخمر والقمح الذي جمعه ونهبه من القرى المجاورة (٥٩) . لم يكن هؤلاء « الوجهاء » الذين طلبوا من الملك الفارسي تعويضات عن المحاصيل المسروقة يدافعون عن مصالح الفلاحين ، بل عن مصالحهم الشخصية واملاكهم الخاصة . وكان هؤلاء الاغنياء « الوجهاء » يحتكرون الحبوب ويتاجرون بها دون الاهتمام بمصلحة المواطنين . وفي اثناء الحصار الفارسي لمدينة آمد السورية لحقت الاضرار بمصالحهم الخاصة ، كونهم من كبار الملاكين الزراعيين وأعضاء في المجلس البلدي للمدينة . وعندما طلب قباذ الفدية ايضا من مدينة الرها السورية ، رفض اعيان تلك المدينة دفع المبلغ الكبير المطلوب (٦٠) . هؤلاء الاعيان والنبل كانوا يعيشون عادن في المدن ، حيث كانت لديهم قصور فخمة مشهورة بهندستها المعمارية . عندما احتل قباذ مدينة آمد اقام في قصر النبيل بولس بن زينب ، فوجد عنده كمية كبيرة من الذهب فاغتصبها . وتطلق الاسفار التاريخية السورية

(السريانية) على فئة من نبلاء المدينة الذين مارسوا الوظائف الادارية اسم «ريشان» ويعني الرؤساء او القادة . ويمكن لهذا الاسم ان يكون بديلا عن لقب « كوريسال » اليوناني .

خلال الحرب التي نشبت بين بيزنطة وايران اغرقت مدينة الرها السورية بعدد كبير من الجنود البيزنطيين الذين ارسلوا الى منطقة ما بين النهرين للوقوف في وجه الفرس . كان توزع الجنود البيزنطيين وتأمين اماكن السكن لهم بايدي الزعماء السوريين المحليين ، الذين يطلق عليهم يشوع العمودي اسم « ريشان بناي اترا » (١١) . وكان هؤلاء الزعماء المحليون يسيطرون على الادارة المحلية التي كانت لاتزال قائمة في المدن السورية في نهاية القرن الخامس الميلادي . لقد فرض هؤلاء الزعماء المحليون تأمين سكن الجنود البيزنطيين على الحرفيين في مدينة الرها وعلى الفلاحين في القرى المجاورة ، في حين اعفوا كبار الملاكين من ذلك العبء الثقيل . ويشكو يشوع العمودي في اسفاره التاريخية من هؤلاء الزعماء المحليين ورشواتهم التي لم تعرف لها حدود ، اذ نهبوا الجميع واوصلوهم الى حالة لا تطاق . فهم يعدون الحرفيين والفلاحين باعفائهم من اقامة الجنود البيزنطيين في منازلهم مقابل الرشوات ، ومن ثم يفرضون عليهم اسكان هؤلاء الجنود في منازلهم ، بصرف النظر عن الرشوات التي قبضوها منهم . وجاء في قوانين الامبراطور انستاسيوس المتعلقة باستيراد الحبوب ، ان هؤلاء الزعماء المحليين كانوا يشاركون في اختيار مستوردي الحبوب لتأمين تموين المدن (١٢) ، كما كانوا يلعبون دورا حاسما في المفاوضات مع السلطة البيزنطية المركزية ، ومع العدو الذي يحاصر مدنها . انهم ملاكون كبار تركزت مصالحهم حول الارض الزراعية ، في حين عاشوا في المدن وتركز نشاطهم فيها في اغلب الاحيان .

٣ - الملاكون المتوسطون « السادة القرويون » :

تطلق اسفار يشوع العمودي السريانية على الملاكين المتوسطين اسم « ماري فوريي » (السادة القرويون) (١٣) . أما قوانين جستنيانوس البيزنطية اليونانية ، فتطلق على هؤلاء « السادة القرويين » اصطلاح « ديسبوتاي تون جيورجون » Despotai ton georgon (١٤) . كان يجب على هؤلاء « السادة القرويين » السوريين ، الذين يملكون الاراضي الزراعية في منطقة ما بين النهرين ، ان يقدموا للخزانة البيزنطية الضرائب المفروضة على املاكهم ، فهم اشبه بمضخة تضخ مباشرة الربح من الفلاحين المنتجين الذين يعملون باراضيهم . وشارك هؤلاء الملاكون المتوسطون في حياة المدن . لقد عاش بعضهم في مدينة الرها السورية ، حيث كانت املاكهم الزراعية بجوارها . وكانت توجد في مدينة الرها منشآت اقتصادية (كالمستودعات والعنابر) تخص ملاكي

الأراضي المتوسطين . وعندما أسكن الجيش البيزنطي (الذي جاء لمحاربة الفرس) في منازل سكان الرها منح هؤلاء « السادة القرويون » أفضليات أثارت الاحتجاج والتذمر في أوساط « بسطاء المدينة » ، الذين أثقلت كاهلهم تلك الفريضة المزعجة . وفي بعض الحالات كانت السلطات البيزنطية تقدم تنازلات « للسادة القرويين » باعفائهم من دفع الضرائب في سني القحط والجوع . لكن مثل هذه التسهيلات لم يستفد منها الفلاحون العاملون بالأرض ، لأن الإنتاج الفائض الذي اعتصره ملاك الأراضي من الفلاحين المنتجين كانوا يحصلون عليه ، بصرف النظر عن تسديدهم الضرائب لخزانة الدولة الحاكمة أو عدم تسديدهم لها . لكن أوضاع الملاكين المتوسطين ينبغي ألا ننسوها وكأنها سلمت من الظلم . فعندما كان يطلب من ممثل السلطة المركزية البيزنطية جمع الضرائب ، كان يلجأ أحيانا إلى تدابير صارمة بجسق هؤلاء الملاكين المتوسطين . ويشبه المؤرخ البريطاني رايت (في حاشية موجزة) هؤلاء « السادة القرويين » السوريين بالملاكين المتوسطين الإيرانيين (الدهاقين) في العهد الساساني (٦٥) .

٤ - رجال الدين الكبار :

تحدث الأسفار التاريخية المنسوبة إلى زكريا الملقب عن القرى التي كان يملكها الأساقفة السوريون (٦٦) . كذلك نتحدث الانقراض الباقية عن الأديرة التي كانت بمثابة حصون محاطة بالبساتين والأشجار المثمرة . وتذكر أسفار يشوع العمودي مجموعة من الكنائس والأديرة التي أنشئت بالقرب من مدينة الرها السورية بين كروم العنب والبساتين المشجرة . فمنذ القرن الرابع الميلادي أخذ كثير من المؤمنين المسيحيين ، الذين لا وريث لهم ، يوصون بأملاكهم للكنائس والأديرة . ومن جهة ثانية سعى كبار رجال الدين إلى زيادة أملاكهم و ثرواتهم الخاصة بثنى السبل والوسائل . ومما ساعدهم في تحقيق ذلك الوضع السيء الذي عاشته طبقة الفلاحين ، التي كانت تفتش عن حماية لها من طلبات الخزنة الثقيلة وظلم جباة الضرائب ، ف وقعت تحت حماية الدير أو الاسقف . وكان الاسقف من كبار الملاكين ويعمل في صالح هذه الطبقة المستغلة . وكانت مسائل إدارة المدينة تحل بمشاركة الاسقف . لقد ارتبطت به الوسايط لدى السلطة البيزنطية المركزية لتخفيض الضرائب عن أملاك كبار الملاكين ، كما كان يتم بمشاركته اختيار مستوردي الحبوب لتموين المدينة (٦٧) . ويذكر زكريا الملقب أن توما اسقف مدينة آمد السورية ، بموجب اتفاقية خاصة مع الإمبراطور البيزنطي ، كان يدير مع شمامسته (مشمشانا) كل شؤون البناء في قلعة دارا المجاورة (٦٨) ، كما كان يملك عدة قرى بفلاحيتها المستعبدين (توتيبني) .

كان الاسقف في المدينة يقوم بدور « المدافع » *defensor Civitatis* عن مصالح « الفقراء غير المالكين » (٦٩) . يتحدث يشوع العمودي قائلا : « في هذا العام (٥٠٤ م) توجه الاسقف مار بطرس الى الامبراطور يطلب منه اعفاء المنطقة من الضرائب في ذلك العام ، فاجابه الامبراطور غاضبا موبخا اياه ، لانه ترك العناية بالفقراء المساكين في وقت كهذا وتوجه اليه (٧٠) . لكن الامبراطور الساخط ارسل امر الاعفاء من الضرائب مع شخص اخر متجاوزا الاسقف . ويبدو ان تدخل الاسقف في القضايا المالية لم يكن مرغوبا فيه بالنسبة للسلطة الامبراطورية المركزية ، رغم ان الاساقفة معروفون بقيامهم بدور المتوسطين لدى الاباطرة البيزنطيين في اكثر من سفر تاريخي من اسفار يشوع العمودي . فلقد سافر سابا الاسقف الاوروشليمي الى القسطنطينية بطلبات مماثلة كالتي حملها بطرس اسقف الرها (٧١) . ومما يلفت النظر ان الاسقف كان من الواجب عليه تقديم المساعدة للفقراء ، في حين كان دوره الفعلي مقتصر على حماية مصالح كبار الملاكين الاغنياء ، لان مصلحته الشخصية جزء منها .

٥ - التجار :

مارس التجار السوريون نشاطا كبيرا في التجارة العالمية في زمن الاحتلال البيزنطي - الفارسي لسورية . فخلال عدة قرون كان عدد التجار السوريين الذين اقاموا علاقات تجارية مع روما وبيزنطة ومصر كبيرا جدا . وتاجر هؤلاء السوريون بالاقمشة والحريز والحجارة الكريمة والمصنوعات الذهبية والتوابل والعطور والادوية وغيرها . ففي قوانين جامعة نصيبين توجد فقرات ناظمة للرحلات التجارية التي يقوم بها اساتذة تلك الجامعة وطلابها الى بلاد الروم (٧٢) وكان التجار السوريون الذين عاشوا في نصيبين تحت السلطة الفارسية ينقلون البضائع الى الحدود البيزنطية . ان ارتباط المدن السورية بالتجار الوافدين اليها والمنافع الناجمة عن الارباح التي جلبتها التجارة الخارجية قد انعكس في اخبار الاسفار التاريخية المعاصرة . فحينما انتشر مرض الطاعون في مدينة الرها وشمل المناطق السورية من نصيبين حتى انطاكية ، اقام سكان الرها (في اذار سنة ٥٠١) صلوات وابتهالات خاصة كيلا يصاب التجار الوافدون بهذا المرض (٧٣) . مثل هذا الحرص على التجار الغرباء يدل على اهمية دورهم في حياة المدينة الاقتصادية . فاذا اصاب التجار الوافدون بمرض الطاعون تتضرر التجارة الخارجية ، كما سليحق الضرر بتجارة السنوات القادمة .

ب - الضرائب والفرائض المترتبة على سكان المدن السورية :

فرضت الدولة البيزنطية المستعمرة على سكان المدن السورية في منطقة ما بين النهرين مجموعة من الضرائب والالتزامات ، بعضها حمل طابع الفريضة ، كتزويد حامية

المدينة بالماء وصنع الخبز للجيش ، وتقل الحبوب وغيرها من الحمولات . وكان أثقل تلك الفرائض الضريبة النقدية التي تسمى باليونانية « خريسار غيروس » وتعني الذهب والفضة . تلك الضريبة فرضها لأول مرة على سكان المدن الإمبراطور البيزنطي الأول قسطنطين الكبير ، الذي أمر (في سنة ٣١٤ م) أن تدفع مرة كل خمس سنوات . وفرضت تلك الضريبة من أجل تأمين احتياجات الدولة النقدية ، وبخاصة تغطية نفقات الجيش . كانت ضريبة « الخريسار غيروس » تجبى عند تنصيب كل إمبراطور جديد ، ومن ثم تكرر عملية الجباية قبل مضي خمس سنوات على التنصيب . هذه المطالب غير المتوقعة وغير المتكافئة مع الدخل كانت شديدة الوطأة على دافعي الضرائب (٧٤) . ودفع تلك الضريبة الصناع والتجار ، في حين أعفي منها الملاكون الكبار ، لأنهم يدفعون ضريبة عن الأراضي الزراعية (الخراج) . وفرضت تلك الضريبة على كل حرفة وصناعة ، وعلى كل مشغل وحانوت ، وعلى كل تاجر وبائع ، كما فرضت على دواب النقل كالخيول والبغال والحمير ، فالزم صاحب الحمار بدفع نصف كيراتيون عن حماره (٧٥) . كذلك فرضت هذه الضريبة على المتسولين والداعرات اللواتي كانت أجسادهن مادة تجارتهم . ويتحدث المؤرخ زوسيموس بالتفصيل عن ثقل تلك الضريبة النقدية ، فيذكر أن بعض الناس اضطروا إلى بيع ابنائهم عبيدا ، أو جعل بناتهم داعرات من أجل تسديد ما فرض عليهم من نقود (٧٦) . ومن أجل ضبط حسابات الخزانة نظمت قوائم خاصة *negotiaiorum matricula* أدرج فيها اسم كل من يدفع هذه الضريبة . وتذكر ضريبة « الخريسار غيروس » هذه في قوانين تيودوسيوس في أكثر من مكان (٧٧) . وأعفي من دفع ضريبة « الخريسار غيروس » الفلاحون الاحرار والفلاحون الكولون الذين كانوا يتاجرون بمحاصيلهم الزراعية والحيوانية في المدن ، لأنهم يدفعون ضريبة الراس وضريبة الأرض (الجزية والخراج) . ولم يدفع هذه الضريبة الاطباء ولا المعلمون « الاطباء ومعلمو كل العلوم الموجودون في المدن معفون من أية ضريبة ، فهم لا يدفعون ضريبة النفوس (الجزية) ولا ضريبة الخريسار غيروس ، ولا يمكن أن يجبروا على أن يكونوا أوصياء على الأيتام ، ذلك لأن الاطباء يعالجون الأجسام ، والمعلمون يعالجون النفوس » (٧٨) .

ألفى الإمبراطور أنستاسيوس الأول (٤٩١ - ٥١٨) ضريبة « الخريسار غيروس » المكروهة . ومن بين المؤرخين البيزنطيين يذكر هذا الموضوع بايجاز يوحنا مالالاس . أما إيفاغريوس الذي أولى هذا الموضوع اهتماما كبيرا ، فيذكر أن في عهد هذا الرجل (أنستاسيوس) أحرقت القوائم التي كانت محفوظة لدى موظفي الخزانة من أجل تحصيل الضريبة (٧٩) . وبفضل المصادر السورية (السريانية) يمكن تحديد تاريخ دقيق ل إلغاء هذه الضريبة . لقد جاء في أسفار الرها مايلي : « في شهر أيار من سنة

٨٠٩ يونانية (٤٩٨ ميلادية) ألفيت ضريبة الخريسارغيروس « (٨٠) . وحول العباء الثقيل الذي مثلته تلك الضريبة تتحدث افضل من غيرها اسفار يشوع العمودي التي جاء فيها مايلي : « في تلك السنة (٨٠٩ يونانية = ٤٩٨ ميلادية) صدر امر من الامبراطور انستاسيوس بالغاء ضريبة الذهب التي كان يدفعها الحرفيون مرة كل سنوات . ولم يشمل هذا الاعفاء مدينة الرها فحسب ، بل شمل ايضا كل المدن الواقعة تحت السلطة البيزنطية . وكان ابناء الرها يقدمون ١٤٠ لير من الذهب مرة كل اربع سنوات « (٨١) . فاذا كان لير الذهب يساوي ٢٧٣ غراما ، فان ال ١٤٠ لير التي كانت تدفعها مدينة الرها مرة كل اربع سنوات تشكل ٣٨٠٢ كيلو غراما من الذهب ، وهذا المبلغ ليس قليلا .

ويذكر يشوع العمودي ايضا كيف كان الحرفيون يحيون ذكرى الغاء ضريبة الخريسارغيروس فيقول : « فرحت كل المدينة . خرج الجميع - الصغار والكبار - باللباس الابيض . خرجوا ينشدون الاغاني والترانيم الدينية ، حاملين الشموع المضيئة . وبعد ان وصلوا الى كنيسة مارسركيس ومار سمعان الواقعة خلف المدينة ، عادوا الى المدينة واقاموا طيلة الاسبوع عيد الفرح والسرور ، كما قرروا انهم سوف يحتفلون بهذا العيد كل عام . استراح جميع الحرفيين (اليوماني) وفرحوا واستحموا واقاموا الولائم في ساحة المعبد وفي كافة اروقة المدينة « (٨٢) .

وفيما عدا دفع الضرائب الزم سكان المدن والقرى السورية بمجموعة من الفرائض الاخرى التي تحتاج الى الايدي العاملة ودواب النقل . ومن هذه الفرائض تقديم الخدمات للجنود البيزنطيين . لقد الزم سكان الرها بنقل الماء للجنود البيزنطيين . ويذكر يشوع العمودي ان الامبراطور انستاسيوس اعفى سكان الرها من نقل الماء للجنود البيزنطيين في سنة ٥٠٠ ميلادية ، بناء على الرجاء الذي قدمه له بطرس اسقف الرها (٨٢) . وفي زمن الحملة على الفرس اصبح صنع الخبز المخصص للجنود البيزنطيين فرضا على جميع سكان الرها . لقد حشدت بيزنطة على حدودها الشرقية اعدادا كبيرة من الجنود من اجل الحرب مع ايران . وكان الانضباط مفقودا لدى هؤلاء الجنود ، الذين كان معظمهم من البرابرة . فهم ينهبون ويسرقون ويبتزون سكان المدن والارياف . ويؤكد المؤرخ بروكوبيوس ذلك بقوله عن الجنود البيزنطيين مايلي : « لديهم قانون منذ امد بعيد وهو : الخوف من الفرس وسلب الفلاحين المواطنين « (٨٤) . كان يجب اطعام الجيش البيزنطي الذي جاء الى سورية لمحاربة الفرس ، ففرض صنع الخبز على السكان السوريين . وكان هؤلاء السكان يصنعون خبز الجنود من الحنطة التي تعطى لهم من مخازن الدولة . ويذكر يشوع العمودي مايلي : « في ايار من سنة ٥٠٣ وصل الايبارخوش آبيون الى مدينة الرها كي يشرف على تموين القوات التي

كانت معه . ولما لم يتوفر له القدر الكافي من الخبز الذي يصنعه الخبازون المختصون ، فقد أمر بتقديم القمح لكل بيت موجود في الرها والزم السكان بصنع خبز الجيش على حسابهم الخاص « (٨٥) وفي اخبار السنة التالية يذكر هذا المؤرخ السوري ما يلي : « في ايار من سنة ٥٠٤ هـ أصبح كاليوبا الحلبي إيبارخوسا وجاء الى الرها ، فأعطى القمح لسكان المدينة كي يخبزوا خبز الجنود . في هذه المرة خبزوا ٨٥٠ ألف مد من القمح . أما الإيبارخوس السابق آبيون فقد ذهب الى الاسكندرية وأخذ يصنع هناك ايضا خبز الجنود ويرسله الى الرها « (٨٦) . وفي مكان آخر يقول يشوع العمودي : « لقد صنع الخبز من ٦٣٠ ألف مد من الحنطة في مدينة الرها بأمر من كاليوبا ، اضافة الى ما كان يخبزه القرويون في كافة انحاء المنطقة والخبازون الوافدون والمحليون » (٨٧) .

وهكذا كان صنع الخبز للجنود البيزنطيين بمثابة فريضة ثقيلة على كل بيت سوري في منطقة ما بين النهرين ، اكان ذلك البيت في المدن أم في الارياف . وكان ذلك العمل عبارة عن واجب قسري يتطلب اضاءة الوقت والعمل الشاق ، لان الحبوب كانت تطحن في المطاحن اليدوية ، كما كان صنع الخبز يتطلب جهودا كبيرة . ان استغلال جهود السكان السوريين بهذا الشكل المضني قد جاء نتيجة غياب الجهاز الحكومي المتخصص بهذا العمل لدى الجيش البيزنطي المحتل .

وكانت اقامة الجنود البيزنطيين وتأمين السكن لهم من اثقل الفرائض على السكان السوريين . حينما حاصر الملك الفارسي قباد (في تشرين الاول سنة ٥٠٢) مدينة آمد السورية ، ارسل الامبراطور البيزنطي جنوده الى منطقة ما بين النهرين لحمايتها من الفرس . ولقد اقيمت مسؤولية اقامة الجنود البيزنطيين بكل ثقلها على كاهل الحرفيين السوريين في المدن وعلى الفلاحين في الارياف . اما طغمة الاغنياء والمتنفذين في المدن فقد أعفت نفسها من هذه الفريضة المزعجة وألقت بها على كاهل الطبقات الشعبية الكادحة والفقيرة . وكان الجنود البيزنطيون يتألفون في غالبيتهم العظمى من البرابرة المرتزقة ، الذين يطلق عليهم يشوع العمودي اسم « القوط » (٨٨) . وكان هؤلاء الجنود غير ملتزمين بالنظام العسكري ، خشنين قساة ، حققوا كل ما يبقونه بقوة السلاح . ويروي المؤرخ البيزنطي بروكوبيوس الكيساري الكلمات التالية عن لسان احد القرويين السوريين الذي جلب الى مدينة آمد لحم الصيد والخبز والثمار لبيعها : « جلبت لك ايها السيد كل خير من القرية ، فصادفت جنود بيزنطة الذين كان ينهبون الفلاحين البؤساء اثناء تسكعهم على شكل عصابات صغيرة في هذه القرى . لقد ضربني قطاع الطرق هؤلاء دون رحمة او شفقة وسلبوني كل شيء كان معي . كان عندهم غرف قديم - خافوا من الفرس وانهبوا الفلاحين » (٨٩) . هكذا يخبر المؤرخ بروكوبيوس عن تصرفات الجنود البيزنطيين مع الفلاحين السوريين في منطقة ما بين النهرين .

أما يشوع العمودي فيتحدث في أسفاره التاريخية السورية (السريانية) عن أعمال النهب والاعتصاب التي مارسها الجنود البيزنطيون أثناء إقامتهم الطويلة في المدن السورية « للدفاع عنها ضد الفرس » . وتطلق الأسفار السورية على الزعماء المحليين المسؤولين عن توزيع إقامة الجنود البيزنطيين اسم « ريشاني » . انهم الطغمة المتنفذة التي تضم كبار الموظفين والتجار وملاكي الأراضي . « وكان هؤلاء الرؤساء (الريشاني) المسؤولون عن توزيع إقامة الجنود البيزنطيين يمدون أيديهم طلبا للرشوة . وبما انهم كان يحصلون على الرشوة من الجميع ، لم ينج أحد منهم ، حتى انهم كانوا يرسلون جنودا آخرين الى أولئك الذين سبق وأرسلوا اليهم جنودا ليقبضوا عندهم » (٩٠) . كذلك أرسلوا بعض الجنود ليسكنوا في بيوت رجال الدين ، الذين كانوا قد حصلوا على براءة تعفيهم من هذه الفريضة . وبما ان الطغمة المتنفذة في المدينة هي التي تقوم بعملية إسكان الجنود البيزنطيين ، فقد وجدت أن من الضروري الرأفة ببيوت الأغنياء والوجهاء والنبلاء . ويتابع يشوع العمودي حديثه قائلا : « جاء هؤلاء (الجنود البيزنطيون) كمنقذين لنا وبهدف مساعدتنا ، لكنهم حيثما دخلوا وأينما خرجوا سلبونا وسرقونا ، فلا فرق بينهم وبين الأعداء » (٩١) . هذا العتاب المر الموجه من السوريين الى المستعمرين البيزنطيين على لسان يشوع العمودي تتضح أسبابه في الوصف التالي الذي قدمه ذلك المؤرخ عن سلوك وتصرف أفواج الجيش البيزنطي : « كان هؤلاء الجنود القوط يطردون الفقراء من فراشهم كي يناموا في مكانهم . أما أصحاب البيوت فكانوا ينامون على الأرض حتى في الأيام الباردة . وكان الجنود يطردون السكان ويرغمونهم على مفادرة منازلهم ، ثم يدخلونها ويسكنون فيها وحدهم . وكانوا أيضا يسوقون مواشي الناس بالقوة كفنائهم أو كصيد ، كما يخلعون الملابس عن أجساد الناس ويرتدونها . أما البعض الآخر ، فيضربونه ضربا مبرحا لاتفه الأسباب . وكان هؤلاء الجنود يتشاجرون مع أناس آخرين في الشوارع ويكيلون الشتائم لهم دون مبرر . لقد سرقوا كل شيء علانية ودون خجل أو حياء ، بما في ذلك الرزق القليل المخصص للأكل والموجود لدى بعض الناس في القرية أو في المدينة . هاجموا الكثيرين عند مفارق الطرق . أقاموا مع الحرفيين في حوانيتهم ، لان المنازل والفنادق في المدينة لم تكن كافية لاسكانهم . كانوا على مرأى من الجميع يفتصبون النساء في الشوارع والبيوت . وكانوا يسلبون النساء العجائز والأرامل والفقيرات الزبدة والحب والملح وغيره من المواد ، كما يبعدونهن عن أعمالهن كي يبقين في خدمتهم . وبصورة عامة كانوا يضايقون الجميع - الصغار والكبار - (الفقراء والأغنياء) ، فلم ينج أحد من شرهم » (٩٢) . لا يحتاج هذا النص الى تعليق خاص ، حيث من السهل ادراك سخط السكان السوريين على الجنود البيزنطيين البرابرة من خلاله .

بهذا الشكل التعسفي كانت الدولة البيزنطية المستعمرة تبتز الضرائب من السكان السوريين ، وبهذه الصورة الوحشية كانت قواتها العسكرية البربرية تحصل على سكنها وطعامها . لكن الحكومة البيزنطية ، عندما يتهدهدها الخطر الخارجي كانت تسعى الى تهدئة غضب السكان السوريين بتعويضهم عن بعض الخسارة . ففي سنة ٥٠٣ عندما كان الملك الفارسي قباد يهدد مدينة الرها السورية بالاحتلال ، اعطى القائد البيزنطي اريوبيند الى سكانها منحة مالية بمقدار ٣٠٠ دينار (٩٢) . لكن مثل هذه المنح المالية لم تهدئ من غضب السكان السوريين ، بل اضحى استياء الناس وتحفزهم للتمرد يثير القلق لدى السلطات البيزنطية الاستعمارية . وفي سنة ٥٠٦ وصلت الجماهير السورية الكادحة الى حالة شديدة من البؤس . ويذكر يشوع العمودي أن في تلك السنة عسكر القائد البيزنطي رومانوس مع قواته في مدينة الرها السورية . ورغبة منه في مداينة السكان والتزلف اليهم ، قام بتوزيع الصدقات على الفقراء . واخذ الامبراطور انستاسيوس بعين الاعتبار الوضع المأساوي للمنطقة (بسبب استمرار الحروب على اراضيها) ، فأمر بإلغاء الضريبة النقدية (الجزية) centeleia ، مما بعث الفرح والسرور لدى جميع « السادة القرويين » ، فباركوا الامبراطور ومجدوه (٩٤) .

هذا الاعفاء من الضريبة افاد طبقة واحدة فقط هي طبقة الملاكين المتوسطين « السادة القرويين » ، ولذا ابتهجوا وحدهم بهذا الاجراء . وبنتيجة ذلك حصل استياء كبير لدى « بسطاء الشعب » (الفقراء) . لقد تدمر الشعب البسيط الفقير وصرخ قائلاً : « ليس من العدل ان تسكن عندنا افواج بيزنطة ، وليس عند السادة القرويين » (الملاكون المتوسطون الذين نالوا مساعدة باعفائهم من دفع الضريبة) . لقد كان غضب الجماهير الفقيرة عارماً ، مما اضطر الحاكم البيزنطي (الايبارخوس) ان يأمر بتلبية طلبهم . وعند بدء التنفيذ (اسكان الجنود البيزنطيين في منازل السادة القرويين - الملاكين المتوسطين) اجتمع جميع الاغنياء والوجهاء (رورياني) في المدينة وتوجهوا الى الدوكس رومانوس وطلبوا منه : « ان يأمر معاليه بما يجب ان يحصل عليه في الشهر كل جندي بيزنطي ، كيلا يسلب الاغنياء عند دخول الجنود الى منازلهم بالشكل الذي كان يسلب فيه البسطاء . وقد لبي الدوكس طلب الاغنياء ، فأمر ان يصرف لكل جندي مقدار معين من السمن في الشهر ، ٢٠٠ ليتر من الحطب ، سرير مع فراش يتسع لاثنتين » (٩٥) .

ويتابع يشوع العمودي قائلاً : « عم السخط بسطاء الشعب » . وبما ان الضريبة الفيت عن السادة القرويين (الملاكين المتوسطين) الذين ابتهجوا من ذلك الاجراء ، فينبغي الافتراض ان السخط والاحتجاج قد اعلن من قبل الفلاحين الفقراء ، الذين

بقوا يتحملون عبء الضريبة العينية واقامة الجنود البيزنطيين في منازلهم . كما أعلن الاحتجاج ايضا الحرفيون وغيرهم من سكان المدن الفقراء ، حيث اسكن الجنود البيزنطيون في منازلهم وحوانيتهم (٩٦) .

كان الوضع يهدد بخطر تمرد الجماهير الكادحة ، فاضطرت السلطات البيزنطية ان تستجيب لمطلبهم . لقد امر الحاكم البيزنطي كاليوبا باسكان الجنود في منازل الاغنياء ايضا . لم يتقبل الاغنياء وكبار الملاكين هذا القرار بارتياح . وبما ان الظروف لم تسمح لهم بالعمل على الفاء قزار الايبارخوس كاليوبا ، فقد توجهوا الى القائد (الدوكس) رومانوس ورجوه ان يحد من طلبات جنوده ، فوافق على طلبهم (٩٧) . وهكذا حينما يمس الضرر مصالح الاغنياء وكبار الملاكين كانوا يسمعون بشتى الوسائل للتخلص من ذلك ، في حين لم يهتموا لاعتداء الجنود البيزنطيين على منازل الفقراء وارزاقهم . لكن السلطات البيزنطية ، على ما يبدو ، كانت عاجزة عن وضع حد لتصرفات الجنود السيئة . فالجنود البيزنطيون الذين اعتادوا على السرقة والنهب عاقبوا قائدهم رومانوس وثأروا منه ، لانه حاول وضع حد لسرقاتهم . لقد داهموا منزله وارادوا قتله ، لكنه افلت من ايديهم وهرب من السطح الى منزل اخر . ومنذ ذلك الحين (يقول يشوع العمودي) لم يجرؤ احد من القادة على توجيه اية كلمة للجنود البيزنطيين ، بل عاشوا خيشما رغبوا وكيفما ارادوا (٩٨) .

وازدادت اوضاع المواطنين السوريين سوءا ، لان القائد البيزنطي الاعلى Magister militum جمع كافة الجيوش في مدينة الرها (في نيسان سنة ٥٠٦) استعدادا للهجوم على الفرس . لم يقطن الجنود البيزنطيون في المدينة فحسب ، بل اسكنوا في جميع القرى المجاورة والاديرة الواقعة في الضواحي . كان هؤلاء الجنود يعيشون فسادا في المدينة ، يسكرون ، يتشاجرون ، يقتلون بعضهم بعضا ، يواصلون تعذيب السكان واهانتهم وتشويه سمعتهم والاعتداء عليهم (٩٩) .

لم يعد سكان الرها يتحملون تصرفات الجنود البيزنطيين السيئة . ويخبرنا يشوع العمودي (بحسن نية) ان سكان المدينة ارتكبوا « شيئا غير لائق » . ذلك ان بعض « الوقحين » الذين كانوا بين ظهرائي سكان الرها قد تجرؤوا واقداموا على اشياء غير لائقة ومخالفة للاعراف . كما ان « التعبيز عن التدمير من القائد البيزنطي قد كتب في اعلانات علقت سرا في الاماكن العامة داخل المدينة (١٠٠) . كان في مدينة الرها مجموعة من الاشخاص الذين يدينهم المؤرخ يشوع العمودي ، لانهم قرروا الاعراب عن السخط وعدم الرضى عن اعمال القائد العسكري بصورة مكتوبة . لقد كتبوا المنشير ولفافات الرق وعلقوها في اماكن « معروفة » اي في الاماكن التي يتجمع فيها الناس بصورة دائمة . كان ذلك عبارة عن منشورات احتجاج من نوع خاص . لم يعرف مضمون تلك

المنشورات ، لكن معطيات كثيرة تشير الى انها كانت تعبر عن استياء الجماهير الكادحة وغضبهم . لم يظهر القائد البيزنطي كيليروس غضبه ولم يبحث عن فعل ذلك ، كما انه لم يفكر بسوء نية تجاه المدينة ، بل سعى الى مغادرة الرها بأسرع وقت ممكن (١٠١) . ويفهم من كلام يشوع العمودي ان القائد كيليروس لم يعاقب سكان الرها نظرا لطبيعته اللينة . اما واقع الحال فبدل على انه اصيب بالهلع والخوف ، بسبب المشاعر المتوترة التي كانت سائدة في المدينة واوشكت على اعلان التمرد والثورة .

يمكن النظر الى كتابة مناشير الاحتجاج والتذمر وتعليقها في الاماكن العامة كعمل قام به « بسطاء المدينة » ، الذين بضغط منهم جعلوا الحاكم البيزنطي (الايبارخوس كاليوبا) يفرض اسكان الجنود في بيوت الاغنياء . لا شك في ان الاحتجاج انطلق من الحرفيين ، فلاقوا مساندة من الفلاحين الذين عانوا ايضا من اسكان الجنود البيزنطيين في منازلهم . على اية حال كانت النتيجة ان امر كيليروس بابعاد الجنود واخراجهم من مدينة الرها ، خوفا من تمرد سكانها ضده . وفيما بعد تذكر هذا الدرس جيدا ، حيث انه لم يجرؤ على الدخول بجيشه الى مدينة الرها اثناء مروره ثانية بجوارها (في اواخر سنة ٥٠٦) . ويبدو ان كيليروس وكاليوبا قد ابلفا المسؤولين في العاصمة البيزنطية عن تدمير الشعب السوري واستيائه في منطقة ما بين النهرين ، بسبب الاضرار التي لحقت به من جراء الحرب البيزنطية - الفارسية . وعلى هذا بعث الامبراطور انستاسيوس برسالة الى القائدين البيزنطيين « مقعمة بالعبادة والعطف تجاه منطقة ما بين النهرين بأسرها » . تلك الرسالة اذنت للقائدين بتخفيض الضريبة عن منطقة ما بين النهرين السورية حسبما تقتضي الضرورة . وقرر الدوكس والايبارخوس البيزنطيين الغاء كامل الضريبة على سكان مدينة آمد ، والغاء نصف الضريبة عن سكان مدينة الرها ، كما اعلموا الامبراطور خطيا بهذا القرار (١٠٢) . وكان الهدف من هذا الاجراء تهدئة غضب السكان السوريين وتخفيف استيائهم من ابتزاز الضرائب وثقل الفرائض . و « العناية والعطف » من جانب الامبراطور البيزنطي تجاه المواطنين السوريين في منطقة ما بين النهرين كانت الغاية منها ايضا انعاش القوة الاقتصادية لسكان المنطقة ، الذين انهكتهم الحروب والامراض وسنو القحط ، كي يتمكنوا من دفع الضرائب فيما بعد الى خزانة الدولة البيزنطية المستعمرة .

ج - ادارة المدن السورية :

كانت ادارة المدينة والقرى التابعة لها في منطقة ما بين النهرين السورية برئاسة حاكم بيزنطي يحمل لقب « ايفيمون » باليونانية Igimon و « ديان » بالسريانية . وتركزت في يد هذا الحاكم رئاسة الوظائف المالية والادارية والامنية والقضائية والخدمات العامة . وكان الحاكم لا يجمع الضرائب مباشرة من الفلاحين العاملين في

الأرض (وهم الكولون الحر والكولون غير الحر والمستأجرون) ، وإنما يجمعها بواسطة « السادة القرويين » الملاكين المتوسطين . وتحدث الاسفار التاريخية السورية (السريانية) عن جمع الضرائب على يد الحاكم أو نائبه . ففي سنة ٤٩٩ - ٥٠٠ م يخبرنا يشوع العمودي أن الحاكم البيزنطي ابتز الضريبة من « السادة القرويين » ، بعد أن عذبهم أشد أنواع العذاب (١٠٣) . والحديث هنا يدور حول الضريبة النقدية المفروضة على الفلاحين الذين يعملون في أراضي هؤلاء الملاكين المتوسطين (التي تسمى باليونانية « سينتيليا ») ، لأن الحاكم أرسل ذلك المال المجموع « الذهب » إلى العاصمة البيزنطية . كذلك كان سكان المدن يدفعون الضرائب النقدية التي تجمع بواسطة جهاز الموظفين الموجود تحت تصرف الحاكم . وكان الحاكم مسؤولاً عن أداء المبلغ المفروض على منطقته إلى خزانة الدولة المركزية في الوقت المحدد . وكانت السلطة المركزية في العاصمة البيزنطية صاحبة الصلاحية في تخفيض هذا المبلغ ، أو إعفاء المنطقة من دفعه وفي الحالات التي لا تسمح فيها الظروف المحلية الصعبة بدفع الضريبة كاملة ، كان أصحاب الاملاك الزراعية الكبار والمتوسطون يرسلون وفداً يمثلهم إلى القسطنطينية ليتوسط لدى الامبراطور بتخفيض مقدار الضريبة أو إعفائهم من دفعها . وكان يسافر مع ذلك الوفد عادة الاسقف « حامي المدينة » وشفيعها عند الامبراطور (١٠٤) . لكن هذا التدخل من جانب الاساقفة في شؤون المال والخزانة لم يكن مقبولا لدى السلطة المركزية في اغلب الأحيان . وكان الامبراطور البيزنطي يوافق في بعض الحالات الاستثنائية على تخفيض الضرائب أو الاعفاء من دفعها لمدة محددة . لكن القحط والجوع الرهيب الذي ألم بمنطقة ما بين النهرين السورية في سنة ٥٠٠ ميلادية لم يكن مبرراً كافياً بالنسبة للامبراطور كي يعيد المال (الضريبة المدفوعة) إلى تلك المنطقة المقفرة . وبطمعه وجشعه تمكن الامبراطور انستاسيوس من جمع مبالغ كبيرة من المال (حوالي ٣٢٠ كينتینارا من الذهب) ، فكان بشهادة معاصريه « اغنى امبراطور على الاطلاق » .

وكانت جميع الوظائف القضائية تتبع لهذا الحاكم (الايفيمون - الديان) ويحدثنا يشوع العمودي عن عمل الحاكم الكسندروس (٤٩٥ - ٤٩٧) في مجال القضاء . لقد كان هذا الحاكم يمثل استثناء نادراً في دوائر الادارة البيزنطية . ففي يوم الجمعة من كل اسبوع كان الحاكم الكسندروس يجلس في المعبد الكبير « ويقضي بين الناس مجاناً » (١٠٥) . فهو يرفض النفاق الذي كان من سمات الموظفين البيزنطيين ، ولا يعطي الافضلية للاغنياء والاعيان . ولهذا السبب ، يقول يشوع العمودي : « انتمش المظلومون ، تعززت قوتهم ، فأصبحوا بمساعدته قادرين على مجابهة الظالمين والنهايين (١٠٦) .

ويخبرنا زكريا الميتيليني (الملطي) أيضاً عن حاكم آخر في مدينة آمد السورية فيقول : « في هذا الوقت كان فيليسيسيموس دوقاً . وهو رجل قوي حكيم ، لا يطمع

بالمال ولا يهتم به ، بل كان صديقا حقيقيا للفلاحين والفقراء « (١٠٧) . وتشير هذه الاستثناءات والحالات الفريدة الى ان المحاكم البيزنطية كانت تقف في اغلب الاحيان الى جانب الاغنياء والاقوياء ضد الفقراء والضعفاء . ويبدو ان « صديق الفلاحين والفقراء » كان يرفض الرشاوي التي اعتاد على ابتزازها جميع الحكام والقضاة . وكان الحاكم الكسندروس يقضي ايضا « بدون مقابل » ، مما جعل قراراته « عادلة » ، لانها تتخذ من قبله « بصرف النظر عن مكانة الاشخاص » . ولم يكن الروتين في قضايا المحاكم اقل شرا من تعاطي الرشوة . فالمؤرخ يشوع العمودي يقول : « كان الحاكم الكسندروس يحل القضايا التي اودعت في المحكمة منذ خمسين عاما ، فقد المدعون الامل في حلها منذ زمن طويل » .

وكانت المحكمة في مدينة الرها السورية تعقد جلساتها في احد المعابد الواسعة ، الذي يمكن ان يستوعب اعدادا كبيرة من افراد الشعب . وكان هذا المعبد - مكان المحكمة - مريحا ومناسبا لمثل هذا العمل الاجتماعي . ولم ينظر الحاكم وحده في القضايا ، بل يجب ان يكون الى جانبه مساعدون وموظفون من مكتبه . لقد جاء في اسفار يشوع العمودي : « ان الشكاوى كانت تقدم ، وكانوا يقضون بها » . حديث المؤلف عن هيئة المحكمة بصيغة الجمع يدل على وجود المساعدين الذين كان الحاكم بالتعاون معهم ينظر في القضايا .

واتخذ الحاكم الكسندروس اجراء اخر (في سنة ٤٩٧) يدل على سيطرة الخوف على المواطنين السوريين من الحكام البيزنطيين . لقد وضع هذا الحاكم امام مقر قيادته صندوقا بفتحة كتب عليه : ان الحاكم يقترح على أي شخص يرغب في الاعلام عن امر ما ويخشى ذلك حضوريا ، ان يكتب ما يريد قوله ويلقيه في هذا الصندوق دون خوف (١٠٨) . وكان ذلك الحاكم البيزنطي يحاول عن طريق الحصول على الاخبار السرية ، ومن خلال المحاكمات العلنية الخالية من المحاباة ، التخفيف الى حد ما من استياء فئات الشعب الدنيا وسخطها . وبهذا التدبير علم الحاكم بقضايا كثيرة ، لان الكثيرين من الناس كانوا يكتبون ويلقون في صندوقه مختلف انواع الشكايات والاخبار السرية . لكن هذه المحاولات من جانب هذا الحاكم ، الهادفة لفرض « التجرد والانصاف » ، قد خمدت بسرعة ، لان الكسندروس نحي من منصبه في العام التالي (اي في سنة ٤٩٨) (١٠٩) .

وكان ذلك الحاكم البيزنطي يتراس السلطات الامنية في مدينة الرها والمناطق المجاورة لها ، كما كان يراقب جميع اعمال الحرفيين في مشاغلهم . فلقد امر بهدم وازالة الحوانيت والدكاكين التي اقاموها في اماكن غير مناسبة ، كما طلب من الحرفيين

أن يعلقوا على مشاغلهم وحوانيتهم في أيام الاحاد (منذ طلوع الفجر) الصليب المضاء بخمسة فوانيس (باليونانية فانوي) Phanoi . كانت الرقابة على الانتاج الصناعي وبيعه امرا ضروريا من أجل جباية الضرائب ومعرفة قدرة الحرفيين (الصناع) على دفعها . وكان الموظفون المليون الخاضعون للحاكم يسيئون استخدام وظيفتهم ويجبون الضرائب بجشع وقسوة وتعسف .

كان الاهتمام بمرافق المدينة ونظافتها ملقى على عاتق الحاكم أيضا . لكن العناية بنظافة المدينة لم تكن كما يجب ، بدليل حدوث الاوبئة المتكررة . واهتم الحاكم (الايفيمون) أيضا بتموين المدينة ، وخاصة بالخبز . ولكن الادارة البيزنطية لم تستطع معالجة هذه المهمة جيدا ، اكان ذلك في العاصمة ام في الولايات (١١٠) . وتؤكد الاسفار التاريخية السورية على أن السكان السوريين في منطقة ما بين النهرين ، الذين نهبتهم الحكومة وكبار الملاكين ، قد تعرضوا بصورة دورية الى مجاعات مرعبة ، كما أبدت الحكومة البيزنطية عجزا كاملا في مكافحة هذه المجاعات (١١١) .

للبحث صلة



المصادر المراجع

- Nau. Etude sur les parties inédites de la chronique ecclésiastique attribuée à Denys de Tellmahre. Revue d'Orient Chrétien, 1897, t. II, P. 41. (١)
- Catalogum Codicum Orientalium Bibl. Apost. Vaticanae, t. III, N° CLXII, P. 329. (٢)
- Joseph Simonius Assemanus. Bibliotheca Orientalis Clementino Vaticana, Romae, 1719, t. II, pp. 97-98. (٣)
- Agapius de Membidg. Texte arabe et traduction française de Vasiliev. Paris, 1912, P. 424. (٤)
- Bibliotheca Orientalis, t. I, cap. 26, pp. 26 , 283. (٥)
- Chronique de Joshue le Stilite écrite vers l'an 515. Texte et traduction par l'abbé Paulin Martin, Leipzig, 1876. Abhandlungen für die Kunde des Morgenlands, B. VI, N° 1. (٦)
- The chronicle of Joshua the Stilite, composed in Syriac A. D. 507. With a translation into english and notes by W. Wright, Cambridge, 1882 . (٧)
- Pigulevskaja, N. V., Mesopotamia in V-VI centuries, 1940 (٨)
- Wright, The Chronicle of Joshua ..., P.9. (٩)
- Nau. *ibidem* . (١٠)
- Gelzer . Josua Stilites und die damaligen Kirchlichen parteien des Ostens. Bysantinische Zeitschrift, B.I, 1892, P.47. (١١)
- Barhadbesabba Arbaya, Cause de la fondation des écoles, Patrologia Orientalis, t. IV, P. 319. (١٢)
- Wright, The cronicle of Joshua ..., P.28. (١٣)
- Nöldeke. Zeitschrift d. Deutschen Morgenländischen Gesellschaft, B . 30 , 1876 , P . 352 , (١٤)
- Merten . De bello persico ab Anastasio gesto . Dissertatio historica Jena , 1905 . ——— Rose , Anastasius I , Halle , 1882 . (١٥)

- (١٦) نينا بيغوليفسكايا ، الشرق الأدنى وبيزنطة والسلاف ، لينينغراد ١٩٧٦ ، ص ٧٠ .
- (١٧) المصدر السابق ، ص ٧٠ .
- (١٨) المصدر السابق ، ص ٨٠ - ٨٥ .
- (١٩) Codex Justinianus, XI. 62, 8, Ed. Kruger, P. 448.
- (٢٠) Procopius, De aedificiis. I - II, cap. 7, Ed. Dindorfii, t. III, P. 230.
- (٢١) Plinius, Historia naturalis, l. VI, cop.9.§ 1.
- (٢٢) Excavations at Dura - Europus, New Haven, 1929-1936.
- (٢٣) Dussaud René, Topographie historique de Syrie antique et medievale, Pl. XIV, 1929. - Poidebard, La trace de Rome dans le desert de Syrie. Atlas, Le limes romain, Pl. CXL, AB - ef, Paris, 1934.
- (٢٤) Sachau, Reise nach Syrien und Mesopotamien, Leipzig, 1883, P.189.
- (٢٥) يشوع العمودي ، طبعة رايت الانكليزية ، فقرة ٥٢ ، ص ٩٠ .
- (٢٦) Procopius, De aedificiis, I-II, cap. 7, t. III, PP. 228-229.
- (٢٧) يشوع العمودي ، طبعة رايت الانكليزية ، فقرة ٨٥ ، ص ٨١ .
- (٢٨) Procopius, De aedificiis, I-II, cap. 7, t.III, P.230.
- (٢٩) Texier, L'architecture byzantine, London, 1864, PP. 199-209.
- (٣٠) العمودي ، المصدر نفسه ، فقرة ٢٧ .
- (٣١) Procopius, De aedificiis, I-II, caq. 7, t.III, P. 229.
- (٣٢) العمودي ، المصدر نفسه ، فقرة ٤٣ .
- (٣٣) العمودي ، المصدر نفسه ، فقرة ٢٩ .
- (٣٤) العمودي ، المصدر نفسه ، فقرة ٤٠ ، ٦٦ ، ٨١ .
- (٣٥) العمودي ، المصدر نفسه ، فقرة ٤٢ ، ٤٣ .
- (٣٦) Procopius, De bello Persico, I-II, Cap. 12, Ed. Haury, 1905, t.I.P.206.
- (٣٧) العمودي ، فقرة ٣٠ ، ص ٢٤ .
- (٣٨) العمودي ، فقرة ٢٧ ، ص ٢٢ .
- (٣٩) Historia ecclesiastica Zachariae Rhetori (Mytilenensis) volgo adscripta, I, VII, caq. 4 , Corpus Scriptorum christianorum orientalium ,

- Scriptores Syri, Series tertia, t. VI, f.2, Ed. W. Brooks, t. II, P. 29.
Parisiis, 1921.
- Payne - Smith. Thesaurus Syriacus, Cod. L, § 73, P. 19. (٤٠)
- الممودي ، فقرة ٢٠ ، ص ٢٥. (٤١)
- Syrisches Rechtsbuch, ed. Bruns und Sachau, Cod. I, § 98, P. 25. (٤٢)
- الممودي ، فقرة ٤٦ ، ص ٤٢. (٤٣)
- Zacharias Mytilenensis, I. 7. cap. 6, t. II, pp. 36-37. (٤٤)
- أ.ب. روداكوف ، دراسات في الحصار البيزنطية من خلال كتب السيرة اليونانية ، موسكو ١٩١٧ ،
ص ١٧٢ - ١٧٣. (٤٥)
- Ostrogorsky, Lohne und Preise , Byzantinische Zeitschrift , 1932,
B. 32, H. II, PP. 297 - 300.
- Theophanes, Chronographia, Ed. de Boor, Lipsiae, 1883, 9. 150. (٤٦)
- Zacharias Mytilenensis, I. 7, cap. 6, t. II, P. 37. (٤٧)
- Ibidem. (٤٨)
- Ibidem. (٤٩)
- الممودي ، فقرة ٢٩ ، ص ٢٢. (٥٠)
- Chronicon Edessenum. Corpus Scriptorum christianorum orienta-
lium. Scriptores Syri, Ser. III, t. 4, text, P.2, vers. , P.1. (٥١)
- Ibidem. (٥٢)
- يشوع العمودي ، فقرة ٢٧ ، ص ٢٢ ، الترجمة الانكليزية ، ص ١٨. (٥٣)
- Chronicon Edessenum, text, P.2, vers., P.1. (٥٤)
- الممودي ، فقرة ٢٩ ، ص ٢٢. (٥٥)
- المصدر نفسه ، فقرة ٢٩ ، ص ٢٢. (٥٦)
- المصدر نفسه ، فقرة ٤٠ ، ص ٢٥. (٥٧)
- Codex Justinianus, XI, 62, 8. (٥٨)
- Zacharias Mytilenensis, I. 7, cap. 4, t. II, P. 25. (٥٩)
- الممودي ، فقرة ٦١. (٦٠)
- المصدر نفسه ، فقرة ٨٦. (٦١)

- Codex Justinianus, X, 27, 3, P. 408. (١٢)
- العمودي ، فقرة ٢٩، ص ٢٥. (١٣)
- Novellae, 80, cap. 2, P. 391. (١٤)
- Wright. Chronicle of Joshua the Stylite, translation, P. 29. (١٥)
- Zacharias Mytilenensis, I. 7, cap. 6, P. 36 . (١٦)
- Codex Justinianus, X, 27, 3, P.408. (١٧)
- Zacharias Mytilenensis, I, 7, cap. 6,P. 36. (١٨)
- Cambridge Medieval History, 1911, t. I, P. 565. (١٩)
- العمودي ، فقرة ٧٨، ص ٦٣-٧٤. (٧٠)
- بومياالوفسكي ، حياة القديس سابا ، بطرس بورغ ، ١٨٩٠ ، ص ٤١٦ . (٧١)
- Gli statuti della Scuola di Nisibi, I, 4, Ed. Guidi, P. 183. (٧٢)
- العمودي ، فقرة ٤٤، ص ٣٩ . (٧٣)
- Pauly Wissowa. Collatio Iustralis, IV, PP. 370-376 . (٧٤)
- Joannes Malalas, **Chronographia**, Ed. Dindorfius, 1831, P. 394. (٧٥)
- Zosimi Historia nova, Ed. Mendelssohn, Lipsiae, 1887, I. II, cap. 38, P. 96. (٧٦)
- Codex Theodosianus . Ed. Haenel, Bonnae, 1837, cc. 1313, 1315 , 1316, 1317. (٧٧)
- Syrisches Rechtsbuch, ed. Bruns und Sachau, L.I, § 116 , P. 32. (٧٨)
- Joannes Malalas, Chronographia, I. 16, P. 398. Evagrius . Historia ecclesiastica, I. III, cap. 39, Ed. Bidez et Parmentier, London, 1898. (٧٩)
- Chronicon Edessenum, P.8. (٨٠)
- العمودي، فقرة ٣١ ، ص ٢٦. (٨١)
- المصدر نفسه ، فقرة ٣١، ص ٢٦. (٨٢)
- المصدر نفسه ، فقرة ٢٩، ص ٢٥. (٨٣)
- Procopius . De bello Persico, I. I, cap. 9, P. 41. (٨٤)
- العمودي ، فقرة ٥٤، ص ٥٢ . (٨٥)
- المصدر نفسه ، فقرة ٧٠ ، ص ٦٧ . (٨٦)

- (٨٧) المصدر نفسه ، فقرة ٧٧ ، ص ٧٢ .
- (٨٨) المصدر نفسه ، فقرة ٩٣ .
- (٨٩) Procopius. De bello persico, I. I, cap. 9, P. 41.
- (٩٠) العمودي ، فقرة ٧٦ ، ص ٨١ .
- (٩١) المصدر نفسه ، فقرة ٨٦ ، ص ٨٠ .
- (٩٢) المصدر نفسه ، فقرة ٨٦ ، ص ٨٠ .
- (٩٤) المصدر نفسه ، فقرة ٩٢ ، ص ٨٤ .
- (٩٥) المصدر نفسه ، فقرة ٩٢ ، ص ٨٥ .
- (٩٦) المصدر نفسه ، فقرة ٩٥ ، ص ٨٦ .
- (٩٧) المصدر نفسه ، فقرة ٧٧ ، ص ٧٣ .
- (٩٨) المصدر السابق ، فقرة ٩٤ ، ص ٨٦ .
- (٩٩) المصدر السابق ، فقرة ٩٦ ، ص ٨٧ .
- (١٠٠) المصدر نفسه ، فقرة ٩٦ ، ص ٨٨ .
- (١٠١) المصدر نفسه ، فقرة ٩٦ ، ص ٨٨ .
- (١٠٢) المصدر نفسه ، فقرة ٩٦ ، ص ٨٨-٨٩ .
- (١٠٣) المصدر نفسه ، فقرة ٣٩ ، ص ٢٥ .
- (١٠٤) المصدر نفسه ، فقرة ٣٩ ، ص ٢٥ .
- (١٠٥) المصدر نفسه ، فقرة ٢٩ ، ص ٢٤ .
- (١٠٦) المصدر نفسه ، فقرة ٢٩ ، ص ٢٤ .
- (١٠٧) Zacharias Mytilenensis, t. II, P. 36.
- (١٠٨) العمودي ، فقرة ٢٩ ، ص ٢٤ .
- (١٠٩) المصدر نفسه ، فقرة ٢٢ ، ص ٢٧ .
- (١١٠) Theophanes. Chronographia, P. 230, 20-Chronicon Paschale, P.608,3.
- (١١١) انظر اسفار يسوع العمودي .

التَّاجِرُ وَنَشَاطَاتُهُ فِي الْعَصْرِ الْبَابِلِيِّ الْقَدِيمِ

د. عيسى مرعي

جامعة دمشق

كانت التجارة فرعاً هاماً من فروع الاقتصاد البابلي القديم . وكانت الصفقات التجارية تعقد في بلاد بابل من قبل التجار وممثليهم . ويدعى التاجر في اللغة الأكادية تامكاروم (tamkāru (m) (١) . هذه الكلمة مشتقة من الفعل مكارو makāru (٢) والذي يعني ممارسة التجارة والاتجار . وهذا الفعل معروف في اللغات السامية ، ويعني في اللغتين الأوجاريتية والعبرية « يبيع » ، وفي اللغة الآرامية « يشتري » ، وفي اللغة العربية « يحتكر » (٣) وكل هذه المعاني كما هو واضح لها صلة وثيقة بالتجارة .

أثرت اللغة الأكادية كلفة للكتابة والتجارة (٤) على اللغات الأخرى في الشرق الأدنى القديم ، والتي استعارت منها الكلمة الدالة على التاجر : في اللغة السومرية « دام - جار dam - gar » ، في اللغة الآرامية « تاجارا taggārā » (٥) ، في اللغة العربية « تاجر » (٦) ، وفي الحورية « تامكاري tamkari » (٧) . وما تزال العلاقة ما بين الكلمة الأوجاريتية مكارو makkaru ، والتي تعني تاجر ، والكلمة الآشورية القديمة مكاروم makkārum غير معروفة حتى الآن (٩) .

قام التاجر « تامكاروم » بدور بارز في الحياة الاقتصادية في بلاد بابل في العصر البابلي القديم . والمصادر الأساسية لدراسة النشاطات المتعددة للتاجر في هذه الفترة هي قبل كل شيء قانون حمورابي والنصوص البابلية القديمة من مدينتي لارسا Larsa وسيبار Sippar البابليتين (١٠) . من خلال ذلك يظهر ال « تامكاروم » :
١ - كتاجر متجول يبيع البضائع بنفسه من خلال جولات تجارية ورحلات إلى

الاسواق المختلفة ، ٢ - كمتعهد تجاري يبيع بضائعه عن طريق ممثلين تجاريين يعملون في خدمته وتربطهم به علاقات منظمة ، ٣ - كمقدم للقروض (دائن) يزود الناس بقروض نقدية وعينية (١١) .

١ - ال « تامكاروم » تاجر متجول : في ثلاث فقرات من قانون حمورابي يظهر ال « تامكاروم » كالتاجر المتجول ينتقل من مكان الى اخر ليعقد الصفقات التجارية .

الفقرة ٣٢ : اذا افتدى تاجر « ريدوم » (عسكري) او « باثيروم » (١١ب) (صنف من العساكر) وقع في الاسر خلال حملة عسكرية للملك وجعله يصل مدينته ، فيجب عليه (ال « ريدوم » او ال « باثيروم ») ، اذا كان لديه في بيته فضة لدفع الفدية ، ان يفتدي نفسه . اما اذا لم يكن لديه في بيته فضة لفديته ، فيجب ان يفتدي من قبل معبد إله مدينته . اما اذا لم يكن لدى معبد إله مدينته فضة لفديته ، فعلى القصر ان يفتديه . (اما) حقله وحديقته وبيته فلا يسمح بان تدفع فدية عنه (١١) .

من هذه الفقرة يتضح بان ال « تامكاروم » كان تاجرا متجولا ، يزور الاسواق الاجنبية حيث يباع ، مما يباع ، اسرى الحروب كالعبيد (١٢) . الفقرتان ٢٨٠ و ٢٨١ نعالجان موضوع شراء العبيد البابليين في الخارج ، الفقرة ٢٨٠ : « اذا اشترى رجل اويلوم awilum (في بلاد الاعداء عبد او امة رجل اخر ، وبعد عودته الى بلاده تعرف صاحب العبد او الامة على عبده او امته ، فيجب ، اذا كان العبد او الامة من ابناء البلد (بابل) ، ان يطلق سراحهما دون دفع أي تعويض مادي » ، الفقرة ٢٨١ : « اما اذا كان الامر يتعلق بابناء بلد اخر ، فيجب على الشاري ان يذكر امام الاله مقدار الفضة التي دفعها ، وعلى صاحب العبد او الامة ان يعرض التاجر الفضة التي دفعها هذا ويستعيد عبده او امته » .

الرجل (اويلوم) الذي يذكر في الفقرة ٢٨٠ . ويشترى عبدا او امة في الخارج هو نفسه الذي يرد ذكره في الفقرة ٢٨١ ، وبالتالي فهو تاجر يسافر الى البلاد الاجنبية ويزور ، ضمن ما يزور ، اسواق العبيد (١٣) .

من هذه الفقرات الثلاث من قانون حمورابي نستطيع ان نستنتج ان ال « تامكاروم » كان تاجرا يسافر الى البلدان الاخرى ليعقد صفقات تجارية ، ومن ضمن ما يتاجر به العبيد (١٤) .

٢ - ال « تامكاروم » متعهد تجاري : مع تقدم المجتمع وتطور العلاقات الاقتصادية لم يعد ال « تامكاروم » يحتاج لان يسافر ويقوم برحلات تجارية بنفسه بل صار يرسل

ممثلين تجاريين يقومون بعقد الصفقات التجارية وانجاز عمليات البيع والشراء المطلوبة (١٥) . وقانون حمورابي يتضمن عدة فقرات (٩٩ - ١٠٧) تنظم العلاقة بين ال « تامكاروم » والممثل التجاري « شامالوم » (١٦) . ال « تامكاروم » يعطي ال « شامالوم » فضة او بضائع لرحلة تجارية . يجب على ال « شامالوم » ان يعيد لل « تامكاروم » ، بعد انجاز رحلته وبعد حسم المصاريف ، رأس المال والفوائد والارباح (الفقرات ٩٩-١٠٠) .

يتضح من هذا بان رأس المال اعطي لل « شامالوم » قرضا بفائدة (١٧) . (الفقرة ١٠١) : « اذا لم يحقق ال « شامالوم » أي ربح فيجب عليه ان يعيد الفضة التي تسلمها الى ال « تامكاروم » مضاعفة » . الفقرة ١٠٢ تعالج حالة اقراض ال « تامكاروم » ال « شامالوم » فضة « كسلفة للتجارة بدون فائدة » (١٨) ، وتعرض ال « شامالوم » لخسارة ، ففي هذه الحال يجب عليه ان يعيد لل « تامكاروم » رأس المال فقط .

الفقرة ١٠٣ تحدد القواعد والاسس التي يجب اتباعها في حال تعرض ال « شامالوم » لهجمات معادية خلال قيامه برحلاته التجارية . « اذا سبب له (لك « شامالوم ») عدو في الطريق فقدان كل ما يحمل ، فعلى ال « شامالوم » ان يقسم يمينا امام الاله ومن ثم يذهب حرا » . في هذه الحال يتحمل ال « تامكاروم » الخسارة لانها نشأت بسبب عمل عدائي وليس بسبب قلة مهارة او اهمال ال « شامالوم » هذه الفقرة تذكر اخطار الاعمال العدائية وحسب . الا ان اخطارا اخرى كانت تهدد الرحلات التجارية ، مثل اعتداءات اللصوص وقطاع الطرق . ولما كانت هذه الاخطار غير مذكورة فيمكن الاستنتاج بان ال « شامالوم » كان يتحمل المسؤولية في مثل تلك الاحوال .

الفقرتان ١٠٤ و ١٠٥ تشيران الى ضرورة تسجيل الحسابات على لوح مختوم لتفادي الخلافات التي قد تنشأ فيما بعد بين ال « شامالوم » وال « تامكاروم » .

الفقرة ١٠٤ : « اذا سلم « تامكاروم » (أي التاجر) « شامالوم » (أي الممثل) حبوبا ، (او) صوقا ، (او) زيتا او أية بضاعة أخرى لبيعها ، فيجب على ال « شامالوم » ان يسجل الفضة وان يعيدها الى ال « تامكاروم » . ويجب على ال « شامالوم » ان يحصل على لوح مختوم بالفضة التي يعطيها لل « تامكاروم » .

الفقرة ١٠٥ : « اذا اهمل ال « شامالوم » ولم يأخذ لوحا مختوما بالفضة التي اعطاها لل « تامكاروم » فان الفضة غير المسجلة على لوح مختوم لا تدخل في الحساب » .

الفقرتان ١.٦ و ١.٧ تعالجان الحالة الناجمة عن انكار احد الطرفين ، ال « تامكاروم » او ال « شامالوم » تسلم او قبض الفضة (أي المال) من الاخر وتحددان العقوبة المترتبة على ذلك .

الفقرة ١.٦ : « اذا تسلم « شامالوم » فضة من « تامكاروم » وانكرها على « تامكاريه » (تاجر) ، فعلى هذا ال « تامكاروم » ان يثبت امام الاله وامام شهود أن ال « شامالوم » قد تسلم (منه) فضة ، عندئذ يجب على ال « شامالوم » أن يعطي ال « تامكاروم » كل الفضة التي اخذها (منه) ثلاثة أضعاف .

الفقرة ١.٧ : « اذا أئتمن « تامكاروم » « شامالوم » على مبلغ من الفضة ، واعاد ال « شامالوم » الى ال « تامكاروم » كل ما سلمه اياه . (ولكن) ال « تامكاروم » أنكر كل ما سلمه اياه ال « شامالوم » . على هذا ال « شامالوم » ان يدين ال « تامكاروم » امام الاله وامام شهود ، وعلى ال « تامكاروم » ، لانه انكر « شمالية » (ممثلة) ، ان يعيد الى ال « شامالوم » كل ما اخذ (منه) ستة أضعاف .

من خلال هذه الفقرات من قانون حمورابي تبدو وضعية ال « شامالوم » وعلاقته بالتاجر غير واضحة تماما ، فالاجر الذي كان يتلقاه غير محدد . ولا يعرف ما اذا كان مسموحا له بعقد صفقات لحسابه الخاص . ولكن يمكننا القول بأن ال « شامالوم » كان تاجرا صغيرا يعمل بتكليف من التاجر (ال « تامكاروم ») ويحصل على جزء من الربح . كما بان ال « شامالوم » كان يعمل ايضا لحسابه الخاص ولديه المال الكافي الذي يمكنه من تعويض التاجر رأس المال في حال تعرضه للخسارة (١٩) .

ويمكن لنا ان نستشهد بعدد الوثائق والنصوص التي تتحدث عن ال « شامالوم » ونشاطاته وصلته بتاجره ولكن الوثائق المعروفة عن هذه النقطة ماتزال قليلة . فهناك رسالة من العهد البابلي القديم (A b B II 176) تشير الى تعيين « شامالوم » في الخدمة لدى احد التجار (٢٠) ، وتذكر رسالة اخرى احد هؤلاء ال « شامالوم » (A b B II 87) ونص يعود الى زمن حكم الملك البابلي عمي صدوقا Ammisaduqa (١٦٤٦ - ١٦٢٦ ق.م) يعالج تعيين « شامالوم » مع امه في ال « شامالوتوم » (٢١) لمدة سنة لدى احد التجار وباجر قدره ستة مثاقيل (٢٢ب) فضة (٢٢) . وبالنتيجة فانه ليصعب القول ما اذا كانت هذه هي القاعدة السائدة في بلاد بابل وما اذا كان ذلك موجودا في الفترات السابقة .

يمكن القول اذن بان ال « شامالوم » كان يعمل كالتاجر الصغير في خدمة ال « تامكاروم » ولزمن محدد ، ويعقد له الصفقات التجارية ، وبماكانه في الوقت نفسه عقد الصفقات لحسابه الخاص .

وكان التاجر يستخدم أيضا اشخاصا آخرين لتسيير اعماله التجارية بالإضافة الى ال « شامالوم » (٢٣) . وكان هؤلاء مندوبين يرسلون من قبل التاجر الى البلاد الأخرى للقيام بعمليات البيع والشراء . يظهر هؤلاء المندوبون في عدة رسائل ، حيث يتلقون تعليمات ويكلفون بأعمال من قبل سيدهم التاجر . وهناك بعض رسائل بابلية من تاجر الى مثله فيها تعليمات لشراء بضائع معينة وبسعر محدد : في الرسالة (A b B VI 36) يكلف التاجر بيلانوم مثله أخوني بشراء مصراعي باب من خشب الارز واس واشياء أخرى - على ما يبدو من سورية - . بعد انجاز هذه المهمة على أخوني ان يعود الى بابل ويقابل سيده التاجر .

في رسالة أخرى (A b B VI 52) يطلب بيلانوم من أخوني ان يشتري انواعا مختلفة من الخشب وان يرسلها الى بابل . ويطلبه أيضا بان يشتري له خمرا جيدا . وفي رسالة ثالثة يطلب بيلانوم أخوني بشراء خمر واشياء أخرى وان يأتي الى بابل (٢٤) .

من هذه الرسائل يتضح بان أخوني كان يعمل مستخدما لدى التاجر بيلانوم (٢٥) . بالإضافة الى هذه الرسائل توجد رسائل أخرى من تجار آخرين الى مستخدميهم فيها التعليمات اللازمة لتنفيذ الأعمال التجارية (٢٦) .

ومن المقارنة يبدو ان هناك فرقا واضحا ما بين هذه الرسائل وفقرات قانون حمورابي التي تتحدث عن ال « شامالوم » (٩٩-١٠٧) . من خلال الفقرات انفة الذكر يمكن القول بان ال « شامالوم » كان يستطيع نسبيا العمل بشكل مستقل عن التاجر ، بينما نجد في هذه الرسائل ان الممثل التجاري كان مقيدا ، وعليه تنفيذ تعليمات التاجر ورغباته . فهناك بضائع معينة للبيع او للشراء حددت اسعارها مسبقا قبل سيده التاجر . وفي هذه الحال فان الممثل التجاري لا تأثير له على الربح ، لذلك فانه كان يعمل باجر محدد (٢٧) . كذلك يمكن القول بان التاجر كان يتحمل وحده خطر الخسارة لانه يخطط ويدير الصفقات التجارية بنفسه .

إضافة الى ما تقدم استخدم ال « تامكاروم » في تجارته اشخاصا يدعون « صوخارو » Suharu (٢٨) والذين كانوا يستخدمون في الحمل والنقل وبصفة السعاة (٢٩) .

٣ - ال « تامكاروم » مقرض : الدرجة العليا في تطور ممارسة الأعمال التجارية كانت تقديم القروض ، وقد وصل ال « تامكاروم » الى هذه الدرجة بعد وقت طويل

من التطور في مجتمع كان يتطور ايضا ، وعمله كتاجر متجول ، كما تظهر الوثائق السومرية القديمة ، كان الخطوة الاولى في تطور نشاطاته ، التي يظهر فيها كتاجر فقط ، لكن عندما بدأت الأنشطة الخاصة بالازدهار بعد بداية سلالة اور الثالثة ، كان ال « تامكاروم » ناشطا في تقديم القروض (٢٠) . ويرد ذلك في عدة فقرات من قانون حمورابي .

في الفقرة ١٥١ يرد ذكر الدائن : « بيل خوبوليم » (٢١) . ولكن في الفقرة ١٥٢ نستخدم كلمة « تامكاروم » بنفس المعنى . والواضح من ذلك ان المقصود بـ « تامكاروم » ليس الا « بيل خوبوليم » الذي كان يقدم قروضا (٢٢) .

والفقرتان ١١٥ و ١١٦ تبينان بان الدائن « تامكاروم » ، الذي كان يقرض فضة او حبوبا (٢٣) .

في الفقرة ٨٨ حددت الفائدة المسموح بها لك « تامكاروم » كمقدم للقروض بـ ٢٠٪ لقروض الفضة و ٣٣ ١/٣٪ لقروض الشعير . ولكن هذه النسبة لم يعمل بها دائما على ما يبدو (٢٤) ، وتفيدنا الفقرات ٨٩-٩١ ، بالرغم من الثغرات والفجوات ، ببعض المعلومات حول كيفية تنظيم العلاقة ما بين المدين وال « تامكاروم » الذي يظهر كمقرض للفضة والشعير . . ويمكن القول بان هذه الفقرات كانت سارية المفعول ايضا للاقراض بفوائد ، ليس من قبل ال « تامكاروم » فحسب بل من قبل اشخاص آخرين ايضا (٢٥) . ولكن ال « تامكاروم » كان قادرا على تقديم القروض اكثر من غيره .

في الفقرات ٩٤-٥١ ، ٦٦ يظهر ال « تامكاروم » كمقرض للفضة ايضا (٢٦) ومن الفقرات ١١٧-١١٩ يمكن الاستنتاج بان ال « تامكاروم » كان الرجل الذي يقدم عادة قروضا . ولكن هذا لا يستثني آخرين من تقديم القروض (٢٧) .

بالاضافة الى قانون حمورابي تبين عدة رسائل بابلية قديمة بان ال « تامكاروم » كان يقرض الفضة والشعير . في احدى الرسائل (AbB I 24 : 4-8) نقرأ مايلي (٢٨) :
« الشعير ، حصة اخي ، يجب ان يجهزها لي . والمرء يجب ان يجلبها لي . اريد ان ادفع لك « تامكاروم » الذي اعطاني الفضة » .

من هذه الرسالة يتضح بان ال « تامكاروم » قد اقرض فضة والمدين يريد ان يسدد شعيرا .

رسالة اخرى (AbB I 103 1-4) تذكر : « بشأن ما كتب لي والدي كتبت

الي ال ، ناديتوم Naditum « (٢٩) : « لقد اخذت الفضة من ال « تامكاروم » للدفع
للاشياء الأخرى . هنا يظهر ال « تامكاروم » كمقرض للنقود . أما في الرسالة
AbB II 24 فيظهر كمقرض للشعير .

وفي الرسالة 5-9 : AbB II 94 من عهد الملك البابلي سمسو إلونا Samsuiluna
١٧٤٩ - ١٧١٢) نقرأ مايلى : « كما تعرف فقد اعطيت من اجل أمة وثيقة دين ، وقد
جاء الوقت لدفع الفضة ، وال « تامكاروم » طالبني بالدفع » . هنا باع ال « تامكاروم »
الامة بالدين (٤٠) .

هذه الرسائل برهان آخر على عمل ال « تامكاروم » كمقرض للحبوب او للفضة
في بلاد بابل في العصر البابلي القديم . ولكن على المرء ان يلاحظ بان اصطلاح « تامكاروم »
أستخدم على ما يبدو ليس فقط للدلالة على التجار المحترفين كمقرضين للفضة او للشعير
ولكن للدلالة ايضا على كل من يعطي قروضا . بيد ان التاجر كان في موقع يمكنه ، كما
يظهر ، من اعطاء القروض (٤١) اكثر من غيره .

ان المرء يمكن ان يتساءل عما اذا كان ال « تامكاروم » مشغولا بواحد فقط من
الأنشطة المذكورة سابقا ، او انه كان يمارس اكثر من نشاط في وقت واحد . . ؟ فقد
وجد حتما تجار يتاجرون بالبضائع ، وآخرون يعملون كدائنين فقط ، ولكن من المحتمل
ان بعض التجار كانوا يمارسون العمليين معا (٤٢) او كل الأعمال مجتمعة . أما التعاون
بين تاجرين او عدة تجار فلم يبرهن عليه حتى الان من خلال الوثائق . ولكن بإمكان
التاجر ان يقيم علاقات مع عدة تجار صغار او ممثلين تجاريين في وقت واحد . كذلك
فان التاجر كان يقدم يوميا قروضا الى عدة اشخاص (٤٣) .

هل كان التاجر يعمل بتكليف ؟ .

على العكس من التجار الاشوريين الذين كانوا يعملون لحسابهم الخاص ويتحملون
عبء الاخطار ، كان التجار البابليون يتاجرون غالبا بتكليف من الدولة (٤٤) . ولكن
هذا لا يعني ان التجار البابليين لم يمارسوا التجارة لحسابهم الخاص ايضا .

في سومر كان التاجر موظفا حكوميا مشغولا بالتجارة الداخلية . وفي عهد سلالة
اور الثالثة عمل التاجر كممثل تجاري في خدمة القصر او المعبد ، ولكنه أخذ في
الوقت نفسه بممارسة التجارة لحسابه الخاص بتقديم قروض . ويبدو ان التجارة
الخاصة (الحرة) كانت قد وصلت الى درجة عليا من التطور بعد سقوط سلالة اور
الثالثة (٤٥) . وفي زمن حمورابي تركزت في يد الدولة بسبب نظام الحكم المركزي انذاك
لذلك لم يظهر تجار اغنياء ومشهورون (٤٦) .

ولكن هذا لا يعني ان التاجر لم يلعب دورا مهما في الحياة الاقتصادية في بلاد بابل . ونشاطه المهم ينعكس من خلال قانون حمورابي حيث يذكر مرات عديدة .

كان التاجر يعمل بتكليف من القصر ، وبشكل رئيسي كتاجر خارجي ، ويشغل نفسه ايضا بالتجارة الخاصة ، وذلك كما يبدو من عدة فقرات من قانون حمورابي (الفقرات ٣٢ ، ٨٨ - ٩٦ ، ٩٩ - ١٠٧) (٤٧) التي تشير الى مكانة التاجر كرجل اعمال مستقل وليس كموظف حكومي .

في النصوص البابلية القديمة المذكورة اعلاه يظهر التاجر ايضا مستقلا لا مستخدما لدى الدولة .

وفي مجال التجارة الخارجية لم يكن القصر الملكي المكلف الوحيد بالتجارة او المستهلك الوحيد لموادها ، ولكن وضع القصر الاقتصادي وحاجاته نمت بشكل ادى الى ان يصبح التجار تجارا ملكيين . وكان ذلك افضل بالنسبة للتجار الذي كانوا يتعاملون مع الخارج ، اذ كانوا يتمتعون ، بصفتهم هذه ، بحماية افضل (٤٨) . كما ان التجارة الخارجية كانت ، بشكل رئيسي ، تسد حاجات طبقة محددة ، وعلى الاخص العائلة المالكة . لذلك كان التاجر الذي يتعامل مع الخارج مرتبعا بشكل كبير بالقصر الملكي (٤٩) .

ويبدو ان التجارة الخاصة في لارسا وصلت ذروتها قبل عهد حمورابي ، في عهد وارادسين Waradsin ، وفي النصف الاول من عهد ريمسين Rimsin (٥٠) ، الا ان حمورابي استطاع بنظام حكمه المركزي القوي وبتوسيع سلطات الدولة ان يمسك التجارة بيديه (٥١) ، فنشطت التجارة الحكومية ، بشكل خاص ، خلال حكمه وحكم خليفته سامسو الونا . وكان التجار يمارسون هذه التجارة ويدفعون ضرائب معينة للقصر (٥٢) . وهذا يظهر من خلال الرسالة (AbB II 72) من ابي - ايشوخ (٥٣) الملك البابلي ، يطالب فيها بان يدفع احد التجار الضرائب المترتبة عليه ، وفي رسالة اخرى (AbB II 68) يطالب ابي - ايشوخ تجارا من لارسا بالضرائب المترتبة عليهم .

وكان التجار يستثمرون ارباحهم من التجارة في شراء الاراضي والبيوت ، ويظهرون في عدة نصوص بابلية قديمة كشارين او باعة بيوت وحدائق وملكيات خاصة (٥٤) .

الى جانب التجار تظهر في النصوص البابلية القديمة من مدينة سيبار كاهنات الاله شماس (ال « ناديتو ») (٥٥) اللواتي كن يمارسن انواعا مختلفة من الصفقات

ويلعبن دورا مهما في حياة المدينة الاقتصادية ، فيقرضن الفضة والحبوب مثلا .
وكالتجار استثمرت ال « ناديتو » أموالهن في شراء البيوت والأراضي (٥٦) .

بعد هذا العرض لنشاط التاجر ومكانته هناك سؤال يطرح نفسه ، وهو ما
إذا كان لكل حرفة حي خاص بها في المدن البابلية القديمة .

توجد اشارات على أن حال المدن الآشورية كان كذلك ، كما توجد اشارات
على أن التجار في بلاد بابل كانوا يعيشون في أحياء معينة ، ربما كانت ملاصقة
للـ « كاروم » - السوق - (٥٧) . وسؤال آخر ، وهو ما إذا كان التجار في بلاد بابل
مندمجين في روابط . لم يعثر على اشارات في المصادر البابلية القديمة تدل على ذلك ،
ومن المحتمل بأن الأشخاص الذين كانوا يمارسون حرفة معينة كانوا يشكلون مجموعات
متماسكة في المجتمع (٥٨) .

الخلاصة : أن الـ « تامكاروم » يظهر من خلال الوثائق البابلية القديمة كرجل
أعمال ومقدم للقروض ، يعمل لحسابه الخاص ، كما يعمل في خدمة القصر الملكي .
وبوصفه تاجر يتعامل مع الخارج بخاصة ، كان مرتبطا بالدولة ، ليس فقط من
خلال القانون (قانون حمورابي مثلا) ، ولكن أيضا من خلال بعض القواعد والأنظمة
الحكومية ، وقبل كل شيء من خلال نظام السماح بنقل البضائع من مكان لآخر ، ودفع
ضرائب محددة ، كانت تجمع من قبل وكيل التجار (وكيل تامكاري) (٥٩) .

وكيل التجار (وكيل تامكاري Wakil tamkari) : إلى جانب التاجر وجدت
في بلاد بابل شخصية أخرى مهمة لعبت دورا بارزا في الحياة الاقتصادية ، يرد ذكرها
كثيرا في النصوص البابلية القديمة ، هي وكيل التجار (وكيل تامكاري) (٦٠) ، وكان
موظفا ملكيا مسؤول عن إحدى المدن ، ووظيفته إدارة الصفقات التجارية للقصر الملكي .
وكان مسؤولا عن جمع الضرائب ، وعليه أن يقدم للقصر الملكي في مقابل ذلك كمية
محددة من الفضة . وعمليا كان وكيل التجار الرئيس المالي للمدينة (٦١) .

من خلال رسالتين بابليتين قديمتين يتبين بأن وكيل التجار قد تسلم من الملك
« حقلا لسد نفقات معيشته » . في الرسالة الأولى (AbB IV 2) يكتب حمورابي إلى
شماش - خازر حاكمه في لارسا ، يأمره بأن يعطي وكلاء التجار الثلاثة من مدينة أور
UR « حقولا إضافية لتأمين متطلبات معيشتهم » (٦٢) . في الرسالة الثانية (AbB IV 3)
يأمر حمورابي شماش - خازر بأن يعطي « حقولا لسد نفقات المعيشة » إلى وكلاء
التجار من لارسا ومن أور . ومثل هذه « الحقول لسد نفقات المعيشة » كانت تعطى
لأناس يعملون في خدمة الملك . هذا بين بأن وكيل التجار كان يعمل في خدمة القصر (٦٣) .

وذكر ثلاثة وكلاء تجار من مدينة اور في الرسالة الاولى يشير ربما الى ان كل واحد منهم كان مسؤولا عن حي من احياء المدينة او ضاحية منها ، فالمدن البابلية القديمة كانت مقسمة الى احياء كانت عادة تدار ذاتيا (٦٤) .

يتبين من الرسالة AbB II 33 بان وكيل التجار كان يعمل في جباية الضرائب لصالح التاج ، وكان ملزما بان يسلمها شخصا الى حمورابي في بابل (٦٥) . والرسالة AbB II 30 تبين بان وكيل التجار جمع الضرائب لصالح الملك وكان مسؤولا عنها. ولكن هذا لا يعني بان وكيل التجار لم تكن لديه اموال خاصة يستثمرها في مكان اخر (٦٦) .

رسالة ثالثة (AbB II 53) تظهر ايضا مسؤولية وكيل التجار عن الضرائب امام الملك الذي طالبه هنا بان يرسل الضرائب عن شعر الماعز الى بابل (٦٧) . وبشكل مشابه تطلب رسالة اخرى من وكيل التجار توريد الضرائب الماخوذة من تاجر خمر الى القصر (٦٨) .

وكان يعمل في خدمة وكيل التجار هذه اشخاص يدعون وكيل نام 5 wakil NAM 5 هذه التسمية معروفة من مدن لارسا واور وكوتالا Kutalla (٦٩) . (مدينة في مقاطعة لارسا ، معروفة خلال حكم حمورابي وسامسوالونا) . هذه التسمية ماتزال غير معروفة من مدن بابلية اخرى (٧٠) .

كان وكيل التجار في المقام الاول مدير المصالح التجارية للملك. وينتمي الى دائرة التجار او الموظفين ، وخاصة القضاة . وكان الملك يختار من بين هؤلاء من يتمتع بمقدرات بارزة في حرفته ، او بنفوذ اجتماعي كبير (٧١) .

الى جانب عمله في التجارة وجمع الضرائب لصالح القصر كان وكيل التجار مشغولا ايضا بممارسة الاعمال القضائية ، الى جانب القضاة في ال « كاروم » ، ومن المحتمل بانه كان يشغل مركزا ممتازا في هذه الهيئة القضائية ، لانه يذكر باستمرار في مقدمة المشتركين فيها (٧٢) .

الخلاصة ان وكيل التجار يظهر في المصادر البابلية القديمة كموظف يعمل في خدمة القصر ، ومسؤولا عن تجارة الدولة وجمع الضرائب امام الملك ، واخيرا كعضو مشارك في القضاء .

اما في ماري التي لعبت دورا مهما في المواصلات التجارية بين بلاد ما بين النهرين وسورية ، فقد تركزت التجارة بيد القصر الملكي ، الذي جنى ارباحا كبيرة من المواصلات التجارية وتجارة المرور . ووكيل التجار في هذه المدينة شخصية معروفة لدينا . وكان

مسؤولا عن التجارة وجباية الجمارك (٧٣) ، وفي خدمته اشخاص يسمون « بيل تيرتيم » (٧٤) ، لا تعرف حتى الان مدى علاقتهم به ولكن يبدو انهم كانوا يكلفون بصفقات تجارية (٧٥) او بجمع الجمارك (٧٦) في محطات المراقبة التي اقيمت على الحدود لمراقبة حركة التجارة والمواصلات التجارية مع البلدان المجاورة .

وتعطي وثائق من ارشيف مدينة ماري بعض المعلومات عن تجارها ونشاطاتهم المختلفة .

١ - **داريّا Dariya** : يظهر في الوثيقة ARM VIII 80:6 شاهدا اول في اقراض فضة الى صدقو - لاناسي Zidqu-Lanasi ، ممثل زمري ليم Zimrilim ملك ماري في كركميش ، في النص ARM IX 17:1-4 يجلب ٢٩٣ اناء خمر من كركميش ، وفي ARM—XIV 32:7 يصل الى تيلازيبوم Tillazibum (مكان في منطقة ساجاراتوم Sagarâtum) مع اخشاب من الارز .

وحسب رسالة من صدقو - لانسي ممثل زمري ليم في كركميش يبدو ان داريّا كان منشغلا بتجارة الخشب (٧٧) .
هذا التاجر كان متخصصا في استيراد منتجات مختلفة من كركميش كالخمر والخشب . وكانت له هناك بدون شك علاقات تجارية ومركز لادارة اعماله .

٢ - **اريبا Eriba بن إصي - قاتار Isi-qatar** : يظهر في احد النصوص كبائع للرصاص : « ٣ مثاقيل فضة لشراء (١) تالنت (وزنة رصاص (٧٨) ، اي ٢٠ مينة ل (١ مثقال) ، تم شراؤها من اريبا التاجر ابن إصي - قاتار » (٧٩) .

٣ - **إلوشو - أبوشو** : يذكر هذا التاجر في نص كبائع للارز الابيض (خشب) . « ٢ ٢/٣ مثاقيل فضة لشراء ٨ ارزات بيضاء (٨٠) ، شريت من إلوشو - أبوشو التاجر ، والمخصصة لعربتي (٨١) احصنة ، اللتين صنعهما خبدو - ملك » (٨٢) .

٤ - في رسالة من ياسيم - سومو Yasim - sumu (٨٣) الى سيده زمري ليم اشارة الى احد التجار « العجل الذي ارسل الى الملك من احد الاشخاص اصبح مريضا . ياسيم - سومو يسأل الملك ما اذا كان يجب عليه ان يبيع العجل الى احد التجار ويشترى بدلا منه (٨٤) .

٥ - **نانا - مانسي Nanna-manse** : يظهر هذا التاجر بائعا للقصدير : « ٢٠ مينة قصدير مقابل ٢ مينة فضة ، بسعر ١٠ الى ١ ، اشتريت من نانا - مانسي التاجر » (٨٥) .

٦ - أخوشينا يرد ذكر أخوشينا في أحد النصوص بئنا للقصدير : « [؟] مثقال فضة لشراء قصدير من أخوشينا التاجر » (٨٦) .

٧ - ماهنوب - ال Mahnub - EL : كان أيضا يشتغل ببيع القصدير (٨٧) .

٨ - نص من عهد سومو - يمام Sumu-yamam أحد ملوك ماري يبين بان أحد التجار كان يشتغل ببيع خشب الابنوس (٨٨) . من محتوى النص يتبين بان سعر خشب الابنوس كان ٢ مثقال فضة لكل مينة من الخشب (٨٩) .

٩ - وفي النص ARM XII 263:11 يرد ذكر لأحد التجار .

وتذكر نصوص ماري أيضا تجارا من مدن سورية :

أ - من إيمار Emar : أحد النصوص يبين بان أحد التجار (او عدة تجار) من إيمار كان يعمل ببيع الزيت والخمر : « ١ مثقال فضة حسب وزن السوق ، لشراء اناء كبير من الزيت ، ١ مثقال فضة لشراء اناء من الخمر لزيت الاس ، تم شراؤها من تاجر من إيمار » (٩٠) . وفي نص ثان يظهر تاجر آخر من إيمار بئنا للخشب (ARMI XXIII 523) : « ٣ تالنت خشب تيارو Tiya ? ، ٢ تالنت آس ٢ تالنت سرو ، التي شريت من خانا - ادو Hanna-Addu التاجر من إيمار » .

ب - من كركميش Karkemis : وتاجر من كركميش يذكر في أحد النصوص كبائع للارز الابيض : « ٣ مثاقيل فضة حسب وزن السوق لشراء اربع ارزات بيضاء » (٩١) ، شريت من تاجر من كركميش » (٩٢) .

تجار من سوخوم Suhum (٩٣) يظهرون أيضا في عدة نصوص من ماري منشغلين بتجارة القصدير (٩٤) .

وكمركز تجاري مهم كانت ماري تجتذب تجارا من المدن السورية المختلفة مثل إيمار وكركميش ، وربما حلب وقطنة ، الذين كانوا يجلبون اليها منتجات بلادهم مثل الخمر والخشب وزيت الزيتون . السؤال المهم هنا هو ما اذا كان هؤلاء التجاريون في ماري مع تجار من المدن البابلية ويعقدون معهم الصفقات التجارية ؟ . وتجار من ماري كانوا يسافرون أيضا الى المدن السورية لعقد صفقات تجارية . لقد رأينا فيما سبق داريًا ، ومن رسالة من ابلاخاندا Aplahande حاكم كركميش ،

(ARM V 9) الى يسماخ yasmahadad حاكم ماري تبين بان عدة تجار من مملكة ماري احتجزوا في كركميش ، كاجراء مضاد لاحتجاز ٣٠ خروفا و ٥٠ جرة من الخمر وزوجة احد الملاحين من كركميش في توتول Tuttul التابعة لمملكة ماري (٩٥) . ومن ذلك يمكن الاستنتاج بان تجارا من ماري كانوا يسافرون باستمرار الى كركميش لاستيراد منتجات مختلفة .

كذلك كانت مدينة حاصور الواقعة في شمال فلسطين هدفا مقصودا لتجار من ماري . فاحدى الرسائل من زمري ليم ملك ماري الى ياريم ليم ملك يمعاض تفيدنا بأن تجارا من ماري سافروا الى حاصور واحتجزوا هناك من قبل ذلك تلك المدينة لاسباب مازلنا نجهلها (٩٦) .



على العكس من بلاد بابل نوجد معلومات قليلة عن التجار وعن الفعاليات التجارية في سورية .

في بعض نصوص الطبقة السابعة من الاالاخ يرد ذكر اوكيل التجار (٩٧) . في النصوص AL.T 56, 57 يظهر وكيل التجار إرباادا Irpa-ada شاريا لعدة قرى وارض . وكان الثمن يتضمن ، الى جانب الفضة ، منتجات طبيعية كالشعير والزيت والخمر والملابس . وكان الملك نفسه واخوه الحاكم في حلب شهودا في عملية البيع هذه . وهذا يدل على أهمية منصب وكيل التجار في الاالاخ في هذه الفترة ، ومن المحتمل بانه كان يعمل ، كوكيل التجار في بلاد بابل ، في خدمة القصر بتسيير امور التجارة وجباية الضرائب (٩٨) . ويمكن القول ان المهمات الموكولة الى وكيل التجار في الاالاخ ، في هذه الفترة ، كانت مشابهة للمهام الموكولة الى وكيل التجار في بلاد بابل .

ويرد ذكر ممثلي التجار « شامالوم » في نصين (٩٩) ، وقد اتوا من مورار Murar وإيمار وأمورو Amurru . ومن المعتقد بأنهم كانوا يسافرون باستمرار بين الاالاخ وهذه المدن لعقد الصفقات التجارية .

الهوامشي :

(*) انظر هذا الموضوع بتوسع في : هيد مرمي ، « التجارة بين سورية وبلاد بابل في القرن الثامن عشر قبل الميلاد » (بالألمانية) . . اطروحة لنيل شهادة الدكتوراه . .

Der Handel zwisch Syrien und Babylonien im achtzehnten Jahrhundert vor Christus , Würzburg 1985.

AHw 1314 b; H. Zimmern, AFr, S.16; vgl. B. Landsberger, Akkadisch -Hebräische Wortgleichungen, in: Festschrift zum 80. Geburtstag von W. Baumgartner, Leiden 1967, S. 177. (1)

A. Salonen , Nautica Babyloniaca ,Helsinki 1924, S. 23 Anm. (2)
1; AHw 588 b; CAD 10 (1977) , S. 126 .

AHw588b; L.Koehler-w. Baumgartner, Lexicon in Veteris Testamenti Libros, Leiden 1953, S. 522; R. Tomback, Acomparative Semitic Lexicon of the Phoenician and Punic Languages, Montana 1978,P.177. (3)

G. Steiner, Kaufmanns- und Handelssprache im alten Orient, in : (4)
Iraq 39 (1977) , S. 12.

S. Kaufmann, The Akkadian Influences on Aramaic, Chicago - London (5)
1974, P. 107 .

(6) تسمية التاجر انتقلت من اللغة الاكادية الى العربية عبر الارامية .
انظر :

S. Fraenkel, Die Aramäischen Fremdwörter im Arabischen, Nachdruck der Ausgabe Leiden 1886. Hildesheim 1961, S. 181.

E. Laroche, RHA 35 (1977) , P. 254. (7)

Zimmern, AFr, S. 16; AHw 1314 b; Steiner , Iraq 39 (1977), S. 13; (8)
F. Hrozny, Die älteste Geschichte Vorderasiens, Prag 1940, S. 86.

Makkārum : تاجر , AHw 589 b. (9)

كلمة 'u - rú - nak في اللغة المصرية القديمة ، والتي تعني تاجر ايضا ، استعيرت من اللغات

السامية . انظر :

A. H. Gardiner, Ancient Egyptian Onomastica I, Oxford 1947, P.95
Nr. 212 ; W. Helck, Die Beziehungen Ägyptens zu Vorderasien im 3.
und 2. Jahrtausend v. Chr., 2. verbesserte Auflage, Wiesbaden 1971,
S. 515.

W. F. Leemans, The Old Babylonian Merchant, His Business and His Social Position, Leiden 1950, P. 125. (١٠)

ibid. P. 36. (١١)

bā'irum : صياد . كان على هذا الصياد المشاركة في حملات الملك العسكرية . وسلاحه كان شبكته . انظر AHW 96 a. (١١ب)

هذه الفقرة والفقرات الأخرى من قانون حمورابي الواردة هنا ترجمتها عن النص الأصلي المكتوب باللغة الأكادية (١١*)

W. F. Leemans, The Old Babylonian Merchant, P. 7. (١٢)

ibid. P. 9. (١٢)

ibid. P. 10. (١٤)

ibid. P. 22. (١٥)

Samallum : حامل كيس ، معاون ، مندوب ، مساعد تجاري . (١٦)

انظر : AHW 1153 b ; Zimmern, AFr .S.16.

شمالوم هي كلمة سومرية الأصل وانتقلت إلى الأكادية : اشتقاقها ، حسب معلومات الاستاذ الدكتور يوسف بور المتخصص في الدراسات السومرية ، : حامل وعاء : LU. SAMAN. LA : حامل : LA ; وعاء معين : SAMAN رجل : LU

H. Klengel, Handel und Händler im alten Orient , Wien-Köln -Graz 1979, S. 90. (١٧)

(١٨) « سلفة للتجارة بدون فائدة » تسمى في اللغة الأكادية تدميقتوم tadmiqtum انظر :

AHW 1300 b; Leemans, Merchant, P. 25 ff.; F.R. Kraus, Ein Edikt des Königs Ammi - Saduqa von Babylon, Leiden 1958, S. 63 Anm. 1; vgl. Edzard, Altbabylonische Rechts - und Wirtschaftsurkunden aus Tell ed - Der im Iraq Museum, Baghdad, München 1970, S. 147.

H. Klengen, Handel und Händler im alten Orient, S. 90. (١٩)

ibid. S. 91. (٢٠)

Samallutum : «امانة في التجارة ، الخدمة كمندوب » . انظر : AHW 1154 a. (٢١)

مثقال من الجذر ثقل في العربية هي ما يقابل كلمة شيقيل Siqil الأكادية . في الأكادية شيقلوم Siqlum في حالة غير المضاف وشيقيل في حالة المضاف . الكلمة مشتقة من الفعل شقالوم Saqalum : وزن . الشيقيل وزن ٨٢ غ تقريبا . (٢١ب)

- كلمة شيقيل انتقلت الى لغات اخرى :
 الاوجاريتية : ثقل tql ، العبرية : شيقيل Seqel ، والارامية ثقلا tiqla . انظر :
 AHw1248a
- J. J. Finkelstein, Late Old Babylonian Documents and Letters, (٢٢)
 New Heven - London 1972, Nr. 207 .
- Leemans, Merchant, P. 33. (٢٣)
- A.L. Oppenheim, Letters from Mesopotamia, Chicago - London 1967, (٢٤)
 P. 83 Nr. 13.
- Leemans, Foreign Trade in the Old Babylonian Period, Leiden 1960. (٢٥)
 P. 108 .
- Leemans, Merchant, P. 34; AbB II 87; VI 4. (٢٦)
- ibid. P. 34. (٢٧)
- (٢٨) صوخادوم (في حالة المفرد) : شاب ، خادم ، مستخدم . انظر :
 AHw 1109 a; CAD 16 S (1962) , P. 231 b.
 يقابل هذه الكلمة في العربية كلمة « صغير » .
- (٢٩) انظر الهامش رقم ٢٧ .
- Leemans, Merchant, P. 11. (٣٠)
- (٣١) بيل خوبوليم bel hubullim : دائن . انظر :
 AHw 351 b; CAD 6 H (1956), P. 218 b.
- Leemans, Merchant. P. 12 . (٣٢)
- ibid. 13. (٣٣)
- Klengel, Handel und Händler im alten Orient, S. 89. (٣٤)
- Leemans, Merchant, P. 14. (٣٥)
- ibid. P. 19. (٣٦) انظر ايضاً :
- ibid. P. 17. (٣٧)
- (٣٨) الرسالة رقم ١٣٤ في A b B VII هي نسخة عن هذه الرسالة .
- (٣٩) ناديتو maditum : هي كاهنة اله الشمس شماش وكان يجب عليها الا تنجب اولادا . انظر
 حول ذلك في
 J. Renger, ZA 58 (1967), S. 149 ff.

- (٤٠) Leemans, Merchant, P. 20. : قارن :
- (٤١) ibid. P. 36; Klengel, Handel und Händler, S. 74.
- (٤٢) Leemans, Merchant, P. 37.
- (٤٣) ibid. P. 38.
- (٤٤) Edzard, Fischer Weltgeschichte 2, S. 181.
- (٤٥) Leemans, Merchant, P. 113.
- (٤٦) ibid. P. 94, 122.
- (٤٧) ibid. P. 123; B. Meissner, BuA I, Heidelberg 1920, S. 336.
- (٤٨) Klengel, Handel und Händler, S. 85; vgl. Schmökel, Kulturgeschichte des Alten Orient, Stuttgart 1961, S. 78.
- (٤٩) Klengel, Handel und Händler, S. 74; vgl. K. Polany in: Sabloff - Lamberg - Karlovsky, Ancient Civilization and Trade, P. 138-140.
- (٥٠) Leemans, Merchant, P. 121.
- (٥١) ibid. P. 122.
- (٥٢) ibid. P. 99 ff.
- (٥٣) أبي ايشوخ Abi - esuh هو الملك الثامن من السلالة البابلية الاولى . حكم ما بين ١٧١١ - ١٦٨٤ ق.م . وهو ابن سمسو الونا خليفة حمورابي .
- F. H. Weissbach, RLA 1 (1932), S. 9. : انظر :
- (٥٤) Leemans, Merchant, P. 53 ff.
- (٥٥) انظر الهامش رقم ٣٩ .
- (٥٦) Leemans, Merchant, P. 98, 118 ff.
- (٥٧) ibid. P. 63, 67.
- كاروم كلمة سومرية الاصل لها عدة معان : رصيف ميناء ، سد ، مرسى للسفن ، سوق دائرة للتجارة . انظر اطروحتي للدكتوراة ص ٥٥ .
- (٥٨) Leemans, Merchant, P. 67 ff.
- (٥٩) ibid. P. 125.
- (٦٠) (و) اكلو (م) (w) aklu (m) : مكلف ، مشرف ، مراقب . انظر :

AHw 1456 a; A. Salonen, Nautica Babyloniaca, S. 5.

نقول في العربية « وكيل » .

Klengel, Handel und Händler, S. 84; Leemans, RIA 4 (1972 - 75), S. 81, 85. (٦١)

حقل لسد نفقات المعيشة يدعى في الأكادية ايقيل كوروماتيم ešel Kurummatim انظر : AHw 231 b; CAD 8 K (1971), P. 573 ff. (٦٢)

Leemans, Merchant, P. 82. (٦٣)

ibid. (٦٤)

ibid. P. 83. (٦٥)

ibid. P. 86. (٦٦)

ibid. P. 105. (٦٧)

E. Ebeling, Altbabylonische Briefe der Louvre- Sammlung aus Larsa, Leipzig 1942, Nr. 33. (٦٨)

RGTC 3 (1980), S. 147. انظر : (٦٩)

Leemans, Merchant, P. 90 ff. (٧٠)

ibid. P. 95, 105 ff. (٧١)

ibid. P. 71; A. Walther, Das altbabylonische Gerichtswesen, Leipzig 1917, S. 70 ff. (٧٢)

انظر اطروحتي ص ١٣٥ و ١٣٨ . (٧٣)

ARMT XIII 35: 25. bel terti (m) : مفوض ، مكلف بأوامر (٧٤)

AHw 120 b Nr. 23. انظر : (٧٥)

ARMT XIII 35 : 22-26 . انظر ص ١٣٨ وما يليها من اطروحتي . (٧٥)

ARM IX 8, 13. انظر ص ١٣٥ من اطروحتي (٧٦)

B. 130 bei Ch.-F. Jean, Pharmacopée et Parfumerie dans quelques Lettres de Mari, in: ArOr XVII/1 (1949), P. 329 . ARMT IX § 41 ; (٧٧)

A. Finet, AfO 35 (1974-77), P. 124, : انظر حول ناربا :

واطروحتي ص ٧٩ .

الرماس يدعى في الأكادية اباروم abāru (m) . انظر AHw 4 a ; CAD 1 A 1 (1964), P. 36 ff. (٧٨)

- ARM XXI 221 : 1-7 . (٧٩)
- ti (?) āl/ru (m), tijāl/ru (m): (٨٠)
- انظر :
AHw 1353 a ; vgl. A. Salonen, Die Türen des Alten Mesopotamien, Helsinki 1961, S. 99.
- Magarru (m) : عربية ، دولا ب ، AHw 575 a; CAD 10 M (1977), P. 32 ff.; vgl. A. Salonen, Die Landfahrzeuge in Babylonien, S. 38. (٨١)
- ARM XXI 215 : 1-10 . (٨٢)
- احد الموظفين الكبار لدى زمري ليم . انظر :
J.-R. Kupper, RLA 5 (1976-80), S. 269. (٨٣)
- ARMT XIII 25: 18. (٨٤)
- ARMT XXII 205, Col. I Z. 6-10. (٨٥)
- ARMT XXII 260 : 6-9. (٨٦)
- ARMT XXII 262, Col. VI Z. 8-18. (٨٧)
- AHw 1442 b : : قارن . usu (m) خشب الابنوس يدعى في الاكادية اوسوم (٨٨)
- G. Dossin, RA 64 (1970) , P. 28 Nr. 13. (٨٩)
- ARM XXI 210: 1-10. (٩٠)
- انظر الهامش رقم ٨٠ . (٩١)
- ARM XXI 214: 1-8. (٩٢)
- Suhum سوخوم منطقة على الفرات الى الجنوب من ماري . انظر :
RGTC 3 (1980) , S. 210; 5 (1982), S. 235 ff. (٩٣)
- ARMT XXII 205, I Z. 12-18; 264 : 5-10' 14' 16-21. (٩٤)
- انظر اطروحتي ص ٧٨ ، ١٥٧ . (٩٥)
- انظر اشروحتي ص ١٥٧ وما يليها . (٩٦)
- D. J. Wiseman, The Alalakh Tablets, Nr. 7: c; 57: 3; 77. 16. (٩٧)
- Klengel, Handel und Händler, S. 142. (٩٨)
- Wiseman, JCS 13 (1959), P. 28, AL. T. 269: 28 , 52, 53, 74, 75 ; The Alalakh Tablets, Nr. 321: 2. (٩٩)

مختصرات أسماء المصادر والمراجع الواردة في الهوامش

AbB = Altbabylonische Briefe.

AfO = Archiv für Orientforschung .

AFr = Akkadische Fremdwörter als Beweis für babylonischen Kultureinfluß, Leipzig 1917.

AHw = W.v. Soden, Akkadisches Handwörterbuch.

AL.T. = D.J. Wiseman, The Alalakh Tablets, London 1953.

ARM(T) = Archives Royales de Mari (transcripts, traduits et commentés).

ArOr = Archiv Orientalni.

BuA = Meissner, B., Babylonien und Assyrien.

CAD =)The Assyrian Dictionary of the Oriental Institute of the University of Chicago.

JCS = Journal of the Cuneiform Studies.

RA = Revue d'Assyriologie et d'Archéologie Orientale.

RGTC = Répertoire Géographique des Textes Cunéiformes.

RHA = Revue Hittite et Asianique.

RLA = Reallexikon der Assyriologie .

ZA = Zeitschrift für Assyriologie und verwandte Gebiete.

* * *

يَعْنُرُ الْمَلْحَظَاتِ حَوْلَ اللُّغَةِ الْإِبْلَائِيَّةِ وَقَوَاعِدِهَا

الحديث عن ابلا EBLA ولغتها ما يزال محتدما في اوساط الاشوريات واللغات السامية في العالم . كما ان عملية نشر النصوص المكتشفة في ابلا ستستمر لسنوات طويلة . لذلك فان الوصول الى رؤية شاملة وواضحة كل الوضوح للغتها وقواعدها يحتاج الى سنوات عديدة .

ومع ذلك فان عدة جوانب من لغة ابلا اصبحت معروفة ، نتيجة عمليات القراءة المتواصلة للنصوص المكتشفة ، ودراستها ونشرها . وان تقديم فكرة موجزة عن تلك اللغة ، كما فعلت الدكتورة يسرى الكجك ،* بداية طيبة ، وحافز لنا نحن العرب ان نهتم اكثر بحضارتنا وتاريخنا القديم . وأود هنا ان اشير الى بعض ما ورد في البحث عن خصائص اللغة الابلائية .

في الصفحة ١٦٩ تورّد الباحثة بعض الافعال الموجودة في اللغة الابلائية: جنفاردامو Jinhar - Damu = داموا مصاب ، جيبخور ملك Jiphur - malik = ملك قدحصد ، جيشمع آل Jisma-il = هو يسمع ، جيدين كاميش Jiddin-Kamis = كمش قد أعطى ، جيبسورني Jipturni = هو قد حررني او حررنا ، ثم تعلق فتقول : « من الملاحظ ان الافعال السابقة قد بدأت بمقطع سبق الفعل ، للمفرد المذكر الغائب ، وهو (جي) Al ، وانها جميعا على وزن جيكتل Jiqtul » ، ثم تضيف : يجمع بيتيناتو وجلب على اعتبار Jiqtul كزمن الفعل الماضي ، كما هو الحال في كتب Ktub = كتب .

من الامور المعروفة انه لا يوجد في لغة ابلا ولا في غيرها من اللغات السامية المعروفة حتى الان مقطع يسبق الفعل ويدعى (جي) Al (١) . فالمقطع الذي يسبق الفعل الماضي للمفرد المذكر الغائب في لغة ابلا هو المقطع (اي) ، كما هو الحال في اللغة الاكادية ، ويقابل ذلك المقطع ya (يا) في اللغة الامورية واللغات السامية الغربية ، وبناء على ذلك يصبح الوزن المنسوية اليه الافعال المذكورة سابقا اقتل iqtul وليس جيكتل كما ورد في المقال (٢) .

* انظر : الابلائية لغة مدونة في وثائق ملكية ، يسرى الكجك ، مجلة دراسات تاريخية ، العددان ٢١ و ٢٢ ، آذار-حزيران ١٩٨٦ .

كذلك لابد من التنويه بأن حرف الـ q يقابله في العربية واللغات السامية المعروفة الحرف (ق)، والفعل قتل qatal، والمستخدم هنا كوزن تقاس عليه الأفعال الأخرى، معروف في العديد من اللغات السامية، ويكتب قتل عند نقله عن اللغات الأوربية، وليس كتل (ص ١٧٠). والمثال كاتيش qatis يجب أن يكتب قاتيش.

المضارع والمستقبل في لغة أبلا يكون على وزن اقاتيل أو اقاتول = iqqat/i/ul (٣) وليس على وزن جيكتيول. ونورد فيما يلي ترجمة الأفعال كما وردت عند بيتيناتسو وجلب: (الاله) دامسو أصاب بأفة = انخار دامسو = En-ar-Da-mu (inhar-Damu) الفعل نخر معروف في اللغة العربية.

(الاله) ملك، جمع، وحد، حصد = إپخور ملك = Iq-hur - Ma - lik (iphur - Malik) الفعل باخارو (م) Pahāru (m) معروف أيضا في اللغة الأكادية ويعني: يجمع، يتجمع، يوحد (٤).

(الاله) إل سمع = إسمع إل = Is - mā-Il (isma'- Il)
(الاله) كاميش أعطى = إدين كاميش = I-tid Ga - mi-is (iddin - kamis)
الزمن الماضي للفعل: يعطي، للمفرد المذكر الغائب الوارد هنا، هو نفس الزمن الماضي الموجود في اللغة الأكادية، علما بأن المصدر في الأكادية هو ندانو (م) = nadānu (m) (٥). هو حرربي أو حررنا = إيطورني = Ip - tur-ni (ipturni) والفعل بطرو (م) Pataru (m) معروف أيضا في اللغة الأكادية وفي اللغات السامية الأخرى ويعني: يحل، يفك، يستق يعحر (٦)، نقول في العربية فطر.

في الصفحة ١٧، المصدر مخزيدا mahazida = ضرب والصحيح هو ma-ha-zi (mahazi)i-da = بضرب باليد (٧). الفعل مخاصو (م) mahasu (m) معروف في الأكادية ويعني يضرب، ينسج (٨)، ومعروف كذلك في اللغات السامية الأخرى. في العربية نقول مخض. أما i-da فتعني يد.

التانيث في لغة أبلا يتم بإضافة اللاحقة -at-um أو -t-um كما في maliktum = ملكة، إلى جانب malikum = ملك، و irisatum = رغبة، ونپشتوم nupustum = حياة وليس مپشتوم mupustum (٩).

الفاعل (ص ١٧٠) نضاف إليه اللاحقة (أو) u وليست يو. فالكاتبه قرأت اللاحقة (أو) u كالحرف (يو) u في اللغة الإنكليزية. أما النهايات a و Q فهي موجودة بكثرة في كل أنواع الأسماء وليس فقط في أسماء الملوك. ويرد في الصفحة

نفسها» وكتبت أسماء الآلهة على الشكل التالي : داکان کنانیم = Dagan Kana naim = دجان الكنعاني ، وکنانیم هنا هو اسم ارض کنعان ، تقاربها في العربية كنانة .

اسم الآله يكتب كما يلي : دجان کنناوم = Dagan Kananaum = دجان الكنعاني ، لان کنناوم هنا صفة تتبع الموصوف . أما دجان کننائیم Dagan Kananaim فتعني دجان کنعان (مضاف ومضاف اليه) (١٠) . أما بالنسبة للتقارب ما بين كلمتي کنعان وکنانة في العربية فلست ادري ما هي البراهين الدالة على ذلك ، ولعل التقارب اللفظي وحده هو الاساس الذي استندت اليه الباحثة .

الضمائر الشخصية المتصلة : انتم في لغة ابلا هي an - tá-nu وليس amanu (١١) .

الضمائر الشخصية المتصلة (ص ١٧١) على نوعين :

أ - مع الاسماء : مع ضمير المتكلم المفرد كما في المثال : طوبي دالو = Tubi-Dalu (الآله) دالو خيرى ، طيبي .

ni و na مع ضمير المتكلم في الجمع كما في المثال : ريثينا ادا = راعينا ادد (هدد) = (Ri-i-na é-da (Re 'ina - Hadda) ، خادمنا = ابدوني = Ebduni Su : لاحقة المفرد المذكر الغائب وتكتب SUD-su

ب - مع الافعال : ni : للمفرد والجمع مثل : ابيني - ليم = I-bi-ni-li-im الآله ليم دعاني ، او دعانا ، ايطورني Ip-tur - ni اعتقني او اعتقنا (١٢) .

ومن الضمائر الشخصية المتصلة المعروفة في لغة ابلا (كا) Ka - - ، كما في : ama-gal-Ka = امك . اسم الامم كتب هنا بالسومرية واضيف اليه الضمير المتصل (كا) للمخاطب المفرد المذكر (١٣) .

أداة الإشارة المعروفة حتى الان في لغة ابلا هي اميوم ammium = ذاك . هذه الاداة تشبه الاداة أنيوم annium = هذا ، التي ترد في اللهجة الاشورية القديمة منذ بداية الالف الثاني قبل الميلاد (١٤) . اما في البابلية القديمة فهي أنوم annum = هذا ، وللمؤنث انيتو (م) anni tu (m) (١٥) .

أداة الاستفهام : في لغة ابلا هي في mi = من ، مثل : مي - كا - ال mi-ka-il = من مثل (الآله) إل ، وليس « من يحب إل » ، كما جاء في المقال .

مي $=mi$ من موجودة ايضا في العبرية والاورجارية والفينيقية ولغة ماري
 ما قبل الصارجونية ، وتحول هذه الاداة الى $=man$ من ، في الاكادية القديمة
 والامورية والعربية (١٦) . وهناك اداة استفهام ثانية هي مينو $mi-nu$ (١٧) ، ربما
 كانت مماثلة ل مينو (م) $minu (m)$ = ماذا ، الاكادية (١٨) . بالاضافة الى ذلك هناك
 ادوات اخرى هي مينو ما $mi-nu-ma$ وميناناما (او ميناماما) $=me-na-na-ma$
 $(mi-na-ma-ma)$ اي شيء ، وتستخدم للنكرة والشيء غير المحدد (١٩) .

في الصفحة ١٧٢ يرد : « ميكا ال $Mika-il$ = من مثله » والصحيح ان مي - كال =
 من مثل إل . والامر نفسه يتكرر في بداية الصفحة ١٧٤ .

اداة الجر : اش - دا $as-da$ ($as-tu$) = من ، مع ، لها صلة مع $istê$ =
 مع ، من ، الاكادية الصارجونية ، ومع إشنو (م) ، $istu(m)$ = من ، منذ ، عندما ،
 بعد ، الاكادية (٢٠) .

في الصفحة ١٧٤ يرد مايلى : « فكلمة عبد في الابلائية والاكادية تأخذ حرفين
 (الالف والعين) اي تكتب ابدو $abdu$ وعبدو $ebdu$ » .

هذا يصح فقط على الابلائية ، اما الاكادية فتعرف تسمية اخرى للعبد هي
 (و) اردو (م) $(w) ardu (m)$ (٢١)

وما ذكر في نهاية المقال : « نستطيع القول بأن الابلائية .. تفرعت عنها لغة
 ماري في احد الايام ... » يدخل ضمن الافتراضات التي لا تستند الى دلائل وبراهين
 كافية .

د. عيسى مرعي

تنويه :

وردنا من السيد درويش احمد (وزارة التربية - الوسائل التعليمية) ملاحظات
 لا تخرج عما جاء في هذا البحث ، نعتذر عن نشرها تحاشيا للتكرار ، فشكرا له .

الهوامش :

- (١) وقع اللبس في الامثلة المذكورة من قراءة حرف **ج** ، في حين ان لفظ الحرف هنا هو **ي** (كحرف مستقل يوت) كما في اللغة الالمانية . ولقد استخدم هذا الحرف في محاولة لتوضيح اللفظ للقارئ . أما في الكتابة المقطعية للأفعال المذكورة وغيرها والتي نقلها جلب عن بيتيناتو فيرد الحرف **أ** في بداية الأفعال .
- (٢) G, Pettinato, *The Archives of Ebla , An Empire Inscribed in Clay ,* Garden City' New York 1981 , P. 64.
- (٣) I. J. Gelb, *Thoughts About Ibla : Apreliminary Evaluation*, March 1977, in: *syro- Mesopotamian Studies* . 1/1 (May 1977), P. 22.
- (٤) W. V. Soden, *Akkadisches Handwörterbuch* , S.810
(AHw) سنذكر اسم هذا القاموس مختصرا :
- (٥) AHw, 701 a .
- (٦) AHw . 849 a.
- (٧) Gelb , P. 22.
- (٨) AHw, 580.
- (٩) Geld' P. 18. ff; Pettinato, P. 62.
- (١٠) Gelb, P. 19.
- (١١) ibid .; Pettinato, P. 62.
- (١٢) Gelb, P. 20 ; Pettinato ,P. 63.
- (١٣) Pettinato, P. 63.
- (١٤) Gelb. P. 20.
- (١٥) AHw. 53 b; W.V. Saden. *Grundriss der Akkadischen Grammatik*, Roma 1969, 45 a.
- (١٦) Gelb, P. 21.
- (١٧) Pettinato , P. 63.
- (١٨) AHw, 655b.
- (١٩) Gelb, P. 21, Pettinato, P. 63.
- (٢٠) Geld . P. 23, AHw, 401 b ff; Pettinato. P. 63.
- (٢١) AHw. 1464b.

الدراسات العليا

الحياة السياسية في نيابة الجزائر إبان عصر الدايات ثورة ابن الشريف الدرقاوي ضد الاتراك (في مطلع القرن التاسع عشر)

الفصل الأول

مقدمة :

استهل القرن التاسع عشر باندلاع أكبر وأخطر ثورة شعبية على الاتراك منذ مجيئهم الى نيابة الجزائر ، الا وهي ثورة الطريقة الدرقاوية ، احدى فروع الطريقة الشاذلية ، وقد تزامن انتشار لهيب هذه الثورة مع تفاقم الوضع السياسي والاقتصادي لحكومة الدايات ، لهذا كان تهديدها خطيرا وكبيرا ، مما جعل رد فعل الاتراك عليها عنيفا وقاسيا ، خاصة اذ عرفنا ان اتباع هذه الطريقة لم يدخروا وسعا بمهاجمتهم لأول مرة في عقر دارهم وعلى مختلف الجبهات ، ولم يستطيعوا القضاء عليها ، رغم الامكانات المادية التي جندوها الا بعد مرور عشر سنوات على اندلاعها ، وذلك بسبب اتساع المساحة التي غطتها ، ولا تختلف هذه الثورة عن الثورات السابقة التي قامت على الوجود التركي ، والتي تميزت بالجهوية والمحدودية ، بسبب قوة روح العصبية، باعتبار ان زعماءها كانوا رجال قبائل ، مما افقدها عنصر الشمولية وجعلها لا تشكل خطرا كبيرا على خلفاء خير الدين ، الذين افلحوا في استغلال روح العصبية وزرع روح التنافر والخلاف بين القبائل ، واستطاعوا بذلك ان يحافظوا على امنهم ووجودهم . لكن الشيء الجديد في هذه الثورة هو ان زعماءها وقادتها كانوا من رجال الطرق الصوفية الذين كانوا قبل هذا التاريخ حلفاء الاتراك وانصارهم ،

لهذا اتخذت هذه الثورة صفتها الشعبية الواسعة بمؤازرة هذه الشريحة الاجتماعية التي كانت تتمتع بنفوذ روحي ومادي في المجتمع الجزائري في تلك الحقبة من التاريخ .

وهنا يطرح نفسه السؤال التالي : ما الاسباب التي دفعت برجال الطرق الصوفية الى الانتقال من صف المدافعين عن الاتراك الى صف الرعية والدفاع عن مصالحها في وجه الحكام الاتراك ؟ قبل ان نجيب على هذا السؤال تجدر الاشارة الى ان الاتراك استغلوا النفوذ السياسي والديني الذي كان يتمتع به رجال الطرق الصوفية في المجتمع ، فتقربوا منهم واعتمدوا عليهم في بسط سيطرتهم على الجزائر ، وكسر شوكة القوى السياسية التي حاولت الوفاق في وجههم . وبذلك اصبح رجال الطرق الصوفية القوة الثانية بعد الاتراك ، مما جعل هؤلاء يمنحونهم الكثير من الامتيازات الاقتصادية وعلى رأسها جباية الضرائب في كثير من مناطق النيابة ، بالإضافة الى تخصيص جزء من الارباح التي كانت تدرها القرصنة البحرية ، كما كانوا يستفيدون من الهدايا الاعتيادية في المناسبات الدينية والاعياد ، ومن هذا المنطلق اسند لهم دور الوساطة بين الاهالي والحكومة التركية (١) .

ولكن هذه العلاقة الحميمة بين الطرفين لم تدم طويلا ، فظهرت بوادر التنازع بينهما منذ نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر بسبب التحول الاقتصادي الذي شهدته الجزائر والمرتبط بنضوب موارد القرصنة التي كان يعتمد عليها الاتراك في تدعيم نفوذهم وسيطرتهم فيها ، وبسبب خلو النيابة من موارد اقتصادية كافية لتلبية احتياجات الحكومة التركية المالية للمحافظة على استقرارها والحيولة دون ثورة الجند ، ولم يجد الانراك وسيلة لتوفير المال الا بمضاعفة الضرائب على الاهالي وتجريد الحملات العسكرية المتتالية لارغامهم على الدفع (٢) . وقد اثارت هذه الحملات حفيظة المرابطين الذين لم يستطيعوا أن ينفوا مكتوفي الايدي امام الشكاوى المقدمة اليهم من ضحايا جشع البايات من الاهالي ، بالإضافة الى ان مصالح رجال الطرق الصوفية تضررت من جراء هذا التحول الاقتصادي فتقلصت امتيازاتهم السابقة ، وتغيرت نظرة الاتراك اليهم بعد التطور الذي شهدته الطرق الصوفية ذات المنشأ المغربي في الناحية القريبة من النيابة ، والذي ترتب عليه تمتين العلاقات مع المغرب الأقصى .

فساد النظام التركي:

كانت نتيجة افتقار الاتراك لقاعدة شعبية تساندتهم وتؤازرهم ، ان انطبعت نظرهم للاهالي بالحيطة والحذر، والخوف من انفلات السلطة من بين ايديهم ، واصبحت كل المناصب العالية والرتب القيمة مقصورة عليهم ، اما بقية طبقات المجتمع فكانت ذليلة . وحتى القوانين والتشريعات التي سنوها ، لم تكن عادلة بل مجحفة وقاسية (٣) .

ورغم ان الاتراك كان بإمكانهم استغلالهم الخطوة التي يتمتعون بها لدى الاوساط الشعبية في بداية مجيئهم لكسبها الى جانبهم ، الا ان شيئا من هذا القبيل لم يحصل ، بل اقاموا بينهم وبين الشعب حاجزا من الوسطاء واعتبروا انفسهم دائما الاسياد وحكموا البلاد باستبداد مشابه لاستبداد امراء الجمهوريات الايطالية (٤) .

وحاول الاتراك الاعتماد على فكرة التضامن الاسلامي لترسيخ نفوذهم لدى مختلف الاوساط الشعبية ، بالتقرب الى المرابطين وشيوخ الزوايا ، ومصاهرتهم ومنحهم الامتيازات ، الا انهم اخفقوا في خلق اطار طبيعي للاتصال بالرعية بهذه الوسائل ، وسرعان ما شكلوا ارسنقراطية جديدة ذات نظرة مغلقة مبنية على اصول عنصرية ، احتكرت وحدها السلطتين السياسية والاقتصادية (٥) .

وقد تفسر هذه السطحية بعجز الدولة بانظمتها وأدواتها عن بسط حكمها ، لان هذه الادوات والانظمة في واقع الامر كانت أدوات حرب اكثر منها أدوات حكم (٦) . ولنا في الشعر الشعبي شواهد كثيرة تدل على المعاناة من الفساد والضغط الذين كانا مسيطرين على السكان من جراء فساد نظام الاتراك ، كقول احدهم :

عاتوا عتوا على الخلق وجاروا فكانوا اكثر العباد وباروا
فرفع الكل الاكف ودعموا بما به اجاب الله ورجوا (٧)

اما الزياتي ، وهو من المؤرخين المقربين للسلطة التركية ، فيقول عنهم « . . واعلم ان الاتراك ، لما تمهد لهم الملك بالجزائر ، كثر ظلمهم وفسادهم ، بحيث لا يليق ان يذكر ما كانوا منه من الظلم والمناكر وتواتر ذلك على اللسان بغاية التواتر ، فاشتغلت العلماء من ذلك في نظمهم ، وسألت الناس ان يزيل عنهم ما حل من ظلمهم . . » (٨) .

من خلال هذه النظرة الموجزة نلاحظ ان النظام التركي كان منذ بدايته يسير بسرعة الى الانهيار السياسي والاجتماعي والاقتصادي ، لانه اعتمد في اساسه على القوة العسكرية وحكام لا تربطهم اية روابط طبيعية بالبلد والسكان ، وهذا مادفعهم لان يتجاوزوا حدود سلطتهم القانونية « ويرتكبوا الفضائح ويمارسوا الظلم والقسوة تجاه الرعايا والاعيان » (٩) .

وقد وصل فساد النظام التركي الى اقصاه في عهد الدايات (١٦٧١ - ١٨٣٠) وهي الفترة السياسية التي اشتدت فيها حدة الثورات الشعبية على الوجود التركي في نيابة الجزائر ، وتجسدت اول ظاهرة من ظواهر الفساد في هذا النظام بانحطاط سوية الدايات الاجتماعية . ونستدل على ذلك من قول احدهم وهو يخاطب احد الدبلوماسيين الفرنسيين بقوله « . . انا رئيس عصاة من السراق ، ومهنتي هي ان

أخذ وليس ان اعطي . . » (١٠) . فهدف هؤلاء الدايات كان الاستبداد بالسلطة وجمع الاموال ، وليس الرقي والازدهار الحضاري ، لان غالبيتهم من بيئات منحطة في الاناضول ، توصلوا لرتبة الدايات بعد ان مارسوا عدة اعمال ووظائف بسيطة في مدينة الجزائر ، فمنهم من كان اسكافيا او حمالا او حارسا او كناسا (١١) . ووصلوا الى السلطة في ظروف غير طبيعية ، منها على سبيل المثال دعم اغنياء اليهود (بوشناخ) . اما الظاهرة الثانية من ظواهر الفساد فهي الاسراف والتبذير والرشوة ، وهذه الصفة الذميمة جعلت الكثير من الدايات لا يتورعون من بيع ذممهم لليهود والاجانب من الاوربيين مقابل الكماليات البسيطة (١٢) . وبذلك يكون الدايات قد تركوا مقاليد امور الدولة وشؤونها الى مجموعة من الضباط والموظفين واليهود والاجانب ينهبون خيرات البلاد وثرواتها (١٣) ، فتحولت مهمة حكومتهم الى ملء الخزينة العامة بالاموال لتنتقل فيما بعد الى حاشيتهم لتدعيم النظام والمحافظة عليه ، حتى ان النيابة على تعبير بن شنهو « اصبحت في عهد الدايات عبارة عن قطعة من الحلوى كل موظف يأخذ منها حسب ما يخوله منصبه . . » (١٤) .

ولم يبذل الدايات جهدا في علاقتهم مع سكان النيابة نحو الاحسن والامثل ، فلم تكن تربطهم بالبلد اية اواصر او روابط من شأنها ان تجعلهم حريصين على سمعة النيابة سوى الجانب المالي ، وكان هذا احد اسباب الثورة .

السياسة العربية :

أخذت حكومة الاتراك ، في اواخر القرن الثامن عشر واول القرن التاسع عشر ، تفقد بالتدريج صفتها البحرية التي اتسمت بها منذ تاريخ تأسيسها ، ليزداد ارتباطها واهتمامها بالارض ، اي بالموارد الداخلية . لكن هذا الاهتمام بالشؤون الداخلية للنيابة كانت نتائجه وخيمة على السكان وعلى مستقبل الاتراك في الجزائر ، لان هذا التحول السريع من سياسة الى سياسة لم يعتمد على خطة مدروسة مسبقا تمتص الردود الشعبية عليها ، باعتباره يمس اوسع طبقة اجتماعية هي طبقة الفلاحين التي كانت تشكل الاغلبية والعمود الفقري الذي يعتمد عليه اقتصاد النيابة . هذا بالاضافة الى ان دور الاتراك في تطوير البنية الاقتصادية لنيابة الجزائر كان سلبيا ، فلم يسهموا اسهاما محسوسا وجديا في انفاق رؤوس الاموال التي جمعوها من القرصنة في تحسين احوال البلاد ورفع مستواها الاقتصادي ، يكون كفيلا بتخفيف الاثار السلبية التي تركها هذا التحول ، لهذا بقيت الجزائر تحتل مرتبة ثانوية اذا ما قورنت بتونس او طرابلس او بعض البلاد المشرقية (١٥) .

ورغم تنوع الثروات والموارد الطبيعية ، فان الحياة الاقتصادية في بداية القرن التاسع عشر كانت متدهورة وتعاني من عدة مشاكل وصعوبات عاقت تطورها

وازدهارها . ويأتي على رأس هذه العوائق طبيعة النظام التركيبي ذي الاصول القطاعية ، فضلا عن الاساليب العتيقة المستخدمة في الميدان الزراعي والصناعي والتجاري ، واحتكار الحكومة لهذه الأنشطة (١٦) ، والحيلولة دون نشوء بورجوازية وطنية تقوم بتنشيط الحياة الاقتصادية والاستعاضة عنها بالتجار الاجانب ، بخاصة من اليهود والفرنسيين ، الذين اصبحوا يتصرفون في النيابة وكأنها مستعمرة (١٧) . وعامل اخر كان وراء تدهور الحياة الاقتصادية وهو موجات الاوبئة والأمراض والمجاعات التي كانت تجتاح البلاد في فترات متلاحقة تكاد تكون غير منقطعة .

امام هذه الاوضاع الاقتصادية المتدهورة راح الدايات يطالبون البايات بموارد اقتصادية بديلة لتغطية النقص المفاجيء الذي سببه ضعف القرصنة ، فما كان من هؤلاء الا مضاعفة استغلالهم لمناطقهم بدقة وبمضاعفة الحملات العسكرية على القبائل لارغامها على دفع الضرائب لادارة حكومة الدايات (١٨) . ويجمع المؤرخون ، ان التوسع الذي شهدته النيابة ، في نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر ، في تنويع الضرائب دون الاعتماد على مصادر اقتصادية اخرى ، ادى الى جعل الحكومة التركية اداة استهلاك تعيش على ما يدره عليها الجهاز الضريبي ، دون السعي الى تنمية مرافق الدولة الاقتصادية ، فكل ما كانت تنتجه النيابة من موارد يذهب بشكل مرتبات وجرايات للمؤسسة العسكرية وموظفيها . وكانت عملية جباية هذه الضرائب تتم تحت الضغط والارهاب في اغلب الاحيان ، مما دفع الحكام الاتراك الى تجهيز الحملات العسكرية (١٩) لتأديب الثوار وارغامهم على الدفع لدى اية بادرة مقاومة او تهرب من دفع المبالغ المالية المستحقة عليهم ، مما زاد في الهوة بين الطرفين .

واحست الفئات الاجتماعية المحرومة ، وعلى رأسها الفلاحون ، ان كل مجهوداتها موجهة الى خدمة الغير ، وتوفير الرفاهية للطبقة التركية دون التمتع باية حقوق مقابل ذلك ، فرفضت هذه الاجراءات الجديدة واعتبرتها تعسفا وجورا عليها تستوجب محاربتها .

لذلك يمكن اعتبار هذه الثورة ، كبقية الثورات ، رد فعل من جانب السكان على التصرفات الجائرة الناتجة عن الاجراءات المالية التي مارسها البايات والدايات . وكان لازدياد الضغط المالي على الارياق اثار وخيمة ، اذ ارهق كاهل الفلاحين بكثرة الضرائب ، وقد عبرت لنا شهادات المؤرخين المعاصرين والاشعار الشعبية عن مدى ما كان يقاسيه ويعانيه الفرد الجزائري من جراء ثقل الضرائب ، وحرق المحاصيل الزراعية ونهب الاملاك ومصادرة قطعان الماشية (٢٠) .

وفي المنطقة الغربية ، وهي مركز رئيس للطرق الصوفية وبخاصة ذات الاصول المغربية ، كما كانت منطلقا لخطر الثورات ضد الاتراك في الربع الاول من القرن التاسع

عشر (الدرقاوية والتيجانية) ، كان الوجود التركي قويا ممثلا بالحامية التركية والقولوغلى وقبائل المخزن ، وبالرغم من اساليب الاتراك التعسفية كان السكان يتحملون ذلك على مضض بسبب وجود الاسبان في وهران . ولكن تحرير وهران ١٧٩٢ ازال المبرر الرئيسي لهذا الوجود التركي الثقيل ولتحمل السكان لاذاه .

الدور المغربي :

لما عجز الاتراك عن قمع الثورة بعد ان لجؤوا الى جمع الوسائل لخمادها ، خاطبوا ملك المغرب « مولاي سليمان » ، ورجوه ارسال شيخ الطريقة « مولاي العربي الدرقاوي » لتهدئة الثوار (٢١) . واعتمادا على الرسائل التي تبودلت بين شيخ الطريقة والسلطان المغربي ، نستنتج ذلك الدور الرئيسي الذي اضلع به هذا الامير في اثارة هذه الثورة ضد دايات الجزائر . ويظهر من هذه الرسائل ان السلطان كان على استعداد كامل للتدخل عسكريا في المنطقة الغربية من النيابة ، وذلك لتحقيق الاهداف التقليدية لسلطين المغرب .

وحسب الرسائل نفسها ، يبدو ان الذي عاق السلطان عن تحقيق هذا الهدف كان الظروف الطبيعية وانه كان راضيا عن الخطوات التي قام بها الشيخ مولاي العربي الدرقاوي ، وعلى راسها البيعة التي كتبها سكان مدينة تلمسان للسلطان المغربي (٢٢) .

ورغم ما اوردناه عن تورط السلطان مولاي سليمان في هذه الثورة ، ينفي المؤرخون المغاربة تورط مولاي سليمان في احداث الثورة ومجرياتها ، ويجمعون على راي واحد وهو ان السلطان ، لما قدم عليه الوفد الجزائري ليقدم له البيعة ، اقتصر دوره فقط على تحقيق المصالحة بين الرعية والاتراك ، وبذلك يكون قد سلك مسلكا هو ارفق بالجميع ، الاتراك والاهالي .

ولكن الاحداث التاريخية تؤيد ما ذهبنا اليه ، وهو تورطه في هذه الثورة وذلك ردا على تدخل الاتراك في احداث ثورتي « محمد بن عبد السلام » و « زينان في الريف » (٢٥) . الا ان هذا الموقف التاييدي للثورة لم يستمر طويلا ، اذ ادرك السلطان ان ميزان القوى بدا يتحول لصالح الاتراك بعد ان استطاعوا كسر الطوق الذي فرضه ابن الشريف على مدينة وهران . فأمام المنعطف الجديد الذي وصلت اليه الثورة ، والذي لم يكن واردا في حسابات السلطان ، وبسبب ضعف المغرب الذي انهكته الحروب الاهلية في القرن الثامن عشر ، لم يجد السلطان مخرجا الا انكار رسوله الذي ارسله الى الثوار ، بل وسارع في ارسال رسول جديد الى مدينة تلمسان ، لا عادة لاوضاع الى ما كانت عليه سابقا ، وشجب تصرفات شيخه ومقدمه « ابن الشريف » (٢٦) .

كان سلاطين المغرب الأقصى حجر عثرة امام التوسع التركي في الناحية الغربية من النيابية ، وظل هذا دأبهم حتى زوال حكم الاتراك في الجزائر . وعلى الرغم من ذلك حاول الاتراك عدة مرات خرق هذا السد المنيع ، الا انهم أخفقوا . وقد رفض المغاربة ، عند دخول الاتراك الى منطقة الشمال الافريقي ، ادعاءهم السيادة على العالم العربي والاسلامي . وقد بدا للمغرب في عهد بعض سلاطينه العظام ، طموح في ضم الجزائر وتونس وتحقيق امبراطورية الموحدين ، وهذا ما يشير اليه المؤرخ المغربي في كتابه (النفحة المسكية) بقوله : « والعثمانيون انما عملوا الامارة وقادوا الامر في الحقيقة نيابة وامانة يؤدونها الى من هو احق بها وأهلها ، وهم موالينا وساداتنا الشرفاء ملوك بلاد المغرب » (٢٧) .

ولتحقيق هذا الطموح السياسي ، اعتمدت سياسة المغرب داخل الاراضي على الطرق الصوفية . وكانت مراكزها تشكل خطا يمتد من فاس الى تلمسان وتونس ، مرورا بالواحات ، وكانت زوايا هذه الطرق على اتصال فيما بينها ، تنقل الاخبار الى داخل النياية ، واءاء الشيوخ من فاس والرباط . وقد استغل المغاربة الهجمات الاوربية على النياية ، والصراعات السياسية داخل النظام التركي ، لبسط سيادتهم على اجزاء منها ، لكن عدم قدرتهم على المواجهة العسكرية مع الجيش التركي جعلتهم لا يتمسكون طويلا بهذه المناطق .

لهذا اعتمد سلاطين المغرب سياسة الاقلال من هبة النياية والبحث عن حلفاء لابادتها ، ولما كان المغرب قد لعب دورا اساسيا وفعالا في ثورة الطريقة الدرقاية ، بتشجيع الثائر ابن الشريف وكل المناهضين للاتراك من الجزائريين ، واعانتهم بالمال والسلاح ، فسنحاول ان نلخص هذا الدور بايجاز .

التعريف بابن الشريف : تزعم هذه الثورة في الناحية الغربية محمد بن عبد القادر بن الشريف الفلتي ، ويعود اصله الى قبيلة بربرية هي كسانة المقيمة على ضفاف وادي العبد في ضواحي سهل « غريس » القريب من مدينة معسكر . تعلم مبادئ اللغة العربية في مسقط راسه في قرية اولاد بالليل ، ثم التحق بزاوية القيطنة التابعة للطريقة القادرية ، التي كانت تحت امره الشيخ محي الدين ، والد الامير عبد القادر الجزائري ، حيث نبث فيها مدة من الزمن ، وبعدها سافر الى زاوية بوبريج في المغرب الأقصى ، وهناك اتصل بمولاي عبد الله محمد الدرقاوي ، الذي لقنه مبادئ الطريقة الدرقاوية واجازه فعاد الى قريته وفيها اسس زاوية لتلقين الناس اورد الطريقة . ويظهر ان هذه المهمة قد اسندت اليه من طرف شيخه ، الذي عينه مقدما للطريقة في الناحية الغربية من النياية (٢٧) .

لقي ابن الشريف التأييد الواسع من جميع القبائل الصحراوية التي صارت ، كما يقول احدهم « . . كلها شهتته تهدي اليه الهدايا وتعطي العطايا » (٢٨) . واثناء لقاءاته

مع مختلف القبائل كانت تشكو اليه ما يصيبها من ارهاق بسبب ما يفرضه عليها الاتراك من مفارم وضرائب ، فكان ابن الشريف « يمنيهم بالفرج القريب » . ويقال ، حسب الروايات المعاصرة التي رجعنا اليها ، ان ابن الشريف كان قد طرح فكرة اعلان الثورة على الاتراك في اول لقاء له مع شيخه مولاي العربي الدرقاوي الذي استحسنها . ويظهر ان الشيخ كان على علم بالمضايقات التي كان يمارسها رجالات الحكومة التركية على تحركات افراد الطريقة الدرقاوية ، وعلى راسهم مقدمها ابن الشريف ، الذي فر الى الجنوب بعيدا عن متابعات البايات وجواسيسهم . ومن هناك انتقل الى فاس حيث لقي شيخه في قرية بني زروال ، فاشتكى له ما لحق به وبمريديه من جور الاتراك . وقد نقل الينا الزياتي الحوار الذي دار بين الطرفين « ياسيدي ان بوطننا قوما يقال لهم الترك لا شيء لهم من دعائم الاسلام ، ويظلمون الناس ولا يعبؤون بالعلماء والاولياء ، نسأل منك ان يكون هلاكهم على يدك لتستريح منهم العباد وتظهر منهم البلاد ، فقال له شيخه عليك بجهادهم وقتالهم ، وان الله ينصرك عليهم بكمالهم » (٢٩) .

مراحل الثورة :

استفرت عملية الاستعداد وجمع اكبر عدد ممكن من الانصار مدة خمس سنوات (١٨٠٠ - ١٨٠٥) ، واستغل ابن الشريف فرصة هزيمة احدى الحملات التركية امام قبائل الانجاد ليعلن الثورة . وهذه الحادثة التاريخية التي يجمع المؤرخون على اعتبارها فتيل الثورة كانت اول هزيمة عسكرية تهزم فيها قبائل المخزن ، حلفاء الاتراك منذ زمن بعيد (٣٠) .

كانت اولى مراحل للثورة الاذن الذي اعطاه ابن الشريف لاتباعه بنهب اموال وممتلكات هذه القبائل وملاحقتهم اينما كانوا . وقد وصلت اثناء انتصاراته الى وهران عاصمة البايليك ، فقام الباي مصطفى العجمي (١٨٠٥ / ١٨٠٩) ، بتجهيز جيش كبير واتجه به الى ابن الشريف ، الذي كان قد عسكر بجيشه على ضفاف وادي مينة (٣١) ، والتقى الطرفان بقرية فرطاسة ، وكان ذلك ربيع الاول ١٢١٩ / ١٨٠٥ ، حيث دارت اشرس معركة بين الجيش الانكشاري ، تعاضده قبائل المخزن ، والثوار . ودارت الدائرة على الجيش التركي وفر الباي بعد ان تفرق جيشه حتى قال احد المؤرخين المعاصرين يصف هذه المعركة ونتيجتها : « فأمسى الباي ومخزنه في نكد واصبح الدرقاوي واتباعه في رغد » (٣٢) .

وتتبع جيش الثوار الفلول المنسحبة من الجيش التركي حتى اسوار مدينة معسكر ، ولم ينتظر ابن الشريف وصول النجدات من مدينة وهران الى الجيش التركي الذي تحصن بالمدينة ، فقرر دخولها بالقوة ، ولم تصمد المدينة كثيرا فاستسلمت له .

جعل ابن الشريف مدينة معسكر مقرا لاقامته هو واسرته وقاعدة حربية لجيشه، ومنها راح يوجه نداءاته الى كل القبائل لتعلن الجهاد والحرب على الاتراك وادواتهم من قبائل المخزن ويهدد كل رافض لدعوته بالويل والثبور . كذلك دعا القبائل الى مبايعته قائلا لهم في احدى هذه النداءات : « انا نزعنا عنكم ما كنتم فيه من اداء الجزية ، التي هي حرام على المسلم وقطعنا دابر الاتراك واتباعهم ، فالواجب مبايعتنا بالجهاد معنا . . » (٣٣) . وقد وجدت نداءاته هذه تجاوبا كبيرا من الرعية في الناحية الغربية والوسطى ، ولم يقتصر انضمام القبائل على الخاضعين لسيطرة الاتراك ، بل تعدى ذلك الى القبائل المخزنية حليفة الاتراك مثل قبيلة الحشم ، والزمالة والدواير (٣٤) .

وبسرعة فائقة امتد لهيب الثورة ليشمل كل القبائل الجزائرية الواقعة ما بين مدينة مليانة (الوسط الجزائري) ووجدة على الحدود المغربية . وامام هذا المد السريع بدأت الحاميات التركية تندحر وانسحب اغلبها الى المدن الساحلية لتحتمي بأسوارها من الغضب الشعبي ، وانقطعت كل الاتصالات مع مدينة الجزائر ، ولم يبق الا البحر المنفذ الوحيد الذي يتم عن طريقه تموين مدينة وهران ، التي سارع ابن الشريف الى ضرب الحصار عليها (٣٥) .

يقول صاحب التحفة : « . . ان باشا الجزائر حاول تجهيز جيش بقيادة مستشاره علي اغا لنجدة المدينة المحاصرة ، لكن القبائل الشائرة اعترضت طريقه والحقت به خسائر فادحة ومنعوه من المرور في بلادهم وكاد جيشه ان يهلك عن اخره بعد ان قطعت عليه القبائل ورود الماء لولا استنجاهه باحد المرابطين في مدينة العطاف (٣٦) . كذلك سارت الامور في غير صالح الاتراك بعد انسحاب الحامية التركية من مدينة تلمسان ومحاصرة الكراغلة في قلعة المدينة ، مما جعل منها مدينة شبه مستقلة .

اسباب فشل الثورة :

تسببت عدة عوامل في فشل ابن الشريف وجيشه في اقتحام مدينة وهران التي حاصرها مدة ثمانية اشهر مع ان الظروف مواتية ، وخاصة بعد ان تم القضاء على اغلب الحاميات التركية وتشنت جيش الباي في معركة فرطاسة . من هذه العوامل قوة اسوار المدينة وعدم قدرة محاصريها من ايجاد منفذ للتسلل الى داخلها ، لقلة الوسائل وضعف العتاد ، ثم عدم تجاوب سكان المدينة مع دعوة ابن الشريف القيام ضد الاتراك رغم ان القوة التركية المدافعة عن المدينة كانت قليلة العدد (٣٧) . وهذا الاحجام الذي بدر من سكان المدينة وعدم تجاوبهم مع الشوار يرجع الى الاعمال التخريبية التي رافقت هذا الحصار والتي كان يرتبها جيش « ابن الشريف » تجاه

قبائل المخزن واملاكهم ، وهذا ما قضى على التجاوب بين الثوار والطبقة الحضرية المقيمة في المدن وضواحيها .

وقد استغل الاتراك ، هذا الشرخ بين سكان الارياف وسكان المدن احسن استغلال بتأليب هؤلاء على اولئك . ولهذه الاعتبارات اخذ الاتراك شيئا فشيئا يسيطرون على الوضع لكنهم لم يتمكنوا من القضاء على المراكز الثائرة الا في المدن الساحلية(٢٨) .

حدث هذا التحول لصالح الاتراك بعد ان عين داي الجزائر الباي محمد المقلش الذي رجح كفة الميزان لصالح الحكومة ، اذ رافقت هذا الباي قوة من الانكشارية قدرت ب ١١٠٠ رجل (٢٩)، وبما ان الطريق البري كان مقطوعا فان هذه القوة من الجنود اتخذت البحر لدخول المدينة المعاصرة ، وكان اول اجراء قام به الباي الجديد هو فتح ابواب المدينة واعادة الحياة الطبيعية الى مجراها ، ثم التصدي للثوار .

ويظهر ان الملل والسام قد تمكنا من معنويات الثوار فاثروا الانسحاب الى الداخل ، لتبدأ سلسلة طويلة من المعارك كلفت الجانب التركي الكثير وادخلت المنطقة في مرحلة من الفوضى السياسية والاقتصادية لم تنته الا بعد سقوط مدينة وهران بيد الفرنسيين . فبعد ان تحقق الاتراك بانه ليس هناك ادنى شك في مناصرة سلطان المغرب للثورة ، عمد هذا الباي الى الوسائل الدبلوماسية واستعمال الدهاء السياسي لاتقاء شر الدولة المغربية ، والى اشد انواع القمع والارهاب ضد الثوار(٤٠) ، فعمل على التقرب الى القبائل ذات الصلة بالثورة والتي كانت تتمتع بنفوذ في المنطقة بمصاهرة قبيلة الحشم ، وكانت من الداعاء الاتراك ، والدافع الذي دفعها الى الارتقاء في احضان الاتراك والاتفاق معهم هو التخوف من القاعدة الشعبية المؤيدة للطريقة الدرقاوية ، التي بدأت تلقى تجاوبا شعبيا واسعا ، وخاصة اذ عرفنا ان هذه القبيلة تتزعمها الطريقة القادرية بقيادة الشيخ محي الدين والد الامير عبد القادر، والتي لا ترضى بمنافسة طريقة اخرى لها على القبائل . ويشير صاحب « التحفة » خلال تطرقه الى ابن الشريف الى الاختلاف الذي حدث بين ابن الشريف والشيخ محي الدين(١٤) .

لكن المصادر المحلية لا تشير الى ظهور صراع بين الطريقتين لاكتساب الانصار والمؤيدين ، الا انه يظهر ان شيخ الطريقة القادرية لم ينس الحادثة واراد الانتقام من ابن الشريف ، فاعز الى قبيلته بالوقوف الى جانب الاتراك . والمعروف كذلك ان الطريقة القادرية كانت على علاقة طيبة بالاتراك منذ دخول هؤلاء الى الجزائر ، والذين استخدموها كمنافس للطريقة الشاذلية الموالية للمغرب . وبهذا تكون الدسياسة التركية قد لعبت دورها في زرع التفرقة بين الطرفين .

وكانت النتيجة ان الثوار بدأ يتراجعون عن المواقع التي كانوا قد احتلوها سابقا. وذلك بعد سلسلة كثيرة من المعارك والاصطدامات ، ومن اهم هذه المعارك معركة اولاد زائر التي خسر فيها الثوار ، حسب المصادر المحلية ، « ستمائة راس ، بعثها الباي كلها الى داي الجزائر » (٤٢) . وفي اثناء هذه الاحداث انتقل ابن الشريف الى قبيلة الاحرار في الجنوب ، الا انه لم يجد المساعدة من جانب هذه القبائل ، فانتقل الى مدينة الاغواط حيث دخل في مفاوضات مع رجال الطريقة التيجانية للقيام ثانية على الاتراك ، لكنه فشل في مسعاه . وما زالت الاسباب التي منعت رجال هذه الطريقة ، من تلبية طلب ابن الشريف توحيد الجهود بينهما لاعلان الثورة غير واضحة ، رغم الضغوط التي كانت مسلطة على افراد الطريقة التيجانية من طرف رجال البايليك ، وعلى راسها المفارم السنوية التي كانوا ملزمين بدفعها .

فكان ان انتقل ابن الشريف الى قبيلة بني يزناسن على الحدود المغربية ، ومن هناك توارى عن مسرح الاحداث السياسية .

وقد اختلفت المصادر المحلية والاجنبية حول تحديد تاريخ ومكان وفاة ابن الشريف ويتفق صاحب « انيس الغريب والمسافر » وصاحب كتاب « دليل الحيران » ، على ان المقام استقر به عند قبائل بني يزناسن ، وهناك « ترك الفضول لعدم طاقته » (٤٣) أما المؤرخ الفرنسي Degrammont فيؤكد من جانبه ان ابن الشريف لقي مصرعه اثناء محاولته استعادة مدينة معسكر للمرة الثانية سنة ١٨٠٦ (٤٤) . اما السيدان Estharzy, Deneuve فيذكران ان ابن الشريف قد مات بوباء الطاعون في مدينة مسيردة ، لكن دون ذكر تاريخ الوفاة (٤٥) . وهذه الاختلافات في وجهات النظر بين هؤلاء المؤرخين مرجعها الفموض الذي احاط بالثورة الدرقاوية في تلك الفترة . والوحيد من المؤرخين الذي عارض فكرة موت ابن الشريف سنة ١٨٠٩ ، هو Noel ، الذي ذكر انه ظهر مرة ثانية سنة ١٨١٦ ، واثار القبائل الصحراوية ومن بينهم قبائل الاحرار واتجه بهم لمقاتلة الاتراك ، لكنه هزم وانسحب نهائيا الى واحة فقيق (٤٦) . وهذا ما ذهبت اليه احدى الوثائق التركية التي تبين ان الثورة استمرت حتى سنة ١٨١٦ ، فهي تشير الى الخسائر التي تكبدتها العساكر التركية وتلج على الاستانة للاسراع بارسال النجديات العسكرية لمواجهة هذا الثائر (٤٧) .

في النهاية ، لابد لنا من التساؤل ؟ هل كانت ثورة الطريقة الدرقاوية في الناحية الغربية من النيابة مجرد محاولة سياسية قام بها سلاطين المغرب الاقصى ، العدو التقليدي لاتراك الجزائر ، بواسطة اعوانهم ، لاختبار مدى قوة النظام التركي المجاور لهم بعد ان فشلوا في مواجهته عسكريا ، فحاولوا ان يفجروه من الداخل باثارة الفتن والاضطرابات عن طريق اغراء ابن الشريف بواسطة شيخه مولاي العربي الدرقاوي

للقيام بالثورة ، وبالتالي ارغام الاتراك على الاعتراف بالحقوق التاريخية للمغرب في
الجهة الغربية من النيابة . . ؟

لا ننفي ان الثورة استفادت من التأيد المعنوي والروحي من جهة المغرب ، لكن
المد السريع للثورة الذي وصلت تأثيراته حتى ضواحي دار السلطان ، مقر الحكومة
المركزية ، لا يمكن ان يفسر فقط بهذا السبب ، بل بذلك الحقد والعداء الذي خلقتة
تناقضات النظام التركي في نفوس السكان تجاه الطبقة التركية المتسلطة التي تسومهم
انواع الاضطهادات والقهر والاستغلال ، بفرض الضرائب وتجريد الحملات العسكرية
على الريف الجزائري . لهذا وجد السكان في شخصية ابن الشريف ، وامثاله من
الذين تزعموا ثورات القرن التاسع عشر ، متنفسا لهم ، يشكون اليهم مالحقهم من
تعسف واستبداد هذه الطبقة وادواتها الاخرى التي اغفلت شؤونهم الضرورية واهتمت
بالركض وراء السلطة وجمع الاموال وتسببت في ضياع موارد واملاك السكان ، وهذا
ما دفعهم الى الثورة ضد الاتراك .

ورغم ان هذه الثورات ، رفعت في اغلب الاحيان شعارات دينية وتستر وراء
مطالب قبلية ، الا انها في حقيقة امرها كانت تعبيرا صادقا عن سخط الرعية وعدم
رضاها على الاوضاع السياسية والاقتصادية التي كانت سائدة في عهد الحكام الاتراك .



حصل الباحث على شهادة الماجستير في التاريخ برسالته ((الثورات الشعبية في الجزائر من اواخر
القرن الثامن عشر حتى الاحتلال الفرنسي)) ، باشراف الدكتور محمد خير فارس .

مصادر ومراجع البحث :

- (١) Ernest, M., *L'Afrique Septentrionale berbérie depuis les temps les plus recules jusqu'a la conquête Française*, t.I, Leroux, Paris 1891, P. 230.
- (٢) Boyer, P., *Contribution à l'étude de la politique religieuse des Turcs dans la régence d'Alger*, XIV - XVI, p. 28
- (٣) ويليام شالر : مذكرات ويليام شالر - قنصل امريكا ١٨١٦ - ١٨٤١ ، ترجمة وتعليق اسماعيل العربي ش.و.ن.ت. الجزائر ١٩٨٢ ، ص(٤٦-٤٧).
- (٤) Laugier de Tassy, *Histoire d'Alger et du bombardement de cette ville en 1816*, Pittan, Paris 1839 .
- (٥) مفضية الازرق ، نشوء الطبقات في الجزائر ، ترجمة سمير كرم ، بيروت ١٩٨٠، ص ٣٦
- (٦) عزت عبد الكريم ، مقدمة من كتاب حوادث دمشق اليومية للبديري الحلاق ، لجنة البيان العربي، القاهرة ١٩٥٦ ص ٢٧.
- (٧) الزياتي محمد بن يوسف ، دليل الحران وانيس السهران في اخبار مدينة وهران، وتحقيق وتقديم الشيخ المهدي البوعبدلي ، ش.و.ن.ت. الجزائر ١٩٧٩ ، ص ٧٣.
- (٨) من رسالة ارسلها محمد بن راييس العين الاندلسي الى الاستانة اوردها الشيخ البوعبدلي في مقدمة للكتاب السابق ، ص ٥٩ .
- (٩) التميمي عبد الجليل ، العرب والاتراك في اطار الدولة العثمانية ، المجلة التاريخية المغربية ، تونس ، العدد ١٧-١٨ ، ١٩٨٠ ، ص ٩١ .
- (١٠) Degrammont, H-D., *Histoire d'Alger sous la domination Turque*, Lerou, 1887, P. 309.
- (١١) Benachanhou, A., *L'Etat Algérien en 1830*, S.N.E.D., Alger, (S-). p. 29.
- (١٢) Commerce de barbarie, A.A.Marseille (S;I) , Article n, 1880, Objets commerce de barbarie presents au puissans du royaume d'Alger. (S.O), P. 29.
- (١٣) Vatin, J. C. , « l'Algerie en 1830 » , *Revue Algérienne des sciences Juridiques , economiques et politiques*, vol. VII, n.14, 1970, p. 1943.
- (١٤) Benachanhou, op. cit ., p. 29.
- (١٥) Lespes, R., *Alger (Etude de géographie et d'histoire Urbaines)*, Paris, Alcan, Alger , p, 146.
- (١٦) سلفاتور بونسو ، العلاقات بين الجزائر وايطاليا خلال العهد التركي ، ترجمة ابو القاسم بن القومي ، مجلة الاصاله ، العدد ٤٨ ، ١٩٧٨ ، ص ١١٨.

Emérit, M., la situation économique de la régence d'Alger 1830, (١٧)
in *Information historique*, 1952, t. II, p. 169.

Roy, J.E., Histoire de L'Algerie depuis les temps les plus reculés (١٨)
jusqu'à nos jours, A.Maine Tour, 1864, P. 142.

حول هذه الحملات انظر : (١٩)
Federman et Aucapitaine , « Notice sur l'histoire de l'Administration
du beylick de Titterie » in *Revue Africaine*, 1867, t. IX, pp. 291-293.

Emerit, M., « Les Aventures de thednat , » in R.A. 1948, p. 40. (٢٠)

ابو القاسم الزياني ، الترجمان المغرب في دول المشرق والمغرب ، نشر جزء منه هنري هوادس ، (٢١)
المغرب - باريس ١٨٨٦ ، ص ١٠١ .

قال في هذه الرسالة ، وقررت ان لا ابشر فيها الا بعد فصل الشتاء لان الطرق في هذا الموسم (٢٢)
تكون صعبة والادوية مرتفعة المستوى .. وفي الربيع القادم سوف اتى انا بنفسى باذن الله عرفقا
بمساكري الظافرة لتابعة مشاريمي باذن الله ، وعليك باخبار سيدي عبد القادر .. بالالتحاق بي
هينما يسمع بوصلي الى وجدة .

Drague, G., Esquisse d'histoire religieuse de Maroc, Cahier de l'Afrique
et de l'Asie, Peyonnet, Paris, p. 235.

يقول السلاوي عن هذه البيعة « ان سكان مدينة تلمسان فتحوا باب المدينة الى ابن الشريف (٢٣)
وطائفته واخذ البيعة بها للسلطان ... وخطب به على منابرهما ، ووجه وفده وهديته الى
السلطان مع شيخه ابي عبد الله المذكور . الاستقصاء لخبار دول المغرب الأقصى ، الدار البيضاء
١٩٥٦ ، ص ١١٠ .

رد عليه السلطان « .. وصلتني رسالتك واسأل الله ان يجازيك على افعالك الحسنة تجساه (٢٤)
المسلمين الذين لا نرجوا لهم الا السلام والطمأنينة .. وعندما تاتي لزيارتي ، ساطلب رأيك فيما
يجب اتخاذه وعمله في البلاد التي انت فيها .. » انظر الناصري ، المصدر السابق ، ص ١١٠ .

الناصرى ، ص ١٠٩ - ١١٠ . (٢٥)
Brosselard, Ch., Les khouans de la constitution des ordres religieuses,
Alger 1895, P. 227.

Drague, op. cit., P.254. (٢٦)
الناصرى - الاستقصاء .

الناصرى ، المصدر السابق ، ص ١٠٩ . (٢٧)

الزياني محمد بن يوسف ، المصدر السابق ، ص ٢٠٨ . (٢٨)

الزياني ابر القاسم ، المصدر السابق ٢٠٩ . (٢٩)

حسين خوجة ، درء الاعيان في اخبار مدينة وهران ، ترجمه ونشره السيد روسو في جريدة (٣٠)
لومونتور الجيريان ١٨٥٥ ، رقم ١٣٩٥ - ١٣٩٨ .

وادي مينا : واد ينبع من اقليم النجود وطوله ١٩٥ كم ، يمر بمدينة غليزان ويصب بشمالها في (٣١)
نهر الشلف . وله فرع هو وادي العبد يسير نحو الشمال ويلتقي بوادي مينا عند قرية فرطاسة .

- (٣٢) مسلم بن عبد القادر ، انيس الغريب والمسافر ، تحقيق راجع بونار ، ش.و.ن.ت. الجزائر ١٩٧٤ ، ص ٧٣ .
- (٣٣) حسين خوجة ، المصدر السابق . ص ١٣٩٥ . الزياتي محمد بن يوسف ، المصدر السابق ص ٢٠٩ . مسلم بن عبد القادر ، المصدر السابق ص ٧٤ .
- (٣٤) Delpeche , A., « Résumé historique sur le soulèvement des derkaoua la province d'Oran, » in R . A . 1837 , p . 44 . Caporal' X., Oran Capitale de beylick de l'ouest 1792-1831, Mémoires, pp, 50-51.
- (٣٥) محمد بن الامير عبد القادر ، تحفة الزائر في تاريخ الجزائر والامير عبد القادر ، شرح وتعليق ممدوح حقي ، ط ٣ ، دار اليقظة العربية ، بيروت ١٩٦٤ ، ص ١١٥ .
- (٣٦) محمد بن عبد القادر ، نفس المصدر ، ص ١١٥ .
- (٣٧) استمر حصار مدينة وهران من طرف ابن الشريف حوالي ثمانية اشهر ، انظر :
- (٣٨) جوليان ، شارل اندري ، « التدخل المغربي ضد احتلال العاصمة الجزائرية سنة ١٨٣٠ » ، ديسمبر ١٩٦٤ ، مجلة البحث العلمي ، الرباط ، ص ٢٦١ .
- De Jardin, V., « La Commune de dublineau les hachems sous le gouvernement Turcs , » in Bulletin, S.G.O., 1950, p. 45.
- (٣٩) Rotalier, Ch., Histoire d'Alger et la piraterie des Turcs dans le Méditerranée, t. II, Paris 1841, p. 591.
- (٤٠) عبد الرحمن الجيلالي ، تاريخ الجزائر العام ، ج ٢ ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ١٩٦٩ ص ٢٩١ .
- (٤١) اشار الى هذا الخلاف صاحب التحفة اذ قال : « وفي بعض الايام تكلم بحضرته بما يوجب تاديبه شرعا ، فادبه سيدي الجد بالسياط . » ص ٢١٥ ، محمد بن الامير عبد القادر ، المصدر السابق .
- (٤٢) مسلم بن عبد القادر ، المصدر السابق ، ص ٩١ .
- (٤٣) مسلم بن عبد القادر ، المصدر السابق ٩٨ .
- الزياتي محمد بن يوسف ، ص ٢٢٨ .
- (٤٤) De grammont, op. cit. P. 364.
- (٤٥) Noel, A.H., « Documents, pour servir à l'histoire de hamgan et de la région qu'ils occupent actuellement, » B.S.G.O., 1925, p. 166.
- (٤٦) عبد الجليل التميمي ، بحوث ووثائق من التاريخ المغربي ٨١٦-٨٧١ ، دار التونسية للنشر ، تونس ١٩٧٢ ، الوثيقة الرابعة ، جوان ١٨١٦ ، ص ٢٤٠ .

السياسة التعليمية الفرنسية في منطقة القبائل ١٨٧١-١٩١٤

عبد القادر علوش

مرشح للماجستير

يتوخى هذا البحث دراسة الدور الاستعماري للمدرسة الفرنسية في منطقة القبائل (١) ، التي كانت حجر الزاوية في السياسة التعليمية الفرنسية . لان اهتمام الجمهوريين (الجمهورية الفرنسية الثالثة) بمنطقة القبائل ، بل وبمناطق جد محددة من هذه الاخيرة ، لم يكن وليد المصادفة بقدر ما هو محاولة لعزل هذه المنطقة عن بقية المناطق الجزائرية ، قصد تثبيت فكرة الاقليمية وتشتيت شمل المجتمع الجزائري . وبدا الاهتمام الفرنسي بهذه المنطقة مع بداية الاحتلال في ١٨٣٠ لينتهي بظهور ما اسماه الفرنسيون بالاسطورة القبايلية .

١ - الاسطورة القبايلية :

بدا الاهتمام الاوروبي بهذه المنطقة منذ الاحتلال الفرنسي للجزائر في ١٨٣٠ ، وخاصة بعد تنظيم الحملة العسكرية اليها في ١٨٥٤ . وتأخر احتكاك الفرنسيين بالمنطقة ودخولهم اليها نظرا لانشغال الاستعمار الفرنسي في اخضاع مناطق اخرى من البلاد وخاصة صراعه مع الامير عبد القادر (٢) . وكان الاهتمام الفرنسي منصبا على دراسة هذه المنطقة من جميع جوانبها : جنسها ، عاداتها ، تقاليدها وتكوينها الاجتماعي (٣) . . وكان لهذه الفكرة الاستعمارية انصار في الجزائر منذ الاحتلال . غير ان هذه الحركة التي تأسست ما بين ١٨٤٠ و ١٨٥٧ تم تدعيمها وبروزها كسياسة قبايلية ، بل كايدولوجية استعمارية للاحتلال الفرنسي ما بين ١٨٦٠ و ١٨٧٠ لتأخذ شكلا خطيرا منذ ١٨٧١ ، عندما تبناها الجمهوريون . وقد شهدت فترات ١٨٦٠ و ١٨٧٠ ميلاد ما اسماه الاوروبيون « بالاسطورة القبايلية » Mirage ou Mythe kabyle فقد وسع الاوروبيون من سياستهم القبايلية في هذه الفترة بالدات ، وهي الفترة التي

شهدت اهتمام الامبراطورية الثانية ، بسكان المستعمرة من الجزائريين ، وظهور ما اسماه الاوروبيون بسياسة المملكة العربية . هذه السياسة التي عارضها الاوروبيون بشدة كونها تحاول تحسين ظروف الجزائريين ، كاعطائهم حق التعليم او توسيع مجال هذا التعليم ونحوها . . . وكان أشد المعارضين لهذه السياسة المهتمة «بالاهالي» indigénophile الدكتور فارنييه (٤) Warnier (٤) ، الذي حاول ان يثير القبائل ضد هذه السياسة الامبراطورية التي ليست في صالحهم وانما تخدم العرب فقط على حد زعمه (٥) . وبذلك حاول هؤلاء خلق التفرقة والنفور بين العرب والقبائل للقضاء على مشروع المملكة العربية (٦) . وفي هذا المضمار بدأ الاستعماريون في الكتابة عن هذه المنطقة دون غيرها من مناطق القطر الجزائري لابرار الخصية القبائلية Particularité kabyle محاولين بذلك الوصول الى غايتهم في ان هذه العناصر القبائلية تنحدر من اصل اوروبي وليس عربيا (٧) .

وحاول بعض الاوروبيين من جانب اخر استغلال بعض نقاط الاختلاف والتباين الموجودة بين الاسر العربية والاسر القبائلية من العادات والتقاليد والانظمة الداخلية للتركيز عليها والانطلاق منها لبناء نظرياتهم العنصرية والاستعمارية (٨) . وتبنى اخرون في الاربعينات من القرن الماضي سياسة خطيرة تهدف استغلال الاختلاف (بين العرب والقبائل) وتضخيمه لفصل الاثنين عن بعضهم البعض ، ودمج القبائل بالقضاء على العنصر العربي بعد اضعافه وتشتيته (٩) .

ولم تقف السياسة التعليمية الفرنسية عند هذا الحد ، بل اصبحت سياسة رسمية للجمهوريين . واذا كان مفهوم الادماج والسياسة العامة (الفرنسية) الموجهة للمستعمرة قد اختلف في تطبيقهما في الجزائر كل طرف على حدة، اي اختلاف جمهوري باريسي وأوربي المستعمرة من الكولون ، فان السياسة التعليمية في منطقة القبائل لاقت تقريبا نفس الاهتمام والتقارب عند كلا الطرفين ، وذلك عندما اصبحت الامر يتعلق بالقضاء على العنصر العربي والانفراد بالعنصر القبائلي في سياستهم التعليمية . وعندما تولى المدنيون الحكم في الجزائر بعد سقوط الامبراطورية في ١٨٧٠ ، اشتد الاهتمام بتطبيق هذه السياسة ، بل ان اول مشروع للجمهوريين في اطار سياستهم التعليمية كان موجهاً لمنطقة القبائل دون غيرها . وقد حاول هؤلاء من خلال تركيزهم على هذه المنطقة ، ابراز الهوية القبائلية واعتبارها الاساس في الجزائر مع انكار للهوية العربية باعتبارها الدخيلة والغازية . « ان القبائليين هم السكان الحقيقيون للجزائر ، انهم اقرب الينا ، انهم الاكثرية وهم مستقبل هذا البلد » (١٠) . ومن هنا فليس من الغريب او المستبعد ان توجه السياسة التعليمية الفرنسية الى منطقة القبائل وحدها، بل والى مناطق جد محددة من هذه المنطقة نفسها (١١) .

٢ - الخطوط العامة للسياسة التعليمية في منطقة القبائل :

ظهرت فكرة تركيز الجهود التعليمية في المناطق المكتظة بالسكان وحول المدن الكبرى ، أي في المناطق الأكثر ملاءمة لنجاح عملية الغزو الثقافي والهيمنة الاستعمارية . وقد بدأ الآباء البيض نشاطهم كمربين للجزائريين منذ ١٨٧٢ (١٢) ، وفي منطقة القبائل على الخصوص ، معتقدين بإمكانية أرجاع هؤلاء السكان الى حظيرة الدين المسيحي . واشتدت هذه الحركة لتأخذ الطابع الرسمي منذ ١٨٧٣/١/١٢ عندما اقترح حاكم منطقة فورناسيونال Fort-National على الحاكم العام المدني دوغيدون de Gueydon برنامجا يقضي بفرنسة القبائل « شعب عربناه أكثر مما فرنسه » (١٣) ، والغاء المدارس العربية الفرنسية نهائيا و « ابطال مفعول الزوايا بجميع الوسائل وجعلها تحت السلطة الفرنسية » ، مقابل خلق مدارس بلدية حكومية فرنسية من منطقة القبائل لاستبعاد تعلم اللغة العربية لهؤلاء السكان . وفي الوقت نفسه سمع الحاكم العام دوغيدون للاستشف لافيجيرى (١٤) بفتح المدارس الخاصة ، بهذه المنطقة مع اعطائه جميع التسهيلات اللازمة ، بالرغم من علمانية الجمهوريين ومدرستهم الاستعمارية . ومنذ سنة ١٨٧٣ الى ١٨٧٥ ، استطاع هذا الأخير (لافيجيرى) تاسيس خمسة مراكز لتعليم اطفال القبائل تعليما نصرانيا ، هذه الفترة التي عرفت اشتداد حركة الارساليات التبشيرية لتنفيذ هذه السياسة في الواقع . ومن جهة اخرى فامت الاخوات البيض بفزو المنطقة بنفس الاسلوب بدءا بتربية المرأة القبايلية التربية المسيحية (١٥) .

وفي سنة ١٨٨١ كلف احد المتحمسين للسياسة التعليمية في منطقة القبائل ، السيد ماسكارى Masqueray (١٦) بمهمة في منطقة القبائل للاطلاع على السكان ومعرفة موقفهم من التعليم الفرنسي . وعندما اجرى الحوار مع السكان استخلص الموقف على الشكل التالي : ٥١ صوتا مع التعليم الفرنسي و ١٦ صوتا ضده . ولكن لم يقبل هؤلاء بالتعليم الفرنسي الا شريطة تدريس احد الجزائريين اللغة العربية لهم ، لان هاجس الخوف لدى هؤلاء السكان كغيرهم من سكان الجزائر ، كان يدور حول مستقبل اللغة العربية ومصيرها في التعليم الفرنسي .

ولنسمع ماذا كان رد فعلهم امام اسئلة ماسكارى : « علموا ابناءنا اللغة العربية ، فكان جواب السائل : نعلمها لهم كلفة اجنبية . » (١٧) . ومن هذا التصريح تظهر استعمارية السياسة التعليمية الفرنسية من جهة وتمسك الجزائريين بلغتهم العربية من جهة ثانية .

وبعد هذه الزيارة العملية والإطلاعية (لجس النبض) التي قام بها ماسكارى في سنة ١٨٨١ الى منطقة القبائل ، رأى جول فيرى (١٨) ، وعلى ضوء هذه المعطيات

والنتائج المستخلصة من تقرير صاحب الزيارة ، ان « منطقة القبائل هي اكثر مناطق الجزائر تقبلا لفكرة الادمج ، نظرا لعادات وتقاليدها سكانها المختلفة عن العرب » (١٩) .

ولا يمكن فهم فكرة الادمج ، التي كانت يطالب بها البعض للقبائل فقط ، بينما طالب بها البعض الاخر للجزائريين كلهم ، الا في اطار الرؤية الاستعمارية . فجول فيري اراد خلق ١٥ مدرسة مرتبطة مباشرة بالوزارة ، وتساهم هذه الاخيرة بثلاثة ارباع التكلفة اذا ما قام المجلس العام للحكومة العامة في الجزائر باخذ الباقي على عاتقه (٢٠) . وامام رفض المجلس لهذا المشروع قرر الوزير ان تتكفل الحكومة وحدها بجميع المصاريف . وللقيام بالتدريس في هذه المدارس كان لزاما اختيار اطار مدرسي ذي خبرة وقدرة عالية في الدفاع عن القضية الفرنسية واكتساب التلاميذ الجزائريين اليها . وهذه الخبرة تكمن اساسا في تعليمهم خلال مدة ستة اشهر اللهجة البربرية (القبائلية) لتسمح لهم بالتوغل داخل المجتمع القبائلي .

اما عن الوسائل التي اتبعتها الادارة الفرنسية لتحقيق سياستها الاستعمارية الجديدة ، فكانت في فتح المجال للوفود الدينية لنشر رسالتها بتأسيسها للمدارس في هذه المنطقة . ومنذ تاريخ ١٨٧٣ بدأت تحل بالمنطقة وفود الاخوان المسيحيين والاباء البيض فاتحة مدارسها الخاصة لنشر المسيحية . واستمر الوضع على هذه الحالة حتى مجيء حكومة شانزي "Chanzy" التي لم تعارض هذه المدارس ، بل اولتها الدعم والعناية . ولتعليم القبائل كان يشترط القضاء على الوسيط العربي ، او بمعنى اخر تعليم هؤلاء اللهجة القبائلية او اللغة الفرنسية . ويوضح المقدم ، اداري دائرة تيزي اوزو في رسالة وجهها الى الحاكم العام في ١٨٧٣ ، ذلك ، بقوله : « . . لتعليم هذا الشعب القبائلي : يجب الغاء الوسيط العربي . . لانه كان حتى الان ضارا اكثر منه مفيدا ، وبكلمة واحدة يجب ان نكلمه بلغته ، او نعلمه لغتنا . . واقصد اللغة الفرنسية لانني اعتبرها سهلة التطبيق . اما فيما يخص الزوايا فيجب اسقاطها نهائيا وبجميع الوسائل من منطقة القبائل لاستبدالها بمدارس بلدية فرنسية » (٢١) .

ووفقا لهذه الرؤية الاستعمارية تم وضع برنامج عمل يهدف الى انشاء ثمانى مدارس ابتدائية عمومية تكون تحت اشراف الحكومة (لم تؤسس الا اربع مدارس اشتهرت بالمدارس الوزارية ecoles ministérielles وذلك لتفادي معارضة البلديات لها . ويقوم بالاشراف على هذه المدارس مدرسون اوروبيون يساعدون مدرسون جزائريون لتعليم القرآن وذلك لضمان استمراريتها وكسب ثقة التلاميذ واوليائهم اليها .

واقترح اوربان Urbain (٢٢) - بعد ان فشلت وسائل الترهيب - اللجوء الى وسائل الترغيب كتقديم الملابس والهدايا والمساعدات المالية احيانا لجلب التلاميذ وذويهم الى المدرسة الفرنسية . واقترح كذلك اقامة المدارس المهنية لاستقبال

المتخرجين حتى يطمئنوا على مستقبلهم وطالب اخرون بان يكون لكل مدرسة فرنسية مدرس جزائري يقوم بتعليم القرآن ، ومن وسائل تطبيق هذه السياسة كذلك كان مراعاة طبيعة هذه المدرسة ، فجاءت برامجها الدراسية فرنسية الشكل والمضمون . فهي لا تختلف عن البرامج التعليمية المستعملة في المدارس الابتدائية الفرنسية بفرنسا . ويشترط في المدرس ان يكون اوروبيا وليس جزائريا (٢٣) . بحجة ان المدرس الوطني ما يفتأ ان يتحول الى تدريس اللغة العربية عند انعدام المراقبة ، ويرفض لوبورجوا H. le Bourgeois توظيف المدرسين الجزائريين في المدارس العربية - الفرنسية بمنطقة القبائل لقتل اللغة العربية وتدميرها ، ونشر اللغة الفرنسية بدلها . وفي برامج المدرسة الابتدائية العليا (٢٤) ، التي انتشئت في ١٨٨٥ بمنطقة القبائل تحتل اللغة العربية نفس المكانة التي تحتلها اللغة الانجليزية كلغة اجنبية (٢٥) .

غير ان المؤيدين للسياسة التعليمية في منطقة القبائل كانوا يرون ان القبائل وحدهم دون العرب كافون لان يكونوا في خدمة المستعمرة . وتقسم مبروكي (٢٦) Mabrouki انصار هذا الرأي الى :

- ١ - العسكريون الراغبون في السيطرة والذين يحلمون بدمج الاجناس .
- ٢ - الذين يريدون الوصول الى الادمج عن طريق التعليم .
- ٣ - الذين يريدون خلق الملكية الخاصة لفرض النظام والاستقرار لشعب يصعب فهمه .
- ٤ - الذين يرغبون في اقامة قرى مختلطة اوروبية - قبايلية .

ويعتقد بعض الاوروبيين الاستعماريين امثال دولت دومسليين D. D'Aumesline على انه يجب محاربة الافكار وغزوها، بل لقد كان ضد أية فكرة او سياسة تنشد في برامجها احترام المجتمع الجزائري . ويقترح لهذا الغرض تمسيح الجزائريين وخاصة سكان القبائل باعتبارهم احسن عنصر والوحيد القابل للتمسيح والفرنسة في احسن الظروف وباسرع وقت ممكن (٢٧) .

غير ان هذه السياسة التعليمية لم تكن لتسلم من المعارضة الاوروبية ، كونها تهدف الى تعليم الجزائريين ورفع مستواهم الثقافي والمادي والاجتماعي . فعند زيارة لوبورجوا لمدرسة بمدينة تيزي اوزو Tizi - Ouzou شاهد ان كل تلامذتها كانوا من ابناء الكولون (المعمرين) والموظفين الفرنسيين والجزائريين الموالين لفرنسا ، بل ان هذا الرفض جاء من شخصية حكومية ، هو رئيس بلدية تيزي اوزو الذي كان يحارب وبشدة فكرة تعليم الجزائريين سواء في منطقة القبائل او في غيرها من المناطق بدعوى « انهم جنس منحط ومدعو للزوال » (٢٨) . واعتبرت المعارضة الاوروبية ان

المدارس الوزارية تشكل « قصورا مدرسية » palais scolaires كونها لا تستطيع تغيير حياة الجزائريين وعاداتهم وبالتالي فرنستهم (٢٩) . فالكولون الاوربيون لا يمكن ان يقبلوا بهذا الوضع لانهم في الاساس من انصار الابداء للشعوب ، وهم الذين طالبوا باستعمار استيطاني والقضاء على العنصر الجزائري . لكن مثل هذه النظرية لا يمكن ان تتحقق نظرا لاختلاف ميزان القوى ، فعدد السكان الاوروبيين قليل جدا اذا ما قورن بعدد الجزائريين . ومن هذا المنطلق كان التفكير والبحث عن اقلية اقل احراجا وازعاجا للاستعمار واكثر فائدة له ، هي الاقلية القبايلية (٣٠) .

والشكل الاكثر تعقيدا في هذه السياسة هي انها لم تستطع توفير الوظائف لهؤلاء (خريجيها) رغم قلة عددهم . ومن هنا بات واضحا ان تقع المواجهة بين هؤلاء المثقفين المنافسين للاوروبيين على المناصب في المدن وفي اسواق العمل وبين الاوروبيين انفسهم . وامام موقف الاوروبيين المتصلب والرافض لكل مس وانتقاص لسيادتهم ، كان لابد من ايجاد حل مناسب لهذه الازمة ، واصبحت الهجرة بديلا عن المدرسة (٣١) . فاشتدت بذلك الهجرة نحو فرنسا خاصة من منطقة القبائل (المنطقة جبلية في اغلبها) الاقل حظوظا لايجاد فرص العمل . وقد يكون لهذه السياسة حدود ابعد ، فهي بهذه الطريقة تستطيع غزو منطقة القبائل بايد قبايلية . وان عودة المهاجرين الى الجزائر له اكثر من معنى ، فهم ان لم يتجنسوا بالجنسية الفرنسية ، فهذا لا يعني انهم حصلوا على جميع حقوق المواطنة الفرنسية وواجباتها (٣٢) .

امام هذا العرض للسياسة التعليمية في منطقة القبائل ، ماذا كانت اهدافها ؟ . كان هدف الجمهوريين وسياستهم التعليمية في منطقة القبائل يعني ادماج القبائل وباية سرعة ممكنة في المجتمع الفرنسي وفصلهم عن باقي الجزائريين . فقد كتب احدهم في ١٨٨١ يقول : « ان الهدف الاسمي الذي يجب ان تبذل من اجله كل الجهود في هذا البلد (منطقة القبائل) هو بدون شك جعله بلدا فرنسيا » (٣٣) .

وقد راينا كيف كان دعة الاسطورة القبايلية ينظرون الى هذه المنطقة ، والى سكانها . ومن هذه الرؤية كان التعليم الموجه لمنطقة القبائل يركز خاصة على التشكيك بعروبة الجزائريين واسلامهم ، وترسيخ الشعور والافكار الفرنسية لتسهيل عملية ادماجهم .

وليس من المصادفة ان تكون المدارس الاولى كلها مركزة في وسط جرجرة ومنطقة القبائل ، انما لان ثورة ١٨٧١ (٣٤) قد انطلقت من هذه المنطقة بالذات ، وترى ف. كولونه ان اختيار هذه المنطقة بالذات يخضع لعاملين اساسيين هما :

١ - نوع من التعدي .

٢ - أهمية المنطقة اقتصاديا (٣٥) .

واذا كانت فكرة الادماج قد استعملت كوسيلة للغزو من جهة ووسيلة للاستيلاء على الارض وفرنستها اولا ثم فرنسة السكان ثانيا في جميع حركاتهم وعاداتهم وأفكارهم (٣٦) خاصة من جهة ثانية ، فان السياسة التعليمية الفرنسية من منطقة القبائل كان لها نفس الاسلوب والطريقة في تفكيك المجتمع الجزائري ثم هدمه عملا بالشعار الاستعماري « فرق تسد » (٣٧) .

وكل هذه الاتجاهات رغم اختلاف اساليبها وطرق عملها ، الا انها تتفق في غاية واحدة، هي الادماج السريع والكلي للقبائل اولا ثم للعرب ، وحيانا ادماج العنصر الثاني بالاول . ولتحقيق هذه الاهداف الاستعمارية تصبح الاسطورة القبايلية هي الادماج نفسه كمرحلة اولى لدمج جميع السكان ، او بمعنى اخر الفرنسية الكاملة للجميع .

٣ - نتائج السياسة التعليمية في منطقة القبائل :

ان كل الاهداف المسطرة في السياسة الاستعمارية كالفرنسة بالملكية الخاصة والتعليم والتمسيح والقضاء الفرنسي (٣٨) لم تبق حبرا على ورق ، ولكن رافقتها اجراءات ملموسة تهدف الى خلق فكرة الاقليمية وتدعيمها Particularisme التحضير للمهمة الاستعمارية المنشودة وهي الادماج الكامل . وبهذه الطريقة حاول الفرنسيون غزو المنطقة المذكورة فكريا ، واشتد نشاطهم حول هذه المنطقة دون غيرها حتى ان ٨٩٪ من المدرسين الجزائريين من اصل منطقة القبائل و ٧١٪ من مجموع ٥٢٦ من اصل ولايتين اثنتين بمنطقة القبائل هما : تيزي اوزو (٤٠٥) وبجاية (٦٦) .

وما بين سنة ١٨٨٣ الى ١٩٠٦ ارسلت مدرسة تاوريت ميمون وحدها الى ٥٦ المعلمين ببوزريعة ٥٦ تلميذا - مدرسا ، و ٤ طلاب الى المدرسة الاسلامية بالجزائر العاصمة . وفي تقرير لمديرية التربية في ١٢/٣١/١٩٠٩ ، ذكر ان مجموع التلاميذ في منطقة القبائل الذين استفادوا من التعليم الفرنسي ، كان حوالي ١٣٥٠١ من مجموع ٤٤٠ الف نسمة ، واصل منهم ٢٥٢ تعليمه ما بعد الشهادة الابتدائية و ٨٤٠٢ بقوا بمناطقهم (يشتغلون مع ابائهم) و ١٧٢٧ منهم اصبح حرفيا ، و ١٦٧٠ توجه الى الاعمال التجارية . أي ان نسبة ٤٪ فقط هي التي التحقت بالوظائف الادارية او مارست اعمالا حرة مقابل نسبة ٩٠٪ بقوا على حالتهم الاجتماعية السابقة (وهذا ما يفند اسطورة التنصل déclassement التي ابدعها معارضو التعليم الجزائري) ، و ٦٪ منهم هاجر الى المدن للعمل عند الاوروبيين او كأجراء يوميين (٣٩) .

غير أن هذه السياسة لاقت نفس مصير السياسات السابقة ، أي أنها لم تستطع الاستمرار في تأسيس مدارسها نظرا للمعارضة الأوروبية القوية من جهة ، ومعارضة الجزائريين أنفسهم لها . إلا أن مبررات كل طرف تختلف عن الآخر ، فالطرف الأول أي الأوروبي ينظر إليها انطلاقا من مصالحه الخاصة التي تتعارض مع الجزائريين وترقيتهم سواء في منطقة القبائل أو في غيرها ، لأن في ذلك منافسة له في نفوذه وقوته . أما الطرف الثاني ، أي الوطني (الجزائري) فانطلاقا من تفهمه وإدراكه لاستعمارية هذه السياسة التي تحاول تفرقة وتشتيت شمله ، بل هي جزء من رفضه للاحتلال ككل .

وإذا كانت قبيلة بني يني (بمنطقة القبائل) مثلا قد تجاوبت مع المدارس التي أسستها الإدارة الفرنسية (٤٠) ، ، فذلك راجع إلى أن التعليم العربي الإسلامي بهذه المدارس قد أسند إلى مدرسين جزائريين لتعليم العلوم الدينية . إلى جانب ذلك ساعدت بعض العوامل على تحقيق القبول ، منها تركيز السكان بمنطقة واحدة ، إضافة إلى العامل الاقتصادي الذي يتمثل في أن سكان هذه المنطقة لم يتعرضوا لاستعمار الأرض ومصادرتها بالشكل الذي عرفتته المناطق الأخرى من الجزائر . وإذا نظرنا إلى تركيبة المجتمع بمنطقة القبائل تمكنا من تفسير نجاح المدارس بها نوعا ما . فالسكان الأوروبيون ، وهو العنصر الرفض لأي تعليم يستفيد منه الجزائري (يمثلون نسبة ١٨٪ من كامل دائرة تيزي أوزو حتى سنة ١٩٢٦ ، في حين نجد أن هذه النسبة أعلى بكثير من مدينة وهران ، أي حوالي ٥٥٪ (٤١) . ومن هنا يظهر أن نجاح المدرسة الفرنسية يخضع إلى عامل السكان والمنطقة ، إضافة إلى العوامل التاريخية والاقتصادية والاجتماعية التي ذكرناها . وإذا كانت بعض المدارس الفرنسية قد لاقت نجاحا في بعض المناطق . فذلك مرجعه إلى انعدام المدارس القرآنية بها . وتقول تقارير صاباتيه Sabatier (٤٢) في ١٨٨٢ أن النجاح الذي حصلت عليه مدرسة كل من تمازيرت (وهي الأقدم) ومدرسة صهاريج ، يرجع إلى أن هذه البلدية لا تملك مدرسة عربية إسلامية .

وأخيرا يمكن إجمال فشل هذه السياسة في النقاط التالية :

- ١ - رفض الجزائريين لها إيمانا بسوء نيتها ، بل أكثر من ذلك فهي جزء من رفض الاحتلال أجمالا .
- ٢ - رفض الأوروبيين للتعليم الجزائري عموما ، لأنه عامل من عوامل إشراكهم في النفوذ والسيطرة .
- ٣ - لأنها كانت موجهة من باريس ، وبالتالي فاصحابها يجهلون واقع المجتمع الجزائري سواء في منطقة القبائل أو في غيرها ، ومدى قبوله أو رفضه لها .

- (١) استعملت كلمة قبائل للتعبير عن البربر ، وتقابلها في الفرنسية Kabyle خلافا لقبائل (جمع قبيلة) .
- (٢) كانت قد سبقتها حملات عسكرية فاشلة في عامي ١٨٤٦ و ١٨٤٧ .
- (٣) في ١٨٤٥ رأى بيليسي R. de Pellissier امكانية تحقيق الاندماج بين الاوروبيين وبين القبائل .
- (٤) تولى منصب امين عام الحكومة العامة في الجزائر ، وكان من الدعاة المتحمسين للاندماج .
- (٥) وكان هؤلاء يريدون تكوين « مملكة قبايلية » مقابل « المملكة العربية » .
- (٦) Ageron, Ch. r., «La France a-t-elle eu une politique kabyle»..? in *Revue Historique*, Avril- Juin 1960 , P. 315 .
- (٧) كتب الجنرال دوماس في هذا الشأن يقول : « يوجد جنسان مختلفان ، الجنس العربي والجنس القبايلي » . اما دوتوكفيل فقد كتب يقول في السياق نفسه في سنة ١٨٣٧ : « اذا كانت بلاد القبائل مسدودة امامنا ، فان روح القبايليين مفتوحة امامنا » .
- Ageron, *Les Algériens Musulmans et la France*, t.I, p. 269.
- (٨) كتب الجنرال دوفيقي في سنة ١٨٤١ ، مبرزا الاعتماد على العنصر القبايلي دون غيره ، يقول : « ان استقرار القبائل وحجهم للعمل يجب ان يكونا قوام سياستنا في افريقيا » .
- Ageron; *La France a-t-elle ..* ibid, P. 314.
- (٩) كتب النقيب كاريت ليؤكد على ان : « منطقة القبائل بقيت لحد الان خارجة عن الاتصال المباشر معنا . واذا كانت سابقا في حروب مع جميع « المحاولات الاستعمارية السابقة » ، الا انه يجب ان تصبح في السنين القادمة المساعد القوي لمؤسساتنا والمشارك الفيد لمشاريعنا » .
- Ageron, op. cit., p.314
- (١٠) Ageron, *Les Algeriens ..* ibid p.270 .
- (١١) لم يطبق التعليم الالزامي في الجزائر الا على ثمانية (٨) بلديات موجودة كلها في منطقة القبائل Kabyle . ثم اصبحت اربع مدارس باقتراح من مدير التربية في ١٨٨٢ هي : مدرسة تيزي راشد ، تاوريت ميمون ، ميرة ، جماعة صهاريج .
- (١٢) Mesnard, I., *L'Oeuvre Française s'adapte aux messes musulmanes en Algérie*, in *Etudes*, Juin 1948, P.359.
- (١٣) Ageron, op. cit., p. 332.
- (١٤) اصبح اسقفا للجزائر في ١٨٦٧ وانتشرت المسيحية بخطى واسعة في عهده . فهو الذي كون طبقة جديدة من المبشرين (من الجزائريين الكاثوليك) عرفت بالاباء البيض وانتشرت في منطقة القبائل .
- (١٥) Mesnard, op. cit., p.360.
- (١٦) فهو الذي قال في سنة ١٨٧٦ : « اذا اردنا في ظرف جيلين ، ستتحول منطقة القبائل الى فرنسية ، ويكفي لذلك اقامة مدرس لكل قبيلة » .
- Ageron, Ch. R., *Histoire de L'Algérie Contemporaine* , t. I, p. 156.

- (١٧) Rambaud, A., *L'Enseignement primaire des indigènes musulmans d'Algerie*, p.43.
- (١٨) كان وقتها وزيرا للتربية والتعليم ثم أصبح رئيسا للحكومة الفرنسية . وكان من انصار الجزائر الفرنسية ، أي الجزائر الملحقة والدمجة في فرنسا (الميتروبول) .
- (١٩) L'Amicale des anciens instituteurs et institutrices et le cercle Algerianiste .. 1830-1962 .Des enseignants d'Algerie se souviennent de ce qu'y fut l'enseignement primaire, p.46 ed. Privat, 1981.
- والرأي نفسه أبداه الحاكم العام تيرمان Tirman (١٨٨١-١٨٨٥) عندما أمر حاكم منطقة فورنا سيونال بتطبيق الزامية التعليم على منطقته .
- (٢٠) كانت البلديات الجزائرية أشد المعارضين لتعليم الجزائريين، وقدمت ذلك تبريرات مختلفة كالمالية والعنصرية والسياسية والتقليدية . وهذا ما يؤكد تعارض جمهوري باريس وأوروبي المستعمرة واختلاف وجهات نظرهما حول طبيعة التعليم المراد تقديمه للجزائريين . فالجمهوريون أرادوا تطبيق التعليم الفرنسي النظري على الجزائريين لتحقيق الإدماج، في حين طالب الأوروبيون في المستعمرة بتطبيق التعليم التطبيقي ، الأولي والبسيط ، لتحقيق الانفصال عن الميتروبول .
- (٢١) A. O. M. (Archives d'outre - mer d'Ex-en- Provence) 225 (3) , Ecole Arabe - Française (1860 - 1876) .
- (٢٢) كان من انصار تعليم الجزائريين والاهتمام ، ويقال انه كان من المساهمين في فكرة المملكة العربية التي جاء بها نابليون الثالث ، وكان مستشارا له في الشؤون «الاهلية».
- (٢٣) Bourgeois, H.Le., *Rapport d'ensemble sur l'état de l'instruction primaire en Algerie* , p. 77, Paris 1880 .
- (٢٤) أعيد تنظيمها في أوغزن Ouaghzen بين ١٨٩٧ و ١٩٢٨ ثم حولت الى بني يني Beni Yenni وهذه القبيلة التي استفادت أكثر من غيرها من المدارس التي أسستها الإدارة الفرنسية .
- (٢٥) Mesnard , op. cit. p. 360.
- (٢٦) La construction du mythe kabyle, p. 81, Alger 1977.
- (٢٧) ibid , P. 78
- (٢٨) Bourgeois, op. cit. p. 71
- (٢٩) استمرت ثلاث مدارس فقط في تقديم التعليم هي: مدرسة ثاوريت ميمون ، مدرسة تيزي راشد ومدرسة صهاريسج .
- (٣٠) Mabrouki, R., op. cit. p. 78.
- (٣١) Colonna, F., *Les institnteurs algeriens 1883 - 1939*, p; 115, O.P.U., Alger , 1975.
- (٣٢) خير تعبير على هذه الفكرة ما قاله عباس فرحات من كتابه ليل الاستعمار . « فعندما يقول الجزائري

انه عربي يجيبه القضاة الفرنسيون لا انك فرنسي ، ولكن حين يطالب بحقوق المواطن الفرنسي يجيبه نفس القضاة لا انك عربي » . ص ١١٠ ، ترجمة وليم خوري ١٩٦٢ .

(٣٣) Desvages, H., L'enseignement des Musulmans en Algerie sous le rectorat Jeanmaire, in *Mouvement Sociale*, Janvier- Mars 1970, p.119.

وكان وزير التربية برتولو Berthelot ، بعد زيارة للجزائر في ١٨٨٧ ، قد اعلن امام مجلس الوزراء « بضرورة رفع عدد التلاميذ في مدارس منطقة القبائل ، لانها تمثل الوسائل الناجحة لدمج مستعمرتنا الافريقية الكبيرة في الوطن الام » . المرجع نفسه ص ١٢٢ .

(٣٤) وهي الثورة التي قادها الباشا القراني ضد الاحتلال الفرنسي في منطقة القبائل .
Colonna, op. cit. P. 108.

(٣٥) توجد صناعة الاسلحة وصياغة الذهب لدى قبيلة بني يني في منطقة القبائل . والقبيلة من الغنى مناطق منطقة القبائل اقتصاديا .

(٣٦) Labrouki, op. cit. p. 70.

(٣٧) ويرى احد دعاة الخاصية القبايلية انه لا يجب فهم القبائلي على ما هو عليه بقدر ما يكمن في كيفية استغلاله واستخدامه بالشكل الجيد ووفقا للظروف . لان استعماله يعني هدم المجتمع العربي وتفكيكه . المرجع نفسه . ص ٩٠ .

(٣٨) استغنت الحكومة الفرنسية عن القضاة الجزائريين وانزلتهم الى مراتب سفلى ، واغلقت المدارس القرآنية وفرضت التعليم الاجباري الفرنسي في منطقة القبائل .

(٣٩) Ageron, La France .., ibid, p; 348.

(٤٠) كانت قد هجرتها عندما تعرضت المنطقة بكاملها (منطقة القبائل) للقمع الفرنسي الذي رافق القضاء على ثورة ١٨٧١ .

(٤١) colonna, op. cit. p. 112.

(٤٢) استطاع صبايايه ان ينجح في منطقتهم ، بحيث ان ست (٦) مدارس استمرت في نشر رسالتها (الحضارية) مع ٦٠٠ تلميذ . واعتبر هو نفسه ان سنة ١٨٨٤ ، هي السنة التي يمكن ان يستولي فيها على منطقة القبائل بالتعليم الفرنسي .

* حصل الباحث على شهادة الماجستير في التاريخ برسالته « السياسة التعليمية الفرنسية في الجزائر ، ١٨٧١ - ١٩١٤ » باشراف الدكتور محمد خير فارس .

عُصْبَةُ الْعَمَلِ الْقَوْمِي وَإِسْهَامُهَا فِي الْحَرَكَةِ الْقَوْمِيَّةِ فِي سُورِيَّةَ ١٩٣٣ - ١٩٣٩

مصطفى بدر وفي
مرشح للماجستير

تميزت فترة الثلاثينات من هذا القرن بمحاولة إبقاء فكرة الوحدة العربية حية في قلوب الجماهير ، رغم اختلاف الانظمة والحدود القائمة ، وقام زعماء الحركة القومية بمحاولة لتجميع الصفوف بعد ان اثار قلقهم الانصراف نحو النزعة الاقليمية ، وانتهزوا فرصة انعقاد المؤتمر الاسلامي في القدس اواخر عام ١٩٣١ ، فاتفقوا على ميثاق عربي قومي ، أكدوا فيه على وحدة البلاد العربية وتوجيه الجهود في كل قطر نحو الاستقلال التام ، ورفض السياسات الاقليمية ، وبذل الجهود من أجل الاستقلال والوحدة العربية (١) .

قيام عصبة العمل القومي - مبادئها النظرية :

وساهم عدد من الشباب المثقف في سورية ولبنان وفلسطين والعراق بتأليف أحزاب سياسية تتجاوز الشواغل القطرية وتتعدى حدود الكيانات ، وتسمو على القضايا المحلية التي شغل بها الاستعمار الشعوب العربية ، كان أبرزها عصبة العمل القومي ، وظهرت بعد عقد مؤتمر سري في قرنايل - لبنان - سنة ١٩٣٣ ، كان أهم من حضره (أكرم زعيتر ، فريد زين الدين ، عبد الرزاق الدندشي ، شفيق سليمان ، الدكتور سيف الدين الطباخ ، علي ناصر الدين ، وأصف كمال ، ثابت العزاوي ، سامي شوكت) واصلوا بنهاية اجتماعاته بياناً « الى العرب من عصبة العمل القومي » (٢) .

درس المؤتمر الاستعمار وموقفه من القومية العربية وطبيعته وأساليبه ، ثم عين الاهداف العليا والوسائل التي يجب على العرب اتباعها . وكذلك درس الواقع السياسي والاقتصادي والاجتماعي والثقافي العربي ، ثم حدد موقف العصبة من الفئات الاخرى ، وعين طرق عملها . وخلص البيان الى دراسة السياسة السورية التي سلكت طريق « التفاهم » فوضع خطوطا عامة بشأنها(٢) .

وفي ضوء تحليل المؤتمر لواقع العرب ، تبين له انهم سائرون في طريق التدهور في مختلف مجالات حياتهم ، وأصبحت المطالبة بالوحدة العربية ضربا من الخيال . وعدد البيان نقاط الضعف في العرب بدءا من كثرة النفعيين ، وقوة الفردية ، وتغلب روح الاثرة ، وحب التزعم ، والتشبث بالرأي الشخصي ، وعدم الخضوع لسنن العمل المشترك ، وخوف العربي من الضغط الاجتماعي ، وتقليده الغربي تقليدا أعمى ، وضعف الثقة بالنفس ، وتفشي الجهل وفساد طرائق التربية والتعليم . كما بين البيان نقاط القوة في العرب ، ممثلة بعظمة التاريخ ، وروابط اللغة ، واستعداد العرب القومي للتفوق ، وتعصب العربي لمقائده ، واثيانه بالعجائب في سبيل ذلك(٤) .

وتطرق البيان الى دراسة طبيعة الاستعمار الحديث ، فظهر له طبع الاستعمار ومنشأه الاقتصادي ، ووصل في تاريخه الى الثورة الصناعية وتجمع رؤوس الاموال الضخمة ، وتزاحم التجارة الاممية ، وظهور حاجتها الى مواد اولية واسواق ومستهلكين(٥) .

وعين المؤتمر اهداف الاستعمار بالنسبة للعرب بوجهين :

الاول يتعلق بالبلاد نفسها (استعمار فكري ومادي) .

والثاني يتعلق باتخاذها قاعدة لاستعمار الشرق في آسيا وافريقيا ودوام السيطرة عليه .

كما حدد المؤتمر في بيانه وسائل المستعمرين واساليبهم في البلاد العربية ، وكيف انهم استعانوا على العرب بالتجزئة المادية والمعنوية وعمدوا الى افساد خلق الشعب وروحه وعقله(٦) .

وفي ضوء هذا التحليل حددت العصبة اهدافها العليا ، فرسمت لنفسها هدفين « هما من حيث الطبع متمم أحدهما الآخر ، وتحقيق كل واحد شرط لتحقيق الآخر

أ - سيادة العرب واستقلالهم المطلقين .

ب - الوحدة العربية الشاملة » (٧) .

وبيئت العصبية أن نوال السيادة والاحتفاظ بها موقوف على وحدة البلاد العربية كما ان ازدهارها الاقتصادي ونهضتها الاجتماعية يتوقفان عليها ويستحيلان بغيرها .
لذلك اعتبرت « الوحدة العربية » القائمة على « وحدة التاريخ والتقاليد والعادات واللغة والغايات والوضع الجغرافي » جزءا غير منفصل عن هدفها في السيادة والاستقلال (٨) .

وعلى ضوء دراسة الاستعمار ، ادركت العصبية خبث مقاصده ، وبحثت في وسائل المقاومة القومية ، ورأت بحكم منطق الدفاع «توحيد جهود العرب في كل صقع ، وتوحيد حركة المقاومة القومية في الاقطار العربية ، وتأليف جهودهم والقضاء على النزعات الاقليمية بمعناها القاصر ، ووصل ما انقطع من الروابط بين الصفوف المجاهدة في كل قطر » ، على ان لا يفهم من هذه الخطة ترك الجهاد المحلي ، بل ان تعدد الطرق الاستعمارية والمستعمرين في الاقطار العربية « جعل لكل قطر ظرف خاص يجب معالجته بوسائل خاصة ، وتتطلب وضع برامج محلية تراعي فيها الظروف القطرية ضمن نطاق ضوابط محددة تمنع شذوذ العمل السياسي عن الاهداف العليا » (٩) .

على هذا الاساس فان العمل القومي في نظر عصبية العمل القومي ، يستهدف تشكيل جبهات جهاد مختلفة « موحدة الجهد متساعدة تابعة لقيادة واحدة ، تؤلف فيما بينها وتجعل القضايا القطرية او الاقليمية اجزاء للقضية العربية الكبرى » (١٠)

وسجلت العصبية تطورا في السياسة الاقتصادية ، فقد اعتبرت البلاد العربية وحدة اقتصادية ، فدعت الى توحيد الجهود الاقتصادية في مختلف الاقطار العربية ، وضم رؤوس الاموال الصغيرة للقيام بمشاريع كبيرة ، وازالة الحواجز الجمركية بين البلاد العربية عن المنتوجات والصناعات العربية ، واعتبار مصلحة المجموع فوق المصالح الخاصة . كما اعتبرت العصبية البلاد العربية وحدة اقتصادية ، وسوقا اقتصادية وطنية خالصة ، لا تروج فيها غير المنتوجات والمصنوعات العربية (١١) .

وحيث ان ظروف العرب الاقتصادية غير واحدة وهي خاضعة للظروف السياسية . فقد وجب في الاقتصاد ما وجب في السياسة ، وتحتم وضع برامج اقتصادية لكل قطر مستمدة من ظروفه وقابلياته ، على ان لا تخرج على المبادئ العامة التي قررتها العصبية بهذا الشأن .

والكيان الاقتصادي الذي تنشده - العصبية - يقوم على اساس قومي في الانتاج والتوزيع . لخلق نهضة سريعة في الصناعة والزراعة ، وتهدف العصبية من وراء ذلك الى قيام الدولة بالمشاريع الرئيسية الكبرى ، وتشجيع الشركات التعاونية ، ومد يد المساعدة الى الجماعات والافراد في مجال الصناعة والزراعة (١٢) . كما افرت العصبية مبدأ محاربة الاقطاعية ، وتحديد مقدار التملك العقاري بنسبة تساعد على النمو الزراعي وحسن الاستثمار (١٣) .

أما في المجال الاجتماعي والثقافي ، فقد بينت العصبية « انه ليس من الجائز اعتناق أي مذهب من المذاهب الاجتماعية يكون من شأنه اضعاف الحس القومي أو الخروج على التقاليد العربية الصالحة ، ومن الواجب مقاومة كل عصبية غير العصبية القومية ، والقضاء على العصبية العائلية أو المذهبية أو المحلية » (١٤) التي يجب ان تذوب وتفتى في سبيل المصلحة القومية ، وان لا تتخذ اساسا للحركات الوطنية .

كما اقرت العصبية وجوب رفع مستوى المرأة الاجتماعي ، وتحضير البدو والاهتمام بالقرية ، ورفع مستواها الاجتماعي والثقافي والصحي باعتبارها الاساس الذي يبنى عليه هيكل البلاد العمراني والاجتماعي . وطالبت ان يعمم العلم على سائر طبقات المجتمع ، وان تسهل سبله ، ولا يكون الفقر حائلا دونه . كما قررت قصر استعمال اللغات الاجنبية على البحث العلمي والامتناع عن التخاطب بها بين العرب ، ومقاومة التبشير الاجنبي بأشكاله ومظاهره المختلفة (١٥) .

والهدف من انشاء العصبية كما حددته في منهاجها « انشاء كيان قومي عربي موحد مستقل » - دون ان تحدد العصبية نظام هذا الكيان - وعرفت القضية العربية انها « انشاء الدولة العربية لتحقيق الارادة العربية العامة » أما الحركة العربية فهي « بعث وتحرير وانشاء الحركات القطرية فروع لها » (١٦) .

العصبية على الصعيد العملي :

في سبيل بلوغ العصبية لاهدافها ، اعتمدت على التنظيم الشعبي الشامل بمختلف طبقاته . واستندت فيه بالدرجة الاولى الى الشباب . وقد اتخذت العصبية من دمشق مركزا لها ، وكان يمثلها أمين السر العام ، وهو الناطق الرسمي باسمها ، وقد شغل هذا المنصب صبري العسلي ثم عبد الرزاق الدندشي ، وبعد وفاته تولى منصب أمين السر العام فهمي المحائري . وترتبط فروع العصبية بأمين السر العام مباشرة وإلى جانبه مجلسان :

أ - مجلس المفوضين : يتألف من عدد من الاعضاء يطلق على كل منهم اسم مفوض ، فهناك مفوض المالية وآخر للداخلية وثالث للدعاية . الخ . ومهمة هذا المجلس التعيين في المناصب الحزبية واعطاء الصلاحيات ومساعدة الامين العام في مهامه .

ب - مجلس المديرين : ومهمته تنفيذ المقررات والتوصيات التي يقرها مجلس المفوضين ويقبل الانتسابات الجديدة للعصبية .

وتأتي الفروع في أسفل الهرم التنظيمي ، ويرأس الفرع أمين الفرع ويساعده في تأدية مهامه مجلس مصغر على هيئة مجلس المديرية ، ويرتبط الفرع مباشرة بأمين السر العام . ويتكون الفرع من عدة نقاط ارتكاز تتوزع في الاحياء السكنية والقرى وتشرف على كل نقطة ارتكاز هيئة مصغرة على شكل هيئة الفرع (١٧) . وكان للعصبة تنظيم شبه عسكري أطلق عليه « حرس العروبة » ، واعتبرت العصبة أن كل عضو فيها هو في نفس الوقت عضو في تنظيمها شبه العسكري (١٨) .

اعتمدت العصبة بالدرجة الاولى على الطبقة المثقفة من محامين واطباء وطلاب المدارس الثانوية والجامعات . وعلى الرغم من دعوة عصبة العمل القومي الى محاربة الاقطاعية ، الا ان عددا غير قليل من الاقطاعيين قد انضم الى صفوفها « عدنان الاتاسي - حمص ، محسن البرازي - حماه » كما ان امينها العام عبد الرزاق الدنوشي كان من الاقطاعيين ، الا ان الصفة الغالبة في عناصر العصبة كانت تتألف من البرجوازية الصغيرة والمتوسطة (١٩) .

واولت العصبة بشكل خاص اهتمامها للقضية السورية ، فدرس مؤتمرها التأسيسي الوضع السياسي في سورية واعمال الفرنسيين فيها ، وعلى ضوء تلك الدراسة حددت العصبة موقفها من الاستعمار في خطوط عامة دعت فيها الى رفض سياسة التفاهم مع المستعمرين والعمل على حل المجلس النيابي السوري عام ١٩٣٢ لعدم شرعيته ، باعتباره آلة بيد المستعمرين ، واعتبار كل ما يصدر عنه لا يقيّد الأمة بشيء . ودعت العصبة الى مقاطعة الحكومة المحلية واعتبرتها اشد خطرا من الاستعمار الذي تنفذ اغراضه ، واعلنت - العصبة - عقب الاجتماع الكبير الذي عقد في مركز الحزب بدمشق ان المعاهدة لا تحقق رغائب الشعب . ووقفت موقفا المعارض منها . وقد كان لهذا الموقف من العصبة اثر كبير على حمل وزير الكتلة الوطنية «جميل مردم ومظهر رسلان » على تقديم استقالتيهما (٢٠) .

وحظرت العصبة على عناصرها الاشتراك في الوظائف الحكومية ووجوب مقاطعة البضائع الاجنبية ، والعمل على ابقاء الشعور الوطني حيا يقظا ، ليتمكن من معرفة الامور والحكم عليها (٢١) .

وانسجما مع مبدأ العصبة الذي اقترته ، فقد فصلت قيادة العصبة احد الاطباء من عضويتها في تشرين الاول ١٩٣٤ لقبوله وظيفة في دائرة صحة دمشق (٢٢) .

وخلال حوادث الاضراب الكبير في سورية اواخر عام ١٩٣٥ واول عام ١٩٣٦ شاركت العصبة في المظاهرات والحوادث التي رافقت هذا الاضراب ، كما وقفت موقف المعارض من المعاهدة السورية الفرنسية عام ١٩٣٦ لمخالفتها لمبادئ العصبة

التي اقترتها ولانها لا تحقق الوحدة السورية الشاملة والاستقلال الحقيقي (٢٣) . وقد أدى موقف العصبة الرفض للمعاهدة الى انسحاب امينها العام - صبري العسلي - من العصبة وانضم الى الكتلة الوطنية وفاز في قوائمها الانتخابية للمجلس النيابي السوري عام ١٩٣٦ (٢٤) .

وقد وقفت العصبة وقفة المعارض من الاتفاقات السرية التي وقعها رئيس الوزراء السوري - جميل مردم - كملاحق للمعاهدة السورية الفرنسية ، وتعاونت العصبة مع المعارضة السياسية التي تزعمها الدكتور عبد الرحمن الشهبندر ضد سياسة الكتلة الوطنية . وكانت الاجتماعات والمهرجانات التي تنظمها العصبة تنتهي دائما بعراك في الشارع بينها وبين انصار الكتلة الوطنية (٢٥) .

وخلال النصف الاول من الثلاثينات ، انتشرت فروع العصبة في مختلف المدن السورية ، وكان ابرز فروعها نشاطا في دمشق والاسكندرية وحمص ، وقد سجل فرع الاسكندرونة نشاطا ملحوظا وبخاصة في اواخر عام ١٩٣٦ ، حين اثار الاتراك قضية لواء الاسكندرونة وطالبوا بضمه الى تركيا ، فاعلن فرع عصبة العمل القومي في الاسكندرونة ، ان العصبة ستظل مثابرة على الدفاع المستبسل عن كيان البلاد ومصالح الشعب الحيوية ، ودعت كافة العناصر الى مشاركتها في العمل واظهار تاييدها للوفد السوري الذي حمل من باريس معاهدة صداقة وتحالف بين سورية وفرنسة بحرية الوطن واستقلاله . وحثت الشعب في اللواء على الاشتراك في الانتخابات النيابية لاختيار ممثليه الامناء على مصالح الشعب ، ودعتهم أن لا يتركوا مجالا للدسائسين الذين يسخرون مصلحة الشعب لاشباع اطماعهم الشخصية (٢٦) .

ولما اثيرت قضية اللواء امام عصبة الامم ، احتج فرع العصبة في اللواء على ارسال الوفد السوري المؤلف من « عبد الرحمن الكيالي - من قادة الكتلة الوطنية وحسن جبارة - مدير مالية اللواء » الى جنيف للدفاع عن اللواء ، وطالب استبدال شكري القوتلي وزكي الارسوزي بهما . كما وقف - فرع العصبة - في وجه مؤامرات الاتراك والفرنسيين ، وتهاون الكتلة الوطنية - التي كانت قد تسلمت مقاليد الحكم في سورية - ونظم مظاهرات كبيرة في اللواء مشى بها عشرون الفا من العرب امام لجنة الخبراء الدولية التي وصلت الى اللواء لدراسة وضعه (٢٧) .

وألفت العصبة الوفود لمقابلة لجنة الخبراء في اللواء ، وقدمت لها الوثائق والمستندات التي تبرهن على عروبة اللواء ، وبعد عقد اتفاق جنيف في ٢٣ كانون الثاني ١٩٣٧ - اذني منح تركيا بعض الامتيازات في اللواء - قادت العصبة المظاهرات في مختلف المدن السورية ، واذاغت اللجنة المركزية للعصبة في ٢٦ كانون الثاني ١٩٣٧ بيانا طالبت فيه بعقد دورة استثنائية للمجلس النيابي السوري لمعالجة الموقف ، كما طالبت

الحكومة السورية بالرجوع عن المعاهدة اذا كان ثمنها ابتلاع ارض جديدة من الوطن (٢٨) .

وحملت عصبة العمل القومي مسؤولية مصر اللواء للحكومة السورية ، واعتبرت تصديق الاتفاقية الخاصة باللواء من الحكومة السورية خيانة وطنية تتحمل تبعته ، واصدرت بيانا يوم ٢٩ تشرين الثاني ١٩٣٧ - موعد بدء تنفيذ اتفاق جنيف - استنكرت فيه موقف الوجوم الذي يقفه العرب ازاء اللواء . واعتبرت هذا اليوم من ايام بؤس العرب التي ما زالت تتوالى عليهم منذ الاحتلال الفرنسي ، ودعت الامة الى الاتحاد والتضامن في سبيل استعادة الحقوق المسلوقة من ارض الوطن (٢٩) .

وكان للعصبة مواقف مشهودة في الدفاع عن قضية فلسطين ، فشارك بعض اركانها في مؤتمر بلودان ١٩٣٧ من اجل فلسطين وساهموا في صنع قرارات المؤتمر (٣٠) كما ساهمت العصبة في تأمين السلاح للثورة الفلسطينية عن طريق المحامي شفيق سليمان - احد اركان العصبة - الذي كان يتولى الاشراف على نقل السلاح من العراق الى فلسطين ، وتعرض للاعتقال من قبل السلطات الفرنسية بتهمة تهريب السلاح والذخائر الى مجاهدي فلسطين (٣١) .

وفي اوائل عام ١٩٣٩ ، رفعت العصبة الى المندوب السامي في فلسطين احتجاجا على اعمات السلطة البريطانية في فلسطين واطلاق الجند البريطاني الرصاص على قبة الصخرة من الكنيس اليهودي في القدس . وطلبت وضع حد لمثل هذه الاهانات المتكررة . كما ارسل فرع العصبة في بيروت في اوائل عام ١٩٣٩ برقية احتجاج الى رئيس الوزارة البريطانية والى الصحف اللندنية ، على عدم تمثيل سورية ولبنان في مؤتمر لندن من اجل فلسطين الذي عقد في اوائل عام ١٩٣٩ (٣٢) .

وخلال عام ١٩٣٩ ، أعلنت العصبة انها تعتبر اللبنانيين كأخوة وشعب واحد ، ليس فيه اقلية أو اكثرية ، وسواء اكانوا مسلمين او مسيحيين . وكان ذلك لخلق روح الولاء للبنان ، كما اعتبرت العصبة لبنان دولة عربية لها سياستها الخاصة ، وليس قسما من اي دولة اجنبية (٣٣) .

ومع اندلاع الحرب العالمية الثانية قل نشاط العصبة ، شأنها في ذلك شأن معظم الاحزاب الاخرى . والحقيقة ان العصبة لم تكن حزبا سياسيا بالمعنى الصحيح للحزبية ، فكانت تمثل في برنامجها رأي الفئة المثقفة انذاك ، كما انها تعتبر اول بذرة لتنشوء الاحزاب القومية بعد الحرب العالمية الثانية .

نال المرشح شهادة الماجستير برسائله « الاحزاب السياسية في سورية بين ١٩٢٠-١٩٣٩ » باشراف الدكتورة خيرية قاسمية .

الهوامش :

- (١) محمد عزة دروزة القضية الفلسطينية في مختلف مراحلها الجزء الاول دمشق ١٩٨٤ ص ٣٠٠.
- (٢) بيان المؤتمر التأسيسي لعصبة العمل القومي المنعقد في قرنايل - لبنان - ١٩٣٣ .
- (٣) المصدر السابق صفحة ٣ - ساهمت عصبة العمل القومي قبيل اعلان بيانها في دراسة الوضع السياسي في سورية الناجم عن مشروع المعاهدة السورية الفرنسية - التي اعدّها المفوض السامي « بونسو Ponsot » سنة ١٩٣٣ - وسياسة « التفاهم النزيه » الذي سارت عليها الكتلة الوطنية.
- (٤) المصدر السابق صفحة ٣
- (٥) المصدر السابق صفحة ٤
- (٦) المصدر السابق صفحة ٦٥
- (٧) المصدر السابق صفحة ٨ .
- (٨) المصدر السابق صفحة ٩٠٨ .
- (٩) المصدر السابق صفحة ١١٠١ .
- (١٠) المصدر السابق صفحة ١١
- (١١) المصدر السابق صفحة ١٥ .
- (١٢) منهاج عصبة العمل القومي المادة (١٠) من وثائق المحامي سعيد ابو الحسن امين فرع عصبة العمل القومي في مدينة السويداء .
- (١٣) بيان المؤتمر التأسيسي لعصبة العمل القومي صفحة ١٦.
- (١٤) المصدر السابق صفحة ١٧ .
- (١٥) المصدر السابق صفحة ٢٠ .
- (١٦) منهاج عصبة العمل القومي المواد (٣-٨-٩-١١) .
- (١٧) مقابلة شخصية مع الاستاذ سعيد ابو الحسن بالسويداء بتاريخ ١-٩-١٩٨٤ . ولديه المعلومات المتعلقة بالهرم التنظيمي لعصبة العمل القومي .
- (١٨) كانت التشكيلات شبه العسكرية قد انتشرت في منطقة الشرق الاوسط خلال الثلاثينات من القرن العشرين ، وكانت تعتبر أسلوبا من الاساليب التي لجأ اليها العرب لمقاومة سلطات الانتداب . ففي سورية تشكلت فرق القمصان الحديدية وحزب الفتوة وفي لبنان تشكل حزب الكتائب اما في العراق فقد ظهرت منظمة الفتوة ، كما تأسس في مصر حزب مصر الفتاة .
- (١٩) مذكرات مخطوطة غير منشورة للمجاهد فوزي زكي الحموي احد مجاهدي الثورة السورية وايضا: Khoury, Philips, . Syria and the French Mandate (unpublished Dissertation For the Degree of Doctor of Philosophy) Harvard university, Cambridge Massachusetts, May 1980, vol, 3, P,1145.
- (٢٠) مجلة العرب الصادرة في القدس العدد ٣٤ تاريخ ٢٩ نيسان ١٩٣٣.
- (٢١) بيان المؤتمر التأسيسي لعصبة العمل القومي صفحة ٢٦ و ٢٧ .

- (٢٢) صحيفة القبس الدمشقية بتاريخ ١٢ تشرين الاول ١٩٣٤ .
- (٢٣) مذكرات المجلس النيابي السوري جلسة ٢٨ كانون الاول ١٩٣٦ صفحة ١٣٢ .
- (٢٤) مقابلة شخصية مع الاستاذ سعيد ابو الحسن بتاريخ ١٩٨٤/٩/١ . وقد اكد بان العصبة قد طردت كلا من صبري العسلي واحمد الشرباتي من صفوفها لقبولهما بالمعاهدة .
- (٢٥) منير الرئيس الكتاب الذهبي لتاريخ الثورات الوطنية في المشرق العربي - ثورة فلسطين ١٩٣٦ صفحة ٢٩٢ .
- (٢٦) لواء الاسكندرونة الشهيد اصدار عصبة العمل القومي دون مكان دون تاريخ صفحة ٥٤ و ٤٦ . ويبدو ان موقف العصبة في اللواء المؤيد للمعاهدة مخالف لموقف العصبة بوجه عام .
- (٢٧) المصدر السابق صفحة ٥٤ . كانت عصبة الأمم بعد ان اثارت تركيا قضية اللواء - قد عينت في اواخر عام ١٩٣٦ لجنة دولية اوفدتها الى لواء الاسكندرونة لدراسة وضعه ، وقد تالفت هذه اللجنة من : المسيو كارون (Caron) ، هولندي والمسيوهانز هولشتاد (Hans Holstad) نرويجي . والمسيو شارل فون فاتنغيل (Von wattenwyl) سويسري . وقد وصلت هذه اللجنة الى اللواء في ١٩٣٦/١٢/٣١ وبشرت اعمالها . انظر مجيد خدوري قضية الاسكندرونة دمشق ١٩٥٣ صفحة ٤٣ .
- (٢٨) لسواء اسكندرونة الشهيد صفحة ٦٧ .
- (٢٩) النص الكامل لبيان العصبة في المصدر السابق صفحة ٩٧ .
- (٣٠) شارك في المؤتمر من عصبة العمل القومي كل من (عبد الكريم العائدي ، زكي الجابي ، احمد الشهابي ، ابو الهدى اليافي ، زكي الارسوزي ، ثابت العزاوي ، عبد الدائم الاتاسي ، عرفان الجلال ، عبد الكريم الفياض الدندشي ، شفيق سليمان ، علي ناصر الدين ، اكرم زعيتر ، واصف كمال) انظر فؤاد مفرج المؤتمر العربي القومي في بلودان ١٩٣٧ دمشق صفحة ٢١-٣٤ .
- (٣١) اكرم زعيتر يوميات الحركة الوطنية الفلسطينية ١٩٣٥ - ١٩٣٩ بيروت ١٩ صفحة ٣٨٤-٥٧٢ .
- (٣٢) المصدر السابق صفحة ٥٥٨ - ٥٦٤ .
- (٣٣) Ziadeh, N., Syria and Lebanon, N. V 1956, P. 199.

بَعْضُ مَظَاهِرِ النَّظْمِ الْإِدَارِيِّ فِي بِلَادِ الشَّامِ عِندَ حُكْمِ مُحَمَّدٍ عَلِيٍّ بَاشَا ، ١٨٣١ - ١٨٤٠

فندي أبو فخر

مرشح للماجستير

كانت التقسيمات الادارية في بلاد الشام ابان الحكم العثماني لها ، وقبيل خضوعها لحكم محمد علي باشا ، خلال عامي ١٨٣١ - ١٨٣٢ م تشتمل على أربع ولايات هي :

أ - ولاية الشام (١) : ومركزها مدينة دمشق وكانت تمتد من معرة النعمان حتى العريش . بيد أن ثورة واليها العثماني جان بردي الفزالي في تشرين الاول من عام ١٥٢٠ م ، جعلت السلطان العثماني يعيد النظر في حدودها هذه ، بعد أن قضى على هذا الثائر في مطلع عام ١٥٢١ م ، (٢) بشكل يمكنه من السيطرة عليها ومنع قيام ثورات أخرى ، فاقترنت حدودها على المنطقة الممتدة ما بين دمشق والعريش ، وضمت منذ ذلك الحين ، بالإضافة الى لواء دمشق ، الولاية التالية : القدس ، غزة ، نابلس ، صفد ، عجلون ، اللجون ، صيدا ، بيروت ، الكرك والشوبك ، تدمر .

ب - ولاية حلب (٣) : ومركزها مدينة حلب . وكانت تضم بالإضافة الى لواء حلب الولاية التالية : أضنة ، كلس ، بير جك ، بالس ، منبج ، معرة النعمان وتركمان ، واعزاز .

ج - ولاية طرابلس (٤) : ومركزها مدينة طرابلس ، وتتألف من الوية طرابلس ، حمص ، حماه ، السلمية ، الحصن ، جبلة ، اللاذقية .

د - ولاية صيدا(٥) : ظهرت هذه الولاية في عام ١٦٦٠م(٦) ، بعد أن سلخت صفد وصيدا مع بيروت وصور وعكا عن ولاية الشام ، لتشكل منها ولاية صيدا ، وذلك بقصد اخضاع سكان لبنان ، وقطع الطريق عليهم لمنعهم من القيام بأية ثورة أو اية محاولة استقلالية عن السلطنة ، وجعل مقرها مدينة صيدا نفسها .

وكان جبل لبنان يتمتع بوضع اداري خاص في ظل الامراء المعنيين ، بعد أن اعترف بهم السلطان سليم الاول ، طالما وقفوا الى جانب العثمانيين ، والتزموا بتقديم الطاعة والضرائب لسلطنتهم ، ثم خلفهم في الحكم الامراء الشهابيون منذ عام ١٦٩٧م في(٧) ، بعد وفاة الامير احمد المعني الذي توفي عقيما ، فاختر اعيان الجبل ابن اخته الامير بشير بن حسن الشهابي أمير راشيا خلفا له . وتوالى من بعده على الحكم الامراء الشهابيون حتى عام ١٨٤٠ م .

وبعد أن سقطت مدينة عكا في ٢٧ أيار ١٨٣٢ م استطاعت قوات محمد علي باشا في النصف الثاني من العام نفسه أن تجتاح بلاد الشام ، وتصل في مطلع ١٨٣٣ م الى كوتاهية . ومنذ ذلك الحين أصبح ابراهيم باشا ، ابن محمد علي باشا ، قائدا وحاكما(٨) عاما لبلاد الشام ، كما أصبحت القاهرة المرجع الاعلى لسلطاتها الادارية والقضائية والسياسية والعسكرية ، مما يشير الى خضوع هذه البلاد لحكم مركزي في مصر ، بعد أن كانت خاضعة للسلطان العثماني في الاستانة ، ثم بدأ ابراهيم باشا بتطبيق انظمته الادارية الجديدة بعد أن ألغى التقسيمات الادارية التي كانت سائدة ابان الحكم العثماني ، وجعل مقر اقامته في مدينة انطاكية(٩) على مقربة من الحدود السورية - التركية ، وذلك لاسباب عسكرية بحثة ، كي يتمكن من مراقبة تحركات الجيش العثماني ، لمنع من القيام بأي اجتياح عسكري لبلاد الشام من شأنه ان يهدد سلامة حكمه فيها .

وكان ابراهيم باشا قد وجه متسلمين للمدن الساحلية(١٠) كصيدا ، وصور ، وطرابلس ، وبيروت ، بعد أن سيطرت قواته عليها في كانون الاول من عام ١٨٣١م كما عين منيب أفندي(١١) متسلما لمدينة عكا بعد أن سقطت بيده في ٢٧ أيار عام ١٨٣٢ ، وطلب من ابيه تعيين حاكم عام لبلاد الشام ، ليتمكن من حمايتها من الاخطار المحدقة بها ، طالما أنه كان يرى أن بقاءه قرب الحدود الشمالية ضرورة ملحة من جهة وليتمكن أيضا من الاشراف على شؤون الحكم ، ومراقبة أعمال كبار الموظفين والحكام وفق التقسيمات الادارية الجديدة من جهة اخرى .

وكان محمد علي بدوره قد استجاب لرغبة ابنه هذه ، فعين محمد شريف(١٢) باشا أحد أنسبائه حاكما عاما على بلاد الشام في خريف عام ١٨٣٢ م ، وجعله مرتبطا مباشرة بابنه ابراهيم ، كما جعل مقر اقامته مدينة دمشق ، مما يشير الى ان محمد علي جعل هذه المدينة مركزا لادارته في بلاد الشام .

بيد ان محمد شريف باشا هذا لم يكن يتمتع بصلاحيات الحاكم العام في البلاد كما يظهر ، حيث كانت شخصية ابراهيم باشا تعتبر المرجع الاعلى في الشؤون الادارية والسياسية العامة ، وهي المخولة بتعيين كبار الموظفين من مسلمين وغيرهم . ففي تشرين الاول من عام ١٨٣٢ (١٣) ، وبعد تنصيب محمد شريف باشا في منصبه هذا ، فوض ابراهيم باشا الامير بشير الشهابي ، الذي اعلن ولاءه للحكم الجديد ، بتسمية مسلمين للمدن الساحلية كصيدا وصور وبيروت .

وفي أعقاب صلح كوتاهية في اواسط شهر ايار من عام ١٨٣٣ بين السلطان العثماني ومحمد علي ، قام ابراهيم باشا برفع سلطة الامير بشير عن المدن الساحلية المذكورة ووجه عليها مسلمين جدد حدد اسماءهم بنفسه ، دون ان يكون لحاكم الشام دورا ملحوظا في ذلك . غير ان ذلك لا ينفي ان محمد شريف باشا كان يقوم بتسمية مسلمين لبعض المدن الفلسطينية كالقدس (١٤) ويافا وغيرها على سبيل المثال ، لكن هذا الامر لا يثبت انه كان يتمتع بصلاحيات الحاكم العام لبلاد الشام .

وكان ابراهيم باشا قد قسم بلاد الشام الى ثلاث مديريات بدلا من الولايات ، هي دمشق الشام ، وطرابلس ، وصيدا ، وعلى رأس كل منها مدير مهمته ادارة شؤون الحكم العامة فيها ، وجعل هذه المدن مركزا لهذه المديريات ، ونصب الشيخ حسين (١٥) عبد الهادي في أعقاب القضاء على انتفاضة فلسطين في النصف الثاني من عام ١٨٣٤م مديرا على مديرية صيدا ، وذلك بسبب اخلاصه للحكم الجديد ، بعد ان كان متسلما على مدينة عكا منذ كانون الثاني من عام ١٨٣٤ بعد متسلمها السابق منيب أفندي . وظل الشيخ حسين عبد الهادي يشغل هذا المنصب الى ان وافته المنية في النصف الثاني من عام ١٨٣٧ م ، فخاطب ابراهيم باشا الشيخ سليمان عبد الهادي أحد أبناء الشيخ حسين قائلا : (١٦) « قدوة الامجد الشيخ سليمان صار معلوما اعراضكم بخصوص وفاة الوالد وال حال من المعلوم ان ذلك بأمر الله تعالى مقدرا محتوم وكل منا داخل بعموم هذه القضا المرسوم فلا يقتضي تفكيركم من هذا البحث » . ثم عين الجنرال سيف (١٧٨٨ - ١٨٦٠) على مديرية صيدا (١٧) لثقة الحكم الكبيرة به ، ولخبرته العميقة بشؤون الاجانب الذين كانوا يقيمون في المدن الساحلية التابعة لهذه المديرية .

ثم اضطر ابراهيم باشا نتيجة للصعوبات الداخلية التي كانت تواجه حكمه الى فصل حلب عن مديرية الشام (دمشق) ، وجعلها مديرية رابعة ، وعين اسماعيل عاصم (١٨) بك مديرا عليها في عام ١٨٣٨ م .

وهكذا اضطر ابراهيم باشا ، خلال الفترة من عام ١٨٣٢ - الى عام ١٨٣٨ م ، ان يعيد التشكيلات الادارية التي كانت سائدة زمن العثمانيين بتسميات جديدة ،

فأصبحت بلاد الشام مقسمة الى أربع مديريات بدلا من أربع ولايات ، بالإضافة الى استمرار وضع امارة (١٩) جبل لبنان كما كان عليه سابقا ، لكون الامير بشير الشهابي كان من أشد المخلصين للحكم الجديد . وقد ضمت هذه المديريات الاربع اثنين (٢٠) وعشرين قضاء ، وثمانين وعشرين ناحية ، وأكثر من ألف ومائة مدينة وبلدة وقريّة ومزرعة ، وكلفت مديرية دمشق (الشام) اهم هذه المديريات كما كان لواء دمشق أيضا اهم الويتها ، وقد ارتبطت به اقضية بعلبك والبقاع ودوما والنبك ، ووادي العجم ، وحاصبيا وراشيا ، بالإضافة الى مدينة دمشق نفسها . وكان لواء حوران التابع لمديرية دمشق يضم اقضية عجلون ، والقنيطرة وبصر الحرير ، ودرعا ، وجبل حوران الذي هو اصغر هذه الاقضية وأقلها مساحة .

لقد استطاع ابراهيم باشا إلغاء التقسيمات الادارية التي كانت سائدة إبان الحكم العثماني ، وجعل من المديريات الاربع وحدة ادارية وسياسية تابعة لمركز الحكم في عاصمة عربية في مصر بدلا من تبعيتها الى عاصمة اجنبية خارج حدود البلاد العربية ، غير انه عجز في حقيقة الامر عن ابقاء هذه الوحدة متماسكة ومستقرة لاسباب رئيسية اهمها :

١ - عجزه عن تحمل اعباء الحكم والادارة وقيادة الجيش ، وفرض الامن .
والتهيو الدائم للدفاع عن البلاد بسبب ضخامة هذه المسؤوليات الملقاة على عاتقه كفاءة وحاكم عام لبلاد استولى عليها بالقوة .

٢ - بعد مقر اقامته في انطاكية عن المدن الهامة والرئيسية في البلاد ، الذي حال دون تمكنه من مراقبة مايجري فيها عن كثب ، وضبط الجهاز الاداري ومراقبة أعماله .

٣ - استمرار الانتفاضات ضد حكمه في فلسطين وجبال العلويين ، وجبل حوران ، التي هدرت قسما كبيرا من قدراته العسكرية والمالية ، واتاحت للدول الاوربية للتدخل في شؤون حكمه الداخلية ، عبر دبلوماسيتها وقناصلها وتجارتها في بلاد الشام ، بشكل متزايد ، فاستمرت سنوات حكمه بالاضطراب والقلق والتبديل المستمر للرؤساء الاداريين في المدن الشامية المختلفة ، لاسيما الساحلية والفلسطينية منها .

الهيكل الاداري للحكم :

كان ابراهيم باشا نائب والده في حكم بلاد الشام ورأس الادارة فيها ، وهو الذي كان يتلقى اوامر والده ويقوم بتنفيذها بحذافيرها ، يساعده في ذلك مرؤوسوه من كبار الموظفين والحكام أو المديرين بالإضافة الى الشخصيات الاخرى مثل الطبيب الفرنسي كلوت بك (١٧٩٣ - ١٨٦٨ م) (٢١) ، وحنا البحري ، والامير بشير

الشهابي (١٧٦٧ - ١٨٥٠ م) . وكان الهيكل الاداري للحكم في البلاد موزعا على الشكل التالي :

الحاكم العام لبلاد الشام : شغل هذا المنصب محمد شريف باشا ، غير ان وثائق الحكم لتلك الفترة لم تؤكد على تمتعه بصلاحيات هذا المنصب بشكل كامل كما مر معنا سابقا .

المدير (٢٢) : وكان يرأس كل مديرية من المديريات الاربع موظف كبير من الحكام ، يدعى مديرا ، بدلا من الوالي ، ويأتي من حيث الاهمية بعد ابراهيم باشا . وكان يقوم بممارسة الحكم وادارة شؤونه الادارية والقضائية والاقتصادية والمالية ، ويسهر على حفظ الامن ورعاية مصالح الدولة في مديريته .

المتسلم (٢٣) : يلي المدير من حيث الاهمية الادارية موظف يدعى المتسلم ، فقد سمي لكل مدينة متسلم بمثابة الرئيس الاداري فيها « ونصب لكل بلدة متسلما من اهل الاسلام ومرجع الكل هو مركز الحكم في الشام » . وكان المتسلم يتلقى اوامر المدير وكبار الحكام ويقوم بتنفيذها ، ويسهر على رعاية مصالح الدولة المختلفة في مدينته .

وكيل المتسلم (٢٤) : ويأتي بعد المتسلم من حيث الاهمية موظف اداري يدعى وكيل المتسلم ، كان يقوم مقامه في حال غيابه ، ويشاركه اعباء الحكم اليومية ، وكان يقوم ، على سبيل المثال لا الحصر ، بمخاطبة الجهات الادارية الادنى والاعلى لتسيير شؤون الحكم المختلفة مثل المجالس المحلية ، والقاضي الشرعي والمحتسب وغيرهم ، كما كان يتلقى رسائل وكتب صادرة عن هذه الجهات ، خاصة في غياب المتسلم ، او في حال عدم قدرته على مزاولة عمله .

المباشر (٢٥) : وهو بمثابة امين سر المتسلم ومدير ماليته ، ويقوم بالاشراف على تنظيم حسابات المالية واموال الميري ، وتنظيم الضرائب ، ويتبع هذا الموظف من الناحية المالية لمدير المالية في بلاد الشام حنا البحري ، الذي كان بمستوى كبار الحكام ، لما كان يتمتع به من صلاحيات كبيرة ومختلفة .

المجالس المحلية (٢٦) : شكل ابراهيم باشا في بلاد الشام ، على غرار ما جرى في مصر ، وفي كل مدينة يبلغ عدد سكانها من عشرين ألف نسمة وما فوق ، مجلسا محليا يضم ممثلين عن الطوائف الدينية ، وكبار التجار والاعيان فيها .

محافظ بيروت (٢٧) : تميزت مدينة بيروت عن بقية المدن الشامية الاخرى

بانفرادها بهذه الوظيفة الادارية التي اُضيفت الى الجهاز الاداري فيها ، نظرا لاهميتها كميناء تجاري هام يطل على العالم الخارجي ، وتواجد التجار الاجانب بشكل كثيف ودائم فيها . وهذا ما جعلها ذات اهمية اقتصادية واجتماعية وسياسية بارزة ، دفعت الادارة الجديدة الى خلق هذه الوظيفة الادارية المميزة بفرض السيطرة على مقاليد الحكم فيها واستيعاب نشاطها الاقتصادي المتزايد . وقد انيطت بمحافظ بيروت بالإضافة الى اشرافه على مصالح الحكومة في المدينة ، مهمة الاشراف على شؤون الاجانب التجارية ، وما ينجم عنها من مشاكل متعلقة بالدولة ، كما كان يحيل دعاوي السكان الى الجهات المختصة لبحثها والبت فيها ، مثله في ذلك مثل المتسلم ووكيله .

شيخ القرية (٢٨) : وكان في كل قرية شيخ يدعى شيخ البلد (شيخ القرية) يتولى رعاية مصالح الحكومة في قريته ، ويقوم بمساعدة صغار المأمورين والموظفين الذين كانوا يمارسون أعمال الادارة فيها ، كجباة الضرائب الذين يقومون بتحصيل الاموال العامة . ولشيوخ كل منطقة شيخ يشرف على شؤونهم ويكون ويكون صلة بينهم وبين الادارة يسمى شيخ المشايخ ، ويقوم بتنفيذ سياسة الحكم وتوجيهاته .

الناظر (٢٩) : وكان لكل مصلحة من مصالح الحكومة موظف يشرف على شؤونها ، ويكون صلة الوصل بين السلطة الادارية وبين العاملين فيها ويدعى بالناظر ، كناظر مدبغة الميري ومصلحة الجبول ، والبريد ، وشؤون الابنية ، والافران وغير ذلك .

ناظر النظار (٣٠) : ويشرف على نظار كل مصلحة من المصالح ويدير أعمالهم ، كناظر نظار المخابز ، وناظر نظار القرايا .

وكيل الجمارك (٣١) : وهو موظف يدير شؤون الجمارك ويرعى مسألة تحصيل الرسوم الجمركية المطلوبة ويعمل على تنظيمها ، ويطالب بتحصيل الاموال المتأخرة على بعض التجار ، ويرسل قائمة باسماء من تأخر منهم عن تسديد الرسوم المترتبة عليه الى الجهات الاعلى من اجل القيام بالاجراءات اللازمة ولدفعها لموظفي المالية كالمباشر مثلا في المدن الشامية .

وقد شهدت مدينة بيروت بوصفها ميناء البلاد الرئيسي ، نشاطا لوكيل الجمارك فيها ، وكان التجار الاجانب يدفعون رسوما على بضائعهم تتراوح ما بين نصف الى ثلاثة بالمئة ، بينما كان يدفع التجار الوطنيون رسوما تتراوح (٣٢) ما بين ١٢ و ١٠ بالمئة ، ما جعل قسم من التجار الوطنيين يعمل باسم التجار الاجانب للتخلص من الرسوم الباهظة مقابل اعطاء التاجر الاجنبي ما نسبته ثلاثة بالمئة من قيمة بضائعهم .

المحتسب (٣٣) : وهو موظف مكلف بالاشراف على اسعار السلع والبضائع في الاسواق العامة والمحلات التجارية ومراقبتها ، والقيام بالاجراءات المناسبة لمنع الغش والتلاعب ، واعلام الجهات الادارية بالمخالفات العامة .

ومن الجدير بالذكر ان بلاد الشام لم تعرف ذلك التوسع في الجهاز الاداري الذي عرفتته مصر ، كانشاء الدواوين المختلفة مثل ديوان الجهادية (وزارة الحربية) وديوان الخديوية (وزارة الداخلية) وديوان المدارس ، وديوان البحر ، وديوان التجارة والصناعة والمالية . غير ان الحكم كلف حنا البحري بالاشراف على تنظيم الشؤون المالية في بلاد الشام ومنحه لقب مدير مالية ، واخضعه لديوان الايرادات (المالية) في مصر ، كما كلف كلوت بك بالاشراف على شؤون التعليم بشكل شخصي ، دون احداث هيئة ادارية تشرف على ذلك ، مثلما كلف كبار الحكام بالاشراف على الشؤون التجارية والزراعية والحربية والامنية ، دون الارتقاء الى مستوى تنظيمي مماثل لما جرى في مصر . وبذلك اقتصرت اجراءات الحكم الادارية على اعادة تنظيم الجهاز الاداري وادخال بعض المظاهر الجديدة فيه دون الوصول الى المستوى الذي وصلت اليه في مصر .

تنظيم السلطات القضائية :

كان القضاء في بلاد الشام ، ابان حكم السلطان العثماني ، واضح المعالم لاغموض فيه والمراجع القضائية واضحة ومعروفة ، وقد كانت السلطات العثمانية تكفل حرية المحاكم القضائية . وكان العدل في الاحكام القضائية يتوقف على نزاهة القاضي الشرعي الذي كان يبيت في القضايا المدنية (٣٠٤) ، وعلى نزاهة الباشا او كاخيته (نائبه) الذي كان يبيت في القضايا الجزائية .

غير ان ذلك لا يعني ان القضاء ايام العثمانيين كان سليما من الامراض والسلبيات ، فقد كان السلطان العثماني يقوم بتعيين المفتي الذي يقوم بدوره بتعيين القضاة بطرق لم تكن مستقيمة بشكل دائم ، مما يؤدي الى الابتزاز واللجوء الى سبل غير سليمة في اجراءات المحاكمة .

اما حكومة محمد علي باشا ، فقد حاولت تنظيم القضاء على اسس حديثة مستمدة من نمط القضاء الفرنسي ، فجعلت من القاهرة مرجعا اعلى للسلطات القضائية في بلاد الشام ، فكانت الدعاوى ترسل الى مصر ، عند ضرورة تمييزها ، لاعادة النظر فيها والبت فيها بشكل نهائي . وهذا ما يشير ايضا الى اضعاف طابع الحكم المركزي على كل مؤسسات ادارة محمد علي في بلاد الشام ، واخضاعها لمركز الحكم في مصر .

ومن الجدير بالذكر ان ابراهيم باشا لم يقدم على اتخاذ اي اجراء من شأنه المساس بالقضاء الشرعي ، الذي بقي تابعا (٣٥) للعثمانيين من جهة ، ولان القضاء الشرعي يعد مظهرا من مظاهر الحياة الدينية لمعظم المواطنين في بلاد الشام ، مما يوجب

على الادارة الجديدة مراعاة مشاعر هؤلاء المواطنين لتجنب اثاره الراي العام الديني من جهة اخرى ، في وقت لاتتعارض فيه عقلية محمد علي مع الاطار الفكري الديني السائد آنذاك . ولقد حاولت ادارة محمد علي ان تجعل السكان ، على اختلاف طوائفهم ، سواسية امام القضاء المدني ، لا فرق بينهم ولا تفضيل لطائفة دينية على الاخرى ، فألقى الفروق بين المسلمين وغيرهم من الناحية الشكلية دون المساس بجوهر الفوارق الاجتماعية القائمة .

ولوضع حد للرشوة والفساد في السلك القضائي ، عمد ابراهيم باشا الى معاقبة المرتشي بعقوبات رادعة ، ومنح العاملين في القضاء رواتب (٢٦) معلومة كبقية الموظفين ، بعد أن كانت رسوم الدعاوى مصدر رزقهم .

وبعد احداث المحاكم الجديدة وزع ابراهيم باشا الاختصاصات القضائية بين سلطات متعددة أهمها :

— قاض في كل مدينة مهمته (٢٧) البت في المنازعات التي تنشب بين الاهلين ، والنظر في القضايا الجزائية .

— محكمة مؤلفة من قاض (٢٨) وعضوين وكاتب لتسجيل محاضر جلساتها ، ومركزها مدينة دمشق ، سميت بالمحكمة العليا .

— قاض للقضاة كان بمثابة محكمة الاستئناف وله حق النظر في الدعاوى المستأنف عليها . وكان لابراهيم باشا حق الحكم بالاعدام بعد المحاكمة ، وتصديق حكم الاعدام الصادر عن كبار الاحكام كشریف باشا والجنرال سيف ، واسماعيل بك وغيرهم من الذين منحوا حق اصدار الحكم بالموت .

كما كان لمجالس المدن حق النظر في قضايا الادارة البلدية المتعلقة بشكاوى المواطنين المقدمة اليها .

ومن الجدير بالذكر ان القضاء الشرعي استمر في تأدية مهامه كما كان في سابق عهده ، وخير ما يشير الى ذلك سجلات المحاكم الشرعية (٢٩) في مديرية الوثائق التاريخية بدمشق ، فكان لكل محكمة كاتب ومحرر ومقيد ، بالاضافة الى القاضي الذي كان يصدر الاحكام القضائية .

وكان المتخاصمون على مال الاوقاف ، والاجار والاستئجار ، والبيع والشراء ، والدين يتقدمون بدعاويهم الى المحاكم الشرعية للبت فيها .

يتضح مما سبق ان صلاحيات القضاء ايام حكم محمد علي باشا كانت موزعة بين جهات عديدة لم تحدد صلاحياتها بشكل واضح ، فاختلطت مهامها مع بعضها ، وبالتالي كان من الصعب على المواطن العادي معرفة الجهات المسؤولة والمختصة لتقديم شكواه اليها .

المجالس المحلية وطبيعتها :

عني ابراهيم باشا بتنظيم مختلف مفاصل الجهاز الاداري في بلاد الشام ، بشكل يحقق رغبته في جعلها وحدة ادارية متماسكة ، تشكل بعدا استراتيجيا وسياسيا لمصر ، فأنشأ مجالس محلية سميت بمجالس المشورة ، تمثلت فيها الطوائف الدينية المختلفة ، لتكون مع غيرها من التشكيلات الادارية الاخرى اداة الحكم الفاعلة ، كما جرى في مصر .

وقد كان لاحتكاك الفرنسيين بالمصريين اثناء حملة نابليون بونابرت على مصر ١٧٩٨ - ١٨٠١ م اثر واضح في مختلف اوجه وأنماط الحياة الادارية والسياسية لحكم الرجل الذي جاء ليشارك في طرد هذه الحملة من مصر . فالديوان الاستشاري (٤٠) الذي شكله نابليون بونابرت في مصر ، والذي ضم عددا من ممثلي الطوائف الدينية وبعض كبار المشايخ والاعيان والتجار المصريين ، بقي ماثلا للعيان ، ومؤديا الى فكرة مفادها ان هذا التمثيل الشعبي مستحدث وجديد في تاريخ المنطقة ، حتى بولغ في وصف هذه الظاهرة لدرجة تجاهلت فيها وظيفة الدواوين في الدولة العثمانية كالديوان الكبير والديوان الصغير ، اللذين كانا يضمنان ممثلين عن كبار التجار والاعيان ونقيب الاشراف ، وينظران في المسائل الهامة . ولما كان محمد علي داعية للاصلاح والتقدم والتحديث ، فلا بد له من ان يتخذ من ذلك المظهر الاوربي التمثيلي الذي جاء به بونابرت صورة مثلى ، لما سيقوم به من اصلاحات ادارية ، كبناء مؤسسات جديدة على النمط الاوربي .

وعلى نحو ما جرى في مصر ، سار ابراهيم باشا في بلاد الشام ، وانشأت ادارته مجالس مشورة في المدن الكبرى ، مثلت فيها كل الطوائف الدينية ، فضم مجلس مدينة دمشق واحدا وعشرين عضوا وضم مجلس مدينة بيروت اثني عشر (٤١) عضوا مناصفة بين المسلمين والمسيحيين ، وكان ناظره مسلما .

كما كان لكل مجلس من هذه المجالس كاتب يحضر يوميا الى مقر (٤٢) المجلس قبل حضور الاعضاء ، ويقوم بتسجيل اسماء اعضاء المجلس ، حسب حضورهم بالتالي ، ويرتب الاعمال اليومية التي ستعرض على المجلس في دوامه اليومي والتي تعد عملا يوميا يجب انجازه في ذات اليوم . واما في حال عدم تمكن المجلس من اتمام عمله اليومي هذا ، فعلى اعضاءه الحضور الى مقر عملهم في اليوم التالي قبل ساعة الدوام

الصباحية ، لانتهاء ما تبقى من عمل الامس قبل بداية الدوام الرسمي، ثم تسجل الاعمال المنجزة هذه في اليوم الذي انجزت فيه .

وكانت صلاحيات كاتب المجلس كبيرة ، لدرجة لا تظهر فيها اهمية ناظر المجلس الا عند التصديق على محضر الاجتماع ، فقد كان هذا الكاتب يطلب من الاعضاء الادلاء بأرائهم كل حسب خبرته ، ويضبط سير الاجتماع ، وينبه من ينشغل باحاديث جانبية مع الآخر ، معتبرا ذلك خروجاً على المصلحة العامة ، ثم يقوم بتدوين اسم كل من ينشغل بمثل هذه الاحاديث وبتدوين اقوال الاعضاء دون زيادة او نقصان في مسودة المحضر .

وفي اليوم الثاني يعود الكاتب لتلاوة محضر الاجتماع بصوت عال ، ليتيح للاعضاء الفرصة اللازمة لتعديل آرائهم او توضيحها ، او اضافة شيء جديد عليها ، اذا لم تكن مكتوبة بالشكل الذي كان يقصده هذا العضو او ذاك ، ثم يقوم الكاتب بتبويض المحضر وتقديمه لناظر المجلس لتوقيعه ومهره بخاتم المجلس ، واحالته الى الحاكم او المتسلم من اجل تنفيذ مضمونه . وكانت خلاصة المذاكرة هذه تدون تحت اسم قرارات .

وكانت هذه المجالس بحاجة الى مراقبة دائمة للقيام بواجباتها على وجه امثل، فقد لاحظ ابراهيم باشا تراكما في اعمال مجلس مدينة دمشق اهم مجالس المدن الشامية لسنة ونصف السنة ، فعالج هذا التقصير معالجة سريعة وامر (٤٣) « بحبس أعضائه في قاعة المجلس الى ان يتموا رؤية الشؤون الموقوفة » ثم قام باعلام القاهرة بهذه الحالة السيئة التي آلت اليها مجالس المدن ، وطالب بتعيين مفتش يقوم بمراقبة أعمالها ، ويكون عملها تحت اشرافه .

واذا كانت هذه هي حال مجلس مدينة دمشق ، فكيف ستكون حال المجالس الاخرى في المدن الشامية المختلفة .

واذا كانت هذه المجالس المحلية تعبر عن بعض طموح الحكم في خلق مؤسسات جديدة ، وفق اسلوب عمل يوحى بانه يمثل نمطا تمثيلا جديدا مستوحى من الغرب، فان هذه المجالس كانت صورة عن مثيلتها في مصر ، كاحدى ادوات السلطة لفرض هيمنتها على المجتمع الشامي ، ولتسد اعيان وكبار تجار المدن ضمن اطار تمثيلي طائفي ووضعهم داخل دائرة نفوذها ، وجعلهم احدى ادواتها لظلم الاهلين من خلال حل بعض مشاكلهم المتعلقة بالحكم ، وفق القاعدة السائدة آنذاك (٤٤) « وبما ان الميري يلزم له المراعاة » والمتضمنة اخضاع مصالح السكان لمصالح الدولة ، وذلك بحكم ارتباط مصالح كبار الاعيان والتجار بمصالح الحكومة بشكل يتناقض مع مصالح القاعدة

الاجتماعية العريضة التي تقوم عليها الدولة ومؤسساتها . فالسكان الذين يعملون ويقدمون للدولة ماتشاء ، كانوا يظلمون مرتين ، الاولى من قبل أعيانهم وكبار تجارهم ، والثانية من قبل الجهاز الاداري الذي يمثل ارادة الحكم ، فقد ذكر محمد علي كرد علي ، على لسان شيخ معمر ادرك جيش ابراهيم باشا في الشام ، مسألة تعسف كبار الاعيان بحقوق الفلاحين فقال (٤٥) : « ان سبب خروج الاملاك من ملك الفلاحين الى الافندية ، ان كل ما كان يقع من دين ومظلمة وغيرها كان يلقي على (حجر الضيعة) أي على حساب الضيعة كلها ، فتجمعت هذه الديون على القرية حتى اضطر أهلها الى بيعها بأرخص الاثمان صفقة واحدة ، ومن الفلاحين من تشرّدوا في القرى او من ارتضوا بان يكونوا فلاحين عند ارباب الاملاك الجدد ، واوشكت دوما أكبر قرى الغوطة في القرن الماضي ان تفرقها الديون ، واراد أهلها ان ينزلوا لغريمهم عن نصفها ويبقى لهم النصف الآخر » .

ومن غير الممكن أن يقف الجهاز الاداري الى جانب هؤلاء الفلاحين ، مادامت الدولة وموظفيها وكبار الاعيان يقفون في جهة متناقضة مع الفلاحين ومصالحهم .

في هذه الظروف يصبح أعضاء المجالس ، على ما يبدو ، مجرد أداة لتنظيم الظلم وتوسيع دائرته ، طالما أنهم قد أصبحوا مجرد موظفين اداريين يحضرون الاجتماعات اليومية في الدوام الرسمي ، ويدلون بأرائهم وفق رغبات كاتب المجلس ، ويخرجون بقرارات قد تستأنف أحيانا من قبل مدير المالية حنا البحري ، الذي اعترض على قرار مجلس حلب القاضي بشراء مادة الصابون لسنة كاملة لحساب الجيش بحجة ان سعر الصابون سينخفض عما كان عليه آنذاك ، عندما يحل موسم استخراج الزيت وصنع الصابون من جهة ، وبسبب تعرض الصابون للجفاف طيلة عام كامل من جهة ثانية مما يلحق بالخزينة اضرارا كبيرة : « فكيف (٤٦) يصوغ الحكم وطبخ الصابون ومن كل بد ان اسعار الصابون تتنازل عن هذه الاسعار فاذا انشأ مقدار بتمامه الان يحصل مفدروية على جانب الميري بالاسعار وفي نشوفة الصابون أيضا » .

وفي وثائق الحكم الكثير من هذه الامثلة التي توضح طبيعة المجالس فقد جاء في مخطوطة نوفل في هذا الاتجاه مايلى (٤٧) « وكانت المذكرات التي تحصل بين الاعضاء تكتب في جريدة بالضبط تحت اسم المتكلم وفي رأس كل شهر ترسل تلك الجريدة الى الشام ليراجعها يوحنا بك البحري وينقحها واذا وجد فيها رأيا متقدما من احد الاعضاء مخلا بفائدة الميري اعترض عليه وضمن الخسارة لصاحب ذلك الرأي لكن لم يقع من ذلك الا ماندر للغاية اذ ان هذه القاعدة اوجبت الاعضاء بان يستوفوا للميري فوق حقوقها ولو اضر ذلك بالاهالي واجحف بحقوقهم » .

فأقول بان هذه المجالس كانت إحدى أدوات الحكم المركزي الإدارية، التي تختلف في شكلها عن أدوات الحكم العثماني السابق، يبدو أقرب للواقع من وصفها بأنها شكل من أشكال التمثيل الشعبي الذي جاء به محمد علي باشا، فالظلم الاجتماعي الذي كان يطال السكان من كل الطوائف الدينية، لم تخف حدته أو تضيق دائرته بفعل ذلك التمثيل الذي ظهر في تلك المجالس، كما أن التمثيل لم يبدل من طبيعة الحكم المركزية لعدة أسباب أهمها :

— وقوف هذه المجالس بشكل آلي إلى جانب الدولة، في القرارات المتخذة بصدور الدعاوى المقدمة إليها .

— وجود ممثلين عن الطوائف الدينية لا يعني تمثيل الطوائف نفسها، لكون أعيان وكبار هذه الطوائف المتواجدين في المجالس لا يقلون ظلما للامة، من طائفتهم والطوائف الأخرى، عن الدولة نفسها، وذلك بسبب ارتباط مصالحهم مع الحكم العثماني من قبل، ومع الإدارة الجديدة من بعد .

وقد يشير إلى ذلك وجود موظفين ماليين كبار في مؤسسات الحكم العثماني، فقد ذكر ميخائيل مشاقة (١٨٠٠ — ١٨٨٨ م) هذا الأمر قائلا « (٤٨) » فقد كان أبناء السكروج الروم الأرثوذكس ذوي النفوذ الكبير عند الجزائر ووظيفتهم إدارة الخزينة والحسابات » كما ذكر أسماء أخرى لعبت دورا هاما في إدارة الجهاز المالي (٤٩) : « وكان كتاب الخزينة المعلم جرجس مسدية وإبراهيم الصابونجي وكتاب التحريات العربية المعلم حنا العورا وهو من المصابين بوحشية الجزائر فكان مقطوع الأنف وبمعيته أولاده ميخائيل وإبراهيم وجميعهم من الماهرين بالخط والانشاء » . وكانت إدارة الخزينة في دمشق تشغل من قبل (٥٠) « بيت فارحي اليهود حينا، وآل السكروج الأرثوذكس، ويوحنا البحري الكاثوليكي، الرجل القوي في زمن الحكم المصري في سوريا » . كما أصبح لبطرس إبراهيم كرامي (٥١) (١٧٧٤ — ١٨٥١) الحمصي الأصل منزلة كبيرة في بلاط الأمير بشير الشهابي أمير جبل لبنان، وكذلك الأمر بالنسبة لميخائيل مشاقة وميخائيل العورا في عكا ولقد عبر الشاعر الشامي المعروف أمين الجندي الحمصي الأصل (٥٢) (١٧٥٦ — ١٨٤٠ م) عن فرحة الناس بما ألم بال فارحي على يد أحمد باشا الجزائر والي صيدا، في قصيدة شعرية تقتطف منها :

نشكو لعلياه ما قاست رعيته	من البلىا وعقد الصبر محلول
كم مرة مكسروا بالإبرياء وكم	خانوا وزيرا له بالعدل تجميل
وكم إلى السجن قادوا غافلا فمضى	منكس الرأس بالاصفاد مفلول
حيث الدفاتر عبرانية رقمت	خلاف السننا والسر مجهول
كم بالربا سحبوا ذيل الخراب على	اهل البلاد وكم قالوا لهم زولوا

وهذا ما يشير الى العلاقة التي كانت تربط هؤلاء بالحكم العثماني ثم بحكم محمد علي باشا في حين ظل المواطن العادي ، فلاحا أم حرفيا ، خارج دائرة اهتمام الحكم ، ايا كان انتماءه الديني . ولقد افصح الفلاحون لندوبي الحكومة المكلفين بجباية الضرائب عن كل ما كانوا يدفعونه ايام الحكم العثماني من ضرائب ومصادرات وهذايا(٥٢) « وأوهم الفلاحين ان قصد الحكومة من ذلك ابطال ما كان من تلك الاشياء ظلما فترفعه عنهم » لاعتقادهم بحسن نوايا الادارة الجديدة فعلا ورغبتها في تخليصهم من هذه الضرائب وندم الفلاحون غاية الندم على تقاريرهم اذ ما كان قد اخذه الملتزم مرة في العمر مثلا ترتب عليهم مالا سنويا .

علاقة المجالس بالمواطنين :

لابد لهذه المجالس ان تخضع لمصالح الحكم كما كان يتصورها كبار موظفيه . وتظهر علاقتها بالسكان من خلال الشكاوى المقدمة اليها ، ومن خلال طريقة معالجتها ، بغض النظر عن سلبية النتيجة او ايجابيتها . اذ ان خروج هذه المجالس بقرارات تؤكد مصلحة الدولة وترجح مصلحة الخزينة على مصالح السكان يعد امرا طبيعيا يستجيب للخط السياسي - الاجتماعي الذي يمثله كبار التجار والاعيان في الحياة الاجتماعية للبلاد ، طالما كانت هذه المجالس تقتصر على كبار التجار والاعيان . بيد ان تقديم الشكاوى بحد ذاته يحمل عدة دلالات هامة .

١ - قيام حكومة محمد علي بوضع يدها على كل ما كانت تراه مناسبا لخدمة مصالحها ، وكل ما كانت تحتاج اليه مما يمتلكه السكان من ملكية خاصة ، او عامة تعود للمجتمع(٥٤) « السيد محمد الحلبي قدم معروض يتضمن ان له دارين بمحلة جب أسد الله بحلب مأخوذتين الى ركوبجية الاى ٢٢ جي » ، وهناك شكاوى تشير الى ان الحكومة وضعت يدها على دار احد المواطنين لاستخدامها لمجلس حلب . كما ذكر نوفل نوفل في مخطوطته مايلي(٥٥) « اخذوا جملة جوامع ومدارس نزلوا بهم عساكر مثل الجامع الذي في الخياطين والمدرسة التي بلصق بيت عبد الله باشا والمدرسة التي قاطع حبس باب البريد والجامع الذي بالدرويشية وجامع المعلق » وفي حلب والمدن الاخرى كما في دمشق كانت تضع يدها على المنشآت الدينية والمدارس لتستخدمها كمخازن للتموين ومراكز للاقامة(٥٦) « وكثيرا ما تتعطل المساجد والمدارس لتجمل انابر لوضع الدخائر والمهمات » .

٢ - امكان تقديم الشكاوى من قبل السكان يشير الى حالة متقدمة من الناحية الفكرية للمواطنين ، تعبر عن ادراكهم للظلم ، وقدرتهم على الاحتجاج عليه باشكال معينة .

٣ - مناقشة الشكوى بحد ذاتها ، تشير الى وصول صوت الشاكي الى بعض مؤسسات الدولة والى امكان النظر فيها . فهناك الكثير من الشكاوى المقدمة الى المجالس المحلية تشير الى شعورهم بالظلم ، كشكوى اصحاب الحرف في ادلب التي تضمنت عدم قدرتهم على دفع ضريبة على اعمالهم الحرفية ، وضريبة اخرى هي ضريبة (٥٧) الشونة التي كانت تفرض على الفلات الزراعية ، لعدم وجود اراضي زراعية لديهم يقومون بزراعتها . كما اشتكى الحرفيون في حلب من ارتفاع (٥٨) سعر الصوف الذي كانت تحتكره الدولة وتبيعه لهم ، وطالبوا بتخفيض سعره بشكل يسمح لهم بالمحافظة على استثمارهم في عملهم ، فرفضت الادارة قبول هذه الشكوى لان قبولها يضر بمصلحة الخزينة . وعندما قلل الحرفيون من شرائهم للصوف من الدولة ، أصدر مجلس مدينة حلب قرارا الزمهم فيه شراء كل الصوف الموجود في مستودعات الحكومة .

طبيعة التنظيم الاداري :

اتبعت ادارة محمد علي باشا في بلاد الشام في سياستها الادارية مبدا الاعتماد على الاقارب والمقربين لاشغال المناصب والوظائف الكبرى في الجهاز الاداري والعسكري . وعلى الرغم من بعض التغيير الذي طرأ على شكل التنظيم الاداري فقد بقي الجهاز الاداري في قاعدة الهرم الاداري دون تغييرات عميقة تذكر ، كما يشير قنصل النمسا في عكا في رسالة بعث بها الى قنصل دولته في الاسكندرية بتاريخ ٢٦ شباط ١٨٣٣ قائلا (٥٩) « فقد ابقت (الحكومة) تقريبا كل الموظفين القدماء في مناصبهم بدون تمييز بين الصالح وغيره . واتجاسر فأقول انها لم تحسن عملا في ذلك لان الجميع يتشكون من استبداد هؤلاء الموظفين وخاصة المدعو ميخائيل العورا الذي يشغل الان لدى الديوان افندي المنصب الذي كان له في عهد عبد الله باشا . لقد تعود ميخائيل المذكور ان يظلم البريء والفقير ليحلب المياه الى طاحونه ، ولم يعد يخاف ان يقص جناحه كما كان يفعل عبد الله باشا من وقت الى آخر ليمنعه من أن يطير اعلى مما هو لازم . ان اخاه جبرائيل هو الكاتب الاول في صيدا وان له اخا آخر كاتب اول في مقاطعة تبين وملحقاتها . وان عديله حبيب نور كاتب يافا ، وان قريبا له يدعي قسطه سيرا فيم يشغل وظيفة كاتب اول في اورشليم القدس فيمكنك ان تتصور سيدي مقدرة هذا الرجل على الشر بمعاونة اقاربه الكثيرين الموظفين في دوائر الحكومة . فلا يستطيع ان يقترب من الديوان انسان قبل ان يقدم رشوة ما للمذكور ، ولكل طلب فئة معلومة . وخلاصة القول ان مظالمه يومية ولا يجسر احد ان يشكوه لئلا يحل به عقاب صارم » .

وفي هذا الاطار نجد ان هناك تجانسا كبيرا يجمع بين قاعدة الهرم الاداري وقيمه من حيث اتفاق القاعدة والقمة حول مبدأ ظلم السكان ، الذي عبر عنه أحد السكان

اللبنانيين بشكل طريف عندما قال (١٠) « سوف لن نستطيع عما قليل ان نتكلم دون ان نجد واحدا يطلب منا دفع ضريبة على الكلمات التي تلفظنا بها » . لان القاعدة الادارية التي تتكون من موظفين يستحقون العقاب لاختلاف في طبيعتها كثيرا عن موظفي قمة الهرم الاداري التي تنظم ظلم الرعية ، جاعلة من جمع المال فضيلة كبرى .

وهكذا فقد ظلت سياسة ابراهيم باشا في هذا المضمار تسير وفق رغبات والده وتوجيهاته العامة سواء من حيث علاقة الادارة بالسكان ، أم من حيث طبيعة هذه الادارة ، وذلك بغية تمكين حكمها في مصر وبلاد الشام من البقاء والاستمرار .



حصل الباحث على شهادة الماجستير برسالته « بلاد الشام في ظل حكم محمد علي باشا ، ١٨٣٢ - ١٨٤٠ » باشراف الدكتور ذوقان قرقوط .

- (١) عبد الكريم رافق، العرب والعثمانيون ، مطابع الف باء - الاديب ، دمشق ، ١٩٧٤ ، ص ٩٥ .
- (٢) ابن اياس ، بدائع الزهور في وقائع الدهور ، ط ثانية ، تحقيق مصطفى محمد القاهرة ، ١٩٦٠ - ١٩٦٣ الجزء الخامس ، ص ١٥٧ ، ٣٦٣ ، ٣٧١ ، ٣٧٦ ، ٤١٧ ، ٤١٩ ، وايضا : عبد الكريم رافق ، ص ٥٩ .
- (٣) Lammens, Le P. Henri, La Syrie, précis histiriques, 2 tomes, Beyrout, Imp. Catholique, 1921, t. 2, p.60 .
- (٤) فيليب حتي ، لبنان في التاريخ منذ اقدم العصور التاريخية الى عصرنا الحاضر ، ترجمة انيس فريجة ، دار الثقافة للطباعة والنشر والتوزيع بيروت ، ١٩٥٩ ، ج ١ ، ص ٤٤٠-٤٤١ .
- (٥) عبد العزيز عوض ، الادارة العثمانية في ولاية سورية ، القاهرة ، ١٩٦٩ ص ٦٢-٦٣ .
- (٦) عبد الكريم رافق ، المرجع السابق ، ص ٩٦ .
- (٧) محمد جميل بيهم ، الحلقة المفقودة ، مطبعة البابي الحلبي ، مصر ، اولى ١٩٥٠ ، ص ٥ . وايضا : عبد العزيز عوض، ص ٩٣ .
- (٨) ميخائيل الدمشقي ، تاريخ حوادث الشام ، تحقيق غسان سبانو ، دمشق ، دار قتيبة ، ١٩٨١ ، ص ٨١ .
- (٩) سليمان ابو عز الدين ، ابراهيم باشا في سورية ، المطبعة العلمية ليوسف صادر ، بيروت ، ١٩٢٩ ، ص ١٢٢-١٢٣ .
- (١٠) مجهول المؤلف ، حروب ابراهيم باشا المصري في سورية والاناضول ، المطبعة السورية ، مصر الجديدة ، تحقيق الخوري بولس قرالي ، ١٩٢٧ ، ج ٢ ، ص ١٤ .
- (١١) Perrier, La Strie sous le gouvernement de Mehemet-Ali, Paris, 1840, p. 52 - 53 .
- (١٢) اسد رستم ، الاصول العربية لتاريخ سورية في عهد محمد علي باشا ، ٥ اجزاء ، بيروت ، ١٩٣٠ - ١٩٣٤ ، ج ٢ ، ص ٥٠ .
- (١٣) مجهول المؤلف ، حروب ابراهيم باشا . المرجع السابق ، ج ٢ ص ٢٣ .
- (١٤) اسد رستم ، الاصول العربية ، ج ٢ ، ص ١١٩ - ١٢٠ .
- (١٥) اسد رستم ، المرجع نفسه، ج ٣ ، ص ٧٢ .
- (١٦) اسد رستم ، المرجع نفسه ، ج ٢ ، ص ١٢١ - ١٢٢ .
- (١٧) سليمان ابو عز الدين ، المرجع السابق ، ص ١٣٢ ، ويعتبر الجنرال سيف (سليمان باشا) مؤسس جيش محمد علي وفق النظم الاوربية ، وقد رافق ابراهيم باشا ، انظر : محمد فؤاد شكري وآخرون ، بناء دولة مصر محمد علي ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، ١٩٤٨ ، ص ٢٤٦ وايضا اسد رستم ، الاصول العربية، ج ٢ ، ص ١٢٣ .
- (١٨) Perrier, op. cit., p. 53.
- وايضا محمد كرد علي ، خطط الشام ، مطبعة الترقى ، دمشق ، ١٩٢٥ ، ج ٣ ص ٧٥ .
- (١٩) اسد رستم ، بشير بين العزيز والسلطان ، جزآن ، الجامعة اللبنانية بيروت ، ١٩٥٦ - ١٩٥٧ ، ج ١ ص ١٠٣ .

- (٢٠) عبد الكريم خرايبة ، سورية في القرن التاسع عشر ، جامعة الدول العربية ، دار الجيل للطباعة ، القاهرة ، ١٩٦١ - ١٩٦٢ ص ٧١-٧٢ . ومن الجدير بالذكر ان كل المصادر تعود بفصل حلب من مديرية الشام الى عام ٨٢٨ هـ ، بينما يشير الدكتور عبد العزيز عوض الى ذلك في الصفحة ١٤ من كتابه « الادارة العثمانية في ولاية سورية » مستندا الى المحفوظات الملكية للدكتور اسد رستم ، الجزء الثاني ، ص ٤٣٤ ، بيد ان ما جاء في هذه الصفحة لا يؤكد مثل هذا الامر حيث وردت العبارة التالية في الصفحة نفسها « الجناب العالي الى اسماعيل بك بوجسوب حضوره الى الاسكندرية ليقوم منها الى حلب امثالاً لامر السرمسكرك » حيث لا تؤكد هذه العبارة فصل حلب عن الشام وتعيين اسماعيل عاصم بك مديراً عليها .
- (٢١) وهو الطبيب الفرنسي الذي ساهم في تأسيس الاصلاحات الطبية في مصر واشرف على تنظيم المدارس في بلاد الشام ، وقد ظل في خدمة ادارة محمد علي فيها حتى عام ١٨٤٠ م . انظر محمد فؤاد شكري ، المرجع السابق ، ص ٢٦٠ - ٣٦١ .
- (٢٢) انظر اسد رستم ، الاصول العربية ج ٢ ، ص ١٥٠ - ١٥١ .
- (٢٣) سليمان ابر عز الدين ، المرجع السابق ، ص ١٣٤ .
- (٢٤) اسد رستم ، الاصول العربية ، ج ١ ص ٥٥ ، ج ٣ ، ص ٤٨ ، ١٣٤ ، ١٣٥ .
- (٢٥) اسد رستم ، المرجع السابق ، ج ٣ ، ص ١٢١ ومن اشتهروا بهذه الوظيفة المعلم حنا مباشر خزينة حلب والخواجة شكري مباشر خزينة عينتاب .
- (٢٦) اسد رستم ، الاصول العربية ، ج ٣ ، ص ٢٤٧ ، وايضا سليمان ابو عز الدين مذكور سابقا ، ص ١٣٥ .
- (٢٧) وقد شغل هذا المنصب خلال احواله اiban حكم محمد علي في بلاد الشام الامير محمود نامي احد اقارب محمد علي انظر اسد رستم ، الاصول العربية ، ج ٣ ، ص ٤٧ ، ٢٥٤ ، ج ٤ ، ص ١٤٥ ، ١٦١ .
- (٢٨) المرجع نفسه ، ج ٢ ، ص ٢٤٩ وايضا سليمان ابو عز الدين ، ص ١٤١ .
- (٢٩) المرجع السابق ، ج ٣ ، ص ٢٠٨ - ٢٠٩ ، ٢١٣ ، ٢٢٢ ، ٢٢٤ .
- (٣٠) المرجع السابق ، ج ٣ ، ص ١٤٦ ، ١٥٢ ، ١٥٣ .
- (٣١) المرجع السابق ، ج ٤ ، ص ٤١-٤٣ .
- (٣٢) Perrier , OP. Cit ., P. 78.
- (٣٣) نادر العطار ، تاريخ سورية في العصور الحديثة ، مطبعة الانشاء دمشق ، ١٩٦٢ ، ج ١ ، ص ١٦٨ .
- (٣٤) اسد رستم ، المحفوظات الملكية ، بيان بوثائق الشام وما يساعد على فهمها ويوضح مقاصد محمد علي الكبير ، اجزاء ، بيروت ١٩٤٠ - ١٩٤٣ ، ج ٤ ، ص ١٠١ .
- (٣٥) د . اسد رستم ، المرجع السابق .
- (٣٦) Perrier , OP. Cit., P. 64.
- (٣٧) المرجع السابق ، ص ٦٥ .
- (٣٨) المرجع السابق ، ص ٦٦ .
- (٣٩) سجلات المحاكم الشرعية ، مديرية الوثائق التاريخية بدمشق ، دفتر رقم ٣٢٥ ، ص ٥ ، ٩ ، ٩٨ ، ١١٥ ، ١٩٩ .

- (٤٠) سليمان غنام ، قراءة جديدة لسياسة احمد علي التوسعية ، في الجزيرة العربية والسودان واليونان وسورية ١٨١١ - ١٨٤٠ ، مطبعة دار تهامة جدة ، ط أولى ، ١٩٨٠ ، ص ١٣-١٤ ، وايضا ذوقان لرفوط، تطور الفكرة العربية في مصر ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ١٩٧٢ ، ص ١٩٠ .
- (٤١) وهم ، من المسلمين : عبد الفتاح حمادة ناظر المجلس ، عمر بيهم ، احمد العريس ، حسن البريد امين رمضان ، احمد جلول ، ومن المسيحيين : جبرائيل الحمصي ، بشارة نصر الله ، الياس منسا ، ناصيف مطر ، يوسف عيروت ، موسى بطرس . انظر : مجهول المؤلف ، حروب ابراهيم باشا في سورية والاناضول ، ص ٣٧ .
- (٤٢) سليمان ابو عز الدين ، ص ٣٦ .
- (٤٣) اسد رستم ، المحفوظات الملكية ، ج ٣ ، ص ٤١٧ - ٤١٨ .
- (٤٤) اسد رستم ، الاصول العربية ، ج ٣ ، ص ١٠٩ ، محمد كرد علي ، فوطه دمشق ، مطبعة الترقى ، دمشق ، ١٩٥٣ ، ص ١٦ وايضا .
- (٤٥) صفوح خير ، فوطه دمشق ، وزارة الثقافة والارشاد القومي ، دمشق ، ١٩٦٦ ، ص ٢٢٨ .
- (٤٦) اسد رستم ، الاصول العربية ، ج ٣ ، ص ٢٠٢ .
- (٤٧) نقلا عن سليمان ابر عز الدين ، ص ١٤٣ .
- (٤٨) ميخائيل مشاقفة ، منتخبات من الجواب على اقتراح الاحباب ، تحقيق اسد رستم وصبحي ابو شقرا ، بيروت ، مطبوعات مديرية الآثار اللبنانية ، ١٩٥٥ ، ص ١٤ .
- (٤٩) المرجع نفسه ، ص ٢٣ ، ٣٣ ، ٣٩ .
- (٥٠) المرجع نفسه ، ص ٧٠ .
- (٥١) طنوس الديان ، اخبار الاعيان في جبل لبنان ، جزءان ، منشورات الجامعة اللبنانية ، بيروت ، ١٩٧٠ ، ص ٣٩٣ .
- (٥٢) عبد الكريم غرايبة ، ص ٤٧ .
- (٥٣) نقلا عن سليمان ابو عز الدين ، ص ١٥٨ - ١٥٩ .
- (٥٤) اسد رستم ، الاصول العربية ، ج ٣ ، ص ١٠٩ ، ١٨٦ .
- (٥٥) نقلا عن سليمان ابو عز الدين ، ص ١٦٢ .
- (٥٦) المرجع نفسه ص ١٦٢ .
- (٥٧) اسد رستم ، الاصول العربية ، ج ٣ ، ص ٣٣٩ .
- (٥٨) المرجع نفسه ، ص ١٦٢ - ١٦٣ .
- (٥٩) الخوري بولس فرالي ، فتوحات ابراهيم باشا المصري في فلسطين ولبنان وسورية مطبعة القديس بولص ، لبنان ، حريصا ، ١٩٣٧ ، ص ٣٦-٣٧ .
- (٦٠) هنري فيز ، بيروت ولبنان منذ قرون ونصف القرن ، ترجمة هارون عبود ، منشورات وزارة التربية اللبنانية ، جزءان ، ط الاولى ، بيروت ، ١٩٥٠ ، ج ٢ ، ص ١٦٢-١٦٣ .

DIRAṢAT TARIKHIYYAH

Revue historique trimestrielle

S'intéresse à L'histoire des Arabes

Publiée par la Commission de Rédaction de l'Histoire des Arabes

Comité de lecture :

CHAKER FAHHAM Directeur

M. KHEIR FARES

NABIH AKEL

AHMAD BADR

MOHAMMAD MOUHAFEL

NAZEM KALLAS Rédacteur en chef

7e année, N° 23 - 24, sept. - dec., 1986

